

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
رئاسة الجمهورية
المجلس الأعلى للغة العربية

اليوم الدراسي حول:

(21 مايو)

اليوم العالمي للتنوع الثقافي من أجل الحوار والتنمية

يوم 17 جوان 2019



الافتتاحتية

كلمة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

البروفيسور صالح بلعيد

من 10:00 سا إلى 14:00 سا

الجلسة العلمية الأولى

برئاسة الأستاذة وردية كلال

المحاضر	عنوان المداخلة	الجامعة
د.لوت زينب	الافتتاح والافتتاح الثقافي الشروط والثوابت في إطار المحلية والدولية والإقليمية.	مستغانم
أ.بن أكنيو نبيلة	ثنائية العربية والأمازيغية في ميزان الطالب الجزائري - طلبة اللغة العربية وآدابها أنموذجا.	البلدية-2
د.ربيعة برباق د.نعيمة شلغوم	تعليمية اللغة الأمازيغية في الجزائر (بين الأسس اللسانية والمطالب الاجتماعية)	تبسة خنشلة
أ.نبيلة بن عائشة	الحق في التنوع الثقافي في ظل التأكيد على الخصوصيات الثقافية.	المدينة
أ.عثمان بيدي	استراتيجية الحوار في ظل التنوع الثقافي.	الجزائر
أ.سارة مسعوداني	دور التعدد اللغوي في تنمية التنوع الثقافي.	ميلة
د.إبراهيم بوخالفة	التعدد الثقافي: الإيجابيات والمحاذير.	تيزازة
د. عابدة قرسييف	التنوع الثقافي بين هاجس الاستيلاء وأمل الاستيعاب.	بسكرة

الجلسة العلمية الثانية

رئاسة الأستاذ حسن بهلول

المحاضر	عنوان المداخلة	الجامعة
د.العربي بو عمران د.نعيمة عيوش.	إشكالية التنوع الثقافي بين الانفتاح على الآخر وحفظ الهوية الوطنية.	خميس - مليانة
د.آيت تفتاتي حفيظة	الضمانات المقررة في قانون المؤلف استمرارية الإبداع الثقافي.	تيزي وزو
د.لبصير نور الدين	المثاقفة وزعزة جيولوجيا المجتمعات بين الانفتاح المطلق والانغلاق المطبق	بومرداس
د.رقية بوسنان	إقرار المشترك من القيم الإنسانية في اتصال المؤسسات الدولية - دراسة تحليلية على عينة من المواقع الإلكترونية.	قسنطينة
د.زياني محمد	سبل النهوض الثقافي في فكر مالك بن نبي.	الجزائر 2
أ.سارة لعقد	التنوع الثقافي اللغوي في المجتمع الجزائري - أسبابه ونتائجه.	ميلة

الورشة العلمية الأولى
برئاسة الأستاذ عبد الله رويّنة
مقررة الورشة: رواج أمال

المحاضر	عنوان المداخلة	الجامعة
أ. يوسف مريح أ. فتحي بوقفطان	واقع وآفاق التعدّد اللغويّ وأثره في التّميّة التّعليميّة والثقافيّة بالجزائر.	تيزي-وزو
أ. عبد الناصر بوعلي	الثّقافة العامّة بين التّعصب الثّقافيّ الفرعيّ والتّنازع على السّلطة.	تلمسان
أ. هاجر حمداي	التنوّع الثّقافيّ التراثيّ في الجزائر تثبيت للهويّة وحفظ للذاكرة من الضّياع. الجنوب الجزائريّ الكبير أنموذجاً.	الطارف
د. زينب بوتشيش د. مجاهدي فايزة	التعدّد اللغويّ والتنوّع الثّقافيّ بين الإثراء والصّدام.	تلمسان
أ. عبد القادر سرير عبد الله	التراث والحدّاث: المفهوم والعلاقة.	البلدية
د. يوسف بن نافلة	شخصيّة المثقّف بين التمسك بالأصالة والانفتاح على التّحضّر.	الشّلف
د. عابدة قرسيّف	التنوّع الثّقافيّ بين هاجس الاستيلاّب وأمل الاستيعاب.	بسكرة
أ. إيمان بلحداد	إشكاليّة التّواصل بين المتعلّمين في ظلّ التنوّع اللغويّ والثّقافيّ.	باتنة 1

د.يوسف باعمارة	التنوع اللغوي وإسهامه في الثراء الثقافي للمجتمع الجزائري-ولاية غرداية أنموذجا.	غرداية
د.أحمد سعدي	القيم الإنسانية في المنهج الإسلامي.	الشلف
أ.لامية قداش د.صلاح الدين يحي	اللسانيات الثقافية والتنوع الثقافي اللغوي وانعكاساته على الحوار والتنمية في اللغة العربية.	بومرداس
د.محمد سيف الإسلام بوفلاقة	قيم التسامح في الثقافة الإسلامية وأهمية اللغات في إثراء التنوع الحضاري-نماذج من التبادل اللغوي والحوار الحضاري في الأندلس.	عنابة
أ.أحمد أمعيز أ.شرع الله عمر	تجليات التنوع اللغوي والثقافي في الجزائر من خلال أدبيات الأستاذة سليمان باعمارة.	غرداية
أ.درفاوي كلثوم	الوعي الثقافي أداة فاعلة نحو تحقيق السكينة المجتمعية والتنمية المستدامة	غليزان

الجلسة الختامية

برئاسة معالي رئيس المجلس الأعلى للغة العربية
اليروفيسور صالح بلعيد

❖ قراءة تقرير الورشة

❖ تسليم الشهادات

الآصال

العنوان: 52، شارع فرانكلين روزفلت، ص.ب. 575

ديدوش مراد، الجزائر

الناسوخ: 021 23 07 07

www.hcla.dz



التوترة



الفسبكة

فهرس

الصفحة	العنوان
15	كلمات في التّنوّع الثّقافيّ صالح بلعيد. رئيس المجلس الأعلى للغة العربية
23	كلمة رئيسة اللجنة العلمية..... أ. وردية كلالز. الافتتاح والانغلاق الثّقافيّ الشروط والثوابت في إطار المحليّة والدوليّة والإقليميّة.....
25	د.لوت زينب مستغاثم ثنائية العربية والأمازيغية في ميزان الطالب الجزائري - طلبة اللغة العربية وآدابها أنموذجاً.....
39	أ.بن أكنيو نبيلة البليدة-2 تعليمية اللغة الأمازيغية في الجزائر (بين الأسس اللسانية والمطالب الإجتماعية).....
51	د.ربيعة برباق / تبسة د.نعيمة شلغوم / خنشلة الحق في التّنوّع الثّقافيّ في ظل التأكيد على الخصوصيات الثقافية.....
67	أ.نبيلة بن عائشة المديّة

- 79 استراتيجيّة الحوار في ظلّ التنوّع الثقافيّ
أ. عثمان بيدي
الجزائر
- 99 دور التعدّد اللغويّ في تنميةّ التنوّع الثقافيّ
أ. سارة مسعوداني
ميلة
- 121 التّعّدّد الثقافيّ: الإيجابيات والمخاطر
د. إبراهيم بوخالفة
تيزازة
إشكاليّة التنوّع الثقافيّ بين الانفتاح على الآخر وحفظ الهوية
الوطنية.....
- 147
د. العربي بوعمران
د. نعيمة عيوش.
خميس - مليانة
الضمانات المقرّرة في قانون المؤلّف استمراريّة الإبداع
الثقافيّ.....
- 159
د. آيت تقاتي حفيظة
تيزي-وزو
المناقفة وزعزعة جيولوجيا المجتمعات بين الانفتاح المطلق والانغلاق
المطبق.....
- 181
د. لبصير نور الدين
بومرداس
إقرار المشترك من القيم الإنسانية في اتّصال المؤسسات الدوليّة - دراسة
تحليليّة على عينة من المواقع الإلكترونية.....
- 227
د. رقية بوسنان
قسنطينة

- 253 سبل النهوض الثقافي في فكر مالك بن نبي.
د.زياتي محمد
الجزائر 2
التنوع الثقافي اللغوي في المجتمع الجزائري - أسبابه
273 ونتائج.
أ.سارة لعقد
ميلة
واقع وآفاق التعدد اللغوي وأثره في التنمية التعليمية والثقافية
289 بالجزائر.
أ.يوسف مريح
أ.فتحي بوقفطان
تيزي وزو
303 الثقافة العامة بين التعصب الثقافي الفرعي والتنازع على السلطة.....
أ.عبد الناصر بوعلي
تلمسان
التنوع الثقافي التراثي في الجزائر تثبيت للهوية وحفظ للذاكرة من الضياع.
317 الجنوب الجزائري الكبير أنموذجا.....
أ.هاجر حمداوي
الطارف
333 التعدد اللغوي والتنوع الثقافي بين الإثراء والصدام.....
د.زينب بوتشيش
د.مجاهدي فايزة
تلمسان
347 التراث والحادثة: المفهوم والعلاقة.....
أ.عبدالقادر سرير عبد الله
البليدة

- 359 شخصية المثقف بين التمسك بالأصالة والانفتاح على التحضر.....
د.يوسف بن نافلة
الشلف
- 391 التنوع الثقافي بين هاجس الاستيلاء وأمل الاستيعاب.....
د. عابدة قرسييف
بسكرة
- 401 إشكالية التواصل بين المتعلمين في ظل التنوع اللغوي والثقافي.....
أ.إيمان بلحداد
باتنة 1
- 421 التنوع اللغوي وإسهامه في الثراء الثقافي للمجتمع الجزائري-ولاية غرداية
أ.نموذج.....
د.يوسف باعمارة
غرداية
- 447 القيم الإنسانية في المنهج الإسلامي.....
د.أحمد سعدي
الشلف
- 463 اللسانيات الثقافية والتنوع الثقافي اللغوي وانعكاساته على الحوار والتنمية
في اللغة العربية.....
أ.لامية قداش
د.صلاح الدين يحي
بومرداس
- 485 قيم التسامح في الثقافة الإسلامية وأهمية اللغات في إثراء التنوع
الحضاري-نماذج من التبادل اللغوي والحوار الحضاري في الأندلس.....
د.محمد سيف الإسلام بوفلاقة
عنابة

- 517 تجليات التنوع اللغوي والثقافي في الجزائر من خلال أدبيات الأستاذ
 سليمان باعمارة.....
 أ.احمد أمعيز
 أ.شرع الله عمر
 غرداية
- 535 الوعي الثقافي أداة فاعلة نحو تحقيق السكينة المجتمعية والتنمية
 المستدامة.....
 أ.درفاوي كلتوم
 غليزان
- 547 التنوع اللّهجي في الجزائر والاحتلال الفرنسي (روني باسيه ووليام مارسية
 أنمونجا).....
 د. حاج بنيرد
 جامعة مولود معمري، تيزي وزو.
- 571 تقرير الورشة العلمية

كلمات في التنوع الثقافي*

د. صالح بلعيد.

رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

— ديباجة: إنَّ المجلس الأعلى للغة العربية في إطار نشاطه العلمي وبخصوص قانونه الذي يقرّ بالعمل على ازدهار اللغة العربية، فإنَّه يُواكب الأحداث العالمية، وبخاصة ذات العلاقة بالهيآت الدوليّة. وفي هذا الإطار، فإنَّه يحتفي باليوم العالمي للتنوع الثقافي لأول مرة وهذا منذ إقراره من الأمم المتحدة سنة 2012م، وربطته بتاريخ 21 مايو من كل سنة. وفي ديباجة الأسباب التي ذكرتها مطوية الجمعية العمومية لليونسكو، تقول: يأتي سنّ هذا اليوم لتأكيد النسق الكوني للأشياء؛ أحياناً متكاملة، وأحياناً متضادة، وكلّ عنصر مُسير لما خلق له؛ رُغم تعقيدات تركيبية الطبيعة الماديّة، واختلاف النَّاس في ألسنتهم وفي قيمهم وهذا التّنوُّع هو الذي أوجد أوجه التّكامل، وكان سبباً في الانتقال من السّكون إلى الحركة، كما أنّ سرّ فكرة الإنسان هو تحقيق التّوازن بين المتخالفين؛ وصولاً إلى تدبير التّنوُّع في كلّ الأنساق. وإنّ دستور اليونسكو لسنة 1954م حمل مادّة تُفيد أنّ التّنوُّع في ثقافات العالم، والتّنوُّع داخل الثّقافة الواحدة حقيقة لا غبار عليها، وهو تنوّع مثمر وخلاق. وكان لا بدّ من: 1— حماية وإنعاش الثّقافات الوطنيّة — 2— تفعيل التّنوُّع الثّقافيّ — 3— تمكين الأجيال للعيش معاً. 4— الاستفادة من كلّ الثّقافات. وقد توسّعت هذه المادّة في ما بعد إلى الأخلاقيات العالميّة الجديدة والالتزام بالتعددية اللغويّة، والإقرار بالخصوصيات وبقضايا الأقليات وفي ذات الوقت الاتّفاق الإيجابي في قضايا الشّأن العامّ العالميّ مثل: الاهتمام بالطفولة والبيئة واللغات الأم والصّحة والتّعليم... ثمّ تواصل الأمر إلى الإقرار ببعض

الحقوق من مثل الحق في الاختلاف، وقبول الرأي المضاد، والسعي لتأمين التوازن بين المجتمعات داخل المجتمع الواحد.

— لماذا يحتفي المجلس الأعلى للغة العربية بهذا اليوم العالمي؟ يأتي احتفاء المجلس بهذا اليوم في إطار الشراكات التي أقامها مع اليونسكو، على غرار اليوم العالمي للغة العربية+ اليوم العالمي للغة الأم+ العيش معاً بسلام، ومختلف أشكال التعاون العلمي مع هذه المنظمة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإن المجلس في قانونه يناقش كل المسائل ذات العلاقة بالتعددية اللغوية، والتلاحق الثقافي، والترجمة والاقتراض اللغوي، والتنوع الثقافي والانسجام الجمعي، وكل ما يدخل في المادة الثالثة من الدستور (يعمل المجلس على ازدهار اللغة العربية). وبذا يقع الاحتفاء بالمناسبة تجسيدا للتنوع الذي تعرفه بلادنا من خلال التعدد اللغوي (عربية+ أمازيغية) تعدد في الطبيعة الجغرافية/ تعدد في أشكال التواصل/ تعدد في السلوك العام/ تعدد في نمط العيش/ تعدد في الشعر الشعبي/ تعدد في الطبوع/ تعدد في إحياء المناسبات... وهي من الأشياء العاملة على تعدد مضيف؛ يجعل الهوية اللغوية والحضارية والتاريخية تترابط أكثر فأكثر، وتتراص المواطن في بعدها "تختلف لا تخالف/ الهدف واحد، والطرائق مختلفة". ولذلك في كل مرة نحاول البحث عن الحلول الجامعة بدل تسلق الأسوار، أو كسر أبواب النصوص، وهذا بلسان قبول الآخر من مبدأ: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب، ولذلك نعمل على تقليب اللسان لتترق حواشيه على ملكة النقد التي تثمر الامتداد في قبول الاستماع للرأي المضاد، وتحطيم قلاقل المتقيقين، ودعم أسئلة الخطابات التثويرية في التكوين والممارسة ولو بمقولة "بئس المبدأ ولا حبذا المنتهى، بئس الاختيار ولا حبذا القرار". ومن هنا نعمل على تحصيل مغالبة الإيجابيات للسلبات، بمبدأ التربية لما أنت فهي مختار. وأملنا أن تكون محصلة هذا اللقاء يخرج بنتيجة إيجابية نحو التحول المستقبلي الجامع للتعدد.

يعمل المجلس الأعلى للغة العربيّة على تجسيد المواطنة اللغويّة بما أوتي من أفكار، واستكناه تجارب الباحثين الذين يدعوهم لتقديم أفكار، وعرض تجارب ناجحة، واقتراح بدائل نوعيّة في إطار النسق الجمعيّ الذي لا يُلغي الخصوصيات بل يعمل على تقريب الخلافات، وإنّنا بحاجة إلى مرجعيّة ناجحة، وإلى كفاءة عالية "كفاية البحث العلميّ والتّربويّ، ثمّ الكفايات المهنيّة: كفاية التّخطيط/ كفاية تدبير التّعلّم/ كفاية تقويم التّعلّم. لا بدّ من المعاملة الطيّبة والإقبال على المتعلّمين ومحبتهم، والإكبار بهم، والسّهر على مصلحتهم وتفهم مشاكلهم ومسامحتهم، ومساعدتهم، والتّمتّع بسحر الشّخصيّة وجاذبيّتها، وأنقتها، وتقديم الدّروس بشكل جذّاب ورائق ومؤثّر، فإحداث الأثر الإيجابيّ في المتعلّم لا يصل إليه إلّا كبار المدرّسين الذين يتعاملون مع شخصيّة المتعلّم في جوهرها وصفائها، ويحترمونها في أرقى معاني الإنسانيّة التي تحملها وعلى الأفق الممكن للنّمودج الذي نكوّنه ذهنيّاً عن المتعلّم الذي نريد، وعن الإنسان الكونيّ المستقبليّ الذي نتعاون على صناعته يومياً كلّ من جهته¹.

— سؤال النّهضة الغربيّة: هو سؤال أريد به استكناه تجارب ناجحة في التّنوّع الثقافيّ، ويقع التّركيز على أوروبا؛ ليس كونها لها ثقافة مانعة أو مُحصّنة، أو لها خصوصيات لا تتوفّر عندما، هذا موجود بالقوّة، ولكن أريد طرح السّؤال التّالي: كيف نهضت أوروبا؟ وكان بدايتها من أواسط القرن X VI الميلاديّ، اهتمّت أولاً بالعلوم الإنسانيّة، وركّزت على موضوعات طرح قضايا: الحريّة+ التّعصّب+ التّسامح+ الاهتمام بالتّراث+ وخوض ميدان ثورة البخار، وهذا باعتماد مفتاح التّطور في:

- إحياء التّراث الكلاسيكيّ، وكان موطنه في إيطاليا، فعملت على إحياء تراث الرومان؛
- موقع إيطاليا الذي جعلها على اتّصال بحضارات البحر الأبيض المتوسّط؛

- هجرة العلماء اليونان إليها من كل أوروبا؛
 - رعاية أمراء إيطاليا للآداب والفنون؛
 - الحركة الإنسانية والنهضة المعاصرة بصورة عقلانية؛
 - نظرة إنسان العصور الوسطى إلى تخلفه، وإلى ضرورة التغيير
 - ضرورة إحياء العلوم الإنسانية، فهي باب العلوم؛
 - إخراج الكنيسة من حدود الممانعات في الاجتهاد؛
- ولماذا كانت البداية بالعلوم الإنسانية؟ لأنه إذا قوّمت الجانب الروحي/ الإنساني يصبح الإنسان مبدعاً لا آلة وهذا لا يكون إلاً بالجانب الثقافي الذي يعرف كيفية استغلال مواطن الوسط بين الروح والمادة. وإنّ النهضة الأوربية تجربة إنسانية جيّدة وفدّة وخصبة، وكان محورها الإنسان في تقويم سلوكه قبل منتوجه الآلي وسيطرته على الآلة لا سيطرة الآلة عليه. وبذلك تحقّق التراث اليوناني والروماني ودرس دراسات وافية أخضعتة للنقد، واستلهم قيم وأفكار جديدة أسهمت في إرساء قواعد الحضارة الأوربية. وكان قيام النهضة على اللغات الأوربية، وبخاصّة الإيطالية في المنطلق، ومع ذلك عملت على نقلة حضارية شهدت ثورة البخار التي لها نتائج نقل العالم الأوربي من التّخلف إلى التّحضر. وإذا تحدثنا عن ثقافتنا العربية فإنّ عمادها اللغة العربية، فهل العربية الآن عاجزة أو تعجز عن قيادة حراك نهضويّ يدخلنا في عالم النهوض المنشود؟ ليس ذلك مستحيلاً ولا بعيداً.
- إنّ العرب استلهموا حضارتهم في جانبها الإنسانيّ بداية بالفلسفة والمنطق والتّصوّف والأدب، ثمّ الفلك والطبّ والرياضيات والجغرافيّة، وكان العقل مبدعاً مُفتحاً على معارف مُتنوّعة، وكان ذلك من العظمة الاستثنائية التي ارتكزت على التّعبيّة النفسيّة بما صاحبها من فكر رياضيّ عن طريق حركة الترجمة ووصلت مع نهاية القرن العاشر إلى نهايتها بعد أن استنفذت مواردها، وبدأت الأعمال الأصليّة تظهر وتزداد. وكان توسّع الفكر العلميّ مُتمشياً مع انتشار الإسلام، واللغة

العربية بصفتها لغة تواصل جديدة بامتداد كبير وصلت إلى الصين، وأزاحت لغات كانت قوية مثل السريانية واليونانية. وذات الشيء حصل مع بداية النهضة الحديثة كانت بالعلوم الإنسانية، ومنطلقها الطهطاوي+ الأفغاني+ محمد عبده... وهذا الرّعل قطع شوطاً كبيراً في عملية التحديث في البنيات الفكرية العربية العتيقة بفكر مستنير؛ عبر خلق توافق بين متطلبات الحياة المدنية المعاصرة، وبين الدين الإسلامي وقيمه السّمة، وكانوا يغرسون الثقافة العربية الوسطية من خلال الشعر العربي واللغة العربية؛ كون العرب كتلة قومية اغتنت بالتأثير اللغوي دون الذّوبان في فكر فارس أو تركمان أو هنود... فكيف الحال في وضعنا الذي نجد فيه العربية الحاملة لثقافة أصيلة متفتحة لا تكون مربية للتنوع الثقافي، هذه اللغة التي قال فيها الفرنسي (لويس ماسينيون/ Louis Massignon) "اللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، وهي من أنقى اللغات؛ فقد تفرّدت في طرق التعبير العلمي والفني" ويقول الإسباني (كاميليو جوزي سيلا/ Camilio Gozy Silla) "إن لغات العالم تتجه نحو التّاقص، وأنه لن يبقى إلا أربع لغات قادرة على الحضور العالمي وهي: الإنكليزية + الإسبانية + العربية + الصينية.

— **المواطنة والتنوع الثقافي:** إن التنوع الثقافي أداة معيارية، وإرث ثقافي وإلزام أخلاقي باحترام الإنسان كلّ في لغته وصناعاته وخصوصياته وفنونه، ومن هنا يستلزم تأمين حماية ثقافية تحول دون انقراض ثقافة أو لغة ما "فلا تكون المواطنة ناضجة في فعلها المجتمعي والسياسي إذا لم تكن على دراية بكلّ أوجه الاختلافات الثقافية داخل النسيج الاجتماعي"². المواطنة هي الثقافة في مفهومها الجامع للسمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميّز مجتمعاً عن غيره وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة والحقوق والواجبات والأعراف والقيم والتقاليد والمعتقدات. كما أنّ المواطنة ترتبط بالثقافة في إطار التفاعل مع البيئة والثقافة الأصلية؛ حتى يعيش الإنسان ثقافته ويعمل على تطويرها. ولهذا كان علينا

التخطيط لثقافتنا الوطنية بما يعمل على تعدد الاختصاص القائم على نظرية ثقافية معرفية، ولا بد من التعامل مع الواقع في تعدده وتعدد أطرافه. وعليه فنحن مدعوون لتطوير البحث في مجال الثقافة عبر مرجعيات مفاهيمية وطنية مستمدة من واقعنا الحضاري والثقافي والديني، ووضع إطار للمؤسسات الفاعلة في هذا المجال؛ بسن سياسة ثقافية تتسم بالجدة وبالتطابق مع الحاضر وآمال المستقبل، وأن تُصاغ سياسة ثقافية وطنية بصيغة استراتيجية إجرائية تحلّ فيها الأفكار منزلة الصدارة.

— **التنوع الثقافي وجاذبية الواقع:** إن التنوع الثقافي محلي، وهو الذي يكسب مساحة المرونة والقابلية للتفتح رفضاً للانعزال، والتنوع الثقافي مربوط بالخصوصيات وبالعالمية، وكان لا بد من وضع حدٍّ للهيمنة تحت أية ذريعة، وعدم المساس بالخصوصيات أو ما سمّته الفرنكفونية (الاستثناءات الثقافية) ويقول (مولود قاسم) "لا نغلق النوافذ، ولا نوصد الأبواب، ولكن لا نفلج السقوف" كما قال (غاندي) "لا أريد أن تحيط بي الجدران والأسوار من كل جانب، لا أريد لنوافذي أن تُسدّ وتُوصد، إنّما أريد ثقافة كلّ البقاع أن تهبّ بنسماتها حول داري بأكبر درجة ممكنة، لكنني أرفض رياح الثقافة أن تعصف بقدمي بحال من الأحوال". وكان لا بد من الاستثمار في التنوع الثقافي العالمي كما ينصّ عليها التقرير العالمي الذي صدر عن اليونسكو عام 2009، ورأيت أهمية ذلك، فأنقله للقارئ كما أورده (القبّاج):

- التنوع الثقافي انشغال رئيسي في مطلع القرن الجديد؛
- التنوع الثقافي ليس مجرد ميزة إيجابية ينبغي الحفاظ عليها، بل هو مورد يجب تعزيزه؛
- ثمة حاجة إلى اتباع نهج جديد إزاء التنوع الثقافي؛ وهو نهج يراعي طبيعة الدينامية وتحديات الهوية مما يرتبط بدوام التغير الثقافي؛

- ثمة اتجاه عام نحو ظهور هويات دينامية متعددة الأوجه في سياق العولمة؛
- تشير الثقافة إلى التنوع المبدع الذي يتجسد في (ثقافات محددة) كما تشير إلى القوة الدافعة المبدعة التي تكمن في صميم التنوع في (الثقافات)؛
- يقتضي الحوار بين الثقافات تمكين جميع المشاركين فيه من خلال بناء القدرات، ومن خلال مشروعات تُعزّز التفاعل دن إضاعة الهوية الشخصية أو الجماعية؛
- لا تعتبر اللغات مجرد أداة للاتصال، فهي تمثل النسيج الحقيقي لأشكال التعبير الثقافي، وهي الحامل للهوية والقيم ورؤى العالم؛
- ثمة حاجة إلى حفظ التنوع اللغوي العالمي كواحد من مستلزمات التنوع الثقافي والترويج للتعدد اللغوي والترجمة بغية تعزيز الحوار بين الثقافات؛
- في المجتمعات متعددة الثقافات ومتزايدة التعقيد يجب أن يمكن التعليم من اكتساب كفاءات التعامل بين الثقافات؛
- إن عدم مراعاة أشكال التعليم غير السائدة من شأنه أن يؤدي إلى تهميش الفئات السكانية التي ينبغي للتعليم أن يعمل على تمكينها؛
- إن من شأن الارتفاع في توريد المضمون الإعلامي أن يؤدي إلى (تنوع زائف) يحجب واقع أن بعض الناس غير مهتمين بالتواصل إلا مع من يشاطروهم نفس المرجعية الثقافية؛
- يمكن أن نعتبر الإبداع الفني -وجميع أشكال الابتكار التي تغطي مختلف جوانب النشاط البشري- مصادر أولية للتنوع الثقافي؛
- تفيد البحوث التي أجريت مؤخراً بوجود صلة إيجابية بين التنوع الثقافي والأداء المالي والاقتصادي في الشركات متعددة الجنسيات؛
- إن نهج التنمية الذي يراعي الفروق هو مفتاح التصدي للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والبيئية المترابطة التي تواجه كوكبنا؛

- إنَّ التَّنَوُّعَ الثَّقَافِيَّ والحوار بين الثَّقَافَات عاملان أساسيان من عوامل توافق الآراء بشأن الأساس العالمي لحقوق الإنسان والحكمة الديمقراطية".

— الخاتمة: نروم من هذا اللقاء أن يُسفر على جملة مقترحات بخصوص موضوعه المهمّ (التعدّد الثقافيّ) في إطار تقديم ما يعمل على التّمازج دون التّصادم، والانفتاح دون الانغلاق، ويكون الاهتمام بلغاتنا الوطنيّة تفنيد لمن يزعم بموت اللغات الوطنيّة، ومعناها موت الثّقافة الوطنيّة، ومعناها كذلك انقراض الذّاكرة الحضاريّة. وكان علينا السّعي لوضع تآلف وطنيّ من أجل التَّنَوُّع الثَّقَافِيّ وهي صورة المواطنة التي تبقى قائمة وثابتة رغم الصّعوبات في انسجام الأفكار.

الاحالات:

♥ — أُلقيت الكلمة في اليوم الدّراسي حول اليوم العالميّ للتَّنَوُّع الثَّقَافِيّ الذي سنّه الأمم المتّحدة. المكتبة الوطنيّة: 17 جوان 2017م.

¹ — محمد باز، صحائف التّكوين، مدوّنة شاملة لكلّ ما يحتاجه مدرس اللغة العربيّة وآدابها تمثلاً وعملاً، ط1. لبنان: 2015، منشورات ضفاف+ كلمة+ دار الأمان+ الاختلاف، ص 34-35.

² — محمد مصطفى القبّاج، شذرات (نصوص ومداخلات حرّرت تحت الطّلب) ط1. الرباط: 2015، دار أبي رُقراق للطباعة والنّشر، ص 63.

كلمة رئيسة اللجنة العلمية

أ. وردية غلاز.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛

بداية أرحب بالحضور الكريم ضيوفاً، ومشاركين، ومحاضرين مع حفظ الألقاب والمقامات وكلّم مقامات، وأشكر كل من أسهم من قريب، أو من بعيد في إعداد وانهقاد هذا اليوم الدراسي وإنجاز مختلف مواده.

نشكر للسيد معالي رئيس المجلس الأعلى للغة العربية البروفيسور (صالح بلعيد) هذه الجهود المبذولة لأقول: لا توجد كلمات توفي المجهود المتميز الذي تبذلونه يا سيدي الرئيس من أجل خدمة لغة هذه الأمة، وهي اللغة العربية، ونقدّر لكم كل التقدير لما قدّمتموه في ظرف قياسي؛

كما أتوجّه بالشكر إلى إدارات، وكفاءات المجلس الأعلى للغة العربية، وأشكر السادة الأساتذة الباحثين الذين تفاعلوا مع فكرة وموضوع ملتقانا هذا؛

إخواني الكرام نجتمع بكم في هذه الصبيحة الطيبة لافتتاح أشغال اليوم الدراسي حول: (21 مايو) اليوم العالمي للتنوع الثقافي من أجل الحوار والتنمية، والذي سنّته وأقرّته اليونسكو يوم 21 مايو من كل سنة، ومن خلاله ارتأى المجلس الأعلى للغة العربية أن يُشارك العالم في مثل هذا اليوم، يوم يحمل في طياته معاني: السلم، الانفتاح، التبادل التّساطري... الخ، تنوع ثقافيّ قوّة محرّكة للتنمية ليس على مستوى النمو الاقتصادي فحسب؛ بل أيضا كوسيلة لعيش حياة فكرية عاطفية، معنوية، وروحية أكثر اكتمالا، ويثري التنوع الثقافي حياتنا ويكسوها حلّة زاهية مختلفة ألوانها، ويضفي عليها النشاط والحيوية، وهو موضوع يكتسب أهميته

من كونه يوما يُحيى في البشرية أهمية هذا التنوع الذي جعله الله سرا من أسرار خلقه فهذا كان عن أهمية هذا اليوم الدراسي.

لا يخفى عنكم إخواني أنه وصلتنا العديد من المداخلات القيمة، وقد اخترنا منها ما يتماشى ومحاور الملتقى، ويخدم إشكاليته، واسمحوا لي أيها الحضور الكريم أن أشكر من هذا المنبر جميع القائمين على إنجاح فعاليات هذه التظاهرة العلمية كل باسمه، وكل بوظيفته دون أن أنسى رجال الخفاء، إلى هنا أجدّ ترحيبي بكم فحللتهم أهلا، ونزلتم سهلا، وأتمنى لكم متابعة طيبة معنا على أملّي أن تستفيدوا، فكلنا آذان صاغية؛ لآرائكم واقتراحاتكم، وكل ما من شأنه أن يخدم اللغة العربية، شكرا لكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الانفتاح والانغلاق الثقافي الشروط والثوابت في إطار المحلية والدولية والإقليمية.

د. لوت زينب

أ. المدرسة العليا للأساتذة مستغانم.

المداخلة:

تمنح الثقافة الانفتاح الفكري، الوسائط المعرفية في اكتناز الذات وظاهرة الاختلاف هي أهم ظواهر التعايش واكتشاف الآخر، وتعمل السلطة المعرفية في تداخل حتمي للتكنولوجيا التي تسيروها القوى الغربية حيث تصبح المحلية بين مفهوم الإقليم والمواطنة فهل الولوج للعالم المعلوماتي والعلمانية المتطورة يكسر هاجس الانتماء؟ كيف يمكن التعايش المعاصر في الفكر الذي يستحوذ على حربة التقدم؟ ماذا يمكن ان نحقق في انفتاح الشرق على الغرب؟ وهل الانغلاق هو محليّة الإقليم الجغرافي والامتداد التاريخي والديني والأسطوري والحضاري؟ كيف يمكن الانفتاح دون سلخ الحرية؟ ماهي روافد الانفتاح؟ من المعروف أن تطور العلوم منذ العصر العباسي وتلاقحها مع باقي الشعوب (الهند-اليونان -الفرس) لم تكن لتتفاعل دون هذا الامتزاج الفاعل في جميع الميادين، فهل يعد الآخر خطرا على المواطنة وكيف يمكن فهم الانفتاح دون المساس بالهويات؟ أسئلة من خلالها ما يلي:

1. أسئلة الهوية واختلاف الثقافات: تؤكد الهوية مرجعيات الانتماء وشروط الثقافة التي يجب توافدها للعقل الكائن في وسط محيطه المرتبط بالتاريخ الزمني والمكاني والضمني، الإنسان ينتسب لسياج المجتمع ومقصدته الاجتماعية تتحكم في وضعياته الذهنية، تهيمن الأفكار السائدة في وضعية تسير النضج الفكري وتقبل الآخر «ولذلك يجب أن نحدد الثقافة في ضوء تصورنا لوضعها التاريخي

أي بوصفها حركة مستمرة (صيرورة) فإن في التاريخ منعطفات هائلة خطيرة يتحتم فيها هذا التعريف، و النهضة في العالم الإسلامي إحدى تلك المنعطفات والثقافة من الأمور الأساسية التي تتطلب في إلحاح تعريفاً بين تعريفين:
الأول: يحددها في ضوء حالتنا الراهنة.

الثاني: يحددها في ضوء مصيرنا¹ ما يضعنا في صراع مقيت وهو الراهن المترهل بين حقيقة وجودنا ومنطق تمازج المصير بالواقع الذي يربطنا بالآخر على أرضية التعايش كيف يمكننا تمثيل الضفة الأخرى التي تختلف عن مرجعيات الثقافة التي نحملها؟ ماهي أساليب تحديد الجوانب الاستراتيجية لهذا التقاطع المصيري؟ هل يجب أن نختلف في الماهيات كما الغايات؟ لماذا لا نتوافق مع الآخر ثقافياً دون المساس بالهوية؟ ما يجسد نظرة مالك بن نبي لتثمين الجانب الأهم في وجودنا وهو معرفة الذات لتأسيس الآخر حسب متطلبات التطور، وبذلك النهوض بالعلوم والمعارف خارج نطاق التوقع ولعل العصر العباسي يؤكد الجرجاني أقصى بمعرفته من خلال الثقافات التي عاصرتة وسابقه حيث أثرت جوانب مجملها أن الإعراب هو معرفة أحوال الكلمات من حيث التركيب والمعنى والموضع والبناء والإعراب وللجرجاني مقولة مشهورة "الإعراب حالة معقولة لا محسوسة" وهي مقولة نجد أساسها في الفكر اليوناني حيث «يقول أبو النحو الأوروبي "ديونسيوس ثراكس" -ينبغي أن يكون معلوماً أن الحالات الإعرابية الخمس هي أمر متعلق بالمعنى وليس باللفظ"² ويكتمل المعرب باكتمال المعنى والعمل المدرج له في الجملة، وارتبطت نظريات "حازم القرطاجني" (حازم بن محمد بن الحازم القرطاجني ولد 608هـ / 1211م وتوفي 684هـ / 1386م) الوصف الفني لحالة التلقي والكتابة ودرجة التواصل بين التماثل التخيلي والقوى المنظمة للخيال (حافظة-مائزة - صانعة) في عملية إدراكية تثير الحس وتعمل ذهن مثاقفة بالغة الذروة بالحاكاة في الفكر "الأرسطي" وبلغ منزلة كبيرة بين أهل

عصره بعد سقوط "قرطاجنة" ومرسيه على أيدي القشتاليين 640هـ فارتحل العلماء والأدباء إلى بلاد المغرب، والتزم "القرطاجني" بقصر الخليفة الموحي "أبي محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد" أين زخر بالثقافة بالأدب والشعر، ثم انتقل إلى تونس حيث التحق بسلطانها "أبي زكريا الحفصي" الذي كان مولعا بالعلم ومقدرا للعلماء وقد عينه كاتباً في ديوانه، فافتتح على علومهم وفقهاءهم ومفكرهم كالأندلسيين من أمثال ابن الأبار، وابن سيد الناس، وابن عصفور النحوي المعروف، وابن الرومية عالم النبات، وابن سعيد الأندلسي، فالثقافة لا تعنى بالهوية بل تتشكل في ضوء بناء قدرة الانفتاح على المعرفة كماهية لخدمة العلم وامتداد الرؤية، وفهم المدرجات الحضارة هي ثقافة تحضر تهتم باكتناز الذات لهويتها دون تسير هذه الهوية للإسهام في بناء المعرفة التي تتصل بالوعي الأيديولوجي، والاتساع السوسيولوجي، وفهم منطق الآخر بمركزية فكرية تتصل بخامة الكونية، العامل التواصلي بمنطق الوجود و التجاور الثقافي تحت الاختلاف المنتج لا المنفصل والمتأزم في قعور الجمود الذي تتبني عنه سلبية التفكير تحت ظلال الآخر والتداعي بحدود العلم ومسافة المعرفة وفواصل الهويات بتفاصيلها لكنها في الحقيقة تقلص نبض التطور وتحد من بناء حضارة ترى المستقبل بهويتها وانفتاح علومها ونظرياتها وسرعة تصدرها الريادة

كما تكشف دراسة مهمة جدا عن الظاهرة الثقافية في الحضارة الشرقية عند المفكر الإيراني (داريوش شايعان) دراسة تكشف علاقة الحضارة الشرقية بالحداثة، ذاكرة تُشيعُ الفكر خلف منمنمات العقد الاجتماعي وانكماشه بالماضي المنكسر، الذهن الذي يستحي من التفكير ورؤية الآخر دون انخراط للهوية الموجودة في خلايا الواقعية في جوهرها المحشو بالنماذج دون اللجوء لحاجة الانفتاح وكسر تلك الأصنام التي تسد منافذ الحرية المعرفية وتقيد مساحة الثقافة فالروح حاملة للانتماء الديني والعائدي، لكن استمرارية التواجد هو اتساع البصيرة

المتبصرة داخل الكون الذي لا يتطور دون التفاعل والتشكل في محيط العلوم بعيدا عن التحجر والتوقع.

لزوجة المعنى خلف فلسفة الوجود أو التواجد أمام تسيج الذاكرة للفكر ونسيج الأفكار للمعرفة وتحريك منزلة التمجيد بتفعيل استمرارية العقل وتطوير الخيال المنفعل المتماهي في كفيات التوافق بين الذهن المتحرر بذاته، ويهيمن كتاب (الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية) المؤلف (داريوش شايعان) على واقع خطير تحت رقابة التجليات الماضوية للجماعة وتحصينها جمود العقل، وخمول إدراك التفكير منطق الحس والوعي الثقافي بضرورة التجاوز والتخطي، والانعقاد في هالة الوجود لإثارة الموجودات، وتحريكها في غير مجالها، لكن دون المساس بجوهرها، هي مجموعة محاضرات أُلقيت في جامعة هارفارد آذار 1976 التحدي المعاصر والهوية الثقافية، ويدعوها (فرانسيس بايكون) أصنام الذهن المصونة في الذاكرة القومية، ويعدها رسائل مضمرة، وتلك الأصنام هي تلك الذاكرة الأزلية.

في اليابان يرى مؤسس اليوغا (ياتانجالي): "سبب الألم هو الغفلة والجهل" اليوغا: "كشف الحجاب تقضي على الغفلة، وثمرتها الاشراق، وخاتمتها الفلاح. الفلسفة في الهند إما معرفة بالبراهين أو بالذات" تتناسق هذه الفلسفة مع الدين وتراعي مسألة الروحانيات التي ينسجم معها العقل، الخيال له البعد الجمالي لقراءة الوجود.

كما يلامس ديكارت نمطا مهما من التفكير الجوهري " كيف يمكن إقامة علاقة نفسية ومعرفية، أما (كانط Emmanuel Kant - م) يفسر معطى الكون وتفجير المكونات عبر نواتها الخفية يتحدث (كانط) في مؤلفه (أنطولوجيا الوجود) «الشيء في ذاته هو النومينا أي حقائق الأشياء وهو مصطلح يطلقه كانط على كل أصل أو ماهية حقيقية والنومينا أو الشيء في ذاته ليس موضوعا (...) بل إنه يتمتع بوجود من نوع فريد» وإن اقتربنا إلى التشكيل المعرفي لنظرية كانط الوجود نرتكز على

فكرة التكوين أو التركيب في الصورة التي تنتمي إلى عالم الموجودات فنيا، وتقاس جوانب تركيبها من خصائص الشيء، والشيء ما هو إلا ماهية مركبة ترتب عناصرها حسب التحولات التي تكتنزها الصورة في ذهن المبدع، والمتلقي تذرع الجمال بحس وتأثير في كتابه الفلسفي (نقد ملكة الحكم) «وإذا كنا ننتهم من يبقى بارد العواطف تجاه ما نجده جميلا بأنه قليل الذوق فإننا نقول كذلك عمن يبقى غير متأثر أمام ما نحكم عليه بكونه رائعا بأنه ليس له شعور أصلا»، ومصطلح النوميا هو تعبير فلسفي لشيء في ذاته وهكذا أيضا تسعى الشعرية لتحقيق أدبية النص بقوانينه، مماثلا لفلسفة كانط نحو الوجود في ذاته دون اللجوء لاعتبارات أخرى نحو هذا المصطلح، أم الزين بن شيخة المسكيني في كتابها (الفن يخرج عن طوره أو جماليات الرائع من كانط إلى دريدا) «مع الرائع نخرج من (جماليات) الجميل ونخرج بلا رجعة من فلك ما سماه كانط بنفسه بـ "اللعب الحر للمخيلة" وذلك من أجل التوجه نحو جدية المخيلة، أو رواعها إزاء المريع» المخيلة التي ترسم الأشياء وتتنبض في تجسيد الرائع الكانطي، يضع من خلال ذلك موازنة بين الإلهام النابع حسب نظرته من الجنون وما تكافئه العلامة النقدية، التي تصدر الحكم على شكل غير ثابت ومتحول، ومتجاوز حدود الجمال إلى الرائع والروعة الخالصة فيصل إلى نقد ملكة الحكم، ليكتفي النقد المنبعث من الفلسفة بما يقارب مفاهيم الصورة.

تساؤلات (مارتن هيدجر) حول التفكير كبناء لمعطى فني، ولعل ما يتجسد في الرؤية هو الصورة التي تصدر عن عالم خفي، وأقرب إلى المستويات الفنية بتقاسم الواقع في رسم تفكير يندرج نحو المتواري والمنسحب خلف رؤية عميقة. *Interprétation phénoménologique de la «critique de la raison pure» de kant*. Tr. Emanuel Mar. «العلاقة بين الوعي والعالم نفسيهما» مؤسسين بها وعليها منذ البداية» فحين تنعكس الانطولوجيا التي تبحث في طبيعة

الوجود خارج ماديته تكون الصورة هي اللافتة لهذا المصطلح لإبراز الغاية من الفكرة والتفكير بحد ذاته نحوها

Que veut dire penser? Dans Essais et conférences .trad: André préau et préfacé par: Jean Beaufret

«معنى التفكير؟ إن الإنسان لا يكون إلا بالقدر الذي يشير ويسمى هذا الذي ينسحب، بل الإنسان لا يكون إنساناً إلا لكونه ينجذب إلى هذا الذي يتوارى وينسحب» الانجذاب الواعي حول الكينونة التي تبرمجها اللغة مع الخيال الذي لا يلامس المادة بل يستنفذ الخواص الداخلية لينتفع بمزايا اللغة الفنية من الوجود ذاته والانفعال هو الحالة التخيلية التي تترك أثرها في المتلقي، وينظر (ابن سينا) في كتاب (الشفاء) ما الفن السادس من الطبيعيات من كتاب الشفاء القسم الأول « أن النفس يصح لها أن يقال لها بالقياس إلى ما يصدر عنها من الأفعال قوة وكذلك يجوز أن يقال لها بالقياس ما يقبلها من الصور المحسوسة والمعقولة على معنى آخر قوة» لشيء هو عناصر تنتمي مؤولاته مسبقاً في الفكر، والتفكير تمثيل لانتماء الشيء لها، وكينونة الأشياء معارف لدى التصوير قبل ولوج الثقافة مرحلة التفاعل النهائي، بين الخيال المنفعل (الحسي)، والخيال الفعال (العقلاني الخلاق) والتفرقة بين المعرفة الأولية التي تسبق التجربة والمعرفة والتي تجيء اكتساباً وتدرس الشروط التي تجعل الأحكام ممكنة، والتي تبرر وصف الحقيقة بالصدق المطلق إن كان هذا ممكناً. يحددها توفيق الطويل في مؤلفه (أسس النظرية الفلسفية) «كما تبحث نظرية المعرفة في الأدوات التي تمكن من العلم بالأشياء وتحدد مسالك المعرفة ومتابعها، كما تدرس طبيعة العلم بما هو كذلك، وتهتم بمعرفة اتصال قوى الإدراك بالشيء المدرك، وعلاقة الأشياء المدركة بالقوى التي تدرکہا» والإدراك فعل قويّ يتحلّى بالإرادة.

- تقسم أصنام الذاكرة حسب الدراسة الفلسفية من خلال المحاضرات:
- أصنام القبيلة: تنظيم الكنوز التراثية حسب بيئة نشوء الانسان حسب النماذج الموجودة في القيم الكامنة من خلال السلوكات ومحاولة الانسجام معها.
 - أصنام الكهف: إشارة إلى ميول الفرد نحو القيم الروحية المتجذرة في المجتمع التقليدي ما يعكس تابعيته للجماعة.
 - أصنام السوق: التداول الكلامي الذي يفقد جوهره الفكري حين يتواصل الفرد مع أقرانه بالحوار العادي ليوميته وتعاملاته الاجتماعية العامة حيث تفقد اللغة أصالتها وتتلاشى وسائطها التركيبية.
 - أصنام المسرح: تتمثل في الفلسفة اليونانية والعربية وغيرها والمنطق في مسارها هو قوة نزوعية

وأحقاب يؤدي الخيال دورا في إعادة بناء العالم، أو التواصل البناء مع العالم الحقيقي والعالم الوهمي، وهنا الوهم ليس عارضا وإنما مشكل من طاقة ذهنية تشفر، وترمز، وتشابك انسجام التعبير عن الواقع العام (المحيط) بالخاص (النفس) وإبراز مدى جمالية الكون حين يمارس حضوره في لغة تتزاح خارج العادة التواصلية بين الناس عامتهم في جنس معين، إلى تعيين الأنظمة المنتجة للوجود الخلاق.

2- الشروط والمرجعيات في فلسفة الانفتاح الوجودي: الثقافة هي إنتاج الواقع
وتفسير توقعاته ومعايشته للمحيط الفكري الممتد حضارياً والمهيمن على نمط التراكمات الذهنية، لكن الشروط التي تحقق الاتجاه الثقافي المنسجم بالمرجعيات يتوقف بدرجة النضج الفلسفي للإنسان، خلف كل الوقائع الملامسة للذاتية من خلال الجماعة دون طمس نظرة الشخصية المتممة لكل وعي والمميزة بين مختلف أفراد المجتمع، يقدم خصوصية المحيط ويتسع في تبيين تلك الرؤية فالتجارب العالمية للكتابة، تمنح الأدباء توجهها عالمياً كما اتجه الروائي (نجيب محفوظ) بتصوير

حفري للمجتمع المصري في أقصى وأدق نماذجه إلى تجاوز الحدود واكتساب التراتبية بين الكتاب العالمين، والروائية (آسيا جبار) في روايتها (Les Femme D'Algérie Dans Leur appartement)

تحيل اللوحة المشهورة للرسام لوحة الرسام الفرنسي أوجان دولاكروا "نساء الجزائر في مخدعهن" التي رسمها سنوات قليلة عقب الاحتلال الفرنسي للجزائر (1834) رسمت بلغة سردية مميزة الموروث الكلامي بين النساء وهن يسردن همومهن ما تثيره ثقافتهن الاجتماعية، لتمارس الأفعال الكلامية على ما تعكسه اللوحة الفنية، فالثقافة هي القدرة علة صنع خطاب يتعايش مع الآخر بالكينونة الذاتية «ففي الغرب يعرفون الثقافة: على أنها تراث (الإنسانيات الاغريقية واللاتينية) بمعنى أن مشكلتها ذات علاقة وظيفية بالإنسان، فالثقافة على رأيهم هي: "فلسفة الإنسان"³ تطرح أولوية الاطلاع التعلم والتأقلم في حوارية المختلف حيث يمكن فرز نطاق من التجديد الفاحص للكونية والمفعم بالسلوك الاجتماعي المثقف بدرجة كافية تجعله يميز بكلتا القوى الإدراك والوعي بما ينتجه من مفاهيم. الاختلاف والانفلات في ذهنيات الشعوب وفنية حوارها من بوتقة الفعل المعرفي يمثل السلوك الذي تنشأ عليه المجتمعات «ونحن نريد أن نؤكد هذا لندرك أن السلوك الاجتماعي خاضع لأشياء أعم من المعرفة، وأوثق صلة بالشخصية منهم، بجمع المعلومات، وهذه هي الثقافة.

فالثقافة إذن تتعرف بصورة عملية على أنها مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية، التي يلقاها الفرد منذ ولادته كراسمال أولي في الوسط والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته⁴ إبراز الحقيقة التي تخضع لها الجماعة في ولوج قيم المجموعة منحدره من وسائط تمثل المعاملات وأخلاقيات التواصل والصفات العامة المنبعثة فطرياً والمكتسبة عبر النماذج الموجودة في تلك الحالات المفترضة للموجودين داخل المحيط الاجتماعي

لكن الفرد يتماثل لنوعية من الطبائع والمميزات وخواص تتأثر بفعل الاطلاع والاتصال خارج دائرته الاجتماعية وتتنوع بين الأفكار والمنحنيات المعرفية والاكتشافات الخاضعة لمساعي علمية او استطلاعية سرعان ما تصبح أحد الأقاليم الفكرية التي تميزه عن أقرانه، وبهذا تتضح الثقافة بين شقين:



من اهم وأخطر العوامل المهيمنة على العقل البشري بوصلة الإعلام التي أضحت نقطة فرز نوع جديد من الثقافة المنفتحة والمنصرة لحقائق تمثلها الصورة في أقصى توجهاتها، ورغم المعلومات والمعطيات المعاصرة للإنسان تحيل في جاهزيتها ثقافة اللغة البصرية، التي تلغي الحدود بين المجتمعات وتنشئ خلفية جديدة تنحصر في العولمة ذات البعد التكنولوجي والتطور الأيديولوجي «صحيح أن التكنولوجيا الإعلامية قربت أصقاع العالم وسكانه من خلال تزويدهم بالمعلومات و المعطيات موفرة للجميع فرص التعلم والتثقيف ضمن إطار تطوير المجتمع الإنساني و لتحقيق هذا التطور تقوم الثقافة التي تنشرها التكنولوجيا

برسم وتخطيط الشخصية و هوية الإنسان ولكونها ثقافة كونية لا تتحدد بإقليم ما أو دولة معينة⁵ الثقافة الكونية صارت قدرة العقل في تكوين مكانته المعرفية عبر أقاليم مختلفة كلما اتسعت مكنته من فهم الكون وتكوين المفاهيم الخاصة بوجوده المثالي، هذه المثالية التي تتحكم فيها مجموعة من القوى الأكثر استغلالاً للمناطق التفاعلية عند المستخدمين لواجهة التواصل الاجتماعي، ولعل حجم الصفحات المهمة بتسيير المستويات الثقافية للإنسان تُشكّل البوتقة الأهم في بلورة نشاط المعرفة حسب نطاق الخلفيات الإعلامية وزخم المادة الإعلامية تشكيلاً وجودة تكيف مع الحاجات المنتظرة أثناء التلقي، فالغرب يهتمون بدراسة حضارات الأمم لإدراك عوامل بناء المجتمعات وبذلك ميولاتهم وسلوكياتهم، الكيان المحرك للعقل هو الكينونة التي تستدعي بناء إيديولوجية الثقافة بين الشعوب.

2. التفاعل الحضاري والتقدم الفكري: يتفاعل المثقف بالتماهي خلف حضارته ينتج أصالته العليا وفكرة بلوغ المعرفة من خلال ما يفيد ذلك التوجه الذي يمتد من خلال عامل الفكر المنتمي بالتاريخ ورموزه المؤرخة، إن استعادة الملامح التي نشأ عليها الوعي العربي هي نفسها أسس بلوغ التقدم والتطور بالاستفادة من علوم الآخر الأجنبي باعتبار العلم مادة منتجة لا مكون ثقافي، وما يجعل من المهم تكثيف العمق الإنساني للأفراد بقوة التنشئة الحضارية لإدراك التّحضر والاسهام في تطويره كمفاعل إيجابي لا مستنسخ لا يدرك إنتاج مكانته في مسار النهضة بالوعي الذاتي للكون لا الكوني للذات «لذا فإن على المجتمع الإسلامي في مواجهة العصر أن يعطي لأصالته فكرته فعالية تضمن لها النجاح. إنه مدعو لأن يستعيد تقاليده العليا ومعها حسّ الفعالية.

وبدلاً من أن يغرق في تمجيد أصالة فكرته، لا بد أن يبحث في فعاليتها في عصرنا الحديث، و المسألة مسألة مناهج وأفكار، وإن لنا في نهضة الدول: كاليابان في منتصف القرن التاسع عشر، والصين في منتصف القرن العشرين،

مثالاً على كيفية الاقتباس من العلوم الغربية وتوظيف حركة المجتمع في فعالية تستمد أصولها من نماذجها الخاصة»⁶ حركة الاقتباس من العلوم الغربية يحيل الواقع الوجودي للمتقنين نحو ضرورة نمذجة المواقف والتوجهات التي تتناسب والتحريك الفعلي للحضارة نحو التقدم لبناء الهوية الثقافية عبر مجموعة من المسلمات:

- الوعي الوجودي بالمحيط السوسيوثقافي للفرد.
- الاسهام ببناء النماذج المناسبة للثقافة حسب تطلعات المجتمع.
- التطور من خلال بناء ثقافة الحضارة نحو التحضر الثقافي.
- تجاوز الذات التمجيد التاريخي إلى خدمة المجد المستقبلي لصناعة تاريخ الغد.
- السعي الوجودي نحو المعرفة خدمة لثقافة الحوار الحضاري لا تخدمه القوى الإقليمية بل ثقافة التواجد بمنحى الهوية واستقلالية مدركات الذات.
- التقدم الثقافي يتشكل من النموذج الخاص المتطور والمستمد عبر الأصالة الخاصة للإنسان.
- الإنسان بحد ذاته كائن متطلع يمارس التفكير بالماهيات ويتعايش بالكيفيات تلك التي يستنتجها بالعوامل المناخية المؤثرة في طبيعة تواجده الثقافي.
- الثقافة هي فهم الإيديولوجيات باختلافها وفي نفس الوقت إدراك مركزية ذاتية الفهم.
- الخصوصية الثقافية هي إنتاج معالم حضارية تؤكد فهرسة التطور وخصائص المعاصرة

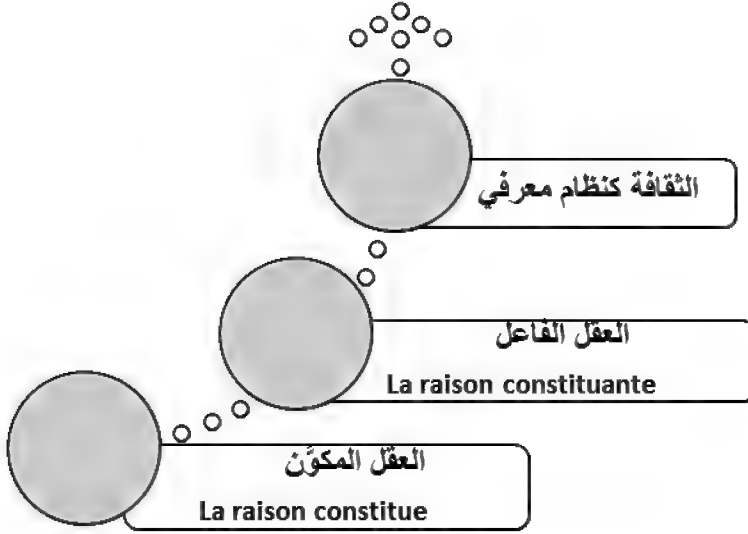
3. الحوار الحضاري وبلاغة التعايش الإنساني:

تشكل المعرفة درجة تقدم الشعوب ووعيها، والعلم لا يكتمل تفاعله واشتغاله إلا بالاندماج في خواص نظرية متعددة ومختلفة، لتوجه المنسجم نحو قضايا العصر

وعصرنة الفكر المتجدد في ظل الحركة والتوجه الإيجابي والمنتج «الفارابي مثلا الذي فكر في قضايا الثقافة اليونانية، هو مفكر عربي لأنه فكر فيها، بواسطة الثقافة العربية ومن خلالها، ومثل ذلك المستشرقون فهم يظلون مستشرقين يطلبون الشرق لأنهم يقعون خارجها، بل ومن خارج محيطها الخاص... إذن فالتفكير بواسطة ثقافة ما، معناه التفكير من خلال منظومة مرجعية تتشكل احداثياتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوناتها، وفي مقدمتها الموروث الثقافي، والمحيط الاجتماعي والنظرة إلى المستقبل، بل والنظرة إلى العالم، إلى الكون والإنسان كما تحددها مكونات تلك الثقافة»⁷ الرجوع للثقافات الأخرى المجاورة والمختلفة هي نظرة إلى المستقبل بتكوين عالم مرئي من المعرفة تتكون لكنها لا تؤثر في التوجه السلوكي، فالاحتكاك والارتباط بمعرفة الآخر تنتهي بإدراك المعرفة ذاتها دون المساس بالقيم الاجتماعية، لأنها مرجعية أي تطور مستمد عبر الموروثات القابعة في كيان الإنسان، وهذا لا ينفي مهمة تأسيس المنظومة الثقافية في استطلاعها الثقافي المتنوع والثري بالآخر واكتساب مهارات التفكير نحو التطور وخدمة المجتمعات وتسير رؤى المستقبل.

يشترك الإعلام بصورته المندمجة وقضايا العصر الإنسانية والأكثر عمقا حيث ينتمي توجهها مع كل منفتح يتخطى حدود والإقليمية ليؤكد رؤية تاريخية حديثة يحدد بكل موسوعية قضاياها، وعصرنة آفاقها وإيصال الماضي بالحاضر وهذا ما جعل لصيت الثورة التحريرية الصدى العميق في الأمم الأخرى، ونموذجا لتأريخ الخصوصية داخل المشترك العالمي وهي غاية الحرية والتحرر من قيود الآخر وهو الدخيل بمعانيه المشتركة، وقد لخص ذلك «Fanon Frantz» في كتابه معذبو الأرض «في كل مرة تكون كرامة الإنسان، وحرية قيد البحث الجميع سيكون معنيا، الأبيض والأسود، الأصفر»⁸ ما جعل علاقة الثورة بالإعلام اصرارا على الوجود الفعلي داخل مؤثرات التقدم المستمر في مختلف مستويات

الحياة الفكرية والعملية والعلمية وعولمة القيم خارج الزمن والمكان و الحدود ما ينتج وعينا بضرورة معايشة الإنسان مع قضايا العالم وبذلك نشوء ثقافة التعايش. كما يوضحه نموذج لالاند Lalande:



التكوين المعرفي للنظام الفكري، إسهام في بناء الفهم الذي يدرك نقطة التقاء المدرك (الموروث) بالمستحدث (المعرفة) وتقاطعه المستمر بالآخر (الفكر الغربي) فالتعايش والتنوع هو الجانب الأهم في الرؤية ووضوح الكيان المستقل ذاتياً والمنتمي سلوكياً، وبين القيم في الإدراك والتقييم المعرفي في التطور، فالتقافات هي الانفتاح الذهني نحو قدرة المعرفة (الاطلاع - الكونية) ومهارة التعريف بالذات (الهوية - مركز التطوير) تشكيل مفعم بالدقة لأن التنوع ضماناً أولي بالتشاكل الأيديولوجي وخلق.

مراجع البحث:

- ¹ - مالك بن نبي، مشكلات الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط/5، 2000م، ص.70
- ² - محيي الدين المحسّب، علم الدلالة عند العرب، فخر الدين الرازي نموذجاً، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط/1، 2008م، ص. 130
- ³ - مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، عمر كامل مسقاوي، دار الفكر سوريا، 1986، ص.82
- ⁴ - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص.83
- ⁵ - عبد الله العليان، التحديات الجديدة لتأثير الدولة في الإعلام - الفصل السابع والعشرون الإعلام العربي، في عصر المعلومات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية الإمارات العربية المتحدة، ط/1، 2006م ص.597
- ⁶ - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، أحمد شعيبو، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا، ط/2، 2002م، ص.12
- ⁷ - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، جماعة الدراسات العربية والتاريخ والمجتمع، بيروت لبنان، ط/10، 2009م، ص.13
- ⁸ - Dans Frantz Fanon ,Les Damnés de la terre Maspero ;coll « Cahier Libres »Paris 1961 ;P ;9

ثنائية العربية والأمازيغية في ميزان الطالب الجزائري - طلبة اللغة العربية وآدابها أنموذجا -

أ. نبيلة بن أكنيو

جامعة البليدة 2.

تشكل اللغة الأمازيغية واللغة العربية بلهجاتهما المختلفة واقعا لغويا ملموسا في الجزائر يجعلنا نسلم أن المفترض في كل مثقف جزائري احترامه والاعتراف به - وإن كان بعض الناطقين بإحدى اللغتين ينظرون إلى الأخرى نظرة إقصاء واستبعاد -، فلا يمكننا إنكار وجود هذه النظرة لدى جزء مهم من المجتمع "فوضعية الازدواج اللغوي التي تتمظهر في منافسة الفرنسية للعربية وتفوقها في مجالات عديدة، ووضعية التعدد اللغوي التي تتمظهر في وجود اللهجات المحلية الأمازيغية والعربية بشقيها الدارج والفصح والفرنسية أدت إلى وجود تيارات فكرية منغلقة بعضها على بعض حيث يتخذ كل تيار لغة مغايرة للغة الآخر، كما أدت إلى ظهور طوائف لغوية تصرح بأن لها هوية لغوية وثقافية مغايرة، وهو ما يجعل هذه الجماعات تتآلف بعضها مع بعض وتتنافر مع الآخرين"¹.

ونفترض أيضا أن حق اللغتين العربية والأمازيغية من الاحترام والاعتراف يختلف عن حق اللغة الفرنسية منهما - وهي طرف واقعي آخر للتعدد اللغوي في الجزائر - ذلك أن اللغة الفرنسية في المجتمع الجزائري تحيل عند الغالبية إلى الاحتلال الفرنسي ومعاداته له، فهم على وعي بأن الاحتلال الفرنسي قد "سعى لترسيخ اللغة الفرنسية لتصبح فيما بعد اللغة الأجنبية التي تحظى بحق الأفضلية في المستعمرات المتحررة كما سعت السلطات الاستعمارية الفرنسية لتحويل هذه اللغة إلى جزء من كيان المستعمرات"²، بينما تحيل اللغتان العربية والأمازيغية عندهم إلى مكونات الهوية الجزائرية الأصلية ومقوماتها، ومن هذا المنطلق وجد المطالبون بإدراج الأمازيغية في الدستور الأسباب والمسوغات القوية لهذا المطلب

إنّ " نجد الهوية الأمازيغية التي ضغطت هي الأخرى من جهتها، فقد تجسدت كمطلب أمازيغي يرى وجوب إعادة تعريف الهوية الوطنية الجزائرية من وجهة نظر لغوية من خلال إعادة الاعتبار للغة الأمازيغية والاعتراف بها كلغة وطنية ورسمية ومكون أساسي للهوية الوطنية الجزائرية إلى جانب اللغة العربية"³، وهذا المطلب في الحقيقة يتعلق بالاعتراف الرسمي والدستوري فقط، لأن الأمازيغية في الواقع واقع، والأمازيغيات "تعد اللغات الأم لسكان بني مازيغ، وبالتالي فقد سبقت هذه اللغة التواجد العربي على هذه الأرض، لها امتداد لساني معروف قديما في منطقة المغرب العربي، بالإضافة إلى مصر والنيجر ومالي"⁴.

إن نظرة الرّفص والإقصاء لإحدى اللغتين العربية أو الأمازيغية من قبل بعض الجزائريين تتنافى مع قيم العقل قبل أي قيم أخرى، ذلك أن تعدد اللغات في العالم كله آية من آيات الله، "قالثنائية ظاهرة عالمية في كل البلدان نجد أشخاصا يستعملون لغتين أو عدة لغات لغايات شتى وفي شتى السياقات، وفي بعض البلدان ينبغي على الشخص أن يمتلك أكثر من لغتين ليعتبر شخصا منقفا"⁵، فما بالنا ونحن نتحدث عن لغتين تعايشتا منذ الفتوحات الإسلامية ولم تتعارضا مع دخول السكان الأصليين للإسلام واستطاعتا حمل الموروث الثقافي للجزائريين بكل أبعاده. ثم إن هذا التعدد اللغوي مرتبط مباشرة بالتنوع الثقافي الذي هو أصل في العديد من الأمم وتزايد مع مرور الأزمنة بفعل عوامل التبادل والتداخل على مستويات عدة، " فجل المجتمعات متعددة لغويا وثقافيا بالرجوع إلى التكوين التاريخي الحركي للشعوب والهويات واتصال اللغات والثقافات نتيجة وجودها على وطن واحد وأرض واحدة، أو التقائها فيها بفعل موجات الهجرة والتنقل"⁶، فلم تكن لي طرح هذا التعدد اللغوي الثقافي في الجزائر لولا الفتوحات الإسلامية وتفتح الأمازيغ على البقاع العربية.

لطالما انساق لنا الحديث والنقاش حول هذه الثنائية اللغوية في بلدنا مع الطلبة أثناء تدريسنا لبعض المقاييس اللسانية التي يندرج فيها هذا الموضوع، فكان أن سمعنا ما يسر وما يضر ولم أختار طلبة اللغة العربية موضوعا لدراستي هذه باعتباري أستاذة لها بقدر ما اخترته لأنه يمثل وترا حساسا في المسألة فنحن أمام طالب يمثل اللغة التي تختلفت الرؤى في علاقتها بالأمازيغية، فهي اللغة الشقيقة في نظر البعض، واللغة العدو عند البعض الآخر، الجارة المنافسة، الدخيلة.....الخ، ومهما احتج المتعصبون في أحد الاتجاهات بحججهم إلا أننا ننتقل في ممارستنا لمهنة التعليم من مبدأ الإيمان بوجوب تكوين طالب منفتح على التنوع بكل أبعاده وعلى كل مستوياته ومنه التنوع الذي تزخر به بلاده، طالب يحترم لغة تخصصه وأغلب شعبه ويحترم أيضا لغة أجداده وجزءا مهما من شعبه، طالب يدعو إلى التعايش اللغوي الثقافي لا إلى التناوب والانغلاق الذي يعتبر عدو العلم والتقدم.

منهجنا في هذا البحث هو القيام بدراسة ميدانية إحصائية والخروج بنتائج نحل على إثرها الواقع فنحن ما يستحق التثمين ونصوب ما يستوجب التصويب، وعلى هذا الأساس وجهنا لعينتنا استبياناً ضم ستة أسئلة وتمثلت العينة في مئة طالب بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة لونيبي علي - البليدة 2 -، خمسون منهم طلبة سنة ثانية وثلاثة ليسانس والخمسون الأخرى طلبة سنة أولى ماستر، تفادينا استجواب السنة الأولى وانطلقنا من السنة الثانية لتكون عينتنا من الطلبة الذين قضوا سنتين على الأقل من التكوين العلمي في اللغة والأدب وعلومهما، والمعلوم أن الطلبة لا يتلقون تكويناً في علوم اللسان العربي وحسب وإنما في علوم اللغة بصفة عامة كما يتلقون تكويناً في علوم الأدب عربياً وعالمياً، فلا ننتظر من هؤلاء الطلبة إذن جهلاً بمكانة اللغات المتعددة في الحياة ودورها في صناعة ثقافات الشعوب ونقلها. جاء في المادة الثالثة مكرر من الدستور الجزائري⁷ أن تمازيغت هي كذلك لغة وطنية تعمل الدولة لترقيتها وتطويرها بكل تنوعاتها اللسانية المستعملة عبر التراب

الوطني، فقد وثقت الدولة الجزائرية من خلال دستورها الأمازيغية لغة وطنية للجزائر، ولكننا نعلم أن هذا التوثيق جاء متأخرا مقارنة بما اعتاده الجزائريون من كون اللغة العربية هي اللغة الوطنية الوحيدة في الدستور وما نشؤوا عليه أيضا من اعتماد هذه اللغة وممارستها في الحياة من خلال المدرسة بصفة خاصة في غياب تام للأمازيغية، ولهذا حين طرحنا سؤالنا الأول في الاستبيان بصيغة: هل ترى أن اللغة الأمازيغية لغة وطنية؟ لم نكن نتوقع ما أقره الدستور بقدر توقعنا لما هو مخزن في ذهن الطالب الجزائري، وبالفعل أجاب 68% من طلبة الماستر بالنفي وكذلك 50% من طلبة الليسانس، فعلى الرغم من أنه يفترض أن طلبة الماستر أكثر وعيا ومعرفة من طلبة الليسانس وبالتالي أكثر تفتحاً على التعدد اللغوي في بلدهم إلا أن عدد النافين منهم لأن تكون الأمازيغية لغة وطنية أكبر من طلبة الليسانس.

إن وجود اللغة الأمازيغية بجانب العربية إلى يومنا هذا لهو دليل على أن هذين اللغتين متعايشتان تحترم الواحدة منهما وجود الأخرى، أما الدليل الأكبر فقد قدمه الباحثون من خلال استخراج التقاطعات التي حصلت بين اللغتين وكيف أخذت كل لغة من أختها على المستويات المختلفة للغة، بل أن محمد الولي يرى أن الأواصر بين اللغتين أبعد في التاريخ وأنها من أصل واحد، يقول: " لكن الأدهى هو تشويه الوقائع من قبيل اختلاق أصول للأمازيغية غير الحامية السامية، والسعي إلى تطهير الأمازيغية من كل الملامح التي تذكر بهذه الأصول المشتركة مع العربية... إن المعجم العربي الذي وجد له امتدادات في الأمازيغية ليس ناتجا عن الآثار العربية المرافقة للفتوحات الإسلامية التي يتوهمها المناضل الأمازيغي، بل إن تاريخ تلك التأثيرات والتواشجات العائلية لأقدم مما يتوهم"⁸، مع الإشارة إلى أن هذا الرأي مازال إلى اليوم قضية أخذ ورد بين الباحثين، لأن الكثير منهم يرون فيه ليا لعنق الأمازيغية كي تربط بالعربية.

إن التعايش بين العربية والأمازيغية في الجزائر أنتج مظاهر مختلفة مما سمته صحرة دحمان⁹ الأزواج اللغوية أو الثلاثيات اللغوية، إذ ذكرت:

العربية الفصحى/ الأمازيغية: مثل ما يحصل في بعض الحصص الدينية أو في التعليم عندما يلجأ الأساتذة إلى تبسيط بعض المفاهيم في المناطق الناطقة بالأمازيغية.. الخ

العربية الدارجة/ الأمازيغية: في مناطق احتكاك التنوعين، العربية/ الأمازيغية وهي في الغالب مناطق تجاور، حيث يتقن الناطقون فيها العربية العامية وإحدى اللهجات الأمازيغية مثلاً: خنشلة وأم البواقي وغرداية وبرج بوعريريج، حيث تتقاسم الشاوية أو الميزابية أو القبائلية استعمالات الناطقين، ويمكن أن يسود تنوع لغوي، أو يحصل بينهما انتقال في نفس الحديث.

العربية الفصحى/ العربية الدارجة/ الأمازيغية: يظهر التناوب بين هذه التنوعات عند عدد من رجال الدين الذين يمتلكون العربية بمستوياتها وإحدى اللهجات الأمازيغية.

الأمازيغية/ العربية/ الفرنسية: تظهر هذه الممارسة اللغوية في وضعيات خطابية تسيطر عليها الأمازيغية، ولكن المتكلم ينجح إلى العربية أو اللغة الفرنسية لأغراض مختلفة كتغيير المخاطب أو تخصيصه بالحديث إذا كان المخاطب شخصاً يتقن العربية أو الفرنسية أو كليتهما.

ولأن التعايش بين اللغتين يبدو لنا أمراً لا نقاش فيه توقعنا أن لا يخالفنا الطلبة الرأي في الإجابة عن السؤال الثاني: هل ترى أن اللغة العربية واللغة الأمازيغية يتعايشان في الجزائر؟ فكانت إجابة طلبة الماستر بالإيجاب بنسبة 66% وطلبة الليسانس بنسبة 77.5% وقد كنا نتوقع أن تكون أكثر.

إن الانفتاح على اللغات الأجنبية ومعايشتها مطلوب في عصرنا كما كان مطلوباً في العصور السابقة وعند أمم عرفت قمة ازدهارها مثلما شهده العرب في

العصر العباسي حيث فتحت الأبواب أمام اللغات والثقافات بمختلف أنواعها،" ففي الحضارة العربية الإسلامية كانت توظف اللغات مثل الفارسية لخدمة العربية ولم تشك منها أبداً، وبذلك قد يكون التعدد اللغوي ظاهرة صحية تسهم في توسيع دائرة التفكير اللغوي والانفتاح على الثقافات المحلية والأجنبية تطعيماً للثقافة الوطنية¹⁰ ولكن إلى أي مدى يسمح بمثل هذا الانفتاح؟ وماذا لو زاحمت هذه اللغات اللغة الأصلية أو أخذت مكانها؟

لقد عرفت الجزائر ولوج اللغة الفرنسية أرضها وإن كان ولوجاً قسرياً واستطاعت هذه اللغة أن توجد لنفسها مكانة لم تصل إليها اللغة الأمازيغية وهي لغة الأرض والتاريخ، كما أوجدت لها مدافعين عنها يرون وجوب التعايش معها والاعتراف بها مكوناً لغوياً أساسياً، خاصة أن الجزائر تبنتها لغة أجنبية أولى في التعليم ولغة العلوم التجريبية والدقيقة في الجامعة إضافة إلى ميادين عدة تعتمد على الفرنسية، لكن هذا الوضع اليوم يعرف عدم رضى ومطالبة واسعة بتغييره لصالح اللغة الانجليزية في ظل تراجع مكانة اللغة الفرنسية في العالم وتقهرها إلى مراتب دنيا.

من هذا المنطلق ونحن نسأل الطلبة إن كانوا يوافقون على استبدال اللغة الفرنسية في التعليم باللغة الأمازيغية كنا نتوقع أن نجد اقتراحهم للغة الانجليزية بدل اللغتين، وهذا الذي طغى على إجاباتهم فعلاً، كما اقترح البعض إدراج اللغة الانجليزية وبعدها الأمازيغية مع إبعاد الفرنسية تماماً، لكن كان يهمننا أن نعرف نسبة الطلبة الذين يوافقون على إعطاء الأولوية للغة الأمازيغية قبل أي لغة، لأن ذلك يعكس اعترافاً ضمناً بمكانة هذه اللغة في مجتمعهم، فوجدنا من هؤلاء 42% من طلبة الماستر و37.5% من طلبة الليسانس، وهو ما يثبت أن الغالبية منهم ليس مقتنعاً بصلاحيّة الأمازيغية لغة علم وتعليم.

إن نظرة الطالب الجزائري إلى اللغة الأمازيغية وإلى مكانتها في المجتمع الجزائري ليست نظرة بسيطة بحيث يتعصب لها أو يقصّيها تماما، وإنما هي نظرة فيها حد من العمق وبعد النظر، وقد تبدو متناقضة للوهلة الأولى إلا أن تحليلها بما يكفي يقودنا إلى نتائج تستحق التثمين وتفتح لنا بابا لدراسة الواقع اللغوي وإعادة توجيهه بما يتناسب مع هوية الأمة ومقوماتها.

فرغم أننا نلاحظ رفض الطلبة الاعتراف باللغة الأمازيغية لغة وطنية وعدم ترشيحها لتكون لغة علم وتعليم، إلا أننا نجدهم يدافعون عن حقها في الوجود والممارسة من قبل الناطقين بها، فمن خلال سؤالنا لهم: هل توافق على إلغاء ليسانس الأمازيغية من البرنامج الجامعي؟ أجاب 66% من طلبة الماستر و57.5% من طلبة الليسانس بالنفي، وكان من ضمن إجاباتهم:

- لا..احتراما للفرد الأمازيغي.
- لا..لأن هناك من يحب هذه اللغة.
- لا..لأنه لا يمكن إنكار اللغة الأمازيغية.
- لا..لأنها مرتبطة بتقافتنا.
- لا..لأنها من التراث وذات أصول عريقة.
- لا..لأنها تحمل جزءا من ثقافة المجتمع.
- لا..لأن الناطقين بالأمازيغية بحاجة إليها.

إن مثل هذه النتائج تدعونا إل التساؤل عن مصداقية بعض الآراء و الإقرارات الواردة في بعض البحوث العلمية نحو قول فتيحة شفييري " إن هناك تصدعا وسط الشعب الجزائري فمنهم من أيد موقف تدريسها ومنهم من رفض ذلك رفضا قاطعا معتبرا الأمازيغية لغة مناطق معينة وهو لا يمت لها بصلة عاكسا بذلك كرهه الشديد لها"¹¹، لأن هذا الحكم من الخطورة بما كان، فالإجابات التي حصلنا عليها من الطلبة لا تحمل أي إشارة إلى الانفصال أو الكره، بل نرى أنهم لو ملكوا

مقومات التعبير لقالوا: " هي بلا منازع لهجات وطنية ولا أحد يمكنه أن ينزع عنها هذه الصفة، لكنها ما تزال في حاجة إلى مزيد من التأهيل والمعالجة، لأنها مازالت في خطواتها الأولى نحو المعيرة والتنميط لكي تتوحد في لغة معيارية مشتركة بين كل الناطقين بها المنتشرين في مناطق شتى من الشمال الإفريقي وبعض دول جنوب الصحراء، لكن هذا لا يمنع من أن تقوم بوظائف تواصلية واجتماعية بجانب العربية، وأن يكون لها دور معين في التعبئة ونشر الوعي وتحريك عجلة التنمية"¹².

هذه الوظائف التواصلية والاجتماعية هي التي جعلت جيلالي بن يشو يدرج الأمازيغية ضمن المستوى التواصلية، بعد أن قسم مستويات الاستعمال اللغوي في الجزائر إلى ثلاثة، الرسمي والتواصلية والوظيفي فالمستوى التواصلية هو "مستوى استخدام اللغة للتواصل اليومي والتطبيق، أي اللهجات الأمازيغية (القبائلية الميزابية، الشاوية، الترقيّة) واللهجات العربية العامية، وهي التي تستخدم في الشؤون العادية والتي يجري بها الحديث اليومي"¹³.

تتضح مكانة الأمازيغية عند الطلبة أيضا من خلال إجاباتهم عن سؤالنا: هل توافق على إلغاء الإعلام الأمازيغي - الإذاعة، التلفزة...الخ- والاقتصار على الإعلام العربي؟ إذ أجاب 82% من طلبة الماستر و80% من طلبة الليسانس بالنفي، وكان ضمن إجاباتهم:

لا.. لأنها لغة فئة من مجتمعا.

لا.. مثلما هناك عرب يفهمون العربية هناك أمازيغ علينا احترامهم.

لا.. لأن هناك من لا يفهم اللغة الأمازيغية.

لا.. فهناك مداشر في أعالي الجبال لا تعرف سوى الأمازيغية.

لا.. ينبغي أن يطلعوا على مستجدات العصر.

لا..إذا خضعت إلى ما يحفظ التاريخ الحقيقي والموحد والحفاظ على الوحدة الوطنية.

لا..نخصه للأمازيغيين.

لا..هذا قمع للعرق الأمازيغي لاسيما الأمازيغ البدو.

لا..لأن كل جنس يفهم لغته حسب المكان الذي ترعرع فيه.

إن هذه الإجابات وغيرها تعكس الروح المتصالحة المتعايشة التي يحملها الطالب الجزائري مع مكونات مجتمعه من لغة وثقافة، وليس بعيدا أن يكون هذا الطالب هو صورة لكل أطراف المجتمع الجزائري وفنائه، مما يعطي صورة حقيقية عن المغالطات التي تنتشرها بعض وسائل الإعلام وبعض الشخصيات حيث يروجون لفكرة التناحر والتصادم بين الثقافة العربية والثقافة الأمازيغية.

من المؤكد أن الطالب الجزائري مرتبط أشد الارتباط باللغة العربية مبجل لها مقدم لها على الأمازيغية ويتضح ذلك من خلال اتفاق أغلب الطلبة على إجابة واحدة على سؤال: هل ترى أنه من حق الناطقين بالأمازيغية الحفاظ على لغتهم والتواصل بها إذا انتقلوا إلى المناطق الناطقة بالعربية أم ينبغي عليهم تعلم العربية؟ إذ رأوا بأنهم يمتلكون هذا الحق ولكن لا بد لهم من تعلم اللغة العربية وإتقانها، ويقدمون لهذا الوجوب مبررات وأسباب لا يمكن تجاهل قيمتها، كان من ضمنها ما يأتي:

- أنها لغة الدين.

- أنها اللغة المتداولة بكثرة.

- كلتا اللغتان مهمتان.

- لتسهيل التواصل مع من لا يعرف الأمازيغية.

وهذا لم يمنع من وجود إجابات تحمل رؤية خاصة إذ رأت إحدى الطالبات أنه على الناطقين بالأمازيغية العمل على نشرها لتعم الفائدة، بينما رأت أخرى أننا إذا

طالبنا الناطق بالأمازيغية بتعلم العربية ينبغي أيضا أن نطالب الناطق بالعربية أن يتعلم الأمازيغية.

إن الآراء والإجابات التي حصلنا عليها من خلال هذا الاستبيان الموزع على الطلبة تمثل جزءا من المعطيات الضرورية لوضع سياسة لغوية في الجزائر، هذه السياسة التي ينبغي أن تحقق ما سماه الفهري بالعدالة اللغوية، غير أن هذه العدالة تطرح عدة إشكاليات منها ما صاغه بنيني عبد الكريم¹⁴ على الشكل الآتي: هل تحقيقها يفترض تقسيم البلد الواحد إلى رقع لغوية تتوزع عبر مساحات جغرافية؟ وهل من سبيل لتحقيق عدالة لغوية في وسط لغوي غير متجانس شأن البلدان المغربية؟ كيف ينبغي أن نتصور عدالة لغوية في الجزائر؟ هل سيتحقق ذلك مثلا بتعميم استعمال الأمازيغية في أوساط المتكلمين بها وتعميم استعمال العربية الفصحى في ما سواها؟ ألن يؤدي مثل هذا الإجراء إلى تقسيم البلاد إلى رقع لغوية متباينة قد تحولها إلى رقع سياسية واجتماعية متناحرة؟.

ستبقى قضية التعدد اللغوي خاصة تعدد اللغات التي هي جزء من هوية المواطن؛ تطرح إشكاليات حادة منها الكيفية المناسبة لإدراجها في التعليم بكل مستوياته، فالأمازيغية اليوم وإن كانت لغة وطنية إلا أنها لا تجد قبولا وإجماعا في هذا المجال، وتزداد حدة الإشكالية في كونها لغة عدد أقل بكثير من عدد الناطقين بالعربية، فليشمر المختصون على سواعد الجد ليجدوا الحلول المناسبة التي تحقق التوافق بين اللغتين بما لا يتنافى مع الحقائق الاجتماعية للجزائريين.

الإحالات:

- ¹ - صحرة دحمان، التعدد اللغوي وانعكاساته على اللغة العربية والفكر والهوية الثقافية - المجتمع الجزائري نموذجا ضمن: المؤتمر السنوي لعام 2018، مجمع اللغة العربية الأردني، ص: 162.
- ² - علي بنطالب، السياق الاستعماري وتأثيراته على الوضع اللغوي بالمغرب، مجلة المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية ع: 11، ص: 59.
- ³ - العونية بهلول ومعاشو جيلاني كوبيبي، اللغة وإشكالية الصراع الهوياتي في المدرسة الجزائرية، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، الجزائر، ع: 1 م: 8، جوان 2017، ص: 311.
- ⁴ - جيلالي بن يشو، التعدد اللغوي في الجزائر: مظاهره وانعكاساته، ضمن، التعدد اللساني واللغة الجامعة، ج2 المجلس الأعلى للغة العربية، 2014، ص: 57.
- ⁵ - Marie -Louise Moreau, Sociolinguistique : concepts de base, Pierre Mardaga ; éditeur,Belgique, 1997, p : 61
- ⁶ - عبد القادر الفاسي الفهري، لغة الهوية والتعلم بين السياسة والاقتصاد، ضمن: مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ع: 1، م: 1، 2012 ص: 47، 48.
- ⁷ - جاء ذلك ضمن: الجريدة الرسمية رقم 76 المؤرخة في 8 ديسمبر 1996 معدل ب: - القانون رقم 02 - 03 المؤرخ في 10 أبريل 2002 الجريدة الرسمية رقم 25 المؤرخة في 14 أبريل 2002
- القانون رقم 08-19 المؤرخ في 15 نوفمبر 2008 الجريدة الرسمية رقم 63 المؤرخة في 16 نوفمبر 2008
- محمد الولي، في الخطاب الأمازيغي، مجلة علامات، ع: 20، المغرب، 2005، ص: 79
- ⁸ -
- ⁹ - صحرة دحمان، التعدد اللغوي وانعكاساته على اللغة العربية والفكر والهوية الثقافية - المجتمع الجزائري نموذجا ص: 154، 155، 156.
- ¹⁰ - باديس لهويل ونور الهدى حسني، مظاهر التعدد اللغوي في الجزائر وانعكاساته على تعليمية اللغة العربية مجلة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ع: 40، 2017 ص: 117.

- ¹¹ - فتيحة شفييري، الصراع اللغوي في الجزائر وتأثيراته السلبية في تكوين الهوية الجزائرية كتاب المؤتمر السنوي لعام 2018، مجمع اللغة العربية الأردني، ص: 34.
- ¹² - عبد العلي الودغيري، دور اللغة الوطنية في التنمية وتحقيق الأمن الثقافي، ضمن: أهمية التخطيط اللغوي - اللغات ووظائفها-، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2012، ص: 44.
- ¹³ - جيلالي بن يشو، التعدد اللغوي في الجزائر: مظاهره وانعكاساته، ضمن، التعدد اللساني واللغة الجامعة، ص: 57.
- ¹⁴ - بنيني عبد الكريم، الاستعمالات اللغوية في الوسط السوسيولساني الجزائري: أسئلة وملاحظات، أعمال اليوم الدراسي مظاهر التعدد اللغوي وانعكاساته في تعليمية اللغة العربية في الجزائر، جامعة سعيدة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2017، ص: 123.

تعليمية اللغة الأمازيغية في الجزائر (بين الأسس اللسانية والمطالب الإجتماعية)

د. ربيعة برباق / جامعة تبسة.

د. نعيمة شلفوم / جامعة خنشلة.

تمهيد:

الوضع اللغوي في الجزائر ودواعي التأصيل اللساني: تعيش الجزائر وضعا لغويا خاصا نتيجة العوامل التاريخية التي تميزت بها هذه المنطقة، من استعمارات متلاحقة ثم الفتح الإسلامي والنزوح العربي إلى شمال إفريقيا، وأخيرا الاستعمار الفرنسي فالاستقلال. وهذا الوضع اللغوي يمكن إجمالها في ثلاث لغات، هي: الأمازيغية، العربية، والفرنسية.

وبما أن اللغة العربية واللغة الفرنسية من اللغات العالمية المعروفة، والتي نالت حظها من الدراسة والتدريس والتدوين والتأصيل، فستجاوز الحديث عما هو معروف، وسنركز حديثنا في هذا المقام في قضية تعليمية اللغة الأمازيغية ولهجاتها المختلفة، وسنحاول نقد هذه الدراسات في ضوء ما قدمته اللسانيات من نظريات ومبادئ علمية لدراسة اللغة، وفي ضوء مطالب العدالة الإجتماعية.

البحث اللساني الأمازيغي في الجزائر: لم يحظ البحث اللساني المحلي باهتمام كبير من اللسانيين الجزائريين الذين اتجه معظمهم إلى مناقشة القضايا التي تناولتها اللسانيات الغربية، كقضايا المصطلح، والتداولية، عدا تعليمية اللغة العربية التي تجلت في كتابات عدد من الباحثين الجزائريين، أمثال: عبد الرحمن حاج صالح ومصطفى حركات، وصالح بلعيد، وغيرهم، إلا فيما ندر من بحوث، وخاصة في السنوات الأخيرة بعد التغيير السياسي الذي حدث في نهاية الثمانيات، وبداية التسعينات من القرن الماضي، والذي كان من نتائجه دسترة اللغة الأمازيغية لغة

رسمية ثانية في الجزائر، والاعتراف بحق متكلميها في تعلمها في المدارس والجامعات. غير أن هذا الاعتراف كان محل ردود أفعال ومواقف متضاربة ومتباينة حول اللغة الأمازيغية.

وقد ظهرت في ذلك دراسات ومؤلفات تؤرخ لهذه اللغة وتوصل لها داخل الجزائر وخارجها، على غرار أعمال كل من **عثمان سعيدي**، ومنها: "عروبة الجزائر عبر التاريخ"، "الأمازيغ عرب عاربة"، "معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية" وكتب **محمد المختار العربي** ومنها: "البربر عرب قدامى"، و"في مواجهة النزعة البربرية وأخطارها الانقسامية" و**محمد علي مادون** في كتابه "عروبة البربر الحقيقة المغمورة". وأعمال **أحمد بن نعمان** ومنها: "كيف صارت الجزائر مسلمة عربية؟"، "فرنسا والأطروحة البربرية".

كما ظهرت أيضا دراسات أخرى حاولت التأصيل لهذه اللغة، مثل: كتاب "الجذور التاريخية لسكان المغرب القديم" ل**محمد علي عيسى**، وكتاب "أصول اللغة الليبية القديمة" ل**عبد العزيز سعيد الصويغي**، وكتاب "معجم لسان العرب الأمازيغ" ل**علي فهمي خشيم**، وكتاب "عروبة البربر ل**محمد حسين فرح**، وغيرها. ولكل كتاب من هذه الكتب منهجه في التأصيل ودوافعه في ذلك ومنطلقات وغايات يمكن استخلاصها من عناوينها قبل مضامينها.

وبعد دسترة اللغة الأمازيغية بوصفها "مكونا اجتماعيا لا يمكن نكرانه، وقد دخلت هذه اللغة في المنظومة التعليمية باعتبارها لغة التراث ولغة الأجداد، وكان علينا المحافظة عليها بمنحها فرص الترقية عبر التدريس. والإعلام وكتابة تراثها الشفاهي الذي يندثر باستمرار".

بعد دسترة وفتح أقسام لتعليمها، ظهرت على الواجهات مشكلات لسانية حقيقية وأخرى مفتعلة لسياقات خارج لسانية، فكان من الضرورة القصوى إعادة النظر في

تعليمية اللغة الأمازيغية، وبنائها على أسس لسانية صحيحة، مع مراعاة مطالب العدالة الاجتماعية.

وقبل ذلك كله توجب على اللسانيين المتخصصين تصحيح المفاهيم اللسانية المتعلقة باللغة الأمازيغية، قبل ضبط مصطلحاتها، ثم تحديد خصائصها وجمع مادتها وغربلتها ومقارنتها، قبل التوجه إلى المدارس والجامعات لتعليمها، وتعريف المجتمع العربي بها من جميع جوانبها بعيدا عن الأيديولوجيات والقوميات، وهذا ما يتطلب تخطيطا لغويا مسبقا مبنيا على وعي كامل بالمنهج والأسلوب الصحيح الذي من شأنه تحقيق هذا الغرض.

تجدد بنا الإشارة إلى أن البحث في الأمازيغية يعد من أهم وأعقد القضايا التي تواجه البحث اللساني في الجزائر، وفي المغرب الإسلامي ككل. وقد حضر ضمن مجموعة من الأبحاث والمقالات والدراسات القليلة، لكن معظمها لا يخرج عن سياقين اثنين: هما السياق السوسولوجي الاثنوغرافي، والسياق السياسي الأيديولوجي. وبالرغم من كون الموضوع لغويا في جوهره إلا أن المنهج اللساني يكاد ينعدم في هذه الدراسات، وخاصة في الجزائر.

وترتبط نظريات التأصيل للغة الأمازيغية بالسياقين السالفي الذكر، وتنقسم إلى خمس نظريات: هي: الأمازيغية الكنعانية، الحميرية اليمنية، نظرية الأصل الأوروبي، نظرية الجنس المتوسطي، ونظرية الأصل الحامي.

والمتمأل في هذا النظريات، يجدها تختلف باختلاف منطلقات وخلفيات القائلين بها، فمعظم القائلين بنظرية الحميرية اليمنية، هم من العرب، وأشهرهم من اليمن أمثال، محمد حسين فرح، وتبناها كثير من الجزائريين من تيار التعريب، أمثال عثمان سعدي، في حين أغلب القائلين بنظرية الجنس الأوروبي والأصل الحامي هم من الأوروبيين أمثال: رين لويس (Rinn louis) سنة 1889م وماينهوف

ودولافوس. وتبناها معظم الباحثين الأمازيغ المعاصرين المنادين بإعادة الاعتبار للغة الأمازيغية.

وهذا التضارب الواضح في التأصيل اللساني الأمازيغي وخاصة في الجزائر يثير في أذهاننا تساؤلا واستغرابا حول سببه؟ والدواعي التي أفضت إليه؟ والإجابة عن ذلك تقتضي منا معرفة دقيقة بخلفيات هؤلاء الباحثين المهتمين بهذه القضية، إذ تشير كتابات بعض الباحثين إلى اتخاذهم موقفا خاصا من الأمازيغ، فهذا كسيل في ترجمته لنصوص هيرودوت حول الأمازيغ قد اتخذ منهم موقفا جعله يصفهم بأوصاف أقل ما يقال عنها أنها غير موضوعية، كما أنها أظهرت تحامله الكبير على السكان الأصليين الذي حاربوا الاستعمار الفرنسي، وهذا أحمد بدوي يرد على هيرودوت ويشكك في صحة معلوماته عن الأمازيغ، وغير ذلك مما يدل على خلل في منهج الدراسة والتأصيل لكثير مما يتعلق بأصل الأمازيغ وتاريخهم.

ولصعوبة هذا الموضوع وتعقده من الناحية التاريخية، والسياسية والاجتماعية أيضا، ارتأينا في هذه المداخلة الوقوف بالمنهج اللساني الكفيل بإبعاد البحوث اللغوية الأمازيغية من مستنقع الصراع والاستغلال البرغماتي الضيق، علنا نقدم أفكارا علمية للسانيات الأمازيغية التعليمية التطبيقية منها والوصفية والتاريخية وكذلك المقارنة والتقابلية، يقينا منا بأن البحث في قضايا اللغة الأمازيغية، مازال بحاجة إلى جهود كبيرة من لسانيين مختصين بعيدا عن السياسة والدين التي عادة ما تربط الدراسة اللغوية بمنطلقات ومسلمات غير موضوعية.

ولما كانت تعليمية اللغة الأمازيغية، تتطلب تطبيقا للسانيات الأمازيغية في ميدان تعليمها، فإن الضرورة تقتضي البدء بتطوير اللسانيات الأمازيغية بفروعها المختلفة بدأ بالصوتيات الأمازيغية وانتهاء بمعاجمها.

استثمار المنهج اللساني في تصحيح منهج التأصيل للغة الأمازيغية: من الجلي أن اللغات تختلف في بنيتها المقطعية وفي المواقع التي يسمح فيها بأن ترد

الصوامت بأعداد معينة، فاللغة العربية مثلا، لا تسمح بخلو جانبي الحركة معا من الصوامت، في حين تسمح الانجليزية مثلا بذلك في مثل (y, a). كما أنها لا تبدأ بصائت في حين تبدأ الأمازيغية بذلك في مثل (argaz).

ونجد نماذج مقطعية تنتشر في معظم لغات العالم، مثل الشكل (ص+ح)، التي لا تحوي سلاسل من الصوامت على جانبي الصائت، وهو النموذج الأغلب في بنية الكلمات العربية، مثل: فتح دخل خرج... فكلها تحوي ثلاثة مقاطع من النوع (ص+ح). في حين نجد اللغة الأمازيغية مثلا يغلب على كلماتها المقطع المتوسط المغلق والطويل المغلق، مثل: (argaz) (tamettout) (yadj) (Qim) (yerga)... الخ. كما تختلف اللغات في عدد الصوامت التي تسمح بها على جانبي الصائت في المقطع الواحد، فالعربية مثلا لا تستعمل سلاسل الصوامت وتكره النقاء الساكنين، في حين الأمازيغية، تكثر من استخدام سلاسل الصوامت على جانب واحد من المقطع ذاته، وخاصة في نهايته، في مثل نهاية المقطع الصوتي لكلمة (tmart) (ص + ص + ح ط + ص + ص).

كما تختلف اللغات في أنواع المقاطع فمنها ما يفضل المقاطع المفتوحة (Open)، التي تنتهي بحركة، ومنها ما يفضل المغلقة (Close)، وهو الذي ينتهي بصامت، وتختلف أيضا في طول المقاطع وقصرها.

وهذه الأنواع قد لا نجدها كلها في بعض اللغات، كما يمكن أن نجد أكثر منها في لغات أخرى، فاليابانية تقتصر على القطع القصير المفتوح من الشكل (ص ح)، في حين تستعمل الانجليزية مقاطع أطول في مثل: [Streets] من الشكل (ص ص ح ص ص).

إن الاختلافات المقطعية بين اللغات هي التي جعلت الدارسين يرون أن أي دراسة تخص اللغة لا بد لها أن تبدأ بنظامها المقطعي، حتى يسهل لها بعد ذلك دراسة الجوانب اللغوية الأخرى، ومن خلال ذلك تتضح أهمية الدراسة المقطعية

في التأصيل اللساني ومعرفة القرابة اللغوية والعلاقة بين اللغات، لذلك نقول إن أول نقطة تظهر من خلالها أهمية الدراسة المقطعية للغات هي أنه "لكل لغة من لغات العالم نظام مقطعي تتميز وتحدد به"

فاللغة العربية مثلا لا تقبل مقاطع صوتية من الشكل (ص+ص+ح)، أو من الشكل (ص+ص+ح+ص)، أو من الشكل (ص+ص+ح+ص+ص)، في حين تقبلها بعض اللغات، مثل: الأمازيغية في مثل كلمة [Tmart]، بمعنى (لحية)، والانجليزية في قولنا [Sport].

والتركيب المقطعي للكلمة العربية يتكون من مقطع صوتي واحد، إلى خمسة مقاطع، مثل (الشجرة) أما العبارات المركبة مثل: (أتلزمكموها) فهي جمل مركبة وليست كلمات مفردة. في حين تتكون الكلمة الأمازيغية حسب علمنا من مقطع واحد إلى ثلاثة مقاطع، مثل (إتش etch، إق eg، يوذف yudef، يرقا yerga، يرفذ yerfd، يسرس yessers، يقرورب yegrureb) (كل، إفعّلن دخل، خرج، رفع وضع، تدرج) على الترتيب.

فمن الضروري النظر إلى البنية المقطعية للغتين وطرح هذا التساؤل العلمي: لماذا هذا الاختلاف الكبير في البنية الصوتية بين اللغتين؟ ألا يدل ذلك على اختلاف أصليهما؟ لماذا يصر بعض الباحثين على أن الأمازيغية بلهجاتها المختلفة من أصول عربية، ونحن نرى هذا الاختلاف الكبير بين بنيتيهما الصوتيتين؟

أما إذا نظرنا إلى الجانب الصوتي في الدراسات التأصيلية الموجودة فإننا نجدها لا تخرج عن استخدام الظواهر الصوتية لإثبات عروبة الأمازيغية، كما فعل الدارودي الذي ذهب إلى معجم الكلمات المستعملة في بعض اللهجات الأمازيغية مقارنة بينها وبين الكلمات العربية، ومحاوّل أن يجد ما وقع فيها من إبدال لغوي وأحصى عمليات الإبدال التي حدثت بين بعض الحروف. متتبعا قائمة الكلمات العربية التي دخلت الأمازيغية بسبب الاحتكاك بين اللغتين، ومن خلال هذه كلمات

طرح فكرة عروبة الأمازيغية، وفي هذه الطريقة من التأصيل خطأ منهجي يجب التنبيه إليه، وهو أن التأصيل لأية لغة كانت لا يكون بالنظر في الدخيل بل بالنظر في الأصل، فالباحث هنا تناسى قضية الاقتراض والتمزيغ، فلا أحد ينكر أن الأمازيغ بحكم احتكاكهم بالعرب واعتناقهم الاسلام قد تأثروا بلغتهم وأخذوا عنهم الكثير من الألفاظ، وهذا أمر طبيعي جدا في جميع اللغات. فها هي العربية تأخذ من اللغات الأجنبية كلمات مثل الأكسوجين والتلفزيون والكمبيوتر والترامواي والرادار والكاميرا والفيديو ومما لا يحصى من الكلمات.

وهذه الكلمات المتداولة بين ألسنة العرب المعاصرين لا شيء يشير إلى اختلاف أصلها سوى بنيتها الصوتية المقطعية وصيغتها الصرفية. بغض النظر عن إثباتها في المعجم من عدمه.

الأمر ينطبق تماما على ما فعله عثمان سعدي في كتابه معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية (البربرية) الذي ذهب إلى أن أصل كلمة "أرقاز" (argaz) بالأمازيغية هي الركيزة بالعربية، وأن الذي حدث هو إبدال الكاف قاء. في حين أنه أغفل التأنيث الذي حذف في الكلمة والتذكير الذي علامته (a) في بداية الكلمة وهي خاصية من خصائص الكلمة الأمازيغية، تختلف عن علامة التذكير في العربية، بالإضافة إلى أنها كلمة تبدأ بحركة وهو ما لا تقبله العربية.

وكذلك قوله أن ثمطوث من الطمٹ، وسميت بذلك لأنها تحيض، لمجرد التشابه بين اللفظين، وغفل عن كون الثاء فيها علامة تأنيث زائدة، في حين الثاء في الطمٹ أصلية، كما تناسى الباحث كلمة هنا كلمة أمازيغية أخرى هي "أمطو" بمعنى الدمعة، فلماذا لا يكون هذا هو الأصل، فهو أكثر تجانسا من ناحية ترتيب الأصوات، ولأنهما من لغة واحدة من جهة، ثم لأن المرأة كائن كثير البكاء من جهة أخرى، فالباحث اختار التعليل الذي يوافق توجهه السياسي وأغراضه الخفية على حساب الحقيقة العلمية والتاريخية.

كما أن لكلمتي "أرقاز" و"تمطوت" مرادفات أخرى في الأمازيغية، مثل أمتشوك، ثمتشوكث، وهذه أكثر تجانسا من الأولى، وقد تكون هي الأصل. وفي المغرب الأقصى يستخدمون كلمة ثمغارث للدلالة على المرأة.

إن الموضوعية العلمية التي دعا إليها دي سوسير في دراسة اللغة تستدعي النظر في بنية اللغة بعيدا عن الخلفيات الدينية والافتراضات المسبقة، حتى لا نقع في مثل هذا التمثل والتمحن في إرجاع الكلمات الأمازيغية إلى أصول عربية، ولا يخفى أن مثل هذا التمثل سببه الأول هو بعد الباحثين الذين أدلو بدلوها في هذا الموضوع عن مجال التخصص وهو اللسانيات، وسببه الثاني هو الانطلاق من افتراض مسبق بأن الأمازيغية هي لهجة من اللهجات العربية. ولو عدنا إلى أسباب هذا الافتراض وجدناها دينية وسياسية بالدرجة الأولى، إذ إن خوف العرب في الجزائر وفي شمال إفريقيا بصفة عامة من خسارة هذه الأرض التي تجذروا فيها منذ قرون، هذا الخوف الذي زرع في نفوسهم بعد خيبة خسارتهم للأرض الأندلس، جعلهم يستعملون كل الأساليب الممكنة لإثبات عروبة سكان هذه الأرض، وتعريب ألسنتهم للقضاء على أي فكرة محتملة تجعل الأمازيغ يفكرون في ذلك. ولكن الأمانة العلمية تقتضي أن نسجل الحقائق التاريخية كما هي وليس كما يراد لها أن تكون.

استخدام المعجم في التأصيل اللغوي للأمازيغية (دراسة ونقد): إن من يتصفح أعمال الكثير من اللغويين يجدهم يصفونه بأنه خارج النظام اللغوي؛ ذلك أن الوحدات المعجمية تكون مجموع الاستثناءات اللغوية، باعتبار أن الرصيد اللغوي المعجمي يقبل كل التغيرات التي تطرأ عليه، لأسباب لغوية أي داخلية وأخرى نفسية أو اجتماعية أي خارجية، سواء تعلق الأمر بتغيير شكل الدوال وبنيتها، أو تغيير طبيعة المدلولات وحدودها ومجالاتها، فيما يسمى بالتطور الدلالي.

يقول الدكتور تمام حسان: "حقا إن الباب ليس موصدا أمام تصدي الأفراد لارتجال الكلمات للمعاني، ولتحويل الدلالة من معنى إلى آخر، والأفراد يفعلون

ذلك في كل زمان ومكان". ومن هنا تكتسب المكونات المعجمية خاصية التحول المستمر، وعدم الثبات، فهي لا تستقر على حال، حيث تسقط وحدات كثيرة من الاستعمال وتتولد وحدات أخرى كثيرة جديدة، لم تعرفها اللغة من قبل.

فقد درج اللغويون المحدثون على التفريق بين المفردات المعجمية، والمفردات القواعدية، على أساس التضاد الاستبدالي ضمن مجموعات مغلقة ومنفتحة للبدائل ومجموعة أعضاء مثبتة وقليلة العدد، مثل مجموعة الضمائر وصيغ الفعل وجنس الأسماء... الخ، والمجموعة المنفتحة هي المجموعة التي تتألف من أعضاء غير مثبتة وذات قائمة لا متناهية في طولها، مثل صنف الأسماء والأفعال في اللغة وهي التي تسمي الأشياء الموجودة في العالم المحسوس أو المقدرة في العالم المجرد، في حين تحدد المفردات القواعدية فئة هذه الأشياء.

والمجموعة الأولى يطرأ عليها الكثير من التغير والتبدل، فكثير منها يموت وكثير منها ينشأ، هذا فيما تحافظ الألفاظ القواعدية على شيء من الثبات؛ فأسماء الموصول والإشارة وحروف الجر وما شابه قلما تغيرت أو تبدلت عبر تاريخها الطويل.

وإذا أردنا أن نطبق هذه القاعدة على الأمازيغية وجدنا أن أسماء الضمائر وهي قائمة مغلقة وهي (نتش، شك، شم، كنوي، نهني، نهتي) وهي على الترتيب (أنا أنت، أنت، أنتم، هم، هن) ليست مأخوذة من العربية، كما أنها تختلف عن العربية في كونها لا تحوي المثني، والمثني خاصية جوهرية في اللغة العربية.

أليست هذه الخاصية المميزة بينهما كفيلاً بقولنا أنهما لستنا من أصل واحد، بل هي كفيلاً بطرح سؤال آخر وهو ألا يمكن أن يكون لذلك علاقة باللغات الأوروبية التي لا تحوي المثني؟

ثم إذا نظرنا إلى الأطروحات التي قدمها المؤصلون للأمازيغية في العربية أمثال الجزائري عثمان سعدي وجدناها تستند إلى الكلمات التي تمثل الاختلاف

اللهجي، ولا تستند إلى المشترك بين اللغات الأمازيغية، لأن المشترك بين هذه اللغات هو الأصل، ومنه يمكن الانطلاق في التأصيل، وليس من المختلف فيه، لأن المختلف فيه معظمه مقترض.

إذن فافتراض الأمازيغية من اللغة العربية على مستوى المعجم أمر لا يمكن نكرانه وهو ظاهرة جلية بقدر جلاء الاحتكاك والتعايش الطويل بين اللغتين، إلا أن هذا الأمر لا يمكن أن يكون دليلا كافيا على أنهما من أصل واحد، فالأمر بحاجة إلى أدلة لسانية أقوى،

وخاصة أن علماء اللغة العربية أنفسهم يرون أنه لا ضير أن يحتوي معجم اللغة أي لفظ مولد أو معرب أو دخيل إذا أخضع اشتقاقه للقواعد القياسية التي وضعها علماء اللغة وفق أسس علمية رائدة، وأن التعريب قد أصبح من أشهر وسائل التوليد في نظرية المعجم. هذا في اللغة العربية لغة القرآن الكريم فما بالك باللغة التي لا يحكمها دستور إلهي ولا دستور بشري، ولا توثقها وثائق ولا تقيدها صحف.

لذلك لا يمكن منع الدخيل والمقترض في اللغة الأمازيغية واستخدام هذه الخاصية لمهاجمتها ونفي وجودها أو إعادة أصولها إلى لغة اقترضت منها.

إن إغفال أو جهل المؤصلين لقوانين اللغة وخصائصها جعلهم يقعون في فوضى واضطراب في تأصيل اللغة الأمازيغية، فهذا الدارودي نفسه يذكر التخبط الحاصل بين المؤصلين للأمازيغية في اعتبار بعضهم بعض الكلمات من الدخيل واعتبار الآخرين لها من الأصل، فمثلا محمد شفيق صاحب المعجم العربي الأمازيغي يستبعد لفظة (لقدعت) لكونها عربية، ويدخلها علي السهلي في معجمه الخاص باعتبارها أصيلة، ويقبل شفيق (أمولز وانفرك) باعتبارهما أصيلتان، ويثبت الباحث الدارودي أنهما عربيتان، ويعتبر بعضهم التطابق بين الكلمات العربية والأمازيغية من قبيل المصادفة، كما يذهب إلى ذلك صاحب قاموس (أوال).

إن التطور الكبير الحاصل في اللغة الأمازيغية لهو أمر عادي جدا بالنسبة لعمرها الطويل وظروفها التاريخية والتميش والحرمان من التدوين والإقصاء من التعليم وحتى الاستعمال اليومي في بعض الأحيان، ومن البديهي أن تهجر كثير من ألفاظها، فاللغة التي تزاخمها على ألسنة متكلميها لغات عالمية وعلمية مثل العربية والفرنسية، من الطبيعي أن يستبدل حرفها بحرف آخر، ونظام حسابها بنظام آخر فهذا حكم الاستعمال.

ومن الطبيعي في لغة قديمة كالأمازيغية أن يحدث فيها كل هذا التغير والهجر والاقتراض. وهذا لا يغير حقيقة أصلها الذي ما يزال يطرح أسئلة جوابها الصحيح مرهون باستخدام منهج لساني موضوعي ينظر في بنيتها ومشاركتها بدل النظر في مقترضاها ومختلفها.

منهج تعليم اللغة الأمازيغية:

للتفصيل في هذه الأسس يجب النظر في ما يلي:

• علاقة اللغة بأركان المثلث التعليمي: يتشكل المثلث الديداكتيكي من ثلاث عناصر أساسية: المعلم، المتعلم، والمعرفة، ولكن هذا المثلث لا تكتمل أركانه إلا بتحديد العلاقة بين هذه الأركان، هذه العلاقة التي تمثل اللغة الواسطة أو الرابط بينها: فيكون لدينا ضمن هذا المثلث مثلث لغوي مطابق له وهو:

لغة معلم لغة متعلم

لغة المادة المعرفية

ومن الأسس اللسانية لبناء المناهج التعليمية تحديد لغة التعليم التي يفترض أن يستخدمها المعلم في التواصل مع المتعلمين وتوصيل المعرفة لهم، لأن المعلم قد تختلف لغته اليومية عن اللغة التي يحددها العقد الديداكتيكي وهي لغة التعليم، وهي هنا الفصحى.

كما لا يمكن إغفال لغة المتعلم في بناء المناهج التعليمية، وبيان علاقتها باللغة التعليمية واللغة المتعلمة، إذ قد تكون لغة التعليم مختلفة عن اللغة المتعلمة، وتجدر بنا هاهنا التمييز بين العربية الفصحى ولهجاتها القديمة التي جمعت ودونت في المصنفات والمعاجم، وبين اللغة العربية المعاصرة التي تشبعت بشكل كبير بالمولد والمحدث والمعرب والمقترض، ولهجاتها التي اختلطت بألسنة الأعاجم وابتعدت بشكل كبير عن الفصحى في جميع مستوياتها النحوية والصرفية وحتى الصوتية.

أما لغة المادة المعرفية، فهي الأخرى يجب أن تحدد علاقتها بالمعلم وبالمتعلم فغالب المواد العلمية والمعرفية تأتينا بلغات أجنبية، وخاصة اللغة المتخصصة (المصطلحات)، وهذا يطرح إشكالا على مستوى المفاهيم التي عادة ما تحور أثناء الترجمة، لتصل المعرفة إلى المتعلم مشوهة وخارجة عن سياقاتها ومنطلقاتها المعرفية. وهنا نشير إلى أهمية المعاجم المدرسية والمعاجم المتخصصة.

وبالنظر في تعليمية اللغة الأمازيغية تكون لغة التعليم مختلفة عن لغة المتعلم إذ يستخدم المعلم الفصحى في التعليم والأمازيغية أو الفرنسية في التواصل اليومي... وهنا يستوجب على بناء المناهج أن يختاروا المنهج الملائم لتعليمية الأمازيغية بالنظر إلى علاقة المتعلم بها. بين: منهج تعليم اللغة الأم (الأولى) ومنهج تعليم اللغة الثانية، والواقع يبين أم معظم مناهجنا تتعامل مع اللغة العربية بالنسبة للأمازيغ باعتبارها اللغة الأم، وهذا غير صحيح.

فقد استفادت التعليمات التطبيقية من تمييز اللسانين بين تعليم اللغة الأم وتعليم اللغة الثانية، وبيان علاقتها بالفكر في وضع المناهج اللغوية.

توظيف مرتكزات نظرية اكتساب اللغة الأم في تعليمية اللغة: من أشهر نظريات اكتساب اللغة الأم النظرية البيئية "التي تفسر اكتساب اللغة وتعلمها على أنه وليد البيئة والتنشئة الاجتماعية، فالبيئة والعوامل الخارجية هي التي تشكل السلوك اللغوي للإنسان الذي يولد ولديه استعدادات للتعلم.

فاكتساب الإنسان الأمازيغي للغته في البيئة التي يعيش فيها يجعلها أسهل في التعليم بصفتها لغة أما لا لغة ثانية.

دور اللغة الأولى (الأم) في تعلم اللغة الثانية: دلت بعض الدراسات على أن إتقان الفرد للغته الأولى يسهل عليه تعلم اللغة الثانية، لأنه يكسبه خبرة في التعلم بشكل عام، عند تعلم لغة ثانية، لذلك يجب استعمال لغة الطفل الأولى أو اللغة الأم كوسيط في التعلم في السنوات الأولى للدراسة. مع أن بعض اللسانيين المحدثين يرفضون هذا الوسيط في تعلم اللغة، ذلك أنهم يدعون إلى تقريب منهج تعليم اللغة الثانية من الاكتساب اللغوي، وذلك بالتواصل بها مع المتعلمين بالطريقة نفسها التي يتواصلون بها باستعمال اللغة الأولى، لضمان اكتسابها في سياقاتها الوظيفية التواصلية، لأن ما يرسخ اللغة في الذهن هو استعمالها الوظيفي وتداولها الفعلي.

لذلك فإن المدرسة يجب أن "توفر أكبر الحظوظ الذهنية والمادية والاتصالية لإنجاح اكتساب اللغة أو اللغات، فتكون اللغة أداة فكر وتفكير، وأداة اتصال" فالطفل عند تعلمه للغة الثانية في المدرسة يجد نظامه العقلي يتشكل بمفاهيم وقيم تختلف عما ألفه بلغة أمه، فتعلم لغة ثانية إذن يتضمن مهمة مختلفة جدا عن تعلم اللغة الأولى، وهذا ما نادى به بعض النظريات، نذكر منها:

النظرية المعرفية: التي تهتم بالعوامل الداخلية المنظمة، وخاصة دور العمليات المعرفية العقلية في اكتساب اللغة الثانية وتعلمها، ومن المبادئ الأساسية لهذه النظرية: أن تعلم لغة ثانية يعني تعلم المهارة اللازمة لذلك وهذا يتطلب ممارسة جميع جوانب هذه المهارة حتى تصبح متكاملة كأداء لغوي طلق وسليم إلى أن يصبح الأداء آليا.

وهناك إعادة ترتيب وتقويم باستمرار التمثلات الداخلية تتناسب مع تزايد قدرة المتعلم اللغوية حسب ترتيب التمثلات اللغوية حسب سهولتها أو صعوبتها.

تعليمية اللغة الأمازيغية للناطقين بغيرها (الناطقين بالعربية والفرنسية): تعد الأمازيغية بالنسبة للعرب وغيرهم من الناطقين بغيرها لغة أجنبية، وتختلف الغاية في تعليم اللغة للناطقين بغيرها باختلاف الدافع الذي يدفع الدارس إلى التعلم، فقد يكون هذا الدافع ثقافيا أو علميا أو اجتماعيا أو فرديا. وللوصول إلى النجاح في اكتساب اللغة الأمازيغية للناطقين بغيرها لا بد من استوفي العمل التعليمي أركانه وأن يراعى الجوانب النفسية والاجتماعية واللغوية المختلفة، وهذه الأركان هي التلميذ والمعلم والكتاب ولا سبيل إلى الاستغناء عن واحد من هذه الأركان.

ومن النظريات اللسانية التي قدمت فكرة جديدة عن منهج تعليم اللغة الثانية أو تعليم اللغة للناطقين بغيرها، نذكر:

نظرية شرومان: يعتبر شرومان اكتساب اللغة الثانية مظهرا من مظاهر التكيف الثقافي، وأن درجة التكيف الثقافي لمتعلم اللغة تقرر درجة إتقان هذه اللغة، وحسب وجه نظر شرومان اكتساب اللغة الثانية يقررها البعدان النفسي والاجتماعي.

لذلك يفترض أن تقدم اللغة الثانية للمتعلمين مربوطة بسياقاتها الثقافية والاجتماعية التي ترتبط بها كثير من دلالاتها التداولية، لأن اللغة تتغير رمزياتها بتغير العلاقة الوضعية والاصطلاحية، فمثلا قولنا: أثلجت صدري: تقابل العبارة

الفرنسية: tu ma chauffai le ceure

خاتمة:

في الأخير نود أن نسأل جميع المهتمين باللغة الأمازيغية: أليس الأجدر بنا كباحثين لسانيين موضوعيين أن ندع الخصائص اللغوية تتحدث بنفسها وتثبت بنفسها اللغات؟

إن أمر اللسانيات الأمازيغية وتعليميتها يحتاج إلى تكوين مختصين، مزودين بمختلف النظريات اللسانية من جهة، ومتمكنين من اللغات الأمازيغية ولهجاتها المختلفة، من جهة ثانية، ومطلعين على العلوم البيئية والمساعدة، من جهة ثالثة ومتمكنين من بناء المناهج التعليمية من جهة أخرى.

إن التحلي بالموضوعية والابتعاد عن الخلفيات الدينية والسياسية والقومية وغيرها من المنطلقات سيقينا — لا محالة — من إطلاق الأحكام القيميّة والذاتية والنتائج الموجهة مسبقا هو السبيل الوحيد لتطوير اللسانيات الأمازيغية في الجزائر. إن الاهتمام بتعليمية اللغة الأمازيغية وتطوير اللسانيات الأمازيغية لا يؤثر سلبا على البلاد، بل هو وجه من وجوه الثراء والتطور الفكري الذي يجب أن يمس جميع المجالات والقطاعات دون إقصاء، وهذا من شأنه تحقيق العدالة الاجتماعية. إن تعليمية اللغة الأمازيغية بحاجة إلى تطوير اللسانيات الأمازيغية وإخراجها من السياقات المضللة، وهذا يحتاج بدوره باحثين مسلحين بالمنهج العلمي اللساني ويمتلكون الجرأة على قول الحقيقة.

الحق في التنوع الثقافي

في ظل التأكيد على الخصوصيات الثقافية "

أ. نبيلة بن عائشة

جامعة المدينة.

مقدمة: يعرف التنوع الثقافي بأنه وجود العديد من الثقافات في مؤسسة معينة أو في مجتمع أو في العالم، أو هو عبارة عن مجموعة من الثقافات المختلفة والمتنوعة ومن أبرز الأمثلة على التنوع الثقافي الثقافات المتجانسة، والثقافة العالمية، وقد تشير إلى وجود العديد من الثقافات المتنوعة والتي تحترم بعضها البعض، ويتم استخدام هذا المصطلح في الكثير من الأحيان في الثقافات المجتمعية، كما أنها من الممكن أن تكون من الأسباب الرئيسية للعولمة، وتختلف الثقافة بشكل تام في الكثير من المجتمعات مثل التقاليد واللباس واللغة، ويوجد العديد من الاختلافات بين المجتمعات في كيفية تنظيم أنفسهم، وتصورهم للأخلاق، بالإضافة إلى كيفية تفاعلها مع البيئة. وتكمن مظاهر التنوع الثقافي في:

- **اللغة:** تميّزت الحضارات والأمم بلغاتها الخاصة على مرّ العصور والأزمان حيث تعتبر هي الركن الأساسي الذي تقوم الثقافة عليه، كما أنها تعد أحد مظاهر الاختلاف بين الحضارات والأمم، حيث نجد كل أمة تفتخر وتنتباهى بمزايا لغتها بالإضافة إلى أنها تحرص على تعليمها للجميع بشكل دائم، فهي البوابة التي تستخدم للتعرف على جميع الحضارات، والتمازج بين الشعوب في كافة أنحاء الأرض.
- **الدين:** يعتبر أمر التعرف على الأديان العديدة التي انتشرت في كافة أنحاء الأرض من أفضل السبل لتلاحم الشعوب والأمم، بالإضافة إلى التعرف على العديد من الحضارات وعوامل الاختلاف الحضاري.

• العادات والتقاليد: تعتبر على رأس الاختلاف الثقافي والحضاري بين الأمم حيث إن الأمم تحرص على توريث جميع عاداتها وتقاليدها. ويهدف التنوع الثقافي إلى الاعتراف بشرعية جميع الثقافات الموجودة في المجتمع، حيث أنها تمثل جزءاً مهماً من المجتمع والتعرف على عادات الثقافات الأخرى وقيمتها وتقاليدها، بالإضافة إلى إعطاء فرصة تعمل على تحقيق المساواة والحريات بين جميع الثقافات الموجودة داخل المجتمع كسّن القوانين على سبيل المثال، مع وجود الاحترام بين الثقافات المختلفة داخل المجتمع، بالإضافة إلى التحقيق الذاتي للفرد، وتطور النقد الذاتي.

ولكن هناك سلبيات للتنوع الثقافي لابد من تجنبها للحفاظ على الوحدة الوطنية وهي من الممكن أن يؤدي الصراع الثقافي إلى حرب أهلية عند خلق دستور موحد وقوانين موحدة للدولة، وقد يؤدي إلى فوضى وعدم استقرار اجتماعي، أي لا يوجد أية قوانين موحدة لجميع الثقافات بسبب وجود اختلاف في العادات والقيم كما قد يؤدي إلى تفكيك وحدة المجتمع والنسيج الاجتماعي، مما يؤدي إلى جعل المجتمع كالفيسفساء، ويعود السبب في ذلك إلى أن لكل ثقافة نمط حياة وعادات وتقاليد، دون أن ننسى أنها تساهم في تكوين إطار خاص للثقافة وانغلاقها على نفسها، مما يؤدي إلى تفكيك الإطار المشترك وهو الدولة.

وعليه تهدف المداخلة لتوضيح الأسس الفلسفية والقانونية للحق في التنوع الثقافي والذي يشكل حقاً يستحق الإحاطة به وفهمه والدفاع عنه كما لابد الحفاظ عليه وحمايته، خاصة مع تراجع عالمية حقوق الإنسان لتغيبها وإقصائها للحق في التنوع الثقافي واستعمال الخصوصيات الثقافية لانتهاك الحقوق المضمونة في القانون الدولي أو الحد منها، كما نتعرض إلى إعادة بروز هذا الحق في ظل ظروف ومتغيرات جديدة من قبيل تصاعد المطالب الهوياتية والحقوق الثقافية، إضافة إلى الاستبعاد

الثقافي لبعض المجموعات وفشل العديد من نماذج التنمية بسبب تهميش واستبعاد البعد الثقافي للتنمية.

ولذا تطرح الإشكالية التالية: كيف يمكن بناء الحق في التنوع الثقافي دون إقصاء عالمية حقوق الإنسان للخصوصيات الثقافية؟.

المحور الأول: فواعل الحق في التنوع الثقافي.

المحور الثاني: دور التنوع الثقافي في بناء التنمية الإنسانية المستدامة.

وعليه تحليل الموضوع:

المحور الأول: فواعل الحق في التنوع الثقافي:

التنوع الثقافي أو التعددية الثقافية عبارة عن وجود ثقافات مختلفة في العالم أو في مجتمع أو مؤسسة معينة. والتنوع الثقافي هو مجموعة من الثقافات المتنوعة أو المختلفة، بدلاً من الثقافات الأحادية. مثال الثقافة العالمية، أو الثقافات المتجانسة. عبارة التنوع الثقافي يمكن أن تشير أيضاً إلى وجود ثقافات مختلفة وكلاً منها يتبادل الاحترام لهذه الاختلافات. وتستخدم في بعض الأحيان عبارة "التنوع الثقافي" بمعنى تنوع المجتمعات البشرية أو الثقافات في منطقة معينة أو في العالم ككل وكثيراً ما يقال أن الثقافات المختلفة تكون سبباً للعولمة وهو أن يكون لها أثر سلبي على التنوع الثقافي في العالم.

وينشأ تعدد الثقافات في ظل الوجود أو القبول، أو التعزيز للتقاليد الثقافية المتعددة ضمن اختصاص واحد، والذي يعتبر عادة نتاج الثقافة المرتبطة بالجماعات العرقية ويمكن أن يحدث هذا التعدد الثقافي عندما يتم إنشاء سلطة قضائية أو توسيعها عن طريق المناطق المدمجة بثقافتين أو أكثر أو عن طريق الهجرة من ولايات مختلفة من جميع أنحاء العالم.⁽¹⁾

وحتى يتحقق الحق في التنوع الثقافي لابد من تدعيمه من قبل الفرد والدولة والمجتمع:

1- الفرد: في إطار علاقة الفرد بباقي الأفراد الآخرين نجده يشارك ويتفاعل في دعم التنوع الثقافي، فيتفاعل تأثراً وتأثيراً مع ثقافة الآخرين، وسلوك الفرد بالتسامح إزاء قيم الآخرين واحترامهم كما هم (بمكوناتهم الثقافية واللغوية والدينية...) ما يعني الاحترام المتساوي للتنوع الثقافي وبالتالي احترام التعبير عن القناعات، وإن لا تستعمل بعض الحقوق على غرار حرية التعبير لضرب الحق في التنوع الثقافي.

وفي هذا الصدد أشير إلى إشكالية مهمة وهي قضية دخول الحق في التنوع الثقافي في نزاع، وهناك تتصارع الحقوق والحريات خاصة حرية الرأي والتعبير والتي قد تنتهك الخصوصية الثقافية والحريات والمعتقدات الدينية لذلك نجد أن المادة 05 من العهد الدولي للحقوق السياسية والمدنية والمادة 17 من الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان تمنع تمتع واستفادة من كل من يدعو إلى الأحقاد والكرهية العنصرية والدينية من حرية التعبير.

كما أن الأفراد المنتمين إلى أقليات - مهما كان شكلها - يشعرون باحترام وتقدير نواتهم عندما يتم الاعتراف لهم ببعض الحقوق الخاصة التي من شأنها إثراء الحق في التنوع الثقافي كاللغة التي يتكلمونها وإدراجها ضمن المناهج التعليمية والمؤسسات الحكومية، وبالتالي يجدون الفرصة متاحة لتعزيز وتقوية ثقافتهم، لأن إضعاف ثقافة فرد ما أو جماعة ما هو إلا اعتداء على حقوق أفرادها وكرامتهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى يسهم ذلك في جعل الآخرين يحترمون بدورهم هذه الثقافة.

كما أن الفرد كلما استفاد من الحقوق الثقافية ومن الحق في التنوع الثقافي بصورة عامة وانتفع به فسيدخل في علاقات سلمية مع باقي الأفراد والمجتمع مما يسهم في تحقيق السلم والأمن المجتمعين، كما من شأن ذلك تقوية ثقة الأفراد في نفوسهم وفي مجتمعهم ونظرتهم نظرة إيجابية إلى ثقافتهم.

وكلما أشبعت الحاجات الثقافية وتمتع الفرد بحقه في التنوع الثقافي ومتى توفرت البيئة المساعدة على ممارسته فإن شرعية الدولة التي لا تمارس أي إقصاء أو

تتميش إزاء فرد أو جماعة ما (أي ثقافة ما) تزداد، بل وتزداد معها ثقة الفرد في دولته وفي مؤسساتها وتحقيق العلاقة السلمية مع الدولة وبالتالي يكون للأفراد بمنأى عن كل مظاهر التعصب والتطرف والانغلاق على الذات، ويكون من شأن ذلك تقوية الانفتاح على الثقافات الأخرى، لأن الاستبعاد السياسي أو الاقتصادي إذا ما اقترن بالبعد السوسيو ثقافي يعتبر من أهم مغذيات العنف والتعصب والإرهاب والتطرف وضرب استقرار الدول وأمنها.

2- الدولة: إن دور الدولة يشهد تراجعاً على المستويين الداخلي والدولي سواء في وضع المعايير القانونية من الناحية الوظيفية، وذلك لظهور فواعل أخرى محلية وأخرى فوق وطنية تنافسها في وضع وصياغة القواعد القانونية، والمقصود بالدولة كمستوى لدعم الحق في التنوع الثقافي ليس تلك الدولة المتجانسة ثقافياً بل الدولة المتعددة ثقافياً أو على الأقل التي تعترف بالتنوع الثقافي ووجود جماعات متنوعة فوق إقليمها، بل تسعى إلى تأطيره ومأسسته، فالتنوع أصبح ميزة المجتمعات الحديثة والدول على حد سواء، وبالتالي يقع على هذه الدول توفير البيئة الملائمة لتمكين الأفراد ومختلف المجموعات من ثقافتها ودعم مشاركتها في الحياة الثقافية من جهة وفي الحياة العامة، فالدولة بفعل تراجع التجانس الثقافي وازدهار التنوع الثقافي، ومن جهة أخرى تحقيق التعايش الثقافي بين هذه المجموعات من أجل تحقيق السلم وضمان استقرار الدول.

وعلى ضوء هذا يمكن القول أن دور الدولة في دعم الحق في التنوع الثقافي يكون عبر ثلاثة وسائل أو إجراءات تتمثل في الاعتراف، الاحترام، الحماية وكذلك عملية التفعيل الذي لا يقع عليها حصرياً بل تشاركها في ذلك فواعل أخرى.⁽²⁾

وتجدر الإشارة إلى أن الفلسفة السياسية الغربية لم تكن مهتمة بالنظر في العلاقة بين الدولة والتنوع الثقافي، فقد اثبت التاريخ أن هذه المجتمعات الغربية متعددة الاختصاصات وإن المدن الأثينية أو الاسبارتية في حد ذاتها لم تكن تخضع لمبدأ

التجانس الثقافي، كما أن الأفراد يشتركون داخل النموذج المثالي للمدينة في اللغة والتاريخ والثقافة وفي جملة الممارسات وان كانوا منتمين إلى نظام سياسي متعدد من الناحية الأثنية، الثقافية، اللغوية، وهو ما عبر عنه كل من أرسطو وروسو وماركس، لذلك فإن المنظرين للمسألة السياسية لم يتمكنوا من الإمساك بفهم واضح للتفاصيل الداخلية المعقدة التي تربط الجانب السياسي بمسألة التنوع الثقافي، ولعل سبب التأخر في التطوير لمفهوم التنوع الثقافي راجعة إلى رد فكرة " التنوع " بالصراع بناء على انه حيثما حل التنوع يحل الصراع، وقد عالج ماكس فيبر هذا الأمر عندما ذكر أن " مسألة التعدد " تحيل على " تعدد القيم " إلى الحد الذي يستحيل معه إجراء مصالحة بين وجهات النظر الأخلاقية التي تنتمي إلى سياقات مختلفة ويقارن ماكس فيبر تعدد سياقات القيم بتعدد الآلهة التي كانت تعبد قديما، فكل الهه طقوسه، فلا يمكن للآلهة أن تتقمص ادوار بعضها بعضا، فهل يمكن الاعتراف بالتعدد الثقافي في غياب تدخل الدولة ؟.(3)

3- المجتمع: يعد المجتمع الإطار الأشمل الذي يحوي البشر وينظم العلاقة فيما بينهم في إطار اقتصادي واجتماعي محدد، وهو يتطور من خلال علاقة فئاته ببعضها البعض، لذلك يلعب دورا هاما في دعم الحق في التنوع الثقافي لأنه هو الإطار الذي تمارس فيه مختلف الثقافات، وعلى هذا الأخير أن يوفر المناخ المناسب لاحترام الاختلافات والتباينات، فهو يخلق الظروف المساعدة لتمتع الأفراد بهذا الحق، فلا ينظر بنظرة مريبة إلى أفراد الأقليات أو المهاجرين مثلا، ولا النظر إليهم بازدراء باعتبارهم خارجين أو غرباء عن الثقافة السائدة في المجتمع، بل يقع عليه إدماج هؤلاء الأفراد والجماعات في الحياة العامة، دونما السعي لتدوين ثقافتهم وأن ينظر إلى ثقافتهم كجزء من ثقافة هذا المجتمع بصفة عامة.

كما يلعب المجتمع المدني دوره في دعم الحق في التنوع الثقافي من خلال مقومه الجوهري المتمثل في قبول التنوع والاختلاف بين الذات والآخرين، كذلك على

المجتمع أن يشجع إزاء كل ما هو مختلف وأن يقبل به كما هو وأن يحتويه ويحاول دمج دون محاولة تذويبه فيكون مفتوحا على جميع الهويات يؤمن بالتعددية وبفكرة أن الهوية مشروع مفتوح باعتباره بناء اجتماعيا ديناميكيا وليس نظاما مكتملا. كذلك على المجتمع أن يؤمن بأن التنوع الثقافي هو عامل قوة داخل الثقافة إذا ما تمت رعايته وحافظت كل مجموعة على مقومات ثقافتها مع المساواة في الحقوق السياسية والمدنية وعدم التعرض إلى التمييز بسبب الانتماءات الثقافية أو الدينية أو العرقية...

كما يلعب دوره في دحض الخطابات المحرصة وكره الأجانب والعنصرية، فكلما استهجنها وتلقاها تلق سلبي فسيتناقض أثرها وحدتها، كذلك من خلال بعض الأحكام النمطية المسبقة عن الآخر، إضافة إلى دوره الوقائي والإستباقي في تفادي الصراعات والتوترات في الهوية التي تعتبر من أسباب الحروب والإرهاب. كذلك تساهم الوكالات الدولية المتخصصة كاليونيسكو⁽⁴⁾ وما تلعبه من دور كبير في ذلك من خلال المؤتمرات والندوات والبحوث والاستراتيجيات التي تضعها وتحضيرها لبرامج العمل ومواثيق وإعلانات ومبادرات تصب كلها في خانة ترقية الحق في التنوع الثقافي وتعزيزه ومنظمات غير حكومية تعنى بذات الشأن مثل الشبكة الدولية للسياسات الثقافية.⁽⁵⁾

المحور الثاني: دور التنوع الثقافي في بناء التنمية الإنسانية المستدامة:

تشهد المجتمعات المعاصرة تحديات وتحولات في الخطاب الثقافي، أصبح إشكاليا في زمن متغير، حيث انهارت الكثير من الإيديولوجيات والأفكار والنظم، وسيطرت المعرفة العلمية على الطبيعة وأحدثت طفرات معرفية في علوم الإنسان والتي انبثقت عليها قراءات جديدة للحدثاء وحملها لشعارات العقل والحرية والتقدم، ومما زاد الأمر حدة بروز الثورات العلمية والتقنية والمعلوماتية أدخلتنا معها في طور حضاري جديد، ولعل أحد أهم ملامح أزمة الخطاب الثقافي المعاصر تكمن في محاولة التعرف

على عناصر ومكونات ثقافة العولمة وما تتطوي عليه من قضايا الثقافة الوطنية والهوية الحضارية، والخصوصية القومية، وتعدد الثقافات، والعنصرية، والأقليات والهجرة".

يتجدد كل مرة الإشكال الثقافي نتيجة لتصادم القطبين يتمثل الأول في الالتزام الغربي بمقتضيات الكونية الناتجة عن مسار تَوَحُّد البشرية واقتران مصائر أبنائها من خلال ثورة الإعلام والاتصال والاندماج في الاقتصاد العالمي. وينعكس الثاني في الإقرار أقليمي والمعياري بحق الثقافات في الاختلاف والتمايز وتمائلها من حيث القيمة والمشروعية.

ومما يزيد الأمر تعقيدا أنَّ الثقافة الكونية، غزت الكرة الأرضية نتيجة لاقتصاد متطور والاتصال متميز برغم من تعدد الثقافات الوطنية والمحلية.

إن التنوع الثقافي حقيقة وواقع يشهد على الكثير من الثقافات المتنوعة والمتميزة التي يشهدها عالمنا، وتختلف الجرائر عن العالم الآخر في تنوعها الثقافي المتبلور من الآلاف السنين، إلا أنها تأثرت بالثقافة الكونية العولمة في ظل الحداثة وتبلورت لدى مجتمعها مجموعة من الثنائيات تعكس الأولى المحلي والثانية العالمي، ويمكن أن نختصرهم في "التقليد والتجديد، المحافظة والتحديث، الجمود والتحرر، الرجعية والتقدمية، الأنا والآخر، المحلي والعالمي".

إشارةً إلى أهمية التنوع الثقافي في الجزائر، تساهم هذه السياسة الثقافية في ترقية وتمكين كل عنصر ثقافي يعمل على التعريف بالهوية الوطنية بكل عناصرها، يجب أن يعاش التنوع الثقافي كعامل جمع بين مختلف الفئات المكوّنة للمجتمع الجزائري ضمن هذه النظرة تسعى هذه السياسة الثقافية من أجل تحسين وحدة التنوع الثقافي.⁽⁶⁾ وتعدّ الثقافة ركيزة من ركائز التنمية وهو ما يستوجب أن تحترم نماذج التنمية خصوصية وهوية المجتمعات وأن تحترم ثقافة الأفراد وأن يتعدى التمكين الحقوقي ليشمل كل الفئات الهشة ويمتد إلى الأقليات والمهاجرين والشعوب الأصلية، لأن

التنمية تتم بالناس ومن أجلهم وهو ما يقتضي ضرورة إشراكهم في صنع القرار ومختلف المسارات التي تهم حياتهم، وتبرز هنا بشكل خاص أهمية منظمات المجتمع المدني وإمكانية المحاسبة والتعديل عند الضرورة، كما أن تحسين ظروف المجتمع يجب أن يحافظ على القيم الاجتماعية وإنتاج قيم جديدة وأن يوسع من حرية الفرد ليتمكن من التعبير عن مكنوناته وإتاحة فرص الاتصال والتطلع إلى فضاءات جديدة. ومن خلال العدالة والاستدامة يمكن تهيئة الظروف لتمكين الجيل الحالي الالتزام بحفظ التراث المادي والتراث غير المادي وحفظ كل مكونات التنوع الثقافي.

وتهدف التنمية إلى تعزيز الحرية الثقافية لأن حرية الفرد في اختيار نمط وأسلوب حياته هو إقرار بالتنوع الثقافي ذاته، في حين أن محاولة تهميط الأشخاص وطمس معتقداتهم وهوياتهم وتبايناتهم الثقافية مآله قمع الحريات بالضرورة، كما تلعب الحرية الثقافية دورها المركزي في تمكين الأشخاص من العيش كما يرغبون وهذا العيش لا بد له من مؤسسات وسياسات تحققه.

وقد أكد إعلان مكسيكو بشأن السياسات الثقافية لسنة 1982 على الدور المركزي الذي تلعبه الثقافة في تحقيق التنمية واعتبر أن التنمية بدون ثقافة هي كالجسد بدون روح، وأن مفهوم التنمية يجب أن يمتد لتحقيق الارتقاء بالأذواق من جهة، ومن جهة أخرى أكد على ضرورة القيم والمعتقدات (لب وجوهر التنوع الثقافي) لتسترشد بها استراتيجيات التنمية وأن العامل الرئيسي لنجاحها هو تواءمها وموافقتها له، فالحرية الثقافية تتمحور فرصة الاختيار المتوفرة أو الممكن توفرها للناس لقيادة نوع من الحياة التي يعطونها قيمة، وهو ما أعاد التأكيد عليه التقرير النهائي للمؤتمر الدولي الحكومي بشأن السياسات الثقافية المنعقد بستوكهولم عام 1998.⁽⁷⁾

وعليه فالالتقاء الرئيسي بين الثقافة والتنمية هي الحرية الثقافية التي يجب أن تعمل التنمية على توسيعها، وأن أحسن مقاربة للتنمية هي المقاربة الشاملة التي تأخذ المكون الثقافي والجانب القيمي محل اعتبار وتؤمن بالتنوع الثقافي وحق الإنسان

بالتمتع بثقافته الخاصة وبالتمتع بثقافة الآخرين في الوقت ذاته كلما أراد ذلك وتوفر المناخ الملائم لتحقيق العيش المشترك وتقضي على أسباب الاضطرابات والتوترات والإقصاء الثقافي الذي يغذي كل أشكال العنف والتطرف وتمتد آثاره السلبية على المدنيين المتوسط والبعيد، وهذه المقاربة التنموية لن تكون من صنع وإعداد الدول وحدها بل يجب إشراك جميع الفاعلين فيها، خاصة المجتمع المدني الذي يكون أدرى بما يتناسب وقيم المجتمعات وزيادة مشتركة المواطنين لان التنمية تتم بالناس ومن اجلهم، حتى لا يبقوا مجرد متلقين سلبيين لثمار البرامج التنموية فهم ملزمون بالمشاركة في تشكيل هذه المسارات.⁽⁸⁾

خاتمة: وفي الأخير يمكن القول أن التنوع الثقافي كما جاء في العديد من الإعلانات والمواثيق الدولية هو التراث المشترك للإنسانية الواجب الحفاظ عليه، وأن اندثار أي ثقافة أو لغة هو زوال لنمط من أنماط الحياة وفي حفظه حفظ لحقوق الإنسان وحقه في الاختلاف وحق الشعوب في هويتها الثقافية خاصة في ظل العولمة التي أعادت النظر في العديد من المفاهيم والمسارات والتصورات وساهمت في ضياع ذات الإنسان وهويته وثقافته بحكم:

- إلغاء الاختلافات الثقافية والحضارية من خلال عملية التعميط والتوحيد والتجانس الثقافي.

- تماثل البشرية وانتفاء الاختلاف منها وفق ما هو مخطط له في استراتيجيات الهيمنة.

ولهذا فان التنوع الثقافي أصبح يشكل مسألة ذات أولوية لا بد من إعادة التفكير فيه وتنظيمه، واحترام الحق في الاختلاف هو الحق في التنوع الثقافي، لان ذلك يعزز في القيم الديمقراطية وحرية التعبير والحريات العامة ومن حق أي شخص الانتماء إلى ثقافة ما وبالتالي تدعيم الحرية الثقافية في ظل التنوع الثقافي، خاصة انه

لا وجود لصراع ثقافات إنما هناك تجاهل لثقافة على حساب ثقافة أخرى من خلال فرض قيمها.

وعليه لابد من:

- تقنين الحق في التنوع الثقافي والاعتراف به.
- ضرورة خلق بيئة تمكينية لصالح الفئات التي تعبر عن التنوع الثقافي وتعاني من التهميش والاستبعاد.
- إشراك جميع الفواعل من مختلف الانتماءات من أجل تكثيف وتنسيق الجهود والبحث عن حلول لربط شرعية مطالب الوحدة السياسية في التنوع الثقافي وذلك من تطوير احساس مشترك بالانتماء مع احترام شرعية الاختلافات الثقافية وتعزيز الهويات الثقافية المتعددة دون إضعاف الهوية الوطنية المشتركة.

قائمة المراجع:

1- www.wikipedia.org

2- زراري حبيبة: الحق في التنوع الثقافي، مذكرة ماجستير حقوق جامعة سطيف، للسنة الجامعية 2013/2014، ص 62.

3- فوزية ضيف الله: الدولة والتعددية الثقافية، مجلة مؤمنون بلا حدود، مؤسسة دراسات وأبحاث للنشر، المغرب، سنة 2015، ص 06.

4- تقرير اليونسكو العالمي، (2001)، الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات.
-<http://www.wipo.int/export/sites/www/tk/en/publications/1023.pdf>

5- زراري حبيبة: المرجع السابق، ص 64.

6-<http://histoire.maktoobblog.com>, consulter le 11/10/2014

7- التقرير النهائي للمؤتمر الحكومي للسياسات الثقافية، ستوكهولم أبريل 1998، وثيقة رقم cld-98/conf.210/19.

8- زراري حبيبة: المرجع السابق، ص 82.

استراتيجية الحوار في ظل التنوع الثقافي

أ. عثمان بيدي

جامعة الجزائر 2

سنة التنوع الثقافي: إن منطق الحياة يبدأ بالتنوع والاختلاف لينتهي اليهما، ذلك أن التعددية تظل أصلا للأشياء، وجزءا من حكمة نظام الكون، الذي أعدّه إله واحد ثم قضى بانعدام الوحدةانية إلاّ له - سبحانه - فهو تعدّد وتنوّع بتعدّد الموجودات وظلّ التنوّع المدخل الطبيعي لمسيرة الكون "وبقي الاختلاف أصلا للحوار ومدخلا الى تقدير الآخر، وتعزيزا لمستويات الصراع وأطرافه، ذلك الصراع الذي ظلّ حاكما لمقاصد الحياة البشرية على مدار حركة التاريخ"¹ وهو مطروح أصلا من منظور الاختلاف والتنوّع منذ صراع الخير والشر في مقتل هابيل على يد أخيه قابيل، ومن هنا تبدو ثقافة الاختلاف دافعا قويا لاحترام سنة الوجود وضامنا مهما لسيروته، فالاختلاف إذاً قوة للبشرية لا ضعف، وهذا يتوجب قبول التعددية والاختلاف بعيدا عن المصادرة الفكرية على منطق الآخر.

ولا يعد التنوّع الثقافي ظاهرة العصر بقدر ماهي إشكاليته أيضا، وهي ظاهرة كوّنت التاريخ الثقافي وأنتجته "حين برز دور الذات وقدرتها على انتاج المعرفة ومن ثمة الحكم على الآخر بكونه لا يصل الى مستوى التوازي مع الذات، أو حتى أحقية الاختلاف أو التعدد معها"²، فالهوة بين الذات والآخر حاصلة، والحوار الناجح يعمل على ردمها.

وقد ذهب "باتريك سافيدان" Savidan Patric إلى أن التنوّع الثقافي هو ركيزة المجتمع الليبرالي، لذلك من التناقض الدعوة الى الليبرالية في المجتمعات الغربية مع نية رفض الآخر؛ حيث حاول إيجاد جميع الوضعيات التي قد تكون عليها الحريات الفردية والاثنية ضمن الحريات الجماعية، ودرس سبل التعايش والتنوّع بوضع سبل

لكيفية استيعاب الاختلاف الثقافي عن حق في عالم تسوده العولمة، وأن لا تقع في التناقض بين إقرارها للحريات الفردية وبين تهميشها للثقافات الاثنية، وثقافات الأقليات التي يحملها الافراد والجماعات داخل المجتمعات الليبيرالية، لذلك يجب إيجاد نموذج عام للتبادل الثقافي في اطار تعددية ثقافية دون تمايز لثقافة عن أخرى، لأنّ التعددية الثقافية معطى تاريخي وطبيعي لسيرورة التاريخ³، فلا استمرارية دون تعدد، فالتعدد انشاء للثقافة وعنوان البقاء.

مفهوم الحوار وأهميته: إنّ التّواصل وتعايش الناس مع بعضهم قائم على الوسائط والوسائل، ويعد الحوار أهمها، فالحوار سلوك إنساني ضروري للحياة الإنسانية؛ لأنّ الله خلق الناس مختلفين في ألسنتهم وألوانهم وشعوبهم وقبائلهم، وجعل ذلك آية⁴، والهدف من الاختلاف هو التعارف⁵، وقد بيّن "طه عبد الرحمن" حاجة الانسان إلى الحوار، فقال: "...فلولا حاجة الانسان إلى الحوار ما كان ثمة كلام، ثمّ إنّ لا حوار بغير اجتماع، ولا اجتماع بغير أخلاق، ولا أخلاق اجتماعية بغير الأخذ بمبدأ المسؤولية"⁶.

ويشكل الحوار هذه الشبكة التي تتبني عليها حياة الانسان، فهو شرط لوجود هذه العناصر ومشروط بها، وهو سمة إنسانية نبيلة، تتجلى بالألفة والمودة، وبالتعارف الذي يفضي الى شراكة تتواءم فيها آليات الحياة وتتجاوز.

فالحوار هو البحث بنسق حضاري يضمن التعايش في إطار الأفق المتنوع المؤيد بتكافؤ معرفي وسلوكي يحضر فيه الطرفان بصيغة المساواة لا بصيغة الأدنى والأعلى، والمساواة شرط أساسي؛ لأنّ الحوار هنا محكوم بمتغيرات القرن الجديد الذي لا يعني أنّ تحاور الآخر لنقنعه بتقمص عوالمك الخاصة؛ لأنّ كل واحد من طرفي الحوار له جهازه المعرفي ومنطقه في تقدير الأمور.

إنّ الحوار بين الثقافات تقليد قديم، وقد عُرِف بأنّه الالتقاء حول النقاط المشتركة وتوسيعها وتعميقها، والتقريب بين نقاط الاختلاف بحثاً عن الموائمة والحلولة دون

أن تكون نقاط الخلاف عقبة في سبيل التفاهم المشترك، وهذا يقضي بأن يفضي الحوار الى تحديد الأهداف المشتركة ومؤسساتها ومجالاتها وبرامجها وأجهزتها التنفيذية التي تقوم على أوجه النشاط ومتابعتها وتقويمها؛ بحيث يكون هناك نظام دائم ومستقر وللجامعات ومراكز البحوث دور جوهري لتحقيق اهداف الحوار⁷ هذا في المجال الثقافي خاصة وقد يتوسع ليشمل مجالات أخرى.

فالحوار قبل كل شيء هو موقف لشخص معين في علاقته مع الآخر، هذا الموقف يستوجب معرفة الذات أولاً حتى يتمكن هذا الطرف من القيام بكل ادواره أمام تعقد العلاقات الإنسانية، هذا الموقف مرادف كذلك للاستعداد أو القابلية للإصغاء أو تقبل الآخر، وذلك بالاستماع المتبادل بين الطرفين، والذي يفضي في آخر العملية الى تبادل المواقف والآراء فيما بين الأطراف المتحدثة، والانفتاح على الآخر وافهامه والتعلم منه اذا ظهر أن وجهة نظره الخاصة تحتاج الى تعديل أو تعميق فالحوار المتزن الجاد هو الذي يسعى فيه المتحاورون إلى الوصول إلى حقيقة عامة يتفقون عليها.

أسس الحوار: إن الحوار المجدي والنافع لابد له من أسس ومبادئ يقوم عليها ويستند إليها، بعضها يتصل بالبيئة والمحيط العام، وبعضها يتصل بخصوصية المتحاورين وطبيعة مؤهلاتهم وامكاناتهم الفكرية نجلها فيما يأتي⁸:

1- العقل: إن العقل أساس كل حوار وأداته في التعبير والتوصيل والبحث والاقناع، فهو وحده وسيلة البرهان والإقناع

2- الحرية: تعد الحرية على اختلافها ولا سيما الفكرية والتعبيرية منها الصق بوجود الانسان وكيونته وماهيته، إنه والحرية وجدا في نسيج واحد، وهي ترتبط بقيم الإرادة والقدرة على الاختيار والاستعداد لقبول المسؤولية، واحترام حقوق الإنسان فلا حوار بدون حرية

3- الديمقراطية: إنّ الديمقراطية نظرية وممارسة، أصبحت أحد الموضوعات الهامة الداخلة في صميم الحوار الثقافي، ويشهد على ذلك نموّ وتصاعد الجهود الفكرية في مختلف القارات في مجال تأصيل نظرية الديمقراطية، وإبراز أنماطها المتعدّدة وتحليل إشكالياتها، والتصدي بإيجابية لتذليل العقبات أمام تطورها... وإذا أضفنا إلى هذه الحركة الفكرية العالمية الجهود العملية في كثير من المجتمعات لإحياء تقاليد المجتمع المدني، حيث نشأت جمعيات تطوعية متعدّدة تهتم بالديمقراطية وتدعيم حقوق الانسان، والاسهام الشعبي في التنمية البشرية، لأدركنا أننا في خضمّ الموجة الثالثة للديمقراطية كما عبّر عنها "صموئيل هنتجتون" Samuel Huntington⁹

4- المعرفة: وهي العلم والثقافة والوعي والادراك، فالتسلح بهذه العناصر يعصم من كلّ ما ليس له علاقة بالعلم مثل الأيديولوجيا والذاتية، فالمعرفة الصحيحة الحقيقية بموضوعات الحوار واساليبه قوة تواجه الاستعلاء عند الفريق الآخر الذي قد يبدأ مستعليا في المراحل الأولى من الحوار ثم لا يلبث ان يسلم بقوة المعرفة والمنطق والحجة عند الفريق الآخر¹⁰، وقد لخص أحد الدارسين شروط ما اسماه بالخاص المعرفي في الحوار نذكر منها: قراءة الأفكار والمعارف والموضوعات المطروحة في موائد الحوار قبل الدخول في عالمها قراءة سليمة يتولاها اهل الفكر الذين تزوّدوا بحصانة الذات التي تؤهلهم لتطبيق منهج سليم.

وحضور السؤال المعرفي الدقيق المتعلق بمدى ما نتلقاه من الآخر من موضوعات تؤسس للحوار، ومعرفة ما علاقة الموضوعات بقضايانا المصيرية الآنية، وهل يمكن لهذه الموضوعات ان تجعلنا حاضرين في منتديات الحوار بخصوصياتنا المعرفية¹¹

5- التعددية: إنّ الحقيقة لها زوايا متعددة يقع الاختلاف فيها، ولعلّ هذا العنصر أكثر أهمية للحوار من العناصر الأخرى، وإذا تأسس الحوار على هذه المبادئ

يضمن النجاح ويتيح للمتحاورين بناء مساحة مشتركة يجد طرفا الحوار جواً من الثقة والأمان لا يقصي فيها أحد الطرفين الآخر، ولا يتحوّل الحوار الى صدام بينهما¹² وهذه الأسس الخمسة في نصالها وتكاملها تشكل الأسس النوعية للحوار بها يتم يستقيم.

شروط الحوار: يبدأ المنطلق الثقافي الآمن من درجة الانفتاح على الآخر واحترام الرأي المخالف، وفتح قنوات مشتركة للحوار أخذاً وعطاءً بعيداً عن التعصب والانغلاق، ولا شك أنّ العلاقة بين الذات والآخر تكتنفها التباسات ما دامت النوايا مضمرة، والإرادات غير محددة المعالم، فتتعامل الذات مع ما تصطنعه حول الآخر في خيالها وليس كما يتبدى في حقيقته الواقعية، ولا تتوضح صورة الآخر للذات إلا عندما تتعرف عليه، ولهذا فالتعارف هو السبيل الأمثل لتبديد المخاوف القائمة بينهما وإبعاد فكرة الهيمنة عندهما

واعتماد "الحوار سمة العالمين الذين يريدون أن يمسكوا دوماً بالأسباب السليمة التي تمكنهم من التعامل مع الذات أولاً ومع الآخر في إطار التعامل الإيجابي الذي يضمن ديمومة الحياة كما يوفر الاتجاه نحو المستقبل في ظل حركة حضارية عالمية"¹³

إنّ للطرفين المتحاورين حاجة الى بعضهما، فالذات في حاجة عضوية ووجودية إلى الآخر، والآخر وهو ذات في الوقت نفسه محتاج الى الآخر الذي هو ذات في الوقت نفسه، فالذات هي ذات في طرف وهي آخر في طرف آخر، والمفروض أنّ تزن نفسها بميزاتها وبميزان الآخر، وتزن الآخر بميزاتها وبميزانه فتقترب بذلك من الآخر، وبهذا يظفر طرفا الحوار بصورة أقرب الى الحقيقة، ويفترض الحوار دائماً طرفين الأنا والآخر، وأي فهم له يتوقف على فهم الذات، ومعرفة الطرف الآخر الذي تقتضي بداية الاعتراف به أن يكون له رأي يقنع به الآخرين.

فالحوار يعني تبادل المتحاورين من الحضارات المختلفة الأفكار والحقائق والمعلومات التي تزيد من معرفة كل فريق بالآخر بطريقة موضوعية، تبيّن ما قد يكون بينهما من تلاقٍ أو اختلاف مع احتفاظ كل طرف بمعتقداته في جو من الاحترام المتبادل والمعاملة بالتي هي أحسن بعيداً عن نوازع التشكيك ومقاصد التجريح بل ما يرمى منه هو إشاعة المودة وروح المسالمة والتفاهم فيما يقع فيه التوافق العام من أعمال النفع العام للبشرية¹⁴.

ولا بد للحوار أن ينطلق من استعداد كل حضارة لفهم الحضارة الأخرى، وتجنب إصدار الأحكام المسبقة عليها " والاتفاق على إعادة صياغة صورة للآخر في إطار التفهم والتسامح والرغبة في بلورة قيم إنسانية لإحداث التفاعل الحضاري، وعليه يجب الخروج من النظرة الاغترابية للآخر الحضاري، والبدء بحوار قائم على نظرة استيعابية لمكوناته وقيمه الحضارية¹⁵.

كما تشترط الندية في الحوار، ولا شك أنها تنتزع ولا تمنح؛ لأنها تعتمد على قدرة المحاور على عرض وجهة نظره المبنية على متابعة أدق تفاصيل خريطة المعرفة في العالم، وفهم عميق لطبيعة التغيرات، وكذلك فهم عميق لراهن واقعته ولتراثه، فاذا التقى هذا المحاور (الأنا) بالطرف المحاور الثاني (الآخر) قدم له الصورة الحقيقية التي تجعله يعترف بأنه ند كامل الندية¹⁶، وهذا يساعدنا على مجازاة الآخر بأدوات مقاربة أساسها صحة المنهج ووضوح الرؤية والتخطيط الدقيق مع المرونة والاعتدال والتوازن واحترام المشترك الإنساني¹⁷. وبهذا نظفر بالحوار المتكافئ بين الندين بعيداً عن الاستعلاء أو الاحتقار ومصادرة الحقيقة التي تؤدي إلى اقضاء الآخر المشارك في صنع الحقيقة، وبمنأى عن التباهي بالماضي ونحاول تحقيق التوازي والتوازن مع الآخر حتى نستطيع أن نحاوره بمنطق الندية بدلا من حالة الاستجداء أمام غياب معرفتنا بأسرار المنتج الثقافي بسبب انعدام المعرفة الواعية له.

والحوار يجب أن يتأسس بأسئلة دقيقة تراعي ماهية الحوار والمحاور، كما تستحضر الأسس السليمة للمستويات المرجعية والمعرفية التي يملكها المتحاورون وفوق هذا فإن شرط الحوار الأكبر أن نعرف بدقة علمية ماهية الحضارة نفسها التي نضعها في واجهة الحوار،¹⁸ فإذا كان موضوع الحوار مثلا الحضارة الصينية وجب علينا معرفتها معرفة دقيقة حتى تسهل علينا الإفادة منها.

كما يشترط الاستعمال الإيجابي للحوار للتقريب بين المتحاورين دون وجود ضغط أو مساومة أو فرض لرأي ما بالقوة، فالحوار يرتكز على معرفة الآخرين واعتبارهم طرفا في العملية التحويلية والالتزام باحترامهم.

ونعمل على البحث عن القاعدة المشتركة على المستوى الإنساني لاتخاذها مدخلا لتخطي الخلافات بين الأنا والآخر؛ والاتفاق على "صناعة الجسر الثقافي الذي يسهم في تأكيد الثقافت والتواصل والتأخي بين كل ثقافات بني الانسان"¹⁹

ومن شروط الحوار أيضا عدم عزل الآخر وإقصائه جغرافيا أو عرقيا أو عقليا كاعتبار الغربيين أن عقول الشرقيين أدنى مرتبة من عقول الغربيين، فقد قال "رينه دوبرو" Rene Dubro في هذا الإطار: "إن الرجل الغربي يميل الى اعتبار نفسه أرفع من باقي المخلوقات وغير ذي صلة بها"²⁰ وهذا ما يفسر فكرة المركزية عند الغربيين²¹

إنّ الشيء الأساسي في العلاقة مع الآخر يقوم على رفض الاحكام المسبقة؛ "لأنّ هذه الاحكام التي تتشكل عامة من عقد تاريخية وتجارب تركت بصمتها طول المسار التاريخي تضع الفرد في موقف دفاعي"²²، وعليه يجب أن نعترف بالآخر، ونعتبره ذات أخرى لها خصوصيتها وتجاربها الخاصة.

والحوار لا يكون ممكنا الا إذا كان هناك اختلاف، وإذا كان النزاع عائقا أمام الاعتراف بهذه الاختلافات، فإنّ الحوار يجعل منها عاملا للبناء يسمح بالوصول الى اتفاق ما؛ لأنّ تقبل الطرف الآخر كما هو، يشكل الطريق الوحيد لإمكانية تحويل

المواقف المتشددة والرافضة لكل حوار إلى مواقف إيجابية تقبل بتبادل الحوار بين الأطراف" فالحوار يستلزم حدًا أدنى من الاتفاق بين المتحاورين وهو القبول بالحوار قيمة وغاية؛ لأنه من المستحيل التحاور مع من يرفض فكرة الحوار أصلاً.

كما يجب أن يعترف الأنا بالآخر والآخر بالأنا في تعادلة تثبت شراكتها الممكنة في الحوار بحيث "يبدل كل فريق جهده كله ليصغي إلى الآخر، ويتلمس الوسائل لمعرفة على حقيقته كما يجب أن يصغي الآخر إليه، ويتلمس الوسائل لمعرفة على حقيقته ومن الأقوال الشائعة "لا تفاهم بغير فهم"²³

بالإضافة إلى توفير المرونة والتسامح مع الاستعداد لقبول رأي الآخر وطرحه على ساحة النقاش دون تشبث بآراء مسبقة إلا من خلال مرجعية مؤكدة.

وأن يدرك المتحاورون الانزياحان الكبرى التي تحدث في الحضارات، والتي بها يستطيع أهل الحوار أن يقرأوا بعضهم قراءة دقيقة تشمل كلية الزمن (الماض الحاضر والمستقبل)، والانزياح هنا داخلي وخارجي ووفقه يجب أن يكون الإدراك الذي يشمل الأنا والآخر²⁴، ولا يتأتى ذلك إلا بالمعرفة الدقيقة لكل لحظات التطور للحضارة موضوع الحوار.

إنّ الحديث عن الحوار يفرض علينا أن نكون كما نحن بكل ما نحمله من توجهات وتصورات وقيم؛ بحيث نتحاور ونتصل مع أنفسنا بهدف تفادي الوقوع تحت طائلة أي ضغط نفسي كالتردد والتوتر "وعند الدخول في التّحاور مع الطرف الآخر يجب طرح هذه الملامح بصورة كلية، فلا نخفي منها أي شيء؛ لأنّ ذلك يسهل مهمة إيجاد نقاط التشابه والاختلاف"²⁵. إنّ مثل هذا الاتصال مع الآخر الذي أساسه فهم الذات أولاً وعرضها كما هي على الطرف الآخر يجرنا في آخر المطاف إلى إعادة النظر في أنفسنا، وهذه خطوة أولى نحو البدء في تقبل فكرة التغيير وعدم التعصب لمواقف الذات.

ومن شروط الحوار أيضا "احترام الرأي والرأي الآخر وإيجاد مساحات مشتركة من التلاقي والتداخل وتجاوز تضخم الصوت الواحد مما قد يدعو الى الانغلاق أو الوقوف عند حد الاستعلاء على الآخر أو نرجسية الذات"²⁶

والتحلي بالموضوعية" وهي منهج بهدف مقاربة آراء وأفكار الآخر المختلف بدون زيادة او نقیصة كما أنها تقتضي الا ينظر المرء الى الآخر من عل وإنما هي رؤية متساوية وقريبة منه"²⁷، وإعمال العقل المتفتح في استيعاب إنجازات الآخر وتبادل المصالح معه. مع شرط موضوعية الرؤية في سياق صحة الحوار بما يسمح بمحاسبة الذات ومراجعة النفس

وأن نعرف كيف يمكن صياغة فضاء يشغله خطاب مشترك، بحيث لا يكون الحوار خاضعا لمعايير المصالح السياسية او لضرورات المرحلة، بل يعتبر استراتيجية عليا تتحكم في كل الأنشطة والعمليات الثقافية والحضارية.

أن نمثلك المقدرة على الحوار مع الذات أولا ومع الآخر ثانيا على أن يكون البعد المعرفي قائما وموجودا بشكل راسخ يصاحبه إدراك فلسفي للثوابت، ومعرفة بالحدثة الغربية ومزاياها ونقائصها، والاسئلة التي تطرحها علينا²⁸، ويكون كل ذلك حاضرا في أي مسألة هي موضوع الحوار

واعتماد الحوار على الأصول المشتركة للثقافات، وتغليب العام على الخاص والموضوعية في إصدار الأحكام حتى يضمن المتحاورن التصور السليم للمشكلات والحلول.

وبناء ثقافة منفتحة على الحضارات تجعل الحوار ظاهرة إنسانية تحاور وتجادل بمتقف جديد يملك سمات الأنأ، ويعي سمات الآخر، ويحترم التنوع دون تهميش أو إقصاء لأي ثقافة، ويطمئن إلى نتائج الحوار

وامتلاك آداب الحوار وأخلاقياته، التي تبدأ من التواضع وقبول الآخر دون استعلاء الذات، واحترام منطوق الآخر، وتعزيز صيغ الحوار وأدواته، وتوجيه آلياته

الى ما هو نافع عبر نتائجه وحصاده بعيدا عن الجدل العقيم أو التعصب للرأي، أو محاولة تعطيل فكر الآخر وأدلته. وامتلاك المرجعية المتخصصة التي تدعم الحوار وتحميه

وأن تكون الدعوة الى الحوار بريئة "واعتماد الأخلاقية العامة التي تصب في دائرة الانسان المؤيد برسالة الاستخلاف في ثقافتنا الإسلامية، واعتماد الحوار بصيغة المنجز الاستراتيجي الذي يحضر بمسوغات مستقبلية تضمن حضور الأنا والآخر في معادلة الحياة.²⁹

وأن نؤسس للحوار بوعي الماضي، والوعي موقف ننجزه لصالح الحوار بمسوغات نسقط بها المختلف، ونذكي بها عناصر المؤتلف ودون ذلك يبقى الحوار مع الذات بلا معنى³⁰ وبذلك نجعل مساحة حوار الأنا مع نفسها واسعة ونحررها من المختلف ما أمكننا ذلك.

أن يكون منطلق الحوار "هو البحث عن الحقيقة في وجهة نظر الآخر، وذلك بهدف الوصول الى نقطة الالتقاء والتكامل وليس الاستبعاد والالغاء، وفتح دوائر المعرفة المتبادلة، وتدوير زوايا الاختلافات، وإبراز الجوامع المشتركة على قاعدة رأي صحيح يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب"³¹ وهذه القاعدة تجعل الأنا والآخر على صعيد واحد.

أن يراعي المتحاورون شروطا وحدودا وضوابط أخطرها الفواصل الحضارية والمعرفية التي تحدد مسافة العلاقة بين الواقع وبين فقهه، وأن يحاور الآخر وهو ممسك بأسباب الموضوعات المطروحة للحوار، وأن يشارك الآخر وهو متيقن من سيادته على ما يملك من موضوعات فبدون السيادة المذكورة يغدو الحوار بلا هدف. وأن يعوا بأن الحوار ليس مصالحة عاطفية أنية يلتقي فيها مجموعة من المتحاورين في ندوة، أو في مؤتمر، وأن الحوار ليس زخرفا من القول بل هو الجهد

الحضاري المؤيد بالشراكة الإنسانية التي تستلزم حضور الأطراف متساوية³² فالحوار إذاً مسؤولية ثقيلة.

أن نتعلم أدبيات الفكر السلامي في الحوار ومنها (حوار الله مع الشيطان، حوار النبي عليه السلام مع أهل الكتاب - وفد نجران - وحتى مع المشركين، فالحوار كان بالتالي هي أحسن) فإنه فكر يؤمن بالاختلاف والتنوع في الإنسان وفي الكون، ويؤمن بحرية الاختيار، ويحاول أن يفهم الآخر فكراً وعقيدة ورؤى تعزيزاً للتعارف عليه وللتفاهم معه على أساس ما هو مؤمن به من شرعة ومنهاج³³

والحضارات التي تملك القدرة على التبادل والخطاب والاستماع هي القادرة على الاستمرار في الحياة، وأن الحوار بين الثقافات لا يقوم بالخطاب والقول فحسب، بل يستلزم بالضرورة الاستماع أيضاً فالاستماع فضيلة يجب أن تكتسب غير أن اكتسابها ليس سهلاً "لأن الحصول على تلك الفضيلة يتطلب من الإنسان التربية الأخلاقية والتهذيب النفسي والتعليم العقلي، والاستماع ليس عملاً انفعالياً محضاً بل إنه نشاط معين من شأنه أن يجعل السمع يفتح على الآفاق والحضارة التي تظن أنها مكتفية بذاتها، ولا تستمع إلى الحضارات الأخرى بمعنى لا تتعلم منها ولا تقتبس الصالح من أفكارها وإبداعاتها ولا تتأثر بروايتها للعالم حضارات مقضي عليها بالجمود"³⁴ وأهم ما يمكن استخلاصه أن الحضارات الحية هي التي تتحلى بفضيلة الاستماع إلى الحضارات الأخرى بمعنى فضيلة اقتباس الأفضل - بدون إحساس بعدة النقص - تجعل الاعتراف بالآخر وإنجازاته قيمة أساسية تحكم سلوك الإنسان³⁵

وبالإضافة إلى الشروط السابقة تجدر الإشارة إلى أن الحوار البناء يستوجب قوى متوازنة، أي مبدأ الندية بين طرفي معادلة الحوار "فالمشاركة والحوار الحضاري إرادة حضارية قبل أن تكون فكرية أو أمنية أو رغبة"³⁶، ولا تتحقق هذه الإرادة الحضارية في حوار التنوع الثقافي إلا بوعي كل من الأنا والآخر

طرفا الحوار (الأنا والآخر): يتضمن كل حوار بالضرورة رؤية وخطابا يعكسان صورة واضحة لكل من الانا والآخر

الأنا: إنّ الأنا المسلمة المحاورّة لا تتكرّر الآخر؛ لأنّ الإسلام دين يقبل الآخر "قالإسلام منذ البداية اهتم بتعريف العلاقة مع الآخر والتقنين لها، فقد اعترف بحقيقة الاختلاف والتنوع الثقافي والحضاري، وقد جاء في الذكر الحكيم "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين"³⁷؛ أي أنّ الاختلاف سنة من السنن الإلهية في الكون.

إنّ المهمة الاستراتيجية التي تقع على عاتق المسلمين اليوم هي البدء بتدشين عصر الحوار الحضاري صحيح أنّ الحضارتين العربية والغربية الحديثة تفاعلتا في تاريخهما تفاعلا خلاقا في القديم من خلال الأندلس وصقلية، وفي العصر الحديث وفي العهد الاستعماري "فقد أنفتح العرب على الغرب وتبنوا كثيرا من الأفكار والرؤى الى جانب استيراد التقنيات والسلع"³⁸ وهذا التدشين يركز على دعامتين:

الدعامة الأولى تصحيح ساحة الحوار العربية بإعادة بنائها على ضوء المنجزات العلمية الحديثة، وتحسينها بإعادة قراءة الواقع العربي الحديث في تعقيده، وإدراك علاقته بالتراث بما فيه الدين الإسلامي؛ لأنّه يمثل مكونا أساسيا للرؤية الكونية والسياسية للعربي المسلم،³⁹ والذين يدعون الى فصل الدين عن الدولة يسيئون الى هذه الرؤية الكونية بإبعاد مكون من مكوناتها وهو المكون الأول للثقافة العربية حتى أنّ بعضهم سمى الثقافة العربية ثقافة نص* لاعتمادها في نشأتها وتطورها على القرآن، وحتى في علاقاتها الثقافية بالآخر،

ولعلّ أدراك علاقة الثقافة العربية بالآخر ينفعنا في إقامة علاقة بالحضارة الحديثة، ويحصننا من التماهي في الحضارة الغربية الحديثة، ولابد من اظهار قدرة ثقافتنا العربية على الحوار، وهنا يمكن ذكر بعض خصائص هذه الثقافة لعلّ ذلك يرشحها بأن تكون مواكبة لحضارة العصر من ذلك أنّها ثقافة انسانية لا تعرف

الحوار، ولا تعترف بالحدود، غير متعصبة، وهذا رشحها لأن تفتح أبوابها للثقافات القديمة فارسية ويونانية وسريانية وهندية، كذلك نجدها ثقافة حوارية لا صراعية شارك فيها المسيحي واليهودي والمسلم، بالإضافة الى أنها ثقافة موسوعية استوعبت مجموعة من العلوم، فكانت ثقافة علمية فاعلة قائمة على التعددية واحترام الرأي الآخر، وهي ثقافة المنهج والوعي والادراك والبحث في جوهر الأشياء وحقائقها وقد بنت علاقتها بالآخر عن طريق الاختلاط والترجمة، إضافة الى تعددية الحركة العقلية لدى العرب، وتتجلى من خلال مشاركة غير العرب في بناء الثقافة العربية ويتمثل ذلك في جهود البخاري ومسلم في الحديث، والجرجاني في البلاغة والفارابي و"ابن سينا" في الفلسفة، و"ابن المقفع" في الترجمة، ومن ثم تحولت الثقافة العربية الإسلامية الى حلقة تواصل بين الشرق والغرب منذ أن ترجم كتاب ارسطو في الشعر.

ونشير أيضا الى التفاعل مع الأفكار الوافدة سلبا او إيجابا كما حصل مع المعتزلة الذين جعلوا العقل وسيلة للوصول إلى الحقيقة، و"الغزالي" و"ابن تيمية" في موقفهما من الفكر اليوناني، وموقف "ابن رشد" من موقف "الغزالي" وهذه كلها عناصر للتمثيل فقط

والمطلوب في العصر الحاضر أن نعي التراث ونفهم عناصره ونقيم له علاقات مع العصر؛ لأنّ هذا التراث ما زال قيمة حيّة في وجدان العصر، وهو جزء من مكونات الواقع ويعيننا على اكتشاف الأنا وتحريرها من سيطرة الثقافات الغازية: مناهجها وتصوراتها ومذاهبها ونظمها الفكرية، ويساعدنا على مواجهة التّحديات الحضارية التي نحن ضحية لها⁴⁰ مما يعني اختلالا في العلاقة بين طرفي الحوار فالحوار هو الذي لا يكون أحد طرفيه ضحية، ذلك أنّ الاستعمار حجب الحرية عن الشعوب المستعمرة، وفرض ثقافته بالقوة، وكان هو الطرف المسيطر والغالب في الحوار الى يومنا هذا، وبقي الحوار في هذا المستوى عند أبناء الشعوب المستعمرة

فمنهم من تبنى هذا الحوار واستفاد منه وسماه مكسب حرب انتج مثلاً أدبا سمي عند بعضهم بالوطني وعند بعضهم الآخر الأدب المهاجر، وهذا الفريق تبنى الثقافة واللغة الوافدين مثل بعض الشعوب الأفريقية وأمريكا، أما الشعوب التي لها لغة وموروث ثقافي فإنّ الاستعمار لم يستطع القضاء عليها برغم محاولاته الكثيرة. ويمكن الإشارة الى الشروط التي يجب ان تتوافر في المتقف العربي المحاور ليكون في مستوى الحوار ومنها:

نزاهة القصد وسلامة الرؤية وحسن التقدير فلا يكتفي بقراءة اللحظة الراهنة فقط مهما كانت شديدة الحضور، وأنما يتطلع إلى التجديد والتحديث لأنه يُغيّر ميزان القوة بين الغرب وبين المجتمع غير الغربي فالتحديث يقوي البنية السياسية والاقتصادية والعسكرية للمجتمع كله ويشجع السكان على ان يتقوا بذاتهم وبالتالي بثقافتهم ويتيح لهم ان يتجذروا في هويتهم الثقافية⁴¹

الآخر: إنّ لمصطلح الآخر دلالة الغيرية المخالفة والمعارضة، وهو في أبسط صورته مثل أو نقيض الذات (الانا)، فهو كل ما كان موجودا خارج الذات المدركة ومستقلا عنها، وقد شاع مصطلح الآخر في الفلسفة الفرنسية عند "ميشيل فوكو" Michel Foucault، و"جاك لاكان" Jacques Lacan ولعلّ سمة الآخر التي تميّزه من غيره هي تجسيده ليس فقط كل ما هو غريب (غير مألوف) أو ما هو (غيري) بالنسبة لنا أو الثقافة ككل بل أيضا كل ما يهدّد الوحدة والصفاء...⁴² والآخر عند "ارسطو" Aristote "هو الغريب الذي لم يتمكن من استخدام وفهم اللغة المشتركة"⁴³ ويرى "هيجل" Hegel انّ الآخر ضروري لوجود الذات مادام الانسان يعيش في علاقة معه أكثر مما يعيش في فرديته الخاصة، فالذات منعزلة عن الآخر لا يمكن ان تحقق وجوها، بل يتحقق ذلك في عيشها وتواصلها مع الآخر، ويرى "هوسرل" Husserl انّ العالم كما يكشف لنفسه للشعور هو عالم نوات مشتركة لا يكون للآخر فيه حضور كمظهر محسوس بل يكون الآخر فيه شرطا دائما لوحده واهتمامه فيوجد

الآخر دائما كطبقة من الدلالات المكوّنة تتعلق بالموضوع الذي آخذه في اعتباري أي انه هو الضامن لموضوعيته وعندما يقع العالم وذاتي الجسمية تحت الاقتصاب يظهر الآخر بوصفه ضروريا لتكوين ذاتي⁴⁴، فالأنا هنا هي الأصل والآخر متعلق بها، ولا يمكن الفصل بينهما، وتصوير الآخر انطلاقا من موقف التآلف ليس بالأمر السهل، " أي ان ثقافة التسامح والتعامل الاخوي بين الشعوب تحتاج الى نضج فكري ومعرفي يقوم على التّمعن في ثقافة الآخر بعيدا عن العقد النفسية مثل الرهاب والهوس⁴⁵

والآخر الغربي يحتمي بمركزيته، حين يتكئ على القول بالخصوصية المطلقة لتاريخ الغرب، الذي أنضجته عوامل خاصة وداخلية، وأثمر عن حضارة غنية ومتنوعة،⁴⁶ ويقدم نصيحة للشعوب أن ليس لها إلا الأخذ بالأسباب ذاتها التي أخذ بها هو، والانخراط في حركته الحضارية، وهذا يعني التّخلص من كلّ خصوصية ثقافية؛ لأنها هي المسؤولة عن تخلفها، وعند ذلك تجد هذه الشعوب نفسها -حسب هذا الرأي - في طريق مههد للاشتراك في مشروع تجانس الإنسانية المستقبلي من خلال تعميم النموذج الغربي،⁴⁷ وهذا كما يبدو مخالفا لقانون الاختلاف، الذي بني عليه الكون والحياة، وافضى التمرّكز حول الذات باعتبارها المرجعية الأساسية إلى إحالة الآخر الى مكوّن هامشي لا ينطوي على قيمة في ذاته⁴⁸. يقول "تودوروف" عن اكتشاف الأوروبيين لأمريكا "كانت غاية الاكتشاف الاستحواذ والاختضاع باقتراف أوسع إبادة في تاريخ الجنس البشري، هذا العمل هو أول ما عبّرت به أوروبا عن وجهها الحديث لتأسيس هويتها، وتراجيديا اكتشاف أمريكا انطوت على هدف مزدوج : الإعلان عن الذات الأوروبية ، واكتشاف الآخر بالعنف الذي يماثل الاغتصاب⁴⁹ وملاحظة "تودوروف" تشير إلى "أمريكا"، وهي نظرة صائبة لكنّها لم تتسحب على الأفارقة الذين رحلوا إلى "أمريكا" في أسوء الظروف الإنسانية

وأعمال الاستعمار في إفريقيا وأسيا التي اتّسمت بالبطش والهيمنة لم تجعل الطريق ممهدا للشعوب المستعمرة، لكي تتخرط في "مشروع تجانس الإنسانية المستقبلي".

استنتاج: إنّ الحوار سلوك حضاري نبيل، ممكن بين مختلف الثقافات بشرط توفر الآليات المسوغة لإقامة حوار مفيد مؤصل بالإيجاب الذي يضمن الحياة بعيدا عن عالم الصدام وأنّ الحوار في حقيقة الامر حالة علمية لها بعد انساني واجتماعي وقيمي وسلوكي يضمن صدق النتائج اذا ما حسنت ادواته والياته.

ونتائج الحوار تظل مطلوبة باعتبارها مدخلا مؤسسا لجديته وتواصله وصدقه⁵⁰ فهو جزء لا يتجزأ من منظومة الحقوق الأساسية للإنسان بقدر ما وضعت الفطرة السليمة وقبول الآخر اذا ما جنح الى السلم والى صياغة مبررات الحوار بين البشر انطلاقا من وحدة النوع وتنوع الاقوام والى رصد المعالم الكبرى للسلوك القويم الضامن لسلامة مسيرة الانسان في سياق قيم التسامح والاخوة دون انغلاق او جمود او تعصب

إنّ الحوار الثقافي يستدعي وجود ثقافات تعترف ببعضها وبقدرتها على الحوار مع ثقافات أخرى تعترف بها وتحترم خصوصيتها وهويتها

إنّ الهوية الثقافية في حقيقتها عملية تفاعلية دينامية تقوم على جدلية الصراع والتوافق، وأنّ أي هوية ثقافية تتعرض دوما إلى تأثيرات داخلية وخارجية خصوصا في حالة وجود خلل، او تأثيرات في مكونات العمل الثقافي، والمحافظة على الهوية لا تعني الجمود والتفوق بل لابد من قيام عملية التفاعل ذلك أنّ مآل الثقافة المنعزلة هو الاضمحلال⁵¹ فحياة الثقافات مضمون بتفاعلها وتأثيرا وتأثرا.

كما أنه لا يجب التنازل عن الخطاب القيمي الخاضع لكيقونة الامة لصالح الاستعمار الجديد الذي حمل لواء هدم الحضارات

والحوار يتطلب اليوم التعرف الحضاري كمفهوم قرآني الهدف منه تغيير الصورة المشوهة التي تحملها كل حضارة في لا شعورها عن الأخرى، وهذا لتفادي الصدام والعمل على التأسيس لحوار بناء وحقيقي بن الثقافات، وأنه إذا احتكنا الى التاريخ أخبرنا "أنّ الثقافة العربية ثقافة حوارية تقبل التعددية وتتطلق من الاختلاف وتنتهي الى التسامح والتفاهم مع الآخر قبولاً او جدلاً...ففكرها كان حوارياً قبل أي اعتبار آخر"⁵² ثم إنها ثقافة إنسانية بدأت من الانسان وانتهت اليه.

كما يجب التركيز على رصد نتائج الحوار، وتحويلها الى برامج عمل، والبحث عن المشترك الذي يفضي الى حوار بأبعاد إنسانية.

وأن لا يكون الحوار مع الذات أو مع الآخر الا حيث يثمر الايجاب الذي تبدو عوالمه بمعلم الحضارة التي تتجسد بها مقومات الذات، ومشكلتنا تكمن في الايجاب الغائب وبه يغيب موضوع الحوار نفسه؛ لأنّ الأصل في الحوار حضور الذات "والبحث عن معوقات الحوار لإزالتها لا أنّ نسارع الى الحوار الاقفي الخاضع لرد الفعل البعيد عن صيغ الذات، ذلك لأنّ الحوار التزام حضاري بتبديه الذات الواعية من اجل مشاركة غيرها في حل المشكلات المعقدة التي تعترض الإنسانية"⁵³ وبهذا يساهم الحوار في اثراء التنوع الثقافي ويحقق مطلب الإنسانية في التعدد والتنوع والتعارف.

- الهوامش:

- ¹ - التطاوي(عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، الدار المصرية اللبنانية 2006، ص 27
- ² -سناني (وسيلة) مظاهر التداخل الثقافي بين المنظور النقدي والمنظور السردى، رسالة دكتوراه جامعة الجزائر، 2014، ص 67
- ³ - ينظر المرجع نفسه، ص 70
- ⁴ - الآية " ومن آياته اختلاف السنتكم وألوانكم.." سورة الروم 22،
- ⁵ - الآية "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" الآية 13 من سورة الحجرات
- ⁶ -عبد الرحمن(طه)، سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية، المؤسسة العربية للفكر والابداع بيروت، لبنان، 2017، ص 167
- ⁷ - مجموعة من الكتاب، العلاقات بين الحضارتين العربية والأوروبية، ندوة هانبرغ 1983 تونس، 1985، ص 53
- ⁸ - اليافي(نعيم)، مرايا المتخالف، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 2000، ص 24
- ⁹ - السيد (ياسين)، حوار الحضارات، الغرب الكوني والشرق المتفرد، مهرجان القراءة للجميع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002، ص 27
- ¹⁰ - مجموعة من الكتاب، العلاقات بين الحضارتين العربية والأوروبية، مرجع سابق، ص 33
- ¹¹ - بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونات الذات العربية المحاورة عالم الكتب الحديث، الأردن 2014، 98
- ¹² - ينظر اليافي(نعيم)، مرايا المتخالف، مركز الإنماء الحضاري، مرجع سابق، ص 25- 26
- ¹³ - بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونات الذات العربية المحاورة، مرجع سابق، ص 7
- ¹⁴ - الحسن(يوسف)، الحوار الإسلامي المسيحي، الفرص والتحديات، منشورات المجمع الثقافي أبو ظبي، 1977، ص 23
- ¹⁵ - الحسن(يوسف)، الحوار الإسلامي المسيحي، الفرص والتحديات، المرجع نفسه ص 141
- ¹⁶ - ينظر السيد(ياسين)، في حوار الحضارات، مرجع سابق، ص 88
- ¹⁷ - ينظر التطاوي(عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، مرجع سابق، ص 112

- ¹⁸ - بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونات الذات العربية المحاورة، مرجع سابق، ص7
- ¹⁹ - التطاوي (عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، مرجع سابق، ص103
- ²⁰ - دوبرو (رينيه)، إنسانية الإنسان، نقد علمي للحضارة المادية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984، ص173
- ²¹ - للاستزادة ينظر إبراهيم (عبد الله)، المركزية الغربية إشكالية التكوّن والتّمرّك حول الذات المركز الثقافي العربي، ط1، 1997
- ²² - الشامي (علي)، الحضارة والنظام العالمي، أصول العالمية في حضارتي الإسلام والغرب بيروت، دار الإنسانية، 1995، ص65
- ²³ - مجموعة من المؤلفين، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، مرجع سابق، ص31
- ²⁴ - بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونات الذات العربية المحاورة، مرجع سابق، ص24
- 25- LahcenZegdar Le Discours Des européens Libéraux D'Algérie Fac e a la guerre de libération nationale Revue De Sciences Politiques et Relations Internationales N 03 Pages 123
- ²⁶ - التطاوي (عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، مرجع سابق، ص112
- ²⁷ - محفوظ (محمد)، الحضور والمثاقفة، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000، ص51
- ²⁸ - ينظر المسيري (عبد الوهاب)، الهوية الحركية الإسلامية، دار الفكر، دمشق، 2009، ص71
- ²⁹ - بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونات الذات العربية المحاورة، مرجع سابق، ص24
- ³⁰ - بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونات الذات العربية المحاورة، المرجع نفسه، ص39
- ³¹ - مجموعة من المؤلفين، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، مرجع سابق، ص72
- ³² - ينظر بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونات الذات العربية المحاورة، مرجع سابق، ص105
- ³³ - مجموعة من المؤلفين، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، مرجع سابق، ص72-73
- ³⁴ - السيد (ياسين)، حوار الحضارات، مرجع سابق، ص54
- ³⁵ - السيد (ياسين)، حوار الحضارات، المرجع نفسه، ص56

- 36- الحسن (يوسف)، الحوار المسيحي الإسلامي الفرص والتحديات، مرجع سابق، ص 41
- 37- سورة هود، الآية 117
- 38- المسيري (عبد الوهاب)، الهوية الحركية الإسلامية، مرجع سابق، ص 33
- 39- ينظر المسيري (عبد الوهاب)، الهوية الحركية الإسلامية، المرجع نفسه، ص 32
- *- نص حامد أبو زيد
- 40- حنفي(حسن)، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، دار التنوير للطباعة والنشر، ط 1 1981، ص 16
- 41- مجموعة من المؤلفين، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، مرجع سابق، ص 180
- 42- ينظر ميجان الرويني وسعيد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت ط 5، 2007، ص 21
- 43- شرشار (عبد القادر)، بناء الآخر في أدبيات الصراع العربي الصهيوني مجلة الموقف الادبي اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 370، 2002، ص 87
- 44- ينظر جون بول سارتر، تعالي الأنا موجود، ترج حسن حنفي، دار التنوير للطباعة والنشر بيروت، ط 1، 1982، ص 28-29
- 45- ينظر حمود(ماجدة)، صورة الآخر في التراث العربي، دراسة اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000، ص 29
- 46 - إبراهيم (عبد الله)، المركزية الغربية، إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1997، ص 33
- 47 - ينظر المرجع نفسه، ص 33
- 48 - ينظر المرجع نفسه، ص 33
- 49 - ينظر المرجع نفسه، ص 16
- 50-التطاوي(عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، مرجع سابق، ص 27
- 51- ينظر مجموعة من المؤلفين، حوار الحضارات والمشهد الثقافي العربي، مرجع سابق ص 170
- 52- التطاوي (عبد الله)، الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء، مرجع سابق، ص 26
- 53- ينظر بوقرورة (عمر أحمد)، تهافت حوار الحضارات قراءة نقدية في مكونات الذات العربية مرجع سابق، ص 60

دور التعدد اللغوي في تنمية التنوع الثقافي

التعدد اللغوي في الجزائر أنموذجا

داه: سارة مسعوداني

المركز الجامعي، ميله.

الملخص: تعدّ اللغة وعاء الثقافة، ولا يمكن الحديث عن الثقافة بعيدا عن اللغة فاللغة مكون أساسي ومهم من مكونات الثقافة، وكما يقول أحد الباحثين عند حديثه عن علاقة اللغة والثقافة: "إنهما نشأ معا"، فاللغة هي التي تعبر عن الثقافة، وتحتويها وهي التي تنميها وتطورها.

وباعتبار أنّ اللغة كما يقول ابن جني(ت: 392هـ): "هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، فهي إذا ليست اللغة الفصحى فقط، بل هي أوسع من ذلك؛ فهي تضم اللهجة والعامية واللغة الفصحى واللغة الأجنبية وانطلاقا من هذا ونظرا لأهمية اللغة في تنمية التنوع الثقافي، سنحاول في هذه المداخلة تسليط الضوء على أهمية ودور التعدد اللغوي(باعتباره مصطلح واسع يضم الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية) في تنمية التنوع الثقافي بصفة عامة، وعلى دوره في تنمية التنوع الثقافي في الجزائر بصفة خاصة، باعتبار أنّ الجزائر من بين أهم البلدان التي تزخر وتشتهر بالتعدد اللغوي، وسنحاول خضم ذلك الإجابة على جملة من التساؤلات أهمها:

- 1_ ما هو التعدد اللغوي؟ ما هو التنوع الثقافي؟
- 2_ كيف يسهم التعدد اللغوي في تنمية التنوع الثقافي؟
- 3_ ما هو التعدد اللغوي الموجود في الجزائر؟ وكيف يسهم هذا التعدد في تنمية التنوع الثقافي فيها؟ .

مقدمة: تعدّ اللغة القلب النابض للأمة وجهازها المحرك، وهي الخصيصة الجوهرية في حياة الشعوب وسرّ نجاح الحضارات، كما أنّها وسيلة التواصل بين أفراد المجتمع ومؤسساته المختلفة، وتبادل الأفكار والمعلومات؛ فهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع وأفراده.

إنّ اللغة وسيلة الإنسان في تنمية أفكاره وتجاربه، وهي التي تعدّ الفرد للعطاء والإبداع والمشاركة، فعن طريقها يحدث اختلاط الفرد بالآخرين مما يكسبه خبرات تنمي قدراته وخبراته، وبفضلها يتطور المجتمع ويرتقي وكلّما كانت في المجتمع لغات كثيرة، كلّما كانت فرصة أفراده لتحقيق التّقدّم والتّطور أكبر وأوفر.

وإذا تحدّثنا عن اللغة سنتحدّث بالضرورة عن التّنوع الثقافي، هذه الظاهرة التي وإن كانت جديداً لفظاً فإنّها قديمة معنى قدم الوجود؛ فهي موجودة من خلق الإنسان باعتبار أنّ الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، ومما لا شكّ فيه أنّ اللغة هي العنصر الأساسي الفاعل في ظهور هذا التّنوع، فاللغة هي النّاطق الرّسمي بلسان التّحفاة، فكلّ مكونات التّحفاة يعبر عنها باللغة، وكلّ مجتمع متعدّد اللّغات هو بالضرورة مجتمع متنوّع ثقافياً.

والتّنوع الثقافي واحد من أرقى المميزات البشريّة، وهو وإن كان سلاح ذو حتين فإنّ النّظر إليه بإيجابية واستغلاله بطريقة ذكيّة يعود بالنّفع والفائدة على الفرد والمجتمع، فتوظيفه بطريقة حضارية يجعل منه مصدراً قوة وثراء وتنمية، فالتنوع الثقافي جميل كجمال الألوان الطبيعة تتناغم فيها الألوان والأشكال كل حسب طبيعته وخصوصيته، والتاريخ ينقل لنا أنّ الجماعات الإنسانية كانت تتبادل الخبرات والمعارف والاكتشافات.

ولا يمكن لأحد أن ينكر أنّ التّنوع الثقافي ضرورة ملحة للجنس البشري مثل ضرورة التّنوع البيولوجي للكائنات الحية، فهو بمثابة التّراث المشترك للإنسانية جمعاء، وينبغي الاعتراف به والتأكيد عليه لصالح أجيال الحاضر والمستقبل، وهذا

التنوع الثقافي ينطلق وينبعث من الثقافة التي تعدّ روح الثقافة ونور العقل والمعرفة وليست ترفاً فكرياً كما يعتقد الكثير؛ بل هي حياة وساحة صراع من أجل بناء غد أفضل، والأهم من ذلك أنّ نواة التنوع الثقافي تكمن في الفكرة القائلة: " الثقافات هي مسارات تتجه نحو المستقبل".

لعلّ بلدنا الجزائر واحد من البلدان التي تتميز ببيئة لغوية ثرية ومتنوعة تعدّ بحق مؤشر صحيّ للتعايش الاجتماعي والثقافي واللغوي للجماعات اللغوية المتكلمة لهذا المجتمع، وإنّ الاستثمار الهادف والإيجابي لهذا التعدد اللغوي يسهم في تنمية التنوع الثقافي في الجزائر، وبالتالي تحقيق التنمية المستدامة والوصول إلى تحقيق التطور والنمو الحضاري.

ومن هذا المنطلق ونظرا لأهمية اللغة في تنمية التنوع الثقافي، ونظرا لما تتميز به الجزائر من ثراء وتنوع لغوي، سنتناول في هذه الورقة البحثية قضية التعدد اللغوي ودوره في تنمية التنوع الثقافي، باعتبار أنّ التعدد اللغوي أحد أهم الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى تنمية التنوع الثقافي في المجتمع، والمجتمع الجزائري من بين المجتمعات الثرية بتعدد لغوي كفيل بجعله منبعاً لتنوع ثقافي هائل، وإنّ الاستغلال الإيجابي والواعي لهذا التنوع قادر أن يجعلها في مصاف الدول المتطورة والمتقدمة حضارياً.

أولاً: التعدد اللغوي (Plurilinguisme) أو (Multilinguisme)

يعدّ التعدد اللغوي ظاهرة لغوية منتشرة في كل المجتمعات دون استثناء، فمن النادر جداً أن تجد مجتمعا يمتلك نظاماً لغوياً واحداً، وقد أضحت التعدد اللغوي أحد أهم خصائص المجتمعات المعاصرة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على قوة الاحتكاك بين المجتمعات والثقافات وانصهار بعضها في بعض، وقد أكدّ القرآن الكريم على ضرورة هذا الاحتكاك، وعلى حتميته، ويتجسد ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿لِيَأْيَهَا النَّاسَ

إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات:13)، فما هو التعدد اللغوي إذا؟ وماهي أهم مظاهره؟

1/ تعريف التعدد اللغوي:

إنَّ مصطلح التعدد اللغوي من أكثر المصطلحات التي أثارت، وما تزال تثير جدلاً كبيراً في الساحة العلمية والفكرية، إذ لا يوجد اتفاق بين الباحثين والمفكرين في تحديد ماهية هذا المفهوم، ولعل سبب ذلك يرجع إلى تداخل هذا المصطلح مع مصطلحات أخرى كالازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية من جهة، واختلاف توجهات الباحثين والمفكرين من جهة ثانية.

ويعرّف التعدد اللغوي عموماً بأنه: " مجموعة من اللغات المتقاربة أو المتباينة في مجتمع واحد"¹، وهذا التعريف يشير إلى شمولية وموسوعية مصطلح التعدد اللغوي لمصطلحي الازدواجية اللغوية، والثنائية اللغوية فهو يقرّ بأنّ التعدد اللغوي يكون بين لغات متقاربة كما هو الحال بين العربية الفصحى والعامية، ويكون بين لغات متباينة كما هو الحال بين اللغة الفرنسية واللغة العربية الفصحى، وقد ربطه بالمجتمع؛ أي إنّهُ ظاهرة لغوية اجتماعية يمارسها أغلب أفراد المجتمع إن لم نقل جميعهم.

ويعرف التعدد اللغوي في سياق آخر بأنه: " مصطلح يطلق على الفرد الذي يستخدم داخل مجموعة لغوية واحدة عدة لغات حسب ظروف الخطاب (عائلية رسمية، سياسية، اقتصادية...) "².

وعليه فإنّ التعدد اللغوي وفق ماسبق يمكن أن يكون ظاهرة اجتماعية، كما يمكن أن يكون ظاهرة لغوية فردية تتجسد في قدرة الفرد على استعمال لغتين أو أكثر وفقاً لظروف الخطاب التي يكون فيها.

ويرى لويس جون كاليبي (L.J.Calet) "أنّ التعدد اللغوي ظاهرة اجتماعية إنسانية موروثة تاريخياً، وقد أطلق عليها مصطلح " حرب اللغات"³، ويقول في هذا الصدد: "لقد التقينا بـ: "حرب اللغات" هذه في ساحة المعارك المختلفة من الأسرة إلى السوق

إلى الدروب التي سلكتها اللغات المنتشرة في تطويرها⁴؛ فالتعدد اللغوي وفق هذا التعبير هو نتيجة حرب تنشب بين اللغات لتفرض كل واحدة منها حضورها في الوجود والاستعمال.

ويعرفه محمد الأوراعي بقوله: "التعدد اللغوي المقابل العربي للفظ الأجنبي Multilinguisme" وهو يصدق على الوضعية اللسانية المتميزة بتعايش لغات وطنية متباينة في بلد واحد، إما على سبيل التساوي إذا كانت جميعا لغات عالمية كالألمانية والفرنسية والإيطالية في الجمهورية الفيدرالية السويسرية، وإما على سبيل التفاضل إذا تواجدت لغات عالمية كالعربية بجاني لغات عامية، مثل الهوسا، والغورمانشة والسوناى زارما، والنماشيق والفولفولدة، والتوبو في جمهورية النيجر⁵.

وهذا التعريف يلمح إلى أهم مظاهر التعدد اللغوي، ويخص كل مظهر بخاصية تميزه، فيخص المظهر الأول والمتمثل في الثنائية اللغوية بأنها تتطلب التساوي بين اللغات في الاستعمال، في حين يختص المظهر الثاني من مظاهر التعدد اللغوي والمتمثل في الازدواجية اللغوية بالتفاضل بين اللغات في الاستعمال، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على موسوعية مصطلح التعدد اللغوي من جهة، وعلى اختلاف تعريفاته من جهة ثانية.

2/ مظاهر التعدد اللغوي: لقد سبق وأشرنا إلى أن التعدد اللغوي يشمل ظاهرتين لغويتين تعدان من أهم الظواهر اللغوية التي أثارت ضجة كبيرة في الساحة العلمية والفكرية والاجتماعية والثقافية ككل، وهما:

أ/ الازدواجية اللغوية (Diglossie): يعد العالم فريجسون (Ferguson) أول من استعمل مصطلح (Diglossie) في مقال له بعنوان "الثنائية" Diglossie"، وذلك سنة 1959م، وكان يقصد به "تعايش شكلين لغويين في صلب جماعة واحدة، أطلق على أحدهما: "التنوع الوضعي"، وعلى الآخر: "التنوع الرفيع"⁶؛ وعليه فإن الازدواجية

اللُّغويّة هي استعمال لمستويين لغويين ينتميان إلى أصل واحد، أحدهما راق فصيح (كالعربية الفصحى)، وآخر عامي وضع (كالعامية).

ب/ الثنائية اللُّغويّة (Bilinguisme): تعد الثنائية اللُّغويّة من أكثر المصطلحات صعوبة، إذ اختلف الباحثون المحدثون في تعريفه، ولعل سبب ذلك يرجع إلى كونه "مصطلحا وافدا إلينا بواسطة ترجمة مرهونة بظروف تاريخية استعمارية هو وقرينه الازدواجية اللُّغويّة"⁷.

ومن أشهر التعريفات التي ساقها الباحثون للثنائية اللُّغويّة نذكر: تعريف "منذر عياشي" لها بقوله: "كل فرد يتدبر أمره بشكل ملائم عبر لغة ثانية يعتبر مزدوج اللُّغة"⁸.

ويعرفها ماروزو (Marouzeau) بقوله: "هي الوضع اللُّغوي لفرد ما أو جماعة بشرية معينة تتقن لغتين، دون أن تكون لأفرادها قدرة كلامية مميزة في لغة أكثر من اللُّغة الأخرى"⁹.

لكن تجدر الإشارة أنّ الملاحظ للدراسات التي تناولت مصطلحي الثنائية اللُّغويّة والازدواجيّة اللُّغويّة، يجد أنّ هناك تضاربا وخطا كبيرا في تحديد مفهوم كل منهما وهذا ربما يرجع إلى اختلاف التّرجمة أحيانا، وإلى سوء الفهم والخلط بين المصطلحات أحيانا أخرى، لفك هذا اللبس والغموض، ولتجنب هذا الخلط سنعرض في ما يلي المعنى اللُّغوي لكل من الازدواجية والثنائية.

أ/ الازدواجية: جاء في لسان العرب لابن منظور: "الأصل في الزوج الصنف والنوع من كل شيء، وكل شيئين مقترنين"¹⁰، فالأزواج إذا يكون بين شيئين متقاربين، ومن نوع واحد، وعليه فإنّ الازدواجية اللُّغويّة "تعني وجود مستويين لغويين في لغة واحدة"¹¹، وهي ترجمة للمصطلح الانجليزي (Diglossie).

كما يقصد بها استعمال أبناء اللُّغة مستويين من اللُّغة أحدهما يستعمل في الأدب والفكر، وهو المستوى الفصح، وآخر يستعمل في التّواصل اليوميّ وهو المستوى

العالمي؛ فالازدواج اللغوي: مصطلح" يدلّ على توزيع الاستعمالات في كل من اللّغات بحسب الظروف والموضوعات الخاصة وبترافق هذا التّوزيع عموماً مع انتشار إحدى اللّغات"¹²، وعليه فالازدواج اللّغوي يكون بين شكلين لغويين في اللّغة الواحدة.

ب/ الثنائية: إنّ الثنائية في اللّغة متعلّقة بالأضداد؛ إذ " تطلق على مقابلات الأضداد كالخير والشرّ، والنور والظلام، والفقر والغنى"¹⁴، وعليه نستنتج أنّ الثنائية اللّغويّة تكون بين لغتين مختلفتين، فهي تحدد عند البعض على أنّها قدرة الفرد على استعمال نظاميين لغويين مختلفين في بيئة لغوية واحدة؛ أي " وجود لغتين مختلفتين (قومية وأجنبية) عند فرد ما أو جماعة ما في آن واحد"¹⁵، كاستعمال الفرد للعربية والفرنسية في الجزائر.

وانطلاقاً مما سبق، واعتماداً على التعريف اللغوي لكل من الازدواجية والثنائية سنعتمد في دراسنا هذه المفهومين السابقين لقرّبهما من المعنى اللغوي؛ لكننا نشير إلى أنّه لا يوجد حتى الآن فصل حاسم أو اتفاق بين الباحثين حول استعمال هذين المصطلحين.

ثانياً/ التنوع الثقافي (Culture Diversity): تجدر الإشارة إلى أنّ مصطلح التنوع الثقافي من المصطلحات الأكثر تداولاً في عصرنا الحالي؛ إلا أنّه مصطلح كثير التعقيد، فقد حاول كثيرون تفسيره وتقديم تعريفات متعدّدة له، لكن رغم ذلك أصبح التنوع الثقافي توجهاً عالمياً بفضل اليونيسكو التي رفعت شعار " تنوعنا هو مصدر قوتنا".

1/ تعريف التنوع الثقافي: اختلف الباحثون في نظرته لمصطلح التنوع الثقافي فمنهم من "يعتبر التنوع الثقافي عاملاً إيجابياً في حد ذاته؛ فهو يدلّ على تقاسم الثروة التي تجسدها كل ثقافة من ثقافات العالم"¹⁶، وهذا سيكون له دور إيجابي في توطيد عمليات التبادل والحوار في مختلف المجالات؛ لأنّه سيوضح الروابط التي تربطنا جميعاً. في حين يرى آخرون أنّ " الفوارق الثقافية هي التي تجعلنا نعجز عن تبيين

إنسانيّتنا المشتركة، وهي التي تكمن في جذور الكثير من النزاعات¹⁷، لكن يجب أن نشير هنا إلى أنه وعلى الرغم من أن التنوع الثقافي هو مصدر للخطر كونه يمكن أن يهدد الهوية الوطنية، إلا أنه مفيد جدا في توطيد علاقات العمل على صعيد المجتمع الدولي وهذا ما دفع منظمة اليونسكو إلى وضع تقرير عالمي بعنوان " الإستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات".

ويعرّف التنوع الثقافي بأنه: " وجود العديد من الثقافات في مؤسسة معينة أو مجتمع معين أو في العالم وهو عبارة عن مجموعة من الثقافات المختلفة والمتنوعة، ومن أبرز الأمثلة على التنوع الثقافي الثقافات المتجانسة، والثقافة العالمية، وقد تشير إلى وجود العديد من الثقافات المتنوعة والتي تحترم بعضها البعض¹⁸ فالتنوع الثقافي يمكن أن يكون في المؤسسات وفي المجتمع وفي العالم، فهو ليس حكرا على المجتمع فقط. وهناك من يقول أن: "أن التنوع الثقافي كمفهوم يشير إلى اتسام الثقافة البشرية بسمّة التنوع والاختلاف لذلك يسعى كل مجتمع للحفاظ على هويته وما يميزه ويعبر عنه خصوصيته واستقلاله عن باقي الثقافات الأخرى¹⁹، فالتنوع الثقافي حقيقة واقعة لا يمكن نفيها أو تجاهلها، فالملاحظة الإثنوغرافية* البسيطة تبين لنا أن هناك مجموعة واسعة من الثقافات المتميزة والمتباينة فيما بينها ، مما يجعل الوعي بالتنوع الثقافي أمرا ضروريا وشائعا خاصة في ظل العولمة التي يعرفها العالم اليوم، والتي يسّرت عملية التبادلات وزادت من تقبل المجتمعات لبعضها البعض.

في حين يعتبر تايلور (Taylor) أن التنوع: " هو ذلك الخليط من الناس الذين يختلفون في انتماءاتهم وهوياتهم الثقافية؛ ولكن يعيشون في نفس النسق الاجتماعي²⁰ وهذا التعريف يشير إلى أن هناك نظرتين للتنوع الثقافي²¹:

✚ **تنوع ثقافي على المستوى العالمي:** وهو ما يكون ناتجا عن اختلاف ثقافات العالم والدول وثور تراثها وعانها وتقاليدها.

✚ تنوع ثقافي يتمثل في تلاقي الأفراد من ثقافات مختلفة: تحت نسق اجتماعي معين مشكلة تنوعا ثقافيا.

لكن في الحقيقة فإنه من الصعب وضع حدود تفصل بين هذين النوعين لأنهما متربطان، وكل واحد منها يكون سببا في ظهور الآخر، فبينهما علاقة تأثير وتأثر.

2/ مظاهر التنوع الثقافي: يظهر التنوع الثقافي في مجموعة من المظاهر، هذه المظاهر التي تمثل أهم مكونات الثقافة، وفي الوقت نفسه تعدّ من أبرز مقومات الهوية وهذا إن دلّ على شيء فإنّها يدلّ على الرابط القوي الموجود بين هذه المصطلحات الثلاث والتفاعل القوى الموجود بينها، ويمكن أن نجمل أهم هذه المظاهر في ما يلي:²²

✚ اللغة: بقيت اللغة على مر العصور والأزمنة أهم ميزة للحضارات والأمم، فهي الأساس والركيزة التي تقوم عليها الثقافة، كما أنّها أهم مظاهر الاختلاف بين الحضارات والأمم؛ فكل أمة تفتخر وتتباهي مزاي لغتها، وتحرص كل الحرص على تعليمها للجميع بشكل دائم، فهي المنفذ الذي يستخدم للتعرف على جميع الحضارات، وبالتمازج بين الشعوب في كافة أنحاء العالم؛ فـ "لا تعتبر اللغات أداة للاتصال فقط، فهي تمثّل النسيج الحقيقي لأشكال التعبير، وهي الحامل للهوية والقيم ورؤى العالم"²³؛ وعليه فإنّ اللغة هي أهم مظهر وأهم أسباب التنوع الثقافي فاللغة هي المعبر الأهم عن الثقافة، وهي اللسان الناطق بها، وأي تنوع ثقافي سيكون منطلق وسببه اللغة لامحالة، باعتبار أنّها الوسيلة المستخدمة في التعبير عن باقي مكونات الثقافة.

✚ الدين: يعتبر الدين من بين مظاهر التنوع الثقافي، فهو يعكس توجه معتقديه كما أنّه هو الذي يخلق رؤيتهم، لذلك فإنّ التعرف على الأديان العديدة التي انتشرت في كافة أنحاء العالم يعدّ من أفضل السبل لتلاقح الشعوب والأمم وتأثرها ببعضها البعض وهو بذلك وسيلة للتعرف على العديد من الحضارات وعوامل الاختلاف الحضاري بصفة عامة.

✚ **العادات والتقاليد:** تعتبر العادات والتقاليد أهم مظاهر التنوع الثقافي، كونها منبع الاختلاف الثقافي والحضاري بين الأمم، لذلك فإن الأمم تحرص على توريث عاداتها وتقاليدها لتفرض حضورها ووجودها، فالعادات والتقاليد ميزة الأمة وجزء من كيانها وهويتها، وانتشرها يضمن لها مكانة بين الأمم.

3/ **إيجابيات وسلبيات التنوع الثقافي:** إن التنوع الثقافي كظاهرة في المجتمع يتميز بجملة من الإيجابيات، ولكنه في الوقت نفسه لا يخلو من بعض السلبيات، ويمكن أن نجمل هذه الإيجابيات والسلبيات في مايلي:²⁴

أ: **إيجابيات التنوع الثقافي:**

✚ التعرف على الثقافات الأخرى في المجتمع، وفي الدول الأخرى: عاداتها وتقاليدها وقيمها.

✚ الاعتراف بشرعية الثقافات الأخرى في المجتمع، وبأنها مركب وجزء لا يتجزأ من المجتمع.

✚ تنمية الاحترام المتبادل بين الثقافات، وتطور النقد الذاتي وتحقيق الذات للفرد والثقافة في المجتمع.

✚ إعطاء فرصة جديدة تضمن وتحقق الحريات والمساواة بين الثقافات المختلفة في المجتمع مثل سن القوانين لحماية هذا التنوع واحترامه.

ب: **سلبيات التنوع الثقافي:**

✚ يمكن أن يؤدي إلى نشوب صراع عنيف بين الثقافات المختلفة، وذلك عند محاولتها لخلق قوانين موحدة ودستور وموحد للدولة والسيادة فيها، وربما قد يؤدي في نهاية المطاف إلى اندلاع حرب أهلية.

✚ يسهم في بعض الأحيان في انغلاق الثقافة على نفسها، وتكوين إطار خاص بها بعيدا عن الإطار المشترك؛ وهو الدولة فينتج عدة دول في دولة واحدة، وهذا يؤدي إلى تفكيك الإطار المشترك.

يمكن أن يؤدي إلى تزعزع وزوال الاستقرار الاجتماعي وفوضى اجتماعية بسبب غياب القوانين الموحدة بين الثقافات، ويرجع ذلك إلى اختلاف هذه الثقافات في القيم والعادات فلا توجد ثقافة صحيحة.

يمكن أن يؤدي إلى تفكك المجتمع ووحدته، وإلى انهيار النسيج الاجتماعي بداخله فيصبح المجتمع كالفيسفساء؛ لأن لكل ثقافة عاداتها وتقاليدها ونمط حياتها. وسنحاول نحن من خلال هذه الدراسة أن نتعرف على التنوع الثقافي في الجزائر من خلال رصد أهم مظاهره، والمتمثل في اللغة.

ثالثاً/التعدد اللغوي في الجزائر: تعدّ الجزائر من بين البلدان التي تزخر بالتنوع اللغوي، هذا الأخير الذي ساهم في تشكيل ظاهرة التعدد اللغوي، ولعل سر هذا الثراء اللغوي التي يتميز به ووطننا راجع لأسباب جغرافية وسياسية واجتماعية...الخ ويمكن أن نلخص هذا التنوع اللغوي في المستويات الثلاثة التالية:

1_ المستوى الرسمي: ويقصد به ذلك المستوى الذي تستعمل فيه اللغة العربية الفصحى التي تعد لغة المقامات التواصلية الرسمية²⁵، بحكم أنها لغة الدين، والقانون والحكومة، فاللغة العربية كما يقول إميل بديع يعقوب: "لغة القرآن الكريم والتراث العربي، والتي تستخدم في المعاملات الرسمية، وفي تدوين الشعر والنثر والإنتاج الفكري"²⁶، واللغة العربية المقصودة هنا هي اللغة العربية الفصحى أو بعبارة أخرى هي اللغة العربية الكلاسيكية.

2_ المستوى التواصلية: وهو خلاف المستوى الأول، فإذا كان المستوى الأول رسمي فصحيح، فإنّ هذا المستوى هو: مستوى غير رسمي، يقوم على استعمال اللغة لأغراض الحياة اليومية²⁷، وهو مستوى أوسع من المستوى الرسمي كونه يتضمن اللهجات العامية الأمازيغية، واللهجات العربية العامية، ويمكن أن نمثل لهذا المستوى بالمخطط التالي:



أ/ العاميات الأمازيغية: وهي لغات فئات معينة (هي اللغة الأم لسكان بني مازيغ) وتمتاز بمجموعة من الخصائص الثقافية والعرقية، وانتماءات جغرافية ولغوية، وهي متنوعة في الجزائر²⁸، ويمكن توزيعها إلى مجموعات كبيرة أهمها:

✚ القبائلية: وهي لغة القبائل الكبرى، وهي "اللغة الأكثر انتشاراً، وتعدّ منطقة القبائل أهم منطقة ناطقة بالأمازيغية، وتشمل منطقة القبائل: بجاية، تيزي وزو، مع وجود أقليات في المحور الممتد من سطيف إلى العاصمة، ويضم سطيف، وبرج بوعريرج، والعاصمة.²⁹

وقد تم الإعلان عنها كلغة رسمية سنة 2002م، وأصبحت تعتمد في المنظومة التربوية، وفي الامتحانات الرسمية.

✚ الشاوية: وهي لغة جبال الأوراس، إذ يتحدث بها السكان الأمازيغ القاطنين في ولايات تابعة لتلك المنطقة، على سبيل المثال: باتنة، أم البواقي، خنشلة، تبسة وجنوب ولاية سطيف.³⁰

✚ الترقية: وهي لغة سكان الطوارق، وهم قبيلة موجودة في الجزائر، ويقطنون في مدينة توقرت.

✚ الشلحية: وهي لغة تستعمل في مناطق متفرقة من التراب الوطني، فليس لها منطقة محددة كالفانالية والشاوية، ومن أكثر المناطق التي تستعمل فيها هذه اللغة: تيبازة، الشريط المحادي للمغرب الأقصى كمغنية.

✚ الميزابية: وهي لغة سكان بني ميزاب نسبة إلى المنطقة التي يقطنون بها ويستوطن أهلها في مدينة غرداية، وبعض المدن الإباضية³¹.

فالعاميات الجزائرية تعتبر اللغة الأم للناطقين بها، فهي أول لغة ينطق بها أهلها وقد أثبتت الإحصائيات أن نسبة متكلمي العاميات الأمازيغية في الجزائري يقدر بحوالي 20% من العدد الإجمالي لسكان الجزائر، وهي نسبة معتبرة إذا ما قورنت باستعمال اللغة العربية الفصحى؛ باعتبار أن اللغة الأمازيغية هي لغة ثانية، في تعد اللغة العربية اللغة الأولى في الجزائر، لكن وعلى الرغم من أنها اللغة الأولى إلا أنها _ وللأسف _ لاتعتبر اللغة المهيمنة على ألسنة الناس.

ب/ اللهجات العامية الجزائرية: وهي لغة أغلبية سكان الجزائر، فهي أداة التواصل بين جميع الناس، وتعتبر لغة الحديث والتعاملات اليومية، والعاميات الجزائرية كثيرة ومتنوعة، لايسعنا الزمان والمكان لذكرها جميعا، لكن يمكن توزيعها إلى أربع مناطق رئيسية، وهي:

✚ عاميات الشرق الجزائري: ومن أهم ولايات هذه الجهة نذكر: البويرة، سطيف، بومرداس... إلخ

✚ عاميات الوسط الجزائري: ومن أهم ولايات هذه الجهة نذكر: الجلفة، البليدة، عين الدفلة... إلخ

✚ عاميات الغرب الجزائري: ومن أهم ولايات هذه الجهة نذكر: سعيدة، تلمسان، سيدي بلعباس... إلخ

✚ عاميات الجنوب الجزائري: ومن أهم ولايات هذه الجهة نذكر: تلمسان، أدرار، إليزي... إلخ

3/ **المستوى الوظيفي:** وبعدّ هذا المستوى من أهم مستويات التّواصل، باعتباره " وسيلة الانفتاح على العالم الخارجي والتّبادل الفكري والثقافي كالفرنسية والانجليزية"³² ويقصد به ذلك المستوى الذي تستعمل فيه اللّغة "لأغراض خاصة باعتباره تواصل مبني على مفهوم الحاجة أو الضرورة، ويمثله استعمال اللّغة الفرنسيّة بالدرجة الأولى واللّغة الانجليزية بالدرجة الثّانية."³³

وانطلاق مما سبق يمكننا القول أنّ الواقع اللغوي في الجزائر يتميز بمظهرين متناقضين في الظاهر منسجمين في الواقع، ألا وهو " التّعايش والصّراع " ، ويمكن أن نلخص هذا المشهد اللّغوي في ثلاث مشاهد لغويّة وهي³⁴:

أ/ **مشهد اللّغة العربيّة الفصحى:** ويتمثل في المستوى الرّسمي الذي تستعمل فيه اللّغة في الإبداع العلمي والأدبي والثقافي.

ب/ **مشهد العاميّات واللهجات المحليّة:** ويتمثل في المستوى التّواصلي الذي هدفه تحقيق التّواصل، سواء أكان هذا التّواصل باستخدام اللّغة العربيّة الفصحى _ وهو قليل جدا _ أو باستخدام العاميات الأمازيغية، واللهجات العاميّة العربيّة.

ج/ **مشهد اللّغات الأجنبيّة:** ويتمثل في المستوى الوظيفي، وتعد اللّغة الفرنسيّة على رأس هذه اللّغات، ويرجع لاعتبارات تاريخية أولا (لغة المستعمر)، واقتصادية وستراتيجية ثانيا، حيث تستعمل اللّغة الفرنسيّة بنسبة معتبرة في المجتمع الجزائري كما لها حضور قوي في الإدارات العمومية والمؤسسات الاقتصادية.

وعليه، وانطلاقا من الواقع اللّغوي الذي تعيشه الجزائر نستطيع القول أنّ الجزائر تزرّخ بتعدد لغوي هائل وثراء لغوي مميز ونادر، كونها تضم جميع أشكال التّعدد اللّغوي، ممّا يخولها أن تكون قطبا للتنوع الثقافي، هذا الأخير الذي يعد منبع التّميّة المستدامة، والتّقدم والرّقي الحضاري.

رابعاً/ **التّعدد اللّغوي والتنوع الثقافي:** تحظى اللّغة بمكانة مهمّة في حياة الفرد والمجتمع والعالم ككل، كما أنّها ذات ثقل استراتيجي مميز كونها الركيزة الأساسيّة في

الاتصال والتعليم والتنمية والاندماج الاجتماعي، فـ" اللغات هي من المقومات الجوهرية لهوية الافراد والجماعات، وعنصر أساسي في تعايشهم السلمي كما أنها عامل استراتيجي للتقدم نحو التنمية المستدامة.³⁵

وإذا تحدثنا عن التنوع الثقافي فإننا سنتحدث بالضرورة عن اللغة، بحكم أنها أهم مظاهر التنوع الثقافي وأهم مكونات الثقافة، وهي باختصار الناطق الرسمي بلسان الثقافة؛ إذ ترتبط اللغة بالتنوع الثقافي ارتباطا وثيقا فـ: "لا تعتبر اللغات أداة للاتصال فهي تمثل النسيج الحقيقي لأشكال التعبير الثقافي، وهي الحامل للهوية والقيم ورؤى العالم.³⁶، فاللغة ليس وسيلة للاتصال والتواصل كما يعتقد أغلب الناس؛ بل لها وظائف ومنافع أخرى فهي من يمثل جميع أشكال التعبير الثقافي، كما أنها أساس الهوية والقيم، وهي من يرسم الوجود، باختصار فإن اللغة وعاء الثقافة باعتبار أن الثقافة تجمع بين كل الهوية والقيم والعادات والتقاليد.

وتعدّ اللغات من بين الظواهر اللغوية التي تدعم ويخدم وينمي التنوع الثقافي فاللغات ضرورة جوهرية للتنمية، فـ" ثمة حاجة إلى حفظ التنوع اللغوي العالمي كواحد من مستلزمات التنوع الثقافي والترويج للتعدد اللغوي والترجمة بغية تعزيز الحوار بين الثقافات.³⁷

ولذلك اهتمت منظمة اليونسكو باللغات وتحديدًا بظاهرة التعدد اللغوي، باعتبار أن تعدد اللغات في البلد الواحد يؤدي إلى التنوع الثقافي، هذا الأخير الذي يعدّ منطلق التنمية المستدامة، وأداة التطور والتقدم الحضاري كما أقرّت بأهمية العوامل اللغوية فهي في نظرها " تؤدي دورا استراتيجيا في القضاء على الفقر والفقر المدقع والجوع وذلك لأنّ القدرة على اكتساب المعيشة والمشاركة في الحياة الاجتماعية والعامّة والتّحاور تعتمد اعتمادا كبيرا على المهارات اللّغوية"³⁸، كما لا ننسى أيضا أنّ تعدد اللّغات إلى جانب مساهمته في تسهيل عملية التّواصل بين الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة يسهم أيضا في حماية اللّغات المهدّدة.

خامسا/ دور التعدد اللغوي في تنمية التنوع الثقافي في الجزائر: تعتبر الجزائر من أهم البلدان التي تزرخ بالتنوع اللغوي، بل إنها وبدون منازع قطب للتنوع اللغوي حيث تضم بين أضلعها كمّا معتبرا من الثقافات واللهجات واللغات، وكل لغة ولهجة من هذه اللغات واللهجات تروي ثقافتها، فلا يوجد مظهر من مظاهر التعدد اللغوي إلّا ووجد في الجزائر.

وقد سبق وأشرنا أنّ المجتمع الجزائري مجتمع متعدّد اللغات، فهو يستعمل في تواصله لغات مختلفة كالعربية الفصحى والفرنسية والانجليزية، كما يستعمل لهجات مختلفة كالأمازيغية والشاوية والميزابية والعامية... الخ، وهذا الاختلاف والتعدد اللغوي هو منبع التمازج الثقافي الذي يؤدي إلى التنوع الثقافي؛ بحكم أنّ اللغة جزء من الثقافة. فاللغة لا تنحصر في مجال الكلام والتواصل فقط، بل تتعدى الأمر إلى أبعد من ذلك؛ فحين يتحدث المرء بلغة معينة فإنّه بوعي منه أو بدون وعي يستعمل ويمارس ثقافة، وتاريخ ووعي وهوية تلك اللغة.

وإذا عدنا إلى مفهوم الثقافة نجد أنّها كما يقول إدوارد تايلور (Edward Tylor): "المركب الكلي الذي يشتمل على المعرفة والمعتقد والفن والأدب والأخلاق والقانون والعرق والقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع"³⁹، والمتأمل لهذا التعريف يستنتج أنّ أغلب هذه المركبات (مركبات الثقافة) إن لم نقل كلها (المعرفة، المعتقد، الفن، الأدب...) تعدّ اللغة قوامها وأساسها؛ فالمعرفة تكتسب عن طريق اللغة والمعتقد يعتمد على اللغة، وقد كانت معجزة نبيّنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم لغويّة (القرآن الكريم) وكذلك هو الحال مع كلّ من الفن والأدب والأخلاق والقانون فكلها تعتمد على اللغة.

وتجدر الإشارة أنّ مصطلح اللغة هنا لا يقصد بها اللغة الأكاديمية الفصحى فقط كالعربية الفصحى والفرنسية والانجليزية...، بل هو مصطلح أوسع من ذلك فهو يضم

اللهجة والعامية والفصحى واللغات الأصلية والأجنبية، واجتماع هذه اللغات واللهجات في مجتمع ما يجعل منه مجتمعا متعدد لغويا. وعليه وانطلاقا من عرضنا للواقع اللغوي في الجزائر، وانطلاقا العلاقة الوثيقة التي تربط اللغة بالثقافة نستطيع القول أن الجزائر ونظرا لما تمتلكه من تنوع وثراء لغوي تعدّ بحق قطبا للتنوع الثقافي يمكنها من تحقيق التنمية المستدامة، ويحولها أن تكون من تحقيق التطور والتقدم والالتحاق بركب التقدم الحضاري طبعاً إذا هي أحسنت استغلال هذا التنوع، فلا يخفى على مطلع أن هذا التنوع سلاح ذو حدين ويمكن أن يكون خطراً على هوية المجتمع الجزائري.

خاتمة: إن اللغة كانت وما تزال العمود الفقري الذي يحرك كل شيء في العالم والمجتمع، ولا يوجد شيء ولا وسيلة تستطيع أن تحل محل اللغة أو تتوب عنها، فلا توجد ظاهرة تساعد في تنمية المجتمع وتطورو وتقدمه إلا وكانت اللغة أحد أقطاب هذه الظاهرة، ولعل التنوع الثقافي أحد أهم هذه الظواهر التي تعدّ اللغة عنصراً فاعلاً فيها فكما تعددت لغات المجتمع كلما تعددت وتنوعت ثقافته لينشأ لذلك تنوع ثقافي يكون بمثابة البؤرة التي ينبع منها التقدم والتطور الحضاري، والجزائر بلد يملك ثروة لغوية تتمثل في تعدد لغاته ولهجاته وتنوع ثقافته جعلته منبعاً للتنوع الثقافي؛ فاللغة بالنسبة للتنوع الثقافي كالروح بالنسبة للجسد، ومن هذا المنطلق تناولنا في هذه الورقة البحثية موضوع التعدد اللغوي ودوره في تنمية التنوع الثقافي في الجزائر، وخلال إنجازنا لهذه الدراسة توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

✓ إن التعدد اللغوي ظاهرة لغوية منتشرة في جميع المجتمعات، ولا يوجد تقريباً مجتمع يخلو من هذه الظاهرة، والمجتمع الجزائري أحد المجتمعات التي تزخر بتعدد وتنوع لغوي مميز.

✓ الأزواجية اللغوية والثنائية اللغوية من أهم مظاهر التعدد اللغوي، وهما مصطلحين أثارا جدلاً كبيراً في الساحة العلمية والمعرفية، ولا يوجد حتى الآن اتفاق

بين العلماء حول استخدامهما، فأحيانا تستخدم مصطلح الثنائية للدلالة على قدرة الفرد على استخدام نظامين لغويين ومختلفين كالعربية والفرنسية، وأحيان يطلق على هذا المفهوم مصطلح الازدواجية.

✓ تتمتع الجزائر بتنوع لغوي مميز يخولها أن تكون قطبا ثقافيا عالميا، فاللغة لسان الثقافة وأساس الأمة.

✓ التنوع الثقافي ظاهرة موجودة منذ وجود الإنسان، فالاختلاط والتمازج شيء طبيعي في الإنسان فالإنسان كائن اجتماعي بطبعه، ولا يمكنه العيش بمعزل عن الآخرين.

✓ التنوع الثقافي سلاح ذو حدين: فهو عامل إيجابي من جهة؛ كونه يسهم في تقاسم الثروة الثقافية بين الأمم ويقوّي الروابط بين أهلها، وعامل سلبي؛ باعتبار أنه يمكن أن يكون خطرا على هوية الأمة وثقافتها وعاداتها وتقاليدها ولغتها بما يحمله من تأثير لثقافة ولغة الأمم الأخرى.

✓ يوجد تناسب إيجابي بين اللغة والتنوع الثقافي؛ فكلما زاد عدد اللغات في المجتمع زاد التنوع الثقافي وكلما قلّ عدد لغات المجتمع (التعدد اللغوي) قلّ التنوع الثقافي في المجتمع.

✓ التعدد اللغوي ظاهرة إيجابية في المجتمع، فهو يساعد على التفاهم بين الناس ويشكّل معارف متماسكة تنشأ بينهم، وفي هذا الصدد يقول الباحث أوفيليا غارسيا: " التربية الثنائية للغة ومتعدد اللغة هي في الحقيقة تربية صحيحة متعددة الثقافة، تتجاوز التعبير عن الأحاسيس الإيجابية، لتمنح الناس وسيلة حالية، وهي الثنائية لخلق معرفة وتفاهم كبيرين.⁴⁰

ولقد أردنا في ختام هذه المداخلة أن نطرح جملة من التوصيات والإقتراحات التي نرى أن تجسيدها على أرض الواقع يمكن أن يسهم في التنوع الثقافي في الجزائر

وفي استغلال هذا التنوع اللغوي والثقافي الذي يتمتع به بلدنا، ومن أهم هذه التوصيات نذكر:

✓ ضرورة استغلال الثروة اللغوية التي تتمتع بها الجزائر في تحقيق التنمية المستدامة، فاللغة هي المولد الأساسي للتنوع الثقافي الذي يعدّ المحرك الرئيس للمجتمعات وتنميتها في شتى المجالات.

✓ استغلال التنوع الثقافي الموجود في الجزائر في تطوير عملية التعليم، وذلك من خلال الاهتمام والحرص على تعليم اللغات المستعملة في بلدنا، وهذا سيؤدي لا محالة إلى تنمية خبرات وثقافات المتعلمين، مما يساعد على فتح الآفاق أمامهم نحو التقدم والرفق، ويزيد من إبداعاتهم.

✓ توعية مختلف أفراد المجتمع بضرورة احترام الثقافات المختلفة داخل المجتمع وضرورة استغلال هذا التنوع الثقافي في تحقيق ذواتهم، وتطوير النقد الذاتي لديهم.

✓ القيام بحملات توعوية لتوعية أفراد المجتمع بأهمية التنوع الثقافي بصفة عامة، وتعريفهم بالتنوع الثقافي الذي تتمتع به الجزائر، وإقناعهم بأنه ثروة لا بد لنا من استغلالها لنلحق بركب التقدم الحضاري.

✓ ضرورة إدراج وحدات وبرامج تعليمية تستوعب التنوع الثقافي الموجود في الجزائر؛ حيث يكون هدفها تعريف المتعلم بمفهوم التنوع الثقافي وأهميته ومظاهره والأهم من ذلك كيفية استغلاله لتحقيق التقدم والرفق في شتى المجالات، وهذا سيسهم لا محالة في بناء جيل واع ومدرك لأهمية التنوع الثقافي، قادر على استغلاله في تحقيق التطور والتنمية الفردية والجماعية.

المصادر والمراجع:

- 1: صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، دار هومة، الجزائر، (د. ط)، 2010م، ص224.
- 2: نور الدين دريم، أثر التداخل اللغوي في العملية التعليمية، جامعة حسينية بن بو علي الشلف، الجزائر، مقال منشور ص120.
- 3: ينظر: ملوك خديجة، التعدد اللغوي وأثره على تعليمية اللغة العربية في الجزائر رسالة ماستر، جامعة ابو بكر بلقايد، تلمسان الجزائر، 2015م/2016م، ص13.
- 4: لويس جان كاليقي، علم الاجتماع اللغوي، تر: حسن حمزة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2008م، ص389.
- 5: محمد الأوراعي، التعدد اللغوي وانعكاساته على النسيج الاجتماعي، مطبعة النجّاح الجديدة الدار البيضاء، الرباط، ط1 2002م، ص11.
- 6: لويس جان كاليقي، علم الاجتماع اللغوي، ص33.
- 7: عمر قوقمة، التعدد اللغوي _ قراءة في المصطلح والمفهوم والمظاهر_، مجلة الصوتيات حولية أكاديمية محكمة متخصصة مخبر اللغة العربية وآدابها ع19، جامعة البليدة2، لونييسي علي، الجزائر، ص104.
- 8: منذر عياشي، قضايا لسانية وحضارية، دار طلاس، دمشق، سوريا، ط1، 1987م ص50.
- 9: عمر قوقمة، التعدد اللغوي _ قراءة في المصطلح والمفهوم والمظاهر_، ص105.
- 10: ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة (د. ط)، (د. ت)، مادة (زوج) ص1885.
- 11: عبد الرحمن بن محمد القعود، الأزوداج اللغوي في اللغة العربية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط2، 1997م، ص11.
- 12: جوليت غارمادي، اللسانيات الاجتماعية، تع: خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1990م ص152.

- 14: أحمد برماد، أزمة التداخل اللغوي بين العامية والفصحى في المدرسة الجزائرية الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية قسم الآداب واللغات، ع19 جانفي 2018م ص57.
- 15: عبد الرحمان محمد القعود، الإزدواج اللغوي في اللغة العربية، ص11.
- 16: جورج كوتو كدجيان، رجون كوريبيت، تقرير اليونسكو العالمي، الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة فرنسا، 2009م المقدمة.
- 17: المرجع نفسه، المقدمة.
- 18: مفهوم التنوع الثقافي، كتاب وزى وزى، 28 مارس 2019، 8:45، <https://weziwezi.Com>
- *الإثنوغرافيا: مصطلح يطلق على الدراسة الوصفية لطريقة وأسلوب الحياة لشعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات ومصطلح الإثنوغرافيا (Ethnography) في بريطانيا يعني البحوث الوصفية والتحليلية التي قام بها علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون حول الشعب والأقوام البدائية التي درسوها دراسة ميدانية.
- 19: زاراري حبيبة، الحق في التنوع الثقافي، مذكرة ماجستير، جامعة سطيف2 2013م/2014م، ص2.
- 20: عبد المجيد بكاي، التنوع الثقافي وعلاقته بالقيم التنظيمية داخل المنظمات متعددة الجنسيات في الجزائر، أطروحة دكتوراه جامعة باجي مختار، غابة 2015م/2016م ص68.
- 21: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 22: ينظر: مفهوم التنوع الثقافي، كتاب وزى وزى.
- 23: جورج كوتو كدجيان، رجون كوريبيت، تقرير اليونسكو العالمي، الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، ص3.
- 24: ينظر: عبد المجيد بكاي، التنوع الثقافي وعلاقته بالقيم التنظيمية داخل المنظمات متعددة الجنسيات في الجزائر، ص69.

- 25: ينظر: أحمد برماد، أزمة التداخل اللغوي بين العامية والفصحى في المدرسة الجزائرية ص59.
- 26: إميل بديع يعقوب، فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم للملايين، بيروت_لبنان ط1 1985م، ص144.
- 27: ينظر: أحمد برماد، أزمة التداخل اللغوي بين العامية والفصحى في المدرسة الجزائرية ص59.
- 28: ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 29: ملوك خديجة، التعدد اللغوي أثره على تعليمية اللغة العربية في الجزائر، منكر ماستر جامعة بلفايد، تلمسان، الجزائر 2015م/2016م، ص35.
- 30: ينظر: المرجع نفسه، ص36.
- 31: ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 32: المرجع نفسه، ص37.
- 33: أحمد برماد، أزمة التداخل اللغوي بين العامية والفصحى في المدرسة الجزائرية ص59.
- 34: ينظر: المرجع نفسه، ص58.
- 35: اليونيسكو، السنة الدولية للغات، البطاقة الرئيسية، الأمم المتحدة، 2008م، المقدمة.
- 36: تقرير منظمة اليونيسكو، الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، موجز تنفيذي، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، 2009م ص13.
- 37: المرجع نفسه، ص14.
- 38: اليونيسكو، السنة الدولية للغات، المقدمة.
- 39: عبد المجيد بكاي، التنوع الثقافي وعلاقته بالتنوع القيم التنظيمية داخل المنظمات متعددة الجنسيات في الجزائر، ص15.
- 40: أوفيليا غارسيا، التربية الثنائية للغة، دليل السوسيولسانيات، تحرير فلوريال كوكاس (د. ط)، (د. ت)، ص63.

التعدد الثقافي: الإيجابيات والمحاذير

أ. بوخالفه إبراهيم

المركز الجامعي مرسلي عبد الله

مقدمة: إن الحقيقة التي يتوضع حولها كل البشر هي أن الثقافات لا يمكن أن تعيش بمعزل عن محيطها الخارجي، وأنه ما من شيء يقتلها كالعزلة عن الثقافات المجاورة لها طولا وعرضا. غير أن عمليات المثاقفة التي قد يصار إليها بين الحضارات كثيرا ما كانت تفضي إلى ذوبان كثير من عناصر الثقافة المحلية وأحيانا بما يفقدها معالم هويتها، ويجرّها إلى عملية انسلاخ عن ماضيها بكل ما فيه من أمجاد وقيم وتواريخ. فهل من شأن هذه المزالق أن تدفع بنا إلى الانغلاق عن الذات بدعوى تحصينها من عوامل فقدان الهوية، أو الانسلاخ عن ثقافة الأسلاف، أو الانجرار إلى الثقافة المهيمنة بدعوى التحديث والتقوي على مظاهر الضعف والتخلف؟ ما هي شروط المثاقفة السليمة التي من شأنها أن تقوي الهوية الثقافية للذات المحلية وتمدها بمزيد من الحيوية والقدرة على النمو الذاتي والعطاء وتحقيق التنمية المادية والروحية للشعوب؟ تلك هي أسئلة هذه المداخلة وطموحها أن تضيف فائض معرفة إلى هذه الإشكالية المتجددة، والتي لا تزال تتعاضد خطورتها مع أشرار العولمة والامبريالية الثقافية التي يمارسها الغرب المتعالي.

مفهوم المثاقفة: دخل مصطلح "المثاقفة" في نسيج الثقافة العربية بعد انسحاب الاستعمار الكلاسيكي الغربي من الأراضي العربية التي احتلها وسلبها كل مقومات الحياة، عندما طرح المثقفون العرب أسئلة الحداثة والمعاصرة التي كشفت ضعفهم وعجزهم عن إحداث النهضة التي تمكنهم من استرجاع مجد غابر. لقد حلّ هذا

المصطلح على الساحة العربية باعتباره سبيلا للخلاص رغم ما حفل به من مفارقات تتربص بشرعيته ومآله كل متربص.

تدل كلمة "المثاقفة" (Acculturation) في اللغتين الانجليزية والفرنسية على معنى "الحركة نحو الثقافة، وهو المعنى الجوهرى الذي يضمه التركيب الإصاقي بمعىة السابقة الصرفية (ac). ومن هنا نتبين أن أصل التسمية كان في الكتابات الغربية. تدل الساقفة في اللغة اللاتينية التي أشتقت منها على معاني الحركة. والحركة لا تعني الإلغاء (suppression) ولا الاجتثاث (arrachement) بأي حال من الأحوال؛ بمعنى آخر، إن عملية المثاقفة لا تفضي إلى إلغاء ثقافة ما، بمجرد احتكاكها بما يخالفها.

كتب ألفونس دوبرون (Alphonse Dupront) عام 1965 أن "المثاقفة يمكن تعريفها على أنها حركة فرد أو جماعة، أو حتى مجتمع نحو ثقافة أخرى حتى يتأسس حوار بين الثقافتين، وتتم إفادة الدروس المتبادلة ويحدث احتكاك واختلاط وينتج عن ذلك في غالب الأحيان نوع من الميل نحو تحقيق التوازن ولو بمنطق المواجهة"¹. إن هذا التعريف الشامل والمركز يؤسس لحوار واع بين الثقافات يهدف إلى تبادل الخبرات والتفاعل الإيجابي الذي يفضي إلى نسبية القيم وتجاوز الذات استشرافا لحالة ثقافية متجددة، باعتبار الثقافة صيرورة غير منتهية وغير ثابتة ولا تعرف الحواجز والمسكنات.

في معجم كازمرسكي (Kazimirski) نلمس معنى الصراع الذي لا تستوي أطرافه، بينما تشير الموسوعة العالمية للمصطلح إلى أن أصل الكلمة لاتيني ويعني التقارب. غير أن الانجليز يفضلون استعمال التبادل الثقافي بدل المثاقفة (Cultural change)، وهذا يعني من ضمن ما يعنيه الأخذ والعطاء وتكافؤ الطرفين، وهي أشبه ما تكون بالعملية التجارية بين طرفين يقفان على قدم المساواة. أما الأسباب فإنهم يؤثرون مصطلح "التحول الثقافي"، فهم يعرفون الظاهرة باعتبار ما سيكون

إذ أن نتيجة المثاقفة ستفضي بالضرورة إلى تحول نوعي في أنماط التفكير وأساليب العيش ورؤية العالم. كما أن نظرتنا إلى آخرينا ستتغير بالضرورة. أما الفرنسيون فإنهم يذهبون إلى عبارة "التمازج الحضاري"، وهي تسمية لم تعمر طويلا لأنها تسقط عنصر التفاعل تأثرا وتأثيرا بين ثقافة الأنا وثقافة الآخر، وكأن هذا التمازج يحدث تلقائيا وآليا؛ بينما المثاقفة تكشف عن قدر كبير من المكابدة لمفاعيلها، والمعاناة من آثارها، خصوصا إذا كانت الثقافة الوافدة ناشزة عن المؤلف وغريبة وصادمة للوعي المحلي. ولقد رأينا في حالات كثيرة أن الاحتكاك الثقافي بين الشرق والغرب قد أحدث هزات اجتماعية عنيفة وردود أفعال غير قابلة للاحتواء، نتيجة مواقف عدائية من كل غريب، ويتطلب الأمر عملية ترويض طويلة المدى من أجل إحداث تلطيف نسبي في رفض التحاور مع الغير.

من حصيلة تلك التعاريف يمكننا إجمالا تشكيل تصوّر عام عن المثاقفة في معظم المعاجم، على أنها الاحتكاك الإرادي (الترجمة، السياحة، البعثات العلمية) أو القهري (الاستعمار، النفي)، أو الفجائي (اللبوء السياسي الاضطرابي) بين جماعتين إنشيتين مختلفتين. وفي هذه الحالة فإن أفراد المجموعتين سيواجهون عملية تغير ثقافي لأنهم سيجدون أنفسهم إزاء جماعة تختلف عنهم في أنماط العيش والسلوك والقيم ومعايير الأحكام الأخلاقية وما شابه ذلك. تفضي هذه العملية التواصلية إلى اكتساب ثقافة جديدة بغض النظر عن الموقف منها. ومن هنا فإن الثقافة هي معارف مكتسبة وليست موروثة. تتحقق المثاقفة باستمرار في الزمان والمكان مع كل غريب ووافد. إنها تعني المشاركة والتواصل بين الجماعات الإنشئية المتباينة في اللغة وكل مكونات الحضارة. وقد شاع هذا المصطلح في الانثروبولوجيا الثقافية مع أواخر القرن التاسع عشر وخصوصا في أمريكا.

أشكال المثاقفة: عمليا تتجسد المثاقفة عبر أشكال متعددة، منها الإرادية ومنها القهرية. وفي كل الحالات فإن الأفراد أثناء كل عمليات المثاقفة سيجدون أنفسهم

إزاء مواجهات فكرية هي أشبه ما تكون بالمعارك. يجادل إدوارد سعيد أن حروب ما بعد الاستعمار هي حروب ثقافية حامية الوطيس. لقد تغيرت أدوات الاقتتال من الرصاصة إلى الكلمة. فعالم اليوم هو عالم مفتوح، تهاجر فيه الأفكار والإيديولوجيات دون مراعاة للحدود الجغرافية أو القومية أو اللغوية. إنها كائنات عابرة للحدود، تتواصل وتتجاهل وتقاتل بعضها بضراوة، من أجل احتلال العقول واختراق التحصينات التي تقيمها الذات المعزولة. لقد ظلّ الاتحاد السوفياتي سابقا منكفئا على نفسه، ومنقطعا عن العالم الحر، بدعوى صدّ الإيديولوجيا البرجوازية المستفحلة. وظلّ النظام الشيوعي يحكم شعبه بالحديد والنار، ويمنعه من التواصل مع الغرب بكلّ أساليب القوة. غير أن هذه المقاومة لم تعمّر طويلا ولم يلبث الجدار العازل أن سقط "لأنّ الوجود البشري يعيش في تفاعل مستمر مع غيره من الموجودات البشرية، أو إن شئنا التعبير بطريقة أخرى قلنا إن الوجود البشري هو وجود مع آخرين (.....)، فالوجود البشري هو أساسا وجود جماعي"². وأن يضع البشر حواجز بين المجتمعات هو خرقٌ لسنن الكون.

المثاقفة الإرادية:

الترجمة: إنّنا نعبر عن حاجتنا للآخرين من خلال الانفتاح عليهم والاستعانة بما توصلوا إليه من خبرات ومعارف افتقدوها، كما أمدهم بما توصلت إليه من تجارب ومهارات تعوزهم. يولد الإنسان ناقصا، ويظلّ طيلة حياته يبحث عن تنمية نقصانه الذي لن يظفر به إلّا لدى آخريه. والمجتمع الذي يدّعي القدرة على الاستغناء عن الآخرين، يعاني من تضخم أناه، ومن عقدة التفوّق القومي والشوفينية ذات الطبيعة العنصرية. في القرن السادس عشر أطلق المفكر الفرنسي صيحة إلى مواطنيه قائلا: "فلتكن موافقتنا منوطة بنا، ولنتخلص من الارتباطات التي تربطنا بالآخر ولنحمل على عاتقنا القدرة على العيش وحدنا بدراية، وأن نعيش كما يحلو لنا"³. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن بطريقة آلية، هو ما إذا كان مونتانيو قد عاش

معزولا عن الآخرين كما كان يدعو مواطنيه، أم أنه يستثني نفسه مما يدعو إليه؟ هل عاش الشعب الفرنسي معزولا عن محيطه الإقليمي والدولي؟ وهل كانت فرنسا قادرة فعلا على الاستغناء عن المجتمع الدولي؟ والحقيقة أن تاريخ فرنسا القديم والحديث هو تاريخ مشكّل من الهجرات والحروب والمغامرات الاستعمارية الذي لا يكاد يخلو منها قرنٌ من القرون الحديثة.

إنّ حاجة الإنسان إلى الاحتكاك بالثقافات الأجنبية يجد مخرجه الطبيعي في فعل الترجمة. إنها تسمحُ بنقل المعرفة التي أفتقدّها، أو أشكو من نقص في مجالها، من لغة الآخر إلى لغتي. وإن نقل هذه المعرفة من علوم دقيقة وإنسانية تحمل في طبقاتها التحتية قيم اللغة التي كُتبت بها ورؤيتها للعالم وقيمها الجمالية وثراءها الفكري وعمقها الفلسفي. إن كلّ ذلك يمر عبر اللغة الأصل ليصل إلى اللغة الهدف، فيتفاعل معها، سلبا أو إيجابا، طولا أو عرضا، ويُحدّث في عقل المتلقي ثراء وحيوية لا تتوفّران لغيره. لقد مارس البشر الترجمة منذ الحضارات القديمة ولا يزالون يشعرون بالحاجة الماسة إليها. إن محدودية العقل الإنساني تجعله قاصرا عن تعلم كل لغات العالم، وإن قصر حياته يجعله قاصرا عن استيعاب كل تجارب الإنسانية واختزالها في شخصه. وإنّ من شأن الترجمة أن تسدّ هذا الفراغ الذي تحدّثه الطبيعة الناقصة للإنسان.

لقد مارس العرب الترجمة لما شعروا بأنهم في حاجة إلى خبرة الذين سبقوهم في مجال المعرفة الإنسانية، وقد كان لذلك الجهد العلمي ثماره المشهودة على المستوى الحضاري. فالمجد الذي حقّقه الحضارة العربية والإسلامية مدين لفعل الترجمة. لقد كان احتكاك علماء المسلمين بالغرب القديم وبالحضارات الشرقية التي سبقتهم أثره الواضح على شخصية الفرد العربي الذي غادر طباعه القبلية والبدوية المغرقة في الجهل والتعصّب، ليعانق الروح الإنسانية العالية والمتسامحة مع أغيارها، دون أن يفقده ذلك القيم التي حملتها له نصوصه المقدّسة. بل إنّ تلك

النصوص ذاتها تلتقي مع الفكر الإنساني العالمي على أكثر من صعيد. لقد اهتدي العربي إلى نقطة الارتكاز التي تتوسط الحضارات العالمية كلها، بفعل التواصل مع اللغات التي يجهلها عامة الناس في المجتمع الواحد. لقد "كان المأمون يعطي وزن الكتاب المترجم ذهباً للمترجم"⁴. وهو سلوك فيه الكثير من الاحترام لإنسانية الإنسان بغض النظر عن تحيزاته القومية والدينية والعرقية. لقد غنم العرب مجدا علميا لم يتهيأ لغيرهم من الأمم بفضل العقل الكوسموبوليتي الذي اكتسبوه من الاحتكاك بالآخر وتعلّم لغته ونقل معارفه إلى الفئات العريضة من القراء العرب وغير العرب الذين كانوا يشاركونهم الوطن.

الترجمة من ناحية أخرى هي القناة المثلى للتعرف على حياة الآخر ومشاركته همومه التي هي همومي بالدرجة الأولى، ولولا ذلك ما سعت لقراءتها ونقلها إلى أهل بلدي ليشاركوني القراءة. إنّ نقل تجارب الآخرين هو نقل لتجارب الذات على الصّعيد الإنساني. "إنّ الترجمة تبليبل كلّ تمرکز حول الذات وتدفعنا إلى الانخراط في السياق الثقافي العالمي لأنها هي التي تجعلنا نتشابه مع قضايا الأمم الأخرى ونلتقي بإرثها الثقافي والعلمي"⁵. إن الإقبال على ثقافات الآخر يفضي إلى نسبة القيم، ويوسع مدارك العقل ويجعل العالم جميلا ومتنوعا. كما أن عرض الروح على عصور التاريخ لكل الأمم وتأمّل حياة الحضارات الغابرة للشعوب الأجنبية عبر الترجمة يجعل الإنسان أكثر تسامحا مع الاختلاف الثقافي والتنوع الديني. إنّ أفضل مدرسة لتشكيل الحياء هي العرض المستمر للعقل والروح لعدد من تنوع الحيوانات الأخرى والابتداعات والممارسات، وجعل الروح تتذوّق مثل هذا التنوع الدائم من أشكال طبيعتنا⁶ المتنوعة تنوعا بديعا.

إنّ من مزايا الترجمة أنها تحوّل تراث الآخرين إلى إرث عالمي، من حقّ كلّ القوميات أن تتمثله وتحولّه إلى جزء عضوي من ثقافة الذات. فالعرب لمّا ترجموا الفلسفة اليونانية إلى لغتهم القومية، عربوها وأجروا عليها مسحة من روحية البيئة

العربية الإسلامية حتى غدتْ مُكوّنًا من مكونات الحضارة العربية في ظرف زمني قياسي. ومن هنا تبدو الترجمة أداة من أدوات إثراء التراث القومي في كلّ مجالات المعرفة وهي تساهم في تجديده وتطوير اللغة القومية من خلال تحويلها إلى لغة حمّالة للمعرفة في مختلف المجالات. لا يتمّ إثراء اللغة العربية من خلال الترجمة على الصعيد المعجمي فحسب، بل وخصوصا على المستوى المفاهيمي. إنّ اللغة لا تتجلى قيمتها الجمالية والدالية إلّا من خلال الترجمة، ولا يمكنها أن تتجدّد وأن تكشف عن خصوصيتها وفرادتها الصوتية وخصوصيتها المعرفية إلّا من خلال إدخال النصوص الجديدة في كنفها، ودون اختراق بنيتها النحوية. ذلك أن المجتمع القارئ لا يكفي باستهلاك ما يقدّم له من خارج حدوده اللغوية، بل إنّ عرضه على ملكاته وذاكرته الثقافية فيما يشبه المواجهة الجدلية بين الدّخلي والخارجي، بين الأليف والغريب، بين المركز والهامش. تلك المواجهة التي تفضي إلى تركيب ثقافي كوني، يستشرفُ العالميّة ويبشّرُ بعالم دون حروب ودون كراهية ودون مركزية.

من هذه الناحية فإنّ التّرجمة تنمّاهي مع الأدب المقارن في وظيفتها المقارنة والتفاعلية. فهي تسمح بمقارنة اللغات والثقافات وهي تدعو إلى قبول مبدأ الاختلاف وتحويله إلى مصدر إثراء معرفي وإغناء جمالي للنصوص من مختلف اللغات والقوميّات. وهي بذلك تدعو إلى تجاوز الذات وعبور الحدود وملأ الفراغ وسدّ الفجوات الناتجة عن غياب الحوار والانكفاء على النفس والاكتفاء بالبعد الواحد، واللون الأوحّد والصوت المنفرد فيما يشبه المونولوج في عالم سديمي وموحش، وطبيعة عدائية، لا تترك مجالاً للتفاوض، ولا خيطاً للتواصل. إنّ ترجمة النصوص الأجنبية إلى اللغة الوطنية يدفعني إلى القلق بشأن القنوات التي تلقّيها عن الثقافة المحليّة باعتبارها مسلمات ميثافيزيقية، وذلك يدفعني إلى تطوير ملكة نقد النصوص وتعريفها من قدسيّتها، ومعاينة مدى انسجامها مع مقولات العقل الخالص. وهذه الملكة النقدية من شأنها أن تظهر الثقافة المحليّة من بعدها الخرافي

الذي يشلّ قدراتها على أداء مهامّها الثوريّة. إن الثقافة لا تتوقف عند وصف الواقع ولكنها تعمل على تغييره إذا كانت مجهزة بأدوات المقاومة وروحها.

الاستعمار باعتباره مثاقفة: في النصف الأول من القرن التاسع عشر تعرضت الجزائر إلى استعمار استيطاني شامل من طرف أقوى دول أوروبا الغربية في حينها. وكان على فرنسا بعد أن سيطرت على البلاد عسكرياً، كان عليها أن تروّض العقول وتكسر الإرادات وتهجّن الهويّات، من خلال ممارسة امبرياليّة ثقافيّة تصعبُ مواجهتها من قبل شعب لا يزال بدائيّاً، وتحت وصاية (الرجل المريض). "أحال انثروبولوجيو العشرينات (من القرن الماضي) الاستعمار إلى نوع من الاحتكاك الثقافي؛ الاحتكاك بين ثقافات مختلفة⁷، ثقافة قويّة وقادمة من المركز وأخرى أصلائيّة، تحكمهما علاقات الهيمنة والإقصاء. أدركت فرنسا أنه من دون استئصال اللغة العربيّة -أهم مكون للهوية الثقافيّة- فإنه لا يمكنها القضاء على إرادة المقاومة. يمثّل الاستعمار حالة من حالات المثاقفة القهريّة، التي لا تتوفّر فيها شروط إرادة الحوار والندية بين طرفي عمليّة المثاقفة. كما لا تتوفر الرغبة في الحوار بين المستعمر والمستعمر. لقد دأب الطرف القويّ على احتقار وسوء تقدير الثقافات غير الأوروبيّة. وإنّ هذه النزعة التي نطلقُ عليها اسم (الاثنيّة المركزيّة) وهي تتلخص في موقف من يعتقد أنّ نمط حياته أفضل من الأنماط الأخرى كلّها⁸. يسعى كل فرد من الآدميين بسبب ارتباط تطور شخصيّته بأساس ثقافي -لتقويم القيم التي يفضلها، لا مع جماعته فقط، بل مع كلّ كائن إنساني. كل ثقافة هي إذا تقويم للعالم الثقافات الأخرى. وقد أنتج هذا الموقف الاستعمار بالنسبة لأوروبا. انطلاقاً من اعتقاد راسخ بأن ثقافة الرجل الأبيض من الأوروبيين هي الثقافة الإنسانيّة الأرقى والأنسب للحضارة الإنسانيّة، عمد الغرب إلى فرض نمط حياته ولغته ورؤيته للعالم على مستعمراته. من أجل ذلك طالت حقبة الاستعمار

الفرنسي. لقد كان استعمارا ثقافيا بالدرجة الأولى. ولولا الامبريالية الثقافية التي أظلت المستعمرين لطرد المستعمر في وقت مبكر. إن من أشكال الهيمنة الثقافية التي فرضتها فرنسا على الجزائريين أنها منعت تدريس اللغة العربية في المؤسسات التي استحدثتها، باعتبار أن الجزائر هي أرض فرنسية ولا علاقة لشمال إفريقيا بالعرب. فهؤلاء الآخرون، هم قوم رحل وفدوا على المنطقة من الجزيرة العربية، واستقر بهم المقام في هذه الأرض التي كانت ملكا للرومان في وقت من الأوقات. بهذا الشكل راحت المؤسسة الكولونيالية تزور التاريخ وتقتلع معالم الجغرافيا، وتثبت كل ذلك في سجلاتها العلمية وفي الكتب المدرسية حتى تنشئ أجيالا هجينة وتابعة لها ثقافيا. من ناحية أخرى، كانت فرنسا تمنع الإبداع بلغة الضاد، فلا تنتشر الأعمال التي تكتب باللغة العربية؛ بينما نجدها تحرص على إنشاء جيل من المبدعين بلغة فولتار، وبهذا يمكن أن نفسر تأخر الحركة الأدبية عن النهضة الحديثة مقارنة بالشرق العربي. فكان الجيل الأول من الكتاب الجزائريين الأوائل ناطقا باللغة الفرنسية. ومن منظور المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن، فإن هذا الأدب يعتبر فرنسيا خالصا، باعتبار اللغة التي كتب بها. ولو صنفناه من منظور المدرسة الأمريكية فإنه أدب جزائري خالص باعتبار الخلفية الحضارية التي يستند إليها مبدعوه.

من تجليات الهيمنة الثقافية التي مارستها فرنسا على الجزائر، تغيير معالم الجغرافيا الجزائرية؛ فأضحت أسماء الشوارع فرنسية وكذلك أسماء المدن وتشكلت معالم العمران وهندسة المدن على النمط الغربي، وخصوصا تلك المدن الكبيرة التي يقطنها المعمرون الأوروبيون. أما الجزائريون فقد حُشروا في غيتوهات التمييز العنصري، وظلوا يكابدون آلامهم بصمت رهيب. ولقد صور ياسمينة خضرا هذه المعاناة اليومية التي كان الجزائريون يجترونها على هامش التاريخ، في قرية (جنان جيناتو) على تخوم مدينة وهران حاضرة المعمرين المترفين.

لم يكن النظام الكولونيالي يقبل التحوار مع "العرب" بصفتهم أصحاب الأرض الحقيقيين. بل إنه يتحدثُ عنهم في سردياته بوصفهم عربا وكفى. في قصص (ألبير كامي) لم تكن الشخصيات العربية تحمل أسماء، وكذلك كانوا يموتون في وهران (كما تروي قصة "الطاعون) دون أن تكون لهم أسماء. فكانوا يُحملون إلى المقابر الجماعية كما تحمل الدواب، ويوارون التراب، دون الإشارة إلى خلفيتهم الاجتماعية. إنهم مجرد كائنات شبيهة قد أُلغي وجودها من طرف الطبيعة الصماء. "صحيح أن مורسو يقتل عربيا، بيد أن هذا العربي لا اسم له، ويبدو دونما تاريخ دع عنك أن يكون له أب أو أم؛ وصحيح أيضا أن العرب يموتون بالطاعون في وهران، بيد أنهم دون أسماء كذلك"⁹. يحاكمُ مورسو بسبب قتله عربيا دونما هوية ولا أهمية له تذكرُ. فتتحول هذه المحاكمة المشهدة إلى إدانة مورسو بسبب إهماله لوالدته، وتخلفه عن جنازتها ولا مبالاة برحيلها وقد عدّ هذا السلوك تخليا عن القيم الفرنسية يدان عليه الفرنسيون، أكثر مما يدانون بسبب قتلهم عربا.

إن صوت الجزائري غائبٌ تماما في الرواية الفرنسية الكولونيالية، وهو إشارة إلى غيابه في المحاور الثقافية التي تمثل الاختلاف الإثني بين قوميتين ثقافيتين تقفان على طرفي نقيض من التاريخ الحديث. تاريخٌ أريد له أن يكون صراعا محموما ذا طبيعة حضارية. عندما تخاطب فرنسا الأهالي لا تخاطبهم باعتبارهم جزائريين يقاومون من أجل هويتهم التاريخية والثقافية وإنما باعتبارهم عناصر شاذة يجب تطهير الأرض منهم كما تطهرُ من الطاعون والأوبئة والآفات الاجتماعية. أمّا خطاب اليوم، فهو وإن كان مدينا للتاريخ الكولونيالي بالكثير من مفرداته ومفاهيمه، فإنه قد غيّر من استراتيجيات الهيمنة. تخاطبُ فرنسا الجزائر اليوم باعتبارها تابعا، ولا يمكنها أن تمثل نفسها، بل إن فرنسا هي المسؤولة عن تمثيلها إقليميا ودوليا. قد تخفى سياسة الهيمنة على الشعوب البسيطة المشغولة بهموم العيش، ولكنها لا تخفى على الفئات المستتيرة. إن الخطاب الامبريالي هو

خطاب هيمنة، وهو استعلائي وماكر، لا يزال يحتقرُ العرب ويعتبرهم من ذوي التركيبة البشرية الناقصة. وهي صفة تجعلُ إنتاجهم الثقافي ضحلاً، لا يرقى إلى نظيره الأوروبي، كما أن لغتهم متخلفة، وغير قادرة على استيعاب المفاهيم والأفكار الحديثة. ولقد طور الغرب آليات طرد تمنع العرب من اللحاق بالتطور العلمي والتكنولوجي، وتبقيهم تابعين على وجه التأييد. فالهوية الكولونيالية "تعمل قبل كل شيء عن طريق منطق مانوي قائم على الإقصاء والاستبعاد (....) يجري إقصاء المستعمرين عن الفضاءات الأوروبية، ليس فقط على الأصعدة المادية والإقليمية، وليس فقط من حيث الحقوق والامتيازات بل وحتى على مستويات الفكر والقيم. يجري بناء الذات المستعمرة في خيال المركز بوصفها آخر"¹⁰. والأخطر من كل ذلك أن العقل الاستعماري للغرب المعاصر لا يزال مهيمنا على مخيال صانعي السياسات، ولا يزال يلقي بظلاله على العلاقة بين المركز ودول الهامش. إن نظرة فرنسا إلى العرب لا تزال تدين في جوهرها إلى العقل الاستشراقي الذي صنع سياسات أوروبا تجاه مستعمراتها طيلة عقود طويلة. يسعى الغرب إلى تأييد علاقات التبعية والوصاية على دول الهامش وينفق من أجل ذلك أموالاً طائلة لتعزيز مخابره الاستخباراتية والعسكرية والعلمية.

الحوار الثقافي: كان سقوط جدار برلين في العشريّة الأخيرة من القرن الماضي إيذاناً بزوال الحدود الاسمائية بين الشرق والغرب، وإقامة قنوات التواصل الثقافي بين الشعوب من مختلف الأعراق والقوميات. وإنّ من شأن هذه الحركة المحمومة للبشر ذهاباً وإياباً وفي كلّ الاتجاهات أن يقوّض كلّ المركزيّات التي كان الغرب يستند إليها لتعزيز مواقفه القتالية في الأسواق العالمية حيث تُقسّم الغنائم والجبايات الواردة من الدول التابعة. غير أنّ الذي يحصل اليوم ليس ممّا تشتهيهِ الأنفس. لا يزال الغرب يعتقد أنه مركز الحضارة العالمية وأن العرب محكومون بعلاقات التبعية والخنوع لإرادة الدول الكبرى. إن أيّ حوار ثقافي بين متقفي الغرب

ونظرائهم من العرب محكوم بعقيدة المركزية الغربية. إن أبواب الحداثة مشرعة ولا تعرف حدودا جمركية، غير أن الغرب نصب وكلاء له في مستعمراته القديمة من أجل المحافظة على مواقعه الامتيازية. لقد روج لقيمه الفكرية والثقافية من خلال قنوات تواصلية متعددة مستغلاً الدعوة إلى العولمة والانفجار الإعلامي، حتى غدا العالم العربي اليوم مجرد قاعدة خلفية للغرب يستريح فيها من قحط المادية الصلبة التي أغرق فيها الغرب كله.

إن جميع الثقافات اليوم، وبسبب تجربة الامبراطورية منشبكة، ومتعلقة إحداها في الأخريات، كلها مهجنة ومتخالطة إلى درجة فائقة، بدءاً من مفردات اللغات التي أصبحت تتبادل المواقع الدلالية إلى حقل المفاهيم التي تكاد تكون موحدة ولكنها مثقلة بأنفاس الغرب الفلسفية، مفرغة من روحية الشرق الباهتة¹¹. لقد تقدمت المركزية الغربية بمشروع سياسي شمولي يفضي إلى تجانس الإنسانية المستقبلي من خلال تعميم النموذج الغربي، "وخطورة هذا المشروع أنه سوغ منطقاً للتوسع الغربي، واحتلال العالم، وإيادة الحضارات"¹². إن رواج الثقافة الغربية بكل أطيافها وانتشارها في كامل ربوع الوطن العربي، غدا أمراً حتمياً ومستساغاً، بل إنه أضحى مطلباً جماهيرياً كعلامة من علامات الحداثة. إننا أصبحنا نتحدث عن الإرهاب وعن الأصولية والتطرف ومعاداة السامية أكثر مما يتحدث عنها الغرب الذي صدر لنا هذه الكليشيهات التحقيرية، كما أننا نتحدث عن الديمقراطية وحقوق المرأة وحقوق الإنسان والحريات الفردية، والمساواة بين الجنسين وهي مقولات فكرية من صنع الحضارة الغربية، قد سُرِبَتْ إلى ثقافة الهامش بفعل العولمة. إننا لا ندين هذه القيم الغربية في حد ذاتها، ولسنا ضد الخصائص المشتركة بين البشر، عندما نشير إلى أن كل هذه الخصائص قد تم تكوينها بواسطة حضارات مختلفة، ولكننا لا نستطيع إملاءات الغرب الاستعلانية والتي تدعو العرب إلى التخلي عن خصوصياتهم الثقافية من أجل التماهي معه

ومجاراته في كل ما ينطق به، باعتباره قائدا للحضارة العالمية الموحدة تحت راية الغرب المسيحي. "ومما لا شك فيه أن فكرة البشريّة ذات الخصائص المشتركة بمعناها المتخلف الذي ينصّ على أن تحيّرنا لحضارتنا يجب أن يسود العالم أجمع كان من أكثر الأساليب الوحشية التي تفنّ عنها التاريخ لسحق آخريّة الآخرين تحت نعال الأحذية"¹³. إن تسارع التواصل بين الشعوب والتعامل الحضري بلغة الحضارة المتفوقة مادياً، من شأنه أن يحوّل الاختلافات بين المجتمعات، وسيُصار إلى تشميل الثقافة، أي نحو تعميم ثقافة متسيّدة على جميع الثقافات أقلويّة. إنّ اختفاء الفروق هذه سيكون شديد الخطورة على جميع الثقافات، لأنه يؤدي إلى ذوبان ثقافات الشعوب الأقل تطورا، لصالح ثقافة واحدة مهيمنة. "ليس هناك، ولا يمكن أن تكون هناك حضارة عالميّة بالمعنى المطلق الذي نعطيه غالبا لهذا الاصطلاح"¹⁴. إنّ الحضارة العالميّة تتسع لثقافات عديدة ومتنوعة، ومختلفة، تقبل التعايش فيما بينها في ظل حوار متعدّد الأبعاد، ويقرّ بمبدأ الاختلاف ونسبيّة قيم الخير والجمال والقوّة والضعف والعدل والظلم. إنّ معايير الأحكام الأخلاقيّة تختلف من ثقافة إلى أخرى؛ فما هو جميلٌ لديّ قد يكون قبيحا لدى جاري. فإذا لم نقرّ بهذه النسبيّة فإنّ شبح الحروب والصراعات المدمّرة ستستمرّ في تهديد كوكبنا مع تعاظم أدوات الاقتتال وشيوعها وسهولة الحصول عليها.

لقد فُتحت قنوات عديدة وممنوحة للحوار بين الثقافات؛ وإنّ من شأن هذا الحوار إذا أُقيم بعيدا عن التحيزات ومصالح القوميات الضيقة أن يرتقي بنا إلى فضاء كوني يسوده التسامح الديني والإثني والعرقي، والقبول بالآخر. "تقوم الكونية الحقيقية على التسامح والمنافسة والقبول بالتعايش والتنافس السلمي بين الأفكار وبين الثروات الثقافية، ما يسمح بالحلول مكان لعبة العنف والقوّة؛ وسيكون ذلك نتيجة حركة تقارب مزدوجة؛ إنّها أولا حركة الغرب باتّجاه الشرق؛ وقد صار ذلك ممكنا بفضل مثقفي الشرق، أبناء الثقافات غير الغربيّة، والمتشاققين مع قيم

الغرب"¹⁵ الذين شغلوا دور الوسيط بين الثقافات، من أجل إحداث التقارب بين العقلانيات وتجاوز التعالي الغربي التقليدي والتبعية العالمانية سيئة السمعة لدى العام والخاص. إن هؤلاء الوسطاء هم الذين يقومون بترجمة عيون الثقافة الغربية ويُمَوِّنون قراءهم بصورة ما عن المجتمعات الغربية وأنماط عيشهم وعاداتهم التي تبدو مموجة لدينا، لكونها لا تتسجم مع خطّ تطوُّرنا، ولا تتوافق مع معتقداتنا وأحاسيسنا.

ولو نأخذ الأمة الجزائرية اليوم فإننا نلفي عامة الناس يتفهَّمون الثقافة الغربية ويتقبَّلون متناقضاتها، بل إنهم سريعو التأقلم مع وتيرة الحياة الغربية رغم اختلافها الواضح مع الواقع العربي المحافظ. ولعلنا نلفي النتيجة نفسها بخصوص موقف الفرنسي من الحياة العربية، والجزائرية بوجه خاص. إن العولمة أحدثت تقارباً بين أنماط العيش وطرائق التفكير بالنسبة للطرفين الغربي والعربي، إلى درجة تقترب من التطابق بين العادات والتقاليد ذات الطابع الثقافي. وإن كان هذا التواشج بين الشعوب ظاهرة صحيّة، إلا أن محاذيره ليست بالأمر الهين. إن التنوع بين الثقافات هو الحالة الأنسب للمحافظة على ثراء كوننا، وجماله، ومصادر إبداعاته. والتآلف هو الخطوة الأولى نحو زوال هذا التنوع. من الأفضل أن يبقى كلٌّ في موطنه وأن نجهل الآخرين بدلاً من أن نعرفهم أكثر ممّا ينبغي. من الأفضل ردّ الأجانب خارج حدودنا بدلاً من رؤيتهم يجتاحوننا ويحرموننا من هويّتنا الثقافية"¹⁶. هكذا يعلّق الأنثروبولوجي الفرنسي على المذهب الإنساني الذي بشرت به الأنوار الغربية. ليس على البشرية أن تتوحّد حول لغة خطاب واحد، أو رؤية كونية واحدة، أو منظومة أخلاقية واحدة. إن قيم الخير والشر واحدة لدى كل المجتمعات فالخير والشر والجمال والقبح والعدالة كلها قيم متعارفٌ على تبجيلها أو نبذها لدى كل الشعوب. غير أن طريقة إدراكها وتأويلها وتلقيها تختلف من شعب إلى آخر. وهذا الاختلاف هو مصدر ثراء عالمنا، وهو الدافع إلى نسبية القيم. إن الاختلاف

الثقافي ظاهرة إنسانية، وهو سنّه من سنن الكون، تحكم عالم البشر دون غيرهم من الكائنات. ولا توجد ثقافة هي أفضل من أخرى، وإنما كلّ الثقافات تسير وفق خطّ تطور يستجيب لحاجياتها التداوليّة والفكرية. إنّ مشكلة التنوّع لا تطرح بشأن الثقافات من حيث علاقاتها المتبادلة، بل هي موجودة أيضاً في صلب كلّ مجتمع ضمن جميع الطبقات والفئات؛ فالملل والأوساط المهنية أو الطائفية تحرصُ على تطوير بعض الفروقات التي يُعوّل عليها كلّ منها أهميّة بالغة¹⁷. فعلى سبيل المثال يعتبر المجتمع اللبناني تشكيلة بشرية بالغة التنوّع، وهو تنوّعٌ أريد له أن يتّخذ أبعاداً قصوى لعلاقته بالهوية والاختلاف. إنّك بالانتقال من جنوب لبنان إلى شماله سيبدو لك أنك تنتقل من إثنية إلى أخرى نقيضة لها، لو لا وحدة اللغة المنطوقة. والوطن العربي بدوره، رغم كثرة العناصر الثقافية والتاريخية التي تجمع بين أطرافه، إلّا أنه ليس كتلة واحدة. ويحرص مواطنو كلّ بلد على التمسك بما يميّزهم عن غيرهم من جيرانهم. وأول هذه الفروقات اللهجات المنطوقة، وبعض العادات والتقاليد التي لا علاقة لها بالدين، وإنما هي مستمدة من المرويات ومن الفولكلور المحلي. يغدو التنوع الثقافي علامة فارقة في تشكيل الهويات ورسم الحدود بينها وتسيبجها لحمايتها من التّهجين والتماثل الذي يقضي على الفردية والتميز.

لقد دأب المرء أن يطرح كل ما لا يتّفق مع المعايير التي يحىي بموجبها خارج نطاق الثقافة فيجعله ضمن نطاق الطبيعة¹⁸. ومن هنا تتخلّق سلسلة الكليشيهات التحقيرية التي يرسلها المستشرقون الغربيون على العرب. في أواخر الثمانينات من القرن الماضي كنا نسمع كثيراً عن "القاعدة" ودورها الحاسم في تهديد السلم العالمي؛ ومع نهاية القرن انبثقت صورة رهابية أخرى لتمثيل العرب، وهي "الإرهاب". وبموجبها، غدت الجاليات الإسلامية هدفاً لكل أشكال العزل والكرهية في الغرب. ولا يخفى اليوم أن منظمة "داعش" التي صنعتها دوائر المخابرات الغربية، هي وقود كلّ حروب الغرب بالوكالة في الأراضي العربية. إنّ النظرة

الاستعلائية للآخر قد وسمت علاقة الغرب بالشرق بكثير من التحيّز والتركّز المفرط على الذات واعتبار غير الأوروبيين دونه كرامة وجدارة إنسانية، وظلّ الغرب موصوفاً بالعدائية تجاه مستعمراته القديمة، وهو لا يزال يخاطبه بمنطق الأستاذية، والإملاءات المباشرة وغير القابلة للتفاوض، مقابل الاستمرار في الحكم لتمثيل من لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، نيابة عن السيّد.

الثقافة بين الأصالة والمعاصرة: إنّ الحديث عن الأصالة يفضي بالضرورة إلى إثارة مسألة الهوية؛ فهي تقتضي من بين ما تقتضيه استجداء بنية مفاهيمية معيّنة من الأصول التي تعود بنا إلى الماضي البعيد والبحث عن ترسيمة مكتملة وناضجة بشكل نهائي للشخصية القومية. يهمنّا في هذا المجال من البحث تحديد التماس تركيبة مكتملة ومنجزة للهوية ومحمّلة بالقدرة الذاتية على مقاومة عوامل التغيير بكل أشكالها. من هنا يمكن أن نخلص بأنّ الأصالة تعني الوفاء لثقافة الأسلاف باعتبارهم منبع القيم الحضارية والفكرية التي أُنْتُفَسَها، في محيطي الاجتماعي.

يتجاهل هذا التعريف روح العصر ومنطق التاريخ الذي يفعل فعله في عالم البشر كما تترك الطبيعة أثرها على تضاريس الأرض، فلا يسلم ركن من أركان الياسة من عوامل التغيير بفعل حوادث الطبيعة الكبرى. "إنّ لغة الانتماء القومي تأتي مشحونة بضروب الدفاع عن الأسلاف ذات المغزى الأخلاقي، الأمر الذي حدا ببينيديكت أندرسون إلى التساؤل: "لماذا تحتفي الأمم بشيبيها لا بشبابها"¹⁹.

الشيب هم ذاكرة الأمة وخزانها الثقافي ورمزها الأخلاقي، ومنبع حكمتها وأصالتها. والشباب هم رمز الاختلاف الثقافي وهم الجموح الفلوت نحو الحداثة وانتهاك المقدّس، وطلب المحضور؛ إنهم العقد الذي يتوسّط ماضي الأمة ومستقبلها، وهم الذين ينتقون العناصر الأكثر قدرة على البقاء من ثقافة الأسلاف وشحنها بعوامل الحياة الجديدة من أجل هوية ثقافية جديدة ومتجدّدة. إنّ الذات التي تمارس خطاب الاختلاف الثقافي، هي ذات حوارية، تحويلية على طريقة التحليل

النفسي؛ فهي تتشكّل عبر محلّ الآخر، ومن خلاله، وعبره، ممّا يشير إلى أن موضوع تعيين الهوية هو موضوع متجانب، كما يشير في الوقت ذاته إلى أن فاعلية تعيين الهوية ليست نقيّة أو كلية على الإطلاق، بل تتشكّل على الدوام من سيرورة من الاستبدال، أو الانزياح أو الإسقاط²⁰. إن صورة الشيب والشباب التي استحضرها بينديكت أندرسون هي استعارة تمثل لجدلية العلاقة بين الأصالة والمعاصرة؛ فهما مقولتان فلسفتان تتنازعان المواقع الاجتماعية وتثيران كثيرا من الضجيج في فضاء الأبحاث الانثروبولوجية الثقافية. لننظر ببعض التفصيل لهذه العلاقة الإشكالية بين المقولتين:

الثقافة في أبسط تعاريفها هي الجزء الروحي من الحضارة. وهي من مكونات الشخصية الإنسانية بمعناها العام. كما أنها من روافد ومعالَم الوجود البشري، إذ أنّ الإنسان كائنٌ ثقافي، وذلك الذي يميّزه عن غيره من الموجودات. غير أنّ مسألة تغيير المسلّمات الثقافية المترسّخة في الوعي الجماعي للنّاس، وتجسّدتها ضمن قواعد سلوكيّة وأنماط تفكير تحظى بكثير من القداسة لدى جماعة إثنية ما، قد لا ينعم بالقبول لأسباب كثيرة. إنّ عملية التغيير الثقافي هي عملية شديدة البطء ومعقّدة لأسباب نفسيّة تضربُ بجذورها في الماضي السحيق للفرد والجماعة. و"يبدو أنّ البشر نادرا ما ينظرون إلى تنوع الثقافات كما هو عليه: أي بمثابة الظاهرة الطبيعيّة الناجمة عن علاقات مباشرة أو غير مباشرة بين المجتمعات. بل إنّ البشر رأوا في هذا التنوع أمرا شنيعا أو مستغربا"²¹. إنهم يعتبرونه انسلاخا عن الذات، وتدنيسا لماضي الأسلاف وانتهاكا لمقدّسات الأمّة، وتعدّيّا على تاريخها. لا يحقّق الإنسان طبيعته ضمن إنسانيّة مجردة، بل ضمن ثقافات تقليديّة لم تقو أشدّ الطّفرات الثوريّة على نزع كلّ الرّواسب منها. والإنسان الحديث، إذ يقع بين المطرقة التي تدفعه إلى إدانة التجارب التي تصدّم عواطفه وتغشّش وعيه والسندان الذي يمنعه من تقبل فروقات لا يفهمها، أو لا يريد أن يفهمها ذهنيّا

وفكريًا، قد انصرف إلى ألف تأمل فلسفي واجتماعياتي بغية الوصول إلى تسويات عبثية بين هذين القطبين المتناقضين، وبغية توضيح التنوع الحاصل في الثقافات في نفس الوقت الذي سعى فيه إلى إلغاء واستبعاد ما يحتفظ به هذا التنوع من أمور فاضحة بالنسبة إليه، ومخلخلة لنظامه الثقافي²².

يمكن القول أن الأمة العربية تعيش اليوم أزمة هوية حادة نتيجة انفلات الحداثة الغربية، وتغول العولمة، وعدم تكافؤ القوى بين طرفي المعادلة. فالعرب يفتقرون إلى نموذج حضاري قادرًا على المنافسة وفرض منطق الذات، والغرب يمارس امبريالية ثقافية لا هوادة فيها، ويخاطبُ العرب من موقع الاستعلاء، وعقلية السيد الذي لا يحتاج إلى تبرير تسيده. إنَّ العرب اليوم بحاجة إلى تحرير الفكر بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، إنهم في مفترق طرق، وهم ضائعون وحائرون ومستلبون. عندما ضاع الفرنسيون وتاهوا في القرن السابع عشر، وجدوا في (ديكارت) النبي المخلص من النية، فدلهم على طريق الخلاص من خلال نقده للفلسفة التقليدية السكولائية. ومن ثمَّ علموا طريقهم إلى تحديث العقل الغربي، من خلال مشروع الأنوار. وفي القرن الثامن عشر عرفوا أزمة هوية حضارية مشابهة؛ فأضعفهم مفكروهم من متاهتهم وتمكنوا من صناعة ثورة هزت العالم الغربي كله. لقد كان فولتير ومونتيسكيو وبيرو وروسو هم الفانوس الذي أثار أوروبا بأنوار العقل الخالص، وكان هؤلاء المفكرون والأدباء وقود الثورة الفرنسية التي غيرت عالمنا الحديث من خلال مشروع نقدي جذري ومساءلة جادة للذات غيرت مسار تاريخ أوروبا جذريًا²³. العرب هم أيضا في حاجة ماسة اليوم إلى فتح حوار نقدي مع الذات، لتصحيح التعامل مع الآخر، والخروج من حالة الاستلاب، وموقف ردود الفعل السلبية، التي تقضي إلى الانكفاء على الذات واللجوء إلى الماضي المبجل لتناسي هزيمة الحاضر.

إن الوضع الحضاري الذي تعيشه الأمة العربية اليوم هو وضع بالغ السلبية. لما انسحب الاستعمار العربي الكلاسيكي من الوطن العربي، تبين للأمة العربية حجم الأزمة الحضارية التي تركهم عليها الاستعمار. ومن أجل معالجة ضعفهم وتحقيق النهضة من خلال تحديث العقل، دون التخلي عن ثوابت الأمة، بدل إعادة قراءة تاريخهم قراءة متبصرة، بدل تأمل مصادر القوة في التراث العربي الإسلامي، بدل كل ذلك انقسموا بين تابع للمعسكر الشرقي وتابع للمعسكر الغربي، محدثين بذلك قطيعة معرفية بينهم وبين تاريخهم القومي. وكانت تلك هي نقطة البداية للسقوط في مخالب الامبريالية العالمية بجناحيها الشرقي والغربي. لذلك تعذر على العرب تحقيق نهضة حقيقية تخرجهم من وضعيّة التابع، الذي لا يملك من أمره شيئاً.

ينأى المثقفون العرب اليوم بأنفسهم عن دورهم الحقيقي، والمفكرون والكتاب انشغلوا بقضايا هامشية تمسّ بسطح الأزمة ولا تنفذ إلى عمقها. إن تعميق الحوار مع الآخر لا يعني التخلي عن مقومات الهوية، بل إنه يقوّي الذات ويُصحّح مسارها، وي طرح الجانب الخرافي من فكره إلى الماضي. إن منطق الحوار اليوم لم يعد يحتمل تبخيس الذات أو إسقاط حقّها في الاختلاف والتخلي عن دورها في صناعة الحضارة الإنسانية. فالعالم الإسلامي يملك في مخزونه الفكري والتراثي ما يمكنه من أن يجادل على المراتب الطليعية في السياسة الدولية. لقد انكشف للغرب إفلاس فلسفاته، وعجزها عن تحقيق السلم العالمي، دع عنك أن تحقق التوازن النفسي للذات الغربية. لأجل هذا يطالعا من حين لآخر بعض علماء الغرب بموقف ينتصر لقضايا المسلمين ويشيد بدورهم في الحضارة العلمية الحديثة.

إنّ الذي يعوز العرب اليوم هو إعادة قراءة للتراث الإسلامي والعربي بفكر نقدي والتخلي عن التابوهات التي تكبل الفكر وتعيق التطور باتجاه العمق. ذلك أنّ الموقف من التراث والحداثة من قبل علماء المسلمين اليوم لا يزال قاصراً عن تحقيق المبتغى، والخروج بنتائج من شأنها تحقيق الثورة على الذات وبناء عقل

متحرّر من الخرافة والسحر وكل أشكال الشعوذة. يعاني العرب اليوم من قطيعتين: قطيعة مع تراثهم العربي والإسلامي، بانصرافهم المطلق نحو التجربة الغربيّة في التحديث وتجاهل الفروقات الحضاريّة بين أوروبا والعالم الإسلامي. فراحوا يسقطون العلمانيّة بشكلها المتطرف على دراساتهم ومواقفهم. أما القطيعة الثانية فهي القطيعة مع الغرب. إن معسكرا من المفكرين العرب في دراساتهم للأزمة الحضاريّة التي يعاني منها العرب اليوم أسقطوا اللوم كلّ على الارتباط بالغرب الحديث. واعتبروا أن الحلّ يكمن في العودة إلى أصول المعرفة الإسلاميّة بالشكل الذي قدّمها لنا الأسلاف، دون النظر إلى عامل الزمن الداخلي والخارجي. إن الواقع العربي الذي ورثناه بعد الاستقلال يختلف كليّة عن واقع المسلمين في القرون الوسطى، لمّا كان العرب أمة قويّة في علومها واقتصادها. لقد كانت الحداثة في تلك الحقبة إلى جانبهم. أما الزمن الخارجي فيشير إلى الوضع الحضاري المتفوّق للغرب على جميع الأصعدة. هذا الغرب المتفوّق قد طوّر آليّات سياسيّة عالميّة تمنع نهضة المسلمين وتؤبّد تبعيتهم. وإنّ أيّ مشروع نهضة عربيّة شاملة يتجاهل هذه المعطيات ليس من شأنه النجاح.

ولعلّه يتعيّن على المسلمين اليوم أن يؤنسوا تراثهم من خلال عقل ما بعد الحداثة. ينبغي تشكيل نزعة إنسانيّة واسعة بل وكونيّة تشمل جميع الشعوب والثقافات والأديان، من أجل تصحيح الموقف من الذات ومن الآخر ومن الحداثة الغربيّة-وهي غربيّة بكلّ تأكيد-بدل الانقطاع عن الخارج وكأننا نشغل اليابسة وحدنا. إن مواجهة الآخر من خلال تجاهله لا يشكّل الحل في الإفلات من قبضته الامبرياليّة. بل يجب مقارعته بأدواته، ومحاربته بأسلحته الفكريّة من أجل فضح تناقضاته ولا إنسانيّته التي تضرّ بالحضارة العالميّة دون تمييز.

يدعو محمد أركون إلى الثورة على الذات على مستوى الفكر من أجل الخلوّص إلى رؤية علميّة جديدة ومتجدّدة لماضيّنا، وتأسيس استشراف عقلاّنيّ لنهضة علميّة

وحضارية قادرة على الحياة والمنافسة على مراتب عالمية. إن اللغة العربية في حد ذاتها في مسيس الحاجة إلى تطوير بنيتها وتحديثها وتجريدها من بعدها الميتافيزيقي -في مرحلة أولى- حتى نتمكن من تجاوز أنساقها الماضوية التي تمنع تحررها من قيود الماضي. لم يتمكن العرب في العصرين الأموي والعباسي من تحديث اللغة لو لم يتعاملوا معها بنظرة دنيوية. ولعل ذلك هو الذي عرض "المولدين" إلى هجمة عنيفة من قبل المحافظين، ليس فقط بسبب الموضوعات الممنوعة التي انتهكتها اللغة ولكن أيضا بسبب البني النحوية التقليدية التي تجاوزتها اللغة مجازة لروح العصر. إن مثل هذه الصدامات بين أنصار التراث ودعاة التجديد هي لازمة كل العصور وكل الحضارات، ولنا بدعا من التاريخ الإنساني. في القرن السادس عشر تمكنت فرنسا من التخلص من اللغة اللاتينية التي كانت تحظى بقداسة الأديان، وانكبت على تطوير لهجتها المحلية، والتي انبثقت عنها اللغة الفرنسية بشكلها الحالي. وكانت النتيجة أن فرنسا أضحت بلغتها الفرنسية الحديثة مركز الحضارة الغربية وركنا أساسيا من الأدب العالمي. إننا لا ندعو إلى التخلي عن لغتنا الحضارية بالشكل الذي حصل للدول الأوروبية في تجربتها مع اللغة اللاتينية، كما لا ندعو إلى العلمانية ولا إلى العلمانية بشكليها الغربي الإلحادي، ولكننا نشير فقط إلى أن مبدأ الثورة العقلانية على الذات ومساءلة التراث والتاريخ دون تابوهات بإمكانه أن يقودنا إلى حادثة علمية شاملة دون المساس بجوهر اللغة والدين، وهما العمق الروحي لهويتنا الثقافية والحضارية. لا يزال الحداثيون في المجتمع العربي ينظرون بمركب نقص لتراثنا كما لا يزال المحافظون ينظرون بكثير من الإدانة والعدائية للغرب.

إن كل ما فعله طه حسين في مشروعه الحداثي هو أنه انساق إلى الموجة الثقافي الغربي دون أن يقف منه موقفا نقديا. وأفضت اقتباساته الكثيرة التي حاول أن يكتبها لتوافق موضوعاته الأدبية والفكرية العامة، إلى وظيفة مضادة لما ينبغي

أن تقوم به. "قبدل أن تتملّ صيغة الموضوعات المدروسة وتتمكن من أن تتدمج في سياقاتها لتقديم تحليل كفاء وفاعل، بوصفها مكونات ضمنية فيها، قامت على العكس بتمزيق الموضوعات لتوافق الإجراءات العامة والأهداف الأساسية التي فرضتها سياقات ثقافية مختلفة"²⁴ فجاءت تلك الجهود هجينة وباهتة تحمل في رحمها انتقائية تليفية توفيقية، ضَعَفَ فيها الوعي النقدي. لقد حاول طه حسين أن يصلح بين الأضداد دون أن يكون المنظور الحضاري متجانسا. لقد كان همّه الوحيد ربط الثقافة العربية -المتهاكة بفعل التخلف والاستعمار- بالشرط الحضاري الغربي وبأيّ التكاليف.

لقد اقتبس طه حسين منهج الشك من ديكارت، على علّته، وحاول تطبيقه على تاريخ الأدب الجاهلي؛ فكانت النتيجة التشكيك في وجود هذا الشعر أصلا. وهكذا اصطدم بالمؤسسة الثقافية والدينية في وقت مبكر؛ وكان الأولى أن تتمّ المثاقفة بشكل عقلائي، بدل الارتواء غير المشروط في حضن ثقافة غريبة لا نتقاسم معها التاريخ ولا القيم ولا معايير الجمال.

لقد أخطأت كل جهود التنوير التي أعقبت حركة استقلال الدول العربية بفعل الاستلاب الذي وقع تحت طائلته المثقفون العرب؛ وينطبق الحكم على اليسار واليمين على حدّ سواء. إن حركة التحديث التي انشغل بها جيل الرواد في الشرق العربي من أمثال ميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران ويعقوب صروف وجرجي زيدان وسلامة موسى وهيكّل وتوفيق الحكيم، أحدثت ردود فعل مدمرة لتلك المجتمعات، ليس أقلّها الحركات الإسلامية المتطرّفة التي عطّلت جهود التنمية. إن عملية المثاقفة تقتضي طرفين على قدم المساواة، أخذا وعطاء، تأثرا وتأثيرا، فعلا وانفعالا. غير أن الذي حصل هو أن المثقفين العرب تجاهلوا خلفيتهم الحضارية - باعتبارها سبب محنهم - وارتموا في أحضان الغرب، بعقل منبهر غير قادر على

النقد. فوجدوا مقاومة شعبية محمومة لجهود التحديث، التي بدت وكأنها تسليما اعتباطيا بسيادة الآخر وتفوقه الساحق على ثقافة الذات.

في الجزائر انعطفت جهود الحكومة على الخيار الاشتراكي بكل ما فيه من محاذير، وفرضت خيارها السياسي بقوة العسكر، وتوزعت المعارضة السرية بين المقاومة الإسلامية والتيار الفرونكفوني المندس في سرايا الحكم الأكثر تمكنا ومكرا، وكانت النتيجة حربا أهلية مدمرة في العشرية الأخيرة من القرن العشرين.

الخاتمة:

إن مسألة المثاقفة وحوار الحضارات من أعقد المسائل التي تحرك الشعوب وتدفع بهم إلى تطوير قدراتهم العقلية والإيديولوجية، إضافة إلى كونها حاجة من حاجات البشر الأكثر حيوية، والتي تُمدُّهم بأسباب الحياة والمناعة ضدَّ التَّحلُّل والدَّوبان في الآخر، أو الزَّوال من الوجود بسبب العزلة. غير أنها (أي المثاقفة) حركة جدلية باتَّجاه الآخر وباتَّجاه الذات، في نفس الوقت.

لقد كانت عملية المثاقفة بين الغرب والشرق أحادية الطرف. فالجانب الأقوى كان مهيمنا بفعل المركزية الغربية، وسوء تقدير الشعوب الضعيفة، أو الأقل تطورا، وخصوصا إذا تعلَّق الأمر بالظاهرة الاستعمارية التي شكَّلت مواجهة دموية بين ثقافتين يربط بينهما تاريخ طويل من الكراهية والعداء. وقد كان العرب سلبيين إزاء الهيمنة الغربية، بحيث أنَّهم انساقوا لإغراء الأوربة، فعمدوا إلى الترجمة والرحلات والبعثات العلمية لنقل التكنولوجيا، ولم يحاولوا تصحيح موقف الغرب من العرب والمسلمين، بل إنَّهم استجابوا للتمثيلات الرهابية التي يزخر بها أدب الرحلات الأوروبية باتَّجاه الشرق والتي يغذيها الاستشراق المتورط في الشرط الامبريالي. بسبب ذلك فشلت حركات التنوير العربية، بل إنَّها أدخلت العرب في حروب أهلية لم تتوقف إلى حدِّ اليوم، نتيجة الانشطار الذي حصل للوعي العربي والاختلال في نظام القيم وبنية المجتمع المتصدعة.

لقد أمكننا في هذه المداخلة المحاجة بأن الحوار بين الثقافات هو حاجة بشرية بالغة الأهمية بغض النظر عن موازين القوى. وإن تصنيف الثقافات إلى متخلفة ومتطورة هو فعلٌ غربي يكشف عن مركزية أوروبية غير مبررة وذات نوايا سيئة تجاه دول الهامش. لا يكون الحوار حواراً إلا إذا توفرَّ طرفان على قدم المساواة من حيث القدرة على التمثيل والإقناع. غير أن الذي حصل بين الغرب والشرق، لا يعدو أن يكون عملية إلقاء وتلقين. لقد مارس الغرب منذ انسحابه من مستعمراته دور الأستاذ في خطابه الموجه للعرب.

إن العرب في حاجة ماسة إلى إعادة قراءة تواريخهم القديمة والحديثة وتصحيح موقفهم من الذات ومن الآخر. إن تبخيس الذات لا يجلب لنا الاحترام ولا يزيدنا إلا فائضاً من المذلة، ومن الوهن، بدلاً من تحفيز الذات للقيام بدورها الحضاري وتجاوز تناقضات الحداثة ومحاذير العولمة.

الإحالات:

¹ -Alphonse Duprot, De l'acculturation in 12 congres international et des sciences historiques, Vienne 1965, P. 7.

² -محمد بهاوي، في فلسفة الغير، ص 67.

³ -تزفيتان تودوروف، الحياة المشتركة، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط الأولى 2009.

⁴ -مجاب الإمام، ومحمد عبد العزيز، الترجمة وإشكالات الثقافة، منتدى العلاقات العربية والدولية، ط الأولى 2014. ص 10.

⁵ -إبراهيم أولحيان، الثقافة وسؤال الهوية، ضمن كتاب الترجمة وإشكالات الثقافة، ص 245.

⁶ -تزفيتان تودوروف، نحن والآخرين، ترجمة ربي حمود، دار المدى، دمشق، ط الأولى 1999. ص 55.

⁷ -جيرار لوكليرك، الانثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط أولى 1990، ص 122.

⁸ -المرجع نفسه، ص 148.

⁹ -إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت-لبنان، ط الثالثة 2004. ص 236.

¹⁰ -مايكل هارديت وأونطونيو نيغري، الإمبراطورية، ترجمة فاضل جتكر، مكتبة العبيكان المملكة العربية السعودية، ط 2002. ص 193.

¹¹ -إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ص 70.

¹² -عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، ط الأولى 1977. ص 33.

¹³ -تيري إيغلتن، أو هام ما بعد الحداثة، ترجمة منى سلام، مركز اللغات والترجمة، وحدة إصدارات نقدية، طبعة أولى س 1996. ص 87.

¹⁴ -تزفيتان تودوروف، نحن والآخرين، ص 90.

¹⁵ -جيرار لوكلارك، العولمة الثقافية، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد، طبعة 2004 ص 391.

¹⁶ -تيزفيتان تودوروف، نحن والآخرين، ص 90.

- ¹⁷ - كلود ليفي شتراوس، مقالات في الإناسة، اختارها ونقلها إلى العربية حسن قبيسي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط الأولى، 165.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص 168.
- ¹⁹ - هومي ك. بابا، موقع الثقافة، ترجمة نائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط الأولى 2006. ص 252.
- ²⁰ - المرجع نفسه، ص 279.
- ²¹ - كلود ليفي شتراوس، مقالات في الإناسة، ص 167.
- ²² - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- ²³ - محمد أركون، الهوامل والشوامل حول الإسلام المعاصر، ترجمة وتقديم هاشم، دار الطليعة بيروت، ط الأولى 2007. ص 7.
- ²⁴ - عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، طبعة مشتركة بين الاختلاف ودار الأمان، والدار العربية للعلوم ناشرون، ط الأولى 2010، ص 50-51.

إشكالية التنوع الثقافي

بين الانفتاح على الآخر وحفظ الهوية الوطنية

د/ العربي بوعمران بوعلام

د/ عيوش نعيمة،

جامعة خميس مليانة

مقدمة: تعكس لنا مجتمعات اليوم صورة من التداخل بين الأجناس، التي تعبر عن مزيج من الثقافات المتنوعة وانفتاح فكري على الآخر لدى الشعوب، هذا ما يضيف على المشهد الثقافي الكثير من العمق والتنوع، ونظرا لأهمية التنوع الثقافي فقد أقرته منظمة اليونسكو، وشرعت لأجله مجموعة من البنود لتضمن أحقية التعبير عن الثقافات باعتبارها تدرج ضمن الحريات الفردية والجماعية، كما ويعتبر تراثا مشتركا بين الإنسانية يعزز سبل الحوار بين الشعوب ومصدرا للتبادل والتجديد والإبداع، وحتى يحقق التنوع الثقافي هذا التفاعل المرجو بين المجتمعات لا بد من تعزيز ثقافة الحوار وتقبل الآخر، ونشر مبدأ الانفتاح وحرية التعبير عن الرأي. إن تعزيز مبدأ التنوع الثقافي لا يعني أبدا التصل من الهوية الوطنية، وإنما يعززها ويوسعها لتشمل نطاقا واسعا.

تعريف الثقافة: تتعدد الثقافات وتختلف باختلاف المبادئ والتصورات الفكرية لدى المجتمعات، ومنه يمكننا القول بأن الثقافة هي حصيلة مقومات شتى تكون في النهاية صورة معين، وشخصية خاصة لأي مجتمع بكل ما تحمله من تصورات وافكار وتطلعات، يسعى لترسيخها وتثبيت جذورها في شتى المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية، ويعمل على المحافظة عليها والاهتمام بها وتأصيلها في أبنائه، باستخدام وسائل عديدة وهذه المفاهيم هي ما يمكن أن نطلق عليها اسم

الثقافة، ومنه يمكن ان نتعرف على اصول هذا المصطلح في المعاجم اللغوية وعند الدارسين واهم المفاهيم التي اتخذها من اجل تبين حدود استعمالاته.

- مفهوم الثقافة لغة: جاء في معجم تاج العروس "تقف ثقفا وثقافة، صار حاذقا خفيفا فطنا، وثقفه تنقيفا سواه، وهي تعني تنقيف الرمح، أي تسويته وتقويمه، وهي أيضا مصدر وقف بالضم ككرم"¹

- مفهوم الثقافة اصطلاحا: اخذت العديد من المفاهيم نظرا لاختلاف اراء الدارسين، لكنها تجتمع في كونها تتألف من أنماط مستترة أو ظاهرة للسلوك المكتسب والمنقول عن طريق الرموز فضلا عن الانجازات المتميزة للجماعات الانسانية، ويتضمن ذلك الأشياء المصنوعة ويتكون جوهر الثقافة من أفكار تقليدية وكافة القيم المتصلة بها، أما الأنساق الثقافية فتعتبر نتاج السلوك من ناحية، وتمثل الشروط الضرورية له من ناحية أخرى.²

مفهوم التنوع الثقافي: تتعدد الثقافات بتعدد المجتمعات الانسانية لذا نجد تباين كبير في الافكار والقيم والمعايير لدى الشعوب، وقد سعت الحضارات على مر العصور للمحافظة على ارثها الثقافي، الذي يشكل هويتها ويضمن استمراريتها ومع تشكل مفهوم الدولة سعت كل دولة لابرار ثقافتها وهويتها الوطنية، ومثال ذلك بعد انقسام اوروبا الى العديد من الدول، نجد ان كل دولة اوجدت لنفسها لغتها الخاصة، وعاداتها وتقاليدها وتاريخها الخاص بها حتى وبعد تكتلها ضمن الاتحاد الاربوي.

إلا أننا اليوم نقف باستطراد عند قضية العصر، وهي تداخل الثقافات فيما بينها نتيجة للعديد من الاسباب، من بينها اختلاط الشعوب بسبب الهجرات نحو الدول سواء للسياحة أو اللجوء السياسي أو للبحث عن فرص عمل، أو الدراسة، أو فرض الهيمنة الاستعمارية.

هذا لا يعني ان قضية التنوع الثقافي غير معروفة في تاريخ الحضارات، وانما نجدها حاضرة مثلاً في الحضارة الاسلامية بعد الفتوحات اذ نجد اختلاط العرب بالفرس واليونان والأتراك، تداخلت هذه الثقافات فيما بينها في العديد من المجالات، كالفنون واللغة وبعض العادات والتقاليد، إلا أن الحضارة الاسلامية بقيت محافظة على هويتها، كون أن الدين الاسلامي كان اقوى باعتباره المشرع الاول والمنهاج المتبع، نفس ذلك بأن نظرة المجتمع آنذاك لافتح الثقافات على بعضها كان ضيقاً جداً، يشوبه نوع من الخوف من ضياع الهوية عند مختلف الشعوب على حد سواء.

ولعل الامر الذي زاد من انغلاقه الشعوب على ثقافتها ورفضها لثقافة الآخر، هو الاستعمار خاصة الهيمنة الأوروبية على الدول الآسيوية والإفريقية وحتى الأمريكية، نجد ان الاستعمار في كل دولة محتلة حاول طمس هويتها، خاصة فيما يتعلق باللغة والمعتقد والعادات والتقاليد، لذا نجد العديد من المحاولات الاصلاحية التي وقفت وقفة صارمة إزاء المحافظة على الهوية الوطنية، إذ يقول المهاتما غاندي احد المصلحين بالهند : "إنني أرغب في أن تهب على بيتي جميع ثقافات العالم من غير قيود، ولكنني أرفض أن تقتلني من جذوري إحدى هذه الثقافات"³.

وربما سبب آخر يعود الى طبيعة افراد المجتمع الواحد اذ ن نجد العديد من الصراعات الداخلية، التي تنشأ نتيجة محاولة للقضاء على جماعات معينة، وما يصحب ذلك من انتشار للقيم وتشويه للثقافة المحلية وطمس للعادات والتقاليد والاعراف، والتقليل من أهمية اللغة الوطنية وقتل اللهجات المحلية، وهو ما يساعد على القضاء على الهوية الثقافية التي تميز جماعة من الجماعات أو شعباً من الشعوب.⁴

إلا أننا اليوم أمام وضع آخر تمام يمكن لنا وصفه بانفتاح الشعوب على بعضها وظهور مجموعة من القيم الرامية الى التعايش السلمي بين المجتمعات، والمعايير

التي تركز الى مبدأ الحوار الفعال وتبادل الآراء، وقد ساعد على ذلك المجهودات المكثفة من قبل منظمة اليونيسكو من خلال مجموعة من الاتفاقيات التي عززت قضية التنوع الثقافي نذكر بعضها:

- الاعلان العالمي للتنوع الثقافي سنة 2001 تضمن هذا الاعلان الاعتراف بالتنوع الثقافي تراثا مشتركا للإنسانية يجب الدفاع عنه كضرورة انسانية لا تتفصل عن الكرامة الانسانية، كما لا بد من تعزيز دوره التتموي وإيجاد حوار بين الثقافات المختلفة.

- اتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي سنة 2003.

- اتفاقية حماية وتعزيز تنوع أشكال التعبير الثقافي سنة 2005.

إن تعزيز التنوع الثقافي في المجتمعات يساهم في تحقيق العيش المشترك والتفاهم وزرع التآخي بين الافراد فتذوب بذلك الفوارق والاختلافات، فاحترام التعددية وتقبل الآخر يشكل بحد ذاته نوع من الثقافة التي تتطوي على القدرة مع التأقلم، وتهذيب النفس البشرية، والالتزام بالقيم الايجابية التي تتجاوز حدود المكان والزمان والعرق واللون والدين، فالهدف من هذا كله هو تجنب التصادم بين الثقافات وضمان التعايش السلمي بين الانسانية جمعاء.

يحول مفهوم التنوع الثقافي إلى فكرة التعايش بين أكثر من مظهر ثقافي داخل المجتمع الواحد، كما يعتبر تراثا مشتركا للإنسانية جمعاء، لذا ينبغي الاعتراف به والتأكيد عليه لضمان حقوق الشعوب والعيش في سلام.

ويمكن تعريفه على النحو التالي " التنوع الثقافي تعني وجود مكان يضم جماعات بشرية مختلفة من حيث الشرائع والثقافات والقوميات والاجناس والاعراف والافكار والتيارات والاطروحات ضمن إطار تنظيمي اجتماعي وقانوني وسياسي يضمن إطار تنظيمي اجتماعي وقانوني وسياسي يضمن منع تعدي أي فئة على أخرى ويمنحها حق المواطنة.⁵

التنوع الثقافي والهوية: يتحدد مفهوم الهوية ضمن المعاجم الفلسفية كونها صفة جوهرية أساسية وثابتة في الشيء لا تقبل التحول والتغير، فهي أساس ما يبقى دائماً ثابتاً بالرغم مما يطرأ عليه من تغيرات فالجوهر هو وان تغيرت أعراضه.⁶ اما اصطلاحاً فيعرفها الجرجاني بقوله "هي الحقيقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق... حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره من الأشياء"⁷

من البديهي أن نناقش الارتباط الحاصل بين الهوية والثقافة، لكون أن الهوية يقصد بها مجموع المميزات المشتركة لمجموعة من الافراد تميزهم عن غيرهم ونقصد بالمميزات مختلف القيم والمعايير والمظاهر الثقافية، إلا أن هذا لا يعني بتطابق المفهومين وتصبح بذلك الهوية مرادفة لثقافة افراد المجتمع الواحد، فقد تعدد ثقافات المجتمع الواحد نظرا لاختلاط الشعوب مع بعضها، كما ان التطبع بثقافة مجتمع ما لا يعني بالضرورة اكتساب الهوية، لان الهوية ترتبط بذات الانسان فكره وثقافته وأسلوب عيشه كما يتسع مفهومها ليشمل مجتمعا أو أمة لقوله تعالى : **{لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا}**.⁸

إن الاقتران بين هذين المفهومين نجم عنه ولادة مصطلح جديد وهو الهوية الثقافية، والذي نقصد به مختلف الميزات والمكونات الفكرية والاجتماعية والتاريخية التي تتفرد بها ثقافة ما، تمتلكها جماعة بشرية معينة وتختلف عن غيرها من الثقافات الأخرى، وتحدد ماهية الجماعة البشرية وتميزها عن غيرها من الجماعات البشرية الأخرى هوية طائفية كانت أو هوية دينية أو هوية لغوية أو هوية عرقية أو هوية وطنية، تقوم على الوطنية كمبدأ وفكر ووجدان وسلوك وعلى تساوي المواطنين داخل الوطن والدولة في الحقوق والواجبات.⁹

فكثيرا ما تحيلنا مناقشة قضية الثقافة الى مسألة الهوية، ومع ذلك حتى لو ارتبطت الثقافة والهوية الثقافية بمصير واحد فليس من السهل خلط احدهما بالآخر

إذ يمكن للثقافة أن تعمل من دون وعي للهوية بينما يمكن لاستراتيجيات أن تعالج الثقافة أو تغيرها.

إلا أن الحرص على التثبيت بالهوية الوطنية وحماية الشخصية الثقافية، يجعلنا نلغي مبدأ الحوار والتفاعل بين الثقافات الأخرى، وهذا ما يؤدي الى بروز نوع من الإحساس بالتفوق العنصري، وبروز الهيمنة الثقافية كما أنه ليس في تنوع الهويات وتعدد الخصوصيات، ما يتعارض وقضاء المصالح المشتركة بين الشعوب والامم في اطار التعاون الانساني القائم على قاعدتي التعارف والتعايش وانما ينطوي هذا التنوع على عناصر تغذي الميول الانسانية الفطرية نحو امتلاك أسباب التقدم والرقي بحافز من التنافس الطبيعي وبوازع من التدافع الحضاري¹⁰.

يشكل التنوع الثقافي جزء يسير من مفهوم الهوية الوطنية، لأن الهوية مفهومها يشمل الثقافة بمعناها الواسع، لأن الهوية قادرة على استيعاب الثقافات المختلفة للمجتمع الواحد وبالتالي تجمع بين افراد المجتمع، ومثال على ذلك الهوية الجزائرية التي تستظل العديد من الثقافات تحتها: العربية، الامازيغية، الشاوية الصحراوية.

تعايش الشعوب في ظل التنوع الثقافي: إن التعدد الثقافي بين الحضارات الانسانية موجودة منذ الأزل، إلا أن كل حضارة تسعى للحفاظ على هويتها التي تميزها عن غيرها من الثقافات، خاصة في ظل ظهور قوى تحاول فرض ثقافتها وهيمنتها على الثقافات الأخرى، وهذا ما يشكل خطرا يهدد الهوية الثقافية لمختلف شعوب المعمورة، وهذا ما يؤدي إلى حدوث صدام ثقافي مع الآخر وظهور مختلف الصراعات.

مظاهر التنوع الثقافي بين الشعوب:

اللغة: تعتبر اللغة وسيلة هامة للتواصل بين الافراد وتبادل المعلومات والافكار والتعبير عن المشاعر، لذا نجد أن كل حضارة ولها لغتها الخاصة بها، وبالتالي

تعتبر مظهر مهم من مظاهر الاختلاف بين الأمم، فالحضارة السائدة هي الحضارة التي حافظت على لغتها وتناقلتها جيلا بعد جيل، وبالتالي لا تعتبر اللغات مجرد أداة للاتصال فهي تمثل النسيج الحقيقي لمختلف أشكال التعبير الثقافي، وهي الحامل للهوية والقيم ورؤى العالم، كونها ترتبط بحياة الافراد وتجاربهم وبيئاتهم الفكرية والثقافية، فاللغة ترتبط اولا بالهوية وثانيا بالثقافة.

فاللغة أحيانا تكون عاملا مثيرا للصراعات الثقافية والعرفية، كما قد تصبح عامل مشجع على الاستقرار والوحدة عندما تصبح مشتركة بين الافراد، ما يساعد على خلق نوع من الثقافة القومية المشتركة، وفي المقابل فمن الصعوبة بمكان خلق ثقافة قومية موحدة، دون أن تكون هناك وحدة في اللغة بين أفراد التجمع البشري ومن شأن التجانس اللغوي أن يهيئ لخلق نوع من التجانس الثقافي.¹¹

الدين: يعتبر الدين أحد الرموز القوية للحضارات ويقصد به المعتقد الذي تؤمن به جماعة من الافراد، ويؤثر على سلوكياتهم وحياتهم، ويرتبط بمختلف مناحي حياتهم وكثيرا ما يكون سبب للتصادم بين الحضارات، نظرا لاختلاف الأديان وتشير الملاحظة إلى ان اشتراك أفراد جماعة ما في العقيدة الدينية يمثل بحق مقوما بارزا من مقومات الذاتية الاثنية لهذه الجماعة، ذلك أن العقيدة الدينية تؤثر تأثيرا بالغا في سلوك الجماعة، وعلى نحو يفوق في بعض الاحيان تأثير اللغة أو السلالة ففي ظل مواقف أو أوضاع معينة، قد يتغاضى المرء في سلوكه عن رابطة السلالة أو اللغة أو حتى الايديولوجية من اجل العقيدة الدينية، فما بالك اذا ما تعرضت العقيدة للتهديد أو الاحتقار من طرف جماعة دينية أخرى فهذا حتما سيولد صراعات طويلة الأمد ومستعصية الحل.¹²

العادات والتقاليد: نقصد بالعادات والتقاليد ما توارثه افراد المجتمع من سلوكات وطقوس ومظاهر وعقائد، وهي من اهم ما يميز الثقافات الانسانية عن بعضها لذا يسعى كل مجتمع إلى الحفاظ على عاداته وتقاليده.

لم تعد قضية التنوع الثقافي تلك المسألة الشائكة التي لطالما شكلت بؤرة صراع بين الشعوب، نتيجة لانغلاق افراد المجتمع وإنما أصبحت اليوم سببا لانتقاء الحضارات وتبادل الخبرات والمعارف.

تعد الثقافة عاملا هاما في تصنيف اختلاف الشعوب عن بعضها البعض وذلك لما تحمله من قيم ومعايير فردية واجتماعية اذ ان الثقافة بمفهومها الواسع هي عبارة عن منظومة متكاملة تضم النتاج التراكمي لمجمل موجات الابداع والابتكار التي تنقلتها اجيال الشعب الواحد وتشمل بذلك كل مجالات الابداع في الفنون والآداب والعقائد والاقتصاد والعلاقات الانسانية، وترسم الهوية المادية والروحية للأمة لتحديد خصائصها وقيمها وصورتها الحضارية وتطلعاتها المستقبلية ومكانتها بين بقية الامم فهي ارث تاريخي يحمل معه الطابع الخاص بكل أمة¹³

ان الثقافة كمفهوم اجتماعي فهي تعكس مدى معرفة المجتمع للقيم التي يؤمن بها والمعايير التي يستند اليها في تنظيم حياته وضبط سلوكياته ومعرفة عاداته وتقاليده واعرافه كما ينبغي على افراد هذا المجتمع ان يتعاملوا مع مختلف الثقافات الاخرى في حدود ما تقتضيه اعرافهم والتأقلم مع التجديد الحاصل في المجتمعات بهدف التطوير والتعايش السلمي، و هذا ما يبرر التداخل الحاصل بين الثقافة والمجتمع كون ان افراد المجتمع هم من يتبنون الثقافة ويسعون للمحافظة عليها بالمقابل الثقافة هي التي تعكس هوية هذا المجتمع وتحافظ على بقائه من هنا فان الثقافة لا توجد الا بوجود المجتمع ثم ان المجتمع لا يقوم ويبقى إلا بالثقافة وهذا ما يجيب عن الاشكالية هل الثقافة هي من تصنع المجتمع ام ان المجتمع هو الذي يصنع الثقافة؟

أهمية تعزيز التنوع الثقافي بين افراد المجتمع: يمكن ان يكون التنوع الثقافي سببا للصراع والتناحر بين افراد المجتمع الواحد خاصة في المجتمعات المغلقة التي تنبذ الآخر وثقافته على عكس المجتمعات المنفتحة اذ تبدو قضية التنوع

الثقافي أكثر فاعلية وحضورا وربما يعود ذلك الى طبيعة النظام السياسي القائم على احترام التعددية واللجوء إلى الحوار الفعال، وبالتالي فإن الاقرار بصحة التنوع الثقافي والقبول به وحمايته وتنميته بين الاقليات وأثنيات المجتمع كافة سينتهي ببناء مجتمع متحرر يتحلى بمزايا عصرية تيسر له اللحاق بالركب المتقدم للمجتمعات الحرة¹⁴.

كما لا يمكن انكار دور التنوع الثقافي في تحقيق التنمية للمجتمعات نتيجة التلاحم بين مختلف الثقافات وتبادل المعارف والخبرات كما يشجع الابداع الانساني في مختلف المجالات وهذا بالفعل ما اشير إليه في إعلان اليونسكو العالمي " إن التنوع الثقافي يوسع نطاق الخيارات المتاحة لكل فرد، فهو أحد مصادر التنمية، لا بمعنى النمو الاقتصادي فحسب وإنما من حيث هي أيضا وسيلة لبلوغ حياة فكرية وعاطفية وأخلاقية وروحية مرضية"، وهذا ما يبرر اهمية التنوع الثقافي كونه عاملا ايجابيا في المجتمعات يغذي القيم والقدرات البشرية .

ونحصر هنا اهم الصراعات التي تتجم عن عدم احترام ثقافة الآخر وعدم الاعتراف بالتنوع الثقافي:

- يمكن ان يؤدي استبعاد ثقافة الآخر وعدم احترامها الى تفكك المجتمع والمساس بالوحدة الوطنية
- يمكن ان يؤدي إلى غياب الاستقرار ونشوب النزاعات الداخلية بين الافراد بذريعة ان القوانين لا تأخذ بعين الاعتبار الاختلافات الثقافية الحاصلة بين الافراد.
- كما يؤدي إلى انغلاق كل فرد على ثقافته ورفضه للآخر بعيدا عن الاطار الذي يحدده المجتمع الواحد مما ينجم عنه مجموعات انفصالية.
- يؤدي إلى نشوب الصراعات والحروب الأهلية ومحاولة خلق قوانين جديدة.
- في حين ان الاعتراف بالتنوع الثقافي داخل المجتمع الواحد يؤدي الى تحقيق العديد النتائج الايجابية نذكر بعضها:

- يؤدي إلى تعزيز الحوار والتبادل بين الثقافات والانفتاح على الآخر.
- التعرف على مختلف الثقافات الموجودة في المجتمع الواحد والاستفادة منها.
- الموازنة بين الثقافات من حيث الحقوق والواجبات وعدم استبعاد أي منها في تشكيل قوانين ودساتير الدولة.
- يؤدي إلى احترام لحقوق الإنسان الثقافية، هذا ما يضمن كرامة الأفراد وتحقيق حريتهم الخاصة.
- يؤدي إلى ضمان التعايش السلمي بين مختلف الطوائف والأقليات وبالتالي تحقيق الأمن والاستقرار.
- تعزيز الحوار بين الشعوب وتشجيع التفاعل والتبادل الثقافي ونقل الخبرات والتقنيات المستحدثة.
- الحفاظ على الإرث الثقافي للمجتمع الواحد.

التنوع الثقافي وحقوق الإنسان: لم تعد مطالب الأفراد تنحصر ضمن الحق الاجتماعي والسياسي، وإنما تصاعد ليشمل الاعتراف بهوياتهم الثقافية واحترامها من دين ولغة ومعتقد والعادات والتقاليد المتوارثة، وحتى أساليب العيش وحتى تتحقق هذه الحقوق لا بد من الاعتراف بالتنوع الثقافي وتجسيده والدفاع عنه، كونه لا ينفصل عن كرامة الإنسان واعتبار الحقوق الثقافية كجزء هام من منظومة حقوق الإنسان، كما أنها ركيزة هامة في تركيبة هوية الأفراد، وبالتالي احترام تعددية الثقافات واللغات والديانات ومختلف القيم والمعايير الفكرية والفنية واجب على كل الشعوب كما أن ذلك يلغي أية محاولة للتعصب والهيمنة.

فالاعتراف بالتنوع الثقافي يقتضي احترام كل الثقافات رغم تواضعها، ومهما كان نوعها لأنها تشكل جزء من التراث الإنساني المشترك.

لقد اضحى الحق في التنوع الثقافي اليوم قاعدة من قواعد القانون الدولي وذلك استنادا إلى ميثاق الأمم المتحدة والعهود والاتفاقيات التي تحكم علاقات التعاون

الثقافي بين المجموعة الدولية، وفي كفالة هذا الحق من حقوق الانسان تأكيد على الخصوصية لكل شعب من شعوب العالم، وإبراز للهويات الوطنية ذات السمات الحضارية التي تشكل في مجموعها الهوية الانسانية العامة القائمة على أساس وحدة الجنس البشري والصفات المشتركة في الطبيعة الانسانية.

خاتمة: ما يمكن قوله من خلال هذه الدراسة أن تحقيق الاستقرار والامن داخل المجتمعات، يقتضى احترام التنوع الثقافي للأفراد والعمل على زيادة التوعية من أجل الحقوق والحريات، من خلال اشراك جميع الأطراف من مختلف الانتماءات من أجل تكثيف وتنسيق الجهود والبحث عن حلول لربط شرعية مطالب التنوع والوحدة اي الوصل الى وحدة سياسية مقابل التنوع الثقافي.

الإحالات:

¹ المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار المعلمين، القاهرة، 1994، الجزء 06، ص 51.

² عاطف محمد، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة، مصر، 2006، ص 97.

³ طلعت رضوان، التنوع الثقافي في الوطن الأم، مجلة الحوار المتمدن، العدد 2012/382 ص 76.

⁴ إكرام بركان، تحليل النزاعات المعاصرة في ضوء مكونات البعد الثقافي في العلاقات الدولية مذكرة ماجستير، جامعة بائنة، سنة 2010/2009، ص 74.

⁵ صابر أحمد، المواطنة في اطار التعددية الثقافية، من الموقع الالكتروني: <http://kenanaonline.com>

⁶ مراد وهبة، المعجم الفلسفي دار قباء، القاهرة، 1988، ص 719.

⁷ الشريف الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1990، ص 278.

⁸ القرآن الكريم، سورة المائدة، رقم 28.

⁹ عمارة فوزي، التنوع الثقافي كمصدر خلاق للإبداع، اعمال المؤتمر الدولي الثامن: التنوع الثقافي/ طرابلس، 21-23 ماي 2015، ص 11.

¹⁰ عبد العزيز بن عثمان، الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي، منظمة الايسيسكو، ط 2015، ص 17.

¹¹ احمد وهبان، الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر، أليكس لتكنولوجيا المعلومات الاسكندرية، 2007، ط 1، ص 65.

¹² احمد وهبان، الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر، ص 100.

¹³ ساطع الحصري، اراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية ط 2، بيروت، لبنان، 1985، ص 133.

¹⁴ عمارة فوزي، التنوع الثقافي كمصدر خلاق للإبداع، ص 12.

الضمانات المقررة

في قانون المؤلف لاستمرارية الإبداع الثقافي

د. أيت تفتاتي حفيظة

جامعة مولود معمري، تيزي وزو.

مقدمة: استمرارية الإبداع الثقافي في مختلف تجلياته وأشكاله التعبيرية كالأدب المسرح، الموسيقى، العمارة، الرقص، الغناء الصناعة التقليدية، الترجمة....) نابعة من ارتباطه بشخصية الأفراد في أي زمان ومكان، مما يجعل لكل جيل في مرحلة زمنية معينة نصيبه من الإبداع الذي يثري المكون الثقافي للأمم والمجتمعات.

هذه الاستمرارية في الإبداع تجعل المكون الثقافي يتضمن شقين، الأول يعرف بالتراث الثقافي التقليدي ويشمل مجموع المعارف وأشكال التعبير التي أبدعتها الأجيال السابقة والتي تعد ملكا مشاعا للمجتمع الذي آلت إليه، وهو ملزم بالحفاظ عليها وصونها ونقلها للأجيال القادمة حاملة بصمته وخصوصيته العقائدية والبيئية والحضارية، أما الثاني فيتكون من مجموع المعارف وأشكال التعبير التي يبدعها أبناء الجيل الحالي، والتي تختلف عن التراث الثقافي التقليدي في حداثة إبداعها وتعبيرها عن خصوصية بيئة وزمن معين، وفي اعتبارها مشروع تراثي يورث للأجيال القادمة. ولضمان استمرارية إنتاج الثقافة في جميع العصور لتضاف للمخزون والرصيد الثقافي المورث عن الأجداد، لابد من قوانين تحمي المبدع (المؤلف وأصحاب الحقوق المجاورة) عند الإبداع أو عند إبلاغه إبداعه الثقافي للمجتمع، خاصة وأن العملية الإبداعية في العصر الحالي لم تعد تتولد لتلبية حاجات شعورية والتعبير عن تجارب إنسانية عن طريق الاحتكاك والتعامل مع معطيات البيئة والاعتماد على أدوات بسيطة وتنتقل بالملاحظة والاستماع ضمن نطاق المجتمع الواحد كما في العصور الماضية

بل أصبحت موردا اقتصاديا هاما ذا تأثير كبير على الثروة الوطنية وتنمية الاستثمار مشكلة ما يعرف باقتصاد الثقافة، وهو ما أدى إلى زيادة كبيرة في تداول الإبداعات الثقافية على الصعيد الدولي.

وقد ساهمت القيمة الاقتصادية والتداول التجاري الدولي للإبداعات الثقافية في ارتفاع تكاليف إبداعها وتعرضها للسطو والسرقة، مما يجعل تدخل قانون المؤلف ضروري لتوفير الضمانات التي تحمي حقوق المبدع وتحافظ على استمرارية الإبداع الثقافي في مناخ يوازن بين حقوق المبدع وبين حاجة المجتمع للإبداع، وفي الجزائر تم سن الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق⁽¹⁾ المجاورة لتوفير الحماية للمبدعين وتشجيعهم على العطاء الفكري، فما هي الضمانات التي أقرها هذا الأخير لتحقيق هذا الغاية؟.

سنحاول الإجابة عن هذه الإشكالية من خلال تقسيم الموضوع إلى محورين، الأول يتعلق بنص الأمر 03-05 على توسيع نطاق العملية الإبداعية لتشمل كافة أشكال الإبداع الثقافي الحالية والتي قد توجد مستقبلا وفقا لشروط مرنة تتوافق مع طبيعة الإبداع، والثاني يتضمن الحقوق المخولة للمبدع سواء كانت معنوية أو مالية.

المحور الأول: الاعتراف بالحماية القانونية لكافة أشكال الإبداع الثقافي:

استمرارية إنتاج الثقافة يستوجب عدم حصر الحماية القانونية على الأنماط الإبداعية التقليدية، بل لابد من مراعاة التطور الحاصل في مختلف المجالات سواء العلمية أو التكنولوجية والاقتصادية والتي تؤدي بالضرورة إلى ابتكار أنماط تعبير ثقافية جديدة من ناحية المضمون والشكل، تعكس هوية وخصوصية البيئة التي ابتكرت فيها، وقد راع الأمر 03-05 تأثير البيئة ومعطياتها على تطور أشكال الإبداع الثقافي وتنوعه من خلال الاعتراف بالحماية لكافة الأشكال الإبداعية الثقافية (أولا)، التي تستوفي شروطا محددة (ثانيا).

أولاً: حماية جميع الإبداعات الثقافية الموجودة أو التي قد توجد مستقبلاً: الإبداع الثقافي يطلق عليه في الاتفاقيات الدولية المتعلقة بحماية الملكية الأدبية والفنية وقانون المؤلف مصطلح "المصنف"، و"الآداء"، ولم يورد الأمر 03-05 تعريفاً للمصطلحين بل اكتفى بذكر قائمة من المصنفات ومجموعة من الأعمال الإبداعية التي يمكن اعتبارها آداء، وتحظى بالحماية المقررة في نصوصه عندها استيفاءها شروط محددة. فالإبداع الثقافي قد يكون مصنفاً أو آداءً، والمبدع قد يكون مؤلفاً أو صاحب حقوق مجاورة، وقد نصت المادة (4) من الأمر 03-05 على بعض الأشكال الإبداعية الثقافية التي يمكن اعتبارها مصنفات محمية قانوناً مميزة بين الأشكال الإبداعية الثقافية الأصلية (المصنفات الأصلية)، والمشتقة (المصنفات المشتقة).

يستخدم تعبير المصنفات الأصلية⁽²⁾ للدلالة على الأشكال الإبداعية الثقافية التي تقوم بذاتها ولا تستند في وجودها على مصنف آخر⁽³⁾، وتتعلق بعدة مجالات كالآدب والمسرح والموسيقى والفن والدراما والعلوم والقطاع السمعي البصري... إلخ، وقد قسمتها المادة 4 من الأمر 03-05 إلى ما يلي:

- الأشكال الإبداعية الثقافية الأدبية المكتوبة والشفوية، ويندرج ضمنها الأشكال التي تتخذ من الكتابة وسيلة للتعبير عنها كالمحاولات الأدبية، الروايات، القصص القصائد الشعرية، وبرامج الحاسب الآلي، أما تلك التي تبدع في قالب شفوي فيمكن أن يدخل في نطاقها عدة أشكال إبداعية كالمحاضرات والخطب والمواعظ.

- كل الأشكال الإبداعية الثقافية التي تتعلق بالمرح والدراما والدراما الموسيقية والإيقاعية، والتمثيليات الإيمائية.

- الأشكال الإبداعية الموسيقية، المغناة أو الصامتة.

- الأشكال الإبداعية السينمائية والسمعية البصرية الأخرى، سواء كانت مصحوبة بأصوات أو بدونها.

- الفنون التشكيلية والفنون التطبيقية، كالرسم، الرسم الزيتي، النحت، النقش الطباعة الحجرية، وفن الزرابي.
 - الأشكال الإبداعية التي تتجسد في صورة رسوم أو رسوم تخطيطية ومخططات ونماذج هندسية مصغرة للفن والهندسة المعمارية ومنشآت تقنية، ورسوم بيانية وخرائط، ورسوم متعلقة بالطبوغرافية أو الجغرافية أو العلوم.
 - الأشكال الإبداعية التصويرية، والمعبر عنها بشكل يماثل التصوير.
 - الأشكال الإبداعية المتعلقة بالألبسة والأزياء والوشاح.
- أما الأشكال الإبداعية المشتقة (المصنفات المشتقة)، فهي تلك التي تشتق أو تؤخذ من غيرها من الإبداعات⁽⁴⁾، أي أنها لا تقوم بذاتها بل تستمد وجودها من إبداعات موجودة سابقا، وقد تناولتها المادة (5) من الأمر 03-05، التي ذكرت بعض الأمثلة عنها وهي الترجمة، الاقتباس، التوزيعات الموسيقية، المراجعات التحريرية، وكل التحويلات الأصلية للأشكال الإبداعية الثقافية الأدبية والفنية، المجموعات والمختارات من المصنفات، مجموعات من مصنفات التراث الثقافي التقليدي، قواعد البيانات الإلكترونية والتقليدية.
- وبخصوص الإبداع الثقافي الذي يتخذ شكل الأداء، وينسب لفئة من فئات الحقوق المجاورة والتي تسمى بفنان الأداء، عرفته المادة (107) من الأمر 03-05 أنه: "كل فنان يؤدي أو يعزف مصنف من المصنفات الفكرية أو مصنفات التراث الثقافي التقليدي"، وأضافت المادة (108) قائمة لبعض المبدعين اللذين يمكن إدراجهم ضمن فئة فناني الأداء كالفنان المؤدي لأعمال فنية أو العازف، الممثل، المغني، الموسيقي الراقص، وأي شخص آخر يمارس التمثيل أو الغناء أو الإنشاد أو العزف أو التلاوة وأي شخص يقوم بأي شكل من الأشكال بأدوار مصنفات فكرية أو مصنفات التراث الثقافي التقليدي.

فالإبداع الثقافي في قانون المؤلف قد يكون أصليا أو مشتقا، أو أداء، وهذا التقسيم راجع لطبيعة الإبداع الذي قد يكون أوليا سابقا في الوجود، أو مشتقا، ويهدف الاشتقاق لخلق أشكال إبداعية جديدة مبنية أساسا على تلك الموجودة سابقا، أما الأداء فيعتبر صورة من صور إبلاغ العمل الإبداعي إلى الجمهور مع إضافة لمسة إبداعية للفنان أو الموسيقي أو العازف أو الممثل، فالأداء شيء غير ملموس ولا يعتبر مصنف، ويمكن القول أنه ينقل فكرا سبق التعبير عنه بواسطة المبدع بصورة كاملة إلى الجمهور، ففنان الأداء عبارة عن وسيط بين الجمهور والمؤلف ووجوده ضروري لأنه يثير لدى الجمهور المتلقي للعمل الثقافي حسا جماليا ولكنه لا يضيف أي شيء جديد للعناصر التي يتكون منها، وأحيانا تكون قيمة الأداء الفنية أكبر من قيمة العمل الإبداعي الذي يؤديه للجمهور، كأن ينجح الفنان المؤدي في ابتكار أسلوب مميز خاص به⁽⁵⁾.

هذا التقسيم للإبداع الثقافي وإن كان راجع لاختلاف الأحكام القانونية التي يخضع لها كل نوع من الإبداع لكنه يدل على اتساع الحماية لتشمل كافة الإبداعات الثقافية الموجودة والتي يمكن أن توجد مستقبلا، فلم تعد الحماية مقتصرة على أشكال التعبير الثقافية التقليدية التي يقوم بها الكتاب والمسرحيين والفنانين والرسامين والموسيقيين، بل تطورت لتشمل أعمال تقوم بها فئات أخرى فرضت نفسها في حقل العمل الإبداعي الثقافي بفعل التطور التكنولوجي الذي جاء بوسائل جديدة لاستساح وتبليغ الإبداعات الثقافية كالنقل السلبي والنقل باللياف بصرية والتسجيل السمعي والسمعي البصري وتعرف هذه الفئات بأصحاب الحقوق المجاورة والتي تشمل إلى جانب فناني الأداء منتجي التسجيلات السمعية وهيئات البث الإذاعي.

والاعتراف بالحماية لهذه الفئات من شأنه خدمة استمرارية الإنتاج الثقافي لأن عملها يعد نشاطا مساعدا للإبداع الثقافي الأدبي والفني، فهي تنقله إلى الجمهور وتساعد في نشره والتعريف به على نطاق واسع، كما أن نشاطها يتطلب ترخيصا

بالنسبة للإبداعات (المصنفات) التي لا تزال مدة حمايتها سارية، وهذا ما يضمن عائد مالي لمبدعيها أو ورثتهم ويشجع على تقديم المزيد من الإبداع.

كما أن قائمة الإبداعات الثقافية المذكورة في نصوص الأمر 03-05 وردت على سبيل المثال لا الحصر، وهذا ما يتماشى مع طبيعة العملية الإبداعية القابلة للتطور باستمرار من ناحية الشكل أو المضمون نتيجة للتفاعل مع مختلف التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والتكنولوجية التي تطرأ على البيئة التي تتم فيها، والملاحظ من قائمة الأعمال الإبداعية المذكورة وجود أشكال إبداعية جديدة ناتجة عن التطور التكنولوجي كقاعدة البيانات الالكترونية، برامج الحاسب الآلي، التوزيعات الموسيقية التي أصبحت تعتمد على المزوجة بين العزف والتكنولوجيا.

فتوسيع الحماية لتشمل كافة أشكال التعبير الثقافي الموجودة حالياً أو تلك التي يمكن ابتكارها مستقبلاً يعد أحد الضمانات الأساسية التي تساعد على استمرارية العملية الإبداعية وتطورها لقدرتها على مسايرة أي تحول قد يطرأ على بيئتها التي تنتج فيها وتجدر الإشارة أن المتصفح للأمر 03-05 يجده ينص على حماية المكون الثقافي التقليدي والذي أطلق عليه مصطلح مصنفات التراث الثقافي التقليدي في المادة (8) منه ولكن هذه الحماية تختلف عن باقي أشكال التعبير الثقافي الجديدة، والتي يوفر لها هذا القانون حماية شاملة من لحظة إبداعها إلى غاية سقوطها في الملك في شقها المادي فيما تبقى حماية الشق المعنوي المتعلق بها أبدية، أما فيما يتعلق بالمكون الثقافي التقليدي فمهمة صونه والحفاظ عليه من الاندثار تولاها قانون التراث⁽⁶⁾، أما قانون المؤلف والحقوق المجاورة فقد نص على حماية خاصة عند استغلالها التجاري⁽⁷⁾.

ثانياً: إقرار معايير مرنة لحماية الإبداع الثقافي: الإبداع الثقافي مهما كان شكله لا يتمتع بالحماية إلا إذا استوفى شروط محددة في الأمر 03-05 المتعلقة بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة، حيث نصت المادة (7) منه على ما يلي: "لا تكفل الحماية للأفكار والمفاهيم والمناهج والمبادئ والأساليب وإجراءات العمل وأنماطه المرتبطة بإبداع

المصنفات الفكرية بحد ذاتها إلا بالكيفية التي تدرج بها أو تهيكّل أو ترتب في المصنف المحمي، وفي التعبير الشكلي المستقل عن وصفها أو تفسيرها أو توضيحها"، وأضافت المادة (3): "يمنح كل صاحب إبداع أصلي لمصنف أدبي أو فني الحقوق المنصوص عليها في هذا الأمر، تمنح الحماية مهما يكن نوع المصنف ونمط تعبيره ودرجة استحقاقه ووجهته، بمجرد إبداع المصنف سواء كان المصنف مثبتاً أم لا بأية دعامة مادية تسمح بإبلاغه إلى الجمهور".

من النصين نستنتج أن الإبداع الثقافي يكون متمتع بالحماية القانونية بموجب الأمر 03-05 متى توفرت فيه شروط معينة وهي إفراغه في قالب شكلي، وأن يتمتع بالأصالة، وبمجرد توفر الشرطين يعد محمياً دون استيفاء أي إجراء شكلي وبغض النظر عن نوعه وتوجهه ودرجة استحقاقه، ونمط تعبيره.

1- حماية أشكال الإبداع الثقافي التي تفرغ في قالب شكلي: يعد هذا الشرط أحد أسس حماية الإبداعات الثقافية ويضمن تطورها واستمرارية إنتاجها، حيث يتطلب إفراغ الإبداع في قالب شكلي سواء كان مكتوباً أو شفوياً أو أي شكل من أشكال التعبير، وبالتالي لا تتمتع الأفكار بالحماية حتى تكتمل العملية الإبداعية وتتجسد في قالب معين.

بالرجوع إلى نص المادة (2/3) من الأمر 03-05 نجد أنها تنص على أن المصنف يتمتع بالحماية "مهما كان نمط تعبيره" و"سواء كان مثبتاً أم لا على دعامة مادية تسمح بإبلاغه إلى الجمهور"، وهذا ما يفيد أن كل أشكال التعبير التي يمكن أن تتجسد فيها الإبداعات تكون متمتعة بالحماية سواء كانت مكتوبة أو شفوية أو تخطيطية، أو تصويرية، ولا يؤخذ بعين الاعتبار تثبيت المصنف في شكل مادي لمنح الحماية⁽⁸⁾ وبالتالي فالحماية تشمل الإبداعات التي تجسدت في قالب شكلي يدركه الإنسان سواء سمعا أو نظر أو كتابة⁽⁹⁾.

كما لا يعتد بنوع هذا القالب الشكلي الذي تجسدت فيه أفكار المبدع، فقد يكون أدبي أو فني أو موسيقي، ولا بتوجهه الفكري فيتمتع بالحماية سواء كان غرضه نفعي أو تجاري، أو تعليمي أو ثقافي وهو ما أشارت إليه صراحة المادة (2/3) "تمنح الحماية مهما يكن نوع المصنف.... ووجهته".

فالأمر 03-05 يحمي شكل التصور وتجسيده في مصنفات مادية قابلة للاستساخ أو الأداء أو العرض أو الإذاعة⁽¹⁰⁾، وليس الأفكار التي يتضمنها، فالأفكار لا يمكن أن تكون منتجا ثقافيا ولا يمكن أن تكون محلا للحماية لأنها استخدامها حر ولا يمكن أن تكون محل ملكية أبدا حتى لو كانت جديدة⁽¹¹⁾.

هذا الشرط من شأنه ضمان استمرارية الإبداع الثقافي، لأنه يفتح الباب واسعا للتعامل مرات غير محدودة مع الفكرة ذاتها من طرف كل مبدع، مما يثري المجال الإبداعي الثقافي بأشكال مختلفة مبنية على فكرة واحدة وتعبّر عن شخصية مبدعها ويمكن كل جيل من الإسهام بنصيبه في تكوين الرصيد الثقافي للأمة، لأنه لو تم إقرار حق ملكية على الأفكار لأدى ذلك إلى شل العملية الإبداعية لأن استعمال الفكرة سيتطلب الحصول على ترخيص من مالكيها الذي قد يرفض منحه أو يطلب أداء مالي كبير.

2 - حماية أشكال الإبداع الثقافي التي تتمتع بالأصالة: يشترط الأمر 03-05

لحماية أشكال الإبداع الثقافي أن تتمتع بالأصالة، ويكون الابتكار أصيلا إذا تولد عن جهود المبدع الشخصية ويحمل بصمته وطابعه الشخصي، ولا يشترط أن تكون الأصالة مطلقة، لأن الإبداع الفكري الثقافي يرتكز على عناصر موجودة سابقا ولكن جهود المبدع في تقديمه بشكل يظهر شخصيته ومجهوداته كأسلوب عرضه للأفكار وطريقة تناولها وتحليلها يجعله مميزا عن باقي الإبداعات السابقة وليس مجرد نسخ عنها أو تقليدا لها⁽¹²⁾.

ولا يتم تقدير الأصالة بالطريقة نفسها في جميع الإبداعات، فهي تختلف حسب طبيعة الإبداع سواء كان علمي أو أدبي أو فني، أو كان أصلي أو مشتق.

وتختلف الأصالة عن الجدة التي تعني أن الابتكار لم يسبق التوصل إليه من قبل وهي مناط حماية الاختراعات⁽¹³⁾، كما أنها تختلف عن القيمة الفنية أو الجودة والتي تعتبر مسألة ذوق تخضع لتقدير الجمهور وتختلف من شخص إلى آخر، والتي لا يمكن أخذها بعين الاعتبار عند منح الحماية أو تقدير الأصالة، وهو ما أشارت إليه المادة (2/3) "تمنح الحماية مهما يكن نوع المصنف ... ودرجة استحقاقه".

شرط الأصالة من شأنه ضمان تحقيق استمرارية العملية الإبداعية الثقافية عن طريق خلق إبداعات جديدة بالاعتماد على أفكار قديمة وموجودة، لأن المطلوب هو خلق إبداعات ثقافية متميزة عن الإبداعات السابقة وليس مجرد نسخ عنها وتقليد لها.

3- استقلالية صفة المصنف عن درجة استحقاقه وتوجيهه وطريقة تعبيره:

يقصد باستحقاق المصنف قيمته الثقافية والفنية، وهو ما لا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار عند اعتبار الإبداع مصنفًا وبالتالي الاعتراف بحمايته القانونية، لأن الاستحقاق يعتبر مسألة ذوق يرجع تقديره للجمهور وليس للقانون أو القاضي⁽¹⁴⁾، كما أن المصنف محمي مهما كان توجهه سواء كان ثقافي أو لصالح المنفعة العامة ومهما كانت طريقة التعبير عنه سواء شفاهة أو كتابة أو بأية طريق أخرى، وهو ما نصت عليه المادة (2/3) من الأمر 03-05 "تمنح الحماية مهما يكن نوع المصنف ونمط تعبيره ودرجة استحقاقه ووجهته، بمجرد إبداع المصنف....".

4- عدم تعليق حماية الإبداع الثقافي على استيفاء أي إجراء شكلي: تخضع

الحماية المقررة لأشكال الإبداع الثقافي لمبدأ التنافسية، فبمجرد اكتمال العملية الإبداعية واتخاذها شكلاً معيناً يتمتع بالأصالة يعتبر مصنفًا أو أداءً محمياً دون الحاجة لإلزام المبدع باتباع إجراءات معينة للحصول على الحماية، والانتساب للديوان الوطني لحقق المؤلف والحقوق المجاورة ليس إجراءً لازماً للحماية، وإنما مجرد إجراء لإشراك الديوان في عملية حماية الإبداع الثقافي فقط، فلا يتدخل الديوان في عملية منح الحماية أو رفضها لأنها مسألة مرتبطة بالإبداع.

كما أن إيداع المصنفات المنصوص عليه في الأمر رقم 96-16⁽¹⁵⁾ لا يعتبر إجراء تعلق عليه حماية المصنفات وإنما يكتسي طابع حفظ المصنف المودع فقط، ولا يمس بحمايته⁽¹⁶⁾.

فسهولة الحصول على القانونية التي تنتقر للإبداع من لحظة إيداعه وعدم تعليقها على إجراءات تتطلب الوقت والتكاليف من شأنه أن يحفز المبدع على النشاط الإبداعي.

المحور الثاني: الضمانات المرتبطة بالحفاظ على الإبداع الثقافي واستغلاله التجاري:
استمرارية إيداع الثقافة هو حق للمبدع وأفراد المجتمع، وواجب يقع على الدولة الوفاء به، ويوفر القانون رقم 05-03 ضمانات أساسية للموازنة بين حق المبدع في إنتاج الثقافة وحق المجتمع في استهلاكها، عن طريق الاعتراف بمجموعة من الحقوق المعنوية للمبدع التي تعتبر بمثابة صمام أمان تمكنه من الحفاظ على سلامة إيداعه من أي تحريف أو تشويه، والتعريف بشخصه وممارسة الرقابة الذاتية على اكتمال العملية الإبداعية (أولاً)، والحقوق المالية التي تضمن له عائدات مادية لقاء جهوده الفكرية وبما أن هذه الفئة من الحقوق مرتبطة بإبلاغ الإبداع للمجتمع فقد أحيطت بمجموعة من القيود التي توازن بين الحق في إنتاج الثقافة والحق في استهلاكها من طرف الغير (ثانياً).

أولاً: الاعتراف بالحقوق المعنوية لصاحب الإبداع الثقافي: الحوافز المعنوية التي تمنح للمبدع قد تكون أكثر تأثيراً في نفسيته من الجوانب المالية، فمنح الاحترام والتقدير والمكانة في قلوب من ينتفون إيداعه، وضمان إبلاغه للمتلقي دون تغيير أو تحريف، وترك الحرية كاملة للمبدع في تقدير اللحظة التي تكتمل فيها العملية الإبداعية وتصبح جاهزة للكشف عنها للمجتمع ليست مجرد دافع قوي للإبداع فقط، وإنما هي غاية يبرجوها كل مبدع عند الكشف عن إيداعه والإعلان عنه للمجتمع، وهذا ما يشجع استمرارية العملية الإبداعية في مناح صحي وآمن ثقافياً وفكرياً، وتتمثل

الحقوق المعنوية التي اعترف بها القانون 03-05 للمبدع (المؤلف وفنان الأداء) فيما يلي:

1- الحق في الكشف عن الإبداع الثقافي للمجتمع: نصت على هذا الحق المادة (22) من الأمر 03-05: "يتمتع المؤلف بحق الكشف عن المصنف الصادر باسمه الخاص أو تحت اسم مستعار...".

فهذا الحق يمكن المبدع من اختيار اللحظة والطريقة التي يكشف فيها عن إبداعه الثقافي للمجتمع، فله وحده الحق في الإبقاء عليه في طي الكتمان أو التعريف به لدى دائرة ضيقة من محيطه ومعارفه، أو الإعلان عنه للمجتمع⁽¹⁷⁾، وعند اختياره الإعلان فهو وحده من يقرر وقت اكتمال العملية الإبداعية وجاهزيتها للعلانية والخروج للجمهور، والطريقة التي يتم بها هذا الكشف.

وإذا توفي المبدع دون أن يمارس الحق في الكشف عن إبداعه الثقافي يمكن لورثته القيام بالكشف عنه للمجتمع ما لم يحدد طرف آخر يؤول إليه هذا الحق في وصيته⁽¹⁸⁾ أو عند تعلق الأمر بإبداع يشكل أهمية للمجموعة الوطنية ورفض الورثة الكشف عنه يتدخل القضاء للفصل في مسألة الكشف بناء على إخطار من وزير الثقافة أو ممثله أو بطلب من الغير⁽¹⁹⁾، وإذا لم يكن للمبدع ورثة يتدخل وزير الثقافة لإخطار الجهة القضائية لتمنحه الإنز بالكشف⁽²⁰⁾.

2- الحق في أبوة الإبداع الثقافي: نصت عليه المادة (23) من الأمر 03-05: على ما يلي: "يحق لمؤلف المصنف اشتراط ذكر اسمه العائلي أو المستعار في شكله المؤلف وكذا على دعائم المصنف الملائمة.

كما يمكنه اشتراط ذكر اسمه العائلي أو الاسم المستعار فيما يخص جميع أشكال الإبلاغ العابرة للمصنف إذا كانت الأعراف وأخلاقيات المهنة تسمح بذلك".

ويعرف كذلك بالحق الانتساب أو البنوة، تشبيها بعلاقة الآباء والأبناء، فالعمل الإبداعي الثقافي يحضى بقسوة خاصة لدى مبدعه لذا تم إقرار هذا الحق الذي يحمي

الرابطة المقدسة والوثيقة بين المبدع وثمره نشاطه الفكري، ويتم ممارسة حق الأبوة عن طريق ذكر اسم ولقب المبدع والمعلومات التي يرغب في معرفتها الجمهور على كافة دعائم العمل الإبداعي⁽²¹⁾.

كما يتوجب احترام رغبته في إخفاء هويته عن الجمهور وذلك بعدم ذكر أي اسم أو اختيار اسم مستعار لينسب له عمله الإبداعي⁽²²⁾.

تكمن أهمية هذا الحق المعنوي في مكافئة المبدع على جهوده وتشجيعا له على مواصلة الإبداع بنسبة مصنفه إليه، ومنع أي شخص غيره من نسبته إليه أو ترجمته أو تحويله دون إذن منه حتى لو كان من الورثة، وتكون ممارسة هذا الحق خلال حياة المبدع، وبعد وفاته يتكفل ورثته أو الشخص المحدد في وصيته بالدفاع عن هذا الحق ومتابعة كل شخص يقوم بنسبة الإبداع إليه قضائيا، وفي حالة عدم وجود ورثة أو وصية يتدخل الديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة بالدفاع عن هذا الحق⁽²³⁾.

ويعترف كذلك بالحق في الأبوة للفنان المؤدي أو العازف على أدائه دون أصحاب الحقوق المجاورة الأخرى لأن عمله ينطوي على إبداع وله الحق في ذكر اسمه العائلي أو المستعار وصفته إلا إذا كانت طريقة استعمال الأداء لا تسمح بذلك⁽²⁴⁾.

3- الحق في احترام سلامة الإبداع الثقافي: يعد من الحقوق الأساسية التي أقرتها

المادة (25) من الأمر 03-05: "يحق للمؤلف اشتراط احترام سلامة مصنفه والاعتراض على أي تعديل يدخل عليه أو تشويهه أو إفساده إذا كان ذلك من شأنه المساس بسمعته كمؤلف أو بشرفه أو بمصالحه المشروعة".

قدسية العلاقة بين المبدع وثمرته الإبداعية والتي تشبه علاقة الوالد بابنه، تجعله يتأذى معنويا من أي فعل قد يلحق ضررا بسمته وشخصيته الإبداعية⁽²⁵⁾، وهو ما قد يخلق لديه خوف وتردد من الإقدام على عملية الإبداع ذاتها أو عدم الإعلان عن إبداعه ومشاركته مع الجمهور مما يؤثر سلبا على ثراء وتنوع الرصيد الثقافي

والمعرفي للمجتمع الذي ينتمي إليه، لذا أقر الأمر 03-05 هذا الحق الذي يضمن سلامة الإبداع بمنع أي تغيير وتشويه أو تدخل فيه قد يلحق ضرراً بشرف المبدع وسمعته ومصالحه المشروعة.

فهذا الحق يشجع المبدع على الإبداع في محيط سليم يحمي إبداعه من أي تغيير ويضمن للجمهور الحق في التمتع بثمار الإبداع الفكري في تعبيره الأصلي. كما اعترف الأمر 03-05 في المادة (112) لفناني الأداء بهذا الحق، فلهم اشتراط احترام سلامة أداءهم والاعتراض على أي تعديل أو تشويه أو إفساد من شأنه الإساءة إلى سمعتهم كفنانين أو إلى شرفهم.

5- الحق في سحب الإبداع الثقافي من التداول: نصت على هذا الحق المادة (24) من الأمر 03-05: "يمكن للمؤلف الذي يرى أن مصنفه لم يعد مطابقاً لقناعاته أن يوقف صنع دعامة إبلاغ المصنف إلى الجمهور بممارسة حقه في التوبة أو أن يسحب المصنف الذي سبق نشره من جهة الإبلاغ للجمهور عن طريق ممارسة حقه في السحب.

غير أنه لا يمكن للمؤلف ممارسة هذا الحق إلا بعد دفع تعويض عادل عن الأضرار التي يلحقها عمله هذا بمستفيدي الحقوق المتنازل عنها".

الإبداع الفكري يتطور باستمرار وقناعات المبدع قد تتغير أو زوايا رؤيته الإبداعية قد تتسع بعد الكشف عن إبداعه للجمهور، لذا منحه الأمر 03-05 الحق في سحب إبداعه من التداول له وحده فقط دون ورثته أو أي طرف آخر إذا كان قد تم إبلاغه للجمهور، أو إيقاف عملية الإبلاغ للجمهور قبل الشروع فيها، ويمكنه سحبه بصورة نهائية أو سحبه لأجل تعديله كتوضيح بعض المفاهيم أو حذف بعض البنود أو إضافة أخرى أو تغيير بعض الأفكار⁽²⁶⁾.

تجدر الإشارة أن الحقوق المعنوية تتمتع بحماية أبدية، أي أنها تظل قائمة حتى لو سقط الإبداع في الملك العام في شقه المادي فهي تظل طيلة حياة المبدع وبعد وفاته

لمدة غير محددة زمنيا وكل مساس بها في أي وقت يعتبر تعدي يستوجب المتابعة القضائية.

ثانيا: الاعتراف بالحقوق المالية للمبدع: يعترف القانون رقم 03-05 للمبدع سواء كان مؤلفا أو صاحب حقوق مجاورة بمجموعة من الحقوق الاستثنائية التي تخوله وحده دون غيره أو ورثته بعد وفاته خلال مدة الحماية القانونية المحددة بحياة المبدع وخمسين سنة أخرى من تاريخ الوفاة استغلال الإبداع الثقافي أو الترخيص للغير باستغلاله، وتزايدت أهمية الحقوق المالية في الوقت الراهن بعد ما أصبح الإبداع الثقافي محل استثمار من شأنه تحقيق عائدات اقتصادية للدولة، ومن شأن هذه القيمة الاقتصادية الرجوع بربح كبير على المبدع وهو ما يعد حافز كبير على العطاء الفكري.

وتتعلق الحقوق المالية بالطرق المختلفة لاستغلال واستخدام العمل الإبداعي الثقافي فهي تعكس في أغلبها تكنولوجيا الاتصال، حيث اتسع نطاقها على مر الزمن مع التطور التكنولوجي، ويتوقف العائد المالي الذي يستحقه المؤلف على مدى تقبل الجمهور لعمله وظروف استخدامه.

وتكمن أهميتها في منح الحق للمبدع (المؤلف) وحده في الترخيص للغير بكل استخدام، حيث يتوجب الرجوع للمؤلف خلال حياته أو ورثته بعد وفاته أو الديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة للحصول على موافقة بالنسبة لكل استخدام يتصل بالحقوق المالية المخولة للمبدع. وتتمثل الحقوق المالية المخولة للمبدع الذي يصنف في خانة المؤلفين في ما يلي:

1- الحقوق المادية المخولة للمؤلف: يتمتع المبدع المؤلف بالحقوق المادية التي حددتها المادة 27 من الأمر 03-05، حيث يخول له الحق الاستثنائي في الترخيص للغير للقيام بمجموعة من الأعمال التي تنقسم لقسمين رئيسيين وهما الحق في الاستنساخ، وحق الأداء العلني للجمهور.

أ- الحق في استنساخ الإبداع الثقافي: يمكن للمبدع المؤلف وحده القيام باستنساخ إبداعه أو الترخيص للغير بصنع نسخ منه، ويقصد بالاستنساخ استحداث صورة أو أكثر للعمل الإبداعي مطابقة للأصل، بأي شكل من الأشكال، فحق الاستنساخ هو التثبيت المادي للمصنف المحمي بأية وسيلة يمكن من خلالها نقله للجمهور⁽²⁸⁾، والعمل الإبداعي محل الاستنساخ قد يكون عبارة عن مخطوط أدبي أو علمي أو موسيقي، أو برنامج إعلام آلي، أو رسم أو تصوير، أو مصنف سمعي أو سمعي بصري.

ويشمل الاستنساخ عدة حقوق منفصلة نابعة من تعدد الأساليب الإبداع وتطور وسائل الاستنساخ، وقد أشار الأمر 03-05 في المادة (27) إلى بعض أساليب الاستنساخ التي تتطلب رخصة من المؤلف أو من يمثلها قانوناً وهي:

- النشر بأية وسيلة كانت سواء خطية أو من نوع آخر كالاسطوانات.

- الاستنساخ الآلي للمصنف في شكل تسجيلات سمعية أو سمعية بصرية.

- انجاز نسخة أو عدة نسخ ثلاثية الأبعاد في مصنف ثنائي الأبعاد.

- إدماج مصنف أو جزء منه في نظام إعلام آلي.

يرد على حق الاستنساخ بعض القيود التي تمكن الغير من استنساخ المصنف في مدة الحماية دون ترخيص من المؤلف أو ورثته أو من ألت إليه الحقوق المالية، ويتعلق الأمر بالنسخة الخاصة والمقصود بها استنساخ نسخة من المصنف لغرض الاستخدام الشخصي وليس لأغراض تجارية، والنسخ لاستخدام الجمهور ويدخل في إطارها الأخبار اليومية والأحداث المختلفة التي تنتقلها الصحافة والتلفزيون والإذاعة لتبليغها للجمهور دون ترخيص من المؤلف، شريطة ذكر المصدر واسم المعني والاستشهاد بفقرات قصيرة من مصنف سابق تم وضعه في متناول الجمهور بصورة مشروعة، واستخدام المصنف لغرض تعليمي⁽²⁹⁾.

ب- حق الأداء العلني للجمهور: الحق في الأداء العلني للجمهور يشمل في نقل الإبداع الثقافي للجمهور في مكان عام خارج دائرة الأسرة أو مجموعة الأصدقاء

والمعارف، و يشمل كذلك استقبال الجمهور لهذا الإبداع⁽³⁰⁾، ويتعلق بالأعمال الإبداعية التي يمكن تقديمها في صورة أداء علني والأعمال الأدبية والتمثيلية والموسيقية والفنون التشكيلية والصور المتحركة، وسائر الأعمال الإبداعية السمعية البصرية والصوتية وفنون الرقص الأداء.

والأداء يغطي مجالا واسعا من الإبداعات كالتلاوة العلنية لعمل أدبي أو عزف أحد المصنفات الموسيقية، أو عرض لوحة فنية، أو إذاعة إبداع معين عن طريق الراديو والتلفزيون، وقد ذكرت المادة (27) من الأمر 03-05 بعض صور الأداء العلني للجمهور وهي:

- إيلاع المصنف إلى الجمهور عن طريق التمثيل والأداء العلنيين.
 - إيلاع المصنف إلى الجمهور عن طريق البث الإذاعي السمعي أو السمعي البصري.
 - إيلاع المصنف المذاع إلى الجمهور بواسطة الوسائل اللاسلكية أو الألياف البصرية أو التوزيع السلكي أو أية وسيلة أخرى لنقل الإشارات الحاملة للأصوات أو للصور والأصوات معا.
 - إيلاع الإبداع الثقافي المذاع بواسطة البث اللاسلكي من قبل هيئة أخرى غير هيئة البث الأصلية.
 - إيلاع الإبداع الثقافي المذاع للجمهور بواسطة مكبر الصوت أو مذياع أو تلفاز موضوع في مكان مفتوح.
 - إيلاع الإبداع الثقافي للجمهور بواسطة أية منظومة معالجة للمعلومات.
 - الإيلاع للجمهور عن طريق الترجمة والاقتباس والتوزيع وغيرها من التحويلات المدخلة على العمل الإبداعي والتي تتولد عنها مصنفات مشتقة.
- 2- الحقوق المادية المخولة لأصحاب الحقوق المجاورة:** اعترف الأمر 03-05 لأصحاب الحقوق المجاورة بمجموعة من الحقوق المادية تختلف من فئة إلى أخرى

لكنها تصب كلها في خانة التبليغ إلى الجمهور، رغم أنه لم يعترف بالحق المعنوي إلا لفناني الأداء، لأن عمله ينطوي على الإبداع الذي يفنر إليه عمل صاحب التسجيل السمعي، وصاحب التسجيل السمعي البصري، وهيات البث الإذاعي السمعي والسمعي البصري.

أ- **الحقوق المادية لفناني الأداء:** يتمتع فنانو الأداء بحقوق استثنائية في إيلاغ أداءهم إلى الجمهور سواء عن طريق الاستتساخ أو البث الإذاعي أو السمعي البصري، ولهم الحق في منع الغير من استغلال أداءهم بأية طريقة دون ترخيص مكتوب منهم، ولهم الحق فيما يلي:

- منح تراخيص للغير بتثبيت الأداء أو العزف غير المثبت.
- منح تراخيص باستتساخ التثبيت.
- منح تراخيص بالبث الإذاعي السمعي أو السمعي البصري للأداء أو العزف وإيلاغه للجمهور بصورة مباشرة.

ب- **الحقوق المادية لمنثجي التسجيلات الصوتية:** منح الأمر 03-05 لمنثجي التسجيلات الصوتية الحق الاستثنائي في القيام بما يلي:

- استغلال تسجيلهم السمعي عن طريق الاستتساخ
- إيلاغ التسجيل السمعي للجمهور عن طريق البث الإذاعي أو عبر أجهزة الحاسوب.

- تأجير وبيع نسخ التسجيل السمعي ونسخه وتأجيريه أو البث الإذاعي له أو إتاحتها عبر أجهزة الحاسوب ويقوم بهذه الأفعال بنفسه، ويمنع على الغير القيام بها وإلا اعتبر متعديا على حقه، وله أن يرخص للغير بموجب عقد ترخيص مكتوب، والقيد الوحيد في ممارسة هذه الأفعال هو احترام حقوق مؤلفي المصنفات المثبتة في التسجيل السمعي.

ج- الحقوق المادية لمنتجي التسجيلات السمعية البصرية: لمنتجي التسجيلات السمعية والسمعية البصرية الحق الاستثنائي في القيام بأنفسهم باستنساخ تسجيلهم والحق في إيلاغه إلى الجمهور بأي وسيلة كانت ويمكن أن يدخل في إطار هذه الوسائل البث الإذاعي والتلفزيوني، والتأجير والبيع، الأنترنت.

وله الحق في ممارسة هذه الحقوق دون قيد سوى احترام حقوق مؤلفي المصنفات المثبتة في التسجيل السمعي والبصري، ويمتتع على الغير القيام بها دون ترخيص مكتوب منه وإلا اعتبر متعديا على حقوقه.

ج- الحقوق المادية لهيآت البث الإذاعي السمعي والسمعي البصري: هيآت الإذاعة والتلفزيون لها الحق في بث وتثبيت الحصص المذاعة، استنساخ الحصص المذاعة والمثبتة من طرفها، وإيلاغ حصصها المتلفزة إلى الجمهور، وتمارس هذه الحقوق بصورة استثنائية دون قيد سوى احترام حقوق مؤلفي المصنفات التي تتضمنها البرامج المثبتة، ولها الحق في الترخيص للغير بواسطة عقد مكتوب للقيام بهذه الأعمال كلها أو بعضها.

تعتبر الحقوق المالية خاصة في الوقت الراهن الذي ارتبط فيه الإبداع بالتجارة والاقتصاد وأصبح يتمتع بقيمة مالية واقتصادية من أهم الحوافز التي قد تحفز المبدع على إنتاج الثقافة وبالتالي الحفاظ على استمراريتها، ولكن في المقابل تجعل من الإبداع الثقافي عرضة للسطو والتقليد من طرف الغير ورغم النص على تجريم هذه الأفعال ومنح للمبدع أو ورثته حق اللجوء للنقاضي، لكن التطور التكنولوجي جعل مسألة الاستنساخ والأداء العلني للجمهور يسيرة وسهلة وفي متناول الجميع وهو ما يدعو للتفكير في ضمانات تواكب هذه التحولات العلمية والتكنولوجية السريعة في وقتنا الحالي.

خاتمة: الإبداع الثقافي حق من حقوق الأفراد من ناحية إنتاجه أو استهلاكه، فإبناء أي مجتمع في أي عصر المشاركة في الإنتاج الثقافي وتقاسمه ومشاركته مع الآخرين وقد جاء قانون المؤلف والحقوق المجاورة لتكريس هذا الحق من خلال مجموعة من الضمانات التي تكفل استمرارية إبداع الثقافة والحفاظ على هذا الإبداع والحصول على عائدات مالية منه خاصة في الوقت الراهن نتيجة للقيمة الاقتصادية التي أصبحت مرتبطة به.

فقانون المؤلف والحقوق المجاورة يعد ومن خلال الضمانات التي أقرها أهم آلية للحفاظ على استمرارية الإبداع الثقافي عبر الأجيال المختلفة والحفاظ عليه، مما يكفل نقله للجيل القادم في شكله الأصيل.

الهوامش

- (1) - أمر 03-05 مؤرخ في 19 جويلية 2003، يتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة، ج ر عدد 44، صادر في 23 جويلية 2003.
- (2) - يستعمل مصطلح المصنفات الأصلية للدلالة على الإبداعات الأولية الأصلية، وقد يؤثر هذا المصطلح الخلط مع الأصالة التي تعتبر شرط للحماية يجب أن يتوفر في كل الإبداعات سواء أولية أصلية أو مشتقة، لذا تسمى أيضا هذه الإبداعات بالمصنفات سابقة الوجود، أو مصنفات اليد الأولى.
- (3) - أنظر : داليا لبيزك، حقوق المؤلف والحقوق المجاورة، ترجمة: محمد حسام لطفي، الطبعة الأولى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 2003، ص ص (78-79). كذلك: نواف كنعان، حق المؤلف، النماذج المعاصرة لحق المؤلف ووسائل حمايته، الطبعة الثالثة مكتبة دار الثقافة، عمان، 2000، ص 210.
- (4) - منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، المبادئ الأولية لحقوق المؤلف، ، باريس، 1981 ص 36.
- (5) - داليا لبيزك، لمرجع سابق، ص 387.
- (6) - قانون رقم 98-04 مؤرخ في 15 جوان 1998، يتعلق بحماية التراث الثقافي، ج.ر.ع 44 الصادر سنة 1998.
- (7) - جاءت المواد (139 حتى 142) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة بأحكام خاصة فيما يتعلق باستغلال مصنفات التراث الثقافي التقليدي التي تخضع لترخيص ورقابة من الديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة، لدي تخول له صلاحية رفض منح الترخيص أو إيقافه عندما يتبين أن الاستغلال مضر بالمكون الثقافي التقليدي، وفي كل الأحوال يتعين على صاحب الترخيص احترام سلامة هذا المكون وأصالته عند إبلاغه للجمهور.
- (8) - تركت اتفاقية برن المتعلقة بحماية حقوق الملكية الأدبية والفنية للدول الأعضاء فيها حرية الاختيار لاشتراط ما إذا كان تثبيت المصنف في شكل مادي ضروري أو غير ضروري لحمايته حيث نصت المادة 2/2 منها على ما يلي: " تختص مع تلك تشريعات دول الاتحاد بحق القضاء بأن المصنفات الأدبية والفنية أو مجموعة أو أكثر منها لا تتمتع بالحماية طالما أنها لم تتخذ شكلا ماديا معينا".
- (9) -
- (10) - داليا لبيزك، مرجع سابق، ص ص (71-72).

- (11) - نواف كنعان، المرجع السابق، ص ص (201-202).
- (12) - أنظر: داليا لبيب، مرجع سابق، ص 75، كذلك: نواف كنعان، مرجع سابق، ص 189.
- (13) - سعيد عبد السلام، الحماية القانونية لحق المؤلف والحقوق المجاورة، دار النهضة العربية القاهرة، 2004، ص 44.
- (14) - كلود كولومبييه، المبادئ الأساسية لحق المؤلف والحقوق المجاورة في العالم، دراسة في القانون المقارن، ترجمة: المنظمة العربية للتربية والتعليم والثقافة والعلوم، تونس واليونيسكو، باريس، 1995 ص 23.
- (15) - أمر رقم 96-16 مؤرخ في 2 جويلية 1996، يتعلق بالإيداع القانوني، ج ر عدد 41، صادر في 3 جويلية 1996.
- (16) - وهو ما توضحه المادة 6 من الأمر رقم 96-16 المتعلق بالإيداع القانوني التي تنص على ما يلي: "يكتسي الإيداع طابع الحفظ، ولا يمس بحقوق المؤلف، ومنتج الوثائق المودعة".
- (17) - داليا لبيب، مرجع سابق، ص 167.
- (18) - المادة (2/22) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.
- (19) - المادة (4/22) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.
- (20) - المادة (5/22) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.
- (21) - نواف كنعان، المرجع السابق، ص 105.
- (22) - داليا لبيب، مرجع سابق، ص 174.
- (23) - المادة (26) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.
- (24) - المادة (112) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.
- (25) - المبادئ الأولية لحقوق المؤلف، مرجع سابق، ص 25.
- (26) - أنظر: داليا لبيب، مرجع سابق، ص 177، كذلك: المبادئ الأولية لحقوق المؤلف، المرجع السابق، ص 25.
- (27) - أنظر: المواد (54 إلى 60) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.
- (28) - شحاتة غري شلقامي، الملكية الفكرية في القوانين العربية، دراسة لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة ولخصوصية حماية برامج الحاسب الآلي، دار الجامعة الجديدة، مصر، 2008، ص 31.
- (29) - المرجع نفسه، ص 135.

- (30) – بالنسبة للقيود والاستثناءات الواردة على الحق المالي للمؤلف أنظر: المواد (33 إلى 53) من الأمر 03-05 المتعلق بحقوق المؤلف والحقوق المجاورة.
- (31) – نواف كنعان، مرجع سابق، ص 160.

الثقافة وزعزعت جيولوجيا المجتمعات بين الانفتاح المطلق والانغلاق المطبق

د. لبصير نورالدين

جامعة امحمد بوقرة، بومرداس

المقدمة: يعدّ مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم الذي أثار جدلاً حاداً، ونقاشات بين الباحثين، والنقاد، والمفكرين في الآونة الأخيرة؛ لأنّ استعارة مصطلح من نسق ثقافي اجتماعي إلى نسق ثقافي اجتماعي آخر يؤدي إلى جملة من الإشكالات التي تفرض تأصيلاً لهذا المفهوم ضمن السياق الذي ورد فيه، إذ ليست الثقافة بمعزل عن مسيرة الأمة، ونحن بأمس الحاجة لتجلية هذا المفهوم.

وتبقى الثقافة رافداً من أهم روافد الثقافة، لذلك تسعى كلّ أمة من الأمم من خلاله للنفاعل، والاستفادة من إنجازات الآخرين، واستثمار ما لديه في تنمية كيانها، من أجل ذلك تتوق المجتمعات إلى الثقافة، والتواصل مع الآخر، فقد عرفتها، ومارستها مختلف الحضارات الإنسانية عبر تاريخها الطويل.

وقد ظلّت الثقافة ظاهرة إنسانية تفاعلت معها الشعوب، والأمم على مرّ الحقب الزمانية المتعاقبة، ذلك أنّ الكائن الحي السوّي لا بدّ له أن يفتح على الآخرين، ويتناقف معهم عبر جسور الاتصال لتحقيق التأثير، والتأثر، والأخذ والعطاء، لأنّ الوعي بالآخر شرط ضروري، وأساسي لوجود ذاتنا، والوعي بالذات شرط ضروري وأساسي لإثبات الهوية، لذلك لا تستطيع أمة تبحث لنفسها عن مكانة أن تغلق على نفسها، وتتفوق داخل ذاتها، وتدعي القدرة على الاستمرار، لأنّ هذا الانغلاق الحضاري سيقودها إلى الموت المحتم.

يبقى مصطلح الثقافة من المصطلحات التي تعبر عن أوجه التبادل الثقافي (الأخذ والعطاء) بين الحضارات البشرية المتعددة، ومع ذلك يبقى تمايز الأمم، والشعوب

واختلافها أمر طبيعي، وهو آية من آيات الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾¹، وهذا التمايز في الخلقة يستتبع اختلافاً في الثقافات، والنظم؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾².

وعلى الرغم من هذا الاختلاف، والتمايز لا يمكن للمجتمعات أن تعيش منعزلةً عن بعضها البعض، وخصوصاً في ظلّ تحوّل العالم إلى مدينة كونية، وليس مجرد قرية كونية؛ بل هي تسعى لتبادل الخبرات، والتجارب مع بعضها البعض تؤثر وتتأثر وعلى الرغم من محاولات الشعوب للحفاظ على نقاء العرق، وصفاء الثقافة، إلا أن حتمية التغيير الناجمة عن ثقافة الآخر، التي زعزت جيولوجيا المجتمعات، وبذلت مصائرهما في كثير من الأحيان، وأحياناً أخرى تلغي وجودها لتتصهر، وتذوب في ثقافة الآخر.

ويأتي الحديث في هذه الورقة البحثية عن الثقافة، وزعزت جيولوجيا المجتمعات بين الانفتاح المطلق، والانغلاق المطبق ليس مضيعةً للوقت، وإهداراً للطاقات دون فائدة، وليس فضولاً من العلم، ولا ترفاً فكرياً، لأنها لا تقل أهمية عن حوادث الكون الكبرى لدراسة أحوال الامتزاج، والنفور، والصدام بين الشعوب، لذلك يبقى موضوع تلاقي الثقافات، وتعايشها، وتضادها، وتناورها، والتأثرات المتبادلة بينها سلباً، وإيجاباً أحد الموضوعات التي جلبت اهتمام الباحثين، حيث كان موضوعاً للبحث في عديد العلوم، ونشأة البحوث المتداخلة جاءت من هذا.

ومازال الفكر العربي يطرح التساؤل نفسه خلال السنوات الأخيرة حول الثقافة مع الآخر ضمن إطارين ضيقين، ومستويين أحاديين، فإما أن تتفتح هذه الثقافة على الآخر في شكل كامل، ومكتمل مع الغرب، وإما أن تتغلق في إطارٍ محدّد، وثابت، له مرجعيته الحضارية، والثقافية.

فلا الإقبال الشغوف، واحتضان الثقافة الغربية بكامل صورها، وكأنّها معطى مصمت لا يتفاوت، ولا التضايق، والتضييق، والتعنت، والعدمية، والرفض للمثاقفة، قد أفاد فعل المثاقفة.

وبين هذين الإطارين المتجاذبين لم يتبلور بعد خطاب ثقافي جديد يحاول أن يساعل مفهوم "المثاقفة" عقلانياً بعيداً عن كلّ تهريج، وتشنّج، وخارج التبعية للغرب، والشرق معاً.

إنّنا نريد المثاقفة التي لا تسعى إعادة رسم ثقافة الآخر، ومكانه، نريد المثاقفة التي تكون وسطاً لا تؤوّل إلى الانصهار في ثقافة الآخر، وبين الانغلاق المطلق الذي يؤوّل إلى الانعزال تماماً عن الآخر، والعالم بأسره حتى لا نسقط في مقبرة التبعية، ولكي لا نستمد أصالتنا من المناسبة التي استدعته ولكن من الثقافة التي أبدعته.

وأمام رفض الأنا المعلن للآخر، وفي ظلّ إصرار الآخر على الهيمنة على الأنا تظلّ المثاقفة يتجاذبها كلا الاتجاهين ممّا يفضي إلى مصاردة المثاقفة، والقضاء عليها.

أهمية الدراسة:

- تشهد قضية الثقافة أو بالأحرى قضية الثقافات انبعثاً رهناءً سواء على الصعيد الفكري، نظراً لحيوية النزعة الثقافية.

- إمكانية التلاقح الحضاري دون نوبان.

- إمطة اللثام عن مسلمة تحقير، وإذلال الذات، والدونية التي يشعر بها الأنا من جانب، وتفاهة دعاوى التعالي، والعظمة، والغلبة التي يتمّ بها الآخر من جانب آخر.

- تقييم العلاقة بين طرفي المثاقفة: (الذات، الأنا، نحن، والآخر، الهو، الهم)، وفي ظلّ مفهوم المثاقفة المعاصرة يصبح من الضروري التساؤل كيف ننظر لجولية (الأنا/ الآخر) باعتبارها إشكالية كبيرة.

- إعادة النظر إعادة النظر في مفهوم الثقافة في ظلّ الدراسات المتعلقة بوقائع المثاقفة؟

- أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة لتحقيق جملة من الأهداف يمكن إجمالها في ما يلي:

- الحياة اليوم في ظلّ ما تعرفه من تطور يفرض على الإنسان، والشعوب عملية الثقافة، والتواصل فيما بينها؛ وهو تواصل يجري بأشكال شتى على مختلف الصُّعد السياسية، والثقافية، والعلمية، والاجتماعية، والاقتصادية، والإعلامية، والتقنية.... لكن دون انصهار، أو ذوبان في كيان الآخر، لأنّ من جملة ما يعنيه الهزيمة النفسية والانكسار الحضاري، والموت البطيء.

- الانفتاح الثقافي الذي يلغي الخصوصيات الثقافية، والحمولات الفكرية، ينتزع المفاهيم من سياقاتها ليس أقلّ ضللاً في اعتقادنا من الانغلاق المطبق والتشيع الأعمى للذات أو للآخر

إشكالية الدراسة: إن هذه المداخلة الموسومة ب (الثقافة وزعزت جيولوجيا المجتمعات بين الانفتاح المطلق والانغلاق المطبق) تطمح للإجابة على جملة من التساؤلات التي نراها مشروعة: هل الثقافة تسعى لنشر ثقافة الآخر، وإلغاء ثقافة الأنا يعززها شعورهم الوهمي بالتفوق، وشعور الأنا بالانهزامية؟ ما حدود الانتماء الثقافي؟ إلى أي الثقافتين ننتمي: ثقافة الذات أم ثقافة الآخر؟ ما المأزق الفكري والثقافي الذي نعانيه في مجتمع الذات؟ ما نوع الثقافة التي يتلقاها الفرد منتجة في ظل ثقافة الآخر؟ وهل الثقافة جعلت المفكر العربي يستهلك ثقافة الآخر أكثر مما يستهلك ثقافته، وجعلته يبحث عن إجابة لأسئلتها المعاصرة عند أولئك أكثر مما تجد ذلك عند أهلها؟ هل تؤدي الثقافة إلى محو ثقافة أخرى؟ هل انقلبت المفاهيم، فلم نعد ننطلق من الثقافة لفهم الثقافة؛ بل من الثقافة لفهم الثقافة؟ فهل الثقافة تفاعل بين الذات، والآخر؟ هل الثقافة تقوم على تلاحق، أم؟، وأما هيمنة الآخر (و) الآخر (على استلاب مختلف الثقافات؟، وهل هي قائمة على الشراكة الضمنية بين

على ثقافة الأنا هل تحولت المثاقفة إلى أحادية الجانب؟، هل هي نزعة تسعى لإخضاع سائر الثقافات لثقافة القطب الواحد؟، ففي هذه المداخلة نحاول الإجابة هن هذه التساؤلات وغيرها خاصة أن مصطلح المثاقفة أخذ حيزاً لا بأس به من الدراسة والمناقشة، شعوراً مني بأنه مازال بحاجة إلى استئناف في النظر والتقييم، والنقد وأنا أقرأ ما كتب عنه من مؤلفات حديثة، وإحساساً مني أنه ينطوي على معضلات تعترض القارئ، فهل كان لزاماً للبحث عن مثاقفة متكافئة تجلب الأنا للحضور والمشاركة الفاعلة في المثاقفة كل ذلك يدفع للتساؤل عن جدوى دراسة تفصيلات المثاقفة وزعزت جيولوجيا المجتمعات بين الانفتاح المطلق، والانغلاق المطبق.

مفهوم المثاقفة: (Acculturation)

1- في الفكر العربي: تعني: "الأخذ، والعطاء الثقافي بين الذات، والآخر المتعدد"³ "المثاقفة تمثل التفاعل بين الذات، والآخر من أجل صياغة جديدة تعكس رؤية تطويرية، وحضارية للعالم، وتلاقح ثقافات مختلفة، تقوم على أساس من الشراكة الضمنية بين الأنا، والآخر بغية إنتاج معرفة موضوعية تهدف إلى الارتقاء بالإنسان وشروط حياته، كما تعني بالتواصل الثقافي بين الأمم، والثقافات، وهو ما ذهبت إليه الكثير من الكتابات الفكرية تختزل واقع تعايش الأنتروبولوجية".⁴

كما عرفها محمد عارف أيضاً بأنها: "التغيير الثقافي في تلك الظواهر التي تنشأ حين تدخل الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في إحدى الجماعتين، أو فيهما معاً".⁵ ويفهم من قوله أن المثاقفة تقوم على تداخل الأنماط الثقافية، كما أنها تقوم على الشراكة، والتفاعل بين ثقافتين.

في الفكر الغربي على أنه: "علاقة بين ثقافة متفوقة، وثقافة متخلفة".⁶

في الفكر الغربي: يسوق مفهوم المثاقفة: ليعبر عن معنى الصراع الذي لا تتساوى أطرافه.⁷ (Kazimirski) جاء مفهوم المثاقفة في معجم كازمرسكي

فالمثاقفة في الفكر الغربي عملية تفكك بنيته، ثم إعادة بناء تلك البنية، هي في الواقع، عملية دائمة من التفكك، والبناء وإعادة البناء، أما الذي يتنوع فهو أهمية كل مرحلة تبعاً للحالات.

culturation بتقيف culture ثقافة وربما علينا استبدال كلمة acculturation

التي تتضمنها كلمة مثاقفة⁸ بهدف الإشارة إلى هذا البعد الديناميكي للثقافة فالمثاقفة الغربية باعتبارها ثقافة غالبية عمدت لتصدير ثقافتها عبر ترسانة إعلامية تركز الاستعلاء، والغلبة، وتمارس إرهاباً فكرياً، وغسلاً عقلياً منظماً يزلزل القيم ويتلاعب بالعقول.⁹

لذا المثاقفة في الفكر الغربي ترى: أن الشعوب المغلوبة قد ترفض الحضارة الغالبة فتتقن، وقد تقبلها وتتكيف معها، وقد لا تتكيف؛ لأنها لا تطابق حاجتها، ومزاجها؛ يرى شكري عياد أن هذا مفهوماً استعماريّاً للتغيير الحضاري قدمته الأنثروبولوجيا الحضارية الغربية¹⁰؛ وهو الفكر الذي ظلّ سائداً في ظلّ هيمنة المركزية الأوروبية. هيمنة الخطاب ما بعد الكولونيالي الذي يضاعف تبعات الاستتباع، والاستقطاب المثاقفة الحضارية أثرت والهيمنة، والتغطية على الخصوصيات الثقافية، وعناصر الهوية القومية.¹¹

ليست المثاقفة التي تبناه الغرب مع الآخر حوار بين الحضارات المختلفة، وتبادل ثقافات، وخبرات، والتي من شأنها أن تتلاقح فيها الحضارات، والثقافات مع الاحتفاظ بالخصوصيات، وإنما هي ذو توجه واحد سيطرت على فعل المثاقفة حيث سعت للعموميات، وتذويب الخصوصيات ممّا أدى لهيمنة نمط حضارة واحدة بكل ما تحمله من ازدواجية في المعايير، وتناقض في القيم، وفوضى في الحياة الاجتماعية، وهذا كلّ أدى لفشل المثاقفة، وولّد روح المقاومة والمغالبة من الآخرين، خاصة عندما تشعر بعملية الاختراق، والتحدي اللغوي، والثقافي، والفكري والاقتصادي، والسياسي.

لا يقوم الإشكال في تعريف الثقافة في الفكرين السابقين المختلفين؛ بل في تأويل نتائجهما، الذي يستولد منه الثقافة غير السوية، والمتكافئة، أو الثقافة الأحادية ممّا يؤدي لإلغاء شروطها.

فإذا كان الاعتراف المتبادل في الفكر العربي بين الهويات الثقافية المتغايرة شرطاً للثقافة، ومقدمة لها، وهذا ما نلمسه في الدلالات اللغوية لمفهوم الثقافة، لأنّ الثقافة مفاعلة، هذه المفاعلة لا تكون إلا من اثنين غالباً¹²، كلّ واحد منهما يفعل بصاحبه مثلاً يفعل به صاحبه، والتي نلمس فيها المشاركة، لأنّ المفاعلة قد ترد لا على وجه المشاركة¹³، وهي تدل على حصول الفعل من جانبين¹⁴، وتبادل المهارة.

وقد تكون المفاعلة هنا بمعنى التفعيل التثقيف، وهي أقوى من ثقافة في المعنى لأنّ معناها حمل الآخر على التبادل، وإن كانت المفاعلة على بابها، فهي أبلغ لما عرف غير مرة، وإن كانت بمعنى التفعيل، فهي وافية بالمعنى الذي أرذنه.

إنّ المفاعلة قد تطلق، ولا يراد بها وقوعها من الجهتين كما في كثير من الاستعمالات العربية، وما تدل عليه

واقع الثقافة العربية، ولذلك تحتاج هذه الثقافة إلى الفطنة، والحنق، والذكاء، لأنّ ثقّف في كلام العرب تأتي على عدة معاني، منها: الحنق، يقال: ثَقِفَ الشيء، أي حَدَقَهُ. ورجل ثَقِف: رجل حاذق فهِم، ذو فطنة وذكاء.¹⁵

وقال الراغب: الحنق في إدراك الشيء وفعله، -ومنه استعير الثقافة، فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة.¹⁶

وثقّف تمكن من فهم الشيء أو العثور عليه، وبما أن العثور على الشيء تمكن منه فأصلهما واحد.

وجاء في المعجم الوسيط (الثقافة) العلوم والمعارف والفنون التي يطالب الحنق فيها (مج.¹⁷ وهي أيضاً تدل على القوة لأنّ ثقّفه ثقافة لآعبه بالسلاح.¹⁸

وكانت العرب تقول: مُثاقفة الرجال أقوم من تسطير المقال¹⁹، ومنها: الأخذ والظفر والغلبة، والقدرة²⁰؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾²¹؛ قال الطاهر بن عاشور: هذه المادة تدلّ على تمكّن من أخذ الشيء، وتصرف فيه بشدّة.²²

وقوله تعالى: ﴿يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسِّنَنَهُمْ﴾²³ فهي بمعنى التمكين، أي: إن يتمكنوا منكم وتحصلوا في ثقافتهم²⁴؛ وبمعنى الظفر، أي: إن يظفروا بكم، والعرب تقول: فلان ثقّف لقف، إذا كان سريع الأخذ.²⁵

وكلا المعنيين متّجه لمفهوم الثقافة حتى تكون فاعلة؛ فإنّ انقلاب المفهوم في الفكر الغربي بين مقولتي الأقوى، والأضعف، والغالب، والمغلوب... كلّ ذلك أدى بالفكر الغربي في عملية الثقافة إلى تقسيم العالم إلى ثنائية قطبية نحن، وهم، وجعلها قسمةً ثابتةً مستقرّةً لا تقبل التبدّل، أو التغيّر، هذا التصور المتشعب بالهيمنة والقهر والتعالي، والاعتزاز بالذات، وتحقير الآخر أفضى إلى اجتثاث شروط الثقافة، وفرض مرجعاً ثقافياً وحيداً يحق للإنسان المتفوق إخضاع الآخر، والتصرف فيه.

وبهذا المفهوم اللغوي الذي ذكرنا طرفاً منه لا يبعد المعنى المتداول على الألسنة في المجتمع العربي، والغربي لمفهوم الثقافة.

أهمية الثقافة: وتأتي أهمية الثقافة من كونها:

- ضرورة حيوية لمختلف الشعوب والحضارات، من منطلق أنّها تشكل ظاهرة صحية إيجابية.

- تكتسب الثقافة أهمية علمية، وإنسانية بالنسبة للفرد، لأنّها تنمي معرفته بالآخر.

- وسيلة فعالة من وسائل التقارب، والتواصل، وتبادل المعارف، والخبرات.

- تعدّ عاملاً قوياً من عوامل تطور، وازدهار الحضارات الإنسانية.

- الانفتاح على الآخر يمنح الأنا معرفة ذاته، ومقومات هويته بشكل أفضل وأكمل.

- ترسخ قيم الانتماء، والمواطنة.

- تعد الثقافة وسيلة فعالة لتنمية روح الثقة، والتسامح بين الأفراد، والجماعات.
- تزيل كثيراً من الأوهام، والأمراض، والمخاوف التي تعيق عملية التواصل بين الشعوب ، والأمم.

- هي باب من أبواب التواصل، والحوار ، والتفاهم بين الشعوب .

- تفعيل القواسم المشتركة بينها .

- تساعد على إزالة بؤر التوتر ، والعداوة التي غالباً ما يغذيها التفوق ، والانعزال ، والجهل بالآخر، والأحكام المسبقة والسلبية عنه .

- مد جسور الحوار ، والتبادل بين الأمم.

- نحن بحاجة للثقافة التي تقوم على الانتفاع لا الانبهار، والتي تفرق بين مستويات الإنتاج في الحضارات الأخرى.

- نحن بأمس الحاجة إلى الثقافة كمنهج ينمي فينا الإحساس بالذات، ويعلمنا أدب الحوار، وفقه التخاطب،
وفن الأخذ ، والعطاء.

- يغرس فينا التسامح ، والتواضع ، والاعتراف بالآخر .

الثقافة وزعزت جيولوجيا المجتمعات: إن التحولات المتدفعة التي تميز العصر الذي نعيشه قد تداعت فيه الحواجز المكانية، والزمانية نتيجة الثورة المذهلة في تقنيات الاتصال التي جعلت من الكوكب الأرضي قرية كونية صغيرة؛ فإن هذه التحولات زلزلت ، وزعزت جيولوجيا المجتمعات كل ذلك يفرض علينا إعادة النظر في الكثير من أفكارنا التي درجنا عليها...خصوصاً بعد أن تضافت العوامل السياسية والاقتصادية، والثقافية مع آليات التحولات التقنية على نحو غير مسبوق في تاريخ البشرية كلها بوجه عام، وتاريخ وطننا العربي بوجه خاص، وهو وضع يحتم علينا معرفة المتغيرات ، والصراعات، والأوضاع الجديدة بوعي عميق

والتي لم تتكشف كاملة بعد كما يقول جابر عصفور.²⁶
أثر الثقافات المعاصرة في اللغة العربية: والأثر في حالتنا هذه للأسف غير حميد
لأنه يجافي قواعد المثاقفة الرشيدة، والتواصل الحضاري.

لم تكن اللغة يوماً نافلة في مجال التدافع الحضاري، وساحة الصراع الأيديولوجي
إلا عند من لا يفقه سنن المغالبة بين الأمم والشعوب؛ بل كانت ولا تزال من أهم مواقع
الصراع الفكري، ومن أخطر أسلحة الاحتواء الاستراتيجي لثقافات الشعوب وتمييعها
لإخراجها عن طبيعتها وصبغتها؛ ولولا ذلك لما كانت الفرنكوفونية اليوم تجري في
تنافس محموم مع الأنجلوسكسونية؛ لاحتلال مواقع التأثير الثقافي في العالم.

لا ينبغي علينا قراءة مضامين الخطابات المدونة بالعربية على أنها مجرد نسق
لغوي، أو مجرد شيء من الأشياء؛ بل هو صراع من أجل الحصول على السلطة كما
يرى فوكو.²⁷

و لعل هذا ما دفع جابر عصفور أن يعتقد أن الاهتمام باللغة هو في الحقيقة
بالوجود الذي تجسده ، وتتجسد

فيه، وهو أيضاً اهتمام بالمضامين المجسدة للفكر، والذي يواجه شروط هذا الوجود
كي يستجيب إليها استجابة
التحدي، والتمرد.²⁸

ولذلك لم تتوان العولمة في ظل تراكم نتائجها في إيقاع متسارع، في ترك آثارها
على اللغات الوطنية، والقومية، فتغزوها التراكيب، والمفردات القادمة من اللغة السائدة
التي تتجسد فيه مقولات العولمة ، وثقافتها ، والتي تسعى لفرض نموذج ثقافي مهيمن
..والنتيجة اتساع الغزو اللغوي من اللغة الصاعدة عولمياً ...²⁹

إن الاعتزاز باللغة اعتزاز بالانتماء القومي الذي يميزه عن غيره: فاللغة
باعتبارها نصوصاً واصفة؛ تقوم بدور تشكيل وعي الجماعة وسلوك أفرادها، أي
علاقة اللغة بالثقافة كأداة؛ لتوحيد الجماعات في مجتمع خاص بهم".³⁰

يبدو لنا من خلال هذا التعريف أنّ اللغة وعاء للأمة تجعل فيه أفكارها، وثقافتها ومعارفها، وتاريخها، وبها تصاغ مقومات وخصائص وجودها، ولو عدنا إلى التاريخ لوجدنا أنّ من يبتعد عن لغته إنما يفقد ذاته. وفقدان الذات يحمل معه فقدان الثقافة وتشتت اللغة يعني انفصام الرباط الذي يجمع بين متكلميها، والنتيجة الحتمية هي اندثار الثقافة التي يمثلونها. وإن العامل اللغوي كان ولا زال أهم العوامل في توحيد الشعوب والجماعات البشرية، والتقريب بين أفرادها.

الهوية بين الثوابت والمتغيرات الكونية: إنّ العلاقة التي تجمع بين الأنا والآخر؛ كما يقول دانيال هنري باجو: "أسسها التميز والاختلاف، فإن حصل التوافق بينهما بالتقليد، كانت الأفضلية للنموذج، ويكتسب المقلد

هوية الآخر، أو يكسب هوية مشوشة تنزو إلى معالجة هوية الآخر".³¹

وتأتي أهمية التربية على الهوية، أو التربية من أجل تعزيز الهوية بكل أبعادها من أجل مواجهة ما تفرضه الثقافة، إنّ العولمة في أبسط معانيها تسعى لذوبان الخصوصيات، ولذلك تسعى للانتقال من الخصوصيات إلى العموميات، ومن الجزئيات إلى الكليات، وعلى النقيض تماماً الهويات تسعى للانتقال من العموميات إلى الخصوصيات، ومن الجزئيات إلى الكليات، وعلى النقيض تماماً الهويات تسعى للانتقال من العموميات إلى الخصوصيات، ومن الكليات إلى الجزئيات، وفي ظلّ هذا التجانب الحاصل بين طرفي نقيض تأتي أهمية البحث في هذه الإشكالية باعتبارها من أكثر المواضيع حضوراً ومناقشةً بين النخب المثقفة في الآونة الأخيرة، لأنّ أمر يتعلق بطبيعة الصراع والتجانب الحاصل بين مفهومي العولمة والهوية.

لقد سارع الإعلام الجديد بكل توجهاته إلى إفراغ الهويات من محتوياتها وخصوصياتها إذ تعمل على اكتساحها، وهي مشحونة بإرادة الهيمنة، فإنّها تحولت إلى أيديولوجيا قمعية، وهي تسعى إلى أمركة العالم وتقسيمه إلى مركز وأطراف، بفرض الحراسة والعقاب على المعتقدات، والاستثمار في القيم المقلوبة، وهل تفلح مواقع

التواصل بما تملكه في تقليص الهويات في هوية واحدة متجانسة ثقافياً، وسياسياً واجتماعياً، ولغوياً؟ وهل ستفتح في تذويب الحدود، والحواجر الثقافية؟ أم تقوم الهوية بدور صناعة المناعة للفرد، والجماعة؟، وفي اعتقادي هذا هو التحدي الأكبر لهوية الأمم، والشعوب، فكان لزاماً أن نوجه سؤال الهوية اليوم لتحرير الإنسان من الاستلاب، والاعتراب، والهيمنة التقنية في ظلّ تحول الصراع من صراع الثقافات إلى صراع الهويات.

وكل من يختار الفرد، والخصوصية يصور كحالة شاذة، ومنبوذة، لأنه يقف دون أن يدري ضد إيديولوجيا

المجتمع الاستهلاكي، وموجهاته الخفية فالرفض الفكري، والانفعالي للامتثالية يبدو وكأنه علامة عصاب وعجز كما كان يقول ماركوز.³²

إنّ وضوح المرجعية الهوياتية تمكّننا من المثاقفة العادلة بين الأنا، والآخر، ولا توقعنا في عملية الانصهار،

والذوبان، ولا تؤدي إلى هيمنة الآخر على الأنا هيمنة تسلبه كلّ معالمه التكوينية وتطمس ملامح هويته الحضارية التي تشكلت مدة قرون من العطاء، ومن ثمّ نستطيع تجاوز تلك الإشكالية التي ظلّ يتخبط ويعاني منها المنهزم الذي قد يتخلّى عن مرجعيته بسهولة ليلتحق بمرجعية الآخر، وحتى نصل إلى حصانة، ومناعة فكرية لا بدّ لنا من بناء المرجعية الهوياتية الخاصة بذواتنا في زمان تنهاوى فيه الخصوصيات.

إنّ المرجعية تبقى جزءاً لا يتجزأ من هويتنا، وثقافتنا، فإذا كانوا يتحدثون اليوم عمّا يُسمّى اليوم بصناعات العموميات، فإنّه من الضروري أن نمحور نحن السؤال عن الخصوصيات، والبحث عن المرجعية الهوياتية التي اعتمدتها الأمة، وهو في الحقيقة مشروع حضاري، لذا أعتقد أنّ المرجعية الهوياتية تبقى الحصن المنيع التي تمنع انهدام بناء المجتمع، وتمنحه الزاد الفكري، والعقلي، والمعرفي، والثقافي...، وهي القدرة على تشكيل الحصانة، والمناعة، والقوة، والبقاء، والعطاء، والاستمرارية

للمجتمع، لهذا فإننا بأمس الحاجة اليوم للحديث عن المرجعية الهوياتية التي حكمت النتاج الحضاري، والثقافي، والفكري للأمة العربية، والإسلامية عبر عصورها المختلفة.

ويكتسي اليوم موضوع تأصيل المرجعية الهوياتية في خضم صراع الهويات أهمية كبيرة خاصة في مرحلة أصبحت العولمة تعمل، وتأجج، وتشجع نوبان الهويات وإلغاء الخصوصيات الهوياتية، لتصطنع هوية كونية لا جنور لها.

في زمان العولمة الذي أفضى لتداول المواقع الفاعل صار مفعولاً، والمفعول صار فاعلاً، وفي ظل غياب الأنا الذي استلزم حضور الآخر، كل ذلك يدعونا لإعادة النظر في مفهوم الهوية في عصر المادية، والذي تحول فيه العالم لقرية كونية لا مكان فيه للخصوصيات، والمتعاليات، والمقنسات...، من شأنه أن يضع مفهوم الهوية الإسلامية التي نبحت عنها- في زمان الاغتراب- في قلب التحولات الفكرية والاجتماعية، والفلسفية، والإيديولوجية للمجتمعات الإسلامية سواء في مرحلة الصراع مع الآخر في إثبات الهوية، أم في البحث عن هوية الأنا التي ضاعت في زمان الاستلاب الحضاري، أم في سبيل البحث عن إعادة الاعتبار لمكانة الهوية الإسلامية، ومن ثم النهوض بالمجتمعات العربية، والإسلامية، ويتسنى لنا إعادة الأنا للحضور لقد أصبح من الصعوبة بمكان على المجتمعات الإسلامية المعاصرة أن تعيش خارج الحداثة العولمية الكونية، دون أن تتأثر، أو تتدرج في مساراتها.

فمما لا شك فيه أن حجر الأساس لتحول كبير في مفهوم الهوية يليق بالعالم الجديد قد وُضع، وتبدو مسألة الهوية في هذا السياق كعملية تكيف مع العالم المقبل، وما يرافقها من صخب، وضجيج يشبه ما حدث عند المنعطفات الكبرى في التاريخ الإنساني كلها؛ إذ لم تولد دولة المدينة من غير ضجيج وآلام، ولم تولد الدول القومية من غير ذلك، ولم تولد الإمبراطوريات الكبرى من غير معاناة.³³

إنّ كثيراً من المضامين التي يتمّ تداوله حول الهوية نابعة من ضعف الانتماء للهوية الوطنية الأمر أدى لظهور ظاهرة الاغتراب، والإحباط حيث يعيش الفرد في فضاء غريب عنه بعيد عن بيئته الطبيعية الواقعية، وهويته الأصلية الحقيقية، ويصبح بذلك تائهاً، ومشرداً بين عالمين، لذا تواجه المجتمعات العربية، والإسلامية تحديات كبيرة تؤثر في مسار تميّتها، وتطورها، وتماسكها، وهويتها، وثوابتها....، خاصة مع ظهور أنماط جديدة من الاتصال، والتواصل من ذلك الهوية الافتراضية حيث يعملون على سحب بعض القضايا من الواقع إلى المجتمع الافتراضي الذي يعدّ بوابة جديدة لتحقيق المواطنة.³⁴

فقد ذابت ثقافات في نسيج ثقافات غالبية، وفقدت هويتها، كما حدث مع غالب ثقافات العالم الثالث، ونجحت ثقافات أخرى في المثاقفة، عندما قامت على أسس محكمة، كما تحقق للثقافة اليابانية، والثقافة الكونفوشوسية في الصين عندما تتأققت مع ثقافة الغرب. تفكيك البنية المجتمعية: يعدّ ليفي شتراوس من الأوائل الذين قلوا ملامح النسق إلى الحقل الثقافي في دراسة الأنثروبولوجيا البنيوية 1957، لكن باستيد يخالف ليفي شتراوس وفكرته حول مفهوم البنية الذي يرى فيه مفهوماً شديد السكونية. و عوضاً عن الحديث عن بنية فينبري الحديث عن بناء الثقافة structuration وتفكيك بناء destrukturation وإعادة بناء. restructuring هي "بناء" تزامني "يتكون كل لحظة من خلال هذه الحركة الثلاثية. ويتفق ليفي شتراوس مع نظريته البنيوية هذه، لذا تجد رؤيته متشائمة حول ظواهر نزع الثقافة في المجتمعات الخاضعة للاستعمار. وهو يعد أن نزع الثقافة هذا لا يؤدي إلا إلى "الانحطاط الثقافي"، وهو "عَرَضٌ" لمرض مشترك بين [المجتمعات المنزوعة الثقافة] كلها³⁵:

فالنسق في الفكر الغربي أوسع من مفهوم البناء الاجتماعي كما يذهب إلى ذلك تالكوت بارسونز لأنه نظام ينطوي على أفراد متصلين تتحدد علاقاتهم بمواطنهم إدراكهم النابعة عن القواسم المشتركة، والمقررة في إطار هذا النسق.³⁶

فالمثاقفة الغربية تطرح سؤال النسق كبديل عند سؤال النص، لذا لا يمكن الحديث عن القيم في حضارة الإسلام، وتجاهل الرباط الفاعل بين القيم وبين النص الذي يؤسس لها لما له من قدرات في بناء الإنسان والإسهام في توجيه العمران الإنساني لذا لا ينبغي أن يتموضع سؤال القيم داخل الحضارة الإسلامية إلا داخل القرآن الكريم ليكون هو المحرك، لأنّ النسق القرآني، والنسق الأخلاقي في تشكيلهما وفق رؤية معرفية، ومنهجية، ومقاصدية من شأنها أن تمتن العلاقة بين الإنسان والمثل العليا.

إعادة صياغة مفهوم الثقافة: قادت الدراسات المتعلقة بوقائع المثاقفة إلى إعادة النظر في مفهوم الثقافة وأصبحت الثقافة من الآن فصاعداً مجموعة ديناميكية متماسكة نوعاً ما (لكن ليس تماماً) ومتجانسة إلى حد معين.

وقد أدى هذا الانزلاق في إدارة "الثقافة يقول دوني كوش: العناصر التي تتكون منها ثقافة معينة لا تندمج دائماً ببعضها تماماً لأنها ذات مصادر متنوعة في الزمان والمكان. وبعبارة أخرى، هناك "فراغ" في المنظومة مع أنها منظومة بالغة التعقيد، هذا الفراغ هو الفجوة التي تنزلق عبرها حرية الأفراد والجماعات من أجل "إدارة الثقافة".³⁷

التواصل الثقافي الرشيد بين الانغلاق على الذات والانفتاح المذموم: إن القرآن الكريم لا يحذ الانغلاق على الذات، فالتعاون الحضاري، والاتصال الإنساني، مبدأ من المبادئ الجوهرية في تاريخنا الحضاري قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.³⁸

لا يوجد في تاريخنا الحضاري مشكلة في التعامل مع الأطراف الأخرى، فهو دين أنزله خالق الناس، لا يفرق بينهم، ولا يميز أحداً على أحد إلا بالتقوى، والعمل الصالح. إننا كمسلمين لا نحذ الانغلاق على الذات، فالتعاون العلمي والحضاري والاتصال الإنساني، مبدأ من المبادئ الجوهرية في تاريخنا الحضاري قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٩﴾

لا يوجد في تاريخنا الحضاري مشكلة في التعامل مع الأطراف الأخرى، فهو دين أنزله خالق الناس، لا يفرق بينهم ولا يميز أحداً على أحد إلا بالقوى، والعمل الصالح لكن الانفتاح المذموم هو الذي أدى إلى ذوبان الشخصية الثقافية واللغوية بسبب الانهيار والاعترا ب والاستلاب، والانهزام النفسي، عبر منافذ الاختراق والتغريب، والإسلام لا يمنع الانفتاح المحكم الرامي نحو الاستفادة من علوم الآخرين النافعة؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾⁴⁰

إن المشكلة الحقيقية لا تكمن في المتاقفة ذاتها؛ بل في الإنسان العربي الذي يعيش مرحلة الانبهار والشعور بالنقص والضعفة من انتمائه، فيمارس هذا النقص هروباً من أصالته وهويته، ولغته، وتراثه.

التمادي في عملية التجنيس الحضاري: التي نشهدها حالياً تهدد خصوصية الإنسان التي سرعان ما يفدها تحت وطأة الشائع، والغالب الذي يكسب سلطته من شيوعه وغلبته؛ لا من أصالته وتميزه.⁴¹

كل ذلك ولد أزمة معرفية جعلت المثقف العربي غير قادر على الموازنة بين بنائه الثقافي الذي عاش فيه، وصاغ فكره وشخصيته، والبناء الثقافي والمعرفي للأمم والمجتمعات الأخرى.

عدم مراعاة الاختلاف: إن الاختلاف بين الأفراد والمجتمعات، حق أقره القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾⁴²

إن هذا الاختلاف الذي قامت عليه الحضارات، والثقافات والذي استفادت من منجزاته الشعوب والأمم، يصبح لا معنى له عندما يتحول إلى صراع، إن التواصل الذي يتأسس على تفاعل حر بين ثقافات مختلفة، ينشد خيراً يتوزع على الجميع دون

زيغ أو محاباة، وهذا التفاعل يكون له أثر لفكر حوارى يؤمن بالاختلاف والمساواة في أن، دون أن يرى أن بعض الشعوب أقل شرفاً من شعوب أخرى.

فالاختلاف والتدافع والصراع كانت من سمات الحياة البشرية عبر التاريخ؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِئِنَّكَ خَلَقَهُمْ﴾⁴³

المثاقفة وخطاب الكراهية والتناؤ: إن الحوار، والتحاور يبنى على الاختيار الحر اختيار بلا إكراه، ذلك أن الإكراه يستولد النزاع والتناؤ، ولعل هذا من الأسرار؛ ذلك أن الله عز وجل قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾⁴⁴، مثلما أن الإكراه تعبير عن إلغاء الاختلاف لا تستطيع ثقافة معينة أن تتفاعل مع ثقافة أخرى إلا إذا تفاعلت معها، دون تعسف، أو إكراه.

وقد انعكست هذه الكراهية على البناء النفسي، والفكري للمواطن العربي في بُعدين مهمين هما: الاغتراب، والتبعية الثقافية؛ أما الاغتراب، فهو انسحاب من ممارسة الفعل الثقافي في المجتمع، وبناءً عليه فقد المواطن أحد أبرز مقوماته، وهو تفاعله مع مجتمعه، وقضاياها؛ أما التبعية فقد أسهمت الحداثة في إنشاء تصوّر عربي يكاد يتماهى مع التصورات الغربية للوجود، ولعلّ هذا يفرض علينا تفحص المنطلقات، والآليات التي ينبغي توفرها في بنية التواصل حتى يستطيع القيام بفعل المثاقفة دون شعور بالدونية أو الاستلاب.

المثاقفة بين الأنا والآخر: قضية ما يسمى بالآخر شغلت حيزاً كبيراً، ونقاشاً محتتماً، وجدلاً واسعاً في الطروحات الثقافية على الساحة العربية في الآونة الأخيرة حيث توجه تهمة رئيسة إلى الأنا بأنه لا يعترف بالآخر، ولا يفقه التعامل معه، لأنّ الافتتاح على الآخر لدينا أضحى نوعاً من التفريط في الذات.⁴⁵

وفي ظلّ الاختلاف الشديد يصعب تحديد مفهوم الآخر بمعزل عن مفهوم الأنا أو الذات، وهذا راجع لكونهما متداخلين؛ إذ يُسهم كلّ واحد منهما في تكوين، وتنمية

الآخر، فـ"بقدر ما ينضج مفهوم الذات ، وترتسم حدوده ، فإنّ مفهوم الآخر في الجهة المقابلة ينضج بنفس المقدار وترتسم حدوده"؛⁴⁶

فالمثاقفة تمثّل التفاعل بين الذات، والآخر من أجل صياغة جديدة تعكس رؤية تطويرية، وحضارية للعالم تقوم على أساس من الشراكة بين (الأنا)، و(الآخر) ولكن المثاقفة الغربية عموماً، والفرنسية خصوصاً حولت، و اختزلت المثاقفة في التعيين والتتميط ، والاختزال، بما يخدم مصالحها.

فالأنا لم يصبح في معزل عن العالم، ولم يَعدُ العالم في معزل عنه، إنّ قطيعة ورفض الآخر هي عزلة للذات، تغيبه حضارياً، وثقافياً، ومعرفياً، وتاريخياً، كما أنّ الاندماج غير الواعي هو تنويب للهوية ، وطمس للخصوصية من هنا كانت المثاقفة ضرورة وجود، وإمكانية توائم.

والمثاقفة الراشدة هي التي تقوم على أسس متينة وتوظف "جملة من النماذج المعرفية، والمناهج الحكمية، والموازن الدقيقة للفصل بين المطلق، والنسبي والمشارك، والخاص، والمؤقت، والدائم من ذلك التراث، وبذلك استوعب المطلق والمشارك الإنساني، والدائم المستمر، وتجاوز النسبي، والخاص، والمؤقت".⁴⁷

ومثاقفة الأنا والآخر ولدت جملة من التجاذبات، والصراعات الثنائيات خاصة، وأنّ العالم أضحي قرية صغيرة، ف لم يجدوا من وسيلة ل رسم صورة الآخر يكون خاضعاً على النوام لتلك المعايير الدلالية التي تحددها الثقافة التي تنتمي الذات إليها وحينما تقوم الذات بتشكيل صورة للآخر فإنّ ما يتشكل لديها من صور لذاتها ، أو للآخر لا تكون دائماً وفي جميع الحالات نقيّة ومحدّدة؛ بل غالباً ما يختلط فيها الواقعيّ بالمثالي، وتتداخل فيها رؤيتها لحقيقة نفسها بما تريد إظهاره للآخر من صفات خاصة وقد تتشكل صورة الآخر لديها من عناصر انتقائية هي ما تريد أن تثبتّها في ذهنها عن هذا الآخر، في حين تغيب عنها عناصر أخرى لا تراها ، أو لا تريد الاعتراف بها.⁴⁸

إنّ العلاقة التي تجمع بين الأنا، والآخر كما يقول دانيال هنري باجو: "أسسها التميز، والاختلاف، فإن حصل التوافق بينهما بالتقليد، كانت الأفضلية للنموذج ويكتسب المقلد هوية الآخر، أو يكسب هوية مشوشة ترنو إلى معالجة هوية الآخر".⁴⁹ ليس القضية، والمشكلة في المثاقفة الحاصلة بين الأنا، والآخر نيل القضية هي اعتراف الآخر بالأنا، والتسليم بوجود طرف محاور متكافئ، فالآخر لا يعترف إلا بنفسه، ولا يحاور إلا ذاته، هي الطرف، والطرف الآخر في نرجسية حضارية تاريخية شديدة، الآخر هو مجالها الحيوي، والمحقق لحاجاتها، وامتداد نشاطها الايدولوجيا الكولونيالية هي الأنا والآخر، الذات والموضوع، الشمال، والجنوب الموافق، والمعارض، المماثل، والمختلف.

إنّ هدف هذه الورقة البحثية تريد أن يتحول مفهوم المثاقفة من التفاعل الثقافي المبني على النزعة الإمبريالية الراغبة في الهيمنة، والسيطرة، ومحو الآخر واستبعاده، وفرض التبعية عليه... إلى التفاعل الثقافي المبني على التسامح، والاحترام المتبادل، والندية، والتكافؤ...

إنّ المثاقفة التي تتوخاها هذه الورقة البحثية بين الأنا، والآخر، لا تتحاز إلى فئة دون أخرى؛ لا تنتصر للأنا على الآخر، ولا للآخر على الأنا، ليس هذا هدفها، ولا غايتها؛ نيل تسعى جاهدة لتطهير العلاقات، وتفعيل الحوار المتبادل الذي يخضع لقانون التوازن، والاتزان، الأخذ والعطاء، والتفاعل، والاحترام... وليس استعمار فكري نتائجه أخطر من الاستعمار السياسي، والعسكري يصدروا لغتهم، وثقافتهم من جانب واحد إلى البلدان التي فقدوا احتلالها العسكري المباشر.

الحرب على المقدسات: إنّ جوهر الصراع اليوم كان محوره قضيتي "الهوية والانتماء" إذ تركزت جهود التغريب، والحادثة على محاولة فصل الأمة عن ثوابتها.. إذ يرى محمد بنيس أنّ همّ الحادثة هو هدم المقدس، والثابت⁵⁰؛ ولذلك تراهم يدعون لإعادة رسم خريطة المقدسات⁵¹؛ يقول عبد المجيد الشرفي: "لا يغرنك ما يقال، ويكتب

من ضرورة المحافظة على الأصالة، والهوية، والوفاء، والقيم الذاتية... العامل على نحت مصيره نحتاً..⁵²، ومن بينها إلغاء الوحي، وبالمقابل تركزت جهود المخلصين من أبناء الأمة على تحصين ثوابت الهوية، وإبراز مقوماتها.

فإنّ هدم المقدس لا يكون إلا باللغة الحامل لهذا المقدس، ولهذا كثرت مطالب الحدائين بالتخلي، والطعن، والتشكيك، والتجديد، والطعن، والنقد.. في هذه اللغة؛ يقول أونيس: وإذا تذكرنا صلتها في الوعي العربي الأصلي بالمقدس، وتحديداً القرآن أفلا نرى في جهلها، أو الدعوة إلى تغيير بنائها إحلال العاميات محلها نوعاً من القول بوعي آخر، وهوية مغايرة.⁵³

كما لا يتردد محمد أركون، وهو يطالب من المفكرين بنقل التراث كلّ بما فيه القرآن، وصحيح السنة- من ساحة اللا مفكر فيه إلى ساحة المفكر فيه أي: من ساحة المسلمات إلى ساحة المشكوك فيه القابل للنقد، ولذلك فلا يصح اعتبار الإسلام، ولا النظر إليه كنموذج حقيقي مكتمل، لأن التراث بنظره مفتوح وغير محدد بشكل نهائي مغلق، فهو قابل للزيادة خاضع للتغيير المستمر الذي يفرضه التاريخ.⁵⁴

وانظر لما تقوله واحدة من المدافعين عن الحداثة خالدة سعيد: "عندما كان طه حسين، وعلي عبد الرزاق يخوضان معركة زعزعة النموذج (الإسلام)، بإسقاط صفة الأصلية فيه، ورده إلى حدود الموروث التاريخي، فيؤكدان أن الإنسان يملك موروثه ولا يملكه الموروث، ويملك أن يحيله إلى موضوع البحث العلمي والنظر، كما يملك حق إعادة النظر في ما اكتسب صفة القداسة، وحق نزع الأسطورة عن المقدس، وحق طرح الأسئلة والبحث عن الأجوبة".⁵⁵

الفكر الحدائي يعمل على طرح القداسة في كل شيء؛ فكل شيء يخضع لعملية الفرز.⁵⁶

يقول أدونيس في قصيدة طرف العالم:

نمضي ولا نصغي لذلك الإله

تقنا إلى رب جديد سواه

إن أدونيس الجريء على الله هو نفسه أدونيس الذي يحرص أشد الحرص أن تظل سمعته السياسية مرّضية عند الأنظمة العربية، ويحرص أن يظل ذوو القداسة من السياسيين مقدسين، ويلح أشد الإلحاح على أن الأدب يجب أن يظل بعيداً عن الإيديولوجية، أي بعيداً عن القداسة السياسية، ولا مانع عنده من ترميغ القداسة الشرعية في التراب، وسنقف على بعض أقواله في ثانيا البحث.⁵⁷

عن الشعوب الأخرى في القرن (David Hume) سيطرة المركزية الأوروبية: حين تحدث الفيلسوف الإنجليزي : تشكل الأمم الأوروبية هذا الجزء من الكرة الأرضية الذي يفتات بشعور (Hume) الثامن عشر؛ قال هيوم الحرية، والشرف والإنصاف، وبقيم تتفوق على قيم البشرية جميعاً.⁵⁸

إن القيم الأوروبية التي تتفوق على ما تبقى من القيم هي التي تسمح باحتكار مصائر الشعوب الأخرى؛ لأنها قيم تمثل الفضائل جميعاً، غير أن هذه القيم، التي تؤكد الشرف، والإنصاف، تفصل بين القول، والفعل؛ لأنها مطمئنة إلى مبدأ التفاوت الذي يضع شعباً فوق آخر، وعازفة عن مبدأ المساواة الذي يعترف بحقوق متساوية لثقافات مختلفة.

ولهذا نتأسس المثاقفة وفقاً لتصورات هيوم (Hume) على ثنائية المعلم الشريف والتلميذ المحتمل؛ إذ على الأوروبي أن يعلم غيره القيم التي يحتاجها، وأن يتوسل العقاب الملائم كي يعلم التلميذ القيم المتفوقة؛ وإذا كان هيوم (Hume) قد وضع التفاوت في حقل القيم، فإن برنارد لويس (bernard lewis) -وبعد أكثر من قرنين- رفع التفاوت إلى مقام المواجهة النهائية، متحدثاً عن النصر، والهزيمة، والسيطرة وهكذا ظلت المثاقفة في اتجاه واحد.

وهي التي جعلت المهزوم يقلد من انتصر عليه، معتقداً أن حقيقة الثقافة هي حقيقة الانتصار ، وهذا ما فعله كل من رفاة الطهطاوي، وأحمد لطفي السيد، وسلامة موسى، وطه حسين، ومحمود عزمي، وعلي عبد الرازق، ومنصور فهمي، وشبلي شميل، وفرح أنطون، وإلياس أبي شبكة...⁵⁹ حيث قدم لنا هؤلاء المثقفون العرب الثقافة الغربية نموذجاً مثالياً يجب أن يحتذى به، ولا سبيل أن نحيد عنه، وقد ارتبط مفهوم الانهزام لدى هؤلاء المفكرين بالعداء لكل انتماء عربي ، وإسلامي، وشرقي تاريخي، أو ديني، أو أدبي، ووصل بهم الانبهار بفتنة المنتصر الولاء له، فالتقدم عند هؤلاء على اختلاف مجالات طروحاتهم مرهون باستساخ الثقافة الغربية، والتماهي معها، وكانت النتيجة من هذه التبعية المقيتة، والثقافة الدليلة اتساع الهوة الفاصلة بيننا وبين الغرب بدلاً من تجسير الفجوات، وبناء القناطر، وهذه واحدة من المعوقات التي أعاققت التفاعل البناء بين الأنا، والآخر.

وخير مثال يمكن الوقوف عليه الأسرة:

الأسرة من تدوير المفهوم إلى ديناميكية الإجراء: إن نظام الأسرة الذي شرعه الإسلام هو النظام الذي يتفق، ويتلاءم مع الفطرة الإنسانية ، وتكوينها ؛ وعندما أتحدث عن الأسرة ونظامها في القرآن، فإن المراد بها الزوج والزوجة، لأنهما الأصل في تكوين الأسرة أياً كانت، وهذا المفهوم ثابت في بنيته المفهومية ، والله سبحانه عندما خلق الأشياء خلق من كل زوجين، فهو يركز على اختلاف الجنسين قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁶⁰

الأسرة في المفهوم الإسلامي: هي الجماعة المعتبرة نواة المجتمع، والتي تنشأ برابطة زوجية بين رجل وامرأة، ثم يتفرع عنها الأولاد، وتظل ذات صلة وثيقة بالقرابة القريبة من الأحفاد، والأسباط، والأعمام، والعلمات، والأخوال، والخالات وأولادهم.

إننا في زمان كثرت فيه الشبهات، والشهوات، حتى أصبح الزمان يعج بطوفان من الفتن، وعندما تكثر دواعي الانحراف، وتنتشر يلزم العقلاء من الأمة الحديث عن الرابطة المقدسة لتبتعد عن مواقف الحرام، وتعيش في كنف العفاف، لأنه خلق من أخلاق القرآن، وخلق من أخلاق الأنبياء، والأئمة، والصالحين، وهو خلق رغب فيه القرآن، لقد جاء القرآن والبشرية في فوضى عارمة، وانحلال أخلاقي كبير، فكان من بين الأهداف التي سطرها القرآن الكريم انقاد البشرية من هذا الضلال، وهذا الانسلاخ، فجعل هذه الرابطة آية من آياته، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁶¹ ولا تستعمل لفظة "آية" في القرآن المجيد إلا في الأمور الجليلة العظيمة، ليدل على قوة وقدرة الخالق تبارك وتعالى، وقد قرن الله تبارك وتعالى آية تكوين الأسرة، بآية تكوين العالم أجمع، فعقب هذه الآية بقوله جل وعلا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوِلْدَانِ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَالْآيَاتُ لِلْعَالَمِينَ﴾⁶².

فلم ترد كلمة "من آياته" إلا في الأمور العظام، كخلق السموات والأرض ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوِلْدَانِ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَالْآيَاتُ لِلْعَالَمِينَ﴾⁶³ والليل والنهار وابتغاء الرزق: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾⁶⁴، والآيات الكونية البرق والأمطار ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁶⁵، ومنها قيام السموات والأرض بأمره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾⁶⁶، السفن والجواري في البحر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾⁶⁷، هذا الاقتران بين هذه الآيات والرابطة الزوجية يدعونا للتفكير في هذه الرابطة، وفي غيرها ومعانيها، عسى ذلك كله أن يقودنا للحفاظ عليها في ظل ما تتعرض له لتقويضها وهدمها فنحمد الله سبحانه وتبارك وتعالى ونشكره أن يديم علينا هذه النعمة.

وجعل هذه الرابطة المقدسة نعمة من النعم التي امتن بها على عباده؛ فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِالنِّعْمَةِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.⁶⁸

ولما كانت الأسرة هي النواة الأولى التي تبنى عليها المجتمعات أحاطها بسياج من القيم والأخلاق والتشريعات.

إنّ الرابطة التي تقوم عليها الزوجية ويسعى القرآن لرسم معالمها لا تقوم على أساس مادي، ولا قانوني، ولا

لمصلحة دنيوية...، بل هي رابطة عظم القرآن شأنها، ذلك أن الله جعل العلاقة الزوجية لا تضاهيها علاقة، ولا

يدانيه عقد من العقود إنه عقد يسمو عليها جميعاً بما أفرغه الله عليه من صبغة "الميثاق الغليظ"، ولم يرد وصف الميثاق، بالغليظ إلا في عقد الزواج؛ قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾⁶⁹، إنّ هذه الكلمة التي سماها القرآن الميثاق الغليظ في معرض الحديث عن الرابطة الزوجية، يكفي في الدلالة على ذلك التكريم أنّ كلمة الميثاق، لم ترد في القرآن الكريم إلاّ تعبيراً عن المعاهدة بين الله وعباده؛ قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ بِذَاتِ الصُّوَرِ﴾⁷⁰، الآية في معرض الحديث عن موجبات التوحيد.

وفيما أخذه الله على أنبيائه من موثيق؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.⁷¹

فالأهمية الكبرى التي يوليها القرآن للأسرة، لا يوليها لأية علاقة أخرى، لأنّ الرابطة الزوجية باعتبارها دعامة البناء الاجتماعي مؤثرة في المجتمع وموجهة له يضطرب باضطرابها ويستقيم باستقامتها.

وإذا كانت عصور التراجع الحضاري قد استبدلت المعاني السامية لعقد الزواج المودة، والرحمة، والسكن والميثاق الغليظ بذلك المعنى الغريب "عقد تملك بضع

الزوجة!" - وعقد أسر وقهر!. فهل نعيد الاعتبار إلى المعاني القرآنية السامية. فنسميه كما سماه القرآن الميثاق الغليظ؟

ولما كان أثر الأسرة على المجتمع ارتباطاً أو انفكاً، فقد أحاطها بسياج يقوم على شرع الله، يرسم من خلاله حدود العلاقة التي تربط الزوج بزوجته، لذلك أفرغت سورة النساء على عقد الزواج صبغة كريمة، أخرجته عن أن يكون عقد تملك كعقد البيع والإجارة، أو نوعاً من الاسترقاق والأسر حيث أفرغت عليه صبغة "الميثاق الغليظ".

هذه الرابطة التي جاء القرآن يرسم معالمها تقوم على منهج الله، لذلك اعتنى بها القرآن الكريم من طور الإعداد إلى حالة التكوين.

فالأُسرة أساس المجتمع الإسلامي فلذلك استحققت عناية، ورعاية وإحاطة القرآن فقد شرّع لها من الأحكام ما يساعد على حفظها، ودوامها، واستقرارها، واستمرارها .

والرابطة الزوجية أقوى الروابط بين اثنين، بحيث يشعر كل منهما بأنه شريك للآخر في كل شيء، حتى جعلها القرآن امتزاجاً بين الزوجين.. وهذا الامتزاج يعتز كل منهما بهذه الرابطة المقدسة التي ربطت بينهما: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾⁷² ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾⁷³ ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁷⁴.

الأسرة في المفهوم الغربي: هذا يجنبنا كثير من الإشكاليات التي تثار حول الموضوع ؛ لاشتماله على بعض النقاط المهمة مثل: الصبغة الإسلامية، حيث حدد العلاقة بين الزوجين بعلاقة شرعية، كما أنه لم يهمل أعراف المجتمع وتقاليده، والتي تختلف من ثقافة إلى أخرى، كذلك شمل بعض الأقارب من الأسرة خلافاً لتعريفات أخرى حصرت الأسرة في الزوجين والأبناء فقط؛ كل هذه المعاني ظلت غائبة في المفاهيم الغربية التي تسوق لنا دون الإشارة إلى نوع الرابطة التي تجمع بين الزوجين

لا يهم أن تكون شرعية، أو غير شرعية، وليس بالضرورة أن تكون بين الرجل والمرأة حيث ركزت على الدم والمصاهرة؛ بل قد يكون بين نفس الجنس، انظر مثلاً ما جاء في معجم لاروس:

La famille personnes unies par le Song et l'alliance.

La famille est fondée traditionnellement sur le mariage, union entre un homme et ne femme, formant un couple dont sont issus les enfants légitimes. or, cette description doit être élargie compte tenu des évolutions de la société .

Le couple peut être lie par concubinage – union libre– o par un pacte civil de solidarité.

Dans ces deux derniers cas, le couple peut être formé de personnes de même sexe–famille homoparentale–

فهم يركزون على الارتباط الحر، ولو كان من جنس واحد مما أدى لفشو السحاق والمثلية، وانعكست هذه المفاهيم على الأسر الإسلامية، والعربية، وأصبحنا نسمع ونقرأ عن بعض المفاهيم المتعلقة بالأسرة: المتحدين-المتعاشين، المثليين ، فإطلاق التسمية، والمفهوم من دلالاته يوحي بأنه لا يمنع الشواذ من تكوين الأسرة التي وتسميها العائلة، وتعد أدوار الأمومة ، والأبوة أدواراً نمطية يجب استبعاد الالتزام بها حتى يمكن إقامة مجتمع متحرر من القيود ، والروابط..إنّ علاقات الشذوذ هي شكل من أشكال تكوين الأسرة، وهو موقف مائع من القضية تحت ضغط الدول الغربية... وأن الأساس في أي علاقة جنسية مهما كانت هو وجود رغبة مشتركة، ويدعو إلى الاعتراف بالصيغ الشاذة في هذه العلاقات، وتوفير الحماية ، والمشروعية، والرعاية لها، ومعاملتها معاملة الأسرة، وتضغط على الدول الإسلامية، والعربية لقبول هذا الواقع، ولو اقتضى الأمر فرضه بالقوة..

لاشك أن تقنين هذا الشذوذ جاء بمباركة كثير من الدول التي عملت المستحيل حتى تروج لهذه المفاهيم كمؤتمر بكين، والقاهرة..، وهكذا يبدو مدلول الأسرة كما تقول جميل تلوت انزاح عن معناه المركزي، وأصبح يكتسي طابعاً نسبياً يتغير بتغير

المجتمعات، والأزمان، والخلفيات، ويتطور بتطورها، ويتقهقر بانحدارها، فهو نموذج غير ثابت، وليس له ما يحدد ثوابته.

والخطر الذي يتهدد الأسر أننا عندما نستورد مفهوم الأسرة من ثقافة مغايرة بكل حمولاتها الدلالية، والتي تتعارض مع النسق، والتداول الإسلامي لاشك أنها تؤصل لمفاهيم لا تتسجم مع العادات، والتقاليد، والتصور المجتمعي الذي نعيش فيه ؛لذا يتوجب علينا جميعاً حماية اللبنة الأولى في تكوين المجتمع ، كما أردنا الحق سبحانه وتعالى الذي وضع نظاماً واضحاً في خلقه الذين خلقهم ، وشرع لهم تكوين الأسرة على أساس سليم ، وبنى الإسلام هذا النظام أولاً على سلامة العقيدة ، ونصاعتها ووحدتها حتى لا تتوزع المؤثرات في مكونات الأسرة فمصدرها الشرع، والأسرة في الثقافات المغايرة مصدرها المجتمع، وشتان بين من مصدره الشرع ، وبين من مصدره المجتمع؟

تتميط الأسر بين مواضع التغيير وموجات التغير: وفي ظل المؤثرات الثقافية والتعقيدات التكنولوجية التي ترحف ظهرت أنماط جديدة، وتحولات في الأسرة المسلمة؛ فشهدنا بعض الاختراقات للمفهوم الإسلامي للأسرة، فضلاً عن الممارسات الخاطئة.

ومن الأنماط التي ظهرت مثلاً زواج المسيار، والزواج العرفي، والزواج المؤقت ونحو ذلك، حيث أصبحنا نسمع، ونقرأ عن الأزواج الهاربين من القيد، والزوجات الباحثات عن الحرية، وأبناء السفاح الذين يقولون أنفسهم بالجريمة؛ كل ذلك من أجل هدم بنية الأسرة، واقتلاعها حتى تتعطل عن إنتاج الأسر المسلمة،

كسر الثوابت والمسلمات: تعدّ الأسرة نواة المجتمع ، وهذه مسلمة ضرورية بالطبع إذ على الرغم من أن المسلمين، والثوابت العقائدية، والفكرية، والاجتماعية، والأخلاقية تعدّ مرجعيات ثابتة، ونقاط ارتكاز لأيّ مجتمع، ومن ثمّ يجب ترسيخها كضمانة لاستمراره مادام أن الواقع اثبتت فعاليتها، إلا أن المنطلقات العقائدية، والفكرية

والاجتماعية، والأخلاقية التي تنطلق منه تصورات الأسرة المعاصرة في المجتمعات الإسلامية تعكس تصوراً فكرياً مختلفاً قوامه أن تلك المسلمات أصبحت عرضة للنقاش، والمساومة، وكسر الثوابت، والمسلمات مما قد ينبئ بأنماط من الأسر فيها من الخلل العقدي، والفكري، والاجتماعي، والسلوكي، علاقات من غير ضرورة الزواج أو الارتباط من دون الزواج، والتمرد على كل الأشكال التقليدية لقد مزقت الحداثة، والتكنولوجيا العالم المقدس الذي كان إلهياً طبيعياً، واستبدلته بشرياً عقلياً.

العمل على محو الخصوصيات المميزة على المستوى الأسري، والدعوة للتحرر الجنسي، والمثلية الجنسية، والشذوذ الجنسي، وإباحة الإجهاض تقدم وسائل الإعلام المختلفة الشاذين جنسياً على أنهم مجرد مثليين يتمتعون بحس عاطفي بريء تجاه أمثالهم في الجنس، ويسعون لاكتساب احترام الآخرين، ونفهم رغباتهم النفسية والجسدية، وهكذا تنمر الأسرة، وترجم الحياة بألوف مؤلفة من اللقطاء، غير ما استتر أو استعلن من العلاقات الفاسدة الأخرى..؛ وأن الدعارة مرفوضة في حالة واحدة هي إكراه المرأة عليها، ويعزز ذلك بالمؤتمرات، والأجندة، والاتفاقيات العالمية، لقد حدثت تحولات عالمية كبيرة حيث سعت إلى إحداث تغييرات واسعة في مفاهيم الأسرة.

الحملة المسعورة على تفكيك الأسرة: ولهم القيم الأسرية عُقدت العديد من المؤتمرات الدولية بهذا الخصوص، مثل مؤتمر نيروبي عام 1985م، مؤتمر القاهرة عام 1994م، ومؤتمر بكين عام 1995م، ومؤتمر اسطنبول عام 1996م، ثم مؤتمر نيويورك عام 1999م، ثم مؤتمر بكين، ثم نيويورك أيضاً عام 2000م، ومحور هذه المؤتمرات يدور حول الأسرة والمرأة والطفل، مركزاً على الحقوق الجنسية، والحق في الإنجاب والإجهاض، والشذوذ، وقضية المساواة بين الرجال والنساء، والمساواة في الميراث .. إلخ، وكل هذا من منظور الثقافة الغربية العلمانية المادية الإباحية.⁷⁵

الإباحة الجنسية خارج الرابطة الزوجية: وفي الفصل السابع من وثيقة مؤتمر السكان يتحدث عن هذه الإباحية الجنسية، فيقول: إنها حالة الرفاهية البدنية والعقلية والاجتماعية الكاملة، المنطوية على أن يكون الأفراد (لاحظ تعبير الأفراد) من جميع الأعمار أزواجاً وأفراداً (كذا) فتيناً وفتيات، مراهقين ومراهقات، قادرين على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونة (لاحظ عدم اشتراط الحلال والشرعية) هي كالغذاء، حق للجميع، ينبغي أن تسعى جميع البلدان لتوفيره في أسرع وقت ممكن، في موعد لا يتجاوز عام 2015م. أي أنه أكثر من مباح، فالسعي لتحقيقه بجميع البلدان في أسرع وقت ممكن، وقبل سنة 2015م، واجب على جميع البلدان بل ولا تكتفي هذه الوثيقة بذلك، وإنما تتجاوز إباحة هذه الإباحية إلى حيث تدعو للتدريب والترويج والتعزيز لهذا السلوك الجنسي المأمون والمسئول.⁷⁶ **استغلال التكنولوجيا لزعت جيوولوجيا المجتمعات:** إذا كان التقدم التكنولوجي المذهل، قد وضع في يد الغرب إمكانية تشكيل العالم، وإعادة تربيته، بما يتناسب مع المصالح الذاتية لهذا الغرب، لاسيما من خلال وسائل الاتصال الحديثة، التي تصب على رؤوس الشعوب، شللاً متدفقاً من القيم وأنماط السلوك (الاستهلاكي)، والتي تحاول أن تشكك بأهمية القيم السائدة، بل إنها تعمل على تسفيهاها، باعتبارها قيماً بالية، لا تتماشى مع التقدم ومع الحضارة. كل ذلك جعل العالم يعيش في هذه الآونة، أكثر من أية مرحلة سابقة، ما يمكن أن نسميه زمن المواجهة الحاسمة بين الحضارات، حيث تعمل الحضارة الغربية، وبمؤذجها الأمريكي الصارخ، بصفتها الحضارة المسيطرة والمستبدة، على الإطاحة بالحضارات المغايرة ومحاوله استيعابها، ومحاصرتها، والعمل على إفنائها، وتبديدها — إن أمكن.

إنّ التحولات المتدافعة التي تميز العصر الذي نعيشه قد تداعت فيه الحواجز المكانية، والزمانية نتيجة الثورة المذهلة في تقنيات الاتصال التي جعلت من الكوكب الأرضي قرية كونية صغيرة؛ فإنّ هذه التحولات كما يقول جابر عصفور تفرض علينا إعادة النظر في الكثير من أفكارنا التي درجنا عليها... خصوصاً بعد أن تضافرت

العوامل السياسية، والاقتصادية، والثقافية مع آليات التحولات التقنية على نحو غير مسبوق في تاريخ البشرية كلها بوجه عام، وتاريخ وطننا العربي بوجه خاص، وهو وضع يحتم علينا معرفة المتغيرات، والصراعات، والأوضاع الجديدة بوعي عميق والتي لم نتكشف كاملة بعد.

لقد تعاضم في العصر الذي نعيش فيه دور التكنولوجيا، وأصبحت ضرورة من الضروريات التي لم يعد بإمكان الإنسان المعاصر اليوم الاستغناء على كثير من مكاسب التكنولوجيا الحديثة ومنجزاتها، حتى غدا التواصل بغير التقنية الحديثة أمراً مستحيلاً.

التقدم التكنولوجي المذهل، قد وضع في يد الغرب إمكانية تشكيل العالم، وإعادة ترتيبه، بما يتناسب مع المصالح الذاتية لهذا الغرب، لاسيما من خلال وسائل الاتصال الحديثة، التي تصب على رؤوس الشعوب، شللاً متدفقاً من القيم، وأنماط السلوك (الاستهلاكي)، والتي تحاول أن تشكك بأهمية القيم السائدة؛ بل إنها تعمل على تسفيها باعتبارها قيماً بالية، لا تتماشى مع التقدم، ومع الحضارة.

وهكذا يتحول الخطاب من مجرد خطاب إلى إستراتيجية أيديولوجية للسيطرة والهيمنة، وتتحول السلطة إلى تقنية خطابية تكسر فيها الثوابت، والمسلمات كما يذهب هابرماس.

ضرورة التحرر من القيم الموروثة، والتفاعل مع مقتضياته، والمساهمة في بناء قيمه لذلك يدعون إلى إعادة النظر في منظومات القيم الموروثة، أو السائدة، والتفكير في بدائلها في ضوء ما يجري في العالم من تحولات.

الأيديولوجية الرقمية ونقل الأسرة إلى مرحلة جديدة تتميز بالتحرر من الأيديولوجية الكلاسيكية: وتبقى المضامين الموظفة في وسائل التواصل الحديثة تمتاز في علاقتها بالحمية التقنية أنها تحل في طياتها أيديولوجيا لأن التقنية ليست شيئاً محايداً؛ بل هي جملة من الأدوات، والوسائل التي كرس نظاماً عقلياً للسيطرة، والهيمنة، فقد

أضحت التكنولوجيا إيديولوجيا قمعية لا تختلف عن الأنظمة الفاشية J.irgen Habermas إلا بميزة أساسية جعلت من العقل أداة لقمع الإنسان كما كان يعبر عنه هابرماس، ولعل كتابه - التقنية والعلم كإيديولوجيا- خير دليل على ذلك. إنّ الأيديولوجيا التقنية تتغذى من العمل المستمر لتغيب التأمل لدى الإنسان المعاصر بسبب انبهاره وافتتانه بالتكنولوجيا الحديثة.

إنّ الإستراتيجية التقنية التي بنيت على هدم، وتقويض الأسرة هزمت الأيديولوجية وفرضت منطقتها، فهل هي قادرة على إزاحة منطق الأيديولوجية إذا ما تعارضا، وهل أضحت مهمة منطق الأيديولوجية هي البحث عن صيغة للتعايش مع التكنولوجيا؟. لقد أسهمت التحولات التكنولوجية داخل الأنساق المجتمعية في بروز بعض المفاهيم التي لم تكن مطروحة في البيئات الكلاسيكية، وفي عصر نهاية الأيدولوجيا، وما بعد الحداثة، كلّ النظريات تنقل، ويختفي المركز؛ لذا كان بيير بورديو يطرح السؤال من يملك المعلومات، أو المعرفة، أو الأسس التكنولوجية يستعمل الأيدولوجيا.

الانحرافات الأسرية: لا يمكن الحديث عن مظاهر الانحرافات التي نراها اليوم دون الرجوع للدور التي تركته الأسرة حين تخلت عن دورها، وتركت أولادها، وبناتها فريسة للتكنولوجيا دون مراقبة، فشب جيل يعاني من عقد نفسية لا حدود لها، ومن سلوكيات مشينة تحطم الحياة؛ إنّ الجيل الذي يفقد جو الأسرة يفقد ميزان حياته ويصبح يعيش في فوضى خلقية، لقد أسهمت التحولات التكنولوجية التي عرفتها وسائط الإعلام، والاتصال الحديثة في تمدد وظائفها، وأصبحت تشارك مختلف الأنساق المجتمعية في تشكيل التصورات، والمفاهيم، والقيم.

إنّ عدم حسن استعمال التكنولوجيا خلق أجيالاً بأكملها لا تستطيع التعامل مع الناس، وفق القيم والأعراف، والعادات الاجتماعية ساهم في الهم الذي أصاب دعائم الأسرة.

التردي الاجتماعي: التردي الاجتماعي، والفوضى الجنسية، والخلقية التي زحفت علينا من الغرب، وهناك تقاليد

اجتماعية لابد من إعادة النظر فيها، لتستقيم مع ديننا وأحكامه الصحيحة.. وهى تقاليد تتصل بوضع المرأة وتكوين الأسرة وقد صدق تكهن نبيل علي عندما تحدث عن العوارات الاجتماعية التي سنكتشفها في نهاية الألفية الثانية، والوقوف على الخل الحاصل بحيث يتعذر معها التستر مهما بلغت قوة وسائل الإعلام الجديدة.

لقد شكلت التكنولوجيا فجوة كبير بين الإباء، والأبناء، وقضت على أشكال التواصل الأسري بحيث اختفت العلاقة القائمة على حرارة المشاعر، وصدق الأحاسيس والمحبة، وحلت محلها برودة المشاعر، والجمود، و النزعات... العنف، والاعتصاب والقتل...

يمر العالم بمتغيرات كبيرة شملت كل مناحي الحياة حتى وصفت هذه التغيرات العميقة، والتحولت الكبيرة التي حدثت في المجتمعات نتيجة للتدفق الحر للمعلومات بالثورات العملاقة الأمر الذي أدى إلى التفكير فيما ستكون عليه منظومة الأسرة في المجتمعات الإسلامية، والعربية في الحقبة الزمنية القادمة، إذ لم تسلم الأسر من آثار هذا التغيير خاصة في ظلّ ما بات يعرف اليوم بوسائل الإعلام الجديد؛ في الواقع يمثل التدفق الحر للمعلومات أبرز سماته حيث تؤثر هذه التكنولوجيا على الكثير من الأسر المسلمة المعاصرة من تحديات قيمية، وأخلاقية، وتشريعية، وقانونية.. لصياغة نماذج أسرية دخيلة لا تمت للقيم، والأخلاق والثوابت التي ينبغي أن تكون عليها الأسر في فوضى عارمة، والسعي لإعادة تأسيسها على المبادئ الجديدة في عالم لا يعرف الاستقرار، ودائم التغيرات، والتحولت، كلّ ذلك يدفع لإعادة النظر في الاستراتيجيات المعتمدة في تحصين الأسرة، لأنّه في اعتقادنا يبقى حماية الأسرة من أعظم الواجبات، فهي المدرسة الاجتماعية الأولى الحاملة لقيم، وثقافة، وتراث وعادات، ومعتقدات، وسلوكيات المجتمع.

إذا كان لكلّ عصر علامة فارقة، ومميّزة فإنّ هذا العصر هو مجتمع تكنولوجيا المعلومات لما يشهده من ثورة رقمية هائلة قد غيّرت كثيراً من المفاهيم، وزحزحت كثيراً من القناعات، والميولات، وغيّرت كثيراً من المرجعيات، والاتجاهات، والثوابت والمسلمات، والتي كانت تبدو ثابتة، ومستقرة، ونسفت كثيراً من النظريات والأطروحات، وأسقطت كثيراً من القناعات، والتيارات، نحن في زمن تغيرات فيه كثير من المعطيات، فلم يعد جيل اليوم يستقي مفاهيمه حول الأسرة من الكتاب والمصحف، والمسجد، ومن المدرسة، ومن الجامعة..؛ خاصة ما يراه من عمق التقنية إذ أصبحت في المدونات، ومواقع التواصل، والبرامج الافتراضية...، حتى غدت المعبود الذي لا يستغنى عنه، لذا تسعى هذه الورقة البحثية لتوجيه المساقات المعرفية لرسم صورة عن التحديات المتسارعة التي تواجه الأسرة المسلمة، والتي أثرت في فكرها، وثقافتها، وعقيدتها، وسلوكها...، وعملت على هدم قيمها، ومبادئها الإسلامية والإنسانية، وجعلتها تنوب، وتتصره، فقد تعرضت مؤسسة الأسرة للاهتزاز، والدمار حتى لم يصبح لها ملاذ، ومنأى عن سيطرة التكنولوجيا.

ففي زمان التكنولوجيا الذي أفضى لتداول المواقع، وفي ظلّ غياب مفهوم الأسرة المسلمة كما رسم صورتها التشريع الإسلامي، والذي استلزم حضور مفاهيم الأسرة كما تريدها العولمة، كلّ ذلك يدعونا لإعادة النظر في

مفهوم الأسرة في عصر المادية الكونية، والذي تحول فيه العالم لقريّة كونية لا مكان فيه للخصوصيات،

والمتعاليات، والمقدسات...، من شأنه أن يضع مفهوم الأمن الأسري الذي نبحث عنه- في زمان الاغتراب- في قلب التحولات العقديّة، والفكرية، والاجتماعية والفلسفية، والإيديولوجية للمجتمعات العربية، والإسلامية التي ضاعت في زمان الاستلاب الحضاري سواء في مرحلة الصراع مع الآخر في إثبات الهوية الأسرية للمجتمعات الإسلامية، أم في البحث عن هوية الأسر الغربية، ومفاهيمها، وسلوكياتها

التي اجتاحت المجتمعات الإسلامية، أم في سبيل البحث عن إعادة الاعتبار لمكانة الأسرة، ومن ثمّ النهوض بالمجتمعات الإسلامية، ويتسنى لنا إعادة دور الأسرة للحضور؟ لقد أصبح من الصعوبة بمكان على الأسر الإسلامية المعاصرة أن تعيش خارج الحداثة التكنولوجية دون أن تتأثر، أو تتدرج في مساراتها؛ لذا نسعى من خلال هذه المقاربة للوقوف على بض التحديات التي تواجه الأمن الأسري في ظلّ الطفرة التكنولوجية، خاصة في ظلّ سيادة مفهوم النهايات كصيغة جديدة للتعبير عن حالة الذهول الذي أصاب المجتمعات أمام التحولات التي يشهدها العالم المعولم اليوم نهاية الدين، ونهاية النصّ، ونهاية العولمة، ونهاية المتعاليات، ونهاية المقدسات، ونهاية العلم، ونهاية المدرسة، ونهاية الحداثة، ونهاية التاريخ، ونهاية الهوية، ونهاية الأسرة.. فهل ستختفي الأسر، وتصبح ليس لها وجود؟، وفي ظلّ سلسلة الجناز المتتالية، موت المؤلف، وموت القارئ، وموت الناقد، وموت النصّ، وموت الإله، وموت الهوية وموت الأسرة، فهل سيموت مفهوم الأسرة، ويختفي مع سيطرة التكنولوجيا؟؛ وهكذا أصبح خطاب النهايات بما يحمله من أيديولوجية أمراً واقعاً، إذ لا يجد الذين يوظفون مضامينه أي حرج في الترويج، والدعوة لمعطياته كلّ ذلك يدفع للتساؤل عن سرّ كلّ هذه المآتم، والجناز، فإجراءات التفكيك، وإكراهات التذويب الممارس على الأسر قد وصل إلى كلّ شيء، فتراهم يلغون الأسرة التقليدية، ويستبدلونه بالتمثلية الجنسية والميل الجنسي، وفوضى العلاقات الجنسية، والتخلص من الأجنة، والمواليد، وتشجيع الزنا، بحيث يصبح لا مجال لتكوين الأسرة، ولا لاستقرارها، وتتدرج منظومة الأسرة إلى الهاوية ممّا ينذر بظهور أشكال جديدة للأسرة، فلم يبق إلاّ العبث، ومن ثمّ كانت الحاجة ماسة إلى ضرورة التأسيس لمفهوم الأمن الأسري، والعمل على تجلية هذا المفهوم، والمحافظة عليه، وبهذا التوقيت بالذات، في خضمّ التغيرات التي يعرفها العالم اليوم .

تحولات القيم: إن الحديث عن إشكالية تحول القيم اليوم، لا يعدّ ترفاً فكرياً ولا مضيعة للوقت، بل هو واحد من المواضيع الأكثر حضوراً في الملتقيات، والندوات والمؤتمرات العالمية، والإقليمية، والمحلية، وذلك بالنظر لحجم التحولات التي جرت في السنوات الأخيرة والتي فاجأت وأدهشت الجميع، سواء أكاديميين أو باحثين أو مهتمين أو صحفيين أو صناع القرار السياسي أو غيرهم. ولعلنا لا نبالغ إذا ما أكدنا على خلاصة أساسية، وهي أن الصراع الجاري اليوم في العالم، يتجاوز ما هو مادي واقتصادي وعسكري، وتقني إلى ما هو قيمي ومعرفي بالدرجة الأولى. وقد سبق للعديد من، - الباحثين المشتغلين في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية-، أن أكدوا أن مستقبل الصراع في العالم سيكون في منظومات القيم وقد صدق تكهن نبيل علي عندما تحدث عن العوارات الاجتماعية التي سنكتشفها في نهاية الألفية الثانية والوقوف على الخل الحاصل بحيث يتعذر معها التستر مهما بلغت قوة وسائل الإعلام الجديدة.⁷⁷

وما أكثر التساؤلات حول المثاقفة وهي تؤسس لمنظومة أخلاقية جديدة خاصة في ضوء العولمة، و الخصوصية الثقافية ومدى قدرتها على التواصل مع الثقافات الأخرى فهل بإمكاننا أن نؤسس خطاباً عن الأخلاق يتجاوز النسبية الثقافية لي طرح أسئلة الأخلاق على العالم أجمع؟

وهل تستطيع المثاقفة ردم الفجوة بين واقعنا القائم على اللاتوازن بين الأخلاق الروحية، والأخلاق الاجتماعية، إذا كانت القيم في العصر الحالي فقدت وازعها الذاتي لدى الفرد، ما أخرجنا اليوم في ظل ثقافة المادة وقيم الدنيا، إحياء روح الأخلاق، روح لا تجمد على ثنائي الحلال والحرام، بل تتجاوزه لقيم أخلاقية بدأت بالنفاد من جعب مجتمعا.

الختامة: لا أتصور أن هناك مفكراً يتجاهل أهمية الثقافة كعنصر من عناصر التواصل بين الأمم ، ووسيلة لمواكبة الواقع، والاستفادة من منجزاته ، ومواكبة حركة المجتمعات والأفراد ، ولكن لا نريد أن يتحول مفهوم الثقافة الذي أتاحتها وسائل التواصل بشكل غير مسبوق من التفاعل الثقافي المبني على النزعة الإمبريالية الراغبة في الهيمنة، والسيطرة، ومحو الآخر، واستعباده، وفرض التبعية، والوصاية، والهيمنة عليه... إلى التفاعل الثقافي المبني على التسامح، والاحترام المتبادل، والندية والتكافؤ... إلى الشراكة، والاشتراك، وليس تبعية، واستلاب لأنّ الثقافة لا تتحقق إذا خلت من طرفين، واقتصرت على طرف واحد يضخ ثقافته في الاتجاه الآخر. نركز في هذه الدراسة على الثقافة الواعية التي لا تسعى لمحاولة إلغاء الخصوصيات الثقافية، والحضارية بالترغيب والترهيب .

إننا نعتقد أنّ الثقافة بين الأنا والآخر ضرورة تفرضها الرغبة في التأثير والتأثر بحثاً عن الحكمة، واسترشاداً بالرؤى النيرة، والأفكار الخلاقة من أجل تشييد بنية ثقافية متماسكة، وواعية بذاتها ، وعارفة ما لدى الآخرين من منجزات وأفكار يمكن توظيفها أو رفع المناعة ضدها ، لما لها من أثر في سلب الهوية ، وطمس معالم الخصوصية. وبمقتضى الطبيعة البشرية المبنية على النقص ، وعلى حبّ البحث عن الجديد ومعرفة الآخر قامت الثقافات البشرية على " الثقافة " فأثرت وتأثرت ، واختلفت درجات ذلك التأثير والتأثر باختلاف الرصيد الحضاري ، والشعور بقيمة الذات والحفاظ عليها ، فذابت ثقافات في نسيج ثقافات غالبية ، وفقدت هويتها ، كما حدث مع غالب ثقافات العالم الثالث ، ونجحت ثقافات أخرى في الثقافة ، عندما قامت على أسس محكمة، ويبقى الانفتاح، والثقافة مع الآخر ضرورة ملحة لا يمكن تجاوزها والقفز عليها، والاستفادة من المنجزات، والإبداعات، والفتوحات المعرفية للآخر تفرضها الثقافة باعتبارها أخذ ، وعطاء ، لكن علينا تجاوز الأخطاء التي وقع فيها

الفكر العربي المعاصر؛ كما يقول الجابري الذي تحول لمجرد ناقل، ووسيط لثقافة الأقوياء المهيمنين دون نقد، وتمييز.

النتائج:

- فنحن ليس ضد المثاقفة من حيث المبدأ ولكن ضرورة التفريق بين الانتفاع من دون ضوابط والانبهار لحد الاستلاب.

- لم تتجح المثاقفة في الأخذ والعطاء؛ بل حاولت انتزاع للثقافة بدلاً من المثاقفة. المثاقفة كانت أحادية الاتجاه

- المثاقفة الإيجابية التي تسعى لاستيعاب ما عند الآخر.

- نرفض سياسات الانغلاق كما نرفض سياسات الإلحاق، والمحو الثقافي.

- المثاقفة الغربية كانت تسعى لإعادة تنقيف قارة بأخرى.

التوصيات: توصي الدراسة

- ضرورة التدريب على اكتساب المهارات، والمقومات اللازمة لإقامة مثاقفة متكافئة مع الآخر.

- التخلص من العزلة.

- لم تعد المثاقفة تعرض بل تفرض، ولكن هذا الفرض لا يأتي من خلال استخدام العصا أو السيف، وإنما من خلال استغلال الإغراءات.

- النسق الأوروبي يتعرض لكثير من التحولات، والتشكلات، والنغيرات، فنقل

هذا النسق كما هو إلى النسق العربي قد لا يكتسب تداولاً سريعاً أو سليماً.

المصادر والمراجع:

- الآثار الكاملة: أدونيس، ط. الأولى، 1971م، دار العودة، بيروت.
- الأدب العام المقارن: باجو، دانيال هنري. ترجمة غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب دمشق 1997.
- الأدب العام المقارن: دانيال هنري باجو، ترجمة غسان السيد 1997، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- الأدب في عالم متغير: شكري عياد، الهيئة المصرية العامة لتأليف والنشر 1978 القاهرة.
- الإنسان ذو البعد الواحد: هربرت ماركوز، ترجمة جورج طرابيشي، ط3، 1988- دار الآداب، بيروت.
- أساس البلاغة: الزمخشري 1399هـ 1979م، دار الفكر.
- أسس النقد عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث: فهمي جدعان ط3، 1988 م دار الشروق، عمان.
- إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد المسيري، عبد الوهاب ط2 ، 1417 هـ - 1996 م، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية.
- الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب: الموصلي علي بن عدلان بن حماد بن علي الربيعي، تحقيق: د حاتم صالح الضامن، ط. الثانية، 1405هـ 1985م، مؤسسة الرسالة بيروت.
- تاج العروس من جواهر القاموس: مرتضى، الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين دار الهداية.
- تحرير العقل من النقل: سامر إسلامبولي، دار الأوائل سورية دمشق بلا تاريخ.
- التحرير والتتوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور 1997 م، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس .
- تفسير السمعاني: أبو المظفر السمعاني، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم1418هـ - 1997م، دار الوطن، الرياض السعودية.

- التّوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، ط. الأولى، 1410، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق.
- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري 1423 هـ / 2003 م، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: عبد الرحمن الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت.
- جامع البيان في تأويل القرآن: أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. الأولى 1420 هـ - 2000 م، مؤسسة الرسالة.
- حدّثة السّؤال بخصوص الحدّثة العربيّة في الشّعر والثّقافة: محمد بنيس، ط. 2، 1988 المركز الثقافي
- الحضارة الثّقافة المدنيّة دراسات لمسيرة المصطلح ودلالة المفهوم: نصر محمد عارف 1995، منشورات الفكر الإسلاميّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة، الدار العالميّة للكتاب الإسلامي، الرياض.
- حول العروبة والإسلام في الحوار القوميّ الدينيّ: البشري طارق 1989، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت.
- زهر الآداب وثمر الألباب: القيرواني، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، ط. الأولى 1417 هـ - 1997 م دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.
- سقوط آسيا صدمة المستقبل المتغيّرات: كالوم هندرسون، ترجمة: فريق 1999 م، بيت الأفكار الدوليّة عمّان.
- شبكات التّواصل الاجتماعيّ: د. فيصل معد عبد الغفار، ط. 1، 2005، الجنادرية للنشر والتّوزيع.
- مفهوم الثّقافة في العلوم الاجتماعيّة: دوني كوش، ترجمة: د. قاسم المقداد 2002 منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

- شرح صحيح البخاري: أبو الحسن بن بطلال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم 1423هـ - 2003م، ط. الثانية، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية.
- الشعرية العربية: أنونيس ط1 - 1985، دار الآداب، بيروت.
- صورة الآخر في شعر المتنبي: الخباز، محمد، ط 1، 2009، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت .
- العرب وعصر المعلومات: نبيل علي، عالم المعرفة، عدد184، 1994، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- عصر النبوية: كوزيل، ترجمة: جابر عصفور، ط.1، 1993، دار السعادة، الكويت.
- العلاقة مع الغرب من منظور الدراسات الإنسانية، كلية الآداب جامعة اليرموك، ط.1 - 2007، 2009 عالم الكتب اربد الأردن.
- العولمة الثقافية وموقف الإسلام منها، د. إسماعيل علي محمد، ط. الأولى 1421هـ - 2001م، دار الكلمة للنشر والتوزيع.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، ط. الأولى 1416 هـ - 1996 م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- في عالم الغد: ألفين توفلر، ترجمة: محمد ناصف، تقديم: الدكتور أحمد كمال أبو المجد 1990 م، نهضة القاهرة، مصر.
- الفصول المفيدة في الواو المزیدة: العلائي صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلاي بن عبد الله، تحقيق: حسن موسى الشاعر ط. الأولى، 1410هـ - 1990م، عمان.
- الفكر الإسلامي نقد واجتهاد: محمد أركون، ترجمة هاشم صالح ط3، 1998م، دار الساقي.
- لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد الخازن 1399هـ - 1979م دار الفكر، بيروت، لبنان.
- لبنات في المنهج وتطبيقه: د. عبد المجيد الشرفي، ط2، 2005، دار الجنوب للنشر تونس، ص:13.

- لسان العرب: ابن منظور محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ط. الأولى.
- اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم: رشيد بلحبيب، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، الهويات إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية ط. الأولى، 2013، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت.
- المتلاعبون بالعقول: هيربرت. أ. شبلر، ترجمة عبد السلام رضوان، 1419-1992 عالم المعرفة الكويت. -المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى- أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.
- مفاتيح الغيب من القرآن الكريم: الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي.
- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني دار المعرفة، لبنان.
- مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية: دوني كوش، ترجمة: د. قاسم المقداد 2002 منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- الملاحم الفكرية للحدثات: خالدة سعيد، مجلة فصول، مج الرابع، عد الثالث، 1984م القاهرة. - ندوة مواقف الإسلام والحدثات: مجموعة حدثيين، ط. 1، 1990 دار الساقى لندن.
- حوار متقافة مغايرة: جابر عصفور، ط. الأولى 1428-2008، الدار المصرية اللبنانية.
- نظام الخطاب: ميشال فوكو، ترجمة محمد سبيلا، ط. 2، 2007، دار التنوير، بيروت.
- وثيقة برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المنعقد بالقاهرة ، 15/9/1994م الترجمة العربية الرسمية، الفصل الثامن الفقرات.
- dictionnaire Arabe -Français T1 lutter avec un autre à qui e montrera plus ingénieux plus intelligent,
- Le nouveau système du monde (Actuel Marx) P. u. f, Paris, 1994.

الهوامش :

¹ سورة الروم، الآية:22.

² سورة المائدة، الآية: 48.

³ العلاقة مع الغرب من منظور الدراسات الإنسانية، كلية الآداب جامعة اليرموك، عالم الكتب اربد الأردن، ط.1، 2007، 2009، ص:335.

⁴ الحضارة الثقافة المدنية دراسات لمسيرة المصطلح ودلالة المفهوم: نصر محمد عارف، منشورات الفكر الإسلامي الولايات المتحدة الأمريكية، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، 1995 ص:34.

⁵ المصدر نفسه، ص:24.

⁶ ينظر: المورد الانجليزي العربي

⁷ dictionnaire Arabe –Français T1 lutter avec un autre à qui e montrera plus ingénieux plus intelligent,

⁸ مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية: دوني كوش، ترجمة: د. قاسم المقداد، 2002، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ص:96

⁹ ينظر: هريبت. أ. شبلر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة الكويت 1419- 1992، سقوط آسيا: كالوم هندرسون، ترجمة: فريق 1999 م، بيت الأفكار الدولية عمان، صدمة المستقبل المتغيرات في عالم الغد: ألفين توفلر، ترجمة: محمد ناصف، تقديم: الدكتور أحمد كمال أبو المجد 1990 م، القاهرة: نهضة مصر.

¹⁰ الأدب في عالم متغير: شكري عياد، الهيئة المصرية العامة لتأليف والنشر 1978، القاهرة ص:22.

¹¹ الحضارة، المتأقفة، المدينة (دراسة لمسيرة المصطلح ودلالة المفهوم): ناصر حامد عارف، المعهد العالي للفكر الإسلامي ، منشورات الولايات المتحدة الأمريكية، والدار العالية للكتاب الإسلامي الرياض، ص:78، ط.2، 1995

¹² انظر: الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب: الموصلي علي بن عدلان بن حماد بن علي الربيعي، تحقيق: د حاتم صالح الضامن، ط. الثانية، 1405هـ 1985م، مؤسسة الرسالة، بيروت ص:68، والفصول المفيدة في الواو المزيده: العلائي صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلاي بن عبد الله، تحقيق: حسن موسى الشاعر، عمان، ط. الأولى، 1410هـ 1990م، ص:79، وشرح

صحيح البخارى: أبو الحسن بن بطال البكري القرطبي، تحقيق : أبو تميم ياسر بن إبراهيم 1423هـ - 2003م، ط. الثانية، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية 568/6.

¹³ لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد الخازن 1399 هـ / 1979 م، دار الفكر، بيروت، لبنان 33/1.

¹⁴ التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور 1997 م، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس 200/2.

¹⁵ لسان العرب: ابن منظور محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ط. الأولى 19/9، تاج العروس من جواهر القاموس: مرتضى، الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية 63/23.

¹⁶ المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان، ص: 79، التوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، ط. الأولى ، 1410، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر ، بيروت، دمشق ص: 221.

¹⁷ المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة 98/1.

¹⁸ أساس البلاغة: الزمخشري 1399 هـ 1979 م، دار الفكر، ص: 74، تاج العروس من جواهر القاموس: مرتضى الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية 63/23،

¹⁹ زهر الآداب وثمر الألباب: القيرواني، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، ط. الأولى 1417 هـ - 1997 م دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان 181/2،

²⁰ انظر: مفاتيح الغيب من القرآن الكريم: الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي 499/15 والجواهر الحسان في تفسير القرآن: عبد الرحمن الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت 105/2، وجامع البيان في تأويل القرآن: أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر ط. الأولى ، 1420 هـ - 2000 م، مؤسسة الرسالة 23/14، و غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميران ط. الأولى 1416 هـ - 1996 م، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان 411/3،

²¹ سورة الأنفال، الآية: 57.

²² التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، 1997 م دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس 55/4.

²³ سورة الممتحنة، الآية:2.

²⁴ تفسير الثعالبي 4/ 290، والجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري 1423 هـ/ 2003 م، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية 54/18.

²⁵ تفسير السمعاني: أبو المظفر السمعاني، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم 1418 هـ - 1997 م، دار الوطن، الرياض السعودية 5/ 414.

²⁶ انظر نحو متقافة مغايرة : جابر عصفور، ط. الأولى 1428-2008، الدار المصرية اللبنانية ص: 240-241.

²⁷ انظر نظام الخطاب: ميشال فوكو، ترجمة محمد سبيلا، ط. 2، 2007، دار التنوير، بيروت ص: 49.

²⁸ نحو متقافة مغايرة : جابر عصفور، ، ص: 241.

²⁹ انظر: نحو ثقافة مغايرة: جابر عصفور، ص: 242.

³⁰ العرب وعصر المعلومات: د. نبيل علي، 1994، ص: 293.

³¹ الألب العام المقارن: دانيال هنري باجو ، ترجمة غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب دمشق 1997، ص: 111.

³² الإنسان ذو البعد الواحد: هريبرت ماركوز، ترجمة جورج طرابيشي، ط3، 1988 — دار الآداب بيروت، ص: 41 .

³³ اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم: رشيد بلحبيب، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، الهويات إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ط. الأولى، بيروت 2013، ص: 248.

³⁴ شبكات التواصل الاجتماعي: د. فيصل معد عبد الغفار، ط. 1، 2005، الجنادرية للنشر والتوزيع ص: 17.

³⁵ مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية: دوني كوش، ترجمة: د. قاسم المقداد 2002، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ص: 97.

³⁶ عصر البنيوية: كوزيل، ترجمة: جابر عصفور، ط. 1، 1993، دار السعادة، الكويت، ص: 411.

³⁷ مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ص: 99.

³⁸ سورة الحجرات، الآية: 13.

³⁹ سورة الحجرات، الآية: 13.

- ⁴⁰ سورة الأنعام، الآية: 148.
- ⁴¹ اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، ص: 34.
- ⁴² سورة المائدة، الآية: 48.
- ⁴³ سورة هود، الآية : 118-119.
- ⁴⁴ سورة البقرة، الآية: 256.
- ⁴⁵ حول العروبة والإسلام في الحوار القومي الديني: البشري طارق 1989، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص: 41.
- ⁴⁶ صورة الآخر في شعر المتنبي : الخباز، محمد. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط 1، 2009، ص: 22.
- ⁴⁷ إشكالية التحيّز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد المسيري ، عبد الوهاب.. منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2 ، 1417 هـ - 1996 م ، 1/615.
- ⁴⁸ المرجع نفسه، ص 813.
- ⁴⁹ الألب العام المقارن: باجو ، دانيال هنري. ترجمة غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب دمشق 1997، ص: 111.
- ⁵⁰ حداثّة السؤال بخصوص الحداثّة العربية في الشعر والثقافة: محمد بنيس، ط. 2، 1988، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص: 32.
- ⁵¹ ندوة مواقف الإسلام والحداثّة: مجموعة حداثيين، ط. 1، ، 1990 دار الساقى، لندن، ص 401.
- ⁵² لبنات في المنهج وتطبيقه: د. عبد المجيد الشرفي، ط. 2، ، 2005، دار الجنوب للنشر، تونس ص: 13.
- ⁵³ الشعرية العربية: أونيس ط. 1 - 1985، دار الآداب ، بيروت ، ص: 79.
- ⁵⁴ الفكر الإسلامي نقد واجتهاد: محمد أركون، ترجمة هاشم صالح ط3، 1998م، دار الساقى ص: 86.
- ⁵⁵ الملامح الفكرية للحداثّة: خالدة سعيد، مجلة فصول، مج الرابع، عد الثالث، 1984م القاهرة ص: 26.
- ⁵⁶ تحرير العقل من النقل : سامر إسلامبولي ، دار الأوائل سورية دمشق بلا تاريخ. ص: 1.
- ⁵⁷ انظر الآثار الكاملة: أونيس، ط. الأولى، 1971م، دار العودة، بيروت 1/ 413 .

⁵⁸ Le nouveau système du monde (Actuel Marx) P. u. f, Paris, 1994. P: 173

⁵⁹ فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، عمان، دار الشروق ط3، 1988 م، ص: 392.

⁶⁰ سورة الروم، الآية: 21.

⁶¹ سورة الروم، الآية: 21.

⁶² سورة الروم، الآية: 22.

⁶³ سورة الروم، الآية: 22.

⁶⁴ سورة الروم، الآية: 23.

⁶⁵ سورة الروم، الآية: 24.

⁶⁶ سورة الروم، الآية: 25.

⁶⁷ سورة الشورى، الآية: 32.

⁶⁸ سورة النحل، الآية: 72.

⁶⁹ سورة النساء، الآية: 21.

⁷⁰ سورة المائدة، الآية: 7.

⁷¹ سورة الأحزاب، الآية: 7.

⁷² سورة النساء، الآية: 1.

⁷³ سورة الأعراف، الآية: 189.

⁷⁴ سورة الروم، الآية: 21.

⁷⁵ العولمة الثقافية وموقف الإسلام منها، د. إسماعيل علي محمد، الطبعة الأولى 1421هـ -

2001م، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ص: 27

⁷⁶ وثيقة برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المنعقد بالقاهرة ، 1994/9/15م الترجمة

العربية الرسمية، الفصل الثامن الفقرات 31-35.

⁷⁷ انظر العرب وعصر المعلومات: نبيل علي، عالم المعرفة، عدد 184، 1994، المجلس الوطني

للثقافة والفنون والآداب، ص: 254.

إقرار المشترك من القيم الإنسانية في اتصال المؤسسات الدولية دراسة تحليلية على عينة من المواقع الالكترونية

د. رقية بوسنان

جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة.

مقدمة: إن الكتابة عن القيم الإنسانية المشتركة ونشرها عبر وسائل الإعلام الالكترونية من الأهمية بكان، وتزداد هذه الأهمية بكون وعائها الحامل لها يتجاوز الحدود المحلية والاقليمية ليصل بها إلى العالمية حيث يتم تعميمها على الجماهير العريضة باختلاف سماتها السيكولوجية والاجتماعية والدينية والثقافية.

وتعد المؤسسات الدولية السياسية والثقافية والدينية وما تتوفر عليه من وسائل إعلامية واتصالية من اهم روافد وآليات نشر القيم الإنسانية المشتركة، التي لا يختلف عليها مجتمع أو حضارة، تشمل هذه القيم: السلام، والعدل، والحرية والتسامح، والتعايش والحوار، وترفض هذه المؤسسات كل ما يسيء للإنسانية من عنف، وتطرف، وحرب، وعنصرية، وظلم، واستعباد.

وقد شمل البحث عينة من المواقع تشمل، موقع الأمم المتحدة باعتبارها منظمة عالمية تسعى للدفاع عن الشعوب والحد من التوتر بين الدول في دواورها الكبرى أو الصغرى، حيث يشاهد تحركها في مناطق الحروب والصراع التي تشتعل في ظل التناقض في الرؤى السياسية والأمنية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي.

تتنوع وتتعدد لغة هذه المواقع حيث يمكن للمتصفح اختيار اللغة التي يفهمها للتعامل مع الموقع وما يوفره روابط تشعبية تحيل إلى الخدمات الإنسانية والاجتماعية، والتي يمكن أن انطلق منها لتحديد القيم المشتركة التي تسعى إلى تعميمها في الزمان والمكان في ظل متغيرات دولية متوترة، تتحول مع حياة الأفراد إلى جحيم في معظم الأحيان خاصة في مواقع التوتر والحروب.

تستخدم الورقة في إطار عنوانها إلى تحليل الصفحة الأولى من المواقع والتي توفر التصور شبه كلي عن الموضوعات والقضايا المثارة عبر الأخبار والتحليلات والتقارير التي توفر مادة هامة عن موضوع البحث، وقد تضطر الباحثة إلى استخدام الروابط التشعبية للإطلاع على التفاصيل التي تخدم الموضوع مباشرة وتدعم هذه الموضوعات عادة، بعناصر عرض مثل الصور، والفيديوهات التي تسهل وتعمق من عملية نشر القيم المشتركة، بالإضافة إلى نوع اللغة التي تنتشر بها، وسوف يتناول الدراسة وفقا للمحاور الآتية:

أولا: مفهوم القيم الإنسانية وأهميتها في عالم متغير

ثانيا: دور وسائل الإعلام في نشر القيم الإنسانية

ثالثا: الدراسة التحليلية لمواقع المنظمات الدولية

أولا: مفهوم القيم الإنسانية وأهميتها في عالم متغير

1- مفهوم القيم الإنسانية: تتنوع مفاهيم المفكرين حول القيمة ويمكن إعطاء

بعض التعريفات كالآتي:

- هي بمثابة اتجاه النظر من خلال الواقع أو هي ميزان للواقع بالنسبة للفاعل ومشاعره ورغباته واهتماماته وأهدافه وحاجاته وأفعاله، فهي تعبر عن تقديره أو عدم تقديره للواقع¹.

- "هي كل ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته لاعتبارات اقتصادية أو سيكولوجية أو اجتماعية أو أخلاقية، فهي بالمعنى الواسع ما يجعل أي شيء جديرا بأن يطلب أو يتحقق"².

- وقيمة الشيء من الناحية الذاتية هي الصفة التي تجعل ذلك الشيء مطلوبا ومرغوبا عند شخص واحد أو عند طائفة معينة من الأشخاص، ويطلق لفظ القيمة من الناحية الموضوعية على ما يتميز به الشيء صفات تجعله مستحقا للتقدير كثيرا أو قليلا، فإن كان مستحقا للتقدير بذاته كالحق والخير والجمال كانت قيمته مطلقة

وإن كان مستحقا للتقدير من أجل غرض معين كالوثائق التاريخية والوسائل التعليمية كانت قيمته إضافية³.

- الحكم الذي يصدره الإنسان على شيء ما مهتديا بمجموعة من المبادئ والمعايير التي وضعها المجتمع الذي يعيش فيه، والذي يحدد المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك، وقد بلور "كلاكون" المعاني السابقة في قوله: "القيمة مفهوم تجريدي ظاهر أو ضمني يميز الفرد أو الجماعة للمرغوب فيه الذي يؤثر على اختياراتنا من عدة بدائل لطرق ووسائل وأهداف السلوك" والمرغوب فيه هو الذي يوجه السلوك نحو الأفضل أو الأصوب أو الأجل⁴.

- مجموعة الأحكام المعيارية المتصلة بمضامين واقعية يتشربها الفرد من انفعاله وتفاعله مع المواقف والخبرات المختلفة، ويشترط أن تنال هذه الأحكام قبولا من جماعة اجتماعية معينة حتى يتجسد في سياقات الفرد السلوكية.

وهي تعني في الإسلام الحكم الذي يصدره الإنسان المسلم على شيء ما مهتديا بمعايير شرعية تحدد المرغوب فيه والمرغوب عنه من منطلق القرآن والسنة فالعقيدة هي منبع القيم وهي ثابتة بثباتها⁵.

ويقصد بالقيم الإنسانية على محتوى البحث، بأنها معايير للتعامل الإنساني في المجالات المختلفة، الاجتماعية، السياسية والاقتصادية، والتربوية والإعلامية ونشرها عبر مواقع المؤسسات الدولية.

2- أهمية القيم الإنسانية في عالم متغير: إن أهمية دراسة القيم لا تقف داخل نطاق الفكر الفلسفي وحده بل تتعداه، فالقيم من المفاهيم الجوهرية في جميع ميادين الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية والإعلامية، وهي تمس العلاقات الإنسانية بكافة صورها.

ويمر العالم بتغيرات مختلفة، ويوحى السياق بأن ثمة تفوق واضح للغرب في إدارة المرحلة الراهنة، بكل الوسائل والأساليب، ويحاول فرض منظومة قيمه

بإبراز أهميتها في جميع المجالات، وضرورة اعتناقها من أجل حياة أفضل، ولعل في انتشار قيم الحرية وحقوق الإنسان، والامن والعدل والسلام، والحوار والتعايش، والتعاون، ما يؤكد هذا التوجه وإن كان يخفي في أجندته ما يعطل تفعيلها من وجهة نظري.

ويروج الغرب لهذه القيم عبر وسائل الإعلام المختلفة في مختلف المؤسسات ومنها الدولية، كالأمم المتحدة والبنك الدولي، ومنظمة التجارة، ولست بصدد مناقشة الجوانب السلبية وأثارها على المجتمعات الإسلامية والعربية، فالموضوع محدد بالبحث عن القيم المشتركة في إعلام هذه المؤسسات بالتجاوز مع المؤسسات الدولية الإسلامية ومنها منظمة التعاون الإسلامي، ويمكن حصر أهمية هذه القيم في مجالات مختلفة كالآتي:

أ_ أهمية القيم الإنسانية في المجال الاجتماعي: تعتبر القيم في هذا المجال ضرورة اجتماعية، فهي تتغلغل في الأفراد في شكل اتجاهات، ودوافع، وتطلعات وتظهر في السلوك الظاهري الشعوري واللاشعوري، وفي المواقف التي تتطلب ارتباط هؤلاء الأفراد، وتعبّر القيم عن نفسها في قوانين وبرامج التنظيم الاجتماعي والنظم الاجتماعية⁶.

وتعمل القيم في هذا المجال كمعايير للضبط الاجتماعي، من خلال ما تقوم به من وظائف في حياة الفرد والمجتمع واستقرار النظم الاجتماعية، وهي تشمل بهذا التكافل والتعاون، والاحترام، والتسامح، ويضع القرآن الكريم منظومة القيم ولأهميتها في إطار من القداسة، ويعتبرها الطاقة الكبرى لترقية الإنسان والمجتمع والعالم وضبط حركته على الأرض، والترقية هنا تشمل ضمير الفرد وضمير الجماعة أيضا كما تشمل أيضا دوافع العمل والحركة لبناء الذات وعمارة الأرض وتحسينها من الانحراف ، فالقيمة ثابتة بذاتها ومتحركة في إطار الفهم والتطبيق ولا يمكن لأي مجتمع أن يسير للأمام من دون حصانة قيمية، ولعل الإصابات

والتحولات التي طرأت على منظومة القيم⁷، هي من أسباب السقوط في الآفات الاجتماعية المختلفة.

إن تخلي الإنسان عن هذه القيم يفقده معنى وجوده في مجتمعه وفي الحياة وأن ما تحض عليه الديانات السماوية هو أن يكون الفرد هو ذاته أينما كان و أن يجتهد في صنع القيم الإيجابية ويعمل على توكيدها، وعند فقدان هذه القيم يكون قد فقد هويته الذاتية، إذ أن الحكم الأخلاقي واتخاذ القرار يجب أن يكونا متأصلين في قدرة الإنسان على التقييم ، وبمقدار ما يحمل المرء في نفسه وتكوينه من قوة وأصالة فإنه يتمكن من تحديد معالم الواقع الذي يعيشه والذي تنعكس فيه القيم، فمن واقعه هذا يتلقى المسببات الأساسية التي تتيح له نسج مقومات القيم الراسخة ، ومن خلال ذلك يستطيع أن يتعلم حدود مسؤوليته الأخلاقية والاجتماعية ، وبممارسة الفرد نشاطه فإنه يتسنى له أن يختار طريقة تحديد وتأکید ما يسعى إليه من أهداف تحكم وعيه الإدراكي، مما يؤهله في المآل من استبان السبل المفضية إلى كيفية بناء القيم الإيجابية وتعزيز مكانتها⁸.

تدفع هذه القيم، الإنسان إلى تغيير واقعه وحاله ليتطلع إلى الكمال المنشود، فهو المخلوق الوحيد الذي يتميز عن غيره من الكائنات بالشعور الواعي والإدراك العاقل بما ينبغي أن يفعله وما ينبغي عليه فعله⁹.

ب- أهمية القيم الإنسانية في المجال السياسي: تتضمن القيم السياسية على المستوى الداخلي، مهارات صنع القرار حول القضايا العامة والمشاركة في الشؤون العامة، وهي تعزز في نفوس الناشئة المعتقدات والقيم السياسية التي تمثل حجر أساسي للنظام الديمقراطي ومنها الاعتراف بالحقوق لكرامة الفرد وواجب كل المواطنين نحو دعم المؤسسات التي تجسد الاحساس المشترك بالعدل والمساواة وسيادة القانون¹⁰ ، بينما تتضمن على المستوى الخارجي مهارات التعامل الدولي

وتفعيل العلاقات الدولية وفقا للقوانين والاتفاقيات التي يجب ان تحترم من جميع الدول.

ويمكن القول أن المجال السياسي من أهم المجالات التي يطرق فيها مبحث القيم، وهو مجال متعدد الحقول، لاعتبار الممارسات السياسية الدولية أو المحلية ومن شأن المعايير المصنفة داخله أن تؤدي إلى ضبطها وترشيدها، وتشمل الأمن والعدل والسلام والاستقرار، والحوار، واحترام القانون الدولي، وحقوق الإنسان وهي تعدل من الغلو الملحوظ والتطرف المنتشر، والمصالح المادية التي تسود العلاقات الدولية، والتي تحولت معها حياة الأفراد إلى معاناة دائمة، تشيع معها مظاهر الانقسام والحروب والثورات التي أدت إلى هدم البنى الأساسية في الدول المستضعفة وهي في جلها تنتمي إلى العالم العربي والقارة الافريقية عموما.

إن التغول الذي فرضته العولمة السياسية عبر المنظمات الدولية، تجعل الباحث يسأل عن جدواها في تهذيب السلوك الدولي وكشف الاجندة الاجنبية التي تمارس السياسة الاقصائية أو ذات المعايير المزدوجة في ترويج القيم لدى مختلف الدول فالحديث مثلا عن حقوق الانسان كقيمة سياسية انسانية، تختلف من مكان إلى مكان، فهي مفعلة في العالم الغربي، ومثبطة في العالم العربي، فلا نشعر إلا بالتوتر إزاء تطبيقها كما هو حال الأمم المتحدة في إعلامها الذي تعرب فيه دائما عن قلقها لانتهاكها.

ويعد طرح القيم في هذا المجال، دعوة إلى التخلي عن ازدواجية التعامل مع الانسان في أي مكان، فلا يمكن الحديث عن سلام وعدل واستقرار وأمن واحترام حقوق الإنسان في بيئات سياسية، وصرف النظر عنها في بيئات اخرى، فالحال هو في تفاعل هذه البيئات، والأثر والتأثر يكون إيجابيا بانتشار القيم الإيجابية، ويكون سلبيا بانتشار نقيض هذه القيم، فالارهاب والتطرف، والعنف وانتهاك حقوق

الانسان يمكن أن تتعدى البيئة المنتشرة فيها إلى بيئات تظن انها بمنأى عنها، وقد شاركت في صناعتها ورعايتها عبر مخابر سياسية وأمنية لا يسع المجال لذكرها.

ج- أهمية القيم الإنسانية في المجال الاقتصادي: يبدو ان توصيف واقع هذا الجانب الحيوي أو عصب الحياة يتطلب تركيزا خاصا لا تسعه هذه الورقات، ومع هذا يمكن عطاء التصور الكلي لهذا الواقع بعيد عن الجزئيات والتفاصيل، فالواقع أن حال الاقتصاد اليوم يوحي ان التفوق هو لصالح الدول الغربية، التي تكارس كل الضغوط لإبقاء التخلف في الدول الإسلامية والعربية والتي تعاني من مشاكل متعددة، ومنها مشكلة الديون، وانخفاض العملة، والاستثمار، والعمالة وغيرها، ولا يمكن ان يحدث التغيير إن لم تتمكن مجتمعة ان تنهض باقتصاد قوي يضمن استقلاليتها من كل الجوانب.

وتقوم القيم الاقتصادية وعلى رأسها قيمة التنمية بدور فاعل لتحرير الدول المتخلفة من التبعية، فهي التي تفي باحتياجات الأجيال الحالية دون المساس بقدرة الأجيال القادمة على الوفاء باحتياجاتهم، وللتنمية أبعاد مختلفة، ومجالات متعددة تمكن من خلال التخطيط والتنظيم وقيم العمل والاتقان إلى تجاوز الافات المختلفة كالفقر والبطالة والتخلف.

وحتى وإن ظهرت قيم أخرى مصاحبة لها ومنها المساعدات الغذائية التي تقرها المؤسسات الدولية في برامجها، إلا انها ظاهرة غير صحية تحول دون التفكير في تحسي الازواضع الاقتصادية خاصة في الدول التي تضررت من الأزمات التي ألمت بها، كالتقسيم وانتشار الحروب، بسبب الاطماع الغربية المجسدة في مشاريع لا تسمح بالنهوض الاقتصادي.

إن إشاعة القيم الاقتصادية، تعني الحث على الإنتاج والتسيير بفاعلية لتحقيق شروط التقدم العلمي والثقافي عن طريق تسخير جميع الإمكانيات الأولية والإمكانيات المستوردة، "وتوجيه نمو الفرد الإنساني وجهة ترتضيها الجماعة

ويتعارف عليها الناس ويقرها النظام السائد في التعامل الاقتصادي، خاصة فيما يتعلق بجانب الإنتاج والاستهلاك، بوصفهما الركيزة الأساسية لحياة الأفراد والمجتمعات¹¹.

د- أهمية القيم الإنسانية في المجال التربوي: تعد التربية من أهم المفاهيم التي ركزت عليها البحوث الاجتماعية وتناولتها الأقسام بالدراسة والتحليل كونها أحد أبرز العوامل التي تهدف إلى بناء الشخصية الفردية والجمعية والأمية والحضارية، فهي منبع أصيل للقيم الانسانية والإسلامية على حد سواء.

وبدل مفهوم التربية على مفهوم التغيير في السلوك وعلى تطوير التربية وفق التطور التكنولوجي، ودور التربية الفعال يتمثل في إثراء الخير كأساس لنمو نظم إجتماعية تربوية تتلاءم مع تغيير النظم الثقافية¹²، فهي وسيلة وهدف وجهد اجتماعي، وهي تنمية وتهذيب ومشاركة وسلوك، وتغيير وتطوير للفرد والمجتمع. وتتنوع القيم في هذا المجال لتشمل، حب الوطن، ومحاربة الجهل، والمحافظة على البيئة، والتعليم، وهي القيم التي تعمل على تطوير الأداء المتعلق بالفرد وتوفير بيئة صحية لتنشئته، ومنها الارتقاء بالعمل في الحقل التربوي.

هـ- أهمية القيم الإنسانية في المجال الاعلامي: يحوز المجال الإعلامي على اهتمام واسع من طرف الباحثين، خاصة بعد التطور الذي شهدته وسائله والتي حولت العالم إلى قرية، وانتشرت معها مفاهيم متعددة وممارسات مختلفة، إيجابية وسلبية، وتعد وسائل الإعلام الوعاء الحامل لمختلف القيم المصاحبة للمعلومة سواء كانت أخباراً أم آراء، ومن أهم القيم الإعلامية التي ركزت الأدبيات الإعلامية على دراستها، قيم الحرية، والموضوعية، والمصداقية، والعدالة، وهي تختلف من نظام إعلامي إلى آخر، وقد حرصت في هذا البحث على التركيز على الإيجابية لتجاوز نقيضها مما يشيع حالياً في وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل التواصل السريع من القذف والتحريض والشتم والسب والاستهزاء وانتهاك الخصوصية.

وتحت جميع موانئ الشرف والقوانين الإعلامية على مسؤولية الكلمة والارتقاء بها لبناء مجتمعات يسودها الاستقرار، والابتعاد عن المعلومات المغرضة والشائعات التي تقوض البناء الاجتماعي وتهدد أفرادها، خاصة في ظل التدفق الأحادي الاتجاه الذي يتفوق فيه العالم الغربي في صناعة المعلومة والترويج لها.

ثانيا: دور وسائل الإعلام في نشر القيم الإنسانية

- **الوظيفة الإخبارية:** ومن خلالها يتم عرض المعلومات الآنية والحديثة التي تتضمن مختلف القيم الإنسانية، ، حيث يلفت الخبر كفن إعلامي إلى المادة الخام التي تنشر هذه القيم يتعلق بها، ويعطي مجالا للتحليل والتعليق والتقرير حولها تقوم هذه الفنون بإثراء مناقشة الجانب القيمي في أجندة المؤسسات الدولية والتركيز على أهميتها واستشراف مستقبلها في ظل عالم متغير، تحاول بعض أطرافه فرض منطق القوة وازدواجية المعايير في التسيير.

وتحاول هذه الفنون الإعلامية نقل المشترك من القيم التي تؤمن بها المؤسسات الدولية، وتعميمها في الزمان والمكان، لمحاصرة ومغالبة المشكلات والأزمات التي تعصف بإنسانية الإنسان، وتهدم بنى مجتمعاته، لتحل الفوضى ويحل العنف والتطرف، والتي أصبحت صورا للحياة اليومية لمجتمعات هي الآن بمثابة ساحات للقتال والحروب، كما أريد لها داخليا وخارجيا.

- **الوظيفة الإعلانية:** وهي وظيفة هامة للغاية في التسويق للقيم الإنسانية، تقوم على العرض الفني للمحتوى، مدعما بالصور الثابتة أو المتحركة، ويسهم في توضيح الصورة الحقيقية عن أنواع القيم، التي تعمل المؤسسات المختلفة على دعمها من أجل حياة أفضل، وتراهن الكثير من الجهات على الاعلان لكسب الدعم من الجمهور المشاهد، واعتناقها والامتثال لها.

ويسهم الإعلان عبر أساليبه في إبانة الوضع الحقيقي للمجتمعات التي قدر لها أن تكون مسرحا للأزمات، فالصور المصاحبة تغني عن آلاف الكلمات، وهي تنقل

بدقة الانتهاكات الدولية لما تسميه حقاً للحياة الكريمة عبر صور الدمار والأشلاء والجوع والفقر، والجهل، وهذا من شأنه أن يحرك مشاعر كل المنظمات الدولية التي تسعى من خلال برامجها الارتقاء بالإنسان في كل مكان.

- **الوظيفة التثقيفية:** تشمل الثقافة في صيغتها الأنثروبولوجية على منظومة العقائد والمعايير والقيم والتصورات المشتركة والعادات والأخلاق، كما تشمل على مختلف موضوعات الحياة اليومية، وهي في جوانبها السيكلوجية تعبر عن كل مكتسب من المبادئ الثقافية والتصورات الجمعية والنماذج والرموز المرجعية¹³.

وتتم الوظيفة التثقيفية عن طريق عرض برامج عامة او متخصصة تشيع القيم في جوانبها المادية والروحية، وتعمل على ترسيخ وغرس المعلومات المتعلقة بها لدى الأفراد، ومنها نشر الوعي بمدى الجدوى منها على كل المستويات، وتحرص هذه البرامج على معالجة موضوعات القيم بطريقة احترافية، يكون فيها مستوى التحليل دقيقاً، باعتبار عمق الموضوع وتشعبات طرحه.

وتتعدد البرامج الثقافية من ناحية العرض، فهي تشمل البرامج الفنية، والبرامج الوثائقية، والبرامج الفكرية، والبرامج التراثية، وهي حبلى بأنواع القيم الإنسانية التي تعبر عن تقاطع الحضارات وتعايشها، بعيداً عن دعاوى الصراع والتنظير لها، من طرف أعلام الغرب، كهنتغتون، وفوكوياما، وبرنارد لويس، وبعيداً عن سياسات الاستئصال التي تمارسها حكومات بعض الدول الكبرى.

- **الوظيفة التعليمية:** تسعى من خلالها الجهة الإعلامية المسؤولة على تعليم الأفراد كل ما يتعلق بمجال القيم الإنسانية، فتتحول إلى ممارسة من طرف الأفراد ويعتقها عن دراية مسبقة، فيزال اللبس عن تقاطعها بأشكال قد تتشابه معها، كما يزال عن طرق نشرها بالطرق المشروعة التي وضعت لها، وقد صار عقد الندوات العلمية وبثها عبر الشبكات الاجتماعية ديدن العديد من الجهات التعليمية خاصة على مستوى التعليم العالي.

يتشارك في هذه الوظيفة المؤسسات التربوية، والمؤسسات المدنية، والمؤسسات الدينية، وكلها تحرص على تنشئة الأفراد وفقا لمنظومة قيمية لا تتعارض مع أعراف وعادات المجتمع، كما لا تتعارض مع التوجه العالمي والقانوني في ترتيب سلم القيم الإنسانية، والدفاع عنها وضرورة احترامها من الجميع وخاصة على المستوى السياسي الذي يشهد تناقضا واضحا في توجهاته القائمة حاليا، إذ نشهد فوضى تطبيق القيم وتداولها، وإن أقرتها المنظمات الدولية في موثيقها.

- **الوظيفة التوجيهية:** تعمل على توجيه مدارك الأفراد إلى فهم أهمية القيم في المجتمعات، والإسهام في تطوير تصوراتها في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية، والإعلامية، وتؤمن هذه الوظيفة ضرورة أن يسلك الأفراد الوجهة الصحيحة في اعتناقها وتمثلها في السلوك، ومن شأن هذه الوظيفة أن تعمل على نشر الوعي بين الأفراد للمحافظة على استقرار مجتمعاتهم وأمنها، بدل الانصات لدعوات الانقلاب والتفرق وإحلال لغة العنصرية.

ثالثا: الدراسة التحليلية لمواقع المنظمات الدولية

1- توصيف عينة الدراسة:

- **منظمة الأمم المتحدة:** الأمم المتحدة هي منظمة دولية انشئت في عام 1945، وتتكون حتى الآن من 193 دولة عضو. وتسترشد الأمم المتحدة في مهمتها وعملها بالأهداف والمقاصد الواردة في ميثاق تأسيسها، ونظرا للصلاحيات المخولة في ميثاق المنظمة وما تتمتع به من طابع دولي فريد، فإن بإمكان الأمم المتحدة العمل على قضايا تواجه الإنسانية في القرن الـ21، مثل قضايا السلم والأمن وتغير المناخ والتنمية المستدامة وحقوق الإنسان ونزع السلاح والإرهاب وحالات الطوارئ الصحية والإنسانية والمساواة بين الجنسين و الحوكمة وإنتاج الغذاء وغيرها كثير.

وتتيح الأمم المتحدة لأعضائها منتدى للتعبير عن وجهات نظرهم من خلال الجمعية العامة ومجلس الأمن والمجلس الاقتصادي والاجتماعي وغيرها من الأجهزة واللجان. ومن خلال تيسير الحوار بين أعضائها، واستضافة المفاوضات كذلك، أصبحت المنظمة آلية للحكومات لإيجاد مجالات الاتفاق وحل مشاكلها مع بعضها بعضاً.

- **منظمة التعاون الإسلامي:** تُعد منظمة التعاون الإسلامي ثاني أكبر منظمة حكومية دولية بعد الأمم المتحدة، حيث تضم في عضويتها سبعة وخمسين دولة موزعة على أربع قارات. وتمثل المنظمة الصوت الجماعي للعالم الإسلامي وتسعى لحماية مصالحه والتعبير عنها دعماً للسلام والانسجام الدوليين وتعزيزاً للعلاقات بين مختلف شعوب العالم.

وقد أنشئت المنظمة بقرار صادر عن القمة التاريخية التي عُقدت في الرباط بالمملكة المغربية في 12 من رجب 1398 هجرية (الموافق 25 من سبتمبر 1969 ميلادية) ردّاً على جريمة إحراق المسجد الأقصى في القدس المحتلة.

عُقد في عام 1970 أول مؤتمر إسلامي لوزراء الخارجية في جدة بالمملكة العربية السعودية، وقرر إنشاء أمانة عامة يكون مقرها جدة ويرأسها أمين عام للمنظمة. ويعتبر الدكتور يوسف بن أحمد العثيمين الأمين العام للمنظمة الحادي عشر، حيث تولى هذا المنصب في نوفمبر 2016.

وجرى اعتماد ميثاق منظمة التعاون الإسلامي في الدورة الثالثة للمؤتمر الإسلامي لوزراء الخارجية في عام 1972. ووضع الميثاق أهداف المنظمة ومبادئها وغاياتها الأساسية المتمثلة بتعزيز التضامن والتعاون بين الدول الأعضاء. وارتفع عدد الأعضاء خلال ما يزيد عن أربعة عقود بعد إنشاء المنظمة من ثلاثين دولة وهو عدد الأعضاء المؤسسين، ليلبلغ سبعة وخمسين دولة عضواً في الوقت الحالي. وتم تعديل ميثاق المنظمة لاحقاً لمواكبة التطورات العالمية، فكان اعتماد الميثاق

الحالي في القمة الإسلامية الحادية عشرة التي عُقدت في دكار، عاصمة السنغال عام 2008 ليكون الميثاق الجديد عماد العمل الإسلامي المستقبلي بما يتوافق مع متطلبات القرن الحادي والعشرين.

وتتفرد المنظمة بشرف كونها جامعة كلمة الأمة وممثلة المسلمين وتتاصر القضايا التي تهم ما يزيد على مليار ونصف المليار مسلم في مختلف أنحاء العالم. وترتبط المنظمة بعلاقات تشاور وتعاون مع الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الحكومية الدولية بهدف حماية المصالح الحيوية للمسلمين، والعمل على تسوية النزاعات والصراعات التي تكون الدول الأعضاء طرفاً فيها. واتخذت المنظمة خطوات عديدة للدفاع عن القيم الحقيقية للإسلام والمسلمين وتصحيح المفاهيم والتصورات الخاطئة، كما ساهمت بفاعلية في مواجهة ممارسات التمييز ضد المسلمين بجميع صورها.

2- تصنيف فئات الدراسة: اعتمدت الباحثة في تقسيم انواع القيم على المجالات المختلفة، الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية والإعلامية وركزت على انواع صحفية بعينها وأهمها الخبر والمقابلات، بالإضافة إلى مواقع التواصل الاجتماعي، كاليوتيوب في موقع الأمم المتحدة، واليوتيوب وتويتر في موقع منظمة التعاون الإسلامي، واستخدمت وحدة الكلمة والمعنى في تحديد هذه القيم، ثم تم عرضها في الجداول التكرارية، حيث يتم قراءتها كيفيا، كما أضافت الباحثة عناصر لتدعيم هذه القيم من الأشكال التحريرية، والوسائط الاتصالية وانواع اللغة المستخدمة.

جدول رقم 1: أنواع القيم المشتركة في موقعي المنظمتين

أنواع القيم		الأمم المتحدة		منظمة التعاون الإسلامي	
		ت	%	ت	%
اجتماعية		14	11.86	07	25.92
السياسية		64	54.24	10	37.04
اقتصادية		26	22.03	07	25.92
التربوية		14	11.86	03	11.11
المجموع		118	100	27	100

يشير الجدول إلى أنواع القيم التي تتضمنها اخبار ومقابلات الموقعين، بالإضافة إلى مواقع التواصل الاجتماعي المتمثلة في اليوتيوب وتويتر، والملاحظ ان النسب تختلف من نوع إلى اخر وتتساوى في بعضها، وقد جاء القيم السياسية في الترتيب الأول في الموقعين، ويعود ذلك إلى طبيعة المرحلة التي تمر بها الدول وخاصة التي تنتمي للعام الثالث، ومنها الدول العربية كسوريا، وليبيا واليمن، وجاء القيم الاقتصادية في الترتيب الثاني بالنسبة لموقع الامم المتحدة، وتساوت مع القيم الاجتماعية في موقع منظمة التعاون الإسلامي، ويرجع هذا الترتيب إلى كون الاقتصاد قطاع هام يخضع للمتغيرات السياسية، ويتأثر بمنظومة التسيير داخل العوالم المتخلفة أو النامية مما يجعل التركيز كله في هذه العوالم.

جدول رقم 2: أنواع القيم الاجتماعية في موقعي المنظمتين

أنواع القيم الاجتماعية		الأمم المتحدة		منظمة التعاون الإسلامي	
		ت	%	ت	%
التسامح		01	07.14	02	28.57
التعاون		07	50.00	04	57.14
التكافل		03	21.43	01	14.28
الكرامة		03	21.43	-	-
المجموع		14	100	07	100

يشير الجدول إلى أنواع القيم الاجتماعية، في موقعي المنظمين، وتتباين فيما بينها من حيث الترتيب، فنجد قيمة التعاون في الترتيب الأول وهي القيمة التي تظهر في تعاون المنظمات الدولية والمؤسسات السياسية في مجال تطوير المجتمعات وتقديم المساعدات، بينما جاءت بقية القيم بنسب متقاربة، وحلت قيمة التسامح في الترتيب الأخير بالنسبة لموقع الأمم المتحدة، وقيمة التكافل في موقع منظمة التعاون الإسلامي.

جدول رقم 3: أنواع القيم السياسية في موقعي المنظمين

المنظمات		الأمم المتحدة		منظمة التعاون الإسلامي	
أنواع القيم السياسية		ت	%	ت	%
الامن		10	17.86	03	33.33
الحرية		02	03.57	01	11.11
السلام		06	10.71	02	22.22
المساواة		03	05.36	-	-
الاستقرار		08	14.28	02	22.22
الحوار		04	07.14	01	11.11
حقوق الانسان		14	25.00	-	-
احترام القانون الدولي		09	16.07	-	-
المجموع		56	100	09	100

تتعدد أنواع القيم السياسية في الجدول وتتفاوت نسبها من قيمة لأخرى، خاصة في موقع الأمم المتحدة، وتتطابق معظمها في موقع منظمة التعاون الإسلامي فجاءت قيمة حقوق الإنسان في الترتيب الأول بالنسبة لموقع الأمم المتحدة، ويفسر ذلك بكون انه المجال الاهم الذي تنشط به ويظهر في مواثيقها بشكل جلي نظير التطرف والحروب التي تسود مناطق التوتر ومنها المنطقة العربية وبعض دول

افريقيا، فقد وردت هذه القيم في سياق تشريح الوضع في اليمن وسوريا وليبيا بينما جاءت قيمة الأمن في الترتيب.

جدول رقم 4: أنواع القيم الاقتصادية في موقعي المنظمين

المنظمات أنواع القيم الاقتصادية		الأمم المتحدة		منظمة التعاون الإسلامي	
	ت	%	ت	%	
التنمية	09	34.61	03	42.86	
المساعدة(الغذاء)	15	57.69	04	57.14	
الرفاهية	01	03.85	-	-	
العمل	01	03.85	-	-	
المجموع	26	100	07	100	

يشير الجدول إلى اهم القيم الاقتصادية التي تحاول المنظمات إبرازها في موقعها، إلا أنها ظهر بشكل كبير في موقع منظمة الامم المتحدة، حيث ترد فيها الكثير من المعلومات على شكل تقارير واخبار وهي محينة على غرار منظمة التعاون الإسلامي، وكما هو واضح فقد حلت قيمة المساعدة في الترتيب الاول في الموقعين، هذه القيمة تركزت في المساعدات الغذائية التي تقدم لفقراء العالم، ومنهم فقراء الدول الافريقية على وجه التخصيص وبعض الدول غير المستقر كاليمن.

وجاءت في الترتيب الثاني قيمة التنمية التي تركزت في الخطط التي يجب على دول العالم الثالث الالتزام بها لتطوير مجالات بعينها ومنها مجال الانتاج، ومجال المرأة، هذه القيمة وبالرغم من تعدد ورودها والحديث عنها، إلا اننا لم نرى لها أثرا على أرض الواقع، خاصة في بعض الدول الفقيرة من افريقيا، والسبب بالتحديد يعود إلى الاستعمار ونفوذه واستغلال ثرواتها من غير العمل على التوزيع العادل للثروة، وتعد الدعوة لها من باب التوجيه وليس من باب التفعيل.

جدول رقم 5: أنواع القيم التربوية في موقعي المنظمين

المنظمات أنواع القيم التربوية		الأمم المتحدة		منظمة التعاون الإسلامي	
ت	%	ت	%	ت	%
حب الوطن	—	—	—	—	—
مكافحة الجهل	01	07.14	—	—	—
المحافظة على البيئة	06	42.86	—	—	—
التعليم	04	28.57	03	100	—
الاحترام	03	21.43	—	—	—
النظافة	—	—	—	—	—
المجموع	14	100	03	100	—

بالنظر إلى القيم التربوية على مستوى الجدول، فإنها وردت بشكل قليل في موقع الأمم المتحدة وبشكل شبه منعدم في موقع منظمة التعاون الإسلامي، بالرغم من أهمية هذا المجال وقيمته في ترشيد المجالات الأخرى، فالتربية لم يعد مفهوما ضيقا مرتبطا بعملية توجيه سلوك الأفراد، إنما هو مفهوم جامع ومانع لتنشئة مستمرة تعمل على تطوير وتنمية المجتمعات.

وقد جاءت في الترتيب الأول قيمة المحافظة على البيئة الذي اقترنت بتغير العوامل الطبيعية ومنها تغير المناخ والكوارث، حيث حثت منظمة الأمم المتحدة على ضرورة الاهتمام بالبيئة وإنقاذها من العوامل والتغيرات الطبيعية عن طريق وضع مخططات لذلك، وجاءت في الترتيب الثاني قيمة التعليم، فأشار الموقعين إلى ضرورة وضع خطة واضحة لتعميم التعليم وإصلاح المؤسسات التعليمية خاصة في المناطق التي تشهد التوتر.

جدول رقم 6: أنواع القيم الإعلامية في موقعي المنظمتين

منظمة التعاون الاسلامي		الأمم المتحدة		المنظمات أنواع القيم الإعلامية
%	ت	%	ت	
—	—	66.66	02	المصادقية
—	—	33.33	01	الحرية
—	—		—	الالتزام
—	—		—	الحياد
—	—		—	العدالة
—	—	100	03	المجموع

ألاحظ من خلال الجدول غياب الاهتمام بالقيم الإعلامية في موقعي المنظمتين بالرغم من أهميتها، فالعصر عصر إعلام واتصال بامتياز، والدعوة للاهتمام به من الأولويات، فهذا المجال مسؤول عن تحرير المعلومة وتوجيه إدراك الشعوب وإطلاعها على القضايا والأحداث التي تسيطر على الساحة الدولية والتي تخلق أحيانا علاقات التوتر بسبب تحريف المعلومات، وتضخيمها والحرص على الإثارة فيما لا يخدم القيم الانسانية في مجموعها، ومع ورود قيمتين في موقع الأمم المتحدة كالمصادقية والحرص على المعلومات الجادة، وقيمة الحرية، فهو باب التنبيه لاغير.

جدول رقم 6: العناصر المدعومة لتسويق القيم المشتركة

المنظمات		الأمم المتحدة		منظمة التعاون الإسلامي	
		ت	%	ت	%
مواقع التواصل الاجتماعي		06	24.00	22	42.31
الصور		07	28.00	14	26.92
البيانات		04	16.00	12	23.08
الوثائق		08	32.00	04	07.69
المجموع		25	100	52	100

تستخدم المنطمتان مختلف العناصر الداعمة لنشر القيم الإنسانية، فتأتي الوثائق في الترتيب الاول بالنسبة لمنظمة الأمم المتحدة، تليها الصور، ثم مواقع التواصل وأخيرا البيانات وذلك بنسب متقاربة، بينما يأتي في الترتيب الأول مواقع التواصل الاجتماعي وتحديدًا تويتر في موقع منظمة التعاون الإسلامي وبنسبة مئوية كبيرة تليها الصور ثم البيانات، وأخيرا الوثائق، ويخضع هذا الترتيب تحديدا لحجم العينة المستخدمة، كما يرجع إلى أولوية المنظمة في هذا الاستخدام من أجل نشر القيم ودعمها.

جدول رقم 7: أنواع الأشكال التحريرية المتضمنة للقيم

المنظمات		الأمم المتحدة		منظمة التعاون الإسلامي	
		ت	%	ت	%
الأشكال التحريرية					
الأخبار		63	86.30	21	56.76
التقارير		01	01.37	02	05.40
المقابلات		03	04.11	12	32.43
القصص المصورة		06	08.22	00	00
المقالات		00	00	02	05.40
المجموع		73	100	37	100

تتعدد أشكال التحرير الإلكتروني في موقعي المنظمتين، وهي الأشكال المساعدة على نشر القيم وتدعيمها وتعميمها، ويعد الخبر من أهم هذه الأشكال حي جاء في الترتيب الأول، ويعد هذا النوع العمود والمنطلق لبقية الأشكال حيث تأخذ منه المادة الخام، وتعيد صياغتها وفقا للقوالب الأخرى، وعادة ما يحمل الخبر سواء كان قصير أو مركبا أنواع القيم وبشكل مفهوم وبسيط ومحدد، ويتفوق موقع منظمة الامم في نشر الأخبار وتحيينها على موقع منظمة التعاون الاسلامي، ويتسم بمواكبة المعلومات المتعلقة بمناطق التوتر تحديدا بالرغم من العناوين الدائمة والمستقرة على إبداء قلق المنظمة من الاحداث فيها.

جدول رقم 8: أنواع اللغات التي يستخدمها موقع المنظمة

المنظمات		الأمم المتحدة		منظمة التعاون الاسلامي	
أنواع اللغة		ت	%	ت	%
العربية		1	25.00	1	33.33
الانجليزية		1	25.00	1	33.33
فرنسية		1	25.00	1	33.33
لغات اخرى		10	25.00	0	00
المجموع		13	100	03	100

تتعدد اللغات في موقع منظمة الامم المتحدة، حيث تشمل 10 لغات، وهي تسعى بذلك نحو تعميم نشر القيم باستخدامها، من خلال المحتوى الموحد المتواجد على الموقع، وهو محتوى ثري من ناحية المعلومات والصور والوسائط المتعددة، بينما يكتفي موقع منظمة التعاون الإسلامي على نشر المحتوى بثلاثة لغات هي العربية والفرنسية، والانجليزية، وهو برأيي تقصير واضح، فهناك لغات أقوى يتم عن طريقها تعميم القيم التي تسعى المنظمة نحو نشرها، بدل من اللغة الفرنسية تحديدا.

نتائج الدراسة:

- يعد نشر القيم الإنسانية عبر موقعي المنظمتين، من الأهمية بمكان في ظل المتغيرات الدولية التي يعيشها العالم، وتعيشها مناطق التوتر والحروب، ومن شأن نشرها أن يخفف من ذلك.

- ينشر موقع المنظمتان قيما إنسانية مختلفة ومتعددة المجالات، ومنها: قيم الامن والسلام، والمساعدة، والتنمية، وهي القيم التي يمكن أن ترتقي بوضع المجتمعات التي تعاني الفقر والتخلف بسبب الحروب وازدواجية المعايير في التعامل مع الأزمات التي تطغى على الساحة العربية

- يختلف الموقعان في نسبة نشر القيم الإنسانية، ويعود ذلك حجم التغطية الإعلامية، فنجد موقع منظمة الامم المتحدة قد تفوق بشكل كبير في ذلك، ويفسر الأمر بكون المنظمة أقدم من حيث النشأة ولديها خبرة واسعة وطويلة في التعامل مع قضايا حقوق الإنسان، والمطالبة باحترام القوانين الدولية، حتى وإن تجاوزتها الدول الكبرى التي تميل إلى فرض القوة والردع في التعامل مع العالمين العربي والإسلامي.

- يعمل الموقعان على نشر القيم الإنسانية في الدول التي تعاني الحروب مشاكل الفقر والجوء، ومنها الدول الأفريقية، وبعض الدول العربية، كاليمن وسوريا وليبيا، وما تنشره المنظمتان من قيم لا يكفي بالنظر للأوضاع الخطيرة التي تمر بها هذه الدول.

- تعتبر القيم السياسية من أكثر القيم نشر على الموقعين لطبيعة المرحلة التي تعيشها المجتمعات العربية، وتمثلت أهمها في احترام القانون الدولي، واحترام حقوق الإنسان، الذي تتجاوزه بعض الدول من أجل حماية مصالحها، والذي يحول دون تفعيل هذه القيم التي تدعوا لها المنظمات الدولية عبر وسائل إعلامها.

- يتواني الموقعان عن نشر القيم الإعلامية والاتصالية، بالرغم من أهميتها الراهنة، حيث أصبحت وسائل الإعلام والاتصال التقليدية والحديثة، أوفقا للدعاية وإثارة المشاكل، والتركيز على الاخبار الوهمية والسلبية لخلق المزيد من التوتر داخل المجتمعات التي تعاني من التششت والتمزق.
- يستعين الموقعان بأهم الوسائط الاتصالية من شبكات التواصل الاجتماعي والصور، والبيانات والوثائق، لتدعيم المعلومات الصادقة، وإضفاء حتمية مواصلة نشر القيم الإنسانية والدعوة لها وفرض منطق الاحتكام للقوانين الدولية.
- يعتمد الموقعان على فنون تحريرية متعددة، تسهم في دعم نشر القيم وتعميمها عبر الزمان والمكان، والتأكيد على ضرورتها في بناء حياة أفضل للإنسان، ويعد الخبر من أهم الفنون الذي تروج لهذه القيم باعتباره خصائصه الفنية المتمثلة في الجدة والآنية والتحديث المستمر.
- يترجم الموقعان المادة المتوفرة إلى عدة لغات، وخاصة موقع الأمم المتحدة الذي ينتشمل على عشرة منها، للتأكيد على قيمة المحتوى ومحاولة إبلاغه إلى العديد من الدول، وهو ما تفتقد منظمة التعاون الإسلامي.

خاتمة: تؤكد الورقة على أهمية موضوع البحث في دور وسائل المنظمات الدولية في خدمة القيم الإنسانية، التي بات نشرها ضرورة سياسية واقتصادية واجتماعية وتربوية وإعلامية في كل انحاء العالم، وخاصة العالم العربي والافريقي التي تعيش بعض دوله مظاهر التخلف والفقر والجوع والتطرف.

وتسعى المنظمات الدولية عبر وسائل الإعلام الحديثة إلى التسويق للقيم الإنسانية، لخلق فرص الشراكة والتعاون الدوليين بالطريقة الصحيحة، بعيدا عن دعوات الإقصاء والعنصرية ضد الشعوب التي لم تتخلص من التبعية المفروضة للدول الكبرى عبر مخططات التقسيم والتهجير واختلاق ظاهرة الإرهاب للتستر على الأجندة الغربية.

وتحاول المنظمات الدولية أن تعمل جاهدة على إقرار القيم المشتركة من تعاون وحوار واحترام حقوق الإنسان، والتنمية، والمساعدات الغذائية، ومحاربة التطرف بكل أشكاله، وتسعى إلى ضرورة تعاون المجتمع الدولي في تطبيقها وفقا لما تنص عليه القوانين والمواثيق، مع التسليم بوجود الضعف على مستوى التنفيذ، بسبب تبعية هذه المنظمات إلى دول بعينها عن طريق نسبة التمويل.

وتأمل الباحثة عن طريق هذه الدراسة الاستكشافية إلى ضرورة الاهتمام الجاد والفاعل بمسألة نشر القيم الإنسانية عبر مواقع ووسائل إعلام المنظمات الدولية لتحويل الأوضاع الكارثية التي تعيشها دول العالم الثالث، وتحديدًا بعض الدول العربية والافريقية، إلى أوضاع مستقرة تخدم الفرد والمجتمع والأمة وترتقي به إلى حياة أفضل.

المراجع

1. الكيس مكشيللي: الهوية، ترجمة علي وطفة، دار النشر الفرنسية، 1993.
2. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973.
3. سعاد جبر سعيد: القيم العالمية وأثرها في السلوك الإنساني، ط1، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، 2008.
4. صلاح الدين بسيوني، القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990.
5. طارق عبد الرؤوف عامر، المواطنة والتربية الوطنية، ط1، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع، 2011.
6. عبد الغني عبود: التربية الاقتصادية في الإسلام، ط1، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1992.
7. فائزة أنور أحمد شكري: القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002.
8. فوزية دياب: القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.
9. محمد الشناوي وآخرون: التنشئة الاجتماعية للطفل، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، مكتبة الرازي العلمية، الإمارات العربية، دت.
10. منير سرحان، في اجتماعيات التربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
11. والف بارنر بيرري: آفاق القيمة، ترجمة عبد المحسن عاطف سلام، مكتبة النهضة، القاهرة، 1967.

مواقع الانترنت

12. موقع الامم المتحدة:
<https://www.un.org/ar/sections/about-un/overview/index.html>
13. موقع منظمة التعاون الإسلامي:
https://www.oic-oci.org/page/?p_id=56&p_ref=26&lan=ar

الإحالات:

- ¹فايزة أنور أحمد شكري: القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم، دار المعرفة الجامعية، مصر 2002، ص 11.
- ²والف بارنر بيرري: آفاق القيمة، ترجمة عبد المحسن عاطف سلام، مكتبة النهضة القاهرة، 1967، ص 13.
- ³جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973، ج2، ص 212، 213.
- ⁴محمد الشناوي وآخرون: التنشئة الاجتماعية للطفل، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع الأردن، مكتبة الرازي العلمية، الإمارات العربية، دت، ص 200.
- ⁵سعاد جبر سعيد: القيم العالمية وأثرها في السلوك الإنساني، ط1، جدارا للكتاب العالمي الأردن، 2008، ص 17-19.
- ⁶فوزية دياب: القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص 16.
- ⁷سعاد جبر سعيد: مرجع سابق، ص 31.
- ⁸المرجع السابق: ص 35.
- ⁹صلاح الدين بسيوني، القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، 1990، ص 5.
- ¹⁰طارق عبد الرؤوف عامر، المواطنة والتربية الوطنية، ط1، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع 2011، ص 127-129.
- ¹¹عبد الغني عبود: التربية الاقتصادية في الإسلام، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1992، ص 80.
- ¹²منير سرحان، في اجتماعيات التربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 16.
- ¹³الكيس مكشيللي: الهوية، ترجمة علي وطفة، دار النشر الفرنسية، 1993، ص 27، 28.

سبل النهوض الثقافي في فكر مالك بن نبي

داه. زياني محمّد

جامعة الجزائر 2.

مقدّمة: لقد زخر الفكر العربي ولا يزال بقامات وعمالق كتبوا أسماءهم بماء الذهب، ملئوا الدّنيا وشغلوا النّاس، وهبوا حياتهم وأقلامهم من أجل النهوض بالإنسان وإنسانيته، وإذا ذكرنا على سبيل الإشارة فقط، سنذكر حتماً هشام جعيط من تونس، محمّد العابد الجابري من المغرب، إدوارد سعيد من فلسطين، زكي نجيب محمود من مصر، علي الوردي من العراق، حسن الترابي من السودان مالك بن نبي من الجزائر... وغيرهم كثير، إلّا أنّ هذا الأخير - أقصد مالك بن نبي - فقد اتّخذته مجالاً للدراسة لأنّه تطرّق لمسألة مهمّة ألا وهي النّقافة والّذي استطاع وبقدرة عجيبة أن يجعل منها نظريّة عُرف بها في العالم العربي، واكتسبت شهرة بين المؤلّفين الذين ظلوا يرجعون إليها، ويعرفون بها في كتاباتهم.

ويرى أسامة خضراوي في مقال له بعنوان "مالك بن نبي بين أسئلة النهضة ومشكلات الحضارة" أنّ هذه النّظرية لا تزال تجذب الاهتمام وتستوقف نظر الباحثين والمشتغلين في حقل النّقافة والدراسات النّقافية، وذلك لأهميتها وطبيعتها المتميزة من جهة، ولقلة ونذر وشح السالكين في هذا الميدان كتابةً وفكراً من النّقافة العربية الإسلامية من جهة ثانية، ولكون هذه النّظرية من النظريات المبكرة والجديدة في مجالها من جهة ثالثة لأن: «... المسألة النّقافية هي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري، على اعتبار أنّ الحضارة هي محصلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية، وهذه السنن لا يمكن أن يصل إليها الإنسان، إلّا عبر عالم ثقافي سليم ومنسجم وفعال، يتيح له امتلاك منهج البحث

عنها، والوصول إلى إدراك آليات عملها من جهة، ومنهج الاستفادة منها في تحقيق الترقى الحضاري المنشود من جهة أخرى...»⁽¹⁾.

ومن المؤكد أن كل ما تقدّم يستدعي طرح جملة من الإشكاليات:

1- كيف عرف مالك بن نبي الثقافة، وما هي نظريته للثقافة الغربية؟

2- هل الثقافة تتطور وتتجدد أم هي ثابتة لا تتغير؟

3- ما هي العناصر الأساسية التي تشكل الثقافة؟

4- هل الثقافة الإسلامية كفيلة بأن تقدّم منجزاً حضارياً إنسانياً؟.

كلّ هذه الأسئلة سيحاول البحث أن يجيب عنها بنوع من الشرح والتفصيل.

1- مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي وموقفه من الثقافة الغربية (الماركسيّة

والاشتراكية): قبل أن يدلف مالك بن نبي في إعطاء مفهوم للثقافة، نجده ينطلق أولاً

من نقده للمفهومين في النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي، فالأول يقدر الجانب

النفسي وبالتالي الفردي، معتبراً الثقافة قضية الإنسان⁽²⁾، أما الثاني فيقدّم الجانب

الاجتماعي ذاهباً إلى أن الثقافة قضية المجتمع، إذ هو يمثل في نظرهم صورة

اشتراكية بالمعنى التكويني للكلمة⁽³⁾. ويقرّ مالك بن نبي من خلال هذه الرؤية

«أننا إذا أخذنا بوحدة من هذه التعريفات انتهى بنا الأمر إلى نظريات عرجاء، إنه

يؤدي إلى تعريف متطرف يتسم بالغلو وإلى نزعة إقليمية ثقافية⁽⁴⁾».

ومن هنا ينطلق مالك بن نبي في تعريفه للثقافة بجمعه بين النظريتين، ويُقرّ بأنّ

الثقافة تشمل فلسفة الإنسان وفلسفة المجتمع في آن واحد، ولذلك نجده يقول:

«فالثقافة إذن تعرف بصورة عملية على أنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم

الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي يشكل فيه

الفرد طباعه وشخصيته⁽⁵⁾».

ويضيف: «وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يُحدّد مفهومها فهي المحيط

الذي يعكس حضارة معينة والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضّر.. وهكذا

نرى أنّ هذا التعريف يضمّ بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أيّ مُعطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع أخذنا بعين الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد تحدّثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية عندما يؤنّ فجر إحدى الحضارات⁽⁶⁾».

والثقافة تتدخل في شؤون الفرد، وفي بناء المجتمع، وتعالج مشكلة القيادة فيه كما تعالج مشكلة الجماهير⁽⁷⁾.

فالثقافة هي الدّم في جسم المجتمع يغذيّ حضارته ويحمل أفكار النخبة، كما يحمل أفكار العامة، وكلّ من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة، والاتجاهات الموحّدة والأنواع المتناسبة⁽⁸⁾.

إنّ الثقافة «علاقة متبادلة، هي العلاقة التي تحدّد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدّد أسلوب الحياة بسلوك الفرد⁽⁹⁾».

وخلاصة القول، وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الثقافة، صار بإمكاننا الآن أن نعطي مفهوما جامعا مانعا للثقافة تمثّله المعادلة الرياضيّة التّالية:

الثقافة = فلسفة الإنسان + فلسفة المجتمع + الشرارة الروحية

2- تطوّر الثقافة وتجدها: إنّ الثقافة عند مالك بن نبيّ تتجدّد وتتطوّر فهي حركة مستمرة (صيرورة)⁽¹⁰⁾، وهناك تجديد مزدوج للثقافة، أحدهما سلبي والآخر إيجابي، أمّا التجديد السلبي فأشار إليها مالك بن نبيّ قائلا: «ولعلّ أثر هذه النظريّة قد لوحظ في الثقافة الغربيّة في عهد نهضتها، حين كان (توماس الأكويني) ينقيها - ولو عن غير قصد منه- لتكون الأساس الفكري للحضارة الغربيّة، ولم تكن ثوريّة ضدّ ابن رشد وضدّ القديس أوغسطين إلّا مظهرا للتّجديد السلبي حتّى يستطيع تصفيّة ثقافته ممّا كان يراه فكرة إسلاميّة أو ميتافيزيقيّة للكنيسة البيزنطيّة أمّا التّجديد الإيجابي فيقدّمه قائلا: وأتى بعده (ديكارت) بالتّجديد الإيجابي الذي رسم

للتّافة الغربيّة طريقها الموضوعي، الطّريق الذي بني على المنهج التجريبي والذي هو في الواقع السّبب المباشر لتقدّم الحضارة الحديثة تقدّمها المادي⁽¹¹⁾».

والحضارة الإسلاميّة نفسها قامت - في نظر مالك بن نبيّ - بعملية التّجديد هذه من ناحيتها السّلبية والإيجابية، إلّا أنّ الحضارة الإسلاميّة قد جاءت بهذين التّجديدين مرّة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم الذي نفى الأفكار الجاهليّة البالية، ثمّ رسم طريق الفكرة الإسلاميّة الصّافية التي تخطّط للمستقبل بطريقة إيجابية⁽¹²⁾، وهذا العمل نفسه ضروريّ اليوم للنّهضة الإسلاميّة، والتّجديد السّليبي إذن هو محاولة لتحطيم عللنا وعوامل انحطاطنا، أمّا التّجديد الإيجابي فليس منه وضع منهاج جديد للتّفكير، وإنّما المقصود رسم طريق الفكرة الإسلاميّة وإبراز عناصرها الجوهرية حتّى يسير المسلمون وفقا في بناء مستقبلهم وحضارتهم⁽¹³⁾.

إذن في ضوء التّجديد المزدوج للتّافة فإنّ «من واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدينا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، ممّا فيه من عوامل قاتلة ورمم لا فائدة منها، حتّى يصفو الجوّ للعوامل الحيّة والدّاعية للحياة، ولن تتأتّى هذه التّصفية إلّا بفكر جديد يحطّم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع يبحث عن وضع جديد هو وضع النّهضة⁽¹⁴⁾».

وبالإضافة إلى هذا، فإنّ لكلّ ثقافة مجالها ووجودها الخاص بها، ويمكن تقسيمها على النّحو الآتي:

أ-ثقافة المجتمع: إنّ لكلّ ثقافة وجودها الخاص الذي تزداد معه قدرتها على التّمييز كلّما تغيّر المستوى الاجتماعي لجانبي الموازنة...إنّ فروق السلوك تزداد بصورة مذهلة بين فردين من مجتمعين مختلفين، أمّا الموازنة بين فردين في مجتمع واحد فتؤدّي إلى اتّصافهما بسلوك واحد لأنّ جذور شخصيتهما تغور في أرض واحدة هي المجال الرّوحي للتّافة الإسلاميّة⁽¹⁵⁾، ويورد مالك بن نبي مثلا عن الوجود الخاص بكلّ ثقافة فيقول: «إنّ المتفرّج الأوروبي عامّة يفكر في حدّ

من الحساسية الجمالية، بينما المتفرّج المسلم يفكر في جوّ من الحساسية الأخلاقية ومن أجل هذا لا يمكن أن يتشابه سلوكهما أمام المشهد الواحد⁽¹⁶⁾».

ب- ثقافة الذاتية: هناك مقاييس ذاتية للثقافة هي التي تحدّد انتماء الفرد إلى نمط ثقافة معينة. وبالتالي تحدّد سلوكه خلفيّة كان بدويًا أو طبّيبًا أو راعيًا، وهذه المقاييس الذاتية لا يختارها الفرد فينتقيها بناء على عملية واعية (فالراعي مثلاً والطفل لا يمكن أن نتوقّع منهما عملية اختيار واعية لهذه المقاييس الذاتية) بل هو يستنشقه في محيط حياته وفي مجاله الروحي الذي يحوّط وجوده المعنوي كما يتنسّم الأوكسجين في مجاله الحيوي الذي يحوّط وجوده المادي⁽¹⁷⁾.

وفي نظر مالك بن نبي فإنّ إثراء هذه الذاتية لا يقتصر على الأشخاص والأفكار التي تكوّن المجال الروحي فإنّ لدينا حواراً آخر مع الطبيعة التي تنقل إلينا رسالتها مكتوبة بأبجدية ملغزة عي أبجدية الألوان والأصوات والروائح والظلال والأضواء والأشكال والصّور، هذه العناصر الطبيعيّة ذاتها تتجمّع في نفسيّتنا ثمّ تذوب وتهضم في صورة عناصر ثقافيّة تندمج في وجودنا الأخلاقي وفي بنائنا الأساسي⁽¹⁸⁾.

وهكذا يبدو أنّ الثقافة تشتمل في معناها العام على إطار حياة واحدة يجمع بين راعي الغنم والعالم جمعا توحد معه بينهما مقتضيات مشتركة⁽¹⁹⁾.

ج- ثقافة البيئة: تعدّ البيئة بمثابة الرّحم بالنسبة إلى القيم الثقافيّة، الأمر الذي يمكننا ضمن تعريف إجمال أولي من أن نعتبر الثقافة نفسها كبيئة مكوّنة من الأصوات والألوان والأشكال والحركات والأشياء المألوفة والمناظر والصّور والأفكار المتفشية في كلّ اتجاه... فنحن لا نتلقّى الثقافة وإنّما نتنفّسها ونتمثّلها بنفس الطريقة التي يتمّ بمقتضاها تنفّسنا وتمثّلنا الأوكسجين⁽²⁰⁾.

د- ثقافة التعايش: وهو تعايش مجتمعين فأكثر متشابهين في النّموذج (أي من حيث تعايش ثقافة مجتمع مع ثقافة مجتمع مجاور يشتركان معا في النّموذج)، فقد

حدث أحيانا أن أحدثت طبيعة الأشياء (تراكيب مهمّة) على حدود ثقافتين دون أن يسعى الإنسان إليها ودون أن يريدها، إذن بالإمكان استحداث تركيب أرحب بين ثقافتين أو ثلاث لها حدودها المشتركة على الخريطة، ولذلك درس مالك بن نبي في كتابه فكرة الإفريقية الآسيوية إمكانية تركيب ثقافتين هما الثقافة الإسلامية والثقافة الهندية من أجل تحديد عمل ثقافي على مستوى إفريقي-آسيوي، يشتركان أساسا في النزعة المعادية للاستعمار وإنقاذ الإنسان من البؤس والفاقة على محور طنجا-جاكارتا، وفق إحداث ميثاق أخلاقي بينهما ليتخذوا وجهة دولية واحدة، ذلك أن الأديان لا يمكن أن تتنازل كيما تستغل كوسائل لمثل هذه الغايات⁽²¹⁾.

هـ-ثقافة العالمية: إن تفاؤل مالك بن نبي في هذه النقطة بالذات جعله يقرّر أنّه على الرّغم من أنّ الثقافة في المستوى العالمية نظام ثنائي خلفه لنا القرن التاسع عشر، إذ أوجد نوعين من النّاس يختلفان اجتماعيا: نوع كان ولا يزال مستعمرا ونوع كان ولا يزال مستعمرا، وعلى الرّغم من أنّ «جميع المشكلات الكبرى للعالم الرّاهن ترد نفسيا وسياسيا واقتصاديا إلى هذا النظام الثنائي الذي يترتب عنه أولا السباق الخطر في مجال القوة بين الدّول المتقدّمة بهدف الرّقابة على الجماهير وعلى المساحات التي تملكها الشّعوب المتخلّفة، ويترتب عنه ثانيا أحقاد مستحكمة فنحن نعيش هذا الصّراع اليوم في جميع أشكاله في انتظار ساعة التّركيب التي تصهر النزعتين: نزعة القابليّة للاستعمار ونزعة الاستعمار في السّلام العالمي⁽²²⁾».

ولا نريد الإطالة في هذا العنصر بالذات لأنّه سيجد مجالا أوسع وأرحب من التفصيل والتّوضيح في العنصر الأخير من هذا البحث.

ولكن السّؤال الآن الذي يطرح بعد هذه الإطالة الموجزة حول تطوّر الثقافة ومجالاتها المتعدّدة: ماهي العناصر التي تدخل في تحقيق الثقافة وتطبيقها عمليّا؟ وما هي الثقافة المطلوب تحقيقها وإنجازها في العالم الإسلامي ومن طرفه؟

3- عناصر الثقافة:

تتشكل المنظومة الثقافية عند الأستاذ مالك بن نبي، من أربع تيمات أساسية

وهي:

1- التوجيه الأخلاقي لتكوين نمط الصلات الاجتماعية الراشدة.

2- التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام السليم.

3- المنطق العلمي لتحديد أشكال النشاط العام.

4- الصناعة أو الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع.

وستتطرق إلى هذه التيمات الاصطلاحية لمفهوم الثقافة عند مالك بن نبي

بالتدريج وهي:

1- المبدأ الأخلاقي:

إنّ «فطرية الاجتماع غريزة أصيلة في الإنسان، والمجتمع المتحضر هو الذي يطبع ويهدي هذه الغريزة ويرفع من مستواها بالأخلاق ليتجنب الفوضى والاضطراب، وأهدى القيم الأخلاقية المنتزلة على الأنبياء، لأنها تهدف إلى ربط الأفراد بعضهم ببعض»⁽²³⁾، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى مخبراً عن المهاجرين والأنصار:

﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁽²⁴⁾

«والارتقاء بالأخلاق والسلوك الإنساني هو الهدف الأساس للحضارة، وقد جاء رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ليتم مكارم الأخلاق ليعلو ويسمو بها الإنسان إلى درجة يتميز فيها عن باقي المخلوقات. ولذا فالثقافة عند مالك بن نبي نظرية في السلوك والأخلاق أكثر منها من أن تكون نظرية في المعرفة المجردة»⁽²⁵⁾.

وبذلك فالعنصر الأخلاقي يقوم ببناء وتشديد عنصر مهم من عناصر الحضارة والإنسان هو الذي يتحكم في الأشياء والتراب في الزمن تحكمه وتنظمه الأخلاق وبالتالي الجانب الأخلاقي هو المحدد الرئيسي لاتجاه المجتمع بشكل عام.

2- **الذوق الجمالي:** يرى ابن نبي أن الجمال له تأثير في الروح الاجتماعية ويشرح هذه الفكرة بقوله: «إن الأفكار هي المنوال الذي تتسج عليه الأعمال، وهي تتولد من الصور المحسوسة الموجودة في الإطار الاجتماعي فتعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صوراً معنوية يصدر عنها تفكيره، فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، يوحي للإنسان بأفكاره ويطبّعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل أو السماجة المستهجنة. فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان في العمل، وتوخياً للكرام من العادات» (26).

وبذلك، يعتبر بن نبي أن الذوق الجمالي من أهم التيمات الحيوية في مكونات الثقافة، لأنه حسب عزمه يحرك الهمم إلى ما هو أبعد من مجرد المصلحة ويحقق شرطاً من أهم شروط الفعالية، لأنه يضيف إلى الواقع الأخلاقي عند الفرد دوافع ايجابية أخرى.

وفي كتابه (مجالس دمشق) يشير ابن نبي إلى هذا العنصر داعياً الثقافة التي تمنحنا الذوق الجمالي، وتنمي فينا هذا الذوق، بشرط أن لا نطن حسب زعمه بأن الإسلام قد أهمل أو زهد في هذا الجانب، وذلك لترتيب شؤون مجتمعنا، لأن في رأيه أن النشور إذا كان يحدث في المستوى الأخلاقي، فهو يحدث أيضاً في المستوى الجمالي (27).

3- **المنطق العلمي:** يشير مالك بن نبي على أن النقص الذي يعاني منه الإنسان المسلم ليس منطق الفكرة، وإنما منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل، بل يقول كلاماً مجرداً، وأكثر من ذلك أنه قد يبغض الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً

والسبب يعود:»... لافتقارنا الضابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها، وبين الأشياء وأهدافها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وفكرتنا لا تعرف التحقيق...» (28).

فالمنطق العلمي يعني أن يكون المجتمع ديناميكياً فاعلياً، فيستغل ما لديه من طاقات وإمكانات ووسائل، وأن لا يدع الفراغ ينخر وقته، بل يستثمر الفراغ في أمور تعود عليه بالنجاح والنفع.

وفي كتابه (مجالس دمشق) يشير ابن نبي إلى أنه يقصد بالمنطق العلمي الفعالية، لكنه يفضل تسمية المنطق العلمي بوصفه مصطلحاً ينسبه لنفسه، وظل يعرف به حسب قوله منذ ربع قرن (29).

4- التوجيه الفني أو الصناعة: يعتقد ابن نبي أن المبدأ الأخلاقي، والذوق الجمالي، والمنطق العلمي، هذه التيمات لا تكون لوحدها شيء من الأشياء حسب عزمه، إن لم تكن في أيدينا وسائل معينة لتكوينه، والعلم أو الصناعة، كما في تعبير ابن خلدون هو الذي يمنحنا تلك الوسائل، ويكون عنصراً هاماً في الثقافة، لا يتم من دونه تركيب عناصرها وتحديد معناها، ويدخل في هذا المفهوم كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم، وهذه العناصر الأربعة هي التي بإمكانها أن تساهم في تحديد الثقافة وتركيبها وتحويلها إلى أسلوب حياة في أي مجتمع.

وعملية تحويل العلوم النظرية إلى مهن، وفنون، وصناعات عملية يدوية وتقنية إلى حيزها العملي التطبيقي، واستغلال الطاقات والقدرات والمواهب والإمكانات في العمل الصناعي ركن مهم في تكوين مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي، لأن الصناعة وسيلة لكسب الأفراد ووسيلة للمحافظة على كيان المجتمع واستمراره ونموه (30).

ومن هنا نتبين أن مشكلة الحضارة هي مشكلة الثقافة، وإصلاح المنظومة الثقافية أساس لحلول مشكلات الحضارة. وإذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية

سوية بين أفراد المجتمع، وإذا ما تكون للمجتمع عبر التاريخ قيم أخلاقية تحافظ على تماسك وانسجام أفراده معاً، فسيعيش متسقاً ضمن جو محكم من النظام والجمال والذوق، بحيث تشكل لأفراده منطلقاً أدبياً وعملياً يتفاعلون من خلاله بفاعلية ما يملكونه من طاقات ومواهب وإمكانيات فيبدعون أعلى وأقصى ما يمكن من الفوائد والوسائل المتاحة لهم، فيحولون كل هذه القيم النظرية والأخلاقية والجمالية الذوقية إلى صناعات ومهن وإنتاج سلعي، فإذا فعلوا ذلك أمكنهم حل مشكلة الثقافة، ومن ثم حل مشكلة الحضارة، ومن ثم التوقيع على صفحات التاريخ وتأكيد الشهود الحضاري⁽³¹⁾.

وبمثل هذا البناء المحكم، يمكن القول أن هذا التركيب للثقافة وتحديدها بهذه العناصر الأربعة، يمثل جوهر ولب النظرية الثقافية لمالك بن نبي، والتي يصبو من خلالها إلى تحقيق معالم الشهود الحضاري للأمة الإسلامية.

4- المنجز الثقافي الإسلامي البديل: استهل مالك بن نبي حديثه وهو يطرح لهذه المسألة البالغة الأهمية، المتعلقة بسبل النهوض الثقافي الإسلامي البديل بمسألة مهمة ألا وهي "ثقافة الإمبراطورية" والتي تعتبر نوعاً يجدر الإشارة إليه قبل الخوض في النوع الثاني "ثقافة الحضارة" الذي وجد فيه العلاج الكفيل لتقديم حضارة إنسانية، كون أن الأولى هي من الأسباب الرئيسة في إحداث هذا المرض المستفحل في العالم والذي سيؤدي بالضرورة إلى إحداث الفجوة بين الشرق والغرب. ومن أجل التفصيل والإثراء في هذه الجزئية سنفصل كل ثقافة على حدى حتى يتبين الدواء الناجع للارتقاء بالإنسان وإنسانيته.

1- ثقافة الإمبراطورية: يحاول مالك بن نبي في هذه المسألة أن يبرز لنا أن القوة المتمثلة في: التسلط والاستبداد، والسيطرة والنزعة الاستعمارية هي قوام هذه الثقافة، بحيث يرى: أن ثقافة الإمبراطورية ذات الطابع العسكري المبنية على تلك الأسس والتسابق الخطير بين الدول الغربية المتقدمة نحو التسلح وامتلاك مخزون

القبائل الذرية إلا الدليل الواضح على نية السيطرة على الجماهير والمجالات التي تنتسب إليها الأصناف البشرية المتخلفة⁽³²⁾.

إن أوروبا التي ورثت تقاليد النهضة الرومانية بقيت سحينة الثقافة الإمبراطورية، كما أن الضمير الأوروبي لا زال سجين نظريات القرن التاسع عشر الذي كان يزخر بأراء " غوبينو " الذي ترجم أفكار داروين حول أصل الأجناس في التطور البشري، وهكذا ترك للقرن العشرين إرثا ثقيلا مميتا للأفكار سار على هديه أمثال هتلر، والدكتور مالن⁽³³⁾.

ويشير مالك بن نبي في ذات السياق أن التقدم العلمي في أوروبا كان بمثابة الدريعة التي أدت به إلى الغطرسة وفقدان الضمير الإنساني، إذ يقول: «تعيش أوروبا في عالم كيفه عالمها إلا ضميرها يجهل أحد المعطيات الأساسية ألا وهو الإنسان الذي تعودت على اعتباره حتى الآن مجرد عضو من أهالي المستعمرات فقط، وكعضو فقد الحركة ولن يجدها إلا بعد تدريب طويل ومؤلم⁽³⁴⁾».

إن العالم يفهم بعلم وثقافة إمبراطورية ومليء بروح الحرب ووسائلها... إن الثقافة على العلم يحدد الميل نحو ثقافة إمبراطورية

«الثقافة الإمبراطورية تظهر في قوة السلاح والحرب، وإن الحرب جزء من التجارب الإنسانية منذ القدم، وهذا ما يؤثر رغبة الأولاد في جميع أنحاء العالم في لعبة الحرب، ولا تزال هذه النفسية سائدة حتى الآن في جميع الأكاديميات العسكرية... ونحن نعيش في عالم لا يزال متأثرا بالإثم الاستعماري حيث لا يُريد أصحاب الثقافة الإمبراطورية أن يتركوا للشعوب المستعمرة إمكانية إنجاز مشروع ثقافة ولا حتى الحفاظ على جهلهم⁽³⁵⁾».

2-ثقافة حضارة: إذا كان بن نبي يعرض لثقافة الإمبراطورية على أن المجتمع يطرح مشكلته بالنسبة للقوة، فإن الوجود هو محور وصنو هذه الثقافة (أي ثقافة الحضارة).

وفي نظر بن مالك فإنّ نوعيّة الثقافة تتحدّد - لكلّ شعب - بحتميّة ناتجة عن سيكولوجيّته، فالمزاج الروماني كان يرغب في صنع الإمبراطوريّة، بيد أنّ المزاج اليوناني كان عليه أن يحقّق المعجزة، فأنتج ثقافة حضارة. ونفس الشيء يمكن قوله بالنسبة للعالم الإسلامي (أي أنّ ظهور العالم الإسلامي على شكل إمبراطوريّة ذات صبغة عسكريّة لم يكن محتملا في يوم من الأيام، ذلك أنّه بغضّ النّظر عن المبدأ الأخلاقي، فإنّ العالم الإسلامي لا يملك مخزونا من القنابل الذريّة ولا صناعة ثقيلة لإنتاجها، ولذلك يستحيل عليه أن يطرح مشاكله على مستوى القوّة، بالعكس فإنّ هذه المشاكل تطرح نفسها على مستوى الوجود بطبيعة الحال) ((36)).

إنّ هذا المشكل يطرح نفسه بدون تعقّد من الناحيّة السيكولوجيّة لأنّ المزاج في العالم الإسلامي لا يحتوي على أيّ تعقيد، ولا على أيّ ذرّة من إرادة التسلّط يمكن أن تتمخّص عن ثقافة ذات صبغة إمبراطوريّة.

إنّ العالم الإسلامي يواجه قبل كلّ شيء مشكل الثقافة لا يمكن ولا ينبغي أن تتحقّق إلّا من أجل حضارة، وهكذا فإنّ كلّ سياسة ونظام في العالم الإسلامي ينبغي أن يسعى إلى هذه الغاية، وينبغي من ثمة تحديد عنصر الثّاني أي مجاله، وبمعنى آخر إذا كان على العالم الإسلامي أن ينشد إنجاز ثقافة حضارة عوض ثقافة إمبراطوريّة فعليه أن يعرف أوّلا مميّزات ثقافة حضارة وخصائصها أي أن يعرف أنّها ((37)).

أوّلا- ثقافة عالمية: ذلك أنّ ضمائر النّاس في القرن العشرين لم تعد تتكوّن في إطار وطني أو إقليمي، إنّ مسقط الرّأس الذي يعيشون فيه يوميّا يُفسّر بدون شكّ الدوافع الأصليّة لمواقفهم الأساسيّة، لكنّ الضّمير الإنساني في القرن العشرين يتكوّن من في إطار عالمي له متطلّباته، وأنّ هذا الضّمير لن نستطيع الانفصال عنه من الآن فصاعدا، وفي نفس الوقت فإنّ مصير كلّ مجتمع إنساني يتكوّن جزئيا خارج حدوده الجغرافيّة. إنّ الثقافة من النّاحيتين الأخلاقيّة والتاريخيّة تدخل

في إطار قالب عالمي لأنّ منابع أفكارها ومشاعرها والتّحدّيات التي عليها أن تواجهها والمهام التي ينبغي أن تتجزّأ تتجاوز أبعد مسقط الرّأس ((38)).

ينبغي أن يشمل مجال الثقافة الإسلاميّة العالم بأسره، وإنّ مهامه ينبغي أن تُقاس بهذا المقياس، مع التّمييز بين مهام تشييد الثقافة الإسلاميّة والمهام المتعلّقة بإشعاعها خارج حدودها

إنّ العالم بأسره في نظر مالك بن نبيّ في انتظار ساعة الائتلاف الفكري، وهذا باختصار القالب العالمي الرّاهن الذي ينبغي على الثقافة الإسلاميّة أن تتدرج فيه وأنّ المهام التي تواجهها في هذا الإطار تتمثّل في مشاكل ثلاثة:

1- النهوض بالرجل المسلم الذي تخلّص من نير الاستعمار أو لا يزال يرزح تحته إلى المستوى الاجتماعي للحضارة الرّاهنة.

2- رفع الرجل المتحضّر الذي لا يزال متأثراً بالأفكار الاستعماريّة إلى المستوى الأخلاقي للإنسانيّة.

3- إدخال المعطيات الإسلاميّة في إطار المشكل الحيوي للسّلم ((39)).

ينبغي إذن على العالم الإسلامي أن يتحرّر سيايا واقتصاديا واجتماعيا ليتحمّل مسؤولياته الكبرى في التحرير الأخلاقي للإنسان المتحضّر، وسيجدون بدون شك في مزاجه وظروف تطوّره الإحياء الضّروري لكي لا يطرح مشاكل ثقافته بكيفيّة إمبراطوريّة لأنّه ليس في نيّته ومزاجه وإمكانيته أن يضيف مخزونا نوويا جديدا في العالم ((40)).

ويقرّر مالك بن نبيّ أنّ تعريف الثقافة الإسلاميّة لا يمكن أن يتمّ بدون الأخذ بعين الاعتبار لهذا العنصر الأساسي في الأزمة العالميّة المتمثّلة في المشكل الأوروبي، إذ ينبغي على الضّمير الأوروبي أن يُجدّد وعيه وأن يُعيد قيمة الآخرين في العالم الذي سيطر عليه، وإنّ مهمّة العالم الإسلامي هي مساعدة أوروبا لكي تتمكّن من التّجدّد بأقلّ عناء ممكن، وبهذه الكيفيّة فإنّ العالم الإسلامي يكون قد أنجز مهمّته على الوجه الأكمل

لأنّ رفعه لمستوى الجماهير الإسلامية إلى مصاف الحضارة إنّما يعني رفع المستوى والوعي الأوروبي إلى المستوى الإنساني، وذلك بوضع الصورة الحقيقية للإنسان الذي احتقره المستعمر أمام الرأي العام الأوروبي ذلك لأنّ كل ما يحضر الرّجل المسلم يساهم في إعطاء الأوروبي مفهوما صحيحا عن العالم الإنساني، وبهذه الطّريقة سيتمكّن العالم الإسلامي أوّلا المساهمة في تكوين الضّمير الإنساني ومساعدة بعض الدّول على التحرّر من قابليّة التعرّض للاستعمار، وإنقاذ البعض الآخر من دوافعه الاستعماريّة⁽⁴¹⁾.

ثانياً- ثقافة السّلم: ذلك أنّ مشكل السّلم يسيطر على النّشاط الإنساني بمجموعه وهو النّقطة التي تلتقي فيها جميع مراحل التّاريخ الاجتماعيّة والتّقافيّة ولا يمكن للثقافة الإسلاميّة أن تأخذ مكانتها اللّائقة بها على الصّعيد العالمي في الوقت الرّاهن إذ لم تتّجه نحو هذه النّقطة وتدمج مشكل السّلم بين المهام الإنسانيّة التي ينبغي إنجازها⁽⁴²⁾.

وفي نظر مالك بن نبي فإنّ هذه المهمّة - مهمّة السّلم - تفرض مشكلا صعبا، لأنّ العالم مليء بروح الحرب ووسائلها وفكر القرن العشرين الذي يزعم تحقيق سعادة الإنسان بفضل الآلة قد مني بالفشل الذريع.

لكنّ على الرّغم من هذا المشكل وهذا الفراغ الشّاسع في الوعي فإنّه على العالم الإسلاميّ أن يحدّد ثقافة إسلاميّة مناسبة له، ثقافة لا تقوم على العلم وحده، ذلك أنّ العالم لم يعد ينتظر الرّحمة من العلم، بل من الضّمير الإنساني المتجدّد⁽⁴³⁾.

ولذلك فإنّ المفهوم الإنساني للسّلم ومشكله ينبغي ألاّ يقوم على العلم بل على الضّمير، وإنّ العالم الإسلامي لا يملك مخزونا من القنابل الذريّة ينبغي تصفيّته، بل هناك في العالم كمّيّة هائلة من الحقد والكراهيّة تحتاج إلى تصفيّة، فيوجد في سيكولوجيّة جميع الشّعوب بذور أيديولوجيّة فتّاكة، فالإنسانيّة ليست مهتدة فقط بسبب الإشعاعات الذريّة المسلّطة فوق رأسها بل بجوّ مخنق مليء ببذور الأيديولوجيّة الفتّاكة الموروثة من العهد الاستعماري⁽⁴⁴⁾.

وباستطاعة العالم الإسلامي أن يخدم السلم مباشرة بتبديل موقف الإنسان الثقافي والأخلاقي تجاه المشاكل الراهنة، إذ ينبغي على الثقافة الحضارية أن تُعطي للسلم شخصيته الحقيقية وذلك بوضعه تحت ضمان المبادئ.

وهكذا إذا تحملت الثقافة الإسلامية المهام الثلاث المذكورة سابقا فيحق لها لقب الثقافة الكبرى في التاريخ لأنها تكون بذلك قد ساهمت في تشييد عهد إنساني أخوي (45).

وعلى الرغم من أن مالك بن نبي حين إلقاء محاضراته وكلمته في ملتقى الجزائر لـ "الثقافة الإفريقية" كان قد وصل إلى نتيجة مخالفة لما كان يتوقعه حين كتب ما كتب حول الثقافة سنة 1959م، إذ قال في الملتقى: "وبكلمة أخرى فإن المهام التي أشير إليها الوثيقة السابقة منذ عشر سنوات تعود إلى ما يلي "

- 1- أصبح الرجل المتحضر أكثر همجية وانحطّ مستواه الأخلاقي أكثر فأكثر.
- 2- إن المستوى الاجتماعي للرجل الإفريقي لم يرتفع كما كان متوقعا.
- 3- إن فكرة السلم التي سادت باندونغ أصبحت أكثر من أي وقت مضى خاضعة لقوة السلاح (46).

وفي الأخير يمكن القول، ونحن موقنون بذلك أن الثقافة الإسلامية كانت ولا تزال تحمل سمة الصيرورة، ولا تزال تتمتع بروح المنفذ لهذا العالم، فقط ينبغي أن تحقق مبدأي الإرادة والإدارة، فالإرادة تتمثل في إشعال روح الإسلام التي كانت تتمتع بها الحضارة الإسلامية وهي في أوجها، والإدارة تتمثل في إيجاد آليات تتناسب وظروف العصر الراهن، ولعل أفكار مالك بن نبي - على الرغم من مرور عليها أكثر من أربعين سنة - لا تزال تشكل بلسما لهذه الجراح التي يعاني منها العالم، نطمح أن تجد رجالا تنبئ أفكاره، حتى تنقل الأمم إلى الأخوة المثالية للإنسانية متخذة مبدأ التفاعل بلا ذوبان والخصوصية بلا انغلاق.

النتائج: وبعد هذه الجولة القصيرة بين دروب الثقافة، وتقَي آثارها، وتجلياتها في فكر مالك بن نبي بغية إيجاد مشروع ثقافي إسلامي بديل، خلص البحث إلى جملة من النتائج، فنقول وبالله التوفيق:

1- لقد استطاع مالك بن نبي أن يقدم مفهوما جديدا للثقافة، لا يقتصر فقط على المفهوم الماركسي ولا فقط على المفهوم الرأسمالي، بل باحتوائهما مع بعض في وعاء واحد تذوبهما الشرارة الروحية.

2- إن التجدد عند مالك بن نبي يتخذ مسارين اثنين؛ تجدد سلبي والآخر إيجابي يختلف من حضارة لأخرى.

3- إن لكل ثقافة من منظور مالك بن نبي مجالها ووجودها الخاص، تؤثر فيها جملة من العوامل أبرزها: المجتمع، الذاتية، البيئة، التعايش، والعالمية.

4- تشتمل الثقافة عند مالك بن نبي على أربعة عناصر أساسية: دوافع العمل فيه هو المبدأ الأخلاقي، وصورته الذوق الجمالي، وسرعة إنجاز المنطق العملي ووسائله العلم أو الفن الصناعي؛ وبالتالي يحقق هذا المركب لب النظرية الثقافية الذي ينقل الأمة الإسلامية من مرحلة الوجود الحضاري إلى مرحلة الشهود الحضاري.

5- لقد عرض مالك مشروعا ثقافيا إسلاميا بديلا، ينبني على إحداث ائتلاف فكري، يقوم على ثلاثة أسس:

أ- النهوض بالرجل المسلم المتحرر من الاستعمار، إلى مستوى الحضارة، أي إلى المستوى الاجتماعي للحضارة الراهنة.

ب- الارتفاع بالرجل المتحضر الذي يزال ملطّخا بإثم الاستعمار، أو الذي لا يزال متأثرا بالأفكار الاستعمارية إلى المستوى الأخلاقي للإنسانية.

ج- العمل على تحقيق مبدأ السلم متخذا المعطيات الإسلامية إطارا لهذا المبدأ.

هذه نتائج الدراسة التي انتهى إليه هذا البحث المتواضع، ولست أزعم أنه يُجهر على كل تلك الإشكالات، أو أنه يُنجز إنجازات جلى في هذا المظان، فهذا جهد المقل، وبضاعة الفقير، الذي أراد أن يفتح باب البحث والنقاش والإضافة، في قضية لا تزال تشكّل عائقاً في الفكر العالمي والفكر العربي بالخصوص. والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله .

القرآن الكريم

مكتبة البحث:

- 1-أفاق جزائرية: مالك بن نبي، ترجمة الطيّب الشّريف، دط، مكتبة النهضة الجزائرية الجزائر، 1964م.
- 2-تأملات: مالك بن نبي، دط، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1986م.
- 3-شروط النهضة: مالك بن نبي، ترجمة عمر كمال مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، دار الفكر، ط4، دمشق- سوريا، 1987م.
- 4-فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، مالك بن نبي، دط، دار الفكر دمشق، سوريا، 1979م.
- 5-مالك بن نبي بين أسئلة النهضة ومشكلات الحضارة: أسامة خضراوي، مركز نماء للبحوث والدراسات، 2014/06/28، <http://nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?Id=422>
- 6-مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً: أسعد السّمّراني، ط4، دار النَّفّاس، بيروت، 1984م.
- 7-مشكلة الثقافة: مالك بن نبي، ترجمة عبد الصّبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق- سوريا، 1984م.
- 8-موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين، ط1، دار الخلدونية، الجزائر، 2010م.

الهوامش:

- (1)-مالك بن نبي بين أسئلة النهضة ومشكلات الحضارة: أسامة خضراوي، مركز نماء للبحوث والدراسات، <http://nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?Id=4222/06/28>
- (2)-يُنظر: مشكلة الثقافة: مالك بن نبي، ترجمة عبد الصّبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق-سوريا، 1984م، ص31.
- (3)- يُنظر: المصدر نفسه، ص43.
- (4)- المصدر نفسه، ص44.
- (5)-شروط النهضة: مالك بن نبي، ترجمة عمر كمال مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، دار الفكر ط4، دمشق- سوريا، 1987م، ص89.
- (6)-المصدر نفسه، ص89-90.
- (7)-المصدر نفسه، ص93.
- (8)-المصدر نفسه، ص93.
- (9)-المصدر نفسه، ص43.
- (10)-مشكلة الثقافة: مالك بن نبي، ترجمة عبد الصّبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق- سوريا 1984م، ص48.
- (11)- المصدر نفسه، ص71.
- (12)- المصدر نفسه، ص72.
- (13)-موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمّد حسين، ط1، دار الخلدونية الجزائر، 2010م، ص9.
- (14)- مشكلة الثقافة: مالك بن نبي، ص71.
- (15)-المصدر نفسه، ص52.
- (16)- المصدر نفسه، ص53.
- (17)-المصدر نفسه، ص54.
- (18)-يُنظر: المصدر نفسه، ص56.
- (19)- المصدر نفسه، ص77.

- (20) - آفاق جزائرية: مالك بن نبي، ترجمة الطيّب الشّريف، دط، مكتبة النهضة الجزائرية الجزائر، 1964م، ص125.
- (21) - المصدر نفسه، ص107-108.
- (22) - مشكلة الثقافة: مالك بن نبي: ص119.
- (23) - المصدر نفسه، ص79.
- (24) - سورة الأنفال، الآية: 63.
- (25) - شروط النهضة: مالك بن نبي، ص94.
- (26) - مشكلة الثقافة: مالك بن نبي، ص82.
- (27) - ينظر: مجالس دمشق: مالك بن نبي، ص110.
- (28) - مشكلة الثقافة: مالك بن نبي، ص87.
- (29) - ينظر: مجالس دمشق: مالك بن نبي، ص111.
- (30) - ينظر: مشكلة الثقافة: مالك بن نبي، ص88-89.
- (31) - مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً: أسعد السّحمراني، دار النفائس، بيروت، ط4، 1984م ص14.
- (32) - ينظر: حول الثقافة" ملتقى الجزائر للثقافة الأفريقية": مالك بن نبي، نقلا عن: موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمد حسين، ط1، دار الخلدونية، الجزائر، 2010م ص229.
- (33) - حول الثقافة" ملتقى الجزائر للثقافة الأفريقية": مالك بن نبي، نقلا عن: موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمد حسين، ص229.
- (34) - موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمد حسين: ص229.
- (35) - المرجع نفسه، ص230.
- (36) - حول الثقافة" ملتقى الجزائر للثقافة الأفريقية": مالك بن نبي، نقلا عن: موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمد حسين، ص230.
- (37) - موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمد حسين، ص230.
- (38) - حول الثقافة" ملتقى الجزائر للثقافة الأفريقية": مالك بن نبي، نقلا عن: موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمد حسين، ص231.
- (39) - موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمد حسين، ص232.

(40) - المرجع نفسه، ص 232.

(41) - المرجع نفسه، ص 232.

(42) - حول الثقافة "ملتقى الجزائر للثقافة الأفريقية": مالك بن نبي، نقلا عن: موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمد حسين، ص 233.

(43) - المرجع نفسه، ص 233.

(44) - المرجع نفسه، ص 233.

(45) - المرجع نفسه، ص 234.

(46) - حول الثقافة "ملتقى الجزائر للثقافة الأفريقية": مالك بن نبي، نقلا عن: موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث: يوسف محمد حسين، ص 235.

التنوع الثقافي واللغوي في المجتمع الجزائري: أسبابه ونتائجه

أ. سارة لعقد

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف

أولاً/ الواقع الثقافي واللغوي في المجتمع الجزائري: إن محاولة الخوض في قضيتي الواقع الثقافي واللغوي للمجتمع الجزائري لابد يجعلنا أولاً وقبل أي شيء نخرج على جملة من المصطلحات التي تشكل الجانب النظري لهذا البحث مثل مصطلحي الثقافة واللغة ومصطلحي التنوع الثقافي والتنوع اللغوي؛ وذلك لمدى تعالق هذه المصطلحات ببعضها البعض وبعد ذلك يمكننا أن نستقي من المجتمع الجزائري نماذج تدل على ثقافته ولغته في محاولة لدراسة الأسباب التي جعلته على هذه الحالة دون غيرها.

1. مصطلحات الدراسة: من المصطلحات التي تشكل أساس هذا البحث مصطلحا

الثقافة، واللغة وتحديد مفهوم كل منها

1.1 الثقافة: جاء في معجم لسان العرب لابن منظور: «ثَقَفَ الشيءَ ثَقْفًا وَثَقَافًا وَثَقُوفَةً: حَذَقَهُ، وَرَجُلٌ ثَقْفٌ وَثَقْفٌ: حَاقِظٌ فَهْمٌ... وَثَقَّفَ الرَّجُلَ ثَقَافَةً أَيْ صَارَ حَاقِظًا خَفِيفًا»¹ أما في المعاجم الحديثة فقد جاء في معجم (مصطلحات اللغة العربية المعاصرة) فقد عرّف على أنه من الجذر: «ثَقَفَ يَثَقِفُ ثَقَافَةً فَهُوَ ثَقْفٌ، وَثَقَّفَ الشَّخْصَ صَارَ حَاقِظًا فَطَنًا، وَاتَّكَبَ عَلَى الْمَطَالَعَةِ حَتَّى ثَقَّفَ»² حيث نلاحظ أن هذا التعريف أقرب من أي تعريف آخر في المعاجم الحديثة إلى ما جاء في لسان العرب لابن منظور، حيث يتضح لنا أن المعنى اللغوي لمصطلح الثقافة فكلاهما يشر إلى أن معنى شخص ثقف حاذق وفطن وأضاف المعجم المعاصر إلى أنه شخص منكب على المطالعة.

أما في موسوعة علوم اللغة العربية «الثقافة مصدر ثَقَفَ بمعنى صار حاذقا والمحدثون يستعملونها اسما من التثقيف وهو التعليم والتهذيب، ومنه قول القائل لولا

تثقيفك وتوفيقك لما كنت شيئاً، فهي عندهم تقابل لفظ Culture عند الفرنج، واللفظة قديمة في معجم العربية إلا أنّ السالفين لم يكسبوها أبعاداً أدبية، وفكرية، وفنية وحضارية شمولية، كالتّي ترتبط بها في الوقت الراهن فقد وردت في استعمال الجاحظ لها معنى التدرب على احتراف عمل من الأعمال، والتمرس بكفاءة من الكفاءات المختلفة، كما أنّ للفعل (ثقّف) معنى التدريب، والتعهد، والتّقويم³، وبالرغم من وجود المصطلح إلا أنّه لم يكتسب أبعاده الأدبية، والفكرية، والفنية، الحضارية إلا حديثاً؛ ولعل أهم شيء أشار إليه التعريف أنّ مصطلح ثقافة استعمل منذ القدم مع الجاحظ حيث كان يدل على التمرس، والتّرب، والأهم من هذا كله أنّ أغلب هذه التعريفات تشير إلى العلاقة الموجودة بين الثقافة والتعليم حيث تجعل الثاني من المعاني المرتبطة بالأول. وهو الشيء الذي يشير إليه المعجم الإنجليزي (المعجم اللساني والصوتي) (A Dictionary of Linguistics and Phonetics)⁴.

يقابل المصطلح العربي (ثقافة) الفرنسي Culture هذا الأخير الذي لطالما كان يرفقه الكتاب العرب المحدثين بالمصطلح العربي في مرحلة معينة، «كأنّما يبتغون بهذا أن يقولوا: إنّ كلمة ثقافة لا تكتب إلا بهذا الوضع، وهؤلاء المؤلفون يعلمون ما يفعلون حين يقرنون الكلمة العربية بنظيرتها الأجنبية؛ فإنّ معنى هذا أنّهم يدركون أنّ الكلمة لم تكتسب بعد في العربية قوة التحديد»⁵، ومعنى هذا أنّ الكتاب والمؤلفين في هذا الخصوص في القرن التاسع عشر كانوا يجنون حرجاً في استعمال لفظ الثقافة لم يصبح جاهزاً من حيث عناصره المفاهيمية ليكتمل ويصبح جاهزاً للاستعمال سواء من جانبه الاصطلاحي أم من جانبه المفاهيمي.

إذا عدنا قليلاً إلى أعوام قليلة ماضية سنجد أنّ أهمّ الجزائريين الذين خاضوا في فكرة الثقافة في العصر الحديث هو «مالك بن نبي» في عديد مؤلفاته أهمها: (شروط النهضة وفكرة الإفريقية الآسيوية)، و(مشكلة الثقافة)⁶، حيث أشار مالك بن نبي في مطلع الكتاب إلى أنّ الثقافة «لا تضمّ في مفهومها الأفكار فحسب، وإنّما تضمّ أشياء أعم من

ذلك كثيرا، تخص أسلوب الحياة في مجتمع معين من ناحية، كما تخص السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى»⁷، حيث يشير مالك بن نبي في هذا القول إلى الجانب النفسي للثقافة؛ فالثقافة ليست فقط أفكار بل أسلوب الحياة أضف إلى ذلك سلوك الفرد والجماعة، وهذا ما أكدّه مالك بن نبي في غير مكان من مؤلف فالثقافة: «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه»⁸. وإلى هذا ذهب معجم المصطلحات التربوية الحديث حين عرّف الثقافة على أنّها: «نتاج إنساني ينتج من خلال تفاعل الإنسان مع المجتمع، وتشتمل على كل أنماط السلوك، والعادات، والتقاليد، والأفكار، والمعتقدات، والقيم، والمثل العليا واللغة، وكل أساليب الاتصال، والفنون، والآداب، والأشياء المادية الناتجة عنها»⁹ ومعنى هذا أنّ للثقافة وجه مادي متمثل في المنجزات المادية للإنسان كالآلات والمنشآت، والأزياء، ووجه معنوي متمثل في أفكاره وآدابه وقيمه والمظاهر النفسية البادية في الحياة الاجتماعية¹⁰

وعلى هذا سنحاول النظر في كل من الجانب المادي وتبسيط الضوء حول العمارة والأزياء، والفن والجانب المعنوي للثقافة بتبسيط الضوء حول الآداب والعادات، والتقاليد والقيم، في المجتمع الجزائري لمحالة بحث الأسباب التي جعلته على هذا الحال.

2.1 اللغة: تعدّ اللغة عصب الجماعة النابض بالحياة في العالم بأسره، فهي الوسيلة الأساسية التي يمكن بواسطتها التواصل فيما بينهم والتعبير عن حاجاتهم ومتطلباتهم اليومية؛ ومعنى هذا أنّ اللغة تستخدم لتوصيل المفاهيم والمعاني بواسطة نظام من العلامات ومعانيها من عقل شخص لآخر؛ ومعنى هذا أنّها «نظام من الرموز المتواضع عليها والخاصة بمجال أو بنشاط ما نحو: لغة الفلاسفة، ولغة التربوي، ولغة الإعلام الآلي. مجموع الحروف والكلمات والرموز والمكتوبة أو الخطية أو الخطيّة أو المنطوقة أو الحركية التي تتلاحم وفق قواعد بهدف تبليغ معلومات»¹¹، أو هي: نظام

من العلامات الملفوظة المتواضع عليها والمستخدم لنقل رسائل البشر¹² وفي محاولة للكشف عن تلك العلامات التي تتعلق بمختلف الرسائل المتبادلة يوميا في حياتنا، يحدد نطاقها في العلامات اللغوية المنطوقة والمكتوبة منها دون الإشارة.

ثانيا/ نتائج التنوع الثقافي واللغوي في الجزائر

إن قبول التنوع الثقافي واللغوي في المجتمع الجزائري يجعلنا دون شك نقبل فكرة التعايش بين مختلف الثقافات واللغات، ولعل هذه النقطة هي الشيء الأساس الذي جعل فكرة التعايش اللغوي والثقافي تبدو غريبة؛ بل هناك من عدها من قبيل تهديد وجود إحدى اللغتين أو الثقافتين؛ فإذا كان لابد من الحديث عن التنوع الثقافي في المجتمع الجزائري فلا بد من الوقوف على التعليم واللغة اعتبارا من كون جل الدارسين للثقافة وإشكالاتها منذ مالك بن نبي؛ لا بل وقبل زمن مالك بن نبي يجعلون التعليم واللغة دلالة على مدى ثقافة الفرد والمجتمع فوليام جونز عند حديثه عن اللغة السنسكريتية أشار إلى أنها تتم عن ثقافة أصحابها قائلا: «إن اللغة السنسكريتية بنية رائعة أكمل من الإغريقية وأغنى من اللاتينية، وهي تتم عن ثقافة أرقى من ثقافة هاتين اللغتين»¹³

إن الحديث عن التنوع الثقافي كظاهرة طبيعية عرفتها مختلف الشعوب منذ القدم يجعل أهل العلم يتخوفون منه كواقع؛ فبالنسبة «للعقل المتشبع بالأحادية والتجانس والتمثيل، فالنموذج المجتمعي الأمثل هو مجتمع بلغة واحدة وثقافة واحدة، على اعتبار أن وحدة اللغة والثقافة تسمح بالاقتصاد في الموارد والطاقات والصراعات السياسية»¹⁴؛ غير أن الأكيد أن هناك دولا عديدة أقرت وجود التنوع الثقافي وعليه التنوع اللغوي غير أن هذا لم يغير من سيرورة النمو والتطور شيئا؛ بل على العكس من ذلك فتعد من أكثر الدول نموا، وعليه فالتنوع الثقافي هو ظاهرة طبيعية راقية تميز أمة عن أمة أخرى؛ وتتمثل عموما جوانب هذه الظاهرة في: التنوع اللغوي، والتنوع العلمي، والتنوع الفني، والتنوع السياسي... إلخ

1. التنوع الثقافي المادي: إن التنوع الثقافي المادي يتمثل في مختلف المنشآت والآلات في الأزياء؛ هذا الأخير الذي تعرف فيه الجزائر تنوعا كبيرا فكل منطقة من ولاياتها زي من الأزياء التقليدية يميزها عن البقية؛ ففي منطقة الأوراس مثلا هناك لباس يعرف باسم "الملحفة" وهو لباس خاص بالمرأة، و"البرنوس"، و"القشابية"، و"الرزة"- الشاش- وهي ألبة خاصة بالرجل، أما من حيث الطعام فمن أهم الأطعمة "الكسكس" (بربوشة) -في بعض مناطق الشرق الجزائري- (الطعام)- في الجزائر العاصمة-¹⁵، أيضا "الكاراكو" وهو لباس للمرأة وهو في الأصل لباس المرأة الأندلسية، أيضا "الحايك" وهما من الألبسة التقليدية خصوصا في الجزائر العاصمة، "الشدة التلمسانية"، والجة القبائلية -مناطق القبائل-، والقندورة السطايفي- ولاية سطيف وبعض الولايات المجاورة-، الفتلة-التارزي- ولاية قسنطينة وبعض الولايات المجاورة. غير أننا سنحاول التركيز أكثر حول التنوع الثقافي المعنوي وبالتحديد في جانبه اللغوي.

كما تعد الآثار التي تركها الاستعمار المتعاقب على الجزائر خير دليل على الثقافات التي مرت عليها مثل آثار جميلة بسطيف، وآثار تيمقاد بباتنة من أعرق الآثار الرمانية فيها، ناهيك عن الآثار العثمانية مثل القصبة بالجزائر العاصمة وغيرها كثير أيضا قصر الأغا بفرجوة بولاية ميلة... أما الآثار العمرانية التي تركتها فرنسا في الجزائر فكثيرة أيضا للتمثيل نذكر شارع أودان بالجزائر العاصمة... إلخ. وفي ظل كل هذه الآثار فإن الآثار التي خلفها الفتح الإسلامي في الجزائر مازال شاهدا إلى يومنا هذا عليه وأهم ما يمكن أن يمثل الحضارة الإسلامية في الجزائر من حيث البناء المساجد، وجدير بالإشارة أنها الحضارة الوحيدة التي لاقت هذا الاهتمام الدائم والمستمر بل والمتطور من قبل الجزائريين؛ ذلك لأن أغلب الجزائريين مسلمون. منذ الدخول الأول للدين الجديد «الإسلام» حيث تشير بعض البحوث إلى أن بلغ عدد المساجد والجوامع والزوايا في مدينة قسنطينة قبيل الاستعمار الفرنسي؛ حوالي 80 مسجدا وجامعا بين ما بقي عليه للعبادة الإسلامية وهذا قليل، مثل: المسجد الكبير بالبطحاء، ومسجد سيدي الكتاني، وبين

ما دمر وهو الأكثر مثل المسجد الكبير بالقصبة، وبين ما حول إلى كنيسة مثل: مسجد سوق الغزل، أما الزوايا فقد بلغ عددها 13 زاوية مثل: زاوية أولاد بن باديس، وزاوية باب الواد، وزاوية أولاد بن جلول¹⁶... إلخ. هذا إنّ دلّ عن شيء فإنّما يدلّ عن «حجم البنية الدينية والثقافية العامرة لمدينة قسنطينة قبل احتلالها عام 1837م»¹⁷، غير أنّ الاستعمار الفرنسي حاول بشتى الطرق هدم كل ما له قيمة دينية، وروحية، وثقافية بالمجتمع الجزائري؛ حيث عمد إلى هدم المساجد والزوايا والقضاء على المدارس العربية في محاولة للقضاء على هوية هذا الشعب المتمثلة في الدين واللغة، «فقد ضرب التعليم ضربة قاضية على إثر مصادرة الأوقاف فأغلّت المدارس وتوقفت حلقات الدروس الحرة في المساجد وهاجر العلماء ونهبت المكتبات وانشغل الباقون من المتعلمين بحفظ الرّمق وخافوا من الكتابة، وإلتحق بعضهم بالمقاومة»¹⁸ ولعل ما نراه اليوم في الجزائر من مساجد حيث تحوي أصغر البلديات على أكثر من خمس مساجد أنّ كل محاولات الاستعمار باءت بالفشل.

2. التنوع الثقافي المعنوي «التنوع اللغوي»: يعدّ التنوع اللغوي في مجتمع ما أهم دليل على وجود تنوع ثقافي في ذات المجتمع والعكس صحيح، ومادام الكلام هو الأداء الفعلي للغة فإنّ هذا الأداء؛ فإذا كانت «دراسة اللغة ترتبط بمفهوم فردي نفسي في اكتسابها، فإنّها ترتبط بمفهوم جمعي في ممارستها... وكل فرد منا يولد في مجتمع يكتسب منه مجموعة من السلوكيات المادية، والقيم والمعتقدات المعنوية التي تصل إلى عقله ووجدانه من خلال اللغة التي تعتبر وعاء لهذه الثقافة»¹⁹، ففي الجزائر كغيرها من الدول العربية تعدّ اللغة العربية هي اللغة الأساسية التي تعبر عن الثقافة العربية من جهة، وعن هوية هذه الدول من جهة أخرى يقول الفيلسوف الألماني «رانكه»: «إنّ الثقافة الإنسانية تعتمد لغتين كلاسيكيتين هما العربية واللاتينية، وبينما اشتقت اللغات الغربية من اللاتينية، فقد نفثت اللغة العربية في الشرق روحا فنية، ولا يمكن فهم المصنفات الأدبية الفارسية أو التركية بدون العودة إلى الكلمات العربية، وخاصة أنّها

وحي القرآن الكريم الذي لا يجارى، يعد بلا مراعاة أساس العقيدة الإسمائية والثقافة البشرية»²⁰، وعلى هذا الأساس حاولنا معرفة كيف كانت اللغة في الجزائر قبيل قدوم بني هلال إلى المغرب العربي وبعد ذلك إلى يومنا هذا لمعرفة ومدى تأثير تلك المراحل التاريخية والتغيرات السياسية والاقتصادية على استعمال اللغة

1.2 اللغة: إن البحث في اللغة أو الاستعمال اللغوي في الجزائر سيجعلنا نقف على لغتين رسميتين هما اللغة العربية واللغة المازيغية؛ ومما لا شك فيه أن اللغة المازيغية هي اللغة الأصلية لسكان شمال إفريقيا؛ حيث تكلموها منذ أقدم العصور، فقط للإشارة فإن لقاء نظرة على تاريخ هاتين اللغتين في الجزائر يجعلنا نلاحظ للوهلة الأولى أن كل كتب التاريخ تجمع على أن اللغة العربية دخلت الجزائر بفعل الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب، لكن هاك من يذهب إلى أبعد من هذا فيرى أن البربر في شمال إفريقيا عرفوا العربية مع الكنعانيين الذي أسسوا حضارة قرطاج؛ حيث «تم إخراج الأمازيغ من العصر الحجري، وإدخالهم للتاريخ والحضارة، فاستعمل الأمازيغ اللغة الكنعانية كلفة حضارة وثقافة مكتوبة بالحضر، في الثقافة، والعبادات، ودواوين دولهم، واستمروا على ذلك إلى أن جاء العرب المسلمون باللغة العنانية، فحدث الربط بين اللغة الكنعانية العروبية، واللغة العنانية العربية، وهذا الذي يفسر لماذا تم تعريب المغرب في وقت قصير وقياسي، هذا بالإضافة إلى أن الأمازيغية هي لغة عروبية قحطانية عاربة»²¹ ومعنى هذا أن اللغة المازيغية في أصلها من اللغات السامية وقد علل القائلون بهذا الرأي إحتوائها على الحروف الحلقية والعبارات الجزلة²²، ولكي «تتضح الصورة بجلاء لابد من استعراض قائمة المؤسسات العلمية والتعليمية وسير عدد من أعلام الفكر والثقافة الذين أنجبهم المنطقة -القبائل- أو الذين جاؤا إليها أثروا الفكر والحضارة العربية الإسلامية بأبحاثهم ودراساتهم ومؤلفاتهم... وكانوا خير خلف لخير سلف حتى اليوم»²³ وإلى يومنا هذا مازالت الجزائر تفخر بأن مازال فيها من يحافظون على هذه اللغة التراثية التي تعتبر أيضا رمزا من رموز الهوية الجزائرية، ففي عام 2002 أصبحت

اللغة المازيغية لغة وطنية، وفي عام 2016 أصبحت لغة رسمية حالها حال اللغة العربية وهذا وما يطلق عليه اللسانيون التعدد اللغوي والذي يعني أن يكون لدولة ما أكثر من لغة رسمية.

وفي محاولة تحقق دراستنا سنتطرق إلى جملة من الظواهر اللغوية التي تعد سمة من سمات الاستعمال اللغوي في المجتمع الجزائري. وأهم هذه الظواهر ما يلي:

1.1.2 التعدد اللغوي: لقد أصبح من الضروري أن ن فصل بين هذه التعدد اللغوي والازدواجية اللغوية -التي كنا قد حددناها سلفا- والثنائية اللغوية في المجتمع الجزائري حيث تعدّ الثنائية اللغوية من قبيل استعمال اللغة العربية الفصحى والعامية الجزائرية بشتى أشكالها، بينما يعدّ التعدد اللغوي من قبيل تعايش لغتين وثقافتين في بلد واحد، حيث تعد الجزائر من الدول متعددة اللغة حيث تتعايش فيها اللغة العربية واللغة المازيغية هذه الأخيرة التي أصبحت لغة وطنية عام (2002م) ولغة رسمية إلى جانب اللغة العربية عام (2016م)، وليس هذا بالنقص بل إنه ثراء لا يستوعبه بعض المعارضين للمازيغية وبعض المعارضين للعربية؛ «نظرا لغياب سياسات الترقية اللغوية في الجزائر التي كان من المفروض أن تتأسس على استلها م التراث الأمازيغي والعربي»²⁴، فمن الضروري أن تتعايش اللغتان والثقافتان فإذا كان القانون التوجيهي على سبيل التمثيل يشير إلى أن غرض تعليم اللغات هو قدرة التلميذ والفرد عموما على الاضطلاع على ثقافات الغير ومختلف انجازاتهم فكيف لا يصح هذا والمازيغية موجودة قبيل وجود العربية في شمال إفريقيا؟

2.1.2 الثنائية اللغوية: لقد تعرض عديد الباحثين إلى مصطلح ثنائي اللغة في محاولة للفصل بينه وبين متعدد اللغات ومزدوج اللغة على النحو الذي قمنا به في مداخلتنا هذه؛ لأننا في حالة وصف للواقع اللغوي للمجتمع الجزائري؛ وكنا أشرنا إلى أن السبب في هذا أن اللغة من أهم الدلائل التي تتم عن مدى ثقافة شعب عن غيره؛ وعلى هذا فمصطلح ثنائي اللغة يعني: «حالة وجود لغة واحدة بمستويين مختلفين: واحد عامي

والثاني فصيح عند شعب ما، وذلك كوجود اللغة العامية بجانب اللغة الفصحى عند العرب»²⁵، وهو حال الجزائر وأغلب الدول العربية التي تتحدث اللغة العربية الفصحى والعامية الخاصة بهذه الدولة، إذن فاللغة العربية «لها نمط العربية الفصحى المثالية، أو عربية القرآن الكريم، وهذا مستوى عال؛ حيث يحمل الثقافة التراثية في مقامها الرفيع، كما نجد مستوى أدنى وهو المستوى البسيط الذي لا يتكلف فيه الناطق»²⁶ وعليه فإن الثنائية اللغوية متمثلة في وجود استعمال المستوى العالي والراقي ألا وهو اللغة العربية الفصحى واستعمال المستوى البسيط الذي لا يتكلف فيه صاحبه إنها العامية المستعملة في المجتمع الجزائري.

والجزائر غنية بعديد اللهجات فبين شرق الجزائر وغربها اختلاف كبير م حيث اللهجة لدرجة أن هناك من المفردات التي يتكلمها سكان المناطق الشرقية فلا يفهمها سكان الغرب والعكس صحيح.

3.1.2 الازدواجية اللغوية: جاء في موسوعة علوم اللغة العربية؛ الازدواجية اللغوية Le Bilinguisme هي: «وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما أو جماعة ما في الآن نفسه»²⁷، وعندما يذكر التعريف اختلاف اللغتين فهذا يعني أن القول بإن تعايش اللغة العربية الفصحى والعامية لا يعني أبدا وجود الازدواجية اللغوية ذلك لأن هذه العاميات هي أقرب إلى اللغة العربية الفصحى بل إنها متفرعة عنها وتصب فيها، فإذا كان هناك عدد كبير من الكلمات الجديدة على اللغة العربية الفصحى في مختلف المواقف التواصلية في المجتمع الجزائري لا يعني أبدا خلو العامية الجزائرية من وجود كلمات كثيرة لها أصول عربية، وهذا التعايش بين العربية الفصحى والعاميات بتعددتها في المجتمع الجزائري يمكن عدّه من قبيل الثنائية اللغوية.

أما الازدواجية اللغوية ومن خلال التعريف الوارد في موسوعة علوم اللغة العربية يمكن عدّه من قبيل تعايش اللغة العربية واللغة الفرنسية، حيث يتكلم عدد كبير من الجزائريين اللغتين معاً، بل إن اللغة الفرنسية لغة التعليم في الجامعات الجزائرية في

التخصصات العلمية والتكنولوجية دون تخصصات العلوم الاجتماعية التي تدرّس باللغة العربية. حيث تعدّ اللغة الفرنسية هي لغة المستعمر المفروضة على الجزائريين في فترة الاستعمار بشتى الآليات؛ والتي أصبح الجزائريون رافضون لها ولأي شيء له علاقة بفرنسا خصوصا مع الحراك الشعبي الذي تعرفه الجزائر منذ 22 فيفري 2019 حيث أصبحت ضرورة التخلي عن اللغة الفرنسية مطلبا من مطالب الشعب، فإنّ هذا ربما يوحي بوعي الشعب الجزائري لمدى خطورة أن تكون اللغة الفرنسية هي لغة التعليم في تلك المرحلة وفي غيرها من المراحل، كمرحلة التعليم الثانوي والمتوسط حيث تدرج الكتب المدرسية عددا كبيرا من المصطلحات العلمية.

4.1.2 التداخل اللغوي: عرّف معجم لسان العرب لابن منظور "التداخل" Interférence على أنّه: «تداخلُ المفاصل ودخالُها: دخول بعضها في بعض... وتداخلُ الأمور: تشابهاها والتباسها ودخول بعضها في بعض، والدخلة في اللون: تخليط ألوان في لون»²⁸؛ ومعنى هذا أنّ التداخل في معناه اللغوي المستمد من مادة [د خ ل] يعني الاحتكاك والتشابه والتباس واختلاط شيئين أو أكثر في بعض، وفي المعجم الوسيط جاء: «تداخلت الأشياء: داخلت، والأمور: التبتت وتشابهت»²⁹، وهو نفس ما ورد في معجم لسان العرب لابن منظور؛ إذ يدل تداخل الأشياء على تشابهها والتباسها ببعضها وتشاركها.

أما التداخل اللغوي أو تداخل اللغات فهو: «تأثر وتأثير لغة بلغة أخرى مجاورة لها أو في احتكاك معها بسبب تبادل اقتصادي، أو حروب أو غير ذلك. وقد يؤدي تداخل لغتين أو أكثر إلى نشوء لغة جديدة كما حدث في مالطا»³⁰، حيث تعكس هذه الظاهرة ما حدث في الجزائر الاحتكاك³¹ المباشر بين اللغة العربية واللغة التركية والفرنسية. وقد أشار صالح بلعيد في هذا الخصوص أيضا إلى أنّه يمكن أن يحدث نتيجة «تأثر اللغة العربية الفصيحة التي يتكلمها الطفل العربي بلهجته العامية أو باللغة الأجنبية التي يتعلمها»³²

والتداخل إما أن يكون إيجابيا حيث يثري اللغة المتأثرة باللغة المتأثر بها، وقد يكون سلبيا ين تطغى اللغة المتأثر بها فتصبح أساسا في تمرير الرسائل اليومية، حيث سنحاول الفصل بين الرسائل المتبادلة بين عامة الناس في الحياة اليومية، وبين الرسائل المتبادلة في المجال الأكاديمي خصوصا في المؤسسات التعليمية.

5.1.2 الهجين اللغوي: إن الحديث عن ظاهرة الهجين اللغوي في كتب علوم الطبيعة والحياة يستدعي منا أولا وقبل أي شيء الوقوف على مفهوم الهجين اللغوي وهو كما عرّفه صالح بلعيد في مقاله المعنون ب: "التهجين اللغوي: المخاطر والحلول" «استيلاء لغة لا هي بالعربية ولا هي بالأعجمية، بالمزج في الخطاب بين كلمات عديد من اللغات»³³، واللغة الهجينة هي: «لغة ذات طابع خاص وتاريخ غير طبيعي حيث إنّها تنشأ من اتصال متحدتي لغتين مختلفتين ببعضهم، علما أن كل طرف لا يتحدث لغة الآخر، وفي هذه الحالة تنشأ لغة مبسطة تأخذ تركيبها اللغوية من إحدى اللغتين وكلماتها من اللغة الأخرى. وليس لهذه اللغة المبسطة متحدثون يتكلمونها كلغة أصلية ولكن مع مرور الوقت ينشأ أطفال ذلك المجتمع يتكلمونها كلغة أصلية، وفي هذه الحالة تسمى اللغة لغة هجينة»³⁴، إنّ أهم شيء يمكننا الإشارة إليه هي أنّ للهجين اللغوي علاقة بالتداخل اللغوي وأنّ هذا الأخير مرحلة سابقة للهجين اللغوي؛ أي أنّ الهجين نتيجة حتمية للتداخل اللغوي، لكنه يمثل التداخل اللغوي السلبي حيث تنشأ من استعمال تركيب اللغة واستعارة كلمات اللغة الأخرى.

ثالثا/ أسباب التنوع الثقافي واللغوي في الجزائر: للتنوع الثقافي واللغوي في الجزائر أسباب كثيرة ساهمت في تشكّل هذا التنوع منها أسباب تاريخية، وأسباب اقتصادية وأسباب اجتماعية، وأسباب سياسية.

1. الأسباب التاريخية: وتتمثل في تعاقب الأقوام المستعمرة على شمال إفريقيا بما في ذلك الجزائر حيث كانت تعرف من كل قوم شيئا بليل أنّك إذا بحثت في الكلمات الجزائرية ستجد منها ما هو روماني وما هو يوناني وما هو فرنسي...إلخ.

2. الأسباب الاقتصادية: بكم التبادلات الاقتصادية فهذا يجبر الجزائريين على الاحتكاك بغيرهم حيث يؤثر كل طرف في الآخر سواء على مستوى اللغة والعلوم والفنون...إلخ.

3. الأسباب الاجتماعية: للتأثير والتأثر الدائم والمستمر بين مختلف الشعوب والمجتمعات، ما يجعل المجتمع الجزائري في محاولة من أجل اللحاق بالمجتمعات المتقدمة كالأوروبية والأمريكية.

4. الأسباب السياسية: نظرا إلى السياسات المنتهجة من قبل المستعمر والتي تظهر نيته الطامحة إلى تخلي الجزائريين عن لغتهم الأم في مقابل استعمال لغته، نحو ما قام به الفرنسيون بتبني سياسة "الفرنسة" في المدن، وسياسة "التجهيل" في القرى والأرياف كي تنتهي من العربية بشكل مطلق.

الخاتمة: توصلنا من خلال بحثنا الموسوم: «التنوع الثقافي واللغوي في المجتمع الجزائري: أسبابه ونتائج» إلى النتائج التي نجلها في النقاط التالية:

أنّ التنوع اللغوي هو دلالة واضحة للتنوع الثقافي في مجتمع ما، أضف إلى هذا أنّ كل من التنوع اللغوي والثقافي لا يعني بالضرورة إعلان حالة الخطر في دولة ما بل على العكس من ذلك ففي حالة ضرورة التعايش اللغوي بين بعض اللغات على نحو ما هو حادث في الجزائر حيث توجد اللغة الأمازيغية والتي تعدّ اللغة الأصلية لسكان شمال إفريقيا وتراث لا بدّ من الحفاظ عليه، واللغة العربية التي تعدّ لغة الدين الإسلامي، ولغة أهل الجنة، ولغتنا الأم؛ فأغلب الجزائريين يتكلمون اللغة العربية. وكل هذه الأشياء تجعلنا أيضا نعمل في سبيل الحفاظ على اللغة العربية.

إنّ الحالة التي تجبرنا على أنّ نتحرك والتي نشعرنا بالخطر هي حالة زحف استعمال اللغة الفرنسية في مجال التعليم خصوصا التعليم العالي في المجال العلمي والتكنولوجي. حيث نتج عن هذه الازدواجية استعمال اللغة الفرنسية في الجامعات، وليس هذا فقط بل ظهر ما يعرف بالتداخل اللغوي الكبير في استعمال اللغتين العربية والفرنسية سواء في المؤسسات التعليمية أم في الحياة العامة.

وعلى هذا فإنني أقترح:

وضع سياسة لغوية تجمع بين اللغتين وتعمل على استثمار التنوع اللغوي والثقافي في الجزائر بما يخدم الشعب والدولة ويغرس في المجتمع الجزائري ثقافة تقبل الآخر.

الدعوة إلى التعايش اللغوي بين اللغتين الرسميتين اللغة العربية والأمازيغية ومحاولة امتصاص التعصب الذي نلمسه في البعض سواء للغة العربية أم للغة الأمازيغية، والنظر إليهما على أنّهما لغتان تعبران عن التراث والحضارة والثقافة.

استثمار وسائل الإعلام والاتصال من أجل ترقية استعمال اللغة العربية وتقريب اللهجات الجزائرية من اللغة العربية الفصحى.

الإحالات:

- ¹- ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ط3، 1999م، باب الناء، 2/ 112.111.
- ²- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2008م المجلد الأول، ص318.
- ³- إيميل يعقوب بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، 9.8/5.
- ⁴- David Crytal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics, Blackwell Publishing, 6th edition, 2008, P 124 .
- ⁵- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4 2000م، ص24.
- ⁶- كان السبب في تأليف هذا الكتاب حسب ما ذكره «عمر مسقاوي» في مقدمة الطبعة الثانية من الكتاب أن الطلاب في المعادي بالقاهرة كانوا يرتادون مجلسه «وأكثرهم يأتيه مستوضحا مفهوم الثقافة فيما كتب في (شروط النهضة وفكرة الإفريقية الآسيوية)، وفي ظل حديثه يوما بعد يوم يدلف من خلال تحليل مفهوم الثقافة عبر تطور الحضارات وتدافع الشعوب، إلى أن تكونت لديه فكرة الكتاب». مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص7.
- ⁷- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص13.
- ⁸- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص74.
- ⁹- أحمد عبد الفتاح الزكي، وفاروق عبده فلي، معجم مصطلحات التربية لفظا واصطلاحا، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، ص142.
- ¹⁰- ينظر: أحمد عبد الفتاح الزكي، وفاروق عبده فلي، معجم مصطلحات التربية لفظا واصطلاحا، ص142.
- ¹¹- بدر الدين بن تريد، قاموس التربية الحديث-عربي، إنجليزي، فرنسي-، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010م، ص283.
- ¹²- R. Galisson et D. Coste: Dictionnaire de didactique des langues, Aubin imprimeur, France, éditions n=6, 1988, P306.
- ¹³- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، 2008م، ص17.
- ¹⁴- أحمد بوكوس، الهيمنة والاختلاف في تدبير التنوع الثقافي، تر: سعيد كريمي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 2016م، ص38.

- ¹⁵ - راضية عداد، الأدب الشعبي في منطقة أم البواقي (النثر خاصة) جمع ودراسة، إشراف: محمد العيد تاورتة، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2005م، ص16.
- ¹⁶ - ينظر: الطاهر بونابي، ملامح النشاط العلمي والروحي والثقافي بقسنطينة أواخر العهد العثماني، عصور الجديدة، ع8-عدد خاص بقسنطينة-، 2015م، ص124.126.
- ¹⁷ - الطاهر بونابي، ملامح النشاط العلمي والروحي والثقافي بقسنطينة أواخر العهد العثماني ص123.
- ¹⁸ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1 1998م، 8/10.
- ¹⁹ - كريم زكي حسام الدين، اللغة والثقافة: دراسة أنثروولوجية لأفاهة وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، كتب عربية، 2005م، ص36.37.
- ²⁰ - أنور الجندي، معالم الفكر العربي المعاصر مع دراسة في الثقافة العربية الإسلامية في معارك التغريب، مطبعة الرسالة، ص207.
- ²¹ - عثمان سعدي، معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية (البربرية)، دار الأمة، الجزائر، ط1 2007م، ص4.
- ²² - ينظر: عثمان سعدي، معجم الجذور العربية للكلمات الأمازيغية (البربرية)، ص5.
- ²³ - يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 1995م، 1/24.
- ²⁴ - يوسف قران، واقع حال التعدد اللغوي في المدرسة الجزائرية (نحو بديل أفضل: اللغة الجامعة)، المجلس الأعلى للغة العربية، التعدد اللساني واللغة الجامعة، الجزائر 2014م، 2/16.
- ²⁵ - إيميل يعقوب بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، 20/5.
- ²⁶ - صالح بلعيد، علم اللغة النفسي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2008م ص43.
- ²⁷ - إيميل يعقوب بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، 1/378.
- ²⁸ - ابن منظور: لسان العرب: دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، المجلد الخامس، مادة [د خ ل]، ص230.
- ²⁹ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4 2004م، مادة [د خ ل]، ص275.

- ³⁰ - إيميل يعقوب بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، 288/3.
- ³¹ - الاحتكاك اللغوي هو: «ما ينشأ من تأثير وتأثير بين لغتين مختلفتين احتك الناطقون بهما بشكل مباشر أو غير مباشر» إيميل يعقوب بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، 224/1.
- ³² - صالح بلعيد، الهجين اللغوي: المخاطر والحلول، المجلس الأعلى للغة العربية، اللغة العربية بين التهجين والتهذيب "الأسباب والعلاج"، الجزائر، 2010م، ص21.
- ³³ - صالح بلعيد، الهجين اللغوي: المخاطر والحلول، ص22.
- ³⁴ - إبراهيم صالح الفلاي، ازدواجية اللغة النظرية والتطبيق، ط1، 1996م، ص18.

واقع وآفاق التعدد اللغوي وأثره في التنمية التعليمية والثقافية بالجزائر.

أ. فتحي بوقمطان

أ. يوسف مريح

جامعة مولود معمري، تيزي-وزو

تُعتبر اللغة همزة وصل بين الشعوب ومرآة عاكسة لتفكيرهم وثقافتهم، ولها عدة وظائف أساسية كالوظيفية التواصلية والتعبيرية والتأثيرية بالإضافة للوظائف الثانوية الأخرى، كما تُعتبر اللغة ذلك النظام الاجتماعي الذي يشترك فيه المجتمع اللغوي الواحد، فإن العالم اليوم وبفضل التطور العلمي والتكنولوجي أصبح يفرض على الفرد تعلم عدة لغات حتى يمكنه التواصل مع المجموعة الإنسانية بشكل جيد، وذلك لأهمية تعلم اللغات وفائدته كما قال غوته الألماني (من لم يعرف من اللغات إلا لغته فقد جهل حتى لغته)، وقد أشار العلماء العرب القدامى إلى الطبيعة الصوتية الاجتماعية للغة، ودلّوا على أنها ظاهرة اجتماعية، كما يعرفها ابن جني (ت 392 هـ) بقوله: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (ابن جني، صفحة 33). وهذا تعريف دقيق يذكر كثيراً من الجوانب المميزة للغة. فقد أكد ابن جني أولاً الطبيعة الصوتية للغة، كما ذكر وظيفتها الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر، وذكر أيضاً أنها تستخدم في مجتمع فكل قوم لغتهم، ويؤكد هذا التعريف الطبيعة الصوتية للغة والوظيفة الاجتماعية للغة وتنوع البنية اللغوية من مجتمع إنساني لآخر، دون تخصيص ذكر اللغة العربية على حساب اللغات أخرى.

وبما أن الاختلاف الطبيعي بين البشر في ألوانهم وأجناسهم، فإن اللغات والألسن أيضاً تختلف من مجتمع لغوي لآخر منذ القدم لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّتِكُمْ وَالْوَلَايِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ (22) (القرآن) سورة الروم.

كما يعدّ التعدّد اللّغوي من أهم الخصائص اللّسانية التي تميّز بها النصوص المكتوبة والشفوية بغض النظر عن التعدّد اللّهجي في الجزائر الذي حضي باهتمام بالغ في الدراسات اللّسانية للغة المتخصصة،

والاشكاليات التي سنعالجها في هذه المداخلة هي كالاتي: ما هو التعدّد اللّغوي؟ وما هي أسبابه، وما هو واقعه بالجزائر؟ وما هي آثاره على التعليم وتنميته؟ وما هي آثاره على الأمن الثقافي؟

وفي ضوء هذا التصرّو سنحاول الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي للإلمام بموضوع التعدّد اللّغوي في الجزائر ومدى تأثيره على تنمية التعليم والثقافة في الجزائر، والذي شهد تطورا كبيرا في السنوات الأخيرة لدى خاصة باعتبار اللغة المازيغية لغة وطنية من الدولة الجزائرية؛

هذه جملة من الأسئلة التي حاولت بحث إجابة عنها من خلال بحث عن المواضيع والمصطلحات المتعلقة بالتعدّد اللّغوي والتنمية البشرية والاقتصادية التي تناولها الباحثين العرب والغرب، واختصرت فيه أهم التعريفات للتعدّد اللّغوي وكذلك عناصر التنمية، وأهم المفاهيم التي تهتم بها، ثم انطلقت إلى الغرض الرئيسي وهو دراسة مدى تأثير التعدّد اللّغوي على تنمية التعليم والنهوض به ؛ وكذلك تنمية وتحسين الواقع الثقافي الحافل الذي تزخر به الجزائر، بالإضافة إلى إنعاش الاقتصاد الوطني وتطويره لمواكبة الثورة الاقتصادية التي يشهدها العالم.

وعلى هذا الأساس، تبقى الاستفادة من هذا التعدّد اللّغوي ضرورة ملحة وراهنة بغية استغلال ما يوجد في الأنظمة اللغوية المختلفة من خصائص ومميزات وتوظيفها في تدريس اللغة المراد تعليمها. فأين يتجلى اللبس الدلالي للتعدّد اللّغوي؟ وكيف يمكننا

أن نستغل هذه الظاهرة في تعليم وتعلم اللغات؟ ثم كيف نوظف هذه المعطيات في إطار ما يسمى بديداكتيك اللغات؟

العرض منظم على الشكل التالي: في البداية، نقدم تصورا عاما ومفهوميا عن مفهوم التعدد اللغوي وما يحويه من مفاهيم تتداخل معه، ونقدم بعد ذلك إشكالية اللبس الدلالي الذي يحدثه التعدد في تنمية التعليم والثقافة، للننقل إلى الحديث عن كيفية تجاوز المشكل انطلاقا من استغلال التعدد في التنمية التعليمية والثقافية والاقتصادية مثلما فعلت كبريات الدول المتطورة.

1- التعدد اللغوي:

مفهوم التعدد اللغوي Purilinguisme: يشير مفهوم التعدد اللغوي في الأدبيات اللسانية عامة إلى وضعيات تواصلية لغوية مختلفة، تختلف فيها اللغة المستعملة حسب الوضعية والسياق أو الحاجيات والغايات والأهداف، أي أننا نتحدث بأكثر من نظامين لغويين، وعلى هذا الأساس، نجد أن التعدد اللغوي يحتوي ما يسمى بالأحادية اللغة والثنائية اللغوية والازدواجية اللغوية، وهو ما يفرض علينا الوقوف عند كل واحد من هذه المفاهيم.

فالأحادية اللغوية يتم فيها غياب مستوى آخر من الأنظمة اللغوية، أي حضور مستوى واحد وأوحد، غير أن هذا يغيب بشكل أو بآخر، لأن كل لغات العالم تتميز بخاصية التعدد اللغوي، وإن كان هناك اختلاف واضح بين أنظمة اللغة وخصوصية كل دولة على حدى.

أما الثنائية اللغوية يمكن تحديدها بأنها " وضعية لغوية يتناوب فيها متكلمون من مجموعة لغوية ما على نظامين لغويين مختلفين " (الشيباني، صفحة 133)، إذ نلاحظ أنها ظاهرة أكثر شيوعا في مجموعة من المجتمعات خصوصا العربية التي تتوفر على مجموعة من الأنظمة اللغوية.

وفيما يخص الازدواجية اللغوية (Diglossie)، فيقصد بها "تواجد نظامين أو نوعين لغويين مختلفين في مجتمع ما تجمع بينهما أواصر قرابة وعلاقة نسب" (الشيباني صفحة 111)، وهي بهذا من الظواهر التي تفرض نفسها بحدّة داخل المجتمعات بصفة عامة، بل إن معرفتها تعتبر من الأمور الضرورية لمعرفة إنتاج المتعلم من اللغة، ومن تم استغلالها في عملية التعلم. ونشير إلى أن ظاهرة الازدواجية اللغوية سمة تتميز بها كل اللغات ولا تقتصر على لغة معينة دون غيرها.

كما يعدّ التعدّد اللّغوي ظاهرة اللّغوية تشهدا عدة دول ومنها الجزائر، وذلك لطبيعة التركيبة اللّغوية التي تتكون منها مجتمعاتها، والتي تتميز عادة بوجود لغتين أو أكثر كالعربية والفرنسية والأمازيغية، وقد اصطلح عليه العلماء اللغة بازدواجية اللغة لوجود عدة تعاريف ومفاهيم تختلف من باحث لآخر، وقد عرّف التعدّد اللّغوي حديثا بـ " هو التّعرف على أنظمة لغوية متعددة قد لا تكون بالمستوى نفسه، ولا القيمة نفسها ولا درجة الإتقان نفسها... ولكنها القدرة على التواصل و التحاور والفهم والقراءة والكتابة...والذي يحرك القدرة ويجعلها فعالة و مثمرة هو التعلم والتعرف والرغبة...وغيرها من المستويات التي تسهم في تحقيق التناغم بين اللّغات التي يتوسل بها إلى الانفتاح على تجارب الآخرين ومعارفهم وطبيعة مجتمعاتهم...فالنظام اللّغوي إذا شيء مركزي:حيث ينبغي التفريق بين اللغات التي لا تمتلك نظاما على مستوى الكتابة، واللّغات التي بحوزتها هذا النظام، فالفرق شاسع بينها: لأن الأولى تتدرج في الانقراض، فلا شيء يسعفها ويقوي شأنها فهي هالكة لا محالة بهلاك من يروج لها، بينما الثانية فماضية في علوها ورفعتها وبسط قوتها بين مثيلاتها لامتلاكها نظاما لغويا معينا تتحرك فيه ووقفه. و هي تسعى من خلاله خلق تقابلات صوتية، وانسجام أصواتي، وتحديد سمات دلالية وخصائص مميزة...تقييمها بين مختلف اللغات الطبيعية ذات الأنظمة المشتركة أو التي تجمعها؛على الأقل بعض الخاصيات المشتركة. (الاسماعيل، الصفحات 01-02)

2- **واقع التعدّد اللّغوي في الجزائر:** يمكن تقييم واقع التعدّد اللّغوي في الجزائر من خلال آراء بعض الباحثين المختصين في ميدان اللغة خلال انعقاد الندوة الدولية سنة 2012م بالجزائر بعنوان: "التعدّد اللّساني واللغة الجامعة" وتمحورت الندوة بتذكيرهم على أهمية التعدّد اللّغوي شريطة الحفاظ على خصوصية اللّغة الجامعة وفي هذا الصّدّد، تحدّث السيد عثمان سعدي باحث و رئيس جمعية الدفاع عن اللغة العربية بالجزائر عن التعدّد اللّساني بالجزائر وعلاقته باللغة الجامعة مفسرا ذلك بأن اللغة الجامعة هي اللغة الرسمية والألسنة الأخرى محاطة بها كلهجات داعمة لها. وتابع السيّد عثمان سعدي حديثه بأن الجزائريين قبل غزو الفرنسيين لهم كانوا ينظرون للغة العربية كـ "لغة وحيدة محاطة بلهجات عربية وأمازيغية تعتبر روافد لها".

أما السيد عبد القادر الفاسي الفهري أستاذ بجامعة محمد الخامس المغربية فأكد بدوره على ضرورة معرفة كيفية تدبير شؤون اللغة الجامعة داخل الوطن العربي. وحث على الاعتراف بالتنوع اللغوي الموجود داخل الوطن العربي خاصة اللغات الأجنبية كالفرنسية والانجليزية المستخدمة في مختلف المجالات العلمية وهذا دون إهمال اللهجات المحلية التي هي لغة التفاعل والحياة داخل المجتمع باعتبارها "مغنية للغة الجامعة وليس مفقرة لها".

ويرى السيد الفهري أن اللغة يجب أن تكون عامة في التعليم أفقيا وعموديا أي تنطبق على جميع المواد وعلى جميع أسلاك التعليم ولتقوية هذه اللغة إلى جانب الفكر بالوطن العربي داعيا في الوقت ذاته إلى الاستعانة باللغات العالمية لدعم اللغة العربية الجامعة خاصة في مجال العلوم التقنيات الحديثة.

ومن جانبه، أشار السيد الحبيب النصراوي أستاذ بجامعة قرطاج التونسية إلى أهمية التعدّد اللّساني في تطوير اللغة العربية التي قال أنها تتطور بما يتاح لها من انفتاح على اللغات الأخرى ضاربا المثل بالواقع التونسي الذي تعبر فيه اللغة الحالية عن عديد

الثقافات التي تداولتها الحقب الزمنية والحضارات المختلفة. وأضاف السيد النصراوي أن التعدد اللساني بحاجة إلى إيجاد آلية للأخذ من اللغات الأخرى دون فقدان الهوية و في الوقت ذاته بعيداً عن التفوق عن الذات. أما السيد صالح بلعيد أستاذ بجامعة تيزي وزو ومنسق الندوة أن اللغة الرسمية وهي اللغة الجامعة لها دور ايجابي انسجامي في المجتمع مضيفاً أن التعدد اللغوي لا يؤثر سلباً على المجتمع سيما إذا استغل عقلاً عن طريق إنزال كل لغة محلها حيث تستخدم اللغة العربية كلغة رسمية بينما تستخدم باقي اللغات الأجنبية في المجالات العلمية والتقنية التي لا تغطيها اللغة العربية خاصة بالجزائر. وأردف السيد حسن البشير أن التعريب الشامل للتعليم المدرسي والجامعي وإنشاء مجمع اللغة العربية القومي و توطين البحث العلمي المتقدم في اللغة القومية (العربية) إضافة إلى تحرير الخطاب القيادي بالعر من جانبه، حمل السيد حسن بشير من جامعة الخرطوم بالسودان في ورقته المعنونة "السياسة اللغوية منهج للتأمل والتطوير ومواكبة العصر" الأمة العربية مسؤولية رسم وتطبيق السياسة اللغوية العربية الموحدة التي تتلاقى فيها أفكار النخب في الوطن العربي خدمة للغة الجامعة المشتركة بين أقطارها (الأبناء، 2012).

وأوضح المتحدث أن السياسة اللغوية العربية الموحدة التي دعا إليها تحتاج إلى رسم الخطط المنهجية الدائمة والخطط المرحلية المرتبطة بالنشاط العربي المتجدد.

3- **التنمية البشرية:** كان مفهوم التنمية الاقتصادية يأخذ في النظر نمو الإنتاج في البلاد وزيادة الدخل القومي. ولكن هذا المفهوم قد تطور ليشمل الجوانب الاجتماعية والثقافية والسياسية لتكون التنمية شاملة بحيث يطلق عليها اسم (التنمية البشرية) أو (التنمية الإنسانية) التي تتخذ من الرفاه الاجتماعي معياراً لها، ليعبر عن إشباع حاجات المواطنين الأساسية من سكن وغذاء وتعليم، وتمتعهم بالرعاية الصحية والضمان الاجتماعي والخدمات الأخرى. وتتصف التنمية البشرية بالشمولية، (القاسمي، صفحة 2)

فهي لا تقتصر على عنصر من عناصر الإنتاج، بل تشمل الإنسان والأرض معاً، ولا تكون لفائدة فئة من المواطنين دون غيرهم، ولا لمصلحة جهة دون أخرى، بل يشارك فيها جميع المواطنين رجالاً ونساء في جميع أنحاء البلاد، وتعم فائدتها جميع المواطنين وهدفها تحسين نوعية الحياة، لتمكين كل مواطن من العيش بطريقة تليق بالكرامة الإنسانية، وينطبق عليها القول العربي القديم الذي يجعل من مهمة الدولة (استصلاح العباد وعمارَة البلاد)

يؤكد القاسمي أن تحقيق التنمية البشرية يتطلب أن تتولى الدولة نشر التعليم الإلزامي الجيد في كل أنحاء البلاد وباللغة الوطنية الفصيحة المشتركة في جميع مراحل التعليم ومستوياته وتخصّصاته، وعلى نفقة الدولة. وهذا ما فعلته فنلندا وكوريا مثلاً، اللتان تستخدمان اللغة الوطنية المشتركة في جميع مرافق الدولة التعليمية والإدارية والاقتصادية، مع تمكين الطلاب من اللغات الأجنبية. ولا يجوز في كوريا مثلاً، أن ينخرط الطالب في مدرسة أجنبية. فالمدارس الأجنبية في كوريا للأجانب (القاسمي، 2012).

فالدولة هي التي تخطط للتنمية البشرية وتنفّذها وترعاها. وطبقاً لتقرير البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، يعكس معدل التنمية البشرية إنجازات البلاد في التعليم والاقتصاد والثقافة.

4- آثار التعدد اللغوي على تنمية التعليم: إنّ التعليم المتعدد اللغات عادة ما يُحيل على البرامج التعليمية التي تستعمل لغات أخرى غير اللغة الأولى كوسائل للتلقين أو تدريس لغات إضافية ضمن المناهج المدرسية أو تدريس الكفاءة التواصلية في أكثر من لغتي، وتعليم اللغات الأجنبية حتمية لابد منها وهذا لا يعتبر إنقاصاً من قيمة لغة الأم (العربية) بل إضافة لها.

ولتحقيق هذا الهدف، فإن هذه البرامج تستعمل مخططات تعليمية معقدة بغية استيعاب الأهداف اللغوية المتعددة ومواد المناهج التربوية واستراتيجيات التدريس.

وقد يطرح هذا المسعى تحديا كبيرا على اعتبار أن التعليم المتعدد اللغات يرتبط بسياقه الاجتماعي واللغوي، آخذا بعين الاعتبار وضعية واستعمال اللغات المعنية كتعليم اللغات الأجنبية بالجزائر.

من الممكن جدا استعمال وتوظيف التعدد اللغوي في المنظومة التربوية التعليمية شريطة مراعاة خصوصية المتعلمين وحمولتهم اللغوية والثقافية ومستواهم العقلي والعلمي.

وتعتبر المقارنة والتداخل ميزتين أساسيتين لفهم التعلق القائم بين اللغات وتأثير كل نظام من هذه اللغات على الآخر، غير أن هذا لا يلغي الالتباس الذي قد تحدثه هذه العملية، فالمتعلم يعمل على نقل "بنية اللغة الأولى إلى اللغة الثانية فإذا كان هناك تشابه في بنى اللغتين فهذا يسهل عملية التعلم بينما إذا كان هناك اختلاف سيضطر المتلقي لتغيير عاداته اللغوية ويصبح الفرق والاختلاف مصدرين للخطأ والتداخل" (دوشين، 2002، صفحة 153).

وتتميز المقارنة التي يقوم بها المتعلم عند محاولته فهم نظام مختلف عما يعرفه عن لغته التي تعلمها وتكلمها منذ نعومة أظفاره، بما يسمى معالجة المعطيات انطلاقا من توظيفه لإستراتيجيات معرفية يواجه فيها اللغة المتعلمة، وما مدى تشابه بعض من عناصر الأنظمة اللغوية مع اللغة المراد ضبط نظامها، بعدها يوظف استراتيجيات فوق معرفية يعرف بها ما مدى نجاحه في عملية التعلم، أو فشله في هذه العملية.

وعلى هذا الأساس، يبقى لزاما على مدرس اللغة كيفما كان نوعها الإلمام بالأنظمة اللغوية التي تتداخل مع اللغة التي نود تعليمها، كما يجب أن يعي أن عدم معرفته بهذه المعطيات يؤدي به في غالب الأحيان إلى الفشل في مهمته.

وهذا ما يبرز لنا فشل كثير من الإستراتيجيات التي تقارب تعليم اللغة، نظرا لإبعادها هذه الجوانب المهمة في اللغات، ونخص بالذكر عدم الاهتمام باللغة الأم بصفة عامة وباللهجات المحلية بصفة خاصة، لأنها تتوفر على عناصر أولية قد تفيد إلى حد كبير في تعليم اللغة بشكل جيد ومضبوط (بلقير، صفحة 02).

إنّ، فاستغلال التشابه الموجود في الأنظمة اللغوية المختلفة يعتبر عتبة أساس، وأوليات مهمة في تعلم اللغة المراد تعليمها، خاصة وأن اللغة المتعلمة في بلد تكون في بعض الأحيان قريبة من اللغة الرسمية، وإن كان هناك تباعد بينها وبين ما هو موجود من لغات ولهجات مختلفة.

كذلك، فمعرفة النظام النحوي لهذه اللغات يسعفنا كثيرا في تدريس النحو لفئة مستهدفة، فإذا كان في لغة يعرفها المتعلم ويتحكم في نظامها، أن الفاعل والفعل يتطابقان يسهل على المتعلم فهم الظاهرة صياغة المثني مثلا، انطلاقا من قيامه بعملية المقارنة والنقل، لكن إذا كان هناك اختلاف يصبح لزاما على المدرس أن يتلافى هذا التداخل، وذلك بشرحه القاعدة بضرب أمثلة على هذا الاختلاف من الدارجة إن اقتضى الأمر ذلك.

ويرى دارسوا اللغات أن الغالب في الشخص الذي يستعمل عددا من الألسنة أنه قد لا يتقن أي لغة منها إتقاناً جيداً أو متعمقا، على الأقل تكون معرفته باللغات التي يستعملها متساوية القيمة وهذا ما يجعلنا في التعليم المعاصر القائم على الثنائية التعددية وأمام وضع يتخرج التلميذ فيه من المؤسسة التعليمية أو الثانوية أو الجامعية وهو لا يتقن لغته الوطنية ولا أية أخرى إتقاناً جيداً، وفي هذه الحالة يحدث ما يطلق عليه كثير من الباحثين اسم (انعدام الأمن اللغوي) الذي أسال حبر كثير من الباحثين في السنوات الأخيرة (الودغيري، صفحة 66).

5- آثار التعدد اللغوي على تنمية الثقافة بالجزائر: يعد التعدد اللغوي في الجزائر من بين أسباب التنوع الثقافي الذي تزخر به، فالغة العربية تحمل ثقافة العرب وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم في المنطقة، واللغة الأمازيغية تحمل ثقافة الأمازيغ وحضارتهم، فالتنوع الثقافي ظاهرة طبيعية وسمة أساسية في المجتمعات البشرية ويشير مفهوم التنوع الثقافي إلى التعدد والاختلاف الثقافي بين أفراد المجتمع الواحد الذين على الرغم من اختلاف خلفياتهم الثقافية، إلا أنهم يشتركون في عوامل متعددة

ومنها: اللغة، القومية، وتقوم العلاقات بين الأفراد من ثقافات متنوعة على أساس الاحترام، والتشارك، والتسامح، إضافة إلى تمتعهم بحقوق متساوية دون أي تمييز وباختصار تعتبر اللغة الهوية الثقافية لمجتمع ما (موضوع، صفحة 01).

يعتبر التعدد اللغوي المظلة التي تجمع أفراد المجتمع على اختلاف خلفياتهم الثقافية. والعلاقة بين التنوع اللغوي والتنوع الثقافي علاقة وطيدة، فكل لغة لا تكتمل إلا بالثقافة، ولعل أبرز ما يميز اللغة قدرتها على استيعاب التنوع الثقافي للشعوب ووظيفتها التي تركز على حفظ ثقافة المجتمع اللغوي من الانحلال في الثقافات المختلفة والاضمحلال، لتبلور لهم في النهاية هوية ثقافية واحدة تجمعهم مسجلة كحفظ التراث والتاريخ الإغريقي في إلياذة هوميروس، ولعل أبرز مثال على العلاقة بين التنوع اللغوي والهوية الثقافية الجزائرية، التي جمعت قوميات متعددة، وخلفيات ثقافية متنوعة داخل هوية ثقافية واحدة، وهي الهوية الجزائرية، مظاهر التنوع اللغوي وأبعاد الهوية الثقافية تسود الجزائر اليوم العديد من الثقافات المتنوعة، فلا وجود لثقافة واحد سائدة بل لكل جماعة إنسانية خصوصية تميزها عن غيرها من الثقافات، بحيث يجمعها مركب متجانس من القيم، والمعارف، والرموز، فقد نجد بعض الثقافات منتشرة بكثرة جغرافيا كالثقافة العربية، والبعض الآخر تتواجد بأقاليم معينة كالثقافة الأمازيغية في بلاد القبائل، ويوجد تنوع ثقافي في إطار الوحدة اللغوية كما هو حاصل في الثقافة العربية بصفة عامة، بالإضافة إلى شعوب توارق التي لها خصوصيات التنوع نفسها في إطار لغة موحدة، وعلى الرغم من أن التنوع اللغوي والثقافي ضرورة بشرية، فقد أظهر التاريخ وجود صدامات متكررة بين الثقافات المتنوعة غالباً ما ينجم هذا النوع من الصراعات نتيجة لعدم تقبل الآخر، وبالتالي الدخول معه في زوبعة من الحروب والنزاعات مثلما وقع في زمن الفتوحات الإسلامية مع السكان الأصليين لشمال إفريقيا فالتعدد الملاحظ على مستوى اللغات بين الأفراد، والجماعات، والشعوب موجود منذ الأزل وهو طبيعي في تنمية ثقافة كل مجتمع بالحفاظ على تراثه وتاريخه عن طريق

الكتابة أو الرسومات والنقوش، فتاريخ الأمازيغ وحروف الأمازيغية (تيفيناغ) تعود للأصول الفينيقية التي كان البربر يستعملونها في كتاباتهم على ألواح المقابر. ثم تطورت إلى الكتابة المعيارية ثم إلى الأمازيغية الحديثة (بلعيد، هل تشتعل حرب الحروف، 2016، صفحة 41).

6- محاسن التعدد اللغوي: كما للتعدد اللغوي أضرار ومساوئ كتشجيع الهيمنة والتعصب والعنصرية والفتنة بين المجتمعات والأقاليم اللغوية المختلفة نجل له محاسن كثيرة ذكرها الدكتور صالح بلعيد منها ما يلي: (بلعيد، 2015، صفحة 44)

1- تطوّر اللغات الوطنية والاستفادة من تجارب ولغات الشعوب، وإحداث التوازن والتعايش السلمي والحفاظ على الموروث الثقافي من الإنقراض.

2- تعدد الأسس تسهيل الحصول على وظيفة.

3- التنوع داخل الوحدة فضيلة ويساهم في بناء لغة واحدة جامعة.

4- التعدد أن يخرج من أفواه الشعب عن طريق الحوار وهو رأي النخبة الوطنية.

5- الاختيار المستقبلي للأجيال في اللغات الأجنبية.

6- اختيار اللغة العلمية ذات الآفاق العلمية الدقيقة.

7- مراجعة السياسة اللغوية بخصوص اللغات الأجنبية (حيثما وجدت المصلحة فثم

شرع الله).

8- القرار السياسي الملزم، والالتزام بما يصدر في الدستور.

وهذه المحاسن تختلف وتتفاوت من دولة لأخرى بحسب السياسة اللغوية المنتهجة لأن التنوع اللغوي يساهم في تقوية اللحمة الوطنية بتقوية الروابط الثقافية والحضارية إذا لقي الاهتمام البالغ من قبل الدولة والشعب لأن النول الكبرى تسعى لتوحيد لغاتها مثلما وحدت عملاتها وأسواقها كأمريكا والاتحاد الأوروبي.

خاتمة: ختاماً لكل ما سبق نستنتج أنّ التعدّد اللّغوي بالجزائر قد ساهم في تنمية في بعض المجالات كالّ تعليم والثقافة والسياسة، والذي يعتبر نتاج تلاقح لغات وثقافات وحضارات عبر الأزمنة، والعلاقة بين التعدد اللغوي والأمن الهوياتي علاقة وطيدة استثمرتها بعض الدول المتقدمة كالولايات المتحدة الذي يبنى على ما سبقه من بحوث ونظريات. ونتيجة لذلك أذكر ما خلص له البحث من نتائج ووصايا:

■ التعدّد اللّغوي ظاهرة لغوية إيجابية استفادت منها عدة علوم ومعارف في شتى الميادين والمجالات كالّ تعليم فقد استفاد من التعدّد اللّغوي بإثرائه باللغات والمصطلحات والمفاهيم مما زاده شساعة وثراء ؛

■ يجب اعتماد لغة ذات مرجعية وتتميز بالعلمية والتطور لتواكب الركب الحضاري العالمي وهذا لا يعني إبادة اللغات واللهجات المحلية الأخرى ؛

■ أحسن وسيلة لتوطيد أمن الأمة وهويتها هو التوحيد اللغوي والثقافي لمجتمعاتها المختلفة؛

■ يجب على الجزائر أن تحذو حذو الدول المتقدمة باستثمار التعدد اللغوي الموجود بها باتخاذ سياسة لغوية رشيدة، تخرجها من طريق الصراع اللغوي وتحقق لها الأمن الهويّاتي بالجزائر .

وأخيراً يعتبر الهدف من هذا البحث المتواضع التعريف بالتعدّد اللّغوي والثقافي وأهميته وأسباب وجوده ومحاسنه، وكذلك تبين العلاقة بين التعدد اللّغوي والتنوّع الثقافي الكبير، وكذلك إظهار مدى تأثير التعدّد اللّغوي على إرساء الأمن والاستقرار للهوية في الجزائر، وتوضيح المفاهيم المتعلقة به في الأوساط الجامعية والتعريف بها للأساتذة والطلبة للإعتراز بها حفاظ عليها وتنميتها.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم ؛

1. ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب العربي، 2000 بيروت .

2. ابن فارس بن زكريّا أبو الحسين أحمد (1418هـ/1997م): الصّحّايّ في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحق، أحمد حسين بسبح، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، لبنان؛

3. القاسمي علي، السياسة الثقافية في العالم العربي، مكتبة لبنان، 2012.

4. الاسماعيلي، قناة هبة ببرز الالكترونية، التعدد اللغوي بين الممارسة و التطبيق: نظرة المجتمع و التحديات الراهنة، www.hibapress.com/details-2902.html

5. ينظر الودغيري (عبد العلي)، لغة الأمة ولغة الأم عن واقع اللغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثقافية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2013. .

6. وكالة الأنباء الجزائرية، أهمية التعدد اللغوي شريطة الحفاظ على اللغة الجامعة، جزييرس 2012

7. رقية دوشين: بعض العناصر الأولية للاكتساب اللغوي عند الطفل، تعليم وتعلم اللغة العربية والتعليم المتعدد، عبد القادر الفاسي الفهري، ج 1، 2002. .

8. صالح بلعيد، اللغة الجامعة، مخبر الممارسات اللغوية، نيزي-وز، 2015.

9. ينظر صالح بلعيد، هل تشتعل حرب الحروف، دار الأمة، الجزائر، 2016.

10. عبد العزيز بلفقيه، التعدد اللغوي واللبس الدلالي وأثره على التعلم، العدد 2012، 2311 جريدة المثقف الالكترونية www.almothaqaf.com/qadayaama

11. - محمد الشيباني: اللغة والتواصل التربوي والثقافي، مقارنة نفسية وتربوية (مجموعة من الباحثين)،.

12. مجلة موضوع الالكترونية، مظاهر التنوع الثقافي في العلم وبعض إبعاده الثقافية ص.01 <http://mawdoo3.com>

الثقافة العامّة

بين التعصب الثقافي الفرعي والتنازع على السّطة

أ.د. عبدالناصر بوعلي

جامعة تلمسان.

1 - تمهيد: تمرُّ الأمة بأزمة ثقافية وحضارية عميقة، شهدت تراجعاً تظهر جلياً في مستويات عدّة، وتشير الإحصائيات الصّادرة عن المنظمات الثقافية والتعليمية العالميّة إلى واقع مؤلم لأوضاع الثقافة العربيّة، من ناحية الإنتاج الثقافي والعلمي والإبداع بجميع ضروبه، وغياب وعي ثقافي هادف يؤمن بالحرية، والحوار، والعلم والممارسة الديمقراطية. وهو ما نوّد طرحه بالدراسة والتحليل ضمن هذا المداخل.

2- تعريف الثقافة: تتعدّد تعاريف الثقافة في اللغة العربيّة فهي من الفعل الثَّلَاثِي تَقَفَ الذي يدلّ على الفطنة، والدّكاء، والحقّ، والتّهذيب، والتّعلّم، والعلم. والثقافة من التَّقَفِ وله عدة معانٍ في لغة العرب وفق ما هو وارد في المعاجم الموثوق بها عند علماء اللغة ومنها: تسوية الشّيء وتقويم اعوجاجه، يقال: تَقَفْتُ الرُّمَحَ أو القوسَ أو أيّ شيء معوج، إذا قَوَّمْتُهُ وَسَوَّيْتُهُ من اعوجاجه فيغدو مُتَقَفّاً مُقَوِّماً وعلى هذا أُسْتُعِيرَت لفظاً "مُتَقَفٌ" إلى كل ما مستقيم صلب. ومنه الحَقُّ والمهارة في اتقان الشّيء، وتَقَفَ الشّيء تَقَفّاً وَتَقَافاً وَتُقُوفَةً حَقَّهُ، وَرَجُلٌ تَقَفٌ وَتَقَفٌ، وَتَقَفَ الرَّجُلُ تَقَافَةً، أَي صارَ حَاقِظاً فَطِناً فَهُوَ تَقَفٌ وَتَقَفٌ.²

وأما في الاصطلاح فإنّ مفاهيمها تتنوع أيضاً فقد فتعني:

- مدى الإلمام بجميع قضايا الحياة والرّقي في الأفكار.

- اكتساب مجموع العادات والتّقاليد والأعراف، والمعارف، والعلوم المنتشرة في

المجتمع.

- مجموعة العادات والمعتقدات والتجهيزات والمعارف والعلوم والفنون والأخلاق السائدة في مجتمع¹.

- الثقافة هي مجموعة من القيم والعقائد والمعارف التي يشكل منها وعي المجتمع تساهم في وعي الأفراد وتكسب الإنسان أسباب العيش السليم في الحياة، بما نحمله من قيم المحبة والود والرحمة والتعاون بين الأفراد في المجتمع الواحد.

- الثقافة هي ذلك النشاط البشري الذي يسعى لإيجاد معادلات أو صيغ رمزية للأفكار، والقيم والأهداف، داخل أي مجتمع. وهي نتاج لكل ما في هذا المجتمع من معارف ومعتقدات وتقاليد وأخلاق، أي باختصار كل الصفات التي تؤهله وتنقله من مرحلة الشخص الفرد إلى العضو الجماعة.²

3- أهمية الثقافة: لن أخوض كثيراً في أهمية الثقافة في ترسيخ أركان المجتمع فالبعض يجعل وظيفتها محدودة ويقصرها على النخبة من الناس، وآخرون يجعلونها وعاءً شاملاً لكل ما يحيط بالمجتمعات البشرية، فهي تشمل كل ما يوجد في المجتمع من تراث وتقاليد ومعارف، وكل ما يكتسبه الفرد من معتقدات تجعله عضواً ناجحاً في المجتمع الذي يعيش فيه.

غاية الثقافة تهذيب الحس والارتقاء بالنوع العام، وتنمية القدرة على الحكم، ومهما كان المفهوم العام للثقافة فإنها تتنوع بتنوع الأمم والشعوب والجماعات العرقية وبقية التجمعات الرابطة بين الأفراد.³

4- الحياة الثقافية: أيهما يصنع الآخر، هل الحياة التي تشكل الثقافة أم الثقافة هي التي تطبع الحياة، تلازم ليس من السهل فكّه، فعلماء الاقتصاد يرون أن الموارد والحاجات هي التي تضبط سلوك الناس في مجتمع ما نتيجة الحاجة التي تدبر المعيشة وأما علماء الاجتماع فيرون أن المفاهيم التي تقدمها للناس حول الموارد والحاجات هي التي تمكنهم من تبرير نمط حياتهم.

بعض العلماء المحدثين يأخذون بالافتراضين معاً، بمعنى أن الوضع المادي هو الذي يصنع عناصر ثقافة المجتمع، كما أن ثقافة المجتمع هي التي تُقرّر الكثير من الشكل المادي الذي يسود المجتمع، فالاثنتان يؤثر كل منهما في الآخر.

إنّ المجتمع الزراعي الذي يعتمد على الأمطار يُوفق بين موارده وحاجاته بإشاعة نمط ثقافي يعتمد على الصبر والقناعة والنصيب. في الوقت الذي يقوم فيه المجتمع الصناعي مثلاً على اعتماد قيم ثقافية لها علاقة بالتنافس، وخلق حاجات جديدة ليتمّ إشباعها عن طريق إنتاج جديد.

لذلك فمن الرأي أن نقول: إنّ الثقافة بمعناها العام هي الحافز، أو المعوق للنمو في المجتمع، فالثقافات البدائية التي تُمارس في المجتمعات الأفريقية المتخلفة والتي تقوم على الخرافات والأساطير تسهم إلى حدّ ما في الإبقاء على التخلف، والعكس فإنّ الثقافات التي تمجد العقل وتحرره من الطابوهات تسهم إلى حدّ بعيد في تطوير هذه المجتمعات.

5- **الثقافة والتاريخ:** هل يحقّ القول: إنّ مجتمعاً بلا ثقافة هو مجتمع بلا تاريخ؟ قد يكون ذلك حقيقة، فتقافة النوارق في الجنوب الجزائري ما كانت لتبقى لولا أن الفنان التارقي خلّد النقوش والحلي والملابس، وحافظ على العادات والطبائع، ولولا الأهرامات والمعابد والمدافن ما كنّا لنعرف تاريخ مصر.

تحرص الدول على بناء المتاحف وجمع الآثار، وإحياء الفنون، لأنها تحفظ التاريخ. نقرأ أن هناك حضارات وشعوباً سادت ثم بادت لأنها لم تخلف من المعالم الثقافية شيئاً وهو ما يتعلق بالهندو الحمر في قارة أمريكا الذين أريد لهم الزوال.

وهو الأمر الذي تفتنت له إسرائيل، فبعد أن كادت ثقافتها تضيع فإنها اليوم تُخصّص أعلى الميزانيات لإعادة بناء الثقافة اليهودية في لغتها وعمرانها وعاداتها ومأكليها وملبسها.⁴

فالثقافة تؤكد التاريخ وتدعمه ولعل ذلك ما حدا ببعض الأقليات في العديد من المجتمعات للنضال من أجل الحفاظ على عاداتها وتقاليدها ولغاتها ولهجاتها وأن يقاوموا الأكثرية ويلقوا اللوم على السلطة كلما أحسوا بقلّة الالتفات إلى مقوماتهم.

6- الثقافة والتغيير:

هل الثقافة أداة تغيير في المجتمع أم استمرار له؟ هي إشكالية درست مرارًا والإجابة عن هذا السؤال تأتي بنعم أو لا.

فإن كان المجتمع راضيا عن نمط حياته، مقتنعا بالنموذج الأوفى القادر على تأمين الضروريات والحفاظ على الأمن العام للمجتمع والانسجام بين أفراده، فالثقافة هنا هي العنصر المحافظ على الأوضاع ودوام الاستمرار في الأحوال القائمة.

وعندما يعتقد المجتمع أن نمط العيش، وشكل العلاقات والوضع العام التي يعيشها ينتابها التعقيد وهي مدعاة نحو الضعف والتخلف فهنا تغدو الثقافة أداة تغيير. وبذلك تعد الثقافة في كلتا الحالتين الإسمنت الذي يرسم للمجتمع مساره فيصبح مبدأ: التغيير والاستمرار من الثقافة.

إن ثقافة التغيير نحو الأفضل هي من خصائص المجتمع الجزائري تؤكدتها النصوص الدينية فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾⁵ وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾⁶ وورد في الحديث الشريف «من رأى منكم منكرا فليغيره، بيده، فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»⁷ تمارس ثقافة التغيير بإحدى الطريقتين إما التغيير القسري وذلك عند استفحال الحال وتعفن الوضع والتغيير التدريجي وفيه يلتفت أصحاب التغيير إلى مناهج التعليم فيغير فيها حسب ما يريد النظام الجديد فيثبت أو يلغي، يزيد أو ينقص، يظهر أو يخفي.

على أن الثقافة نفسها عرضة للتغيير، فالتغيير سنة الحياة ولا يوجد شيء يبقى على حاله، فأنماط الحياة تتنافس، ينمحي بعضها ويتدفق الآخر، يسميه البعض المنافسة ويسميه آخرون الصراع، ولكنه يبقى في الأخير ثقافة.

7- **الثقافة في ظل التطور التكنولوجي:** السؤال المطروح كيف تستطيع الثقافة القيام بدور توجيه وعي الجماعة وتوحيدهم في المجتمع في ظل هندسة المعلومات لقد مرت الثقافة البشرية بثلاث مراحل أساسية:

1- المرحلة الأولى هي الشفاهية وفيها كان التواصل مباشراً.
2- المرحلة الثانية هي مرحلة الكتابة التي تطورت بظهور الطباعة وفيها دخل القارئ سطوة النص.

3- المرحلة الثالثة وهي مرحلة التواصل الإلكتروني، وطرفه الأساسي هو ذلك المرسل الذي يملك الجهاز ويديره وعلى المرسل إليه أن يتلقى فقط، وهنا دخلت المجتمعات في الثقافة المقولبة التي فرضتها العولمة وهدفها توجيه الشعوب نحو مقصد معين مستعملة في ذلك السطوة الإعلامية التي يملك الأقوى في العالم.
إنّ هذا الأمر يلغي الحدود الخصوصية والتمايز بين الثقافات وينتج نمطاً عالمياً مشتركاً في الأذواق والمعارف، وبذلك تفقد الثقافات جمالها ويريقها وهو الأمر الذي ينبغي أن نستعدّ له ونواجهه من الآن.

«إنّ تكنولوجيا المعلومات ستحطم الكثير من الحواجز الفاصلة بين الثقافات وسيترتب على ذلك ظهور توليفات علمية ومنهجية مستحدثة، تؤدي إلى أفكار منضبطة تحت راية واحدة سرعان ما تبعث على الملل وانعدام الذوق الجمالي الذي كان يفوح من التنوع المعرفي والثقافي»⁸.

8- **التعصب الثقافي:**

أ/ **تعريف التعصب:** التعصب من العُصبة وهي أن يدعو الفرد إلى نصره عُصبته التي ينتمي إليها، وتربطه بها رابطة من روابط العرق أو الدين أو التاريخ أو المذهب

أو الحزب أو اللغة أو بعضها. فيتألب معهم على من يعارضهم ظالمين كانوا أو مظلومين يقال: تعصبوا عليهم تجمّعوا عليهم⁹.

ومنه العصبية القبلية التي عاشها الأفقون نتيجة عوامل متعددة، أبرزها الجهل والأمية وسيطرة العواطف والأهواء، فقد كان الفرد ينوب في القبيلة يحمل ما يحملون ويناصر من يناصرون ويعادي من يعاونون، وفي ذلك قال شاعرهم:

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غُرْيَةٍ إِنْ غَوَتْ *** غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدُ غُرْيَةٌ أُرَشَّدُ¹⁰.

ب/ وفي الاصطلاح فالتعصب شعور داخلي يجعل الفرد يتشدد، فيرى نفسه دائما على حق، ويرى الآخر على ضلال بدون أي دليل ولا حجة ولا برهان¹¹.

يتجلّى هذا الشعور في شكل ممارسات ومواقف مترممة، ينطوي عليها احتقار الآخر وعدم الاعتراف بحقوقه الاجتماعية والثقافية والسياسية.

التعصب ضد التسامح، وعدم قبول الآخر، ورفض معالمه ومكونات شخصيته الثقافية والاجتماعية، وعدم التواصل معه وحتى الإنصات له، إنه شعور الفرد بأنه على حق والآخر على خطأ، يفسره علماء النفس على أنه وضعية اجتماعية مريضة تولد الكراهية والعداوة والبغضاء في العلاقات والروابط الاجتماعية والثقافية والسياسية، لذلك مقنّها الدين الإسلامي، فقد ورد في الحديث الشريف: «ليس منا من دعا إلى عصبية أو من قاتل من أجل عصبية أو من مات من أجل عصبية»¹².

ج/ أسباب التعصب: ترجع أسباب التعصب إلى مجموعة من العوامل أبرزها:

1- انتشار الجهل والأمية بين أبناء المجتمع الواحد مما يدفعهم إلى الانغلاق وعدم النفتح على الآخر، وسوء إدراك الحقائق.

2- النشأة الخاطئة التي تسهم فيها الأسرة والمحيط الاجتماعي والتربوي القاصر الذي يؤدي إلى سوء تنمية الأفراد عقليا وثقافيا.

3- سوء فهم النصوص التي يستمد منها الأفراد ثقافتهم من دين وعادات وتقاليد وأعراف اجتماعية.

4- عدم وجود أهداف سامية في الحياة ترسمها الأنظمة القائمة وتسهر على توفيرها لشعوبها.

5- الشعور بالنقص وتفضيل المصلحة الذاتية بفعل ضيق مساحة الحرية التي يعيش فيها العديد من الأفراد في بلدانهم.

د/ طبيعة التعصب الثقافي: إنَّ التعصب الثقافي هو التوقع في العقائد والهويات والأفكار والأيديولوجيات، توقع نابذ للآخر ومتكئ على شعور زائف بالتفوق.

أخطر ما في التعصب الثقافي أن ينطلق من تبرير ديني مانحاً الثقافات ماهيات دينية ليس إلا، فيكون المنطلق السياسي لبعض الحركات هو الحضارة الإسلامية في صراعها مع الحضارة المسيحية، أو الحضارة المسيحية مع الحضارة الإسلامية.

هناك من يرى في الاختلاف التاريخي في البلد الواحد ذريعة لرفع هذا التعصب إلى اختلاف ثقافي هوياتي، وقد يكون من بين هؤلاء من يمارس السياسة أو الاقتصاد وبذلك يتحول هؤلاء السياسيون إلى متعصبين ويشرعون في إصدار الأحكام بعناد زائد يفوق ما تستحقه، وتتحوّل مواقفهم من رؤية دفاعية إلى رؤية نقدية للآخر.

فقد تحوّل كثيرٌ من المثقفين إلى مدافعين عن أراء متعصبة لأفكار ضيقة متهمّين بالآخر، وبثقافته وقناعاته، وحول هؤلاء أنفسهم إلى دعاة حق تساعد في ذلك الآلة الإعلامية، فغدا الأبيض أسودا وصار الأسود أبيضاً، وكان قوس قزح لا يحوي أي ألوان أخرى.

وصار الدفاع عن الثقافة الجزئية يخفي تحته مصالح ذاتية أو فئوية، وتمّ استخدام العلم سلاحاً سياسياً انطلاقاً من دوافع أيديولوجية، والأسوء عندما يتم استخدام هؤلاء المثقفين آخرون لأداء مهمة الانحياز، نظير أجر في صراع يهدف إلى المصالح لا إلى الحقيقة. ويتحوّل هؤلاء إلى كذابين ومأجورين حتى داخل أروقة المعاهد والجامعات العلمية بدعوى إنهم علماء من أهل الاختصاص في التخصصات العلمية، من فقه واقتصاد، ولسانيات، وتاريخ... .

9- صراع الثقافة الفرعية مع الثقافة المشتركة: الصراع والاختلاف ليس نبأ عربيا إسلامياً، كما تحاول كثيرٌ من القوى في الغرب الترويج له والتأكيد عليه، وإنما هو جين أصيل في الجنس البشري على مرّ الأزمان وفي كل مكان، وحينما نتأمل الصراعات التي تجتاح العالم، سنجد أنّ أساسها الأول هو الاختلاف في الفكر والرأي والمخالفة في العقيدة والأعراف واللغات، واتساع الفجوة بين الهويات التي تحيى تحت سماء واحدة، ثم تكتشف أنّ هذه الصراعات تُشعل جذوتها مصالح اقتصادية وسياسية تتخذ تلك الاختلافات حجة لتحقيق مآربها في السيطرة والتحكم وفرض النفوذ ومن هنا نتساءل: كيف لا تصبح ثقافة الأمة الواحدة وطناً أكبر حاضناً لتلك الهويات المختلفة؟ باعتبارها الثقافة العامة.

هذا هو السؤال الأهم في عالم بدأت تتعالى فيه نعرات الأقليات ونداءات القضاء عليهم، نظراً لحملهم ثقافات فرعية قد تقترب من الثقافة العامة، وقد تختلف، فما هي الثقافة الفرعية وما علاقاتها بالثقافة الكلية.

أ/ الثقافة الفرعية: ينضوي تحت مفهوم هذا المصطلح مجموعات من الأفراد ذوي خصائص مماثلة مثل العمر، والطبقة، والعرف، أو الدين واللغة، أو المعتقدات وبإمكان هذه الجماعة أن تكون ثقافة فرعية مناهضة للثقافة السائدة في المجتمع. فهي ثقافة خاصة ضمن ثقافة عامة، ولا يخلو أي مجتمع من هذه الثقافة الفرعية، ويطلق على حاملها مصطلح الأقلية.

تكاد هذه الظاهرة أن تكون سمة لكل دولة، حيث لم تفلح أي دولة في خلق ثقافة عامة مشتركة تستوعب جميع الثقافات المحلية وتكون نموذجاً يُحتذى به.

ففي العالم العربي، وعلى الرغم من المقومات الموجودة التي يمكن أن تدفع نحو أشكال وحدوية ثقافية، كون شعوب الدول العربية يتحدثون لغة واحدة، ولهم تاريخ مشترك تقريبا، وأغليبيتهم يدينون بدين واحد، مع أقليات دينية أخرى، إلا أنّ كل ذلك لم

يستثمر في خلق ثقافة تذيب الفوارق الثقافية الموجودة. ويمكن تحديد أبرز أوجه تلك الثقافات فيما يأتي:

- بعد انحسار الحركة القومية العربية تم تعزيز الدولة القطرية برزت الثقافة القطرية بشكل قوي محدثة شرخاً بين أبناء الشعب العربي، فأصبح لكل قطر ثقافته وشخصيته المتميزة.

ذلك ما شجعت الأنظمة الحاكمة للترويج لحكمها والمحافظة على وجودها، وبذلك أصبحت الشعوب العربية كيانات منفصلة تتنافس القيم المشتركة وتتصارع مع بعضها ولعل أسطع الأمثلة على ذلك ما تفعله الرياضة عندما تتحول المنافسات الرياضية إلى معارك سياسية وقطرية إلى حد العنف.

ب/ من الثقافة القطرية إلى الثقافة في القطر الواحد، ففي كل قطر عربي لا توجد ثقافة عامة مشتركة يمكن أن يلتف حولها أفراد دولة عربية ما. فعلى الرغم من ترسيخ الثقافة القطرية لكل دولة عربية ما. فعلى الرغم من ترسيخ الثقافة القطرية لكل دولة فإنها لم تنجح في إنهاء التباين الثقافي بين مكونات المجتمع، لأن معظم الأنظمة العربية قامت إما على الطائفية، أو القبلية، أو الأقلية العرقية، أو التشكيلية الاجتماعية في هيمنتها على دواليب الحكم. وحتى تحافظ على سلطتها خلقت حالات من التفرقة والصراعات الاجتماعية والسياسية وشكلت الموالاة والعارضة. ثم حولت كيان الدولة إلى نظام من المحاصصة خصوصاً بعد تسييس التشكيلات الاجتماعية.

تخللت هذه الثقافات الفرعية أصناف من العصبية والمفاهيم الإقصائية ثم تجذرت في العديد من المجتمعات العربية، فتكونت الطوائف والمذاهب، وأفضت إلى بروز سلوك العنف والمصادمات الدموية كما حدث في دول المشرق العربي سوريا ولبنان والعراق وحتى الجزائر.

10- هل التعدد الثقافي معيقاً للنهوض الشامل: ليس التعدد الثقافي هو الذي يعيق النهوض الشامل للأمم، بل إن طبيعة الثقافات التي تنطلق منها هي التي تمثل العائق

الحقيقي لتحقيق ذلك، فلو تفحصنا الثقافات المنتشرة في المجتمع العربي سنجد أنها تحوى عناصر تقف عائقاً أمام تطورها، فهي تشجع التعصب والانقسام، وتدعو إلى التفاضل على أساس الانتماء والعرق، وتمجد الحاكم وتزهره عن الخطأ.

إنّ هذه الثقافات يغلب عليها الطابع الميتافيزيقي على الواقع، وهي حبلى بمفاهيم غير واقعية، وبعضها يتنافى حتى مع المنهج العقلي، وإن هي وضعت في سياقها التاريخي نجد الكثير منها تمثل المرحلة التي سبقت الحضارة العلمية الحديثة، وقد تسبق العهد الرُّشدي إن لم نقل حتى الإسلام الذي مجد العقل كثيراً.

إنّ في الثقافات العربية مفاهيم تقوم على أسس فئوية ونخبوية، وتفاضل بين الناس على معايير وهمية، وتُجذر التعصب والتمييز بين الأفراد، وتقوم على الذاتية وتمجد الحاكم وتقسه، وتعيق الاجتهاد والحريات.

10 - تحديث الثقافة العربية: إنّ أي عملية للنهوض بالمجتمع نحو التقدم والرقي أساسها ثقافي، فالثقافة السائدة في مجتمع ما تعكس طبيعة قيم هذا المجتمع، وتخلق البيئة التي تحتضن عملية التغيير نحو الأفضل، وإذا لم نستطع تجاوز الثقافات التقليدية وما تحتويه من مفاهيم جامدة، وأفكار بالية تعيق النهوض الشامل للأمة، فلن يكون هناك تغيير حقيقي في مجتمعاتنا، فالثقافات الجامدة السائدة هي المعيق الحقيقي للتغيير ولن تستقيم الأمور إلا بنقدها والتخلي عن مظاهرها السلبية التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه.

والسؤال الذي يطرح نفسه في ضوء ما سبق هو: هل نحتاج إلى ثقافة بديلة؟ كي نلثف حولها، يبدو هذا السؤال كبيراً، يصعب الإجابة عليه، لذلك ارتأيت أن استعمل مصطلح تحديث الثقافة القائمة، والتحديث يتم عن طريق تبني ثقافة مدنية كان قد بناها الإنسان بنفسه بعد انفصاله عن الطبيعة، وهذه الثقافة تقوم على:

• لا تتضمن أيّ أبعاد للفرقة بل تتوخى نظرة تستبعد كل عوامل الفرقة وتدعو إلى المساواة في الحقوق والواجبات.

• تبني طرق التفكير الحديثة العلمية والعقلانية في النظر للإنسان والواقع ومشكلاته.

• تجاوز المسألة القطرية، والجهوية، والمذهبية، والطائفية، والعرقية، إلى نظرة إنسانية شاملة، وإلى نظرة وطنية جامعة ذات بعد حضاري واسع.

• عدم إلغاء معتقدات الأفراد، أو ثقافتهم الخاصة، بل نبقي عليها ونضعها في إطارها الذي جاءت من أجله، بحيث لا تتجاوز الجوانب الاجتماعية إلى مؤسسات المجتمع السياسية والاقتصادية والعلمية.

11 - الخلاصة:

- لا يمكن أن ندير ظهورنا لهذه التغيرات الحادثة في العالم التي فرضتها التقنية المستحدثة، فإذا كانت الآلة التجارية احتلت مكان العضلات في الجسم البشري فإن الكمبيوتر احتل مكان العقل.

- لا بد أن نحاول إيجاد موطن لهذه التكنولوجيا ضمن إطارنا الثقافي العام، وأن نستخدم نظم المعلومات هذه لعمل مسح شامل للأوضاع الثقافية الراهنة كأساس لوضع خططنا الدفاعية ضد هذا الغزو الثقافي.

- إننا في حاجة إلى بناء دوائر معلومات وطنية، تلك الدوائر التي تخرج النص والصورة والصوت، وفي حاجة إلى استخدام أفضل للأقمار الصناعية العربية في مجال الثقافة.

- نحن في حاجة إلى استخدام البرمجيات التعليمية ثنائية اللغة لتعليم أولادنا كيف يقتحمون العرض بلغاتهم.

- الأهم كله أن ندرك أهمية الدور الذي تؤديه الثقافة في حياتنا، وأن ننق في ثقافتنا.

- المساهمة في تطوير تيار فكري فلسفي يصلح أرضية لخلق ثقافة يتم من خلالها تجاوز الواقع الحالي.

- تحتاج المجتمعات العربية إلى انتهاج سياسة التحديث الثقافي من أجل تجاوز الأشكال الثقافية التقليدية التي تحمل عناصر التعصب والفرقة بين الأفراد وفئات المجتمع.

- الابتعاد عن ثقافة الخرافات وتبني الثقافة العقلية، لأنها مفتاح العصر فمن لا يفكر بطريقة عصره، سيبقى في مؤخرة الركب الذي يسير بخطوات متسارعة أكثر من ذي قبل، فإذا لم تتزامن التطورات الثقافية مع التطورات المادية، فسنظل في مكاننا بل سنسجل تراجعاً تلو آخر لأن التقدم يحتاج إلى بيئة ثقافية معينة يترعرع فيها. وفي الأخير أقدم دعوة لكل المهتمين من أجل إعلاء الدور الثقافي وجعله يأخذ نصيبه اللائق به ضمن الأنشطة الإنسانية الأخرى، لأن من دونه لن يكون هناك أي معنى لبقية هذه الأنشطة.

هوامش البحث:

- 1- أبو حيان التوحيدي، المقابسات، تحقيق حسن السندوسي، طبعة مصر، 1929، ص 401
- 2 - ابن منظور، اللسان، (تقف).
- 3- عليوي معاذ، العلاقة بين التربية والثقافة، موقع الألوكة، اطلع عليه بتاريخ: 2019/05/06.
- 4 - نفسه بتاريخ: 2019/05/08.
- 5 - عالم المعرفة، الكويت، يوليو 1977، 48/6.
- 6- إن ما تقوم به إسرائيل من حفريات في القنس الشريف يهدف إلى ترسيخ التاريخ العبري عن طريق تأكيد الوجود الفعلي للهيكل.
- 7- آل عمران 110.
- 8- الرعد 11.
- 9- رواه مسلم في صحيحه،
- 10- مجلة العربي الكويتية، العدد 482، يناير 1999، ص26.
- 11- ابن منظور، اللسان (عصب).
- 12- الأصفهاني، الأغاني، 105/9.
- 13- مجلة العربي، العدد 640، مارس 2012، ص57.
- 14- مسلم، صحيح مسلم، شرح محمد فؤاد عبد الباقي، المجلد الأول، ص117.

التنوع الثقافي التراثي في الجزائر تثبيت للهوية وحفظ للذاكرة من الضياع

ـ الجنوب الجزائري الكبير أنموذجا ـ

د. هاجر حمداوي.

الجامعة الطارف.

الكلمات المفتاحية: التنوع الثقافي؛ التراث؛ الهوية؛ الجنوب الجزائري الكبير.

الملخص: تهدف المداخلة إلى إبراز أهمية التنوع الثقافي الجزائري الذي ينعكس على التراث المادي وغير المادي في البلاد، فالتنوع الثقافي يشمل الطابع العربي الشاوي، القبائلي، التارقي، المزابي، الوهراني القسنطيني التلمساني.... وتنوع بذلك الغناء إلى أندلسي، مالوف، حوزي، صحراوي، شعبي، شاوي، قبائلي تارقي..... ولا يخلو هذا التنوع من الشعر بشقيه الفصيح والشعبي في كل ربوع الجزائر لاسيما المناطق الداخلية وكذلك نجد الصناعات التقليدية وجها من وجوه التعبير الثقافي الذي يعكس تراث المناطق المختلفة كما تتوفر على أكثر من خمسين موقعا للسياحة العلاجية (الحمامات المعدنية) وكذلك تحوي بالجزائر سبع مواقع مصنفة تراثا إنسانيا في منظمة اليونسكو، وهذا ما أسهم في ظهور التنوع التراثي الذي يعد هوية الشعوب والذاكرة المحفوظة التي تحدد انتماءنا، من تنوع في اللغات والثقافات في كل مجتمع ورقعة جغرافية في الجزائر وقد ركزنا على الجنوب الجزائري الكبير لأنه يحمل تشكيلة متنوعة من الأجناس البشرية سواء في لهجتها أو لونها أو تقاليدها وعاداتها وعلية كانت مداخلتنا تحمل العنوان الآتي: التنوع الثقافي التراثي في الجزائر تثبيت للهوية وحفظ للذاكرة من الضياع ـ الجنوب الجزائري الكبير أنموذجا ـ

مقدمة: يزخر الوطن العربي بثقافة شعبية ظهرت منذ الأزل، وتعاقبت بتعاقب الحضارات والثقافات فالتراث بمثابة البصمة التي تدل على هوية صاحبها، وتزيل الغموض وتحل محل الوثائق المكتوبة عند فقدان هذه الأخيرة، والجزائر كغيرها من

الدول العربية تتميز بتراث موغل في أعماق الزمن، فلكل منطقة من مناطقها ثقافة شعبية تميزها عن الأخرى ومن أغنى المناطق تراثاً نجد الصحراء الكبرى التي تتفرد بطقوس خاصة وتنوع ثقافي من عادات وتقاليد ومعارف شعبية ومعتقدات فنجد الثقافة اللامادية حاضرة بقوة ومن ذلك موسيقى الإمزاد عند قبائل الإموهاغ هذه الآلة الموسيقية أدرجت ضمن التراث العالمي كونها ساحرة وغامضة ومن موسيقى الإمزاد إلى رقصة السيبيبة عند قبائل الميهان التي تحمل الكثير من الطقوس والمعاني وتتعدد الثقافات بتعدد القبائل ومن أقدمها نجد موسيقى القمبري العتيقة المتواجدة في منطقة تاغيت في الصحراء الغربية الجزائرية وكون هذه الآلة تاريخية وحلقة اجتماعية تتفاعل فيها مختلف مكونات المجتمع الصحراوي.

ثقافة كل شعب تتبثق عن مصادر أوجدتها، كما أن ثقافة أي مجتمع تكونها مجموعة مكونات ومرجعيات.

للثقافة مصادر كثيرة تعتمد عليها من أبرزها نجد:

- 1- اللغة: تعد اللغة مصدراً رئيساً من مصادر الثقافة عموماً؛ على اعتبار أن كافة شعوب العالم نقلت ثقافتها إلى باقي الشعوب الأخرى اعتماداً على لغتها¹.
- 2- الفكر الإنساني؛ وهو مجموع المعارف المؤدية إلى تشكيل الثقافة الإنسانية، والمساهمة في تباين الشعوب بعضها عن بعض؛ بالحرص على الخصوصية المميزة لكل شعب من شعوب المعمورة.

تتكون الثقافة من ثلاثة مكونات رئيسة، يمكن جمعها في:

أ- مكونات مادية، وهي المكونات المستخدمة بشكل يومي، كالمأكل والمشرب، والملبس، والمسكن وغيرها.

ب- مكونات فكرية، مثل الفن، واللغة، والعلم، والدين، وغيرها².

ج- مكونات اجتماعية، وهي تلك المكونات التي تشتمل على البناء الاجتماعي وهيكله، كما يمكن أن تصنف بصفة أوسع وفقاً للمكونات الآتية:

- 1- **الأفكار** : هي مجموعة النتائج التي يتوصل لها العقل بعد التفكير والتّحصيل الطّويل للمعلومات التي تلقّاها.
 - 2- **العادات والتّقاليد** : وهي الأسلوب المتّبع لدى أيّ أمةٍ أو شعبٍ في الحياة الاجتماعيّة وقوانينها.
 - 3- **اللّغة** : وهي مجموعة الحروف والرّموز التي يتمكّن أف ا رد المجتمع من خلالها من التّواصل فيما بينهم، وتتقلّ كلّ ما يتعلّق بهم لمن بعدهم.
 - 4- **القانون** : وهي مجموعة الأحكام التي تضبط المجتمع وتحميه من الدّاخل والخارج وعرفت العادات مقرونة بالتقاليد أيضا كما يلي " :هي مجموع السلوكيات الثقافيّة التي تخص المجتمع الذي ننتمي إليه، ترثها الأجيال عن بعضها البعض والتي تميزها عن بقية المجتمعات
 - 5- **الأعراف** : هي مجموعة الأحكام والضوابط التي تعارف عليها مجتمع ما فأصبحت بمثابة القانون يلتزمون بها . التزاما كاملاً؛ بحيث تكون هذه الأعراف عوناً للقانون في منع الجريمة الانحراف والمساعدة على نشر الفضيلة والخير.
- أ -في تعريف العادات وأهميتها وفروعها وخصائصها ووظائفها:
- ظهرت العادات لخدمة أغراض معينة، فأصبحت ذات أهمية وتفرعت وتميزت بجملة من الخصائص.
- العادات لغة**: هي ما يكرره الإنسان العودّة إليه مرارا، أو اصطلاحا هي سلوك اجتماعي متكرر يتم توارثه،ويمكن أن تكون العادة فردية، أو هي سلوك اجتماعي جبري ملزم، تتكون انطلاقا من قيم دينية وعرفية تجعل الأفراد تبعا كعادات الزواج يجسدها الأفراد في مختلف طبقات المجتمع ومستوياته وأنماطه الحضري والريفي.

تكمن أهمية العادات في كونها الدعائم الأساسية التي ينبني عليها التراث الثقافي في كل بيئة تتفرع العادات لتشمل ما تواضع عليه المجتمع من عادات اتفاقية وأعراف ومحرمات وسنن وتقاليد وشعائر وطقوس.

ويتم تصنيفها بحسب الجودة والقدم إلى:

- عادات قديمة متوارثة وتعرف بالعادات التقليدية.

- عادات جديدة وتعرف بالموضات.

للعادات خصائص أبرزها:

- **التلقائية** : تتكون بصورة غير واعية في المجتمع.

- **الإلزام والجبرية**: شعور كل فرد بأنه ملزم ومجبور على اتباعها، فهو لم ينشئها بل فرضت عليه فرضاً.

- **الاتصال بنواحي أسطورية وعناصر خرافية** : معظم العادات تكون متصلة بمناحي أسطورية خرافات واعتقادات فاسدة.

- **التنوع والنسبية** : تختلف العادات من مجتمع لآخر وتتنوع من إقليم لثان، كما تتغير من زمن لآخر أيضاً في كل من الطعام الشراب والملبس والمسكن والنشاطات المختلفة كالاحتفالات.

- **الرغبة في التمسك بها**: انطلاقاً من اعتقاد معظم الشعوب والأمم بأن عاداتها وتقاليدها هي الأفضل نشأ عندها الرغبة في التمسك بها، والحفاظ عليها، ولها وظائف شتى منها الاقتصادية، والتربوية الإرشادية ومنها الجمالية.³

التقاليد لغة جاءت من قلد غيره يقلده تقليداً أي اتبعه فيما يقول من غير أن يقدم له لا حجة ولا دليل . واصطلاحاً هي سلوك فردي تنبته الجماعة وتوارثته جيلاً عن جيل، مثلاً هو الحال في الشعائر الدينية، واستخدام الرموز والاحتفالات.

التقاليد هي طائفة من قواعد السلوك التي تخص طبقة معينة، أو ترتبط ببيئة محدودة النطاق، تتميز عن العادات في كونها أقل إلزاماً منها، يتم تناقلها بانتقاء عكس العادات التي تتميز، وعند عدم مراعاتها واتباعها بقوة⁴.

غالباً ما تكون التقاليد مختصة بإقليم معين أو طبقة معينة، عكس العادات التي يجسدها الأفراد في مختلف طبقات المجتمع ومستوياته وأنماطه الحضري والريفي. على الرغم من التقارب بل والتداخل الشديد بين بين الاعراف والعادات إلا أنه يتم التفريق بينهما.

العرف هو "نظام اجتماعي غير مكتوب، يتكون من المعتقدات والأفكار المستمدة من فكر الجماعة وتراثها وعقيدتها، وتمثل العرف في معايير اجتماعية تحدد الأفعال المرغوبة وغير المرغوبة والسلوك الصحيح والخطأ بالنسبة لثقافة المجتمع ويحدد العرف بالعلاقات ما هو جائز وما هو غير جائز، كما يحدد العرف في كثير من الأحيان نوعية العقوبات التي يمكن أن تحدث للشخص⁵.

ومما يتميز به العرف عن العادات أنه أشد قوة من العادة، نظراً لارتباطه بنواح عقائدية يؤمن بها المجتمع من أشهر العادات والتقاليد والأعراف الجزائرية:

- تحتفل العائلات الجزائرية بعيد مولد النبي صلى الله عليه وسلم الموافق ليوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ميلادي كل عام بإقامة مآدب العشاء والتفنن بإعداد الأكلات التقليدية والحلويات، مع إشعال الشموع، وتزويد الأطفال وحتى الكبار بالمفرقات

- كما أن المجتمع الجزائري له طقوس وعادات في الأفراح وخاصة الزواج انطلاقاً من لباس العروس والعريس، تختلف من منطقة إلى أخرى.

- ويتميز الجزائريون ببعض الملابس التقليدية، كالقشابية والبرنوس والحايك.

دون أن ننسى الاحتفالات الدينية الأخرى والوطنية وما يحيط بها من عادات وتقاليد متوارثة، يسهر الخلف على الحفاظ والإبقاء عليها كأداة تثبت تواصله بالسلف وتبين تراث بط وتعالق الأجيال.

مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد: التاسع جوان

1- الموسيقى في الجنوب الجزائري:

آلة الإمزاد: تعد آلة الإمزاد من أقدم الآلات الموسيقية عند التوارق، أين انفردت المرأة التارقية بالعزف عليها، ويرافقها الرجل بالغناء على أوتارها، تتميز آلة الإمزاد أنها وحيدة الوتر . وهي ترمز للسيادة فهي شيء مقدس بالنسبة للمجتمع الترقى أونها تجسيد للجاء والشرف "شحنة إلتحام النغمة بالروح والجسد . يرجع تاريخ آلة إمزاد إلى قصة رجل منهار القوى متأثر بجراحه والعطش والجوع الشديد إقترب إلى أحد الخيام لسمع أنغام الإمزاد أين انت نسوة الخيام يعزفن على هذه آلة ليرفهن على أنفسهن، فجمع هو الآخر ما في أنفاسه ليتمكن من الوصول إليهن وليغني على إيقاع عزفن للتعبير على حالته المزرية، ليقمن بعد بذلك النسوة بإسعاف الرجل، ومنذ ذلك الزمن أصبح الرجل الترقى يغني على إيقاع آلة الإمزاد⁶

2- الأسماء البارزة في مجال عزف آلة الإمزاد: تعرف المنطقة عدة أسماء

لعازفات اشتهرن في العزف على آلة الإمزاد أبرزهن

1- داسين: التي تعد من أعرق العازفات على آلة الإمزاد

2- داودي شادمه (إلزي)،

3- أوسلي تاتة (من منطقة برج الحواس) (أوسلي تاتة من منطقة برج الحواس

العازفة تزرع من منطقة جنت (الأمتن خولن، دمياه إدبير، شتيمه بوزيد، بيات إدبير

تمنراست.⁷

3-واقع آلة الإمزاد: تعد آلة الإمزاد من الآلات المهددة بالزوال لموت العديد من العازفات على هذه الآلة نذآر منهن :دحماتي دمية عائلة إنضن من منطقة إليزي تحمل قاعة السينما بإليزي إسم هذه العازفة .داودي سونة عائلة إنضن من منطقة إليزي، تحمل قاعة المسرح بإليزي إسم هذه العازفة .زقري عائشة من برج الحواس متحصلة على الجائزة الأولى من طرف جمعية أصدقاء الصحراء أما أصدرت أسطوانة للفنانة من طرف الديوان الوطني لحظيرة التاسيلي .ونظرا لكبر سن العازفات الحاملات لهذا الفن أصبح الإمزاد في طريقه إلى الزوال لدرجة أن هذه الآلة مرشحة للتصنيف ضمن التراث الإنساني العالمي من قبل منظمة اليونسكو.

أ- تاسنفرست نلمس الناي: آلة موسيقية هوائية ذات أحجام مختلفة، تصنع من نبات القصب البري وهي عبارة عن قصبة جوفاء مفتوحة الجوانب . يرجع تاريخ هذه الآلة إلى الحضارة البابلية والحضارة الفرعونية بمصر، تستعمل آلة تاسنفرست لدى أهل المنطقة في الأفراح والأعراس، أما يستأنس بها البدو ورجال القوافل في سفرهم لعبور المسافات الطويلة والصحراء القاحلة، وللسمر عند التخيم ولتنشيط جلساتهم الليلية حول الشاي⁸.

ت- أشكال التزامارات: تعرف هذه الآلة عدة تسميات آالغيطه والزرنه حسب مناطق الوطن، وتتكون التزامارات من ثلاثة أجزاء الجزء الأول : يسمى الصياح وهو عبارة عن قصبة نحيلة وقصيرة توصل الهواء إلى جوف القصبة الأم فيخرج صوتا حادا وسريعا . الجزء الثاني: يسمى القصبة هي نفسها بدون تغيير آالناي وإنما يكمن الفرق فقط في حجم اتساع فتحة دائرة الآلة حسب المقاييس المرغوب فيها لتنسيق ترابية مختلف عناصرها الجزء الثالث: يسمى الموزع الصوتي.

هو طبع من الطبوع الإيقاعية الترقية، يتم العزف على إيقاع التتدي بتجمع النسوة في حلقات مغلقة في الهواء الطلق في الأعياد والأفراح، بالمقابل يرافق الرجال النسوة برقصة رأبي الجمال هذه الرقصة تعتبر من أفخر الرقصات في

المنطقة، أين يقوم الرجال بتجهيز المهاري (الجمال) وتزينها بأحلى أسوة، وفي حالة عدم تواجد المهاري يرافق الرجال النسوة بالرقص على الألحان التي تعزفها النسوة وهذا ما يقودهم أحيانا إلى فقدان السيطرة على حرّاتهم .

3- **القلق (جنجن):** آلة إيقاع من شكل آخر وهي عبارة عن حلقة مستديرة تصنع

من مادة الخشب، تغلف بجلد المعز، مدة صنع هذه الآلة تقدر من ثلاثة إلى أربعة أيام

3- **تهيجالت:** انبثقت هذه الآلة من الأواني المنزلية وهي إناء آبير الحجم صنع

من مادة الخشب، توضع به مواد غذائية صلبة آلقمح أو حتى السوائل آالماء

والحليب هذا فيما يتعلق باستعمال العادي وفي توظيفه آلة إيقاع موسيقية، تغلف

فتحة الإناء بجلد بغير أو بقر، يكبس جيدا بحراة الأيدي حيث يصدر من خلاله

صداءات تبعث البهجة والسرور في نفوس الحضور.⁹

موسيقى القمبري:

آلة القمبري الآلة الإيقاعية الوترية المنسوخة عن آلة القيثارة والتي تمتاز بطابعها

البربري الصحراوي الأمازيغي. هي ليست لغزا من الأساطير الملتبسة بل هي من

سرائر الوجد حيث نرفان الحالمين العاشقين. هي بصمة على الروح لا تتكرر. هي

ليست إيقاعات فارغة ولا أوتارا أنينه تفتش إعجابك وتقضب دواليب خباياك بل هي

معزوفة عميقة كالهواية بريئة كالفردوس كسرعة الضوء تخترقك دون أن تكسر

نوافذك كرياح تداعب أشرعتك... هكذا كما وصفها كبار عازفيها والباحثين فيها.



2- الأساطير: تميز النص الأسطوري عن غيره، وحافظ على استمراريته، نظرا لما خلفه القدماء من أغاني وأناشيد وحكايات، لكنها جُلها قد اضمحل مع موت الرواة إلا أن هذه الأخيرة بقيت مستمرة بتعاقب الأجيال، وقد سطت الأسطورة على النفس البشرية حتى في كوكب العلم الحديث فهي مازالت تسطير على العقول، بل واستمرار الناس في الحفاظ عليها من الضياع وذلك من خلال ممارسة بعض الطقوس مثل طقوس الاستسقاء والفلاحة والاستمطار، فهذه لطقوس مازالت تمارس في شمال إفريقيا (مصر المغرب، الجزائر، ليبيا، ماليو النيجر) وبالأخص الطوارق في الجنوب الجزائري وكان سلاحهم للحفاظ عليها استخدام الكلمات السحرية بما أن بما أن اللغة ذات وجهين: دلالي وسحري، فإن الأسطورة تستعمل اللغة السحرية القادرة على الإحياء بمعان غير مباشرة واستثارة المشاعر فالتابع السحري للميث وأثرها الفعال في توصيل الأفكار المجردة وتثبيت المعتقدات، وأكثر الفئات تأثرا واستهدافا هم الشبابو قد عمد حافظت أمازيغ الصحراء الجزائرية وحرصوا أشد الحرص على نضوب الفكر الأسطوري وتفعيله في شتى أنحاء الصحراء رغم تراجع الأسطورة عن مواقعها القديمة للحياة الفكرية في المجتمعات وقام العلم بالاستيلاء على معظم ميادينها ومع هذا فالأسطورة دراسة للإنسان ودراسة الماضي إلى فهم الحاضر واستشراف المستقبل.

أسطورة الاستمطار في الجنوب، كان يتغنى بها سكان الصحراء نظرا للطبيعة القاسية الشديدة الجفاف وهي أسطورة تسليث وأنزار وهي "طقس استسقائي أمازيغي قديم، يرجع إلى أسطورة أنزار إله المياه والأمطار عند الأمازيغ القدماء اسمه حرفيا يعني مطر، ملخصها أن فتاة عذراء كانت شديدة الجمال مغرمة بالماء فكانت تخرج كل يوم إلى النبع حيث البحيرة العذبة، فتلعب وتغتسل وفي المساء تعود وكان الإله أنزار يراقبها كل يوم، ووقعت في نفسه موقعا حسنا فأحبها، وذات يوم أظهر نفسه لها وخطبها لنفسه، وتحت الصدمة والحياء، والخوف من رد فعل الناس

رفضت الفتاة، فصعد أنزار إلى السماء ومنع مياهه، فتوقف المطر عم الجفاف، فجاء الناس من كل منطقة يرجون الفتاة أن تقبل عرض أنزار، قبلت في الأخير، فألبسوها لباساً أبيض، وحزام أسود، عصابة حمراء وأخذوها إلى البحيرة يزفونها عروساً لإله المطر أنزار، نزل أنزار من عليائه سعيداً، فأخذ عروسه وعاد إلى السماء وصارت عروسه تظهر معه في كل مرة يحضر، فهي قوس قزح المعروف عند الأمازيغ ب تسليث عوانزار عروس أنزار)، فاللون الأزرق من زرقة عينيها، والوردي لون خديها، والأحمر لون شفتيها وهكذا كل لون يمثل شيئاً من صفاتها.¹⁰

كلماعم الجفاف يخرج سكان الصحراء يناجون الإله أنزار بدمية يلبسونها الأبيض ويضعونها ثم يقومون بتريديد هذه الكلمات:

يا أنزار يا أنزار	Ay anzar ay anzar
فليسقط المطر على الجبل	attut hametna g udrar
ومثل العام الماضي	w am usuggas iɛaddan
أجزي لنا الأنهار	essezlaneɣd iyezran
يا أنزار يا أنزار	ay anzar ay anzar
هاهي الأرض وقد جفت	hamurt attay haqqur
ومر عليها شهر	att iɛadda fellas yur
المرفع بين الأودية	ayenja jar iyezran
أيها الرب عطاشى ونحتاج الماء	a rabbi neffud aman ¹¹

وبعد هذه التهاليل يذهب الأطفال وإذا وجدوا الدمى فإن أنزار لم يقبلها إذا لم يجدوها فإنه قبلها وسوف ينتهي عهد الجفاف وتمطر عليهم.

هذه ما تسمى أسطورة الاستمطار وهي في شكل طقوس تقام في كل سنة أو شهر أو فصل، آمن بها الأمازيغ منذ زمن طويل وتواصلت هذه الطقوس، وتداولت شفاهه إلى أن دونت وأصبحت تدرس من طرف الباحثين والنقاد وتقرن بالاديان كذلك.

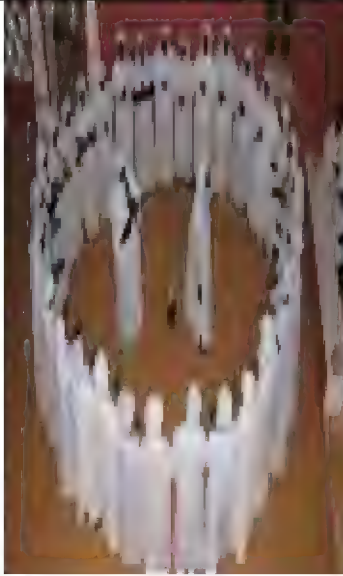
لعل هذه الأسطورة أقرب للخرافة فالبطلة وهي عروسة الماء تشكل نموذجا متخيلا بعيدا عن الواقع، ولعل وظيفة هذه الأسطورة في شكلها الطقوسي هو السلوك المستقل ورد الفعل من طرف العروسة والذي ورد عنه رد عنيف من طرف إله الماء وهو حرمان الناس من الأمطار التي يرتزق منها الناس ويعيشون بها، ولعل السلوك في هذه الأسطورة موجهها لينتقل الوعي من الانفعال الغير المباشر وما ينتج عنه من مخاطر، فمعظم الأساطير تحمل دلالات ترافق الوعي وكلما مارس سكان الصحراء هذه الطقوس كلما اتسع الوعي وزادت رقعة ويتضح وينتظم.

أسطورة الاستسقاء: تلا غنجا

إن بعض الممارسات الطقوسية المعهودة في الجنوب الجزائري وبالأخص الأمازيغ، فإن معظم

هذه الطقوس لها جذور ترجع لأساطير تناقلت عبر الأجيال ولعل هذه الممارسات جعلتها خالدة ومن بين هذه الأساطير نجد أسطورة الاستسقاء أو تلا غنجا.

"تلا غنجا: لها دلالات كثيرة في الأمازيغية، منها تلّ أغنجا، وتقيد غط المغرفة الذكر، وتلا أغنجا بحيث تدغم في كلمة واحدة، وتعني تزوجت المغرفة الذكر واقتربت به. أما اللفظ "تلا" لوحده، فيعني اسما أمازيغيا من أسماء الأمازيغيات ومازال متداولاً، يأتي هذا الاسم منفرداً أو مستقلاً ليدل على ملكية مقدرة، فنقول: إن "تلا" تعني مالكة لشيء ما مقدر، كأن نقول " ذات السعد" أو ذات الخير أو ذات الأبناء وغيرها من المقدرات"

الاسم	الصورة	الوصف
وقد يكتب "أهلِيل غرارة": هو تراث شعري وغنائي منطقة <u>قورارة</u> الواحية <u>الجزا</u> ة <u>الجزائرية</u> التي تبعد عن العاصمة باتجاه الجنوب الغربي بحوالي ألف كلم		أهلِيل قورارة يكتب أيضا "أهلِيل غرارة": هو تراث شعري وغنائي من منطقة <u>قورارة</u> الواحية <u>الجزا</u> ئية التي تبعد عن العاصمة باتجاه الجنوب الغربي بحوالي ألف كلم. كان هذا النوع من الغناء منتشرًا في منطقة <u>تميمون</u> وما جاورها، منذ القديم، وكان يعرف قبل الإسلام باسم <u>أزنون</u> ليحمل بعده الاسم الحالي أهلِيل [6]. ويرى البعض أن هذه التسمية مشتقة من "أهل الليل" باعتبار أن هذا الغناء يؤدي في الليل، بينما ربطها البعض الآخر بالهلال، ويذهب آخرون إلى أن الكلمة جاءت من التهليل لله ومن عبارة "لا إله إلا الله". والأهلِيل هو نوع من الغناء الموروث بالصحراء الجزائرية. تتناول كلماته

المغناة سير الصحابة والأولياء الصالحين [6] وهو ما جعل أحد المختصين يعتبره من الغناء الصوفي المستلهم من الطريقتين "التيجانية" و"القادرية" المنتشرتين في الجزائر ومنطقة <u>المغرب العربي</u>		
تم تصنيف العادات الصوفية المتعلقة بالزواوية الشيخية ضمن قائمة "روائع التراث الشفهي اللامادي للإنسانية" في الجزائر بعد تقديم الملف من طرف الجزائر ودراسته ثم المصادقة عليه من طرف لجنة منظمة اليونسكو للتراث العالمي سنة 2008، [9] وقد عرفت هذه الزاوية إشعاعا روحيا في فترات من الزمن، وكانت مقصد طلاب الروحانيات والتربية الذوقية، وتسعى إلى المحافظة على التراث وتعزيز القيم المجتمعية مثل		م تصنيف العادات الصوفية المتعلقة بالزواوية الشيخية ضمن قائمة "روائع التراث الشفهي اللامادي للإنسانية" في الجزائر بعد تقديم الملف من طرف الجزائر ودراسته، ثم المصادقة عليه من طرف لجنة منظمة اليونسكو للتراث العالمي سنة 2008، [1] وقد عرفت هذه الزاوية إشعاعا روحيا في فترات من

حسن الضيافة والممارسات الجماعية كالتسابيح، وتلاوة القرآن الكريم، والأغاني والرقصات التقليدية والفلكلورية ولا سيما المبارزات ومسابقات الفروسية		الزمن، وكانت مقصد طلاب الروحانيات والتربية الذوقية، وقد تخرج على يد <u>عبد القادر بن محمد السماحي</u> شيوخ كثر، نشروا طريقته الذوقية والصوفية في المناطق الصحراوية على الحدود المغربية الجزائرية.
هو احتفال تقليدي سنوي يقام بمدينة <u>جانت الجزائرية</u>، وتعتبر تقليدا تراثيا، من أهم المناسبات المحلية العريقة التي تحتفل بها <u>طوارق الصحراء</u> بالجنوب الجزائري، الذي يصادف كل سنة اليوم العاشر من محرم في التقويم الهجري، حيث ترمز هذه المناسبة إلى السلم المدني والسلام والالتحام الاجتماعي، وتعود		السببية بكسر الباء الأولى وفتح الثانية، هو احتفال تقليدي سنوي يقام بمدينة <u>جانت الجزائر</u>، وتعتبر تقليدا تراثيا، من أهم المناسبات المحلية العريقة التي تحتفل بها <u>طوارق الصحراء</u> بالجنوب الجزائري، الذي يصادف كل سنة اليوم العاشر من محرم في التقويم

الاحتفالات إلى قرون عندما تعاقبت قبائل الطوارقي الجنوب الجزائري على الصلح والسلام بين سكان القصرين العتيقين "أزلواز" و"الميهان".^[16] وإلى جانب رمزية السلام والالتحام بين قبائل الطوارق، يرى باحثون متخصصون، أن الرقصة تعبر عن حالة من السعادة عندما استطاعت قبيلة الطوارق "آجر" الانتصار في معركة حاسمة عند تعرضها لخطر تهديدات فرعون مص		الهجري، حيث ترمز هذه المناسبة إلى السلم المدني والسلام والالتحام الاجتماعي، وتعود الاحتفالات إلى قرون عندما تعاقبت قبائل الطوارق في الجنوب الجزائري على الصلح والسلام بين سكان القصرين العتيقين "أزلواز" و"الميهان"
---	--	--

خاتمة: من خلال ما سبق توصلنا إلى النتائج الآتية:

ترتبط الهوية الثقافي بالتنوع الثقافي بعلاقة وطيدة، فكل هوية لا تكتمل إلا بالثقافة، ولعل أبرز ما يميز الهوية الثقافية قدرتها على استيعاب التنوع الثقافي للشعوب، ووظيفتها التي تركز على جمع أفراد المجتمع من الثقافات المختلفة، لتبلور لهم في النهاية هوية ثقافية واحدة تجمعهم. لعل أبرز مثال على العلاقة بين التنوع الثقافي والهوية الثقافية الهوية الإسلامية، التي جمعت قوميات متعددة، وجنسيات مختلفة، وخلفيات ثقافية متنوعة داخل هوية ثقافية واحدة، وهي الهوية الإسلامي

الإحالات:

¹مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد : التاسع جوان 2017، ص

²مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد : التاسع جوان 2017، ص

³مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد : التاسع جوان 7102

⁴مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد : التاسع جوان 7102

⁵مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد : التاسع جوان 7102

⁶ <http://elajyale.mam9.com/t2135-topic>

⁷ <http://www.aranthropos.com/>

⁸<http://www.aranthropos.com/>موسيقى-الإمزد-شمس-الطوارق-التي-لا-تغرب

⁹<http://www.aranthropos.com/>موسيقى-الإمزد-شمس-الطوارق-التي-لا-تغرب

¹⁰<https://www.facebook.com>، ليلى حسن، الأديان والميثولوجيا والتاريخ، 29 جويلية 2015.

¹¹المرجع السابق.

¹²قائمة التراث الثقافي اللامادي في الجزائر <https://ar.wikipedia.org/wiki/الجزائر>

التعدد اللغوي والتنوع الثقافي بين الإثراء والصدام.

داه. زينب بوتشيش

داه. مجاهدي فايزة

جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان.

الملخص: تعدّ اللغة وسيلة من وسائل الاتصال والتواصل الإنساني، وتطورت منذ العصر الحجري إلى يومنا هذا ابتداء من الرسوم الجدارية ثم الإشارات وصولاً إلى الحروف. مما جعلها جسراً للتواصل بين مختلف الأمم والشعوب، أما الثقافة فهي عملة التطور العام الفكري والروحي والجمالي الذي يشهده مجتمع معين وهي أسلوب الحياة السائد لدى أمة معينة في حقبة زمنية محددة. في بحثنا هذا سنحاول توضيح مدى أهمية التعددية اللغوية لنمو الثقافات وتطور الشعوب وتواصلها وكيف أنه لا يمكن لأي حضارة أن تنشأ في معزل عن التواصل الثقافي مع الأمم الأخرى. وإلى أي مدى يمكن للتعدد اللغوي أن يكون حجرة عثرة لازدهار حضارة ما؟

الكلمات المفتاحية: اللغة، التعدد، التنوع، الثقافة، الحضارة.

مقدمة: تعدّ اللغة وسيلة من وسائل التواصل البشري وإن اختلفت من دولة إلى أخرى، فقد بدأت هذه اللغة بإشارات ورموز جدارية ثم تطوّرت إلى الحروف وهي تمثل هوية الشعوب تقوى بقوتها وتضعف بضعفها. واللغة كائن حي يتطور وينمو وينتشر أو يتلاشى، وهي أيضا ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ومكوناتهم، وتعدّ جسراً للتواصل بين الأمم والحضارات.

أما الثقافة فهي الإيمان بهذا الاختلاف وتطويعه من أجل الحوار والتواصل والتعددية اللغوية ضرورية لنمو الثقافات وتواصل الشعوب، ثم إنّ الحضارات لا

تتطور بمعزل عن التواصل الثقافي مع الأمم الأخرى، فالتنوع الثقافي والتعدد اللغوي خطآن متوازيان من خطوط الحضارة الإنسانية.

فالعقل البشري يتألف من عدة ثقافات شرقية وغربية وهو بمثابة حديقة تنتوع فيها جميع الأزهار وتتألق بجمال التنوع والاختلاف لتكون من الإنسان طاقة إبداعية خلّاقة، لأنّ العقل البشري يجمع بين مختلف القوى الحضارية والتآلف بينهما يحقق التكامل في ظلّ تنوع الثقافات والحضارات.

والعالم عبارة عن مجموعة من الدول متعدّدة الأعراق والطوائف والمعتقدات والعادات والقوميات، وتضمّ عددا من اللغات والأديان واللهجات، وهذا التنوع هو الذي يخلق نسيجاً اجتماعياً متجانساً يضمّ مختلف الثقافات الإنسانية.

لذلك يعدّ التنوع الثقافي من أهمّ مميّزات البشرية التي تكون عادة سلاحاً ذو حدين، فإذا تعاملنا معه بطريقة إيجابية حصّدتنا نتائج إيجابية، أمّا إذا نظرنا إليه على أنّه اختلاف فستكون العواقب وخيمة.

ومن مظاهر التنوع الثقافي في العالم اللغة التي هي وسيلة التواصل فتعدّد اللغات ينتج عنه تنوعاً في الثقافات والإبداع، فالتعدّد يسهم في تطور الحضارات وتقوي العلاقات الإنسانية.

ومن هنا نطرح التساؤلات التالية: ما علاقة التعدّد اللغوي بالتنوع الثقافي؟ وإلى أي مدى يمكن أن يكون هذا التنوع شيئاً إيجابياً في ظلّ الاختلافات اللغوية والعرقية والعنصرية؟ وهل التنوع الثقافي والتعدّد اللغوي في المجتمعات يفضي إلى الثراء الإنساني أم يؤدي إلى صدام حضاري؟

1/ التنوع الثقافي كظاهرة إنسانية وأهميتها في التواصل الحضاري: إنّ التنوع الثقافي جميل كجمال ألوان الطبيعة تتناغم فيها الأشكال والألوان كلّ حسب خصوصيته، فالإنسان منذ القدم تبادل الخبرات والاكتشافات والثقافات والعلوم في ظلّ التعايش الثقافي وجعل مصلحة البشرية فوق كلّ مصلحة.

***/ مفهوم التنوع الثقافي:** التنوع الثقافي هو "الاختلافات القائمة بين المجتمعات الإنسانية في الأنماط الثقافية السائدة فيها، ويتجلى هذا التنوع من خلال أصالة وتعدد الهويات المميزة للمجموعات والمجتمعات التي تتألف منها الإنسانية، فهو مصدر للتبادل والإبداع. كما أنه ضروري للجنس البشري مثل ضرورة التنوع البيولوجي بالنسبة للكائنات الحية، وبهذا المعنى فإن التنوع الثقافي هو التراث المشترك للإنسانية وينبغي الاعتراف به والتأكيد عليه لصالح أجيال الحاضر والمستقبل"¹.

وهذا يعني أن الحضارة الإنسانية منقسمة ومتنوعة ومختلفة، وهذا ما جعل المنظمات غير الحكومية تولي اهتماما بقضايا التنوع الثقافي وإدارة هذا التنوع كآلية لحفظ السلام والتعايش بين الأمم.

والتنوع الثقافي هو "عبارة عن اتسام الثقافة البشرية بسمة التنوع، أي كونها تتباين وتختلف كما تتشابه وتتطابق مضمونا وشكلا على نحو يجعلها تتميز إلى أنواع"².

ومن هذا التعريف لا يعدو أن يكون التنوع الثقافي وصفا للتواصل البشري من زاوية التطابق والاختلاف وهذا الالتباس والتشابه في الثقافات يمكن أن يلاحظ عند الأفراد والجماعات.

***/ مظاهر التنوع الثقافي:** للتنوع الثقافي مظاهر متعددة تتجلى في ما يلي:

اللغة: هي إحدى أهم مظاهر الاختلاف بين الأمم لأنها تخص كل قوم، وتعتبر الركن الأساسي الذي تقوم عليه الثقافة، كما أنها مظهر من مظاهر الاختلاف بين الحضارات والشعوب.

الدين: لكل دولة دين تدين به لذلك تعددت الأديان والمعتقدات حتى إننا لنجد في الدولة الواحدة عدة أديان، فالعالم يحوي أديانا مختلفة ويعد التعرف على معتقدات الآخر وسيلة من وسائل التعايش وتلاقي الشعوب.

العادات والتقاليد: هي على رأس الاختلاف الثقافي والحضاري بين الأمم فكل شعب له عاداته وتقاليد وراثتها عن أجداده، وتحرص كل أمة على الحفاظ عليه وتعريفه لباقي الشعوب.

***/ الهوية الثقافية:**

لكل إنسان هوية يتميز بها ويختلف بها عن غيره من البشر في درجة استوائها أو مناسبتها للمعايير النموذجية للهوية السوية. يقول عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾³، فالهوية تعني تعريف الإنسان لنفسه فكراً وثقافة وأسلوباً وحياة.

ولكل أمة هوية تتميز بها عن غيرها. يقول تعالى: ﴿لَكُمْ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾⁴، فالهوية تدلّ على ميزات مشتركة أساسية لمجموعة من البشر تميزهم عن مجموعات أخرى⁵.

***/ التنوع الثقافي وعلاقته بالإبداع:** يقوم علم الاجتماع منذ القدم على فكرة العيش بسلام والتعاون والانسجام بين مختلف الأطياف البشرية، لذلك تعاون الجميع بغض النظر عن الانتماءات العرقية والايديولوجية والدينية إلى تطويع الطبيعة وتذويب الفوارق بين البشر، كما عملت الدول والمنظمات المتخصصة كاليونسكو على وضع برامج لتقييم التنوع الثقافي وجعله حافزاً للتنمية والعمل المشترك من خلال الاستثمار في التنوع الثقافي.

ويعتبر التنوع الثقافي مصدراً مهماً للإبداع وتبادل العلوم بين البشر فالعامل الأهم هو الثقافة "بمفهومها الشامل بدءاً بالعامل الاجتماعي وانتهاءً إلى العامل الثقافي الذي لا يختلف اثنان على أنه يركز على الانفتاح الأدبي والفكري ليشكل بذلك الوعاء الذي يتضمن كل عناصر التعبير التي تحمل خصوصية ومثل وقيم أي مجتمع وتتمحور أساساً حول التكامل والتسامح والأخوة والعدالة والمساواة واحترام

العقل وكرامة الإنسان، ورفض الظلم والعدوان"⁶، فأهمية الثقافة هي القدرة على التأقلم وتهذيب النفس وتكوين أرضية صالحة للتعايش السلمي بين الإنسانية جمعاء. *** أهمية التنوع الثقافي:** تنمو الثقافة مع النمو الحضاري للأمم فهي التراث الذي تتميز به جميع الأمم، وتختلف طبيعتها في كل مجتمع، وذلك للارتباط الذي يربط بين واقع الأمة وتراثها الفكري والحضاري، لذلك تتباين الثقافات الإنسانية تباينا واسعا بفعل عوامل إقليمية وجغرافية ودينية "فالثقافة تحافظ على الهوية الإنسانية وبشكل أدق على الأشياء الأكثر خصوصية فيها، وتحافظ الثقافات على الهويات الاجتماعية في أدق تفاصيلها"⁷.

ويمكن أن يكون التنوع الثقافي عاملا للصراع والتآفر بين المجتمعات، أما في حال الإقرار بأهميته والقبول به فإن ذلك سيؤدي إلى بناء مجتمع يتحلى بمزايا عصرية، والتنوع الثقافي أفقرته اليونسكو على أنه ميزة حضارية توفر توسع نطاق الخيارات المتاحة لكل فرد، وجعلته أحد مصادر التنمية البشرية.

ويشكل التنوع الثقافي عاملا مهما يساعد على التنمية بمختلف أشكالها، وهو يؤدي إلى خلق منظومة حياتية مكتملة ومتطورة في آن واحد، كما يتيح للفرد أن يعبر عن آرائه سواء عبر الفن أو الثقافة أو السياسة أو الوسائل الأخرى.

ويعتبر التنوع الثقافي ميزة ضرورية وقوة محرّكة للتنمية وهو وسيلة لعيش حياة أكثر اكتمالا، كما يسهم في خلق حوار بين الحضارات والثقافات وبلوغ الاحترام والتفاهم بين الأمم.

2/ التعدّد اللّغوي: يعدّ التعدّد اللّغوي آية من آيات الله في أرضه إذ جعل لكلّ شعب لسانه وثقافته التي تميّزه عن باقي الشعوب، لذلك فهو ظاهرة طبيعية في دول العالم، ولا ضير أن يتخذ التعدّد اللّغوي مسلك التّطعيم وانفتاح الثقافة الوطنية على الثقافات الأجنبية. ويطلق مصطلح التعدّد اللّغوي على مجتمع تسود فيه أكثر من لغة للتعبير عن متطلّباته ومقاصده، ومن هنا يمكن تعريفه بأنّه استخدام لغات

متعدّدة في مجتمع واحد. ويعرّفه جون ديبوا بقوله: "عندما تجتمع أكثر من لغة في مجتمع واحد، أو عند فرد واحد ليستخدموها في مختلف أنواع التواصل والمثال المشهور هو دولة سويسرا حيث الفرنسية والإيطالية والألمانية هي لغات رسمية بها"⁸ ونجد تقريبا نفس التعريف عند الباحث المغربي محمد الأوراغي في قوله: "التعدّد اللّغوي المقابل العربي للفظ الأجنبي Multilinguicime، وهو يصدق على الوضعية اللسانية المتميّزة بتعايش لغات وطنية متباينة في بلد واحد، إمّا على سبيل التساوي إذا كانت جميعها لغات عالمية كالألمانية والفرنسية والإيطالية في الجمهورية الفدرالية السويسرية، وإمّا على سبيل التفاضل إذا تواجدت لغات عالمية كالعربية بجانب لغات عامّة مثل الهوسا والعورمانشه والسوناوي زراما والتماشيق والغولفولدة والتوبو في جمهورية النيجر"⁹.

وعرّف د. صالح بلعيد التعدّد اللّغوي بقوله: "إنّ التعدّد اللّغوي هو مجموعة من اللّغات المتقاربة أو المتباينة في مجتمع واحد"¹⁰ فالتعدّد اللّغوي أمر حتمي وواقع ولقد أكد الاسلام على قيمته حين ربط بين اختلاط الألسن فقال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَلْسِنُ وَالْوَلَوَاتُ وَأَلْوَانُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ"¹¹. ولا يخلو أي مجتمع من التعدّد اللّغوي فكلّ مجتمع يحتوي على لغتين أو أكثر بسبب تعدّد الأجناس والثّقافات، فهو "قضية حتمية فرضتها تداخل اللّهجات واللّغات مع بعضها فله الفضل في إغناء اللّغة ومساعدة المتعلّم في تعلّمه كما يفرض على معلم اللّغة أن يكون على دراسة ومعرفة ضمنية بهذا التعدّد، لكي ينجح في أدائه مهمّته على أكمل وجه، كما يمكن أن يؤدّي التعدّد للبس صرفي أو دلالي نتيجة تداخل الأنظمة اللّغوية فيما بينها"¹².

وتعرّف جوليت غرمادي التعدّد بقولها: "إنّ الثّنائية اللّغوية أو التعدّدية اللّغوية أي أنّ استعمال منظومتين أو أكثر من جانب المتكلّمين في متّحد واحد"¹³، ويرى هارالد هارمان أنّ التعدّد اللّغوي ليس مجرد تعدّد لغات، وإنّما تعدّد ثقافات أيضا

إذ أن "تعدد اللغات في العالم ليس واقعا يجب العيش معه وحسب، بل إنه أيضا أداة للهوية الإنسانية... إنّ خسارة تنوع اللغات في العالم ما قد يحدث من تقليل لقدرة الإنسان على إقامة جماعة ذات صبغة محلية".¹⁴ فالتنوع اللغوي ليس فقط في تنوع اللغات بل أيضا اختلاف الثقافات والعادات والتقاليد.

***/ أسباب التعدد اللغوي:** وللتعدد اللغوي أسباب منها الرّحلات بين البلدان والهجرة والتجارة وطلب العلم وغيرها من الأسباب التي أسهمت في إثراء المجتمعات والثقافات حيث "تحفل البلدان بطوائف متعدّدة وأقليات أجنبية، تعيش فيها جنبا إلى جنب مع شعوبها، وتحمل معها ثقافتها المتعدّدة ولغاتها المتباينة"¹⁵، فتدخل اللغات في صراع مع بعضها ينتهي إمّا بغلبة إحدهما أو التعايش فيما بينها. وكان للعامل الاجتماعي دوره في التعدد اللغوي، حيث نجد مثلا الزّواج بالإضافة إلى العامل النفسي الذي يؤثّر كثيرا على شخصية الفرد وبالتالي على اختياره للغة التي يتحدث بها، أمّا أخطر عامل هو العامل التّربوي الذي أسهم في انتشار لغات متعدّدة لكنّ المشهد التّعليمي الجامعي في البلاد العربية يتناقض مع هذه الوجهة، إذ أن كثيرا من التخصّصات تدرس بلغات أجنبية لاسيّما التخصّصات العلمية حيث تدرّس بالّلغة الفرنسية ممّا يجبر الطّالب على الثّنائية وذلك في استعمال المصطلحات بلفظها الأخير بالإضافة إلى أن هناك مصطلحات لا مقابل لها ممّا يفرض عليه استخدام المصطلح بالّلغة الأجنبية دون محاولة تقريبه¹⁶. فالتعدد اللغوي تفرضه الطّروف الاجتماعية والثقافية بالإضافة إلى التّركيبة المختلطة للمجتمع المتكوّنة من جنسيات مختلفة ما رسم لوحة فنية رائعة امتزجت فيها كلّ الثقافات.

3/ التعدد اللغوي وعلاقته بالتنوع الثقافي وأثرهما على تطوّر الحضارة الإنسانية: يمكن للغة كظاهرة اجتماعية أن تكون موضوعا للدراسة أو لغة تدريس واتّصال، فاللغة تؤثّر في المجتمع والثّقافة وهي وسيلة يعبر بها النّاس عن أنفسهم

وميوالاتهم وأفراحهم وأحزانهم إلخ، فمن المهم أن يتعلم الفرد لغته الوطنية بالإضافة إلى اللهجات المحلية واللغات العالمية، باعتبار أن اللغة هي التي تنتج المعرفة وهي التي تحافظ على الثراء الثقافي.

وأثبتت الدراسات اللسانية المعاصرة أن اللغات الإنسانية لغات طبيعية وكلها سواسية ولكل واحدة خصائصها وميادين استعمالها، لأن اللغة هي وعاء للثقافة المحلية والهوية.

وأكد الباحثون أن التنوع الثقافي والتعدد اللغوي في المجتمعات هو عامل توحيد وتناغم وليس عامل تفرقة وتصادم، حيث إن الثقافة تظل إحدى المكونات الأساسية في إغناء رصيد التنوع والتعدد اللغوي في المجتمعات لأنها تسهم في حماية الهوية الحضارية لأي بلد، فالتنوع الثقافي والتعدد اللغوي يشكلان مصدر عز وثراء للحضارة الإنسانية فالهدف الأساسي هو أن يرى الإنسان ما الذي سيستفيد منه من الآخر وليس الخطر الذي سيأتي منه.

فالتعدد واقع ورهان يومي يحتاج إلى نوايا صادقة لإثرائه وجعله أحد مكونات الهوية المجتمعية، فالتعدد يبدأ من القبول بالآخر واحترام الاختلاف وحماية مختلف الأشكال والتعبير الثقافية والفنية للمكونات التي تشكل الهوية الوطنية.

ولأن اللغة تمثل "موضوعا ثقافيا يعتمد على الثقافة بالمعنى الذي يميز الإنسان عن غيره من الحيوانات ولأن إخراج المجتمع من لغته أو إخراج لغته منه لتحل مكانها لغة أخرى هو أشبه بالتجهير القسري من الوطن أو الحمى، فلا يوجد مجتمع إلا ولديه لغة ودين وربما كان تغيير اللغة أصعب من تغيير الدين لأن الإنسان يسكن لغته"¹⁷.

ولأننا نعيش في عالم واحد وجب علينا معرفة أكبر عدد من اللغات حتى لا نفهم التعدد اللغوي فهما سطحيًا خاطئًا أي "تجميع لعدد من اللغات على حساب العمق المعرفي والمردودية التعليمية لنجرد النّظّاهر والتّباهي، بل يجب تقليص

الدور الذي يجب أن تضطلع به اللغة أو اللغات الأجنبية، وتحديد الهدف من تعليمها واستعمالها، وهو التفتح على العالم والتواصل معه والاستفادة منها في اكتساب أنواع الخبرة المحتاج إليها، والاستعانة بها في البحث العلمي والتبادل التجاري وعدم تجاوز هذه الحدود بالسيطرة أو الهيمنة أو الحلول محل لغة السيادة أو تهميشها كما هو واقع العربية حالياً¹⁸.

ويمكن أن يكون التعدد اللغوي تفريطاً في اللغة الأم وإهمال الهوية القومية لكننا قد نجد في بعض الدول عدة لغات رسمية تسهم في تنوع الثقافات، فالتعدد يمثل توسيعاً لآفاق الفكر وسيلة حوارية بين الثقافات والشعوب عامة.

لذلك يجب أن نستثمر التعدد اللغوي في ترجمة إرثنا العربي إلى لغات الآخر بل وإلى كل لغات العالم حتى يقرأنا الآخر الذي يملك فكرة خاطئة عن العرب والمسلمين ولغتهم وثقافتهم ودينهم، وعلى العموم تظل العملية التعليمية في حاجة ماسة إلى اصطناع ازدواجية المتوقعة بين مصادر الثقافة العربية ومصادر الثقافات الأجنبية، مما يحتم على الدارس ضرورة تعلم إحدى اللغات الأجنبية-على الأقل- وإتقانها نطقاً وكتابة لتكون سنداً له في الاطلاع على الثقافات الأجنبية، ومحاولة اختراق حواجز المكان واقتحام مجالات الفكر ومناقشة فكر الآخر عن فهم ووعي من قبيل الإثراء لفكر الأمة ولغتها، وهو ما يتأكد من خلاله منطق الانتماء للثقافة الأم من جانب، وما قد يضيف إليها بما يثريها ويزيدها عمقا ونضوجاً من جانب آخر¹⁹.

وتعد الترجمة من وسائل الانفتاح على الثقافات الأخرى وهي نافذة فكرية ومدخلا حضارياً نطل منه على فكر العالم من حولنا، أو يطل علينا ذلك الفكر من خلاله كما يضمن لهويتنا العربية مزيداً من التواصل وعدم الانغلاق، كما يضمن لها مزيداً من الصقل والانفتاح على كل ثقافات الآخر ومناهج فكره ومواد إبداعه، فالترجمة ركن أساس يضمن للمكتبة العربية المزيد من النضج والاكتمال والثراء

من خلال تزايد إيقاع التفاعل المعرفي والحوار العقلي وحتى الوجداني مع معطيات الثقافات المحيطة بنا²⁰.

ولأن اللغة عامل مهم في التواصل فهي تساعد على عيش كل فرد بسهولة وإقامة علاقات وروابط اجتماعية، وهي تدفع نحو التقارب بين الشعوب والثقافات فالعلاقة بين التعدد اللغوي والتنوع الثقافي علاقة تبادلية، فالتعدد اللغوي يؤدي إلى تنوع الثقافات والتنوع الثقافي يدفع بك إلى إتقان لغات عديدة بالإضافة إلى اللغة الأم. ويعتبر البعض التعدد اللغوي والتنوع الثقافي مخلفات سلبية من تبعات العولمة، إلا أن التعدد اللغوي يبقى ضروريا للتواصل لكون اللغة لا تعرف حدودا جغرافية بل هي تملك الأفق الرّحب للانتشار.

والثقافة هي تلك الممارسات اليومية التي نعيشها فنحن مجبرون على قبول الثقافات الأخرى وفهمها بما يسمح للتقارب بين الأمم بعيدا عن الصراعات والاختلافات.

خاتمة: يرى البعض أن التعدد اللغوي يعبر عن سعة الفكر وتطوير الذات، أما التنوع الثقافي فيراه البعض انسلاخ عن الهوية الجماعية، فلم لا نجعل من الليمون الحامض شرابا محلى؟ كما قال (ديل كارنيجي)، لما لا نسعى لفهم ثقافات الآخر والانفتاح عليها بدل الخوف والانغلاق على الذات؟ لما لا نتعلم لغة الأقوام الأخرى ونعرفهم على لغتنا حتى يسهل التواصل بيننا؟. إن اتخاذ المواقف السلبية اتجاه ثقافات الآخر هو بحد ذاته خطأ لذا وجب الانفتاح على اللغات الحية وتعلمها وقبول الثقافات الأجنبية والتفاعل معها بما يخدم الهوية الوطنية، وأخذ منها ما يهمننا ويتمشى مع ثقافتنا، ومن هنا يكمن القول أن التعدد اللغوي والتنوع الثقافي خاضعان لمعتقدات وخلفيات وحدود فكر كل واحد منا.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- 1/ التنوع والتعايش. حسين الصفار. دار الساقى، بيروت، لبنان، 1999م.
- 2/ التعدد اللغوي وانعكاساته على النسيج الاجتماعي. محمد الأوراعي.. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط/1، 2002م.
- 3/ التعدد اللغوي واللّبس الدلالي وأثره على التعلم. عبد العزيز بلفقيه. www.almothaquaf.com.
- 4/ في الثقافة والخطاب: عن حرب الثقافات: حوار الهويات في زمن العولمة. عبد الرزاق الداودي.. عبد الرزاق الداودي. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط/1 بيروت ، 2013م.
- 5/ الدولة والتعدد الثقافي. باتريك سافيدان. تر: مصطفى حسوني، دار توبقال للنشر المغرب، 2011.
- 6/ اللغة العربية وأسئلة العصر. العناتي وليد، برهومة عيسى. دار الشروق، عمان ط/1، 2007م.
- 7/ اللغة والدولة المفقودة. (الإنسان يسكن لغته). الفضل شلقات. مجلة النهضة، دار المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ع/9، 2014م.
- 8/ اللغة والمتغير الثقافي: الواقع والمستقبل. عبد الله التطاوي. الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط/1، 2005م.
- 9/ اللسانيات الاجتماعية. جولييت غرمادي. تر: خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط/1، 1990م.
- 10/ تاريخ اللسانيات ومستقبلها. هارالد هارمان. تر: سامي شمعون، المجلس الوطني للثقافة والفنون، قطر، 2006م.
- 11/ علم الاجتماع. لويس جان كالفي. تر: محمد يحياتن، دار القصة للنشر 2006م.
- 12/ في الأمن اللغوي.. صالح بلعيد. دار هومة، الجزائر، دط، 2010م.

- 13/ لغة الأمة ولغة الأم (عن واقع اللغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثقافية). عبد العالي الودغيري. دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 2014م.
- 14/ نظرية الثقافة: تحديات ومفاهيم. صبرينة بوقفة. مجلة دليل الكتاب، المركز الجامعي سوق أهراس.

الهوامش:

- ¹ / التنوع والتعايش. حسين الصفار. دار الساقى، بيروت، لبنان، 1999م، ص55.
- ² / الدولة والتعدد الثقافي. باتريك سافيدان. تر: مصطفى حسوني، دار توبقال للنشر، المغرب 2011، ص44.
- ³ / سورة: الشمس. الآية: 7-8.
- ⁴ / سورة المائدة. الآية: 48.
- ⁵ / في الثقافة والخطاب. عن حرب الثقافات: حوار الهويات في زمن العولمة. عبد الرزاق الداودي. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت، 2013م، ص25.
- ⁶ / فن الثقافة والخطاب. عن حرب الثقافات: حوار الهويات في زمن العولمة. عبد الرزاق الداودي. ص111.
- ⁷ / نظرية الثقافة: تحديات ومفاهيم. صبرينة بوقفة. مجلة دليل الكتاب، المركز الجامعي سوق أهراس.
- ⁸ / التعدد اللغوي وانعكاساته على النسيج الاجتماعي. محمد الأوراغي. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط1، 2002م، ص11.
- ¹⁰ / في الأمن اللغوي. صالح بلعيد. دار هومة، الجزائر، د.ط، 2010م، ص224.
- ¹¹ / سورة الروم. الآية: 21.
- ¹² / التعدد اللغوي واللبس الدلالي وأثره على التعلّم. عبد العزيز بلفقيه www.almothaquaf.com.
- ¹³ / اللسانيات الاجتماعية. جولييت غرمادي. تر: خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ط1، 1990م، ص115.
- ¹⁴ / تاريخ اللسانيات ومستقبلها. هارالد هارمان. تر: سامي شمعون، المجلس الوطني للثقافة والفنون قطر، 2006م، ص49.
- ¹⁵ / علم الاجتماع. لويس جان كالفي. تر: محمد يحياتن، دار القصبة للنشر، 2006م، ص27.
- ¹⁶ / اللغة العربية وأسئلة العصر. العناتي وليد، برهومة عيسى. دار الشروق، عمان، ط1، 2007م، ص106-107.

- ¹⁷ / اللغة والدولة المفقودة (الإنسان يسكن لغته). الفضل شلقات. مجلة النهضة، دار المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ع/9، 2014م، ص15.
- ¹⁸ / ينظر: لغة الأمة ولغة الأم (عن واقع اللغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثقافية)، عبد العالي الودغيري. دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 2014م، ص58.
- ¹⁹ / اللغة والمتغير الثقافي: الواقع والمستقبل. عبد الله التطاوي. الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط/1، 2005م، ص58.
- ²⁰ / نفسه. ص108.

التراث والحداثة: المفهوم والعلاقة

أ. عبد القادر سرير عبد الله

جامعة علي لونيس - العفرون

مقدمة: لقد كثر تداول هذا الثنائي (التراث - الحداثة) تحت مسميات أخرى كثيرة، مثل الأصالة والمعاصرة، والقديم والجديد، والأصولية والعقلانية، وغيرها من المصطلحات، كما عقدت الندوات، وأقيمت المحاضرات، وألفت الكتب ونُشرت المؤلفات في الموضوع الحساس، ولكن رغم كل ذلك لم يستطع الخاضعون في هذا الموضوع الاتفاق على كلمة سواء. وما زال الأمر على ما يبدو محتاجا إلى مزيد من النقاش والحوار، وتبادل الرؤى، علنا نصل يوما إلى أرضية اتفاق وتفاهم، أو على الأقل أرضية تقارب وتوافق على مبادئ ومعايير عامة تمكن المشتغلين في هذا المجال الحيوي من التمازج والتشاور والتنسيق فيما بينهم.

نتطرق في هذا البحث إلى أهم مفاهيم ومدلولات كل من مصطلحي "التراث" و"الحداثة"، كما عرفها ثلّة من المفكرين العرب والغربيين، ثمّ نعرض لمختلف الآراء التي ترسم العلاقة التي تربط بين المصطلحين لدى الاتجاهات الفكرية العربية التي تبحث في هذا الموضوع الذي مازال يثير الكثير من النقاشات والتساؤلات ويشكل دائما موضوع الساعة، لأنّه يطال بشكل مباشر وعميق قضايا الهوية والانتماء من وجهة، ولا علاقة وطيدة بحياتنا الراهنة بكل تجلياتها.

وبناءً على ما سبق، فقد جاءت خطة البحث بعد المقدمة كالآتي:

— أولا: مفهوم التراث.

— مفهوم الحداثة.

— مواقف المتقنين العرب من الحداثة.

— علاقة التراث بالحداثة.

— محاولة تركيب (خاتمة).

— أولاً — مفهوم التراث: يطلق لفظ التراث على مجموع نتاج الحضارات السابقة التي يتم وراثتها من السلف إلى الخلف وهي نتاج تجارب الإنسان ورغباته وأحاسيسه سواء أكانت في ميادين العلم أو الفكر أو اللغة أو الأدب وليس ذلك فقط بل يمتد ليشمل جميع النواحي المادية والوجدانية للمجتمع من فلسفة ودين وفن وعمران... وتراث فلكلوري واقتصادي أيضاً.

والأصل من التراث هو كلمة مأخوذة من (ورث) والتي تعني حصول المتأخر على نصيب مادي أو معنوي ممن سبقه "الواو والراء والثاء : كلمة واحدة، هي الورث. والميراث أصله الواو، وهو أن يكون الشيء لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو سبب. قال:

مرثّاهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بنينا¹.

أما الأصل التاريخي لكلمة تراث فهي تعود إلى أقدم النصوص الدينية حيث وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم ﴿وتأكلون التراث أكلاً لما﴾ - الفجر 19 - حيث كان المقصود بها الميراث².

حيث كان الأصل في البداية استخدام لفظ الميراث نيابة عن كلمة التراث ولكن مع تقدم العصور أصبحت) التراث (هي الكلمة الأكثر شيوعاً للدلالة على الماضي وتاريخ الأمة وحضاراتها وما وصل إلينا من الحضارات القديمة سواء أكان هذا التراث متعلق بالأدب أو العلم أو القصص أي كل ما يمت للقدم.

أما عن المعنى المعاصر لكلمة تراث فهو التراث الفكري المتمثل في الآثار المكتوبة الموروثة التي حفظها التاريخ كاملة ومبتورة فوصلت إلينا بأشخاصها.

ومن الجدير بالذكر أن التراث هو ليس الطابع أو الخصائص القومية بل هو أعمق من ذلك فهو يعبر عن مجموع التاريخ المادي والمعنوي لحضارة معينة منذ

أقدم العصور فكثير هي الحضارات التي حكمت منطقة أو مكان واحد ومع أن هذه الحضارات قد ولت إلا أن التراث اعادها.

إن التراث الشعبي ثروة كبيرة من الآداب والقيم والعادات والتقاليد والمعارف الشعبية والثقافة المادية والفنون التشكيلية والموسيقية، وهو علم يدرس الآن في الكثير من الجامعات والمعاهد الأجنبية والعربية لذا فإن الاهتمام به من الأولويات الملحة.

وهذا تعريف آخر للكاتب صالح زيادنة حول تعريف التراث هو ما ينتقل من عادات وتقاليد وعلوم وآداب وفنون ونحوها من جيل إلى جيل، نقول : " التراث الإنساني " التراث الأدبي، التراث الشعبي"، وهو يشمل كل الفنون والمآثورات الشعبية من شعر وغناء وموسيقى ومعتقدات شعبية وقصص وحكايات وأمثال تجري على ألسنة العامة من الناس، وعادات الزواج والمناسبات المختلفة وما تتضمنه من طرق موروثة في الأداء والأشكال ومن ألوان الرقص والألعاب والمهارات.

وبمفهومه البسيط هو خلاصة ما خلفته (ورثته) الأجيال السالفة للأجيال الحالية. التراث هو ما خلفه الأجداد لكي يكون عبرة من الماضي ونهج يستقي من الأبناء الدروس ليعبروا بها من الحاضر إلى المستقبل. والتراث في الحضارة بمثابة الجذور في الشجرة، فكلما غاصت وتفرعت الجذور كانت الشجرة أقوى وأثبت وأقدر على مواجهة تقلبات الزمان "إنّ التراث كل هذه الثقافات التي نتعامل بها ومن خلالها وانطلاقا من قيمنا فيما بيننا وبين المم الأخرى، إنّ التراث كل هذه القيم التي تميزنا عن غيرنا فلا نذوب ولا نفنى. أمّ من حق الأبناء أن يعقوا الآباء، والأحفاد أن يعقوا الأجداد، فيزهدوا فيما تركوا فيمسوا وهم يبحثون عن تشكيل شخصية جديدة أو شخصية أخرى لهم لا يمكن أن تتكوّن في الحقيقة إلاّ من خلال التمسك بالتراث، والسعي إلى توظيف الجوانب المشرقة منه في حياتنا المعاصرة دون الذهاب بعيدا، بحيث إنّ المناداة بتبنيه كلّ يفضي إلى قطيعة المعرفة الإنسانية

المعاصرة، ونحن كما لا نريد أن نذوبَ في غيرنا فنتمسك بقيمتنا الأصيلة، فإننا لا نريد أن نرفضَ ثقافة الآخر ومعرفتهم³.

في ضوء هذا النص لعبد المالك مرتاض، ندرك أن التراث ليس مادة واحدة منسجمة، بل فيه الثابت والمتغير والبشري والمقدس، وفيه المقبول والمردود والمطلوب منا في العصر الراهن أن نميز بين تلك المستويات من التراث، فما كان مقدساً، ثابتاً أخذنا به، والتزمنا به، لأنه هو سبب بقائنا وتميزنا عن غيرنا وما كان يدخل في غير ذلك فعلينا غربلته، وتصحيحه، أو رفضه ونبذه إذا اقتضت الحاجة إلى ذلك.

ثانياً - مفهوم الحداثة: لا يزال العالم اليوم يلهث وراء مصطلحات التجديد والحداثة؛ التي تذهب بالعقول وتأخذ الأفئدة بدعوى التقدم والرقى.. وقد انتشرت موجات عاتية من المصطلحات الوافدة والموضات السافرة والتغني بمنجزات الغرب وتحريف الكلم عن موضعه بانتهاج مناهج التقعر في الكلام، واستخدام أساليب تتنافى والذوق العام، وتصطدم بصحيح اللغة ومورد الكلام.

وأمام هذا اللهث والانقياد والمتابعة للغرب شبرا بشبر وذراعاً بذراع، والتي طالت كل شيء، حتى القيم والعبادات. وأمام الغزو -بصوره المختلفة- الذي يحيطنا من كل جانب مستهدفاً مكامن عزتنا ومواطن فخارنا (اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً) معتمداً على التكنولوجيا باعتبارها مظهراً من مظاهر التقدم، مستخدماً أساليب الحداثة والرقى؛ فقد بات الاهتمام باللغة العربية -مثلاً- مثار سخرية وازدراء والتمسك بها رجعية وعودة للوراء.

وبناءً على ما سبق ذكره تتجدد الحاجة لتقنين هذا الأمر الذي بُحث كثيراً من قبل حاجتنا الآنية لما يعيد الأمور إلى نصابها، ويجدد الأمل في تراث أمتنا العتيق وموردنا العذب ومنهلنا الطيب حتى تبرا الأمة من سقم وتسيقظ من سبات.. فماذا عسانا أن نجني جراء إضاعتنا لثرواتنا وتراثنا وأعمارنا؟ والجري وراء أوهام

الحدث الحادثة الغربية " التي فقدت قيمتها الإنسانية والأخلاقية والروحية، وكان هدفها الوحيد هو تحقيق الإثراء غير المشروع والمكاسب المادية على حساب القيم والأخلاق المثلى والفضائل السمة"⁴

ومع زيادة الإقبال عالمياً على وسائل العصر ومستجداته في كل المجالات علمياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، بما يعنى الكثير من الوسائل والأدوات والمصطلحات بل والثقافات أمت الحاجة ملحة لضبط مصطلح ومدلولاته، ومن ثم معرفة كيفية، ونسب التعاطي معه بما يحفظ علينا ثقافتنا وديننا.

أ - الحدث لغة: جاء في لسان العرب مادة " حدث":

الحديث: نقيض القديم. حدث الشيء يحدث حدوثاً وحادثة، وأحدثه هو، فهو مُحَدَّث وحديث، وكذلك استحدثه .

والحدث كون الشيء لم يكن.

وأحدثه الله فحدث.

وحدث أمر أي وقع"⁵

فمادة "حدث" ومشتقاتها المختلفة تحيل كلها على معاني الجدة، ومخالفة القدم ووقوع شيء لم يسبق له وجود، وهذه المعاني كلها لها علاقة وطيدة بالمفهوم الاصطلاحي للحدث كما سنرى فيما بعد.

وإن كانت الحادثة تعنى عند أهل العلوم والأدب المعاصرة وتَبَنَّى أشكال وأساليب حديثة في الكتابة تلائم مفاهيم العصر، فإنها تعدت هذا لتشمل التحديث والتجديد في كل مجالات الحياة وإطلاق العقل طاقته ليجول بخاطره لما وراء المتوقع، فهي - مثلاً - عند كمال أبو أديب طرح للأسئلة القلقة التي لا تطمح إلى الحصول على إجابات نهائية، بقدر ما يفتتها قلق التساؤل وحمى البحث، فهي إذاً جرثومة الاكتئاب الدائب القلق المتوتر، وهي حمى الانفتاح.

ب. **الحدث اصطلاحاً:** لكنها في اصطلاح الغربيين تدور حول عدة معانٍ أبرزها أنها: "انفجار معرفي لم يتوصل الإنسان المعاصر إلى السيطرة عليه، كما عند رولان بارت"⁶

كما أنها وردت بمعنى تجسيد صورة نسق اجتماعي متكامل، وملامح نسق صناعي منظم وآمن، وكلاهما يقوم على أساس العقلانية في مختلف المستويات والاتجاهات، كما عند «ماركس» و«إميل دور كايم»، و«ماكس فيبر»، لكن «جيدن» اعتبرها: تتمثل في نسق من الانقطاعات التاريخية عن المراحل السابقة حيث تهيمن التقاليد والعقائد ذات الطابع الشمولي الكنسي.

وقد اعتبر الفيلسوف الألماني «كانت» وهو من آباء الحدث الغربية أن شرط الحدث والتتوير اللازم هو "الحرية"، في دلالة على أن العقل عنده يجب أن يتحرر من سلطة المقدس ورجال الكهنوت والكنيسة وأصنام العقل، فيما يرى ناصيف أن الحدث "هي خروج من التقاليد وحالة تجديد، وتحدد الحدث في هذا المعنى بعلاقتها التناقضية مع ما يسمى بالتقاليد أو التراث أو الماضي"⁷.

ج - مفهوم الحدث في الإسلام: ومصطلحات التجديد هذه وإن كانت جديدة نسبياً على ثقافتنا نحن المسلمين من جهة اللفظ، فإنها قديمة من حيث الأصل والمضمون بقدم هذا الدين؛ ففي واقع الأمر استودع الله دينه ما يدعو لمواكبة ما يستجد من أمور ومعاشة الواقع باحترافية واقتدار.. بل إن الإسلام سبق لحدث أتباعه على صنع الجديد واعداً بالثواب والأجر الجزيل.. لكن وأمام حالة الضعف العامة التي مُني بها المسلمون أصبح من الصعب نسبياً تصدّر هذه المجالات واكتفينا بالمشاركة في صناعة أدوات الحدث ووسائلها أحياناً، والمتابعة والاستهلاك أحياناً آخر!

لكن، وبالنظر للتعريف السابقة التي اعتمدت على ذويع حالة الضعف، فإن يتجلى ما بين هذه المدلولات المتعددة للحدث من مساحة تؤكد التحلل والتحرر من الثوابت بإطلاق سراح العقل في مجالات الحياة، وهذا الأمر وإن كان ظاهره التقدم والرقى

والوقوف على نهايات التطور، فإن باطنه من قبله العذاب إن لم يُضبط بضابط شرعي وعرفي يتفقُ وتعاليم ديننا وتقاليد وعادت شعوبنا العربية والإسلامية. ومن هنا وجب بيان منطلقاتنا نحن المسلمين قبل الولوج في هذا البحر الذي لا ساحل له، مصطحبين ما دخر به الإسلام من معان التعاليش والتقدم مستبشرين بنصوص الوحي الزاخرة، بما يغلق الطريق أمام موجات التغريب الساحقة وطعنات التشويه المتوالية، فمفهوم الحداثة العربية والإسلامية يتعين بجملة من العناصر التي ينبغي أخذها في الاعتبار في عملية النهوض الحضاري: وأول هذه العناصر هو الوحي؛ قرآنًا وسنة، وثانيها هو الواقع العربي الإسلامي، وثالثها هو الانطلاق من الإنسان. ورابعها هو الانفتاح على العالم.

فمفهوم الحداثة إذاً عندنا يعتمد على النموذج المعرفي للإنسان باعتباره الأساس الذي يقوم عليه ومن أجله، وهو ما يختلف -في اعتقادنا- مع المفهوم الغربي الذي يستبطن العلمانية، ويستبعد كل أثر للدين في حركة الحضارة

- واقع مخزٍ: وبعد وقوفنا على مفهوم الحداثة بين الإسلام والغرب؛ بين الأصل والفرع، يجدر بنا وصف ما عليه الحال الآن.. فإننا وإن كنا بصدد ظاهرة عالمية تجتذب العالم أجمع فإنه يعيننا في المقام الأول ما عليه حال المسلمين تجاه هذا الأمر فمن غير الخفى ما ابتلي به بعض المسلمين من الانسياق التام وراء هذه المصطلحات حتى باتوا دعاة للغرب في بلادنا، فقدفت بهم الحيرة إلى متائنه من الشطحات هي ظلمات بعضها فوق بعض، فتاهت بهم السبل وكثرت بهم الأرقعة وتخطفتهم الدروب بمسميات شتى ودعاوى متغايرة، التقدم والحداثة إحدى صورها ووسائلها حتى وجدوا أنفسهم صرعى على أعقاب ما ذهبوا يبيعونه.

نعم، إن واقع أمتنا اليوم لينبئ عن تردٍ مزرٍ، "فإذا ما بحثت عن أمتنا في حقول المعرفة فلا تجدها، وفي ساحات الإنتاج فلا تحسها، وفي نماذج الخلق الزاكي والتعاون المؤثر، والحريات المصونة، والعدالة اليبانة... فتعود صفر اليدين!! بماذا

شغلت نفسها؟ بمباحث نظرية شاحبة، وقضايا جزئية محقورة، وانقسامات ظاهرها الدين وباطنها الهوى.. واستغرقها هذا كله، فلم تعط عزائم الدين شيئاً من جهدها الحار، وشعورها الصادق.. فكانت الثمرات المرة أن صرنا حضارياً وخلقياً واجتماعياً آخر أهل الأرض في سلم الارتقاء البشري⁸!!

فقد أطلت التكنولوجيا الحديثة برأسها على رأس البسيطة وراحت تُبرق عيون المسلمين الذين لم يكن لهم يد في صناعتها، وهنا مكنم الخطر وموضع الشرر، وفي سبيل ذلك أجمع الغرب عدتهم وراحوا يكيّدون لكل ما يرتبط بالمسلمين وتاريخهم ولغتهم كيّداً.. وانطلقوا وهو يتخافتون حتى ساد القوم ببضاعتنا وتبوأوا مكانتنا.

وهو ما أردت التنويه إليه حتى لا تجرنا رياح التغريب لواء غير ذي زرع فنصبح وقد صرنا ألعوبة في يد الغرب نتلقفنا أياديهم، ننشد ودهم ونتغنى بإنجازاتهم دونما اعتبار لدين أو عرف، وهو ما يعد مسخاً نوعياً وسحقاً للثوابت والأركان.

— سمات الحداثة المنشودة: ولهذا، فأول سمة من سمات الحداثة المنشودة هو أن تكون قائمة على المرجعية الدينية، المبنية أساساً على التوحيد، على اعتبار أنه "يمثل حجر الزاوية في تكوين وبناء الرؤية الكلية عن الكون والحياة والإنسان، وفي الوقت نفسه يحقق قدرة كبيرة على صياغة المفاهيم الضرورية، لبناء فاعلية الإنسان وتشكيل دافعية العمران والتسامي فيه، وإيجاد المنطلقات المعرفية، والثقافية السليمة لدى الإنسان"⁹.

فلا يمكن حل أزمة الفكر إلا بالتوحيد، ولا يستتير الفكر إذا لم تنعكس أشعة التوحيد عليه، ولا يهتدي السلوك الإنساني إلا به، ولا يرتقي إلى معارج التزكية إلا بسلالته، ولا يبلغ العمران إلا بسلوك سبيله، ولا تتحقق عدالة إلا بعد اليقين به، ولا تقوم دعائم حرية أو تحرر أو مساواة إلا على قوائمه. فهو (أي التوحيد) ينعكس على الفكر فيقيمه، وعلى التصور فينقيّه، وعلى الاعتقاد فيصحّحه ويطهره، وعلى الوجدان فيحرره، وعلى السلوك فيعنّله، وعلى الخلق فيحسنه، وعلى الحياة فيجعلها

حياة طيبة، وعلى نظم الحياة فيجعلها صالحة قائمة على الهدى، والحق، والعدل والأمانة، وتساوي الخليفة ووحدتها، ووحدته الحقيقة ومناهجها. وعليه، فلا بد أن تعتمد الحداثة على التراث الإسلامي بكل ما يحمله من رؤية معرفية، ومنظومة قيمية، وفلسفة في الوجود فهو أصل الرسالات ومبتغى الرسل والديانات وبه وحده النجاة وبتعاليمه وحده تسمو طبائعنا وترسو سفينتنا وسط هذه الموجات العاتية والصفات النابية.

ثالثاً - الموقف من الحداثة: لقد تعددت وتنوعت مواقف الدارسين والباحثين العرب في هذه المسألة، بسبب الروافد العلمية والثقافية لكل واحد منهم، وقد أحصينا ستة من تلك المواقف المتباينة، سنحاول تلخيصها فيما يأتي:

1 - أسلمة الحداثة: يرى أصحاب هذا الموقف أن "الإسلام هو دين الحداثة بامتياز؛ والدليل على ذلك ما يتضمنه القرآن الكريم من حقائق التقدم والازدهار والتنمية الحقيقية، كالحث على طلب العلم، وتكريم الإنسان، والحث على العمل وبذل الجهد في بناء الكون وتعميره... كما دعا الإسلام إلى استخدام العقل وتأمل الطبيعة والكون"¹⁰

ويمثل هذا الاتجاه ثلث من المفكرين، مثل حسن حنفي، طه عبد الرحمن، ومحمد عمارة... وغيرهم.

2 - تمجيد الحداثة الغربية: يرى أصحاب هذا الموقف الثاني أن تراثنا العربي الإسلامي قد عرف عرف أصواتا حداثية بارزتكابن رشد في الفلسفة، والشافعي في أصول الفقه " وقد تمثلها الأوروبيون في بناء نهضتهم، إلا أننا في عصرنا لا يمكن الاعتماد على الرشدية في بناء الحداثة أو ممارسة فعل التحديث المعاصر، وكذلك الشافعي لا يمكن تمثل تصورات الأصولية والفقهية في عملية العصرية والتقدم، فلكل زمان حداثته التاريخية والفكرية"¹¹، ولعل أبرز من يتبنى هذا الطرح المتطرف والإقصائي في التعامل مع التراث العربي الإسلامي هو محمد أركون الذي يرى

بأنّ الإسلام تاريخاً وفكراً وممارسة غير صالح لبناء الحداثة المعاصرة ،و أنه مجرد تراث ينبغي تجاوزه لتحقيق الحداثة الحقيقة والتي تمثلها الحضارة الغربية اليوم .

3 - الرفض القاطع للحداثة : يمثل هذا الموقف المتطرف المقابل والمناهض

للموقف الثاني مجموعة من الدعوات الدينية المنغلقة على ذواتها، والتي تسجن نفسها في التراث، وترفض الحداثة جملة وتفصيلاً، سواء أكانت هذه الحداثة غربية أم عربية، ويتبنى أنصار هذا الرأي المتشدد خطاباً تكفيرياً عموماً، تحول في بعض المناطق من العالم إلى ممارسة إرهابية عنيفة .

3 - التوفيق بين الحداثتين العربية والغربية: يقول أنصار هذا الموقف الوسطي

المعتدل أن للحداثة الغربية سلبيات وإيجابيات ،ولها مساوئ ومحاسن، مثلها مثل كل التجارب الإنسانية الأخرى ؛ وعليه فلا مناصاً من الاستفادة من منجزات الحداثة الغربية على المستوى العلمي والتقني والمنهجي، في حين يجب علينا الالتزام بالمبادئ والأخلاق الإسلامية، وعدم الانخداع بالنظريات والمذاهب الغربية التي تدعو صراحة إلى مخالفة التعاليم الدينية عموماً، وتعاليم الدين الإسلامي خصوصاً وهذا يعني أن أصحاب هذا الموقف يرون أن العلاقة بين الطرفين هي علاقة تكامل وتعاون ،و ليست علاقة تناقض وصراع " لأن الحداثة تتّبنى على التلاقح وعلى المثاقفة والتناص والتكامل والتفاهم والتعاون والتواصل"¹²

إن واقع الحضارة الغربية يؤكد هذا الرأي، لأنها نتاج مشاركة وتعاون شعوب وحضارات مختلفة، فالحداثة الأمريكية اليوم شارك في إنجازها مجموعة من الباحثين والعلماء من أقطار ودول وشعوب مختلفة، تختلف دياناتهم وثقافتهم ولغاتهم " ويعني هذا أنّ الحداثة قاسم مشترك بين الشعوب والأمم والمجتمعات الإنسانية بدون تمييز أو تفريق أو تفضيل "¹³

إذا تقوم هذه المشاركة في صناعة الحداثة على مجموعة من القواعد والمعايير يمكننا جمعها فيما يلي:

العطاء، الاستقلالية، الأصالة، التعاون، التواصل، التكامل، مع احترام معتقدات الآخر وأعرافه، وتاريخه وثقافته وهويته .

الخاتمة: كانت ثنائية الأصالة والمعاصرة، أو التراث والحداثة، وستظل موضوع نقاش وجدال وحوار بين المفكرين والباحثين، نظرا لمختلف المفاهيم والدلالات التي تحملها تلك المصطلحات، من وجهة، ونظرا لاختلاف روافد وثقافات المشتغلين في هذا المجال الفكري الحساس، من وجهة أخرى .و لكن مهما يكن من أمر، يمكننا استخلاص مجموعة من النتائج العامة نوجزها فيما يأتي:

— مصطلح التراث ليس شيئا واحدا، لكن يحوي على الثابت والمتغير، الأول مقدس لا يمكن الخروج عنه أو تغييره، أما الشق الثاني منه المتغير، فيمكننا بل يجب علينا نقده وتجديده بحيث يساير مقتضيات ومتطلبات العصر.

— يمثل التراث في عمومهِ المرجعية التاريخية والقيمية لكل أمة، تستند إليه في بناء حاضرها، وفي تطلعاتها وتصورها للمستقبل.

— الحداثة مصطلح متعدد المعنى، كل يفهمه حسب خلفياته الفكرية، وقناعاته الإيديولوجية، وخبراته الحياتية فكل ثقافة أو حضارة حداثتها .

— الحداثة الغربية هي المهيمنة اليوم على العالم، بكل قيمها الإيجابية والسلبية الثقافية والاقتصادية، والقيمية.

— تعددت مواقف المفكرين والباحثين العرب والمسلمين إزاء الحداثة الغربية فمنهم الممجد لها، ومنهم الرافض لها، ومنهم من يحاول التوفيق بينها وبين القيم والمبادئ الإسلامية.

هوامش البحث:

- ¹ — انظر مقاييس اللغة، مادة "ورث".
- ² — انظر تفسير صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، سورة الفجر الآية 19.
- ³ — عبد المالك مرتاض، مائة قضية وقضية، دهر هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2012، ص 117.
- ⁴ — جميل حمداوي، الإسلام بين الحادثة وما بعد الحادثة، دار التنوير، الجزائر، 2014، ط1 ص 20.
- ⁵ — محمد ابن منظور، لسان العرب، انظر مادة "حدث".
- ⁶ — عدنان رضا النحوي، تقويم نظرية الحادثة، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية 1992، ط1، ص 35.
- ⁷ — انظر مقالة "الحادثة بين المفهوم الإسلامي والغربي" لمحمد جمال حليم، منشورات موقع "إسلام أون لاين".
- ⁸ — محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، المقدمة، ص3، وما بعدها بتصرف.
- ⁹ — طه جابر العلواني، مقالات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2003، ص35.
- ¹⁰ — جميل حمداوي، الإسلام بين الحادثة وما بعد الحادثة، م س، ص 75.
- ¹¹ — جميل حمداوي، الإسلام بين الحادثة وما بعد الحادثة، م ن، ص 80-81.
- ¹² — جميل حمداوي، الإسلام بين الحادثة وما بعد الحادثة، م س، ص 93.
- ¹³ — جميل حمداوي، الإسلام بين الحادثة وما بعد الحادثة، م ن، ص 93.

شخصية المثقف

بين التمسك بالأصالة والانفتاح على التحضر

د. يوسف بن نافلة

جامعة حسية بن بوعلي، الشلف.

الملخص: تروم هذه الورقة البحثية إلى الحديث عن مفهوم الثقافة لغة، وفي اصطلاح علماء الأنثروبولوجيا، ثم مفهوم الثقافة بين الصفوة والعامّة، ثم التطرّق إلى روافد الثقافة، وجذورها، ومصادرها الأساسية لدى كلّ مجتمع، ثم ضبط مصطلح "شخص مثقّف"، وما معنى قولهم أمة مثقفة لا تُظلم، ولا تُستعبد، ولا تبقى في آخر الركب. ثم الخصائص المميّزة للثقافة، والحضارة، ومستويات الثقافة وأنواعها، ومفهوم الثقافة الفرعية ومدلولاتها، وكذا المخاطر التي تهدّد الثقافة والخصائص المميّزة لمفهوم كلّ من الثقافة والحضارة. ثم الحديث عن المقصود بالرجل المثقف حقيقة، وكيف يكون في صراع بين ثقافتين ثقافة الأصالة والتحضر، وثقافة الاستيلاء والضياع، مركزاً في كلّ ذلك أيضاً عن مفهوم "الأصالة" ومفهوم "التحضر"، ومفهوم "الاطّلاع على ثقافة الآخر"

الكلمات المفتاحية: الثقافة - التنوع - الأمن الثقافي - حوار الثقافات - التنمية الثقافية - التعايش الثقافي.

المقدمة: من المتعارف عليه لدى أهل الاختصاص أنّ الثقافة ركن أساسي في حياة المجتمعات، والأمم، والمقصود بالثقافة ليست مجرد تراكم المعلومات أو الخبرات، بل إنّ الثقافة أسلوب في التفكير، ومجموعة من الرؤى، وأنماط من السلوك، والعُرف الاجتماعي، والتراث، فهي محصلة قيم مادية وروحية، ووسائل لإنتاج هذه القيم، واستخدامها، ونقلها وهي تتطور، وتزدهر، وتورث من جيل إلى جيل. وتتضمن الثقافة كلّ ما يحمله المجتمع من تراث وعلاقة هذا التراث بالزمان

والمكان، انطلاقاً من الكثير من الأسس التي تشكّل ثوابت المجتمع وأصوله، وتوجد ضمن الثقافة العامة ثقافات فرعية مختلفة لكنها تتحرك في دائرة الثقافة والحضارية.

أما الثقافة الفرعية فهي نمط فرعي متنسق يسير وفق مجموعة من الأهداف والغايات التي توجّهه، وتضبط سلوك العناصر البشرية داخل المجتمع المحلي، أو الجماعة الخاصة في ضوء متطلبات الأغراض المميزة للثقافة السائدة في المجتمع. وعلى هذا الأساس وجب علينا التركيز أساساً على المقصود من دلالة "الرّجل المثقّف" حين يكون في مهبّ الريح، وصراع بين ثقافتين مختلفتين: ثقافة الأصالة، والتمسك بالهوية الدائمة المفيدة لشخصه وأمتّه، وثقافة الاستيلاء الحضاري التي تهوي به في برائث الفساد، والضياع، فلا هو ربح شخصيته، ولا اندمج مع ثقافة غيرنا دون غربة، ولا تمحيص. ذلك أنه لا بدّ من جهة ثانية تحديد مفهوم مصطلح "الأصالة"، ودلالاته، ومركزاته، ودعائمه المتينة للحفاظ على الشخصية السوية، والهوية الوطنية، ثم ضبط مصطلح "المعاصرة"، وكذا دلالة التماشي مع الحضارة، والعصر الذي نعيشه وإلاّ اتهمنا بالرجعية، والتّعبد والتأخّر، والانغلاق على الذات في عصر الرقمنة والتكنولوجيا.

أما الإشكال الذي أودّ طرحه في هذه الورقة فيتمثل في الآتي:

- 1- ما المقصود بالشخص المثقّف في مجتمعنا؟
- 2- ومتى نقول عن الشخص أنه يحمل إرهابات الثقافة والنخبوية في بلاده ؟
- 3- وهل تمسك الشخص بأصالته يعدّ فعلاً أنه مثقّف؟
- 4- وهل الانفتاح على ثقافة الآخر دون تمحيص يعدّ استيلاء حضارياً؟
- 5- وما السبيل الأنجع لحفاظ المثقّف على شخصيته، وهويته، وتاريخ أمتّه المجيدة؟
- 6- وما دور التنوع الثقافي في تحقيق التعايش بين الأمم، والتنمية الشاملة بينهم ؟

مفهوم الثقافة:

أ- في اللغة: جاء في لسان العرب : (تَقَفَ الشيءَ تَقْفًا، وَتَقَافًا، وَتَقُوفَةً : حَذَقَهُ وَرَجُلٌ تَقَفٌ، وَتَقَفٌ، حَازِقٌ فَهْمٌ، وَأَتْبَعُوهُ فَقَالُوا : تَقَفٌ، وَرَجُلٌ تَقَفٌ لَقَفٌ إِذَا كَانَ ضَابِطًا لِمَا يَحْوِيهِ قَائِمًا بِهِ .وَيَقَالُ :تَقَفَ الشَّيْءُ وَهُوَ سُرْعَةُ التَّعَلُّمِ . وَتَقَفْتُ الشَّيْءَ :حَذَقْتَهُ، وَتَقَفْتَهُ :إِذَا ظَفَرْتُ بِهِ، قَالَ تَعَالَى : (فَإِمَّا تَنْتَقِفُهُمْ فِي الْحَرْبِ) وَتَقَفَ الرَّجُلُ تَقَافَةً أَيْ صَارَ حَازِقًا خَفِيفًا مِثْلَ ضَخْمٍ، فَهُوَ ضَخْمٌ، وَمِنْهُ الْمُتَقَافَةُ .وَتَقِفَ أَيْضًا تَقْفًا مِثْلَ تَعَبٍ أَيْ صَارَ حَازِقًا فَطْنًا، فَهُوَ تَقَفٌ، وَتَقَفٌ مِثْلُ حَذِرٍ، وَحَذِرٌ وَتَقَفَ الْخُلُ تَقَافَةً، وَتَقَفٌ فَهُوَ تَقِيفٌ، وَتَقِيفٌ بِالتَّشْدِيدِ الْآخِرَةِ عَلَى النَّسَبِ : حَذَقَ . وَتَقِفَ الرَّجُلُ : ظَفَرَ بِهِ، وَتَقِفْنَهُ تَقْفًا :أَيْ صَادَفْتَهُ .وَتَقَفْنَا فَلَانَا فِي مَوْضِعٍ كَذَا أَيْ أَخَذْنَاهُ، وَمَصْدَرُهُ التَّقْفُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ) .

والتَّقَافُ والتَّقَافَةُ : العمل بالسيف . وفي الحديث : (إِذَا مَلَكَ اثْنَا عَشَرَ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ كَعْبٍ كَانَ التَّقْفُ، وَالتَّقَافُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ) يَعْنِي الْخِصَامَ وَالْجِلَادَ .والتَّقَافُ : حديدية تكون مع القَوَاسِ وَالرَّمَّاحَ يَقُومُ بِهَا الشَّيْءُ الْمَعُوجُ .والتَّقَافُ : مَا تَسَوَّى بِهِ الرَّمَاحُ، وَتَقِيفُهَا : تَسْوِيتُهَا ...)¹

وجاء في (المصباح المنير) (تَقَفْتُ الشَّيْءَ تَقْفًا مِنْ بَابِ تَعَبٍ أَخَذْتَهُ، وَتَقَفْتُ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ أَدْرَكْتَهُ، وَتَقَفْتَهُ ظَفَرْتُ بِهِ، وَتَقَفْتُ الْحَدِيثَ فَهَمْتُهُ بِسُرْعَةٍ وَالْفَاعِلُ تَقِيفٌ، وَبِهِ سَمِيَ حِي مِنَ الْيَمَنِ، وَالنَّسْبَةُ إِلَيْهِ تَقْفِي بِقَتَحْتَيْنِ، وَتَقَفْتَهُ بِالتَّثْقِيلِ أَقَمْتُ الْمَعُوجَ مِنْهُ.)²

وفي (المعجم الوسيط) : (تَقَفَ تَقْفًا :صَارَ حَازِقًا فَطْنًا فَهُوَ تَقَفٌ، وَتَقَفَ الْخُلُ : اشْتَدَّتْ حُمُوزُهُ فَصَارَ حَرِيفًا لَذَاعًا، فَهُوَ تَقِيفٌ، وَتَقَفَ الْعِلْمُ وَالصَّنَاعَةُ : حَذَقَهُمَا، وَتَقَفَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ : أَدْرَكَهُ، وَتَقَفَ الشَّيْءُ : ظَفَرَ بِهِ .وَتَقَفَ فَلَانٌ : صَارَ حَازِقًا فَطْنًا . وَثَقَافُهُ مُثَاقَفَةٌ، وَثَقَافًا : خَاصَمَهُ، وَجَالَدَهُ بِالسَّلَاحِ، وَثَقَافُهُ : لَاعِبُهُ إِظْهَارًا لِلْمَهَارَةِ، وَالْحَذَقُ . وَتَقَفَ الشَّيْءُ : أَقَامَ الْمَعُوجَ مِنْهُ، وَسَوَّاهُ، وَتَقَفَ الْإِنْسَانُ

: أدبه، وهذبه، وعلمه . وتتأقفوا :ثاقف بعضهم بعضا .وتتقف فلان: ويقال تتقف على فلان، وفي مدرسة كذا .والثقافة: العلوم، والمعارف، والفنون التي يطلب الحذق فيها .والثقافة: الملاعبة بالسيف.³

يتضح مما سبق أنّ المدلول اللغوي لكلمة (الثقافة) هي أنها تشمل على جملة من المعاني من الفقه والفهم، والحذق، والعلم، والصناعة، والفطنة، وكذا إدراك جوانب الحياة التي تتعلق بالجماعة المختلفة التي تخص موضع البحث في التنوع الثقافي في البيئة العربية .

ب-في الاصطلاح: ذكر العلامة ابن خلدون لفظة (الثقافة) حيث قال: (وأما الجيل الثالث فينسونهعد البداوة، والخشونة ...ويلبسون على الناس في الشارة والزي، وركوب الخيل، وحسن الثقافة يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها ...) ويقول أيضا : (فلا تفرق بينهم وبين السوق من الخضر إلا في الثقافة والشارة).⁴

أما العلامة الجزائري مالك بن نبي فقد خصص كتابا في هذا الموضوع عنوانه باسم (شروط النهضة) الصادر باللغة الفرنسية في باريس سنة 1949 م، ثم خصص كتابا لهذه المسألة وهو كتاب (مشكلة الثقافة) الصادر باللغة العربية في القاهرة سنة 1959م .ويقول هو نفسه في كتابه الأخير:

(إنما قصدتُ به أن أضع بعض معالم الإنذار على بعض المطبات التي تجعل سير المجتمع مستحيلا، فلعلّ القارئ العربي يعيره بعض الاهتمام).⁵ ويعرّف مصطلح (الثقافة) بقوله: (مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه).⁶

أما التعريف الصادر عن الأليكو في الخطة الشاملة للثقافة العربية فهو :
(الثقافة تشمل مجموع النشاط الفكري والفني بمعناهما الواسع وما يتصل بهما
من مهارات أو يعين عليهما من وسائل، فهي موصولة الروابط بجميع أوجه النشاط
الاجتماعي الأخرى متأثرة بها، معينة عليها، مستعينة بها .)⁷

وورد في (المعجم الفلسفي) تعريف الثقافة على النحو الآتي: (كل ما فيه
استتارة للذهن، وتهذيب للذوق، وتنمية لملكة النقد، والحكم لدى الفرد أو المجتمع
وتشتمل على المعارف، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، وجميع القدرات التي يسهم
بها الفرد في مجتمعه . ولها طرق ونماذج عملية، وفكرية، وروحية، ولكل جيل
ثقافته التي استمدتها من الماضي، وأضاف إليها ما أضاف في الحاضر، وهي
عنوان المجتمعات البشرية)⁸

ولعلّ أقدم تعريف حدّد مفهوم الثقافة هو التعريف الذي ذكره عالم
الأنثروبولوجيا الإنجليزي (تايلور) (Taylor) حيث قال : (هي حصيلة الكل المركّب
من المعرفة، والمعتقدات، والفنون، والأخلاقيات، والقانون، والعادات، وجميع
القدرات التي اكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع)، وكذلك تعريف (رالف لينتون)
الذي لم يخرج كثيرا عن تعريف (تايلور) فصرّح قائلا : (الثقافة هي حاصل
مجموع المعرفة، والاتجاهات، وأنماط السلوك المشتركة، والمنقولة بين أعضاء
مجتمع معيّن .)⁹

أما الباحث " برهان غليون" فيرى أنّ المقصود الثقافة : مجموعة من ملامح
مميّزة، مادية، وفكرية، وروحية تميّز مجتمعا أو مجموعة اجتماعية، وتسمح لأي
متحدّد بأن يعرف ذاته، ويتعرّف إليه غيره.¹⁰

أما (أنطوني غدنز) (Antony guedenz) فيرى أنّ الثقافة في رأي علماء
الاجتماع (تعني جوانب الحياة الإنسانية التي يكتسبها الإنسان بالتعلّم لا بالوراثة
ويشارك أعضاء المجتمع بعناصر الثقافة تلك التي تتيح لهم مجالات التعاون

والتواصل، وتمثل هذه العناصر السياق الذي يعيش فيه أفراد المجتمع، وتتألف ثقافة المجتمع من جوانب مضمرة غير عيانية مثل المعتقدات، والآراء، والقيم التي تكون المضمون الجوهرية للثقافة، ومن جوانب عيانية ملموسة مثل الأشياء والرموز، أو التقانة التي تجسد هذا المضمون.¹¹

أما د/صالح بلعيد فيشير إلى مصطلح "الثقافة" في حديثه عن دلالة (الأمن الثقافي) قائلا: (الأمن الثقافي: يتكون مصطلح الأمن الثقافي من كلمتين ذات معنيين مختلفين هما: الأمن والثقافة، فالأمن هو توفير الجو لتداول الحريات التي نمارسها، ودلالته تشير إلى الدفاع، وتوفير الحماية المطلوبة. وأما الثقافة فتتضمن النشاطات المتعددة التي ينتجها الفكر في وقت ما، وعبر التاريخ. وتبعا لهذا الربط، فتعد الثقافة قوة لا يستهان بها في مختلف الشؤون، والعلاقات، واللغة غير مفصولة عما تحمله من مضامين، وتوجهات، وأفكار، وهنا نقول بأن الثقافة واللغة وجهان لعملة واحدة، وكلتاها تدخلان في تحديد الأهداف، ورسم السياسات، وتحديد الأولويات، وأسلوب الأداء، مما يجعل الوصف الأقرب للثقافة هي الأفكار التي تحمل المضامين، وأن اللغة هي الحروف التي ندون بها تاريخنا البشري).¹²

وجاء في (دليل الناقد الأدبي) أن (مفهوم "الثقافة" بالنسبة إلى "ويليامز" كما هي بالنسبة إلى غيره، نظام دلالي محدود بحدود نظامه، إذ تصبح الثقافة مقصورة على هذا النظام الذي تفرزه حالما يحدها، ويؤطرها، فيمنعها تبعا لذلك خصوصيتها (أي يغلقها على ذاتها، وهذه هي خاصية النظام عموما كما أكد ذلك البنيويون). والنظام منذ أن نظر فيه البنيويون وهو مجموعة أعراف يلتزم بها من هو جزء منه، كالنظام اللغوي، أو المؤسسة بكافة أشكالها. وبمجرد أن نتحدث عن العرف والأعراف، أي عن النظام الدلالي، فإننا لا محالة نتحدث عن الثقافة في ضديتها للفترة. فهناك الثقافة أو المؤسسة الأكاديمية، والمؤسسة

التجارية، والمؤسسة القضائية، والمؤسسة المهنية، بل هناك أيضا حتى المفاهيم التي تسود مؤسسة معينة أو حقبة خاصة، كالاستشراق مثلا الذي أثبت إدوارد سعيد كم هو مشبع بالتمركز الثقافي المحدد، والمقنن . وهكذا فكل مجموعة لها شفرتها الخاصة، حتى لو تكونت من شخص واحد، هي بالضرورة مؤسسة ثقافية (ومؤسسة، وثقافة مفردتان مترادفتان) ¹³

وذكر سلامة موسى لفظة **Culture** التي كانت تستخدم في الغرب في مجال الاهتمام بالسلوك، ونمط الحياة الاجتماعية في الفكر إلى لفظة (ثقافة) فقال: (كنت أول من أفشى لفظة الثقافة في الأدب العربي الحديث، ولم أكن أنا الذي سكها بنفسه، فإني انتحلنها من ابن خلدون، إذ وجدته يستعملها في معنى شبيه بلفظ **Culture** الشائعة في الأدب العربي). ¹⁴

بيد أننا (لم نجد علماء العربية والإسلام في الزمن الماضي - من خلال مؤلفاتهم، وضعوا مفهوما اصطلاحيا للثقافة، وقد يرجع السبب ف ي ذلك إلى أن هذه الكلمة لم تكن شائعة الاستعمال في تراثهم الأدبي، فلم نجدهم ينعنون العلماء أو الباحثين بها، كما أنهم لم يتناولونها بدراسة مستقلة أو مميزة، وعلى هذا جاء تعريف "الثقافة" بالمعنى الاصطلاحي تعريفا حديثا، وتعددت تعاريفها، إلا أنها اتفقت بالمضمون غالبا، وإن تنوعت الصياغات). ¹⁵

أما عن مفهوم الثقافة في الفكر الغربي فقد ذكرت الأستاذة جميلة بنت عيادة الشمري أنه (استعملت كلمة (Culture) في اللغة اللاتينية للدلالة على العناية بالزراعة والماشية، وفي العهد الروماني القديم أضيف إليها معنى آخر هو فلاحه الأرض . وفي القرن الثالث عشر الميلادي ارتبطت الثقافة في فرنسا بالدلالة اللاتينية (الزراعة والماشية) . ومع بداية القرن السادس عشر تحولت كلمة الثقافة من الدلالة على الحال إلى دلالة الفعل، أي فلاحه الأرض، ومع انتصاف القرن تكون المعنى المجازي لكلمة الثقافة إشارة إلى تطوير الكفاءات، وإنمائها. وهكذا

استمرت كلمة الثقافة في القرن السابع عشر تختص بالزراعة، وفلاحة الأرض واستنباتها منتقلة من الثقافة باعتبارها حالة إلى الثقافة باعتبارها فعلا. ومع القرن الثامن عشر اتخذت كلمة "الثقافة" منحى يعبر عن التكوين الفكري عموما، وعن التقدّم الفكري للشخص عموما، وعما يتطلبه ذلك من عمل وما ينتج عنه من تطبيقات، وعلى هذا المعنى تم إدراجها في قاموس الأكاديمية الفرنسية (نشرة 1718م) متبوعة بمضاف يدل على موضوع الفعل مثل : ثقافة الفنون، وثقافة الآداب، وثقافة العلوم، وانتقلت نتيجة للتطور إلى حصيلة عملية التنمية العقلية، والذوقية لتدلّ على المكاسب العقلية، والأدبية، فتحررت كلمة "الثقافة" تدريجيا من علاقتها بالمضاف، واقتترنت بأفكار التقدم، والتطور، والتربية والعقل التي احتلت مركز القلب في فكر العصر .

ثم أخذت كلمة "الثقافة" هذه الكلمة تتوسع في اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية لتشمل تنمية الأرض بالمعنى المادي أو الحسي، وتنمية العقل، والذوق والأدب بالمعنى المعنوي .

وظلت كلمة "الثقافة" في القرن الثامن عشر تستخدم في صيغة المفرد وهو يعكس عالمية النزعة الإنسانية للفلاسفة، لأن الثقافة شيء خاص بالإنسان، دون أن يعني هذا أي تمييز بين الشعوب، والطبقات، ثم طوّر معناها فلاسفة العصور الحديثة، فأصبحت تعني مجموعة عناصر الحياة، وأشكالها، ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات .

خلاصة القول في المفهوم اللغوي الغربي للثقافة أنها قد تعددت دلالاتها وتطورت معانيها في اللغات الأوروبية كالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية وتطورت حتى أصبحت مصطلحا علميا حاضرا في الدراسات الأنثروبولوجية (علم دراسة الإنسان)¹⁶

أما ما يتعلق بمفهوم "الثقافة" في الاصطلاح الغربي فتصرّح الباحثة جميلة بنت عيادة قائلة :

(لقد شهدت كلمة الثقافة ازدهارا، وانتشارا، وتداولاً واسعاً، فتعددت تعريفاتها لما يصل إلى أكثر من مائة وستين (160) تعريفاً، ويرد ذكرها على سبعة أصناف: وصفية، وتاريخية، وتقييمية وسيكولوجية، وبنوية، وتكوينية، وجزئية غير كاملة، فبرزت بعض التعريفات، وتميزت عن غيرها بوصفها للثقافة وشمولية التعريف لعناصر الثقافة ومنها:

1- أقدم هذه التعريفات وأكثرها ذيوفا حتى العصر هو تعريف الإنترنتولوجي الإنجليزي (إدوارد تايلور)¹⁷ الذي قدمه في كتابه "الثقافة البدائية" عام 1871م، ذهب فيه إلى القول:

(الثقافة هي ذلك الكل المركّب المشتمل على المعارف، والمعتقدات، والفنّ والقانون، والأخلاق، والتقاليد، وكلّ القابليات، والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع .) مشيراً إلى نزعة الواقعية للثقافة.

2- ومن التعريفات ذات النزعة المثالية بأبعاد جديدة هو تعريف (كروبير وكلوكهون) اللذان يعدان من أبرز رواد الاتجاه التجريدي في تعريف الثقافة، فبعد تحليلهما للأكثر من مائة وستين (160) تعريفاً كتبت باللغة الإنجليزية قدّمها علماء الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، والطب النفسي، وغيرهم، أمكنهم تصنيف التعريفات وفقاً لاهتماماتها الرئيسية، فهناك تعريفات اهتمت بالحصص والوصف، وأخرى تاريخية، وثالثة معيارية، ورابعة طابع نفسي، وخامسة بنائية وأخيرة تطويرية، وقد أكد أنّ الثقافة هي : "نسق تاريخي مستمدّ من الأساليب الظاهرة، والكامنة للحياة، التي يشارك فيها كلّ أعضاء الجماعة أو بعضهم" ¹⁸

أما المفكر الكبير محمد عابد الجابري فيذهب إلى أنّ كلمة (ثقافة) ترتبط في أذهاننا اليوم بشؤون الفكر عامة ولكنها مع ذلك لا تثير فينا مضمونا

واضحا محدداً، ولعلّ السبب في هذا راجع إلى أنّ هذه الكلمة حديثة العهد في خطابنا العربي .فمعاجمنا القديمة لا تعطينا عن أصل هذه الكلمة، ومشتقاته إلاّ هاتين الدالّتين أو ما يشبههما : "يقال ثقّف الولد، إذا صار حاذقاً، وثقّف الكلام: حذقه، وفهمه بسرعة، ويقال كذلك : ثقّف الرمح إذا قوّمه، وسوّاه"، وهكذا نلاحظ أنّ نلاحظ أنّ معنى (الثقافة) كان يعني التقويم، والتسوية، وهو خاص بالرمح، والعود، ولم يعثر على ما يفيد امتداد هذا المعنى -معنى تنقيف الرمح- إلى الفكر أو الذهن، فالكلمة التي كانت مستعملة في هذا الشأن هي (التأديب)، كما أنّ "الأدب" كان يضم ما نعنيه اليوم بالثقافة، فضلاً عن معناه السلوكي الأخلاقي، ومنه (المؤدّب) بمعنى المرّبي، والمُعَلِّم...كلّ ذلك يدلّ على أنّ كلمة "ثقافة" لم تكن في أصلها العربي مصطلحاً لشيء من الأشياء الفكرية، ولا مفهوماً يتمتع بقوة المفهوم، أي بدلالة معينة محددة عامة، ومجردة . ومن هنا يتأكد ذلك الرأي القائل : إنّ كلمة (الثقافة) في الاستعمال العربي الأصلي لكلمة الحنق، والتسوية، والمعنى الجديد الذي صيغت للدلالة عليه .

إنّ كلمة Culture تعني في الأصل الزراعة والفلاحة وقد تطور مدلولها، ابتداء من القرن السادس عشر، لتفيد معنى مجازياً هو تنمية بعض القدرات العقلية بالتدريب والمران، ثم لتتلّ بعد ذلك على مجموع المعارف المكتسبة التي تمكن تنمية روح النقد، والقدرة على الحكم.

لقد نقلت الكلمة الفرنسية إذن من زراعة الأرض، واستغلال خيراتها إلى تدريب الفكر، وحثي ثمراته، ومن نتاج الأرض إلى نتاج الفكر، وسرعان ما وقع التأكيد على أنّ مدلولها ف ي ميدان الفكر يجب أن ينصرف إلى فعل الإنتاج أكثر من الإلحاح على الإنتاج نفسه.بمعنى أن المقصود منها يجب أن يكون ما يكسبه العقل من قدرات على التفكير السليم، والمحاكمة الصحيحة، بفضل المعارف التي يتلقاها، والتجارب التي يخوضها، لا ما يضمّنه الفكر بين طياته من معارف، ومعلومات . لقد ألحّ كثير من

الكتاب الفرنسيين منذ عهد النهضة على هذا المعنى، ويكفي أن نشير إلى تلك التفرقة الشهيرة التي أقامها (مونتني Montaigne) بين مأسماه "الرؤوس المصنوعة جيداً، وما أطلق عليه، (المسيو Herriot) لـ "الثقافة" حين قال: "إنها ما يبقى لدينا بعد أن ننسى كل شيء" هذا بالإجمال ما يتعلق بالمعنى الفرنسي للكلمة ولا بد من أن نطلّ هنا على ذلك المعنى الخاص الذي يستعمله فيها علماء الأنثروبولوجيا، خاصة الإنجلوساكسون منهم، إنها تدلّ عندهم على مختلف المظاهر المادية، والفكرية لمجموعة بشرية معينة تشكّل مجتمعاً بالمعنى السوسيولوجي للكلمة. يقول (تايلور Taylor) في نصّ متداول بكثرة: "إنّ الثقافة هي ذلك المركّب الكلي الذي يتضمن المعارف، والعقائد، والفنون، والأخلاق والقوانين، والعادات، وأي قدرات، وخصال يكتسبها الإنسان نتيجة وجوده عضواً في مجتمع". وعلى العموم إنّ كلمة "ثقافة" في الاصطلاح الأنثروبولوجي تعني ما نعبر عنه نحن اليوم بـ "حضارة" إنها ليست البناء الفكري، وحسب، بل أيضاً السلوك الفردي، والمجمعي، وما يرتبط بهما من تقاليد، وأعراف، وأخلاق، وقد يضاف إلى ذاك كله أدوات العمل والإنتاج.

وقد كان النظر إلى الثقافة بوجه عام، أعني الثقافة بمعناها المعرفي، والوطني يتمّ من على ثلاث مستويات :

1- هناك الثقافة على المستوى الفردي، والمقصود تمثّل الفرد الإنساني لذلك لمضمون الثقافة (الوطنية والإنسانية) أو لأي جزء من أجزائه، ومشاركته في إغناؤه، وإثرائه. إنّ المتقّف بهذا المعنى هو من يمثّل ثقافة وطنه خاصة، والثقافة الإنسانية عامة، ويشارك في تنمية هذه، وتلك بشكل من أشكال المشاركة.

2- وهناك من جهة ثانية : الثقافة على المستوى الشعبي من حيث كونها تعكس واقع المجتمع الذي تنتسب إليه، تعكس وضعيته، ومطامحه، واتجاه مسيرته، والحق أن الثقافة مرتبطة دوماً بوضعية اجتماعية معينة، وبمرحلة

تاريخية محددة، ارتباطاً عضوياً، إنها تعبر بشكل ما، عن الوضع القائم، وعن حركة المجتمع، حركته في الزمان، وتحرك أفراده، ومجموعاته في إطار العلاقات الاجتماعية القائمة، وانطلاقاً من هذه الملاحظات نستطيع القول إنه لا يمكن الحديث عن ثقافة مجتمع ما بكيفية مطلقة. إن الثقافة هي دوماً ثقافة فئة، ثقافة عصر، إنها الخاصة أو ثقافة العامة بالتعبير القديم، ثقافة النخبة، أو ثقافة الجمهور بالتعبير الحديث .

3- أما في المستوى الثالث، ونعني بها المستوى الإنساني العام بقطع النظر عن الزمان والمكان، فإن الثقافة هي الأعمال الفكرية، والفنية الخالدة أي تلك الأعمال التي تعبر عن موقف الإنسان إزاء الطبيعة، وما وراء الطبيعة، إزاء نفسه ومصيره.¹⁹

نخلص مما سبق ذكره أنّ الثقافة في المجتمع هي مجموع العادات، والأعراف والفنون، والتقاليد، وحتى الذهنيات الخاصة بالأفراد، وكل ما يتعلّق بالبيئة والمجتمع ومنه يُعرف ما يسمى بعلم الاجتماع الثقافي، وعليه فإنّ المثقّف هو من النخبة والحاذاق الفاهم لأمر لقضايا بلاده، وأمتّه، ومعتزّاً بهويته، ويقاس تمدّن الأمم عند بعضهم بنوعية مثقفيها، ودرجة وعيهم، وفهمهم لدرجة المسؤولية التي أُلقيت على عاتقهم .

طبيعة الثقافة: يحدد د/ طارق عبد الرؤوف عامر طبيعة الثقافة في عناصر أساسية يجمّلها فيما يأتي:

1- **السمة الثقافية:** وهي أبسط عناصر الثقافة، وهناك سمات مادية، وأخرى غير مادية كالسمار، والانحناء لسيدة، والحد الفاصل بين السمة المادية، وغير المادية، وهمي، فهما يتحدان ليكونا كلاً معقداً فمعظم السمات المادية تتصلّ بها عادات أو وسائل أو سلوك .

2- النمط الثقافي : تتصل السمات بعضها مع بعض، وتتصل عادة حول ميول رئيسة تصبح نقاطاً محورية للنشاط، وهذا الميل أو الاهتمام المحوري هو القوة الدافعة التي تثير نشاط الإنسان، ويطلق على هذه المجموعة من السمات المتصلة التي تعمل بطريقة وظيفية اسم النمط الثقافي، ويمكن أن يعرف النمط الثقافي بأنه عدد من السمات الثقافية التي جمعت حول مصادر الاهتمام الرئيسية. ويتضمن النمط الثقافي انتظاما في السلوك لا يمكن أن يحدث إذا كان شخص يعمل بطريقة عشوائية، وبأسلوب فردي. ولكل ثقافة مجموعة من الأنماط التي تفرضها على الفرد، والجماعة، وبذلك تتأكد في حدود معقولة من أن هناك حداً لوحدة السلوك. والأنماط الثقافية أمور غير محسوسة تقوم فقط في عقول الأفراد الذين يكونون جماعة ما، ولا يمكن رؤية هذه الأنماط إلا إذا اتخذت لها شكلا ف يسلوك الأفراد حيثما يعملون في نشاط منتظم تحت تأثير مؤثر عام.

وتختلف الأنماط الثقافية بعضها عن البعض الآخر في درجة الاقتباس، وفي الوسط الاجتماعي الذي يحدث ذلك الاقتباس.

أ- النمط الثقافي القومي : وهو النمط الثقافي الذي يتكوّن من كلّ الأنماط الفردية من أمة ما، وتخالف الثقافات بسبب وجود الاختلاف في الأنماط المكونة لها، وبسبب اختلاف العلاقات بين هذه الأنماط. وهناك وحدة تماسك بين الأنماط الفردية المكونة للنمط القومي، وضمن الاستمرار التاريخي لنمط معين درجة معينة من الوحدة.

ب- النمط الثقافي العام: يشمل عناصر موجودة في كلّ الأنماط الثقافية العامة، وهو شاهد على الوحدة الأساسية للإنسان وحدة مشكلات الحياة الأساسية التي تواجهه بصرف النظر عن العصر، والبيئة التي يعيش فيها.²⁰

خصائص الثقافة: يمكن إجمال أهم الخصائص العامة للثقافة فيما يأتي:

1- **الثقافة ذات خاصية مادية ومعنوية معا:** ثقافة المجتمع تحدد نمط وأسلوب الحياة في هذا المجتمع، والعناصر المادية هي عبارة عن تلك العناصر التي أتت نتيجة للجهود الإنساني العقلي، والفكري وفي الوقت نفسه لا تكتسب الثقافة وظيفتها، ومعناها إلا بما يحيطها من معاني، وأفكار، واتجاهات، ومعارف وعادات هذا فضلا عن أنّ العناصر المادية تؤثر بدورها في مفاهيم الأفراد وقيمهم، واتجاهاتهم، وعلاقاتهم أي أنّ الإحالة متبادلة بين العناصر المادية واللامادية داخل البناء الثقافي، ومن ثم فإن البناء الثقافي يشمل العنصرين معا في آن واحد .

2- **الثقافة عضوية:** إذا كانت الثقافة تشمل على العناصر المادية، واللامادية معا فإن كلا من العناصر المادية، وغير المادية يرتبط بعضها ببعض ارتباطا عضويا فيؤثر كل عضو في غيره من العناصر كما يتأثر به. فالنظام الاقتصادي يتأثر بالنظام السياسي، والعكس صحيح كما أنّ النظام التعليمي يتأثر بالنظامين معا، ويؤثر فيهما ومن جهة ثانية فإنّ العادات، والتقاليد تؤثر في نظام الأسرة من حيث طريقة الزواج، والعلاقة بين الكبير والصغير، وإذا تغير أي عنصر من هذه العناصر فإنه سيتبعه تغيرا حتميا في النظم الأخرى، أضف إلى أنّ التغير في أساليب المعيشة يتبعه تغيرا في القيم، والعادات، ومن ثم فإن عناصر الثقافة يرتبط بعضها ببعض ارتباطا عضويا يتسم هذا الارتباط بالدينامية وليس بالإستاتيكية .

3- **الثقافة مكتسبة:** الثقافة ليست فطرية في الإنسان بل يتعلمها الأفراد وينقلونها من جيل إلى جيل، ويخطئ من يذهب إلى اعتبار الثقافة فطرية في الإنسان يكتسب الثقافة منذ سنواته الأولى حتى تصبح جزءا من شخصيته كما يصبح هو عنصرا من عناصر هذه الثقافة.

4- الثقافة تراكمية: تتميز بعض عناصر الثقافة بالتراكم ذلك أن الإنسان يبدأ دائما من حيث انتهت الأجيال الأخرى، وما تركته من تراث، وبتراكم الجوانب المختلفة تتطور بعض جوانب الثقافة ، وتختلف درجة التراكم، والتطور، من عنصر إلى آخر فمثلا تتطور اللغة تراكمي يأخذ طريقا غير تراكم القيم، وغير تراكم التطور العلمي، والتكنولوجي، ومعنى هذا أن الإنسان لا يبدأ حياته الاجتماعية، والثقافية من العدم وإنما يبدأ من حيث انتهت الأجيال الراشدة الحية التي ينتمي إليها ومن التراث الاجتماعي الذي يعبر عن خبرات الأجيال السابقة فبعض عناصر الثقافة في أي مجتمع تعبر عن خلاصة التجارب، والخبرات التي عاشها الأفراد في الماضي بما تعرضوا له من أزمات، وما رسموه من أهداف، وما استخدموه من أساليب، ومما تمسكوا بهم نقيم، ومعايير، وما انظموه من علاقات، وتتراكم الجوانب المختلفة على هذا النحو بطرق وصور مختلفة.

5- إمكانية انتقال عناصر الثقافة بالاحتكاك: فكلما زاد الاحتكاك، والتعامل بين مجتمع وآخر كلما زادت درجة الانتقال الثقافي بين هذين المجتمعين، لكن المجتمع ذو الثقافة الأقوى، والأفضل يؤثر بدرجة أكبر في المجتمع ذي الثقافة الأقل نجاحا، وقوة، وبالتالي فالثقافة ديناميكية متغيرة. ومن خصائصها أيضا:

-أنها إنسانية أي خاصة بالإنسان فقط فهي من صنع الإنسان.

-مشبعة لحاجات الإنسان.

- أنها مكتسبة يكتسبها الإنسان بطرق مقصودة أو غير مقصودة عن طريق التعلم، والتفاعل مع الأفراد الذين يعيشون معهم.

-أنها قابلة للانتقال، والانتشار من خلال اللغة، والتعليم، ووسائل الاتصال

الحديثة، وتنقل من جيل إلى جيل، وفي المجتمع الواحد من فرد إلى فرد.

- تطورية أي تتطور نحو الأحسن والأفضل .

-الثقافة متغيرة فهي في نمو مستمر، وتغير دائم فأى تغير في عنصر من عناصرها يؤثر على غيره من العناصر.

-أنها تكاملية تشبع الحاجات الإنسانية، وتربح النفس الإنسانية لأنها تجمع بين العناصر المادية، والمعنوية.

- تنبئية : بما أنها تحدد سلوك وأسلوب الأفراد بالإمكان التنبؤ بما يمكن أن يتصرف به فرد معين ينتمي إلى ثقافة معينة .

-أنها تراكمية: إنّ الثقافة ذات طابع تاريخي تراكمي عبر الزمن فهي تنتقل من جيل إلى الجيل الذي يليه يبدأ الجيل التالي من حيث انتهى الجيل الذي قبله وهذا يساعد على ظهور أنساق ثقافية جديدة.²¹

ويحدّد (ميردوك) أحد علماء الاجتماع خصائص للثقافة أحدهما تكمل الأخرى متداخلة فيما بينها وليست منفصلة وتتمثل في الآتي:

- | | | | |
|------------------------|------------------|--------------------------|------------|
| 1-إنسانية | 2 - مكتسبة | 3-قابلة لانتقال | 4-اجتماعية |
| 5-مشبعة لحاجات الإنسان | 6-متطورة ومتغيرة | 7- متكاملة ²² | |

عناصر الثقافة في المجتمع: تصنف الثقافة في المجتمع إلى ثلاث أصناف:

أولاً: العموميات الثقافية:

هي العناصر الثقافية التي يشترك فيها عموماً أبناء المجتمع مثل الدين ومصطلحات اللغة، والعادات، والتقاليد، والأفكار، وأنماط السلوك، والزّي والتحية، والقيم، والعلوم، وكذلك المنتجات الصناعية، والمادية الشائع استعمالها في المجتمع.

-أهمية العموميات الثقافية (وظائفها):

- 1-تحقيق وحدة التكامل بين أفراد المجتمع.
- 2- إيجاد الميول والاهتمامات المشتركة بينهم.
- 3-تكوين الطابع القومي لأبناء المجتمع الذي يميزهم عن المجتمعات الأخرى.

4- تدعيم الكيان الاجتماعي والمساعدة في تماسكه.

- دور التربية اتجاه العموميات الثقافية:

1- نقل العموميات الثقافية للنشئة، وأفراد المجتمع.

2- إكساب أبناء المجتمع بالمعلومات، والمعارف لتمييز الحق من الباطل.

ثانياً: الخصوصيات الثقافية: تشمل الظواهر التي لا يشارك فيها سوى أفراد من فئة متميزة معينة حيث تتميز فئة معينة من المجتمع بثقافة معينة عن بقية المجتمع، والثقافات الفرعية تشترك جميعها في أصل واحد وهو العموميات وتنقسم إلى قسمين:

أ- الخصوصيات الثقافية الطبقية: هي العادات، والتقاليد التي تخص طبقة معينة من طبقات المجتمع دون غيرها من السكان فتتألف من أهل الحضر تختلف عن ثقافة أهل الريف، وثقافة الطبقة الغنية تختلف عن الطبقة الفقيرة وغيرها.

ب- الخصوصيات الثقافية المهنية: هي العناصر الثقافية التي تستلزم لممارستها خبرات، ومهارات فنية، ومصطلحات سلوكية خاصة دون اعتبار لأصحاب هذه المهارات من الأفراد فهي ليست وفقاً على أحد مثل زي مهنة الطب، والمحاماة والقضاء، ولغة الصيادين، أي، الخصوصية تفرضها طبيعة المهنة، وتتميز هذه الخصوصية بأن تسمح لأفراد المجتمع دخولها أي ليست حكراً على فرد دون غيره عكس الخصوصية الطبقية التي تحكمها هذه الخصوصيات، وليست الصفة المهنية.

ثالثاً: البدائل أو المتغيرات: تشمل الأشياء التي لا يشارك فيها إلا عدد محدود من الأفراد مثل بعض التقاليع، والمواضات الجديدة (الدخيلة على المجتمع)، وهي أكثر جوانب الثقافة عرضة للتغيير فقد تزول إذا لم يقبلها المجتمع، وقد تنتقل إلى الخصوصيات أو إلى العموميات بحسب أهميتها في تحقيق وظائف هامة للمجتمع أي لأنها لا ترتبط بثقافة معينة، وتنتقل إلى ثقافة أخرى عن طريق التفاعل أو

الغزو أو وسائل الإعلام، ولا يعني كثرة المتغيرات، والبدائل الثقافية في المجتمع دليلا على انفتاح هذا المجتمع على الثقافات الأخرى فقد تكون ثقافة المجتمع ضعيفة إلى حدّ أنها لا تستطيع مقاومة الغزو الثقافي، وكذلك العكس قلة البدائل ليست دليلا على قوة ثقافة المجتمع فقد يكون مجتمعا مغلقا مثل (إسبرطة، الصين القديمة)²³

أما عن مكونات الثقافة فيرى بعضهم أنها تتكون من ثلاث مكونات رئيسة هي:
1- المكونات المادية: وهي كلّ ما يستعمله الإنسان في حياته اليومية من أساس ومسكن، وملبس، ومباني وغيرها.

2- المكونات الفكرية: وهي تشتمل على اللغة، والفن، والدين، والعلم، وغيرها.

3- المكونات الاجتماعية: وهي البناء الاجتماعي، وهو هيكل المجموعة

الاجتماعية من الناس.²⁴

مفهوم المثقف (الناقد الاجتماعي) في الفكر العربي: يذكر الأستاذ عبد الفتاح العلمي في مقال بعنوان (واقع ومستقبل المثقف العربي في ظل التحديات التي تعيشها البلاد العربية) الجدل الكبير الذي أدى إلى غموض في مفهوم المثقف وإلى التباين في إطاره العام، وأنّ هذا المفهوم عرف العديد من التعريفات تتفق في المضمون غير أنها تختلف في الشكل، وأول من استعمل هذه كلمة " مثقف " هو "كليمانصو" Clemenceau عندما كتب يقول:

"أليست هذه إشارة كلّ هؤلاء المثقفين الذين جاءوا من كلّ الاتجاهات، واجتمعوا للدفاع عن فكرة ".ولتحديد هذا المفهوم في المجتمعات العربية ينبغي الإشارة إلى مرجعين أساسيين لهما وزنهما في الفكر الأكاديمي المتخصّص وفي حقل الثقافة العامة سواء في الثقافة العربية أو الثقافة الغربية، وهذان المرجعان هما غرامشي (Gramsci)، وسارتر (Sartre) .

ميّز غرامشي (Gramsci) بين صنفين من المثقفين العضوي وهو الذي يعمل على إنجاح المشروع السياسي، والمجمعي الخاص بالكتلة التاريخية المشكلة من الفلاحين، والعمال مقابل المثقف التقليدي الذي يوظف أدواته الثقافية للعمل على استمرار الهيمنة الثقافية لهذه الكتلة هذه القراءة امتدّت تأثيراتها من إيطاليا إلى فرنسا إلى الوطن العربي.

أما سارتر (Sartre) فقد كان لكتابه "دفاع عن المثقفين" (Plaidoyer pour les Intellectuels) نصّاً متميّزاً في بيان وظيفة المثقف داخل مجتمعه يعتبر المثقف "كلّ شخص بلغ الشهرة بفضل أعماله في مجال الفكر، ويستعمل تلك الشهرة للتدخل في أمور خارج مجال تخصصه، أو باختصار التدخل فيما لا يعنيه".

وقد تنوعت هذه التعاريف بين المفكرين، والباحثين فقد اعتبره (فيبر) "Weber" بأنه المفكر المتميّز. والمتسلّح بالبصيرة، وبارسونز Parsons بمفهوم المفكر المتخصّص في أمور الثقافة، والفكر المجرد البعيد عن أمور الحياة، وباسكال أوري Pascal ory بالشخص الذي يعمل على إيصال ما يفكر فيه إلى الآخرين.

أما في البلاد العربية فقد استخدم مفهوم المثقف في سياقه العربي، للدلالة على دور شغله أهل الرأي، والفقهاء، ورجال الدين، وهو استخدام حديث العهد نسبياً دخل إلى العربية ليحلّ محلّ ألفاظ عديدة نجدها في التراث العربي مثل الفقيه الإمام، المتصوف، العالم، المتكلّم، الشيخ، الفيلسوف، وقد توصّل محمد عابد الجابري في بحثه (المثقفون في الحضارة العربية) إلى النتيجة الآتية:

كان الأمراء هم العلماء، وكان الصحابة أمراء، وعلماء في الوقت نفسه يحكمون بالشرع، ويشرّعون للحكم، ثم حصل خلاف حول الحكم، فاستأثر الأمراء بالسلطة، وتمسك العلماء بالرأي، وحصل استبداد بالأمر أدى إلى استقلال الرأي، فانفصل العلم، والثقافة عن السياسة، وبدأت فئة المثقفين الأوائل في الإسلام بالظهور.

أما عن تعريف المثقف عند بعض المفكرين العرب فقد اتخذ عدة أسس فمنهم من اشترط توفر معيار التعليم، والثقافة، ومنهم من يرى بأن المثقف هو الذي يسعى إلى التغيير، وبالتالي لابد من وجود معيار التغيير، والبعض الآخر من يطرح معيار المشاركة في بناء المجتمع، وأخيرا مجموعة أخرى تعتبر أن للمثقف دورا هاما في المجتمع يتركز على نقد السلطة، وأن يظل دائما لها، وليس مبررا لسلوكها.²⁵

أما أهم التعاريف التي تناولت مفهوم المثقف في المجتمعات العربية كما يراه البعض المفكرين، والكتاب العرب يوردها أ/ عبد الفتاح العلمي كما يأتي :

1- يعتبر د/ زكي نجيب محمود من أكثر الكتاب الذين اهتموا بموضوع المثقف، وأفرزوا له حيزا كبيرا من التعريفات فقد وصفه في أحد تعاريفه " بالشخص الذي يحمل في أفكاره من إبداعه هو من إبداع سواه، ويعتقد إن تلك الأفكار جديرة بأن تجد طريقها إلى التطبيق في حياة الناس فيكرس جهده لتحقيق هذا الأمل." وفي تعريف آخر للمفكر نفسه يرى فيه أن المثقف هو "الشخص الذي يروج للقيم العليا (أخلاقية أو جمالية)، وفي هذا يكون الفرق بين المتخصص الذي وقف عند تخصصه في فرع من العلوم، والمثقف الذي ينشر الفكر ليس لمجرد أنه أي فكر، وكفى، ولكن لأنه في نظره هو الفكر الذي يتيح حياة أفضل". وعرفه أيضا : "بأنه هو من أدرك مثلا للحياة الإنسانية ثم لا يقف عند مجرد الإدراك، بل حاول تغيير الحياة وفق ما أدركه شريطة أن يجيء هذا التغيير في الاتجاه الذي يسير فيه التاريخ .

2- أما المفكر حيدر إبراهيم فيرى في المثقف هو: " ذلك الشخص الذي يتحلى بالمعرفة مضافا إليها العمل، والممارسة، وفقا للثقافة المكتسبة، فالمثقف هو متعلم أو متخصص، وزيادة، أي صاحب قضية اجتماعية، وسياسية يعمل أجلها وفق رؤية للعالم، ولذلك يعتمد تحديد معنى المثقف على التطور التاريخي أو مستوى

للمحددات الاقتصادية والاجتماعية لكل مجتمع، كذلك يتغير دور المثقفين وتأثيرهم حسب هذه المعطيات .

3- أما أحمد موصلي ولؤي صافي فقد عرفا المثقف بأنه: "الشخص الذي يهتم بتفكيك، وإظهار التناقضات المجتمعية، وموظفا في ذلك هواجسه، واهتماماته "

4- أما إدوارد سعيد فيرى أن " المثقف فرد له في المجتمع دور علني محدد لا يمكن تصغيره إلى مجرد مهني لا وجه له، أو كعضو كفؤ في طبقة ما لا يهتم إلا بأداء عمله، ويرى أن الحقيقة المركزية بالنسبة لي هي أن المثقف وهب ملكة عقلية لتوضيح رسالة أو وجهة نظر أو موقف أو فلسفة أو رأي، ويشترط على المثقف أن يمتلك صفة التمثيل أي أن يقوم المثقف بتمثيل وجهة نظر ذات طبيعة معينة ويعبر بجلاء لجمهوره عن تلك الأفكار التي يمثلها برغم الحواجز والعوائق ."

وانطلاقا من التعريفات السابقة للمثقف يرى عبد الفتاح العلمي بأن التعريف الذي يعتبر المثقف بأنه المتعلم الحاصل على الشهادة الجامعية هو تعريف سطحي لأنه يعني ضمنا أن كل متعلم مثقف غير أن للمثقف وظائف أخرى تميزه عن بقية المتعلمين، ويخلص في الأخير إلى أن المثقف هو ذلك الشخص المتعلم الذي يدرك ما يحيط به، ويستوعبه، ويشارك بوعيه في بناء، وتغيير الأوضاع المحيطة به .²⁶ أما ما يتعلق بنماذج المثقفين فقد حددها د/معن خليل عمر في أربع نماذج هي:

1- نموذج ذو منطلق موقفي : وهو المتميز بمواقفه الدقيقة تجاه ثقافة مجتمعه واتجاه الثقافات الأخرى، والتي من خلاله يحدد هدف المثقف، ومركزه الخاص من المثقفين في مجتمعه .

2- المثقف ذو المنطلق السلطوي: هذا الصنف ينتشر بكثرة في المجتمعات العربية بحيث يعمل على استحواذ أعمال، وتجارب، وأفكار الآخرين وينسبها لأفراد لم يساهموا في طرحها أو استعمالها دون الإشارة إلى أصحابها .

3- المتقف ذو المنطلق الادعائي: يعبر هذا النموذج عن المثقفين الذين يدعون بالتخصيص في ميادين أخرى دون تخصصهم الأصلي.

4- المتقف ذو المنطلق الموقعي: وهو المثقف المتخصص الذي يداهن المواقع الإدارية، والمعرفية لكي يصل إلى مستويات إدارية، ومعرفية رفيعة مدافعا عن السلطة تابعا منصاعا لأوامرها دون أن يفيد مجتمعه أو يثري المعرفة بشيء.²⁷

التنوع الثقافي علامة حضارية للشعوب والأمم: يذكر أهل الاختصاص أن المقصود بالتنوع الثقافي هو وجود العديد من الثقافات في مؤسسة معينة أو في مجتمع أو في العالم، وهو عبارة عن مجموعة من الثقافات المختلفة، والمتنوعة ومن أبرز الأمثلة على التنوع الثقافي الثقافات المتجانسة، والثقافة العالمية، وقد تشير إلى وجود العديد من الثقافات المتنوعة، والتي تحترم بعضها البعض ويتم استخدام هذا المصطلح في الكثير من الأحيان في الثقافات المجتمعية، كما أنها من الممكن أن تكون من الأسباب الرئيسة للعولمة، وتختلف الثقافة بشكل تام في الكثير من المجتمعات مثل التقاليد، واللباس، واللغة، ويوجد العديد من الاختلافات بين المجتمعات في كيفية تنظيم أنفسهم، وتصورهم للأخلاق بالإضافة إلى كيفية تفاعلها مع البيئة.²⁸

وجاء في تقرير اليونسكو العالمي تحت عنوان: (الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات) مفهوم التنوع الثقافي على أنه بالدرجة الأولى حقيقة واقعية فهناك مجموعة واسعة متباينة من الثقافات المتميزة التي يمكن التمييز بينها على أساس الملاحظة الأثنوغرافية ... وقد أصبح التنوع الثقافي شاعرا رئيسيا من الشواغل الاجتماعية المعمول بها داخل المجتمعات وفيما بينها.

وأكد التقرير على أن التنوع الثقافي ليس ببساطة مجرد ميزة إيجابية ينبغي الحفاظ عليها بل هو مورد يجب تعزيزه بما في ذلك المجالات البعيدة عن الثقافة

بمعناها الضيق. كما أنّ ثمة حاجة إلى اتباع نهج جديد إزاء التنوع الثقافي وهو نهج يراعي طبيعته الدينامية، وتحديات الهوية مما يرتبط بدوام التغير الثقافي.²⁹

أما مظاهر التنوع الثقافي فنتمثل في الآتي:

1- اللغة: حيث تميزت الحضارات والأمم بلغاتها الخاصة على مرّ العصور والأزمان، حيث تعتبر هي الركن الأساس الذي تقوم الثقافة عليه، كما أنها تعدّ أحد مظاهر الاختلاف بين الحضارات، والأمم، حيث نجد كل أمة تفتخر وتتباهى بمزايا لغتها بالإضافة إلى أنها تحرض على تعليمها للجميع بشكل دائم فهي البوابة التي تستخدم للتعرف على جميع الحضارات، والتمازج بين الشعوب في كافة أنحاء الأرض.

2- الدين: يعتبر أمر التعرف على الأديان العديدة التي انتشرت في كافة أنحاء الأرض من أفضل السبل لتلاقح الشعوب، والأمم، بالإضافة إلى التعرف على العديد من الحضارات، وعوامل الاختلاف الحضاري .

3- العادات والتقاليد: تعتبر على رأس الاختلاف الثقافي والحضاري بين الأمم حيث إنّ الأمم تحرض على توريث جميع عاداتها وتقاليدها.³⁰

الجوانب الإيجابية والسلبية للتنوع الثقافي: يمكن إجمال أهم الجوانب الإيجابية للتنوع الثقافي فيما يأتي:

- الاعتراف بشرعية الثقافات الموجودة في المجتمع، حيث أنها تمثل جزء مهما من المجتمع.

- التعرف على عادات الثقافات الأخرى وقيمتها، وتقاليدها.

- إعطاء فرصة تعمل على تحقيق المساواة، والحريات بين جميع الثقافات الموجودة داخل المجتمع كسنّ القوانين على سبيل المثال.

- وجود الاحترام بين الثقافات المختلفة داخل المجتمع بالإضافة إلى التحقيق الذاتي لفرد، وتطور النقد الذاتي.

أما عن النواحي السلبية للتنوع الثقافي فممكن إجمالها فيما يأتي:
- من الممكن أن يؤدي الصراع الثقافي إلى حرب أهلية عند وجود دستور موحد، وقوانين موحدة للدولة.

- قد يؤدي إلى فوضى وعدم استقرار اجتماعي، أي لا يوجد أية قوانين موحدة لجميع الثقافات بسبب وجود اختلاف في العادات والقيم.

- قد يؤدي إلى تفكيك وحدة المجتمع، والنسيج الاجتماعي مما يؤدي إلى جعل المجتمع كالفيسفساء، ويعود السبب في ذلك إلى أن لكل ثقافة نمط حياة، وعادات وتقاليد.

- تساهم في تكوين إطار خاص للثقافة، وانغلاقها على نفسها، مما يؤدي إلى تفكيك الإطار المشترك وهو الدولة.³¹

"وكانت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، اليونسكو أصدرت الإعلان العالمي للتنوع الثقافي في عام 2001 لتعزيز التنوع الثقافي بين الشعوب وتعزيز دوره التنموي، وإيجاد حوار بين الثقافات المختلفة.

واعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في الحادي والعشرين من ماي في عام 2002م اليوم العالمي للتنوع الثقافي لتحقيق الحوار، والتنمية بين الثقافات المختلفة.

وقد أكدت اليونسكو أهمية التنوع الثقافي بأن يكون التنوع الثقافي ضماناً للتفاعل بين المجتمعات التي تتزايد تنوعاً يوماً بعد يوم، والعيش معا بين أفراد ومجموعات ذوي هويات ثقافية متعددة، ومتنوعة، ودينامية، معتبرة أن السياسات التي تشجع على دمج كل المواطنين، ومشاركتهم تضمن التماسك الاجتماعي وحيوية المجتمع المدني، والسلام.

وفي المجتمعات المنفتحة نجد أن قضية التنوع الثقافي تبدو أكثر فاعلية وحضوراً، إذ تبرز قيمة التأثير المتبادل عبر حوار حيوي واضح، وجلي في تفاصيل صغيرة من حياة البشر، ويعود الأمر إلى طبيعة النظام السياسي القائم

على احترام التعددية، كما هو الحال في عدد من الدول الأوروبية، مثل السويد والنرويج، والدانمارك، وغيرها من البلدان.

والتنوع الثقافي لكي يكون فاعلا يحتاج إلى بيئة متحررة تكفل حرية الرأي والاختلاف، والتعبير ف يظل أنظمة ديمقراطية تحقق للجميع فرصا متساوية في كافة المجالات، وكلما كان التنوع الثقافي متاحا، ومحما من طرف السياسيين على وجه الخصوص كلما كان أكثر ثراء، وتأثيرا في تجديد أنشطة المجتمع وأفكاره، وتوجهاته. وهذا من شأنه أن يكون نسيجا اجتماعيا متجانسا، وإن كان ذا ثقافات متعددة وهنا سيكون التنوع السكاني العرقي، وغيره داعما للتنوع الثقافي، وبالعكس بدلا من أن يكون التنوعان في، وصراع يقودان المجتمعات إلى حالة من التأخر والتردي لا يمكن توقع عواقبها.

ويتاح للفرد داخل المجتمع المتحرر التعبير عن آرائه سواء عبر الفن أو الثقافة أو السياسة، أو الوسائل الأخرى التي يضمنها له النظام الديمقراطي، ولا يحميها فقط وإنما ينشرها، ويجعلها متاحة للجميع من دون استثناء فتشكل عامل قوة متبادلة بين السياسي، وسلطته، وبين التنوع المجتمعي من خلال تنوع ثقافته.

أما المجتمعات التي تتسم بالانغلاق فالصورة فيها قائمة، وملبئة بالشك والكرهية والارتباب من الآخر نتيجة تأثير الأنظمة السياسية فيها، وهذا نجده في منطقة الشرق الأوسط، مناطق أخرى في آسيا وإفريقيا. ففي هذه المجتمعات التي تنبذ الآخر وثقافته، ولا تقرّ بها، وتتطلع إليه يعمّ التناحر بين النسيج المجتمعي، وتبدو قضية التنوع الثقافي سببا إضافيا للصراع داخل المجتمع الواحد، وهذا يجعل من الصعب القبول، وينتهي الأمر إلى حالة مرتبكة ثقافيا بجانب ارتباكها اجتماعيا.

و ليس من شك في أن تفعيل التنوع الثقافي في المجتمعات، وتعزيزه، والمحافظة عليه، وحمايته من المخاطر المهددة له يوفر الأسباب لنقوية وشائج التعاون الدولي، من خلال الحوار، والتقارب بين الثقافات الذي ينتهي إلى التحالف بين الحضارات

من أجل بناء مستقبل آمن للإنسانية التي تتخبط اليوم في متاهات عالم غير آمن وغير عادل، مليء بالدمار، والحروب، والكوارث .

كما أن التنوع الثقافي في المجتمعات المتحضرة، والفاعلة بشكل عاملا هاما مساعدا على التنمية بأشكالها، وأنواعها المختلفة، ولا ينحصر ذلك في تنمية الثقافة وحدها طالما أن هذا التنوع يساعد على تنمية المواهب، والإبداع الإنساني في المجالات كلها.

وربما تتعلق قضية التنوع الثقافي بالإضافة إلى إشكالياتها الفكرية بالجانب الأخلاقي للمجتمعات الذي يحتم على ذوي العلاقة الإيمان بأهمية التنوع أولا والعمل علة تطويره، وعدم السماح بالمساس بقضية مفهوم التعددية، والأمر منوط أولا بالسياسات، ويتطلب تعاوننا جادا مع المعنيين من متقنين، ومفكرين عبر آليات عملية لكي تصبح نهجا ثقافيا، ومجتمعا، وحتى سلوكيا يتبناه الناس بمختلف مشاربهم واتجاهاتهم المعنيين من متقنين، ومفكرين عبر آليات عملية لكي تصبح نهجا ثقافيا ومجتمعا، وحتى سلوكيا يتبناه الناس بمختلف مشاربهم، واتجاهاتهم، وانتماءاتهم.³²

ومن أقسام علم الاجتماع ما يُعرف بعلم الاجتماع التربوي الذي استخدم لأول مرة في كلية المعلمين بجامعة كولومبيا بمدينة نيويورك عام 1910 م كعلم يقوم البروفيسور "هنري سوزالو" بتدريسه، ثم استخدم للدلالة على فرع مستقل من فروع علم الاجتماع. ويقصد بعلم الاجتماع التربوي العلم السلوكي الذي يدرس الإنسان في علاقته بإنسان آخر، أي أنه إطار تربوي هدفه تكوين الخبرة أو المعرفة، أو الثقافة أو التعليم أو التدريب سواء كانت هذه العلاقة بين تلميذ وآخر أو بين تلميذ ومعلم أو بين التلاميذ أنفسهم أو بين المعلمين أنفسهم أو بينهم وبين غيرهم من العاملين في المؤسسة التربوية وكذلك بين كل الأطر التربوية، والمؤسسات الاجتماعية في المجتمع الكبير.³³

يتّضح مما سبق أنّ التنوع الثقافي يعدّ بحق رافداً من روافد التنمية الشاملة والتّحضر، ذلك أنه يساهم في رقي الأمم، ويساهم في حوار حضاري، وتحقيق أمن سلمي، وتعايش بين الأمم، والشعوب، واحترام عادات وتقاليد الآخر، وبالتالي الابتعاد عن التطاحن والخلافات، والنزاعات، والعداوات، والأحقاد النتنة.

كما أنّ الثقافة لدى كثير من جهاذة علماء الاجتماع هي تلك الكلّ المركّب الذي يتضمّن المعرفة، والعقيدة، والفنّ، والقانون، والأخلاق، والعادات، والتقاليد والأعراف، وغيرها من القدرات التي يتحصّل عليها المرء كعضو في جماعة وبيئة محدّدة، ولعلّ التعريف الشامل للثقافة يتمثّل في أنها طريقة، ومنهاج الحياة الكلية للمجتمعات بجوانبها المختلفة الفكرية، والمادية وهي تشمل مجموعة الأفكار، والقيم، والمعتقدات، والتقاليد، والعادات، والنظم، والمهارات، وطرق التفكير، وأسلوب الحياة، والعُرف، والأدب، والرواية، ووسائل الاتصال، وانتقال وكلّ ما توارثه الإنسان، وصنّعه يده، وأنتجه فكره .

الخاتمة: في خاتمة هذه الورقة البحثية يمكن تحديد جملة من النتائج أجملها فيما يأتي:

1- إنّ المدلول اللغوي العربي للفظة (الثقافة) تشمل على جملة من المعاني أشهرها الفطنة، والحدّاقة، والذكاء، والفقه، وسرعة الفهم، والتعلم، والتمكن من الشيء، والظفر به، وإدراكه إدراكاً وافياً، والإلمام بالمسألة بكل أسرارها، وكذا التقويم والإصلاح.

2- الثقافة من وجهة نظر أهل الاختصاص هي طريقة الحياة الكلية للمجتمع بجوانبها الفكرية والمادية، وهي تشمل مجموعة الأفكار، والقيم، والمعتقدات والتقاليد، والعادات، والأخلاق، والنظم، والمعارف،، والعقيدة، والقانون، وطرق التفكير، وأسلوب الحياة، والفن، والأدب، والرواية، ووسائل الاتصال، والانتقال

وغيرها من القدرات، والمهارات، والكفاءات، والملكات التي يتحصل عليها الإنسان باعتباره فردا من أفراد المجتمع في بيئة معينة.

3- إنَّ الثقافة في الفكر الغربي تعني المصطلح المتداول وهو (Culture) للدلالة على العناية بالحياة الزراعية، وبالمواشي، وفي العهد الروماني القديم أضيف إليها معنى آخر هو فلاحه الأرض، وخدمتها . بعدها ارتبطت الثقافة في فرنسا بالدلالة اللاتينية التي هي الماشية والزراعة، ومع بداية القرن الثامن عشر اتخذت كلمة (الثقافة) دلالة معينة تعبر عن التكوين الفكري، وتقدمه لدى الشخص المثقف.

4- الثقافة بمعناها المعرفي لدى المفكر محمد عابد الجابري يتم وفق ثلاث مستويات أساسية: الثقافة على المستوى الفردي (أي تمثل الفرد الإنساني لذلك المضمون الثقافي)، والثقافة على المستوى الشعبي من حيث كونها تعكس حقيقة المجتمع وواقعه الذي تنتسب إليه، والمستوى الثالث هو المستوى الإنساني العام بصرف النظر عن الزمان والمكان .

5- مفهوم المثقف العربي لدى كثير من النخبة العربية هو ذلك الشخص الذي يتحلى بالمعرفة، والعلم، مضافا إليها العمل، والممارسة، وفقا للثقافة المكتسبة وأنَّ المثقف في نهاية المطاف هو متعلم، أو متخصص، وصاحب قضية اجتماعية وسياسية، وناقد اجتماعي بارع، وممَّخص لقضايا أمته .

6- إنَّ التنوع الثقافي ليس مجرد ميزة إيجابية يجب الحفاظ عليها، وإنما هو مورد هام، ومنبع صاف يجب تعزيزه، بما في ذلك الميادين المختلفة البعيدة عن الثقافة بمعناها الضيق . أضف إلى ذلك أنَّ هناك علاقة متينة، وأواصر قوية بين التنوع الثقافي والهوية الثقافية حيث أنَّ الهوية لا يمكن أن تكتمل إلا بوجود الثقافة، وتتميز الهوية بأنها تمتلك القدرة على فهم التنوع الثقافي لكافة الأمم كما أنها تعمل على جمع جميع الأفراد في المجتمع بغية تبلور هوية ثقافية تجمعهم.

الهوامش والإحالات:

- ¹ - لسان العرب لابن منظور، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1423هـ-2003م 684/1
- ² - المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي، دار الحديث القاهرة، الطبعة 1424هـ-2003م ص54
- ³ - المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية، القاهرة 131/1
- ⁴ - المقدمة لابن خلدون، ص212-214
- ⁵ - مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط12، ص12.
- ⁶ - مشكلة الثقافة ص74، وينظر : شروط النهضة، مالك بن نبي ص 83.
- ⁷ - الخطة الشاملة للثقافة العربية، الموقع الإلكتروني للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أيسكو).
- ⁸ - مجمع اللغة العربية، ص58.
- ⁹ - مقدمة في علم الاجتماع، إبراهيم عثمان، دار الشروق، عمان، 1992، ص156
- ¹⁰ - الوعي الذاتي، برهان غليون، الطبعة الثانية، دار الفارابي، عمان، 1992، ص90
- ¹¹ - علم الاجتماع، أنتوني غدنز، ترجمة فايز الصبّاغ، ط4، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2005، ص82
- ¹² - كتاب (الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي) مجلس الأعلى للغة العربية، منشورات المجلس 2018، ص9.
- ¹³ - دليل الناقد الأدبي، د/ ميجان الرويلي، د/ سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ص141.
- ¹⁴ - المسألة الثقافية من أجل بناء نظرية في الثقافة، زكي الميلاد، ص23
- ¹⁵ - ينظر المقال الإلكتروني: (مفهوم الثقافة في الفكر العربي والفكر الغربي)، أ/جميلة بنت عيادة الشمري، موقع الألوكة .
- ¹⁶ - المقال السابق على موقع الألوكة .
- ¹⁷ - عالم أجناس بشرية (أنتروبولوجيا) بريطاني (1832-1917) أستاذ علم الإنسان في جامعة أكسفورد منذ عام (1896-1909م) أسهم في دراسة الثقافة وكان أحد رواد الاتجاه التطوري

- وقال بالنظرية البيولوجية، وأسهم في تطوير الدراسات للأديان من مؤلفاته : أبحاث في تاريخ البشرية القديم (ينظر : الموسوعة العربية العالمية)
- 18- ينظر المقال الإلكتروني لأستاذة جميلة بنت عيادة الشمري على موقع الألوكة.
- 19- مفهوم الثقافة، وقاموس أخطاب العربي المعاصر، د/ محمد عابد الجابري، على الموقع الإلكتروني: www.aljabri.net/culture1.htm
- 20- المقال الإلكتروني: (الثقافة : مفهومها وخصائصها وعناصرها)، د/ طارق عبد الرؤوف عامر.
- 21- المقال نفسه د/ طارق عبد الرؤوف عامر (على الشبكة)
- 22- الثقافة: مفهومها، خصائصها، عناصرها مقال إلكتروني على الموقع: www.uobay.lon.edu.iq
- 23- المقال الإلكتروني نفسه على الموقع ذاته.
- 24- ينظر المقال الإلكتروني (الثقافة : مفهومها وخصائصها وعناصرها)، د/ طارق عبد الرؤوف عامر.
- 25- ينظر: المقال الإلكتروني (واقع ومستقبل المثقف العربي في ظل التحديات التي تعيشها البلاد العربية) على الشبكة، ص158 وما بعدها .
- 26- المقال السابق ص159-160
- 27- المقال السابق ص162.
- 28 ينظر المقال الإلكتروني على الموقع : www.rjeam.com -
- 29- ينظر التقرير على الشبكة (الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات) ص3
- 30- المقال نفسه على الموقع نفسه.
- 31- المقال نفسه، والموقع نفسه.
- 32- ينظر المقال على الموقع: <http://middle-east-online.com>
- 33- مدخل إلى علم الاجتماع للجامعيين، د/ صلاح الدين شروخ، دار العلوم للنشر والتوزيع حجاز، عنابة ص86.

مكتبة الورقة البحثية :

- 1- لسان العرب لابن منظور، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة 1423هـ-2003م .
- 2- المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع القاهرة، 1424هـ-2003م .
- 3- المعجم الوسيط، إخراج: إبراهيم مصطفى، حامد عبد القادر، أحمد حسن الزيات، محمد علي النجار، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، القاهرة، دار الدعوة 1972..
- 4- الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي، أعمال اليوم الدراسي، المجلس الأعلى للغة العربية منشورات المجلس. 2018
- 5- في الموطنة اللغوية وأشياء أخرى، د/ صالح بلعيد، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر 2008م
- 6- في الأمن اللغوي، د/ صالح بلعيد، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية 2012م.
- 7- معركة المصير والهوية في المنظومة التعليمية الصراع بين الأصالة والانسلاخ في المدرسة الجزائرية، د/ علي بن محمد، دار الأمة، برج الكيفان الجزائر الطبعة الأولى 2001م
- 8- مدخل في علم الاجتماع للجامعيين، د/ صلاح الدين شروخ، دار العلوم للنشر والتوزيع الحجار، عنابة.
- 9- دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً، د/ ميجان الرويلي د/ سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الخامسة 2007م.
- 10- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ملتزم الطبع والنشر والتوزيع مؤسسة الكتب الثقافية مكة المكرمة، الطبعة الرابعة 1426هـ-2005م.
- 11- تقرير اليونسكو العالمي: الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة .
- 12- مشكلة الثقافة مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية عشر .
- 13- شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر

- 14- مقدمة في علم الاجتماع، إبراهيم عثمان، دار الشروق، عمان. 1993
- 15- الوعي الذاتي، برهان غليون، الطبعة الثانية، دار الفارابي، عمان. 1992
- 16- مقال إلكتروني بعنوان (مفهوم الثقافة في الفكر العربي والفكر الغربي) أ/ جميلة بنت عيادة الشمري، شبكة الألوكة.
- 17- مقال إلكتروني بعنوان (الثقافة مفهومها، خصائصها، عناصرها)
- 18- مفهوم الثقافة، وقاموس الخطاب العربي المعاصر، محمد عابد الجابري (مقال إلكتروني)
- 19- الثقافة مفهومها وخصائصها وعناصرها، د/ طارق عبد الرؤوف عامر، (مقال إلكتروني)
- 20- تبسيط مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي دراسة في مفهوم الثقافة وعناصرها، د/ حورية بكوش (جامعة أحمد دراية أدرار)، مجلة رفوف، مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا، جامعة أدرار، الجزائر، العدد العاشر، ديسمبر 2016م
- 20- واقع ومستقبل المتقف العربي ف يظلّ التحديات التي تعيشها البلاد العربية، أ/ عبد الفتاح العلمي، (مقال إلكتروني)
- 21- التنوع الثقافي يبرز السمة الحضارية للشعوب المنفتحة (مقال إلكتروني)
- 22- مقال إلكتروني (التنوع الثقافي مظاهر: إيجابياته وسلبياته)
- 23- مشكلات الحضارة مالك بن نبي حديث في البناء الجديد، وهي مجموعة محاضرات ألقاها المفكر جمعها وترجم لمؤلفها: عمر كامل مسقاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت .
- 24- مشكلات الحضارة مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر، طرابلس، لبنان.
- 25- مذكرات شاهد القرن الطالب، مالك بن نبي، ترجمة بقلم المؤلف، دار الفكر، لبنان.

التنوع الثقافي

بين هاجس الاستيلاء وأمل الاستيعاب

د. عابدة قرسييف

جامعة بسكرة.

ملخص: إنّ ما يميز كل حضارة من حضارات الأمم الحمولات الثقافية التي تتسم بها كل حضارة؛ فالعالم العربي الإسلامي مثلاً تتعدد ثقافته محلياً وإقليمياً ودولياً كما أنه يختلف عن ثقافة الحضارة الغربية. إذ إنّ لكلٍّ شرائحه وعقائده الدينية كما أنّ لكل منها قيمه وعاداته وتقاليده الاجتماعية، وأسس ومبادئه الاقتصادية..... إلا أنّ التجاذب الحاصل بين الأمم لاسيما في عصرنا الراهن والمتسم بعصر التكنولوجيا التي قربت المسافات وأزالت الحدود بينها، قد ساعدت بشكل كبير في تفعيل جدلية المعرفة الثقافية بين الأنا والآخر إلى حدّ الانبهار بثقافة الغير، أو الاعراض عنها لما يعتقد بعضهم من تصورات خاطئة عن تلك الثقافات الوافدة عليهم على نحو: ثقافة الحضارة الإسلامية التي ألصق بها مفهوم الإرهاب، أو كما يحلو للبعض تسميتها بالإسلامفوبيا. وعلى هذا الأساس جاءت هذه الدراسة لتقف عند سلبيات وإيجابيات التنوع الثقافي وكيفية خلق حوار بين الثقافات من أجل التنمية في جميع المجالات إضافة إلى الحدّ من الصراعات القائمة بين شعوب العالم؛ فكان من أبرز الإشكالات: كيف يمكننا إيصال ثقافتنا للآخر بمنظور إيجابي يوطّد جسور التفاهم؟ وهل استيعاب ثقافة الآخر يعني بالضرورة الانسلاخ عن الذات؟

Ce qui distingue chaque civilisation des nation ,ce sont les charges culturelles qui caractérisation chaque utilisation par exemple le monde arabo-islamique ses cultures sont diversifiées localement

régionnement et internationalement et différent de celles de la culture occidentale.

Toutes ses lois et croyances religieuse ont la même leurs valeurs, coutumes, tradition sociales, fondement, et principes économique...., mais l'aspect qui produit entre les nations en particulier dans l'ère actuelle de la technologie qui a apporté des distances et des frontières supprimées a grandement contribué à activer la dialectique des connaissances culturelles entre l'ego et l'autre dans l'étendue de la fascination pour la culture des autres, ou les symptômes de ce que certains d'entre eux pensent des manières à propos de ces cultures qui viennent à eux : la culture de la civilisation islamique qui a été collée à la notion de terrorisme ou comme certains voudraient le nommer comme Islamophobie, et sur cette base et cette étude est venue se tenir sur les négatifs et les avantages de la diversité culturelle et comment créer un dialogue entre les cultures pour le développement dans tous les domaines aux que la réduction des conflits entre les peuples du monde l'un des problèmes les plus importants : comment pouvons-nous communiquer notre culture à l'autre avec une perspective positive qui consolide les ponts de compréhension ? comprenez-vous la nécessairement une auto-rupture ?

إنّ الناظر في أحوال العالم يدرك أنه مؤسس على مبدأ الاختلاف والتنوع، إلا أنّ ذلك الاختلاف والتنوع لا يؤدي إلى تنافر الموجودات مع بعضها البعض؛ وإنما يخلق تناغماً وتكاملاً بينها. والرأي في واقع المجتمعات البشرية يلحظ تجلّي ذلك التنوع في طريقة عيشهم وطريقة نظرهم للكون وللشرايع، إضافة إلى تنوع عاداتهم

وتقاليدهم، وحتى في ألسنتهم المعبرة عن المعاني ذاتها. وقد يعيش الإنسان مع أخيه الإنسان ضمن ثقافة تجمعهما وتعكس علاقة الاتحاد بينهما؛ ليعبر بذلك عن حضارة الأمم النليدة، والتي تحمل في ثناياها إيديولوجية المجتمعات المنتمية إليها. وبما أن لكل حضارة ثقافتها الفكرية والدينية واللغوية فإن حاصل هذا التنوع قد يخلق صراعات بين الأمم من أجل فرض السيطرة، خاصة على الشعوب الضعيفة؛ وهذا ما أدى إلى نشوء الحروب واتهام بعض البلدان بالإرهاب. وقد ظهرت هيئات ومنظمات تسعى إلى خلق الحوار بين الأمم وتقبل ثقافة الآخر من أجل تنمية اقتصاد العالم، ومن أجل تحقيق السلام.

أولا التعدد اللغوي والانتماء الديني: أشكاله وإشكالاته: يشهد العالم انقسامات عديدة: جغرافية ولغوية ودينية؛ فكل دولة من دول العالم لها حدودها الجغرافية، كما أن لها لغة رسمية تتحدث بها ودين تتقيد بشرائعه؛ ولعل هذا الأمر في كثير من الأحيان أدى إلى ظهور النزاعات بين الدول من أجل فرض السيطرة. وقد يكون الأمر خلاف ذلك؛ إذ قد تحدث المواقفة بين الدول، نتيجة لعوامل وأسباب متنوعة من قبيل الفتوحات الإسلامية، أو مجاورة البلدان لبعضها البعض.

1- التعدد اللغوي: أشكاله وإشكالاته: تتمظهر الأشكال اللغوية في مختلف المقامات التخاطبية من خلال جملة الممارسات اللغوية، التي يتخذ أصحابها شكلا لغويا واحدا ، أو ثنائيا، أو قد يعرف تداخلا بين عدة أشكال لغوية متجانسة أو غير متجانسة. ومن أمثلة تلك الممارسات اللغوية ما نجده من استخدامات لغوية ؛ إذ تستخدم في: « بلدان المغرب الحالي ثلاث لغات، العربية والفرنسية واللغة الأم، أما الأوليان فلغة الثقافة، وهما لغتان مكتوبتان، وتستخدم الفرنسية أيضا لغة المحادثة غير أن اللغة الأم الحقيقية التي يستخدمها الناس دائما في خطابهم اليومي لهجة هي العربية أو البربرية وليست هذه اللغة الأم إلا في حالات نادرة جدا لغة مكتوبة¹» كما هو الحال مع اللغة المكتوبة عبر شبكات التواصل الاجتماعي ، أين نجد ظهور شكل

جديد من اللغة ،والتي أطلق عليها مسمى: الهجين اللغوي أو الفرانكو أراب أو العرابيزي .

وإن كان هذا الشكل اللغوي الجديد يرجعه المختصون إلى انبهار الفرد بالمنجز الأجنبي. وقد خلقت هذه الأشكال اللغوية تعددا لغويا على مستوى المجتمع الواحد وحتى للفرد الواحد حيث أصبح للمجتمع لغات عدة في البلد الواحد ، وأصبح الفرد يتكلم عدة لغات؛ ليعرف بذلك الفرد والمجتمع ما يصطلح عليه بالتعدد اللغوي، وهو: "المقابل العربي للفظ الأجنبي Multilinguisme، وهو يصدق على الوضعية اللسانية المتميزة بتعايش لغات وطنية متباينة في بلد واحد، إما على سبيل التساوي إذا كانت جميعها لغات عالمة كالألمانية والفرنسية والإيطالية، في الجمهورية الفدرالية السويسرية، وإما على سبيل التفاضل إذا تواجدت لغات عالمة كالعربية بجانب لغات عامية مثل الهوسا والغورماتشه والسوناى زارما والتماشيق والفولفولدة والتوبو في جمهورية النيجر"² ؛ إلا أن هذا التعدد اللغوي الموجود في الدولة الواحدة قد يؤدي إلى خصومات قبلية أو دولية، « إذ غالبا ما تتركب اللغة لتحقيق أغراض سياسية وتتخذ ذريعة لإذكاء نزاعات قبلية، وتثبيت هويات إقليمية ، كالباسكية في إسبانيا والكردية في العراق وتركيا، والأمازيغيات في الجزائر والمغرب، حتى إذا أخذ المجتمع في التصدع أعيد جبره بواسطة لغة السلطة التي يكتب لها الذيوع والانتشار بعوامل ثقافية وسياسية ودينية واقتصادية.»³ وبهذا فالتعدد اللغوي داخل المجتمع قد ينشب نزاعات قبلية، إلا أن هذا الأمر لا يعني بالضرورة « القول أنه السبب الوحيد لهذه الحرب، ولكنه الشرط الضروري لحصولها»⁴ ، إلى جانب أسباب أخرى تساعد على إذكاء النزاع والخلاف بين المجتمعات على غرار: الانتماء الديني.

2 الانتماء الديني: أشكاله وإشكالاته: لقد مثل الدين لعقود من الزمن محل خلاف

بين البشر جراء الاختلاف العقائدي بينهم؛ حيث كان من إحدى عوامل الحروب بينهم، كما كان نتيجة لصراعات لا تزال آثارها إلى اليوم. فقد شكل الدين قضية

كبرى في المجتمعات، وفي ظل هذه النزاعات فإن هناك من الديانات ما لم تعرف السلام فيما بينها على نحو: الإسلام والمسيحية ، والإسلام و اليهودية على الرغم من أن الإسلام يدعو إلى التسامح قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ بِلَاتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:125] كما أنه لا يفرض على المسيحي أو اليهودي اعتناقه الإسلام بالقوة قال تعالى: ﴿وَلَا تُجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَخَنَ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:46] إلا أن الإسلام ظهر بصورة غير التي يدعو إليها بسبب ما لحقه من ادعاءات باطلة عنه، خاصة منذ أحداث 11 سبتمبر، أين انتشر مصطلح الإسلاموفوبيا، وأصبح المجتمع الغربي ينظر إلى الإسلام ومعتقداته بأنه: إرهابي، ومع توغل هذه الفكرة عند هؤلاء صعب معها استبعادها، وإزالة ذلك المعتقد الذي لا يعكس حقيقة الدين الإسلامي ، و« أمام هذه الظاهرة الخطيرة التي يراد منها تجحيم حركة المسلمين في العالم حتى لا يكون لهم تأثير في المجتمعات التي يعيشون فيها، ولتشويه دينهم حتى يقف المدّ القياسي للإسلام في العالم مقارنة بغيره من الأديان، كان لابد للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-إيسيسكو- من أن تدرس هذه الظاهرة في أنشطتها الثقافية المتخصصة للوقوف على أسبابها وطرق علاجها، وعلى الأخص من خلال أنشطة الحوار بين الثقافات والتحالف بين الحضارات، وتقديم الصورة الحقيقية للإسلام في الغرب بما يدحض الصورة النمطية عنه ، ويصحح المعلومات الخاطئة عن هذا الدين الحنيف⁵ ،الذي شوّهه الحاقدون على الإسلام والمسلمين .

كما عملت «الإيسيسكو على تفعيل دور المسلمين في الغرب وجميعياتهم ومراكزهم الثقافية خارج العالم الإسلامي في مواجهة الإسلاموفوبيا وتغيير الصور

النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين، مع التركيز على إشراك الكفاءات المسلمة خارج العالم الإسلامي التي أعدتها المنظمة الإسلامية، واعتمدها مؤتمر القمة الإسلامي العاشر المنعقد في بوتراجايا في ماليزيا عام 2003 وتم تكليف الإيسيسكو بمهام تنفيذها⁶ من أجل تحقيق السلام بين الأديان وتنشيط مبدأ الحوار وتقبل ثقافة الآخر.

ثانيا التنوع الثقافي وأثره على المجتمعات: لقد ساعد التطور التكنولوجي الذي شهده العالم الإنسان في الانفتاح على الآخر ومعرفة ثقافته ، وبذلك « يمكن القول إن مسألة الحوار الحضاري والثقافي، هي مسألة التفاعل الإنساني والثقافي بين أتباع الحضارات والثقافات المختلفة ، وإن مسألة قيم هذا الحوار، هي مسألة النقائها أساسه "العولمة الثقافية" أو العولمة المتبادلة "، تلك العولمة التي لا تسوي بين الثقافات، وإنما تجمع بينها على المشترك الإنساني الكوني ؛حيث مبدأ "فحص أوجه الشبه والاختلاف" يمكن الحديث عنه أيضا ، عن قيم حوارية حضارية وثقافية مشتركة، تهدف إلى تغيير النظرة الاستعدادية والتخلي عن التصنيف النمطي المتوارث من مخلفات الماضي ، والمشاركة في التأسيس لرؤية مستقبلية لمشروع الوحدة الإنسانية المرتقبة"⁷ ولذلك فإن حوار الثقافات ظاهرة برزت جراء تنوع ثقافات الأمم والحضارات وقد « برز التنوع الثقافي كانشغال رئيسي في مطلع القرن الجديد.على أن المعاني التي ارتبطت بهذا المصطلح الذي يكاد يشمل كل شيء متنوعة تماما كما أنها كثيرة التغير، فالبعض يعتبر التنوع الثقافي عاملا إيجابيا في حد ذاته، فهو يدل على تقاسم الثروة التي تجسدها كل ثقافة من ثقافات العالم، وبذلك يوضح الروابط التي توحدنا جميعا في سياق عمليات التبادل والحوار. ويعتبر آخرون أن الفوارق الثقافية هي التي تجعلنا نعجز عن تبين إنسانيتنا المشتركة وهي بالتالي تكمن في جذور كثير من النزاعات »⁸ . فرؤيتنا لثقافة الآخر هي التي تحدد

مدى فاعلية رفض الآخر أو قبوله؛ إذ إن الحوار بين المجتمعات من شأنه أن يساعد على استيعاب الآخر ومن ثم تتجسد روابط التفاهم للعيش معا في سلام.

ثالثا حوار الثقافات وسبل تعزيز التعايش بين المجتمعات: لا جرم أن الحوار الثقافي المؤسس على مبدأ التسامح وتقبل قيم وعادات وتقاليد الآخر، إضافة إلى تقبل انتمائه الديني من شأنه أن يساعد الأفراد والمجتمعات للتعايش بسلام ولتحقيق أهداف اقتصادية تساعد على التنمية بين البشر وفي ظل هذا التعايش «يمكن القول إن هناك مستويين من هذا التفاعل الحواري:

أ- تفاعل حوار مباشر: يشمل بالتالي، مضامين قيمية حوارية مباشرة، كقيمة التواصل، التضامن، التعارف،... إذ لا يمكن تصور حقيقة لهذه القيم دون وصلها بمستواها الفعلي/ العملي المباشر، وهو ما تعكسه دلالاتها الصرفية في الحقل البياني العربي لكلمة "تفاعل" التي تقضي الاشتراك في الفعل؛ ويندرج تحت هذا التفاعل الحواري النمطي كل من القيم الاجتماعية (التعارف، التواصل، التضامن...) والقيم السياسية (الديمقراطية، المواطنة، السلوك المدني...) والقيم الدينية (العقيدة الإيمانية الموحدة، الأخلاق...)، والقيم الاقتصادية (التنمية المستدامة...)

ب- تفاعل حوار غير مباشر: يمكن القول إنه يشمل مضامين قيمية حوارية ولكنها لا تطل الآخر بشكل مباشر، أي إنها تحمل في طياتها، إرادة للتفاعل الحواري الحضاري والثقافي؛ ويندرج تحت هذا الإطار الحواري التفاعلي، كل من القيم المعرفية والفكرية /النظرية (الاهتمام بالمعرفة والعلم، تقدير العلماء...) والقيم الجمالية/ الفنية (الاهتمام بالطبيعة، الاهتمام بالألوان والأشكال والإبداع...)، بمعنى أن هذه القيم الأخيرة، تعتبر قيما حاملة للبعد الحواري الثقافي والحضاري، خادمة لقيم محورية ومركزية في الحوار الثقافي⁹، وقد يتخذ الحوار الثقافي أشكالا متعددة تتجسد مثلا في محاولة الدول لنقل وتصوير ثقافتها للآخر على نحو: ما يعرض على التلفاز وشبكات التواصل الاجتماعي أو ما تقوم به بعض المنظمات على نحو:

اليونيسكو حيث «كانت منذ بدايتها مقتنعة كل الاقتناع بالقيمة المتأصلة للتنوع الثقافي وبضرورته، ويتحدث دستور المنظمة (الصادر عام 1945م) عن "التنوع المثمر في ثقافات العالم". ويبقى اليوم هذا الاقتناع على نفس الدرجة من الأهمية كما كان على الدوام حتى وإن كان تعريف الثقافة قد توسع كثيرا وإن كانت العولمة قد أدخلت تغييرات هامة على الوضع الذي كان قائما بنهاية الحرب العالمية الثانية»¹⁰ أين عرفت المجتمعات حوارا ثقافيا أذكاه التطور التكنولوجي الذي شهده العالم على خلاف ما كان يعرفه من قبل .

وعموما يمكن القول أن للتنوع الثقافي أبعاده الإيديولوجية والسياسية والاقتصادية يمكن استثمارها بالمنظور الإيجابي الذي يسهم في تنمية شتى المجالات وفي تحقيق السلام بين الأفراد والمجتمعات دون الانسلاخ عن القيم الذاتية والتخلي عن الهوية إضافة إلى استيعاب الآخر وتقبل ثقافته اللغوية والدينية والمجتمعية.

الإحالات:

- ¹ - لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة، مراجعة سلام بزي حمزة، مركز دراسات الوحدة اللغوية، بيروت ط1، 2008، ص89.
- ² - محمد الأوراعي، التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب واللغات بالرباط، ط1، 2002، ص11.
- ³ - محمد الأوراعي، التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي، ص12.
- ⁴ - لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ص61.
- ⁵ - حسن عزوزي، أعمال الندوة الدولية ظاهرة الإسلاموفوبيا وسبل التعامل معها، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، 1436هـ، 2015م، ص5، 6.
- ⁶ - حسن عزوزي، أعمال الندوة الدولية ظاهرة الإسلاموفوبيا وسبل التعامل معها، ص6.
- ⁷ - عمر بيشو، النظر الكفائي المقاصدي ودوره في تعزيز قيم الحوار الثقافي والحضاري مؤمنون بلا حدود مؤسسة دراسات وأبحاث، قسم الدراسات الدينية، الرباط، المغرب، ط1 دت، ص3.
- ⁸ - تقرير اليونسكو، الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، بإشراف فرانسواز ريفيير، ص1.
- ⁹ - عمر بيشو، النظر المقاصدي ودوره في تعزيز قيم الحوار الثقافي والحضاري، ص4، 5.
- ¹⁰ - تقرير اليونسكو، الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، بإشراف فرانسواز ريفيير، ص1.

إشكالية التواصل بين المتعلمين في ظل التنوع اللغوي والثقافي

د.د. إيمان بلحداد

جامعة باتنة 1

ملخص المداخلة: تناقش هذه الورقة مسألة جوهرية، وعلى غاية من الأهمية والحيوية، وهي مسألة التواصل بين المتعلمين في مختلف بقاع العالم، في ظل تصادم الاختلاف اللغوي، والتنوع في الثقافات والديانات، وذلك من خلال توضيح طبيعة العلاقة بين الشعوب الناطقة بلغات مختلفة، وهذا بعد مناقشة آراء المفكرين في قضية التوافق بين هذه الشعوب، وخاصة الفئة المثقفة منها والمتعلمة، ومن ثمة فإن الإشكال الذي يطرحه هذا البحث هو: إلى أي مدى تتحقق إمكانية التواصل بين الشعوب المختلفة في اللغات والثقافات؟ ويتفرع عن هذا الإشكال الرئيس الأسئلة الفرعية الآتية:

- ما طبيعة العلاقة بين الدول المختلفة اللغات؟

- هل اختلاف اللغات والثقافات يؤدي إلى حتمية النزاع بين الحضارات أم أنه يجعل اللغات تتكامل فيما بينها؟

- كيف يمكن تحقيق الأمن والسلام بين اللغات المتنوعة وناطقها في ظل العولمة؟

وتنتهي الورقة بتقديم خلاصة لما تمّ استعراضه، وعدد من التوصيات الرامية إلى ترسيخ أن فكرة التنوع تغني الحياة وتثريها، بل وتجعل اللغات تتكامل فيما بينها، وبهذا على الجميع احترام هذا التعدّد، وتقدير اللغات وشعوبها الناطقة بها.

الكلمات المفتاحية: التواصل - المتعلمين - التنوع اللغوي - التنوع الثقافي.

مقدمة: يعيش العالم اليوم حالة تمايز اللغات والثقافات؛ بتعدد حروف اللغات والطريقة المعبرة بها وأشكال التعبير التي تخصّ جماعات إقليمية، وهذا ما يمثل حقّ كل واحد ينتمي إلى لغة وطنية معيّنة أو هوية ثقافية ما.

وفي ظل التواصل بين المتعلمين والتبادل للمعارف والعلوم يظهر تباينا واضحا في اللغة والثقافة، وهذا ما يحتاجه كل مترجم؛ إذ يستدعي منه الإلمام بثقافة الآخر لنقل المعرفة نقلا صحيحا، ولكن هذه الفجوات الثقافية من شأنها أن تخلق سوء تفاهم بين الأفراد، وهو الأمر الذي يؤدي إلى صعوبة الاتصال والتواصل بين مختلف الثقافات؛ من حيث اللغة أو معاني كلمات ومصطلحات كل ثقافة، وهذا الأمر قد يخلق تنافسا في إنتاج المعرفة بين المتعلمين والباحثين، مما يجعلهم يعيشون صداما حضاريا ونزاعات قد تطول لتمس الحكومة والسلطة الحاكمة.

أولا: ما طبيعة العلاقة بين الدول المختلفة اللغات والثقافات؟ إن لكل مجتمع طبيعته المختلفة في طريقة التفكير والعيش واللغة التي تخص حيّزه الجغرافي وهذا ما ينتج مجتمعات متنوعة ، وبهذا انقسم العالم إلى قسمين هما: المجتمع العربي والمجتمع الغربي.

1- بين العرب والغرب: يمثل العرب مجموعة كبيرة من الأشخاص الذين يتكلمون اللغة العربية، ويعتقون الديانات المختلفة كالديانة الإسلامية التي يتبعها العدد الأكبر منهم، والديانة المسيحية التي يعتنقها عدد أقل، وينتشر العرب في قارة آسيا وقارة إفريقيا، أما الغرب فهم مجموعة كبيرة من الأفراد الذين يتكلمون لغات متعددة، ويعتقون ديانات مختلفة كالديانة المسيحية التي يعتنقها العدد الأكبر والأعداد الأخرى يعتنقون ديانات متنوعة كالديانة البوذية واليهودية، وهناك عدد قليل من الغربيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي، وينتشر سكان الغرب في قارة أوروبا وأمريكا وأستراليا وغيرها من القارات.¹

2-العلاقة بين العرب والغرب: يعتقد الغرب أن قوة العرب تكمن في عقيدة الدين الإسلامي، تلك هي الإجابة "الشفافية" التي توصّل إليها الغرب، بعد أن انكبّ على دراسة أسرار تفوق العرب حضاريا وماديا في غضون قرن من ظهور الإسلام، بعد أن كانت ضعيفة متفرقة، وبعد أن شكّل انتشار الإسلام "صدمة فجائية"؛ فالعرب أرسوا "صدمة عفوية" للغرب، في إطار دعوتهم للدين الإسلامي لكنهم تلقوا "صدمة مقصودة".² إذ نجد أن (ابن رشد) و(ابن سينا) لهما الفضل في تطور العلوم الغربية؛ فالأول في الفلسفة والثاني في الطب.

وفي ظل هذه الظروف ظهرت ثلاث تيارات فكرية عربية؛ أولها دعا إلى التغريب لمواكبة التقدّم الغربي، وثانيها نادى بالأصالة الإسلامية والعودة إلى ماضي السلف، وثالثها تيار قومي ركّز على الوحدة العربية³، كما ظهر تيار حديث يمثل العلمانية (فصل الدين عن الدولة) بمفهومها الإسلامي وليس تحت إطار العلمانية الغربية المتطرفة وخير مثال ماليزيا وتركيا، وترجع إلى المفكر (جمال البنا) و(طه حسين) والمصلح الإسلامي (محمد عبده).

فثمة تيارات فكرية دينية وثقافية وأكاديمية، وبعض من دوائر صنع القرار خاصة في الغرب تحاول أن تصدر الصراع وتغذيه باستمرار تحت عناوين "الصدام الحضاري والثقافي" و"الخطر الإسلامي على الحضارة الغربية" أو "الخطر الغربي على الحضارة العربية"، وإنتاج مفاهيم من نظير "الإرهاب"، الإسلام فوبيا التخلف العربي... إلخ، أو الغرب الملحد، الأصولية المسيحية، كما يرى الكثير من الغربيين في أوروبا والولايات المتحدة، أن التهديد العربي ازداد قوة نحوهم بسبب ارتباطه بالتطرف الديني⁴، كالذي ظهر في أفغانستان بتمويل سعودي-أمريكي وهذا التيار يمثل الأصولية الإسلامية اليمينية.

ويرى الغرب أيضا، أن العرب والمسلمين لا يقدرّون على ممارسة الديمقراطية ولا يستحقّون حقوق الإنسان، فيما يعتقد بعض المنظرين في الغرب أن حقّ العرب

مرجعه الاستقرار السياسي والتقدم التكنولوجي والاقتصادي وحياة الرفاهية الغربية⁵، وبهذا يقول عبد الوهاب المسيري: "الحدثة الغربية...تقدم رؤية مادية ترى العالم باعتباره مادة، وقد عرفت هذه الرؤية الهدف من وجود الإنسان في الكون بأنه تعظيم المنفعة واللذة، وعرفت التقدم بأنه تصاعد معدلات الإنتاج والاستهلاك، مما ولد شرهة استهلاكية عند الإنسان الغربي ليس لها نظير في التاريخ".⁶

حيث نجد الغرب أخلاقيا يعتمد على أفكار الفيلسوف (أبيقور) مبدأ الألم واللذة وهذا مبدأ نفعي مادي، إضافة إلى الاتجاه الاقتصادي الليبرالي الذي شرح فيه (آدم سميث) حرية العمل والإنتاج للخاص، ومن هنا تبلورت النظرة البراغمية للحياة التي تعتمد تقديس العمل، فهذان الاتجاهان لعبا دورا كبيرا في معنى أنطولوجية - أي وجودية - الفرد الغربي.

كما أن بعض المتشددین لدى الغرب يجدون صعوبة في تقبل الإسلام كعقيدة سماوية كاملة، ويصف البعض عقيدة الإسلام بـ "الهرطقة"، ونفس الشيء مع العرب المتشددین إذ "يصنفون الإنجيل على أنه كتاب مقدس محرّف، وأن الإسلام هو الدين الصحيح".⁷ حيث نجد في الطرف الآخر أن الغرب العلمانيون يرون بأن الإسلام هو امتداد للمسيحية الآريوسية، ويعتبرون هذه الأخيرة تأثرت بالعقيدة اليهودية، كما يعتقدون أن الأديان السماوية الإبراهيمية (اليهودية، المسيحية الإسلام) مجرد ثقافات اجتماعية ممتدة جذورها إلى الديانات الشرقية كالزرادشتية والمناوية والشامانية.

ثانيا: هل الاختلاف في اللغات والتنوع في الثقافات يؤدي إلى حتمية النزاع بين الحضارات أم أنه يجعل اللغات تتكامل فيما بينها؟

تعدّ كل من اللغة والثقافة من الأمور المهمة التي تأخذ حيزا كبيرا من تفكير المتخصصين، أو حتى الناس العاديين، فهما معا يؤثران بشكل مباشر في تفكير

الإنسان وهويته وشخصيته، إذ اللغة تمثل مجموعة متناسقة من الرموز والإشارات، وهي أداة المعرفة الأولى للأفكار الإنسانية المختلفة، أما الثقافة فهي مجموعة سلوكيات وأفكار ومبادئ وقيم، يتبناها الإنسان في حياته، حيث تكون قادرة على رسم الطريق أمامه، وقد وجد أن هناك علاقة وطيدة بين اللغة والثقافة.⁸

1- العلاقة بين اللغة والثقافة: قبل الإجابة عن السؤال-نتيجة الاختلاف في اللغات والثقافات بين المتعلمين- تجدر الإشارة إلى العلاقة بين اللغة والثقافة، فاللغة تعتبر الوسيلة التعبيرية الأولى عما يجول في خاطره من أفكار، ومن هنا فإن اللغة هي الناطق الرسمي باسم الثقافة، فبها يمكن للإنسان أن يشرح للآخرين وجوه التميز الثقافي لدى أمته، ويتعرف أيضا على الثقافات الأخرى الموجودة في هذا العالم، كما أن الثقافة توظف وبشدة عند تعليم اللغات للأجانب الراغبين في تعلمها وهذا وإن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مدى التكامل بين الثقافة واللغة، فهما من الأمور المتلازمة التي لا يمكن الفصل بينها مهما حصل، إلى جانب ذلك فإن ثقافة شعب من الشعوب تسهم في تطور لغته وإثرائها، من خلال العديد من المفردات الجديدة إليها، فاللغة على الدوام تقتبس مفرداتها من ثقافة الشعوب الأصلية التي تتكلم بها، وما اللغة العربية و بحر مفرداتها الذي لا حصر له إلاّ مثال واضح على ذلك.⁹

ولكل مجتمع ثقافته الخاصة به، تحمل مميزات ليست موجودة في مجتمع آخر. وبهذا فاختلاف اللغات دليل على تنوع الثقافات، فاللغة تبقى جوفاء إن لم تجد روحا وفكرا وثقافة تحركها، وإلاّ بقيت راکدة كاللغات اللهجات الإفريقية الميّتة قريبة الانقراض.

2- التنوع الثقافي وصراع الحضارات وتعايشها: إن الصراعات التي سجلها تاريخ الشعوب لم تكن صراعا حضاريا بين ثقافات الشعوب، وإنما كانت صراع

المصالح الاقتصادية للدول والإمبراطوريات، والسعي إلى النفوذ والسيطرة للقوى التي تمسك بزمام السلطة السياسية لهذه الدول، أليست "الحروب الصليبية" أحد أشكال صراع الحضارات بطابع ديني، ولكننا لو عدنا لأدبيات الدول العربية الإسلامية نجد عبارة "حرب الفرنجة" لوصف تلك الحروب، وقد استخدمت كلمة "الحروب الصليبية" لأول مرة في أدبيات الاستعمار الغربي في العصر الحديث والذي استخدم هذه التسمية للتضليل وإثارة الحساسية والتمزق في مكونات مجتمع لاسيما وأن المكون المسيحي هو مكون أساسي وهام من مكونات مجتمعنا، ويعود في أصوله العربية إلى ما قبل الإسلام، وقد تمت ترجمة هذه التسمية "الحروب الصليبية" بأمانة من قبل المؤسسات التعليمية العربية، وهكذا دخلت هذه التسمية التحريفية إلى كتب المدارس والمعاهد التعليمية في العالم العربي بالطريقة التحريفية التي تخدم المصالح الغربية.¹⁰

وتركيبا لكل هذه المواقف نجد أنّ الصّراع الاقتصادي والديني والثقافي بين الحضارتين الغربية والشرقية قد ترجم وأسقط على المنظور الديني، حيث نجد جماعة فرسان الهيكل يريدون استرجاع مدينة القدس لقدسيّتها الدينية، وكذلك في الطرف الآخر يتجلى نفس القدسية بالنسبة للمسلمين (صلاح الدين الأيوبي).

يظهر صدام الحضارات في الاختلاف في المعتقدات الدينية والقيم السياسية بالإضافة إلى الصراع المتنامي بين الهويات الحضارية والثقافية المختلفة، وذلك بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، ومن العوامل التي أدت إلى زيادة واحتدام الصراع بين الإسلام والغرب نوجزها فيما يأتي:¹¹

-ازدياد الاتصال بين المسلمين والغرب، مما أدى إلى نمو شعور كل طرف بقيمته وهويته، كما أدى ذلك إلى تأكيد اختلاف كل طرف عن الآخر.

-تنامي الجهود الغربية في رفع شأن مؤسساتهم وقيمهم، بالإضافة إلى سعيهم للحفاظ على تفوقهم العسكري، ومن ثم التدخل في النزاعات العالمية، وخاصة في العالم الإسلامي.

والشاهد على ذلك ما لاحظناه من تدخلات من قبل التحالف الأمريكي في حل النزاعات في الوطن العربي كالعراق وفلسطين، لكنه في حقيقته غطسة وتدخل واحتلال غير مباشر.

ثالثاً: كيف يمكن تحقيق الأمن والسلام بين اللغات المختلفة وناطقيا في ظل العولمة؟

يتعين في عالم يسوده التباين الثقافي أن نضع استراتيجيات تتجاوز الصراع الحضاري بإعادة النظر في طرق التواصل بين الثقافات وتوعية الأمم بالقاسم الثقافي المشترك بين تلك الحضارات، ويمكن أن نقترح الحوار بين الثقافات والتفاعل بينها كبديل وحل لمشكل التصادم بين اللغات والثقافات، ويمكن حصر تلك المقترحات في الاستراتيجيات الساعية لتحقيق الأمن والسلام في النقاط الآتية:

-العمل على الاستثمار في التنوع الثقافي، عن طريق إقامة حملات توعية وندوات عالمية تعرف بالثقافات المختلفة وتروج لها كل في مناسبة تاريخها، لفتح باب الحوار والتفاعل بين الشعوب المختلفة، وفي ذلك ضمان للممارسة الفعلية لحقوق الإنسان المعترف بها عالمياً.

-الإقرار بحرية التدين واحترام حقوق الإنسان وحرياته في جميع دول العالم.

-تعزيز التماسك الاجتماعي بين جميع الثقافات المتنوعة وشعوبها من قبل السلطات الحكومية والهيئات المختصة بحقوق الإنسان.

-مواجهة صراع الحضارات بين العرب والغرب، باحترام كل طرف للهوية الثقافية والدين واللغة.

-الدعوة لبناء مشروع سياسي يدعو إلى تكامل اللغات وثقافاتها في ظل العولمة، تشارك فيه كل دول العالم، ويكون لها حضور تعاوني بين العرب والغرب.

-تقوية البعد الثقافي لحقوق الإنسان؛ من عادات وتقاليد وديانات، لضمان استمرار التمتع بالهوية الثقافية .

-تعزيز السلام العالمي في مختلف دول العالم بمحاربة الانتهاكات بحقوق الإنسان التي تخصّ الهوية الثقافية والمعتقدات.

-المساواة في المكانة الثقافية بين كل المجتمعات ، وتعزيز أسباب التعايش السلمي والأمن الديمقراطي داخل الأمم المتنوعة اللغات والثقافات.

-تبني استراتيجية التحالف بين الفئة المثقفة في بناء المعارف وتطوير العلوم وذلك بإقامة علاقة تكاملية تبادلية سلمية بين المتعلّمين في مختلف بقاع العالم.

-البحث عن أسباب الثقة بين متعلّمي الثقافات واللغات المتعدّدة، بكونه أساس نجاح العلاقات بينهم.

-تثمين القدرة على الانفتاح والاستماع للطرف الآخر ذو اللغة والثقافة المختلفة بانتهاج طريقة واعية في التعامل مع مختلف الخصائص الثقافية.

الخاتمة: بناء على ما تقدّم، يمكن القول أن التنوع في اللغات والثقافات ضرورة لا بد من تقبلها، في ظل تصادم الحضارات والعولمة التي تفرض توحيد الثقافات وفرض ثقافة الغرب على الشعوب العربية، إذ أن كل هذه المساعي تبقى انتهاكات وتجاوزات لحقوق الشعوب وحرياتها، وعليه فإنّ الحلّ المناسب للصراعات تكمن في تجاوز الاختلافات الثقافية، والعمل على استثمار التنوع الثقافي بشكل إيجابي يرجع بالنفع على كلّ شعوب العالم. كما لا بد من التفاعل بين الحضارات في شكل حوارات رسمية من قبل الهيئات المسؤولة عن حقوق الإنسان لضمان تجدد الثقافات وتنوعها في كل زمان ومكان.

النتائج والتوصيات:

- التسليم بفكرة الاختلافات الثقافية بين المجتمعات، ومحاولة تصدي المشاكل التي تعترض أفرادها أثناء التواصل والتبادل المعرفي عن طريق تبني ثقافة العمل الجماعي بإدماج الثقافة المشتركة مع احترام الخصوصيات الثقافية.

- الاستثمار في التنوع الثقافي يدلّ على تقاسم الثروة التي تجسدها كل ثقافة من ثقافات العالم، كما أنه يوضّح الروابط التي توحدنا جميعا في سياق عمليات التبادل والحوار.

- ترسيخ أن فكرة التنوع تغني الحياة وتثريها، بل وتجعل اللغات تتكامل فيما بينها، وبهذا على الجميع احترام هذا التعدّد، وتقدير اللغات وشعوبها الناطقة بها.

- خلق توازن فعلي بين الخصوصية اللغوية والدينية، من خلال استشعار المواطنين والمتعلمين خاصة بضرورة بناء مجتمع تعدّدي وعادل.

- تحقيق الأمن اللغوي والثقافي بمحاولة جادة لمسايرة ركب التطوّرات التقنية- الرقمية الجديدة واستثمارها في البحوث النظرية والعملية خاصة، ومن ثمّة التأكيد من إمكانية التواصل بين الحضارات.

- تطوير الإبداع بين المتعلمي اللغات المتعددة في حلقات علمية ومجموعات متعاونة ومتّحدة.

- تحويل التصادم الثقافي إلى تحالف ثقافي من خلال ثلاثة إجراءات:

* توطيد الانسجام الاجتماعي بين المتعلّمين والأساتذة والباحثين العرب والغرب.

* إثراء الثقافات في العالم؛ بالتعريف بالثقافات الخاصة للأمم الأخرى.

* تحسين الاتصال بين المثقفين العرب والغرب ورفع درجة الانتماء لديهم.

- اتخاذ الإجراءات اللازمة للابتعاد عن العنصرية وتهميش الهوية الثقافية على حساب أخرى، ومحاولة الإنصاف بين كلّ الثقافات واللغات المتحدّث بها من قبل المتمدرسين والطلبة والباحثين.

الهوامش:

¹.زايد مصطفى، الفرق بين العرب والغرب، 13 ديسمبر 2015 موقع موضوع على الرابط الآتي:
<http://mawdoo3.com>

².عبد الرحمن الوائلي، العرب والغرب: إشكاليات المعرفة وملابسات المنهج، مجلة الكلمة
قبرص، العدد 23، ربيع 1999، نقلا عن الرابط التالي:
www.kalema.net/v1/?rpt=388&art

³.المرجع نفسه

⁴.منعم سري، صراع الحضارات: سوء تفاهم بين الإسلام والغرب، من كتاب: الإسلام والحداثة:
الانسحاب الثاني من مواجهة العصر، دار الأهلية للنشر، عمان، 2010، ص 69.
عبد الرحمن المسيري، 26/12/2004، www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2004/12/26،
الإسلام والغرب، موقع الجزيرة نت، وجهات نظر، 26/12/2004، نقلا عن الرابط

⁵.المرجع نفسه

⁶.المرجع نفسه.

⁷.انظر: في اللغات والثقافة والآداب، اطلع بتاريخ 2018/7/24، www.univ-annaba.org

⁸.قضايا اللغة والثقافة، اطلع بتاريخ 2018/7/24، www.alarabiahconference.org

⁹.أميمة سميح الزين، التنوع الثقافي... إثراء إنساني أم صدام حضاري، أعمال المؤتمر الدولي
الثامن: التنوع الثقافي، طرابلس، 21-23 مايو 2015، ص 13

¹⁰.انظر: هنية مفتاح القماطي، أزمة الحوار الحضاري في عصر العولمة، ص 9-13

ملحق: صور توضيحية للتنوع اللغوي والثقافي في العالم
قناع "ملك الشمس" في كرنفال ريودي جانيرو بالبرازيل مهرجان شارع كوكولو
في سان بيدرو دي ماكوريس بالجمهورية الدومينيكية



المدينة المحصنة في آيت بن حدو بالقرب من ورزازات في المغرب



أحد تماثيل بوذا التي تعود إلى القرن السادس في باميان، وهي تماثيل مدرجة في قائمة اليونسكو للتراث

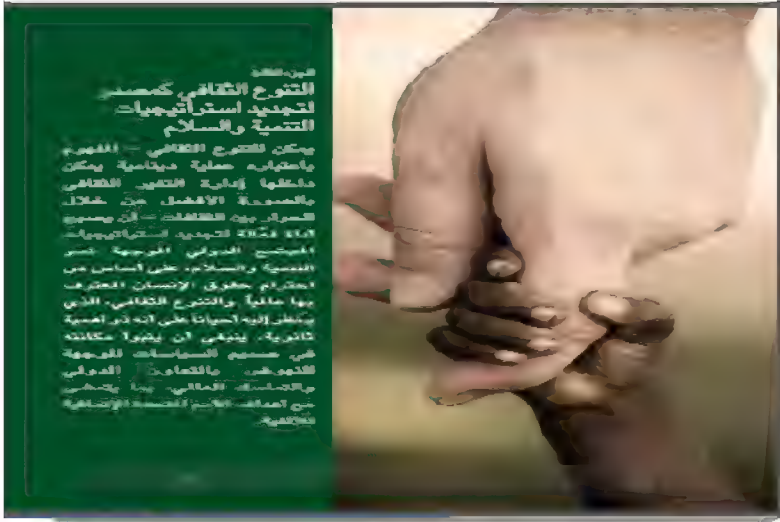


أطفال صغار يلعبون في أليس سميرينغس بأستراليا أطفال صغار يلعبون في أليس سميرينغس بأستراليا

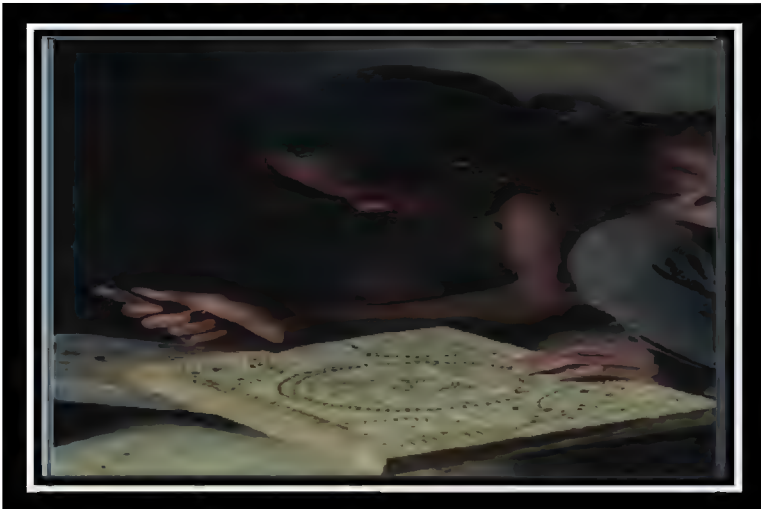


طفلا يلعبان في موقع محلي لإلقاء النفايات في مابوتو بموزمبيق





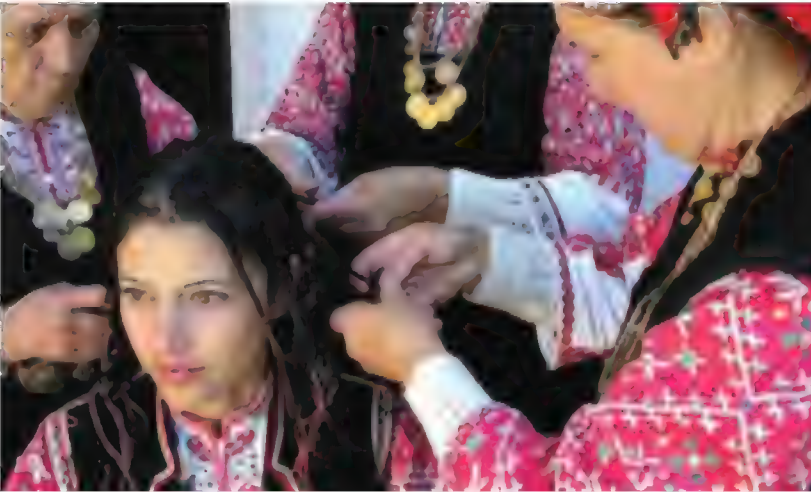
الحرف الخشبية من طراز زافيمانيري في مدغشقر



راوي قصص يروي قصة أمام جمع من الناس في ساحة جامع الفنا في مراكش بالمغرب



الإنشاد التعدّد الأنغام والطقوس التقليدية في منطقة الشوببلوك ببلغاريا



تماثيل للسيدة مريم العذراء في متجر للهدايا التذكارية في لورد بفرنسا
مسلمون يؤدون الصلاة في جاكارتا





لسامبادي رودادي ريكونكافو دي باهيا في البرازيل
مهاجرون أفارقة يقفون في طابور في ميناء لامبيدوسا قبل نقلهم إلى صقلية
بإيطاليا



امراة من هنود السابارا وهي تتسج في إكوادور أناشيد الهدهد للإيفوغاو في الفلبين
إمراة أندونيسية تصنع سلة



مزارع بن من العاملين في إطار التجارة المصنّفة يقوم بفرز البنّور الطبيعية في مزرعة
للبن



التنوع اللغوي وإسهامه في الثراء الثقافي للمجتمع الجزائري ولاية غرداية أنموذجا

داه. يوسف باعمارة
جامعة غرداية.

ملخص: تُعرّف ولاية غرداية بالجنوب الجزائري بتركيبة سُكانية مختلفة ومتنوعة تظهر في عدة مستويات: اجتماعية ومذهبية ولغوية، ومما يميز هذه التركيبة الثراء اللغوي البارز الذي يتكون من تنوع لساني عربي ومزابي (مزابي) يؤهلها لتكون نموذجا لتعاطي فنيات الحوار والتنمية والسّلام عكس ما يشيعه المرجفون من كون التنوع سببا في الفتن والقتال الاثنية والصراعات الجهوية فاستغل هؤلاء ولاية غرداية الآمنة لزرع بُور الفتنة العمياء التي انجرت عنها الأحداث الأليمة الأخيرة.

وعطفا على ما تقدّم سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نبرز دور التنوع اللغوي العربي والمزابي بولاية غرداية في إسهام ثقافة التعايش والحوار من خلال التبادل الثقافي والمعرفي على المستويين اللغوي والاجتماعي؛ وستحمل مداخلتنا المباحث التالية:

- نبذة تعريفية عن ولاية غرداية وتاريخها وحضارتها.
- إسهام اللغة العربية في التنوع الثقافي من خلال الموضوعات والمضامين المختلفة.
- إسهام اللغة المزابية في التنوع الثقافي من خلال الموضوعات والمضامين المختلفة.
- خاتمة وتوصيات.

1- نبذة تعريفية عن ولاية غرداية وتاريخها وحضارتها: تقع ولاية غرداية -المعروفة بهذا الاسم باللسان العربي المبين، أو تَاغَرْدَايْتُ باللسان الأمازيغي- في جنوب الجزائر، وتبعد عن العاصمة بـ600 كلم، يحدها من الناحية الشمالية ولاية الأغواط، ومن الناحية الجنوبية ولاية أدرار، ومن الناحية الشرقية ولاية ورقلة، ومن الناحية الغربية ولاية البيض، وقد كانت تابعة إداريا لولاية الأغواط قبل أن يتم اعتمادها رسميا سنة 1984م، ويبلغ عدد سكانها¹: 363598 نسمة في مساحة تتربع على 86105 كلم²، وتعتبر منطقة ثرية بتنوعها اللغوي: المازيغي والعربي والمذهبي: الإباضي والمالكي، والقَبلي المتمثل في وجود أعراش وقبائل من مختلف المناطق والنواحي، وتتميز بإشعاعها الفكري وطابعها السياحي والاقتصادي الذي استلهم أنظار الزائرين من مختلف الأقطار، كل هذه المعطيات التاريخية والمواصفات الحضارية أهلت المنطقة بأن تُصنّف كتراث وطني سنة 1971م وضمن ممتلكات التراث العالمي من طرف منظمة اليونسكو سنة 1982م².

وتُعرف كذلك ولاية غرداية بتسمية أخرى وهي: واد مزاب؛ حيث يتواجد الواد الكبير الذي يقطع قصورها السبعة وهي:

1- العطف أو "تَاجُنَيْت" باللسان المحلي؛ ويقصد بها المكان المنخفض تأسست سنة 402هـ/ 1012م.

2- غرداية: أو "تَاغَرْدَايْتُ" وهي الأرض الواقعة على حافة الوادي؛ وقد تأسست سنة 447هـ/ 1053م.

3- بنورة أو "آت بُنُور" تأسست سنة 457هـ/ 1065م؛ ونُسبت إلى الرجال الذين أسسوها وبنوها.

4- بني يزقن أو "آت إَجَنَن"، وسميت كذلك لأنَّ عدد سكانها يعدل نصف الساكنين في وادي مزاب آنذاك، وقد تأسست سنة 720هـ/ 1321م.

5- مليكة أو "آتْ مَلِيشَتْ" وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مليكش أحد زعماء قبيلة زناتة الأمازيغية، وقد تأسست سنة 756هـ/ 1355م.

6- القرارة أو "إقْرَارَنْ" وهي عبارة عن جبال بيضوية بجوارها سهول صغيرة يستقر فيها الماء، وقد تأسست سنة 1040هـ/ 1631م.

7- بريان أو "آتْ بَرْقَان" وتعني الخيمة المصنوعة من الوبر؛ وقد تأسست سنة 1060هـ/ 1690م، وتُعتبر آخر القصور والمدن المزابية نشأة³.

وهذه القصور موجودة إلى يومنا هذا شاهدة على تاريخ المنطقة عبّر القرون وسميت بالقصور لأنها مبنية على شكل مُحَصَّن بأسوار تحيط بكل المدينة، وبها أبواب مختلفة، وتغلق في أوقات معلومة وتفتح في أوقات معلومة كذلك، ولها أمناء يحرسون على حمايتها ونظامها من مختلف طبقات الناس، وقد كان المزابيون قديما مستوطنين في حافة الوادي لأجل قربهم من الآبار ومواطن المياه؛ ولكن الاعتداءات المتكررة والغارات المتواصلة جعلتهم يتمسكون بنظام القصور؛ حيث تُبنى في الجبال لأجل الابتعاد من مواطن الإغارة والخطر، وقد اندثرت قصور كثيرة جراء تلك الاعتداءات التاريخية، وبقي لها آثار إلى اليوم مثل: أَعْرَمُ تَنْلَزُصِيَتْ، أَوْلَوَالُ، أَعْرَمُ نَوْدَاي... إلخ⁴.

أما كلمة مُزَاب؛ فإنها تنسب إلى بني مُصعب؛ وهو الاسم القديم الذي أطلقه كُتَّاب السير على قبيلة بني مزاب الزناتية، وهي النسبة التي اعتمدها المؤرخون والشيوخ المزابيون أنفسهم، وأثبتوها في تراثهم المدون وحفظته الأجيال فيما تتناقله عبر الألسنة، ويذهب العلامة ابن خلدون إلى هذا الرأي؛ فيرى أن أصل مُزَاب هو مُصَاب؛ على أن يُنطق حرف الصاد زايًا مفخمًا، ويُعرَّف بنسبهم فيرى أنه يجتمع مع تُوْجِين وزَرْدَال وبني عَبْد الوَاد في بادين بن محمد، ويجتمع هؤلاء مع بني راشد في محمد، ويرتفع نسبهم جميعًا إلى زحيك بن واسين بن ورشيك بن جانا، وكانوا معروفين بين زناتة الأولى ببني واسين؛ والأشهر في الاستعمال هو كلمة مُزَاب بضم

الميم وتخييم الزاي؛ وهي كلمة منقلبة عن مُصَاب المتحوّل من مُصَعَّب⁵، وسبب هذا التغيير في الاسم يرجع إلى طريقة نُطق المزابين لحرف الصاد المفخم الذي يُحوّل إلى حرف زاي مفخم مثل: الصَّلَاة تُنطَق "تَزَالِيَت"، الصَّوم "أزُومي"، القَصَّة "تَزِيوَا"... إلخ

وأسهم سكان وادي مزاب بشكل لافت في الحركة العلمية والثقافية والفكرية بمنطقتهم؛ حيث حافظوا على اللغة العربية الفصيحة كتابةً وأداءً ونطقاً وإنشاداً وغناءً، وهذا يُحيلنا إلى أن السياسة اللغوية المتعلقة بالعربية والمازيغية كانت متناسقة من أربابهما سواء العربي أو المازيغي قبل أن تتدخل السياسة المقبّنة وتوظف التنوع الاثنائي للصراع الطائفي؛ والإنسان المزابي أمازيغي اللسان والمنشأ؛ لكنّ هذا الانتماء لم يمنعه في الحفاظ على اللغة العربية ونشرها؛ لكونها لغة القرآن الكريم ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وبهذا الاعتبار لا تبدو اللغة العربية حقيرة أو مهانة بالنسبة للأمازيغ أو البربر⁶.

2- إسهام اللغة العربية في التنوع الثقافي من خلال الموضوعات

والمضامين المختلفة: تعد اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي التي اصطفها الله تعالى لتحمل رسالة الدين وتبلغه في كل صقع وربع؛ وقد وردت في القرآن الكريم عدّة آيات تدلّ على مكانتها التي بوأها الله لها لنشر دينه تبشيراً وتنذيراً للعالمين، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾⁷ وقوله كذلك: ﴿حَمَّ تَنْزِيلٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾⁸.

وقد أقرّ القرآن الكريم على لسان اللغة العربية التنوع والاختلاف في مختلف مجال الحياة، وجعله من باب التعارف لا التعارك والصراع، فقال عزّ من قائل: ﴿يَا

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ⁹ وَقَالَ كَذَلِكَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ¹⁰؛ ومع كل هذا فإنَّ التنوع الذي يؤدي إلى الشقاق والصراع منبوذ وممنوع مهما كان مصدره؛ لأنه سيؤدي إلى تمزيق شتات الأمة الواحدة وتفريقها إربا إربا، ونجد نهي الله عز وجل في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ¹¹ .

وقد اهتم سكان الجنوب الجزائري الكبير عامة باللغة العربية - رغم كون جلهم مازيغيين - وهذا الانتماء لم يمنهم من التخلي عن مبادئهم الأصيلة ولغتهم الأم، بل زاد من قيمتهم ورفع من شأنهم؛ لكونهم يُسهمون في الحفاظ على التنوع الثقافي الجزائري، ومن هذا الاهتمام نلمس عناية سكان وادي مزاب بها؛ من خلال نظم الشعر وفنونه، والغوص في أعماق النثر وأشكاله؛ 'فالشعر يجعلك تتخيل أنك في سوق عكاظ، والنثر يُذكرك بعهد الجاحظ والمبرد وأبي علي الفالي، ولو بحثنا عن سوق نافقة للأدب العربي في الجزائر المعاصرة لوجدناها في مزاب، فالقوم لا يزالون على عهدهم بالشعر الجميل والنثر الجزيل، يُحسّون بوقع الكلمات وموسيقى النبرات وجلال المقاطع، لقد جعلت منهم الصحراء الصافية، والمعاهد العلمية التي تخرجوا منها وحافظوا عليها بالنواجز؛ جعلت منهم بحق بلابل الأدب العربي في الجزائر ينشدونه عن حب وسليقة، ويكتبونه عن رغبة وصدق، ويحفظونه عن فخر واعتزاز¹² ومن خلال هذه الشهادة الصادقة سنبرز اهتمام بعض شعراء وادي مزاب باللغة العربية، ودورهم في إبراز التنوع الثقافي.

أ- الأمين أحمد بن يحيى: (و: 1969م - ت: 2009م): يشيد الأمين بالتنوع الثقافي الذي ترخر به الجزائر في تاريخها وتنوع لغاتها، واختلاف عاداتها وتقاليدها

ويراها جديرة باللقاء وليس بالفراق أو الصِّراع؛ فيبرز أشكال ذلك التنوع في القصيدة التي بين أيدينا قائلا:

عِنْدَ الْجَزَائِرِ يَلْتَقِي الْأَحْبَابُ
وَعَلَى هَوَاهَا تَفْتَحُ الْأَبْوَابُ
هِيَ قِبْلَةٌ عَرَبِيَّةٌ تَرْتُو لَهَا
كُلُّ الْعُيُونِ فَيَنْتَشِي الْإِعْجَابُ
هِيَ جَنَّةٌ حَوَتْ الْجَمَالَ وَسِرَّهُ
سِحْرُ الْمَقَاتِنِ فِي الْفُؤَادِ يُذَابُ
انْزِلْ بِهَا تَرَكُلْ شَبْرٍ نَاطِقًا
تَارِيخُهُ لِلْسَّائِلِينَ جَوَابُ
مِنْ غَابِرِ الْأَرْمَانِ يُسْهِمُ شَعْبُهَا
نَحْوُ الْعُلَامَاهَا اعْتَرَتْهُ صِعَابُ
شَعْبٌ يُضْحِي لَا يُيَالِي ثَائِرًا
أَنْ يَسْتَمِيتَ وَلَا يَهْمُ حِسَابُ
مَجْدُ (الْأَمَازِغِ) الْأُكْبَى دَانَتْ لَهُمْ
آيُ الْفَخَّارِ فَأَرَخَتْ أَحْقَابُ
وَتَحَرَّرَ الْأَفْئِدُ ذَاذُ الْإِنْسَانِ إِذْ
مَزَجَ الدِّمَا فَنَمَّى زِيَّ الْإِنْجَابِ
(تَاهَرْتُ) أَوْ (مَزَعَنَّةً) وَ (بَجَائِةً)
وَكَذَا (تِلْمَسَانِ) لَهَا أَقْطَابُ

وَالثَّوْرَةُ الْكُبْرَى (نُقْمَبَر) جِنْدُوةٌ

بِالْحُبِّ ذَوَّبَتْ الْجَمِيعَ فَذَابُوا

فَتَشَكَّلَتْ وَطَنًا وَكَاتَتْ وَحْدَةً

هَيْهَاتَ أَنْ يَغْتَالَهَا الْإِرْهَابُ¹³

يشير الأمين في هذه الأبيات إلى تنوع الأماكن والأحداث والأزمنة المختلفة التي أسهمت في بناء الجزائر، وكانت سببا في بقائها صامدة أمام كيد الأعداء؛ فقد ذكر فيها الأمازيغ والعرب وهما اللذان يُشكِّلان اللحمة الأساسية داخل الوطن الجزائري ويمثلان قوته وبنائه عبر التاريخ، وقد جمع بينهم الإسلام فذابوا في بوتقة واحدة ويذكر الأمين في هذه القصيدة كذلك تعاقب الدول المختلفة في أرض الجزائر، وتنوع مشاربها ومذاهبها وقبائلها وحضائرها العلمية والثقافية، وتتجلى في:

تَاهَرَتْ: معقل الدولة الرستمية، وهي أول دولة إسلامية بالغرب الجزائري (تبارت حاليا).

- بَجَايَة: كانت تُسمى في القديم "النَّاصِرِيَّة"؛ أسَّسَهَا الناصر بن علناس بن حماد بن زيري سليل الدولة الحمادية.

- تِلْمَسَان: وهي مدينة تاريخية عريقة تعاقب عليها الرومان والوندال، والدُّول الإسلامية كالأدارسة والموحدين والمرينيين والحماديين؛ وفيها الكثير من الآثار والشواهد الدالة على تعاقب تلك الدُّول.

- مَرْغَنَة: قبيلة تعود إلى الصنهاجيين المؤسسين للجزائر قديما.

- نُوفَمَبَر: رمز تاريخي لاندلاع الثورة التحريرية المباركة في الفاتح من نوفمبر 1954م؛ وبفضلها تخلص الجزائريون من الاستعمار الفرنسي الذي جثم على صدورهم قرنا ونصف قرن من الزمن.

- الإرهاب: وتمثل حقبة تاريخية سوداء مظلمة عاشها الشعب الجزائري في تسعينات القرن الماضي، انتهت بالوئام المدني والمصالحة الوطنية.

ب- خرازي مسعود بن بلحاج: (و:1960م): دعا هذا الشاعر في ديوانه الموسوم "متى الصبح يا وطني" إلى تلافي الاختلاف والدعوة إلى وحدة الأمة الجزائرية رغم تنوع أعراقها، لكن كل هذا لا يمنع من العمل سويا يدا بيد من أجل بناء الجزائر، وقد انطلق الشاعر من المحنة الوطنية وسنوات الدم والقتل التي شنتها الشعب الجزائري لأسباب سياسية مقبلة جرعت مرارة الحسرة والأسى، وعاش سنوات عجافا لا يعرف طعم الأمن والسلام؛ فأعطى الشاعر مسعود خرازي حلاً مثاليا في حل كل الأزمات التي تعصف بالجزائر قائلا:

نَشَانَا نَحِبُ الْجَزَائِرَ دِينَا	نَرُدُّ بِهِ بِأَمْنَى كُلِّ غَائِرٍ
إِذَا فَرَقْنَا السَّيَاسَةَ يَوْمًا	فَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَ الْجَزَائِرَ ¹⁴
وَلَيْسَ يُعِيدُ اخْضِرَارَ بِلَادِي	سِوَى أَنْ نُوحِدَ فِيهَا الْمَشَاعِرَ
وَنُخْلِصَ لِلَّهِ صُنْعًا وَنَصْفُو	فَمَنْ غَيْرُ رَبِّي يَزِيحُ الدِّيَاجِرَ ¹⁵

ودعا كذلك إلى احترام القناعات، وعدم التعصّب للأفكار والخلفيات؛ بل يجب الحوار والذي من شأنه أن يفهم كل واحد محاوره بالتّي هي أحسن، وهو ما يضمن التّباعّد من الشّحناء والبغضاء والعداوة التي تُبعد المجتمع عن العيش الآمن، وترمي به في دوامة الشّقاق والصّرّاع، وصولاً إلى نتيجة لا تحمد عقباها؛ يقول في قصيدة بعنوان "شجاعة":

إِنِّي لَأَعْمَلُ مَا بِيُسْنَعِي
أَنْ أَسْمَعَكَ
وَأَظِلُّ مُجْتَهِدًا
لِيَكِي لَا أُنْزِرَكَ
هَيَّا تَشْجَعُ
أَنْ تُبَدِّدَ غَيْرِمَتَكَ
فَالِدَيْنِ عَالِمَنَا
- وَإِنْ نَحْنُ اخْتَلَفْنَا -
أَنْ أَخْفَظَكَ
وَأَصُونُ عِرْضَكَ جَاهِدًا
أَنْ أَفْهَمَكَ
وَتَرَى يَدِي مَمْدُودَةً
تَرْجُو وَيَدَكَ
هَيَّا تَشْجَعُ
لَا تُحَاوِلْ
أَنْ تَرَى الدُّنْيَا فِقْطًا مِنْ
فِرْعَوْنِكَ
فَأَنَا وَأَنْتَ
بِحُبِّنَا
يَنْمُو الْوَطَنُ¹⁶

نلمس في هذه الأسطر الشعرية دعوة الشاعر إلى تجسيد ثقافة الحُب والاحترام المتبادل لأجل العيش في سلام داخل وطن يجمع أبناءه وإن اختلفوا في التصورات والقناعات، وتنوعت مشاربهم المذهبية والسياسية، إذ يجب عليهم ألا يمارسوا

الإقصاء والتهميش والإنكار؛ بل عليهم أن يشدوا الأيدي متآزرين متعاونين لخدمة الوطن، ويدعوا جميع خلافتهم جانبا.

ويشير الشاعر خرازي في موضع آخر من ديوانه إلى دور الثورة التحريرية الجزائرية في جمع شتات الناس رغم تنوعهم الجغرافي والثقافي واللغوي والمذهبي والإيديولوجي؛ فذابت كل الاختلافات في بوتقة المجتمع الجزائري المتحد ضد الغزو الاستعماري الفرنسي لأرض الجزائر الطاهرة، يقول:

فِي الْبَدْءِ عَلَّمَنِي الْأَوْرَاسُ مَا وَطَنِي	كَيْفَ الْحَيَاةُ بِمِلْحِ الْعِزِّ تُنْشِينَا
أَوْرَاسُنَا مُلْتَقَى لِلْمَجْدِ مِنْ أَزَلِ	مَنْ يَعِشُقُ الْمَجْدَ فَلْيَقْرَبْ ضَوَائِنَا
صَحْرَاؤُنَا أَمَلٌ أَحْيَا مَدَائِنُنَا	وَلَمْ تَزَلْ بِعَطَايَا تَغْذِينَا
مِيزَابُ فَارِسْهَا الْمِفْوَارُ حِينَ بِهَا	هُمْ الْغَزَاةُ لِتُقْصَى مِنْ مَغَاتِينَا
يَبْغِي الْجَزَائِرَ فِي الدُّنْيَا مُوَحَّدَةً	مَا أَضْيَعُ الْعُمْرَ إِنْ ضَاعَتْ صَحَارِينَا
وَفِي الْقَبَائِلِ سِحْرٌ صَاغَ ثَوْرَتَنَا	عِشْقًا يَجِيءُ مَعَ الْأَيَّامِ يَحْمِينَا
وَالْوَنْشَرِيسُ يُجَارِي الشُّوقَ مُمْتَشِقًا	نُورَ الْإِلَهِ فَكَانَ الْمَجْدُ حَادِينَا
وَهَرَانُ حَاضِنَةُ الْأَشْوَاقِ أَذْكَرُهَا	مَرَسَى الْكَبِيرُ بِهَا لَا زَالَ يُغْرِينَا
يُزْجِي الْمَحَبَّةَ لِلْأَبْطَالِ فِي شَغَفِ	فَأَبْدَعُوا لِلْوَرَى نَصْرًا وَتَمْكِينَا
سَتُشْرِقُ الشَّمْسُ إِنْ عُدْنَا لَوَحْدَتِنَا	مَا أَتَعَسَ الْعُمْرُ إِنْ طَالَتْ مَآسِينَا!
كُلُّ الْعَوَاصِفِ نُلْغِي فَصْلَ سَطَوِيهَا	إِنْ نَحْنُ عُدْنَا كَمَا كُنَّا مُحِبِّينَا ¹⁷

فقد ذكر الشاعر مناطق الجزائر التي احتضنت الثورة التحريرية وآزر أبناؤها بعضهم بعضا لدحر شوكة الاستعمار الفرنسي، وبقيت إلى اليوم أيقونة النضال والمقاومة، وتتجلى تلك المناطق في: (الأوراس، الصحراء، مزاب، الجزائر، القبائل الونشريس، وهران).

ت- دواق سليمان بن عمر: يعتبر هذا الشاعر كثير الإسهاب الشعري بقصائد كثيرة، ودواوين تولد بين الفينة والأخرى، وتحمل أغلب موضوعاته حب الوطن الجزائري والانتماء إليه، واحترام تنوعه الثقافي والايديولوجي، والتحذير من أصحاب الفتن والأقلام السوداء الذين يريدون بالجزائر شرًا في استقرارها وأمنها يقول سليمان دواق في معرض حديثه عن تجنب الصراع والخلاف:

وَيَحْزُ فِي قَلْبِي أَرَاهَا ضَحِيَّةً	لِلْمَغْرُضِينَ فَرِيَسَةً تُسْتَهْدَفُ
يَحُلُّو لِبَعْضِ النَّازِلِينَ بِأَرْضِهَا	نَفَثَ السُّمُومِ فِي لُؤْمِهِمْ قَدْ أَسْرَفُوا
هُمْ يَعْمَلُونَ بِخِيسَةٍ لِقَطِيعَةٍ	بَيْنَ الْأَحْبَةِ كَيْ يَسُودُوا وَيُشْرِفُوا
لَكِنْ رَبِّي عَالِمٌ بِشُرُورِهِمْ	وَعَدَالَةُ الرَّحْمَنِ لَا تَخَلْفُ
لَا شَكَّ يَأْخُذُهُمْ وَلَا مَنَجَى لَهُمْ	أَخَذَ الْعَزِيزُ بِشِدَّةٍ لَا يَعْطِفُ
يَا أَهْلَ مَوْطِنِنَا الْحَبِيبِ تَضَامَنُوا	وَتَعَاوَنُوا بِنِزَاهَةٍ وَتَأَلَّفُوا
لَا تَسْتَجِيبُوا لِلَّذِي يَدْعُوكُمْ	لِعِدَاوَةٍ مِنْ أَجْلِهَا قَدْ يُرْجَفُوا
إِنْ مَا أَرَدْتُمْ فِي الْحَيَاةِ سَعَادَةً	فَعَلَى هَذَاكُمْ أَمْرُهَا يَتَوَقَّفُ ¹⁸

يرى الشاعر سليمان دواق أنَّ المغرضين والفاستدين يستغلون تنوع الشعب الجزائري واختلافه في الرؤية الفردية والمنهج الفكري لاختلاق الفتن وزرع بُور الصراع بين الأحبة، ويدعو الجميع إلى لَمَّ الشَّمْل والتعاون والتضامن، واعتبار الجزائر قبل كل شيء؛ وعليه فالسعادة متوقفة على ترك العداوات وسفاسف الأمور جانباً من أجل بناء لحمية وطنية واحدة، وإن لم يفعل المجتمع ذلك فإنهم سيتركون وطنهم الآمن فريسة مستساغة في أيدي الأعداء المتربصين بالوطن كل شر وحقد.

ويتحدث دواق عن دور وسائل الإعلام في تمزيق لحمية الأمة والوطن بنش التاريخ المظلم والاشتغال بمواضيع الفتنة المقيتة التي تنذر بمصير مشؤوم؛ والفتنة أشد من الحرب وأعظم وأنكى! هذا إن رأينا الصحافة بمنظورها السلبي الذي تقوم به

بعض الوسائل الإعلامية من صحف ومجلات وقنوات وشبكات عنكبوية... ونستثني منهم النزهاء الذين يعملون لرفع راية الوطن الجزائري عاليا بالمحافظة على كيانه ووحدته ترابه، وفي هذا الصدد يقول سليمان دواق:

وَأَيْنَ الْحَقُّ وَالْقَوْلُ النَّجِيبُ؟	فَأَيْنَ النَّصْحُ لِلْوَطَنِ الْمُفْدَى؟
مَعَاوِلَ فِتْنَةٍ ظُلُمًا تُصِيبُ	أَيَا آلَ الصَّحَافَةِ لَا تَكُونُوا
وَشَبَّتْ مِنْ نَذَالَتِهَا الْحُرُوبُ	فَتَبًّا لِلصَّحَافَةِ إِنْ تَرَدَّتْ
وَنَابَى أَنْ يَكُونَ بِهَا مَعِيبُ	نُرِيدُ مِنَ الصَّحَافَةِ كُلَّ خَيْرٍ
حَرَامٌ رُشْدُهَا يَوْمًا يَغِيبُ	فَمَا خُلِقَتْ لِغَيْرِ الْحَقِّ أَصْلًا
فَلَنْ يَبْقَى لَنَا إِلَّا النَّحِيبُ	إِذَا حَرِمَتْ صَحَافَتُنَا ضَمِيرًا
وَقَاتِلُهُ بَنُوهُ وَذَا عَجِيبُ ¹⁹	لَأَنَّ الْوَطَنَ قَدْ أَضْحَى قَتِيلًا

فالشاعر يؤكد هنا بالحاح على حضور الضمير المهني في العمل الصحفي وتوظيفه لإحقاق الحق ونشر الخير والفضيلة، وأهم من ذلك كله الحفاظ على الجزائر آمنة مطمئنة.

وقد نظم الشاعر سليمان دواق عدة دواوين شعرية تتحدث عن استغلال التنوع الثقافي والجغرافي والمذهبي مطية لزرع بذور الفتنة العمياء، وبنى حديثه هذا على الأحداث الأليمة التي عصفت بولاية غرداية بين سنتي 2013م و2015م؛ وفي هذا الصدد يقول:

زَابَ مِنْ هَوْلٍ شَدِيدٍ	مَا جَرَى فِي وَادِي مَ—
غَضَ لِشَيْطَانٍ مَرِيدٍ	هُوَ نَفَخَ فِي عُقُولِ الْبَ—
حَسْبُنَا اللَّهُ الْوَاحِيدُ	أَضْرَمَ النَّارَ بِحِقْ—
لَيْسَ مِنْهَا مُسْتَفِيدُ	إِنَّهَا الْفِتْنَةُ شَرُّ—
هَ وَالْوَطَنِ الْمَجِيدُ	غَيْرُ أَعْدَاءِ لِدِينِ اللّٰه—
مُذْهِلٌ فَوْقَ الْخَيَالِ	مَا سَمِعْتُ الْيَوْمَ حَقًّا

إِخْوَةٌ صَارُوا خُصُومًا فِي صِرَاعٍ وَاقَتْ تَتَالُفُ
أَيْنَ مِنَّا مَنْ يُزِيلُ الصَّدْعَ يَسْعَى لِلْوِصَالِ؟
إِنْ تَقَاعَسْنَا لَعْمَرِي عَمَّ فِي الْوَطَنِ الْوَيْالُ²⁰

يستغرب الشاعر من استغلال الوضع لإشعال الفتنة التي فرقت مجتمعا وزرعت صراعات دموية يقف عند حجم خسائرها الحليم حيرانا، وكل هذا بسبب توظيف التنوع وسيلة للفرقة والتفرقة حيث إن "فتنة مزاب أسالت الكثير من الحبر، وتناولتها بإسهاب أقلام متعددة المشارب ومختلفة المراتب؛ أعطاهم البعض صبغة دينية وعرقية، والبعض الآخر عزاها إلى أسباب اقتصادية واجتماعية كما نسبها آخرون إلى أياد أجنبية، وغيرهم رأوها نتيجة أهداف سياسية محلية مبيتة، لعل كل هذه الطروحات واردة من قريب أو بعيد، أمّا الذي لا شك فيه، فهو أن الذين خطّطوا لهذه الفتنة اختاروا لها التربة الملائمة بحكم تشكيلتها الاجتماعية القابلة للاشتعال أملين أن يمتد لهيبها إلى سائر ربوع الوطن، لكنّ الله سلّم وأراد الخير للجزائر فلم يكتب لهذه الفتنة الشيطانية أن تنتشر"²¹

3- إسهام اللغة المازيغية في التنوع الثقافي من خلال الموضوعات والمضامين المختلفة: أشار القرآن الكريم إلى اختلاف الألسن واللغات الناطقة واعتبرها آية من آيات الله عز وجل الفريدة من نوعها في الخلق؛ بل قرّن عظمة الاختلاف اللغوي والتنوع اللهجي بعظمة خلق السماوات والأرضين فقال عزّ من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾²². والمازيغية جزء لا يتجزأ من تلك اللغات الفريدة التي تقوم بأداء دور ريادي من خلال نشر القيم والرسائل المعبرة التي تتجلى في موضوعاتها ومضامينها المختلفة.

وتعتبر اللغة المزابية جزءا لا يتجزأ من المازيغية أو البربرية؛ وهي اللغة الأصلية لسكان وادي مزاب؛ ولا شك أن هذا الانتماء "سيُسهم في التوجيه والتربية

انطلاقاً من تجربة ميدانية بسيطة وعبقريّة عالمية؛ باستعمال عبارات وجيزة لها مدلولها ووقعها في النفوس²³ ذلك لأنها لغة التخاطب اليومي؛ إذ تكون أقرب للتأثير والتأثر، وبطبيعة الحال؛ فإن الموضوعات التي ستنتج من خلالها ستكون صمّام أمان لإبراز التنوع الثقافي واللغوي؛ اللذين يتجلّيان في الموضوعات المعبرة عن قيم السلم والتسامح والتضامن والتآخي وكل ما من شأنه أن يقضي على إرهابات الفتن العمياء ما ظهر منها وما بطن.

وسنبرز -هنا- دور الشعراء المزابيين الذين كتبوا باللغة المازيغية قصائدهم التي نحت هذا المنحى واتجهت نحو هذا السبيل القويم.

أ- عبد الوهاب بن حمّو فخّار (و: 1951م)

يقول في قصيدة بعنوان: "دزّاير تلاً أنغ" أي (الجزائر ملكنا):

نُوفَمْبَرُ لَوْجُهُ يَشْرُفُ يَسْتَشْرِفُ	دِييُضَانُ إِفْنُ دَزَايْرِقْ أَعُ تَنْتَرُ
إُورِيرَنْ لُورَاسْ زَقْأَنْ بَرَكَاتْ	أَجْنًا لَقَبَايِلْ زَقْأَنْ بَرَكَاتْ
أَمَّاسْ وَادْ مَزَابْ زَقْأَنْ بَرَكَاتْ	أَدَايْ لَسَحَارِي زَقْأَنْ بَرَكَاتْ
سَ شَرْقْ لَلْغَرْبْ زَقْأَنْ بَرَكَاتْ	بَرَكَاتْ بَرَكَاتْ بَرَكَاتْ
رَبُّ أُولَنْسَنْ قُاعَنْسَنْ غَارَنْ	وِي بَدَنْ أَبْرِيْدُ أَدْنُولْ دَارَنْ
وُونِي أَدُونَّاتْ دَانِي أَدْنَاتْ	أَنْبَدُ أَرْجَازْ إِفْنُ أَوَالْ إِفْنُ نَنَّاتْ
نَشْنَيْنْ دَلْحَبَاتْ أَمَّاسْ وَرْمُونْ	تَلْمِيْتْ تَطْفَاتْغُ تَلْمِيْتْ دَزَايِرْ ²⁴

ينوه الشاعر في هذه الأبيات على أهمية التنوع الجغرافي واللغوي والثقافي للشعب الجزائري الذي وظّفه إيجاباً لنصرة قضيته الوطنية وهي قضية الثورة التحريرية المضفرة التي جمعت شتاتهم، وكان نوفمبر واسطة العقد؛ حيث اتحد أبناء الأوراس في الشرق مع أبناء القبائل في الشمال، وأبناء مزاب في أعماق الصحراء والتحتت الجزائر كلها بشرقها وغربها وشمالها وجنوبها معلنة النفير والجهاد ضد فرنسا الظالمة، واتحد هؤلاء على كلمة واحدة وهي كلمة التوحيد التي جمعتهم في لحمة موحدة، ووصف الشاعر هذه اللحمة بحبة الرُّمَّان التي تجمع داخلها حبّات

عديدة مختلفة في شكلها ونوعها، وتلك الحَبَّات تُمثل الشَّعب الجزائري باختلافه الثقافي والجغرافي والإيديولوجي واللغوي، والجامع لتلك الحَبَّات هي قشرة الرُّمان وقشرة الرمان للشَّعب هي الجزائر التي وُحِّدَتْهم وجمعت كيانهمْ وقوَّت أواصرهم. وفي سياق آخر يُقدِّم الشَّاعر عبد الوهاب فخَّار مثالا عن التنوُّع اللغوي بالجزائر المتمثل في ثنائية اللغة العربية والمازيغية على اختلافها اللهجي، والتنوُّع المذهبي الإباضي والمالكي، ولكن لا ينبغي أن تُتخذ هذه التفرعات اللغوية والمذهبية ذريعة للصراع بل هي وسيلة للِّم الشَّمْل والوحدة تحت ظلال الوطن الجزائري الكبير والدين الإسلامي الواحد، يقول في هذا الصَّدَد:

وَعَايَ خَسَنَ أُمُو
أَسَزْلَغَ إِغَالَنِي ك
سُ غَجَّارِيكَ أَدِيَشْ
رَبِّي غَسَّاسُ أَمَنَسْ!
"جَابَر" أَد "مَالَك"
"أَمَازِيغ" أَد "وَعَرَاب"
تَامَمْتُ أَي تَزَعَمُ
سَغ تَّاف تُّوس!
آت دَان دَات دِنَّات
خَسَغَتْن قَاع نَسَن
س دَجَرُون دِلْسَلَامْ
"لَسْنَلَام" دَطُّبَس
أَتَمَّ زَاب س تِّيْلِي
تَشْنَل نَّغ أَتُون
ف تُمُورْتَنْ لَسْلَامْ
أَنْ كُوس د كُوس²⁵

معنى هذه الأبيات أن الذي يحب الإنسان الجزائري يُحبُّه بتنوعه العربي والمازيغي، وقد شبههما بالعسل المصفى والسمن الصافي؛ حيث يقدِّمان خليطين في وجبة واحدة؛ ليكون الطعم لذيذاً والمذاق حلواً والشهية طيبة، وأشار الشاعر عبد الوهاب فخار كذلك إلى الانتماء المذهبي الجزائري، إذ هناك من يعتمد مرجعية الإمام جابر بن زيد الأزدي صاحب المذهب الإباضي، وهناك من يعتمد مرجعية الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي، وإن لم يكن كذلك فإنهم ينتمون كلهم إلى دين الإسلام الذي شبهه بطبق الطعام "الطَّبْس" يجمع أشهى المأكولات وألذها بأشكال مختلفة وألوان متباينة يُفضِّل بعضها على بعض في الأكل إلا أنها تُسقى من ماء واحد؛ وهذا دليل واضح على تنوع المذاهب وتعدُّد المشارب واختلافها شكلاً، واتفاقها مضموناً، كما أكد الشاعر على أهمية الحفاظ على أرض الوطن "تمورت" التي تضم أبنائها بين جنباتها؛ وقد شبههم بالطائر الذي يضم فراخه في عُشٍّ آمن يحميهم من مخالب النُور وأنياب الأسود والضباع.

ويشدّد الشاعر عبد الوهاب فخار على الحذر من الوقوع في مخططات الأعداء الذين يتربصون بالجزائر شراً مستغلين التنوع والاختلاف في المبادئ والمنطلقات والآليات سبباً لزرع بذور الفتن والصراعات؛ لأنّ هؤلاء الأعداء لا يرتاح لهم بال حتى يمزقوا لحمه الأمانة إرباً إرباً كما قال في هذه الأبيات:

خَسَنُ أَتِيلِ دِفْرَاشْ تَمُرْتُو	لَمَدَن جَرَانْغِ أَرْزَرْدُ وَسَغَا
سَ دَوْتَنُ إِدَارَنُ تَبَجَنُ أَتِيَنَزْ	أَلَمْ سَغْدِيخْ أَيْزَهْلُ أَوْنِغَا
تَدَارَتْ آيْ تَشْتَمُ أَتَوَاتْ تَمُرْتُو	سَغْ أَتَافْدُ جَاجَسْ وَسِ يَسْمَنِغَا
خَسَنُ أَغْنُ رُقْبَنُ أَتَوَاتْ نَتُوزُونُ	أَكْرَشُوشْ دِ فُلْيَانْ أَيْزَهْلُ أَوْرَغَا ²⁶

يتحدّث الشاعر في هذه الأبيات عن سعي الأعداء لقيادة الناس واستعبادهم مثل الكباش في السوق يتنافس التجار في أسعار بيعها وشرائها وهي لا تعلم ما يكاد لها هذه هي الصورة الأليمة التي رسمها الشاعر للناس، والصورة الثانية أبلغ منها شكلاً وأعماق مضموناً؛ حيث شبّه المجتمع المتفكك الذي يسير وفق مخططات أعدائه

بالجمل الذي يُناخ فيبرك مستسلما لصاحبه وهنا يستطيع أن يذبحه ويقضي عليه فيسهل موته وفناؤه، كما يستنكر الشاعر تصدّع الدّار وقربها من الانحدار والسُّقوط والدّار تشبيهه للوطن؛ فكما تجمع الدّار العائلة والأبناء؛ فإن الوطن يجمع شتات أبنائه ويضم إليه شعبه، وعبر كذلك في هذه الأبيات عن حرص الأيادي الداخلية والخارجية بإشغال فتيل الفتن من أجل تطبيق القاعدة السياسية التالية (فرّق تسدّ) فيفرّقون الأمة إلى فرق متصارعة، ويمزقون شملها المتلاحم إلى أحزاب متصاربة وكل حزب بما لديهم فرحون؛ وقد شبّه هنا الأمّة بالنّخلة وتنوّع شعبها وأبنائها بالجدع الذي تتماسك بواسطته أطراف النّخلة وتبقى صامدة مدى الدّهر، أو تتفتت جذوعها فتكون آيلة للسقوط في أي وقت فتضر نفسها وتضر ما تسقط عليه من متاع أو عقار أو كبد رطبة...

ب- يوسف بن قاسم لعساكر (و: 1971م): يقول مُنشدا لأمه الجزائر التي يراها عروسة الأوطان، ومصدر التفاؤل والأمل الذي يبدو في شروق شمسها وجمال ليّليها وبياض أيامها:

دَزَايِرُ أَتَّسَلَتْ إِدْوَطَانُ سِ جَنْوَانُ	سُوبِهَانَمُ إِسْلَانُ نَ دُونِيَّتْ أَتْمَنْغَانُ
أَسَّيْجَمُ أَتْفَوِيَّتْ تَقَالُ تَمَلِّيسُ	أَتْلَمُ تَسْشُورَا وَسَّانُ دُ بِيضَانُ
أَشْمُ أَتَجْمِيْنَعُ غَفْمُ أَلَانُ أَتَالْسَنُ	أَت دَانِي دَات دِنَات أُولَا سِ مُودَانُ
أَشْمِي أَطْرَانْغُ أَشْيِي تُوكِيْنَعُ	أَشْمِي دَهَاتِيْنَعُ دُودَهَاتَنْتُ نَ يِيْمَانُ
تَسْلَمْدَدُ إِمْدَنُ أَصْشِي إِوْرْدَاغُ	سِ تَرْسَالُ نَ تَغْدِي دُسْرَسِي نَ يِيْمَانُ
أَسَّيْجَمُ إِمُوزَرَا دِدْبَابُ نَ تَنْزَارُ	دِنْنِي أَتُوعْنُ تَسُولْسَاتَمُ دِتْرَانُ ²⁷

يتحدّث الشاعر يوسف لعساكر عن الوحدة في ظلال الجزائر التي هي بستان الأمن والأمان والسّلم والسّلام الذي يجمع بين مختلف الناس من جميع بقاع العالم حيث يرون الجزائر حاضنة آمنة لمن وجدوا في بلادهم المآسي والحروب

والأزمات، هي الجزائر التي منحت لبنيتها الحب والعطاء والهناء واطمئنان النفس، فكانت نتيجة ذلك السعي لبناء الوطن وتشبيده وتطويره مواصلة على درب الشهداء الذين حرّروه من الظلام الدّامس، ومنحوه الاستقلال النّاصح الذي شبّه ببياض البدر في كبد السماء.

وفي قصيدة بعنوان "تَابِرَاتُ يِي يَدْبَابُ نْ وَرْكََا" (رسالة لأصحاب الذّل والاحتقار) يهمس الشّاعر يوسف لعساكر إلى هؤلاء في أذانهم قائلاً:

نَلَا نَتَهَاتَا دَ دَجِيضْ اذْوُقَّاسْ نَتَزَلَا
اَغْنِنْتَجَم بَاتَا غَرُومَ بَسِي نَ تَمَلَا
وَلْ نَلِي نَسُوذْجُومَ اسَّجُومَ دَايْ اَتَزُومِ
بَاتَا اذْجَايْ اَوْمَ اُزُوقَّغْ دَ مَزُوقْغْ يَتَسَلَا
وُولا تَرَكِيم-اَنَغْ تَدْجِيمْ دَجْنَغْ تَاشَتَمِي
اَجْتَانَعْ تُوغِيمْ تَانَمِيرْتْ أَيِي يَدْبَابُ نْ وَرْكََا²⁸

هذه الأبيات التي يوجهها الشّاعر للذين يقومون بإذلال النّاس وظلمهم واحتقارهم بأنّ النّاس المظلومين لهم أمل عريض ودعاء لا ينقطع لله ليلا ونهارا أن ينتقم من الظلمة الذين يزرعون في أوساط المجتمع الفتن والقلاقل لتفريق لحمتهم وكسر شوكتهم، ويوجه لهم رسالة إن كانت لهم آذان مصغية وأسماع واعية أن يتركوا المجتمع وشأنه يعيش في سلام ووثام، ولهم منهم الدعاء بالحفظ والبركة، أو العكس من ذلك؛ لأن دعوة المظلوم لا ترد.

وفي السياق ذاته يواصل الشاعر خطابه قائلاً:

هَامِي يُوعَرْفُ وَرَجَازُ الْيَرَضْ تَاشَتَمِي نَا؟
أَتِيغَنَاتِيْن؟ تَلِيْمْ تَوَادَجَمْ أَتَاغُلُولَا؟
بَاتَا تَسَاجِيْمْ إِيْنِيْنُو؟ إِنِّي بَاتَا تَسَاجِيْمْ؟
دَايْ تِيْشِيْبَاضْ نْ وَاضُو سُوْدَجَمْتَسْ نِي تَسُوْبَلَا
أَتَسَتْ غَفْنَعْ إِمْرُوْضَنْ نْ وَرَكَأْ نَوْمْ؟ تَقْلَمْ
مَآشْ غَادِيْسُوْضْ سْ وَرَكَأْ نَوْمْ اَضُوْ نْ تَلَلَا؟²⁹

ومدلول هذه الأبيات أنَّ الظلم سهل والفتنة نائمة سهل إيقاظها، لكنَّ الرجال الأحرار الذين لهم وعي ضمير وصحوة فكر وعمق إيمان لا يقبلون على ذلك لمجرد اختلاف لغوي أو عرقي أو مذهبي أو جغرافي؛ وإنَّ فعل هؤلاء المفتنون ذلك فسيعلمون أنَّ سعيهم بمثابة زق ممتلئ بهواء فارغ تأخذه الرياح ذات اليمين وذات الشمال، سرعان ما تمسّه إبرة حادة تقطع جلده وتمزق أشلاءه، وهذا هو سعي المفتنين المغرضين في تفريق الأمة الذي شبهه كذلك بريح عاتية تقتلع جذور ظلمهم للناس وقهرهم وإذلالهم.

ت- عمر بن سليمان بوسعدة (و: 1976م): يتحدث الشاعر عمر بوسعدة عن

النظر بعين ثاقبة إلى أيام الحياة قاتلا:

أَوْسَانُ نَ تَمُورُتُو الْإِنَّ أَوْسِينُ	أَوْسَيْنُ بَاتَا غَدَاوِينُ
وَالْ تَزَارُ لَتَشْتَمِي وَالْ تَجَاتُ	أَدِيمُونُ أَوْزُونُ دِفَالِيَانُ
مَنْشَتُ مِدْنُ أَمْنُغَنُ	أَوْسِنْدُ أَوْسَانُ دَوْلَنْدُ دِمْدُونُشَالُ
أَسْنُ أَيُوَا أَيُوَا أُولُ	أَمَلَلُ أَدِيَشُ أُولُ أَبَرْشَانُ
أُوجَامُ إِتْرَا فَتَمَشْرَاسُ	تِمَشْرَاسُ أَتَاسَنْتَدُ سَ شَحَانُ
أَجْدُسُ غَرْشُ أَتَافَدُ	تِيْفَاوَتُ أَقُودُ إِمُودَانُ ³⁰

ومدلول هذه الأبيات أنَّ الدنيا دائرة لا تستقر على حالة واحدة، وأيامها القادمة غيب لا يعلم النَّاسُ كنهه؛ ولذا عليهم ألا يستبقوا الأحداث بسوء الظن بينهم؛ لأنه يفكك العلاقات الحميمة ويحوّل الأصدقاء إلى أعداء، ولذلك فالشاعر يُحذّر من كيد الشيطان الذي يُفرّق بين الأحباء والأصدقاء ويُشّتت شعثهم، وينصح النَّاسَ المتخاصمين بالعودة إلى رُشدٍهم وزرع ثقافة المحبة والمودة والسلام بينهم، كما يدعو كلَّ إنسان بصيغة أخي (أَيُوَا أَيُوَا) مؤكّدة مرتين ليعي هذا النداء الداعي إلى تصفية القلوب وتنقيتها من أدرانها؛ لأنَّ القلب الأبيض -حسب رؤية الشاعر- يتغلب على القلب الأسود الممتلئ بالشحناء والبغضاء والحقد والكراهية؛ ولن يتمّ هذا إلا بالتّحلي بالصّبر العميق والحكمة في حل الأمور والتبصّر بالعواقب، وطلب العذر والعفو والصّفح والإحسان مع النَّاس جميعاً، وبهذه الصفات يتم التغلّب على جميع مشاكل النَّاس المستعصية حلّها، وتتفرض النزاعات وتذوب آثار الخصومات، ويجد النَّاس نور المحبة والسّلام والعيش الكريم في دنياهم وأخراهم.

يَلِّهُ أَيُّوَا أَزْدِي جَارُ أُولَوْنَ
أَتَاتُ أَيُّيَ ارْوَانُ تَحْبَرَمُ قَاعُ غَلْدَسَاتُ
أَيُّبَهَا تَوَاتُ مِي جَرُونُ دُرُ إِقْنُ
نَسْنُ قَاعُ أَهَاتِي أُولِ سَجُورِي تَاسِيرَتُ
أَتَمَرُ يَوْشُ أَغْنِيَهَذَا إِجْرَوَانْغُ
أَجْرَوَانْغُ يَلَّا أَتَيْتِي إِيُوشَشَاضُ
أَنْغُ تَغِيلَمُ إِمَارُ يَطْسُ تَسَنْبَازُ
أُولُ تَيْفَدُ دَيْسَنُ أَشْ إِقْنُ سُوْجَمَازُ
تَاضَفِي أَتَنَافُ سَ نِيلِي قَاعْغُ نَرَّازُ
فَ وَيُولُ إِقْنُ أُونُ تِيَوْضُ غَلُ وَجَمَازُ³¹

ويدعو الشاعر عمر بوسعدة الناس إلى تألف القلوب قائلا:

يعلل الشاعر - من خلال أبياته- أن تألف القلوب واجتماعها تعطي ضربة قاصمة للأعداء الذين يريدون عكس ذلك، والحل الأمثل لتلاقي القلوب هو نسيان الماضي جريا على القاعدة الإلهية "عفا الله عما سلف" والنظر إلى المستقبل بوعي عميق وأمل عريض وفكر دقيق، لأن آفات الزمن وعواقبه لا يأمنها الناس إن كانوا متفرقين مختلفين؛ لكنهم إن كانوا في قالب واحد لن يجد أيُّ عدو مفتن مكانا بينهم ليصدع بناءهم أو يقوض أركانه، ويشبه الشاعر بوسعدة قوة الناس -في وحدتهم التي يجنون منها فوائد جمة- بالرحى المتماسكة في حجارتها وثقالها؛ ومن ثم تكون الفائدة عظيمة حيث يكون الناتج قمحا أو شعيرا وليس حصى مفتتا ناتجا عن تدهور الرحى وتلاشيها، ويختتم الشاعر أبياته بالدعاء لله عز وجل بالهداية إلى وحدة الصف والكلمة؛ حيث تمنعان الناس من الضلال في الفرقة والصراع، وتجمعهما في ظلال الألفة والسلام والمحبة الصادقة.

ويلتجأ الشاعر عمر بوسعدة إلى ربه ضارعا قائلا:

مَا غَنَتْخَسَدُ أَيُّوشُ أُونْتَقَلَّ غَلُ مِدَّنْ
تَيِدَتُ تَلَّا غَرْنَشُ أَوْحَدِي نَغُ دَوَاشُ فُدْنُ
أَجَّانَغُ أَيَّا جَلِيدُ جَارُ مِدَّنْ دِنَارَنْ
مِي دَلْقَانُ إِدُوطَانُ أَنْشِينُ دِسْفَارَنْ
بَتُ دِنِينُ أَسْيُولَنْ أَنْغُ أَسْغَدَنْ
مَانَا أَنِيلِي أَغْنُ فُدَنْ إِشْشَازَنْ
مَانِي دَيْسُ تَوَحْدِيَتْ نَشْنِينُ غُ أَذَرَّارَنْ
أَنَرُ جَارُ تَوَّتُ نَغُ نِيلِيَتْ دِوَارَنْ³²

فحبة الله تتعكس في قلوب عباده بالموّدة والألفة والسّلام وكل ما من شأنه أن يجعلهم أقوياء أمام أعدائهم؛ ولن يتم ذلك إلا إذا خاف الناس ربهم واتبعوا صراطه المستقيم؛ فبذلك ترتد فرائص الأعداء ويرون أن قوة مناوئتهم لا يستطيعون ردها لأنهم بمثابة الأسود الأقوياء تكتلاً وتجمّعا لا يقوى عليهم أحد، ويضيف الشّاعر أنّ تلاحم النّاس وتكتّلهم يعدّ بمثابة المناعة القاضية على الأمراض المستعصية التي تتخر جسد المجتمع وتهدّ كيانه.

خاتمة: يعتبر التنوع اللغوي مؤشرا فعّالا في نشر ثقافة السّلم والحوار والاحترام المتبادل بين جميع الأطراف؛ لأنّ اللغة تمثلا مشتركا إنسانيا جماعيا لجميع الأفراد والجماعات؛ وبفضلها يتم التواصل على المستوى المحلي أو الوطني أو الإقليمي أو العالمي؛ وإنّ التنوّع الثقافي ليدل على الثراء الفكري واللساني والاجتماعي في أيّة أمة أو مجتمع؛ وبالتالي فإنّه من السذاجة والغباوة أن توظّف الثنائيات اللغوية والاختلافات اللهجية لخلق بؤر الصّراع والشّقاق في أي مكان من أصقاع العالم.

وقد قدّمنا في ورقتنا البحثية نموذجا واقعيّا حيّا للتنوع اللغوي بولاية غرداية بالجنوب الجزائري؛ حيث تفنخر بلغتيها العربية والمزيغية اللتين تعتبران صمّام أمان للمجتمع الجزائري عموما لأنهما تحملان القيم المختلفة والمضامين المعبرة فضلا عن كونهما تعكسان سيادة المجتمع الجزائري ومبادئه وثوابته الرصينة التي تضمن له البقاء والاستقرار والأمن في كنف السّلام والتّسامح والتقبّل.

وقد أسهم الشعراء: الأمين أحمد بن يحيى، وسليمان بن عمر دواق، ومسعود بن بلحاج خرازي في خدمة التنوع الثقافي الجزائري بقصائدهم المكتوبة بلغة عربية فصيحة، وتحمل في مضمونها قيم التّسامح والمحبة والوفاء لمجتمعهم ولأمتهم ووطنهم؛ ونجد هذا النّسق عند شعراء المازيغية: عبد الوهاب بن حمو فخار ويوسف بن قاسم لعساكر، وعمر بن سليمان بوسعدة الذين عبّروا عن بنات أفكارهم بلسان مازيغي مزابي يعكس انتماءهم المحلي وتموقعهم الجغرافي الجزائري؛ إذ وظفوا

المازيغية في أشعارهم للوحدة والتآلف وزرع قيم التسامح والابتعاد عن الفتن ما ظهر منها وما بطن.

اقتراحات وتوصيات:

-نثمن مجهودات المجلس الأعلى للغة العربية على تنظيمه لهذا الملتقى الذي يعطي مسحا شاملا للتنوع الثقافي في الجزائر وكيف يسهم في نشر ثقافة السلام والتعايش والتسامح، ونجدد له الشكر مرة ثانية على طرحه لهذه المواضيع الراقية بطريقة جريئة ومنهجية علمية.

-الدعوة إلى إبراز التنوع الثقافي بشكل عام واللغوي بشكل خاص؛ وهذا بطباعة المخطوطات التي تحوي كنوز الثقافة الجزائرية المتنوعة بعد تحقيقها ودراستها.

-تنظيم طبعات متتالية لهذا الملتقى، وتسليط الضوء أكثر على الموضوع نظرا لأهميته وحساسيته خاصة في الوقت الراهن.

-توجيه الطلبة والباحثين في مختلف مراحل التكوين (الليسانس، الماجستير الدكتوراه) إلى دراسة أثر التنوع الثقافي في المجتمع الجزائري ودوره في زرع قيم التسامح والسلام...إلخ.

-تخصيص شهر جوان من كل سنة للاحتفال باليوم العالمي للتنوع الثقافي من أجل الحوار والتنمية، وتقديم حلول للإشكالات العالقة في الموضوع.

-تسليط الضوء أكثر على مختلف الولايات والمناطق الجزائرية التي تحتوي على التنوع اللغوي والثقافي من باب خدمته والتتويه بفضلها في جمع الجزائريين على مر العصور التاريخية.

الهوامش:

- ¹ وهذا بناء على الإحصاء الذي قامت به المصالح الإدارية المعنية بولاية غرداية سنة 2008م.
- ² مديرية الثقافة، وادي مزاب آثار ومظاهر، ولاية غرداية، د.ط، 2004، ص: 04.
- ³ ينظر بشير بن عمر مرمروري، الفتاة في مزاب تنشئتها وتعليمها بين الثابت والمتغير، نشر جمعية التراث، القرارة- غرداية، ط01، 1426هـ/2005م، ص: 65، 66.
- ⁴ ينظر يوسف بن بكير الحاج سعيد، الهوية المزابية، أهم عناصرها وتشكلها عبر التاريخ المطبعة العربية، غرداية، د.ط، 1432هـ/2011م، ص: 12.
- ⁵ عن مُصاب؛ ينظر عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان د.ط، 1968م، ج: 06، ص: 122.
- ⁶ ينظر بحاز إبراهيم بن بكير، الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، دار لافوميك- الجزائر، ط01، 1404هـ/1983م، ص: 350.
- ⁷ سورة الشورى، الآية: 07.
- ⁸ سورة فصلت، الآيات: 01، 02، 03، 04.
- ⁹ سورة الحجرات، الآية: 13.
- ¹⁰ سورة هود، الآية: 118، 119.
- ¹¹ سورة الأنفال، الآية: 46.
- ¹² هذه الفقرة من مقال نُشر بجريدة الشعب بتاريخ: 1990/06/07، وصاحب المقال هو الدكتور أبو القاسم سعد الله، وقد وضع د. محمد صالح ناصر هذا المقال في كتابه الموسوم بـ"مكانة الإباضية في الحضارة الإسلامية"، مُركَّب المنار، الحميرز- الجزائر، ط 02، 1434هـ/2013م ص: 88.
- ¹³ الأمين أحمد، ديوان مُثَوِّا الأيدي نتصالح، تح: خرازي مسعود، وابن ادريسو مصطفى، نشر عشيرة آل خالد، بني يزقن- غرداية، ط01، 1433هـ/2012م، ص: 42.
- ¹⁴ للقيمة الفنية والجمالية والنخوة الوطنية التي يحملها هذا البيت صدى كبير؛ حيث كان يستشهد به عدّة نواب في مداخلاتهم البرلمانية بالمجلس الشعبي الوطني.
- ¹⁵ مسعود خرازي، ديوان متى الصُّبح يا وطني؟، المطبعة العربية، غرداية، ط01، 2002، ص: 21، 22.

- ¹⁶ نفسه، ص: 81، 82.
- ¹⁷ نفسه، ص: 39، 40، 41.
- ¹⁸ سليمان بن عمر دؤاق، ديوان نَفَحَات ولفحات، جمعية التراث، القرارة- غرداية، ط01 1430هـ/2009م، ص: 83.
- ¹⁹ نفسه، ص: 80، 81.
- ²⁰ سليمان بن عمر دؤاق، ديوان لميزاب رب يحميه هو حسبه ونعم الوكيل، المطبعة العربية بنورة- غرداية، ط01، 1436هـ/2014م، ص: 66، 67.
- ²¹ سليمان بن عمر دؤاق، قراءة لميزاب الضحية حول الفتنة الجهنمية 2013-2015، المطبعة العربية، بنورة- غرداية، د.ط، 1437هـ/2015م، ص: 07.
- ²² سورة الرُّوم، الآية: 22.
- ²³ يُنْظَرُ صالح بن ح عمر ترشين، رواية قلب ذهبي عند المرحومين أمي وأبي، مطبعة الأفاق بني يزقن- غرداية، ط01، 2015م، ص: 72.
- ²⁴ عمر بن سليمان بوسعدة، أَحْوَفُ نَ وَغُلَانْ، المطبعة الجابرية، بنورة- غرداية، ط01 1425هـ/2005م، ص: 95.
- ²⁵ عبد الوهاب بن حمو فخار، إِمْطَاوْنْ إِزْوَقَاغَنْ (الذُّمُوعُ الحمراء)، ط01، 1990، ص: 36.
- ³⁷
- ²⁶ نفسه، ص: 21، 22.
- ²⁷ عمر بن سليمان بوسعدة، مرجع سابق، ص: 94.
- ²⁸ يوسف لعساكر، نْذُورْآنْ نْ تَسْكَلَا (أنثولوجيا الأدب المزابي)، مديرية الثقافة لولاية غرداية، ط01، 1433هـ/2011م، ص: 104.
- ²⁹ نفسه، ص: 104، 105.
- ³⁰ عمر بن سليمان بوسعدة، مرجع سابق، ص: 49.
- ³¹ نفسه، ص: 51.
- ³² عمر بن سليمان بوسعدة، قصيدة "أَوْتِي تَسْلَانْ" (يا من يسمع)، نسخة مرقونة بتاريخ: 2007/07/27، تحصّلت عليها من الشاعر مباشرة بتاريخ: 2018/01/24.

القيم الإنسانية في المنهج الإسلامي

د. أحمد سعدي

جامعة الشلف، الجزائر

مقدمة: يحمل كثير من المسلمين وغير المسلمين تصورات خاطئة ومتطرفة عن المدن الإسلامية في المنهج القرآني، فلا يوجد فيها حسب تصورهم سوى الإسلام والمسلمين. ولا وجود فيها لأي تنوع ثقافي أو ديني. وكأنها مدن مفصولة عن العالم ولا يدخلها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولا من فوقها ولا من تحتها، ولا من يمينها ولا من يسارها، بمعنى أنها مدن معصومة. ولذلك يتصورون أن المدينة الإسلامية هي مصدر رعب وخوف لغير المسلمين، ولأصحاب الأهواء أو الهوايات المكروهة من المسلمين. وهذا التصور المتطرف يجعل من المدن الإسلامية فزاعة مخيفة، وبعبعاً مربعاً، ومدناً منفرة بسبب انعدام الأمن الذي يشعر به البسطاء من الناس، والمختلفون، حيث لا فرق بين الاختلافات و المخالفات.

ولكننا نقرأ القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة نتأكد من خطأ هذه التصورات المجحفة، والمقولات الضالة في حق الدين الإسلامي الحنيف الذي يحمل شعار " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" وعندما نطالع الأوضاع الاجتماعية في المدينة المنورة التي أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم نجد أنها كانت تتشكل من مزيج متعايش من الطوائف والأقليات، وإن المرأة — مسلمة كانت أو غير مسلمة — تتسوق آمنة حتى في أسواق اليهود، والعكس صحيح.

وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم مظاهر سلبية في أسواق المسلمين من المسلمين ومن غير المسلمين في المدينة المنورة وهي مدينة إسلامية مسلمة بالدرجة الأولى ولكنها لم تستأصل الشعر والغناء والمنافقين واليهود، وغير ذلك من المظاهر السلبية والممارسات المخالفة لتعليم الإسلام الحنيف. وربما كانت فيها

معاص ومنكرات لا يعلمها إلا الله كانت تمارس خفية. إن الإجراءات الأمنية التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم عقب هجرته إلى المدينة المنورة تعتبر دستوراً وميثاقاً لمفهوم المواطنة وأساساً للقانون المدني وقانون الرحمة الأحوال الشخصية لجميع المواطنين في المدينة أو الدولة التي يحكمها المسلمون، كما أن المسلمين يعاملون بالمثل في المدينة أو الدولة التي يحكمها غير المسلمين.

1. مقاصد الشريعة الإسلامية الأمنية: المقصدية مصطلح لساني حديث في تحليل الخطاب ولسانيات النص. ولولا وجود المقصدية ما كان للخطاب معنى ولا للنص انبناء ووجود. والنص القرآني هو أمتن النصوص وأرفعها وأنفعها وأمتعها وأكثرها إحكاماً وحكمة. والنص القرآني منزّه عن النقص والتقصير والتفريط وإفراط، ميسر للذكر والعمل. وهو رسالة في غاية الأهمية من الخالق سبحانه وتعالى إلى الإنسان في آخر الزمان، وقد بلغه عنه تعالى أحسن تبليغ وأبلغه خاتم الأنبياء والرسل عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وأمر الناس بقراءة القرآن الكريم والعمل به من أجل أن يحيوا حياة كريمة، ويبينوا أسراراً ومجتمعات ومدناً ودولاً يسودها الخير والعلم والعدل والصلاح والحرية النافعة التي ليس فيها ضرر لأي كان. يحمل فيها الإنسان الأمانة التي كلفه الله تعالى بحملها، ويتحمل مسؤولية الخلافة في الأرض التي شرفه الله بها وأعانه عليها، لكي يبني ولا يهدم ويصلح في الأرض ولا يفسد فيها بعد إصلاحها.

ومقصدية النص القرآني في تحقيق الأمن والتعايش بين كل الناس تتجلى أحياناً بأسلوب مباشر عن طريق التشريع وأحكامه، وأحياناً أخرى تكون المقصدية ضمنية عن طريق الوعظ والإرشاد والرسائل النصية القصيرة والطويلة التي يقدمها القرآن الكريم، والاعتبار الذي دعي إليه أولو الأبصار.

تحمل لسانيات النص أدوات قراءة النص والنفاز إلى عالمه الداخلي، ويحتاج النص القرآني منا إلى قراءته بأدوات القراءة الجديدة. وفي موضوع المقاصد

بصفة عامة يمكن إعادة بناء هذا العلم على ضوء لسانيات النص ومصطلح المقصدية. وسوف نجرب توظيف مصطلح المقصدية وندرس على ضوئه المقاصد القرآنية، ومقصدية الحديث النبوي الشريف في تيسير حياة الإنسان الاجتماعية في المدينة والقرية والريف وفي كل مكان، وكيف يتمدن ويتحضر، لأن القرآن الكريم قد بنى حضارة من تحت الصفر، وهي اليوم ليس لها مثل.

فالقرآن الكريم يأمر المسلمين بالتعاون على الخير، والتعايش، والتسامح والنظام، وطاعة أولياء الأمور، واحترام القانون، والمحافظة على البيئة، وإعطاء الطريق حقها، وغيرها من التعليمات القرآنية التي ترسي قواعد النظام والتمدن وتحقق الأمن والرفاهية في المجتمع. وعلى ضوء التوجيهات القرآنية نستطيع تصوّر المعالم الكبرى والخطوط العريضة للمدينة الفاضلة أو اليوتوبيا التي كانت حلما جميلا في الفلسفة المثالية، وقد بناها القرآن الكريم وجعلها واقعية ينتعم فيها عباد الله، لا ينكرها إلا جاحد أو جاهل. هذه المدينة الفاضلة والمدنية العادلة يرفع فيها الأذان على مسامع الناس خمس مرات في اليوم، يذكرهم بدخول وقت الصلاة ويدعوهم بلطف إليها. وتجتمع ساكنتها على صيام شهر كامل في توافق عجيب في الإمساك والإفطار. والمدينة المنورة التي بناها الرسول صلى الله عليه وسلم وأسسها على لبنات الوحيين الكتاب والسنة في ظرف وجيز بناء على المقبولية التي قبلت وقوبلت بها مقصدية النص القرآني فقلبت حياة الناس عقبا على رأس بعدما كانت رأسا على عقب.

يعتبر القرآن الكريم معجزا في ألفاظه ومعجزا في معانيه، ويحتاج الناس دائما مهما كان مبلغهم من العلم إلى من يعينهم على فهم مقاصده ومعانيه. وقد ظهر علم التفسير ليسد هذه الحاجة الملحة، وما زال التفسير إلى اليوم علما ضروريا لفهم معاني القرآن الكريم ومقاصده "وإن أقدم تفاسير القرآن الكريم يبدي وعيا مسبقا بالتعارض بين ما يقوله الناس وما يقصدون قوله ويرمون إليه. وطالما أن

المفسرين كانوا مهتمين فقط بالكشف عما قصده الله تعالى في القرآن الكريم، فإن منهجهم في رصد مثل هذا التعارض كان ينطوي على إعطاء شرح دلالي للنص ويبين فيه القصد الضمني.⁽¹⁾ ويحتاج الناس إلى التفسير والاجتهاد فيه لفهم مقاصد القرآن الكريم الضمنية التي يسمونها في بعض الأحيان "أسرار القرآن الكريم"، وإن كانت كلمة أسرار تعبر عن المقاصد وغيرها.

2. بناء المجتمع القرآني المتنوع ثقافياً: هو مجتمع إنساني قرآني، حيث يقصد القرآن الكريم بناء مجتمع إنساني إيماني طاهر، وتأسيس مجتمع الفضيلة. قال الله تعالى: "أقمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير، أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فاتهار به في نار جهنم"⁽²⁾ إن التأسيس على قواعد وأسس متينة يضمن للباني دوام البناء وأمانه وسلامة المتواجدين فيه وأمنهم وسعادتهم. إن من مقاصد الشريعة الإسلامية بناء مجتمع راق تسود فيه الرحمة ومكارم الأخلاق والقيم الخالدة، ويكسب فيه الإنسان ذكراً وأنثى كرامته وقيمه الحقيقية التي فطره الله عليها وشرفه بها. قال الله تعالى: "كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد."⁽³⁾ ولام التعليل في الآية الكريمة قرينة دالة على المقصد الاجتماعي القرآني وهو تنوير المجتمع الإنساني ليس بالقضاء على الظلمات نهائياً، ولكن بإخراج الناس منها.

وواضح أن الظلمات التي يقصد القرآن الكريم إخراج الناس منها كي يعيشوا سعداء مطمئنين ليست بالظلمات الطبيعية التي جعل الله للناس الشمس والقمر والعين والبصر كي يخرجوا منها عند الحاجة إلى النور. وظلمات الليل والبحر وظلمات الرحم الثلاث، وغيرها من الظلمات الطبيعية قد اهتدى الإنسان بعقله إلى التغلب عليها والتحكم فيها باختراع الكهرباء وصناعة وسائل وأجهزة الإنارة العمومية والخصوصية. وصار الإنسان عندما يحتاج في الليل أو في النهار إلى

النور يستعمل المصابيح والأضواء الكاشفة التي تزيل الظلام وتحيل الليل إلى نهار.

والمجتمع لا يحتاج إلى الإنارة العمومية والخصوصية هذه فحسب، لأن هذه الإنارة حسية متعلقة بالبصر، ولكنه محتاج إلى تنوير البصيرة، إلى التنوير الداخلي العقلي والروحي، وهذه الإنارة هي إنارة معنوية. وقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه نور في قوله تعالى: "ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم".⁽⁴⁾ والقرآن الكريم يقصد تنوير المجتمع كله بأنواره الهادية الشافية. ومن أهدافه في بناء المجتمع إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الضيق إلى الفرج.

والظلمات المعنوية التي تصيب الإنسان وتعمي البصيرة كثيرة منها: ظلمات الجهل، وظلمات الظلم، وظلمات الهوى، وظلمات الكفر والشرك، وظلمات الغضب، وظلمات الفوضى والتشويش، وظلمات الفقر والفاقة، وظلمات الرذائل والفواحش، وظلمات، وظلمات الجريمة، وغيرها من الظلمات. إن مقاصد الشريعة الإسلامية تساعد على فهم المنهج القرآني وأبعاده الأمنية في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وبالفعل إن "كتب المقاصد تبرز لنا وسائل الاجتهاد، وأسباب الاختلاف بما يفسح المجال في تعميق أسرار الشريعة، وفهم مغزاها. وهي من المراجع المهمة يستنير بها المتفقهون في الشريعة عندما يقع الاختلاف في وجهات النظر بتغير الزمان والمكان. وهذا من شأنه أن يقلل الاختلاف بين فقهاء الأمصار، ويدرب أتباعهم على الإنصاف في الترجيح والاختيار".⁽⁵⁾ وهذا يعني أن يكون كل فرد في المجتمع الإسلامي واسع الصدر، يتقبل الآخر مهما وافقه أو خالفه، ولا يضيق صدره بمن ليس يؤذيه أو يظلمه بالفعل ولا بالقول، لأن الله خلق وفرق، وجعل الاختلاف ظاهرة طبيعية في الحياة الإنسانية. وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم عند مرور جنازة، ووقف لها تعزية وأدبا واحتراما، إذ لم يكن بمقدورها أن يتبعها

فلما قيل له أنها ليهودي من أجل ثنيه عن الوقوف لها، غضب صلى الله عليه وسلم وقال أو ليست نفساً ثلاث مرات.

إن المجتمعات التي تتعارض مع القرآن الكريم كلها مجتمعات معتلة مريضة والمجتمع القرآني هو المجتمع السليم المعافى الذي يحفظ للإنسان كرامته وحقوقه وقيمه الإنسانية الخالدة. ومن الحقائق الثابتة التي لا ينكرها عاقل منصف أن القرآن الكريم قد نزل عندما كانت المجتمعات البشرية كلها على حافة الهلاك وعلى مشارف الهاوية. يقول الدكتور أحمد شلبي: "في القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة قد انهارت. ولم يكُ ثمَّ ما يعتد به مما يقوم مقامها. وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والاحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ كانت القبائل تتحارب وتتشاجر، لا قانون ولا قيم. أما النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام. وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي كان خير دواء لهذا الداء."⁽⁶⁾ وقد نسب هذا القول إلى مجموعة من المستشرقين الغربيين المنصبين الذين اعترفوا بأن الإسلام دواء، وأن القرآن فيه شفاء للناس. ومن هؤلاء المستشرقين المنصفين رجاء غارودي وزيجريد هونكه وغيرهما كثير.

3. منهج التغيير القرآني: لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم من أجل إحداث التغيير الإيجابي في الكون، والحيلولة دون التغيير السلبي الذي يكون من الأسباب المباشرة للدمار. يقول الله تعالى: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم."⁽⁷⁾ كل شيء في الكون يتغير ويتبدل باستمرار، ويتحول وفق سنن جعلها الله تعالى نظاما للحياة يسمى بعضها السنن الكونية، وبعضها الآخر يسمى السنن

الشرعية. ويمكن وصف النوع الأول بالتغير الطبيعي الذي لا يستطيع الإنسان مخالفته لأنه من قدر الله تعالى ومشيتته الكونية. فالإنسان يتغير ويتحول من طور إلى طور في تغير مطرد عام، والكائنات الحية الأخرى من نباتات وحيوانات كلها تتغير، والأشياء الجامدة والساائلة والغازية كلها تتغير تغيرات كيميائية أو فيزيائية. والطعام يتغير عندما يتجاوز مدة صلاحيته ولم يحظ بالحفظ المناسب فيتغير طعمه ولونه ورائحته ويفسد، وتنشأ فيه الروائح الكريهة والديدان العفنة والسموم القاتلة. والجنة وحدها هي التي لا يتغير فيها شيء إلا إيجابيا يزيد في نعيم أهلها وسعادتهم الأبدية، مثل قوله تعالى: "وأَنهَارٌ مِّن لَّيْلِ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ".⁽⁸⁾ في إشارة قرآنية بليغة إلى أن الجنة ليس فيها أي فساد مهما كان نوعه، وأن لها نظاما آخر لا يشبه نظام الكون في الدنيا.

والإنسان هو خليفة الله تعالى في الأرض، جعله الله كذلك، وخلق له لذلك، ليحافظ على النعم التي وهبها الله له ولغيره من الكائنات الحية التي تتعايش معه ويتعايش معها، ولكنه هو المسؤول الأول في الأرض بإرادة الله تعالى الكونية والشرعية. فيحافظ على أمن الكائنات فيها، ولا يتركها تتحول من الصلاحية إلى الفساد، وعليه باستعمال مسخراتها ومقدراتها الاستعمال الشرعي المطلوب قبل فسادها وقد حرم الله عليه إفساد أي شيء إلا بمبرر شرعي وقانوني. كما حرم الله تعالى عليه البخل بالخير على مستحقه والمحتاجين إليه، -وألزمه بالإحسان والإتقان ما دام فيها.

4. المدينة الفاضلة والمدينة العادلة: لقد أجهد المفكرون عقولهم وأتعبوها عبثا دون جدوى في محاولة توصيف المعالم الكبرى والتقسيم المحددة والمعرفة بالمدينة الفاضلة حسب أخيلتهم وتصوراتهم الإنسانية الطيبة، وفلسفاتهم، ومذاهبهم وآرائهم، وتوجهاتهم السياسية والدينية والاجتماعية المثالية. ولكنهم لم يفلحوا في حفر أسس هذه المدينة، ناهيك عن وضعها، أو رفع أعمدتها وأركانها. ولم يصدر من التفكير البشري رغم اجتهاده أي نموذج نظري منهجي وواقعي للمدينة الفاضلة

المزعومة أو المنشودة. وكل التصورات العقلية للجمهورية الفاضلة كانت طوباوية أو شبه مثالية تستعصي على التجسيد والتطبيق، لأنها كانت كلها نابعة من التصورات البشرية. وكان يعوزها عامل الوحي والتوجيه الرباني الحكيم الذي هو أدري واعلم بمصالح الناس ومنافعهم من الناس أنفسهم.

إن المدينة الفاضلة في حقيقتها ومعناها الحرفي هي المدينة المنورة التي أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم في القرن الأول الهجري. وقد كانت المدينة المنورة أرضا خصبة وبلدا طيبا. سقاها القرآن الكريم فأنبئت نباتا حسنا بأغلبية لا أقول ساحقة، وإنما أقول بأغلبية عاقلة عادلة فاضلة من سكانها الذين بادروا إلى الاستجابة الطوعية للدعوة المباركة، والامتثال لمتطلباتها، وتحمل مسؤولياتها المادية والمعنوية، وتبنيها وبنائها. وقد سماهم القرآن الكريم "الأنصار"، ووصفهم بكل صفات الخير والفضل والفضيلة. ومما جاء تنويها بهم في النص القرآني قوله تعالى: "والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم. ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا. ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون." (9) لقد اتسم المجتمع المدني بخصائص تؤهله ليكون اللبنة الأولى النموذجية لبناء وتأسيس المدينة المنورة التي أوتى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن سبقه أو لحق به من المهاجرين قبل الفتح والمستوطنين بعد الفتح. فتم إخماد الحرب، وجمع الكلمة، والتعاون على البر والتقوى. وقد صدقهم الله تعالى كل وعده ووعدته القرآني القائل فيه: "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض" (الآية) (10) فالمدن إنما تتنور بنور القرآن الكريم عندما يكون مواطنوها مؤمنين صادقين صالحين مصلحين من أهل الفضل والفضيلة.

وما زال خير القرون وخير المدن وخير المدنيات وخير المجتمعات والأجيال كلها شاهدة على البصمة القرآنية والبسمة الإنسانية التي تحققت عند فهم مقاصد

الشريعة الإسلامية في تلك الحقبة المنيرة المشرقة المشرقة من التاريخ. يقول احمد الريسوني: "فمنذ أن أحس علماء المسلمين بعد العصر الأول بوقوع الفصام بين تعاليم الإسلام وقواعده ومبادئه، وبين واقع المسلمين وممارساتهم الحياتية وجهود أولئك العلماء متصلة لرتق الفتق، ورأب الصدع، وإعادة الاتصال الوثيق بين الإسلام والمسلمين. ذلك الاتصال الذي جعل من مسلمي الصدر الأول مصاحف تمشي على الأرض بأخلاق القرآن، وسلوك القرآن، وتعامل القرآن".⁽¹¹⁾ هذا هو السر الذي يخفيه كثير من الناس اليوم لتخويف الناس من المسلمين ونشر ما يسمى بالإسلاموفوبيا. لقد كان المسلمون في عصر النبوة إلى عهد تابعي التابعين متصلين بالقرآن الكريم متصفين بأخلاقه، وقد كانوا مجتهدين في تمثيل الإسلام أحسن تمثيل.

وينبغي أن لا تتوقف الدعاية والدعوة إلى الإسلام الحنيف بالطريقة التي أمر الله تعالى بها وطبقها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، واقتدى بهم العلماء الربانيون. وهذه الطريقة المثلّية في التربية والتعليم والدعوة إلى الإسلام هي الحكمة والموعظة الحسنة لا الخشنة. يقول أحمد الريسوني: "وقد كان أهم وأبرز وسائل العلماء في تحقيق ذلك: بيان علل الأحكام وغايات الإسلام ومقاصد الشريعة وأهدافها. فبينوا أن لكل حكم من أحكام الإسلام وظيفة يؤديها، وغاية يحققها، وعلة ظاهرة أو كامنة يعمل لإيجادها، ومقصدا وهدفا يقصده ويستهدفه لتحقيق مصلحة للإنسان، أو دفع مفسدة ومضرة عنه".⁽¹²⁾ وقد تحقق كل ذلك في ظرف قياسي وجيز معجز لا يمكن تحطيمه. إن جلب المصلحة ودرء المفسدة والمحافظة على المصالح المرسله لجميع أفراد المجتمع هي الأسس الثابتة التي يبنى عليها المجتمع في المنهج الإسلامي.

وهذا الخير كله قد أنجز في ثلاث وعشرين عاما فقط، هي كل عمر الدعوة المحمدية في حياته صلى الله عليه وسلم، وعمر التنزل القرآني المبارك من السماء

إلى الأرض. لقد استطاع القرآن الكريم تجسيد وتحقيق مقاصده كاملة، وتقديمها للعيان، ليظهر النموذج بوضوح، وتتجلى الصورة الحسنة والقوة الخالدة التي لا وجود لقوة خير منها. فقد وحد القبائل، وبنى الأمة، وأسس المدن والمدنيات عندما وجد المجتمع الإيماني الرباني الذي يجعل القرآن الكريم بين يديه، وبين عينيه وفي قلبه، للتلاوة والعمل، وليس للتلاوة وتزيين الأصوات به فقط.

لقد انغمس هذا الجيل الفريد في القرآن الكريم، حتى أصبحوا قرآنيين، وعلى رأس هذا الجيل الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدون، والصحابة أجمعون. وقد كانوا قرآنا يمشي، ومصاحف بشرية تتحرك وتعمل به. وقدموا أروع الأمثلة وأبلغها وأرقاها وأرقاها في الارتباط به، وفهم مقاصده، وتطبيقه. ولم يغفلوا عنه لحظة واحدة.

وخير المنازل التي يجتمع فيها البشر هي المدن التي تطيب فيها الحياة وينشأ فيها الأطفال على الخير والعلم والتربية والأمل والعمل. وكل هذه المعايير متوفرة في المدينة المنورة التي بناها الرسول صلى الله عليه وسلم لتحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية كلها في المدينة والمدنية. ولا يكون التطور البشري سوى في المدن العامرة التي يسودها العدل ويسودها النظام والتعاون.

إن أبناء المدن وساكنتها متطورون ومتقدمون إذا ما قيسوا إلى أبناء القرى وساكنتها، وإن كان لبعض القرى إيجابياتها الأخلاقية والنفسية والصحية والسياحية كما أن لبعض المدن سلبياتها ونقائصها التي تجعل أحيانا من القرية المفضولة مسكنا أطيّب وموطنا أرحب من المدينة الفاضلة؛ لكن القرية أضعف وأفقر من المدينة في كل شيء. وأهل القرى متجانسون متقاربون، أما أهل المدينة فيتمتعون بالتنوع والتعدد والثراء والغنى والاختلاف في كل شيء. وأهل المدن أجناس ولغات ومصالح مختلفة يجمعها الأمن والعدل، والفضول وحب الاطلاع والتعرف والثقافات والعلوم والفنون، والفرجة والفرحة.

يقول أحمد أمين مبينا خصائص المعيشة في المدن: "إن الدين والفن والعلم والأدب تتبع دائما من المدن، وتزدهر فيها. كان ذلك في القديم، وهو كذلك في الحديث. فأنت الآن ترى الأفكار الجديدة وآراء المصلحين إنما تنشأ في المدن أولا. وكذلك معاهد العلم والأدب والفن من مدارس وجامعات ومكتبات وصحف ومتاحف، إنما تعظم وتكثر في المدن لا في القرى".⁽¹³⁾ ولا يجتمع الناس في بلدة ويستقرون فيها دون سواها، ويحتاجون راغبين أو مضطرين للإقامة فيها إلا لمصلحة ومنفعة متحققة في هذه البلدة، و"المورد العذب كثير الزحام". على رأي المثل العربي القديم.

والمدن يتكاثر عليها الطلب، وتحلو فيها الحياة، وتكثر فيها المرافق، والمصالح والمؤسسات، ويحس عامة الناس فيها بالأمن والطمأنينة والحرية والحياة الكريمة المتجددة التي لا روتين فيها ولا ملل ولا فراغ. يذكر أحمد أمين بعض أسباب نشأة الدين والفن والعلم والأدب في المدن دون القرى قائلا: "ولذلك أسباب أهمها: أن المدن أكثر ناسا وأوفر عمراننا. وقد نشأت كثرة الناس والعمران من وفرة المؤن، إما لسبب مباشر كخصب الأرض وجودتها وكثرة غلاتها؛ أو غير مباشر، كأن تتبادل المدينة مصنوعات مع أمة أخرى خصبة الأرض كثيرة الغلات، أو نحو ذلك. وكثرة السكان على هذا النحو تستتبع نوعا من الغنى يستطيع معه أهله أن يجدوا زمنا يصرفونه في غير كسب القوت. كما يستتبع نوعا من الرقي السياسي يستطيع الناس معه أن يتبادلوا الآراء، والأفكار، وينظروا إلى الحياة غير هذا النظر المادي الوضع، فينشأ الرأي، وينشأ العلم، ويزهو الأدب".⁽¹⁴⁾ وهناك أسباب أخرى لنشأة المدن وتطورها في المدنية والحضارة والعمران زيادة على الرفاهية والغنى. وربما كانت هذه الأسباب الإضافية هي الأسباب الأساسية الأولية التي تنشيء الرفاهية والغنى، ولا يمكن عدها أسبابا إضافية أو تكميلية، وإن كان يعتبرها كثير من الناس كذلك.

5. الأمن والتعايش السلمي في المدن:

يفهم كثير من الناس أن المدن الإسلامية لا يعيش فيها إلا المسلمون المتدينون الملتزمون بتعاليم الإسلام، أما غير المتدينين من المسلمين، أو غير المسلمين فلا يمكن لهم أن يعيشوا مع هؤلاء المسلمين. وهذا خطأ فادح، ودعاية مفتعلة تخالف مقاصد القرآن الكريم، وتخالف دعوته الصريحة للناس إلى التعايش السلمي في ظل الأخوة الجامعة والاحترام المتبادل. يقول الله تعالى: "وإن أحد من المشركين استجارك، فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه." (15) وهذه دعوة صريحة في القرآن الكريم للمسلمين أصحاب الحكم والسلطة والقرار، إلى حسن معاملة غير المسلمين، ومعايشتهم وحسن معاملتهم، وصحبتهم، حتى يتعرفوا عن قرب على الثقافة الإسلامية، وحتى يتعرفوا على كلام الله تعالى ومقاصده السامية التي تحقق للناس أمنهم وسعادتهم وكرامتهم. إن الناس يضربون المثل بسويسرا في الأمن الاجتماعي، ولكن المدينة الإسلامية الحقيقية هي النموذج الأفضل للتعايش بين الناس في أمن وسلام.

ولا يمكن أن تنشأ حضارة أو مدينة سوى في كنف التعايش السلمي واحترام النظام العام. يقول محمد الطاهر بن عاشور: "إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع استبان لنا من كليات دلائلها ومن جزئياتها المستقرأة، أن المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيم عليه، وهو نوع الإنسان. ويشمل صلاحه صلاح عقله وصلاح عمله وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه." (16) فالمجتمع الإسلامي، كما يريده القرآن الكريم، قائم على المصلحة العامة المرسلة، والنظام العام الذي يضمن لجميع الناس حقوقهم،

إن الضمان الاجتماعي موجود، والحقوق المدنية مكفولة لكل إنسان في ظل احترام النظام العام " ولقد علمنا أن الشارع ما أراد من الإصلاح المنوّه به مجرد

صلاح العقيدة وصلاح العمل كما قد يتوهم، بل أراد منه صلاح أحوال الناس وشؤونهم في الحياة الاجتماعية. فإن قوله تعالى: (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل). أنبأنا بأن الفساد المحذر منه هنالك هو إفساد موجودات هذا العالم. وأن الذي أوجد هذا العالم وأوجد فيه قانون بقائه لا يُظن فعله ذلك عبثاً، ولولا إرادة انتظامه لما شرع الشرائع الجزئية الرادعة للناس عن الإفساد. فقد شرع القصاص على إتلاف الأرواح وعلى قطع الأطراف. وشرع غرم قيمة المتلفات، والعقوبة على الذين يحرقون القرى ويغرقون السلع.⁽¹⁷⁾ وكل هذه الممارسات التي تخل بالنظام العام، وفيها التقتيل العشوائي والتدمير والتخريب لا يرضاها المنهج الإسلامي القويم تحت أي مبرر كان. وليس عجيباً أن يمارسها غير المسلمين، ولكن العجيب أن يمارسها بعض المنتسبين إلى الإسلام باسم الكتاب والسنة وهما منها براء.

خاتمة: الإسلام منهج اختاره الله تعالى للبشر جميعاً لحماية مصالحهم المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة، وتحذيرهم من الأخطار والأخطاء التي تهددهم في أمنهم وسلامتهم ومعيشتهم. والمسلم في المنهج الإسلامي هو من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن هو من أمّنه الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم. إن المسلمين اليوم عندما يبتعدون عن الإسلام وتعاليمه السمحة الحنيفة وينشرون في العالم ثقافة الخوف والكرهية والفساد يسيؤون إلى الإسلام بالدرجة الأولى وينفرون الناس منه ويجعلونه في قفص الاتهام وهو من أعمالهم وأقوالهم وآرائهم بريء. والنصوص الشرعية من قرآن وسنة شاهدة على براءة الإسلام الحنيف مما يصدر عن بعض المسلمين الضالين من جرائم وسلوكات يريدون تمريرها وتبريرها باسم الإسلام وهو منها بريء.

المصادر والمراجع:

1. المصحف الشريف،
2. أحمد أمين، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الحادية عشرة 1975.
3. أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الدار العالمية للكتاب الإسلامي الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1992.
4. أحمد شلبي، الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية عشرة 1997.
5. الراغب الإصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، 1400هـ — 1980م.
6. الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
7. عبد السلام محمد الشريف، المبادئ الشرعية في أحكام العقوبات في الفقه الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986.
8. كيس فيرستينغ، اعلام الفكر اللغوي في التقليد اللغوي العربي، ترجمة أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2007، بيروت، لبنان، ج3.

الإحالات:

- (1) كيس فيرستينغ، اعلام الفكر اللغوي في التقليد اللغوي العربي، ترجمة أحمد شاكر الكلابي دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2007، بيروت، لبنان، ج3، ص80.
- (2) سورة التوبة، الآية 109.
- (3) سورة إبراهيم، الآية 1.
- (4) سورة الشورى، الآية 52.
- (5) عبد السلام محمد الشريف، المبادئ الشرعية في أحكام العقوبات في الفقه الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص21.
- (6) الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية عشرة، 1997، ص45.
- (7) سورة الرعد، الآية 11.
- (8) سورة محمد، الآية 15.
- (9) سورة الحشر، الآية 9.
- (10) سورة إعراف، الآية 19.
- (11) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1992، ص1.
- (12) المرجع السابق، ص1.
- (13) فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الحادية عشرة، 1975، ص170.
- (14) ن م، ن ص.
- (15) سورة التوبة، الآية 6.
- (16) ن م، ن ص.
- (17) مقاصد الشريعة الإسلامية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985، ص63.

اللسانيات الثقافية والتنوع الثقافي اللغوي وانعكاساته على الحوار والتنمية في اللغة العربية.

أ. لامية قداش

د. صلاح الدين يحيى

جامعة أمحمد بوقرة، بومرداس.

يعدّ البحث في التنوع الثقافي من أجل الحوار والتنمية، بحثاً في أسرار اللغة لأنّ اللغة تُمثّل النسق الحامل للأنساق الثقافية وتنوّعاتها على الحوار والتنمية وليست اللغة أداة التواصل الحضاري للإنسان فحسب؛ بل تحمل أسرار الحوارات على مرّ العصور من جيل لآخر.

تعدّ اللغة جزءاً مهماً من الذاكرة الشعبية الوطنية والإنسانية، وتوصف بأنها وعاء ذوبان للتعبير الإبداعي وقوة دافعة للثقافات ولأسيما التنوع الثقافي اللغوي للثقافة والموروث المادي واللامادي؛ حيث يمثّل التنوع الثقافي الشفاهي والمكتوب حياة المجتمع من اللغة واللهجات والعادات والأعراف والتقاليد والطقوس والمعتقدات والممارسات الشعبية والاحتفالات والأعياد الدينية والمهن والحرف والألعاب والأحاجي والألغاز والأمثال والحكايات الشعبية والشعر والأدب الشعبي والأدب العامي والغناء والموسيقى وفنون الاستعراض والرقص الشعبي ... كلّها جزء من التنوع الثقافي اللغوي-اللسانيات الثقافية.

ومن هنا جاء هذا البحث ليجيب عن الإشكالية الآتية: كيف تمثّل التنوع الثقافي في اللغة؟ أ باعتبار اللغة أداة تواصل وحوار؟ أم باعتبار اللغة أداة وصل بين الأجيال؟ أم هي تركيبات التنوع الثقافي؟ ألم تتجسّد في التركيبة اللغوية لكلّ مجتمع؟ أين تكمن أهمية صون التنوع الثقافي؟ هل التنوع الثقافي داخل اللغة الواحدة؟ أم أنّ التنوع الثقافي في التعدّد اللغوي؟ أيكمن التنوع الثقافي في اللهجة أو

اللهجات في اللغة الواحدة؟ أيعتبر تنوع اللهجات في اللغة الواحدة مظهرًا من مظاهر التنوع الثقافي في اللغة؟ كيف، ومتى، وأين يتمثل؟

*أولاً: اللسانيات والثقافة علاقة الثقافة باللغة: يعتبر النظر في مفاهيم اللغة والثقافة باعتبارهما مقوما من مقومات المجتمع أداتا تواصل وواصل اجتماعي وثقافي وإيديولوجي سياسي واقتصادي مفهومات بسيطة لا ترقى إلى التصور الدقيق والعلمي لهما، فاللغة باعتبارها مفتاح كل العلوم؛ يمكن اعتبارها آلية من آليات الخروج-كما نعتقد-وكمبدأ أساسي لكل المعارف والعلوم فهي التي تحويها في لذاتها ولغيرها، كوسيلة لاكتساب المواد المعرفية الأخرى فلا يمكن تحصيلها إلا باللغة كما أنها لا ترقى إلا بها، ولا وجود لأي مادة علمية دون لغة تؤخذ بها ولا وجود لأي فوارق أو فواصل تربطها وتفصلها إلا اللغة، كما يذكر رمضان عبد التواب: "أنّ علم اللغة له صلة وثيقة بعلوم أخرى؛ فقد درسنا من قبل شيئاً من علم الاجتماع اللغوي، وعلم النفس اللغوي، كما عرفنا أنّ عالم اللغة لا بد له من الإلمام بعلم الفسيولوجيا، أو وظائف الأعضاء، وعلم التشريح، وعلم الطبيعة في دراسة الأصوات اللغوية بأنواعها المختلفة." ¹ومن العلوم التي تحظى باتصال مباشر باللغة هي الثقافة التي تمثل الوجه الآخر للغة وتتصل بها اتصالاً مباشراً؛ وإذا بحثنا عن مفهوم الثقافة في المعاجم اللغوية نجده قد تعددت دلالات مصطلح الثقافة باختلاف السياقات التي نوظف فيها هذه المصطلح لقصد معين فقد جاء في معجم لسان العرب لابن منظور الثقافة من ثقف: "ثَقَّفَ الشَّيْءَ ثَقْفًا وَثَقَّافًا: حَدَّقَهُ، وَرَجَّلَ ثَقْفً، وَثَقَّفَ وَثَقَّفَ، حَازَقَ فَهْمَهُ،... وَثَقِيفٌ لَقِيفٌ بَيْنَ الثَّقَافَةِ وَاللِّقَافَةِ." ² فإذا نظرنا في معاني الثقافة اللغوية وجدناها متعددة منها على دلالة السيِّف والرماح والأثر وكلها دلالات لغوية ذكرها ابن منظور، وأمّا دلالة هذا المصطلح فتضبط حسب السياق المقصود له، ولم يكن مصطلح الثقافة متعدّد الدلالات في المعاني اللغوية له؛ بل نجد انعكاساً كبيراً للمفهوم اللغوي على المفهوم الاصطلاحي، "ويعتبر تحليل

مفهوم الثقافة والمتقنين من وجهة نظر السوسيولوجية ليس بالأمر اليسير على الإطلاق نظراً لتعدد التعريفات واختلافها من ناحية واختلاف الباحثين من جهة أخرى، واختلاف التوجهات الأيديولوجية من ناحية ثالثة، واختلاف الاتجاهات النظرية في مجال علم الاجتماع من ناحية رابعة، واختلاف السياق الاقتصادي الاجتماعي السياسي الثقافي من ناحية خامسة، واختلاف البعد المكاني الجغرافي من ناحية سادسة، واختلاف البعد الزمني من ناحية سابعة... فالثقافة كمفهوم من وجهة نظر العامة تعني الحداثة والفطنة والفهولة وكثرة المعلومات والمعرفة.

في حين تعني الثقافة من وجهة نظر الخاصة؛ أعني المتخصصين الذين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يرى أن الثقافة تعني الجانب الذي يشمل على العادات والتقاليد والأعراف وما إلى ذلك.

القسم الثاني: يؤكد أن الثقافة في معناها تتضمن الجانبين (المادي والمعنوي) بكل ما فيهما من تكنولوجيا وآلات وأدوات... الخ، فضلاً عن العادات والتقاليد والقيم... إلى غير ذلك.

القسم الثالث: يستخدم مفهوم الثقافة Culture بوصفها مرادفاً لمفهوم الحضارة Civilization.

ويعتبر ألفريد فيبر A.Weber من أبرز هؤلاء الذين قدّموا تفرقة واضحة في هذا الإطار إذ استخدم مفهوم الحضارة بهدف الإشارة إلى المعرفة العلمية ومدى سيطرتها على الموارد الطبيعية؛ على حين يظهر استخدام **مصطلح الثقافة في** **النتاج الفني والديني والفلسفي للمجتمع**.³ وإذا أردنا ضبط مصطلح الثقافة اللغوي أو الاصطلاحي بما تعنيه من قيم وضوابط المجتمع وفكره وسلوكه الذي ينتظم به من خلالها فلا بد من ربطها بسياقها اللغوي أو النظام اللغوي الذي تتركب وتتفكك من خلاله، "وإذا كان مدلول الثقافة (ملكة) في العلم وإتقاناً في العمل، فغير ممكن

أن ترسخ هذه الملكة ويحصل هذا الاتقان بدون لغة، إذ هي (مفتاح عام) لأبواب العلوم والآداب والفنون، ورسول أمين لأفكار الإنسان، ومظهر صادق لشواعره ومرآة صقيلة تنطبع عليها عواطفه وغرائزه.

ولولا اللغة لبقيت جميع الأشياء مبهمّة الأسماء، مجهولة الدلالة، مُهملة الوظائف.⁴ وقد توهم العديد من الباحثين والعامّة في أذهانهم أن اللغة ليست إلا وسيلة أو أداة أو آلية يمكن استعمالها أو اغفالها لا أهمية كبرى لها، ولا ركيزة عليها "وليست علاقة اللغة بالثقافة علاقة وسيلة حسب رأي بعض المتطفّلين على العلوم الإنسانيّة؛ إذ قد زعم هذا البعض أن اللغة ما هي سوى وسيلة من شتّى وسائل الحياة، التي لا تحصى عدّا.

ومن كان كذلك فلا شخصية له، ومن لا شخصية له فلا ثقافة له، ومن لا ثقافة له فحظّه في الحياة تقليد أعمى، أعاننا الله منه! ولسنا بمُخطئين عندما نصرّح بأنّ علاقة الثقافة-باللغة-بمثابة -علاقة-الروح بالجسد.

فالثقافة روح، واللغة جسد، فلا يُمكن استغناء أحدهما عن الآخر؛ ما دامت الثقافة ثقافة، واللغة لغة في مفهومها بالأصالة، إنّ الشرائع السماويّة والقوانين الوضعيّة والتقاليد المتّبعة والعادات الموروثة؛ كلّها قد تجسّدت في اللغة. "فالثقافة علم يجهله العامّة، وقوامها ركيزة يعلمها علماء اللغة الذين لا يستنكفون ولا يستكبرون ويعجبون من أسرارها، وأما الذين يستنكفون فهم يجهلون علم اللغة.

*أولاً: اللسانيّات الثقافيّة والتنوّع الثقافيّ: تدرس اللسانيّات الثقافيّة اللغة من زاويّة الثقافة، واللغة وعلاقتها بالثقافة، ثمّ اللغة والتنوّعات الثقافيّة والأشكال الثقافيّة المختلفة؛ كون اللغة وعاء يحوي الثقافة والمجتمع، ولاسيّما التنوّع الثقافيّ اللغويّ للثقافة والموروث الماديّ واللاماديّ؛ وأمّا عن قضايا اللسانيّات الثقافيّة فهي كثيرة ومتنوّعة، كالتنوّع الثقافيّ الشفاهيّ أو المكتوب يأتي في قمتها اللغات واللهجات والعادات والأعراف والتقاليد والطقوس والمعتقدات والممارسات الشعبيّة

والاحتفالات والأعياد الدينية والمهن والحرف والألعاب والأحاجي والألغاز والأمثال والحكايات الشعبية والشعر الشعبي والغناء والموسيقى وفنون الاستعراض والرقص الشعبي، فاللسانيات الثقافية أحد فروع علم اللسانيات الاجتماعية التي نالت اهتماماً ملحوظاً في العصر الحديث، وتهتم اللسانيات الثقافية بدراسة جوانب التنوع الثقافي وعلاقتها باللسانيات الجغرافية (الأطالس اللغوية) واللسانيات الأنثروبولوجية.

وتعتبر اللسانيات الأنثروبولوجية Anthropological linguistic في نظر علماء الأنثروبولوجيا بأنها تدرس العلاقة بين اللغة والثقافة، ومن أهم الموضوعات التي نالت اهتمام علماء اللغة الأنثروبولوجيين، ومجال الأنثروبولوجيا هو دراسة المجتمعات والثقافة للكشف عن سلوكيات الناس المتأثرة بالأشكال الثقافية المختلفة فالثقافة في نظرهم أسلوب حياة.

ومن هنا فإنّ اللغة مكاناً بارزاً في الدرس الثقافي، فإلى جانب كونها وعاء للمعرفة والفكر والثقافة فهي -أيضاً- مرآة لثقافة المجتمع، ترقى بركيه وتنحدر بانحداره، فللغة اتصال وعلاقة بالمستوى الثقافي للجماعة، أيضاً للغة دور في تشكيل ثقافة المجتمع وأسلوب تفكيره؛ حيث إنّ الثقافة واللغة كليهما تلعبان دوراً مهماً في تكوين المجتمعات الإنسانية أو التجمعات العرقية المتميزة Ethnic Groups.⁶ أي لا وجود لمجتمع دون لغة وثقافة، ولا وجود للغة دون مجتمع وثقافة، كما أنه لا وجود لمجتمع دون ثقافة ولغة، ولا وجود للثقافة دون مجتمع ولغة.

1- دور وحدة اللغة في ثقافات الشعوب: يذكر محمد بن عبد الكريم الجزائري في العلاقة الجامعة بين اللغة والثقافة: "فاللغات ما هي سوى كائنات حيّة، تنمو بنمو ثقافات الأمم وحضاراتهم وتجمد بجمود أهلها،.. والزهد في التراث اللغوي واللغة تحفظ كيان الأمة، وتحمي أنظمتها وثقافتها من وصمة التقليد الأعمى، وهي

المسئولة أيضا عن جمودها وموتها لا ريب في ذلك.⁷ فإن غياب ثقافتنا اليوم ما هو إلا دليل على غياب اعتزازنا بلغتنا؛ حيث أصبحنا نفقد الثقة بلغتنا، وأصبحنا نتنكر للأرومة، ومن حيث إن الثقافة تتولد من رحم اللغة، وتخترع من ألفاظها ومقاطعها وتتجسد في سلوكنا بحسب أمزجته ومتطلبات معاشنا أثناء حياتنا، ولا تستقر ثقافتنا ما لم تستقر لغتنا في المواطنة اللغوية للأفراد.

ومن ماهية المواطنة اللغوية بمفهوماتها البسيطة: الإقليم الذي تقيم به اللغة ويتداولها الأفراد الذين يقيمون بهذا الإقليم الجغرافي، والوطن: "هو المنزل تقيم به وهو موطن الإنسان ومحلّه".⁸ ويذكر صالح بلعيد مفهوم المواطنة اللغوية في الاصطلاح: "إن المواطنة على وزن مفاعلة؛ أي المشاركة من الجانبين مثل المساهمة، وتعتبر علاقة تبادلية بين فرد وفرد، وبين جماعة وجماعة في علاقتهم جميعا بالوطن حتى يمتزجا في لحمة واحدة".⁹ وتوضح المواطنة أوجه التشارك المعنوية والمادية بين أبناء الوطن في الجوانب المادية والمعنوية كاللغة والثقافة والدين والعرق وكل القضايا الاجتماعية.

2- اللسانيات الثقافية والثقافة اللغوية: يشير صالح بلعيد إلى مفهوم خاص من المواطنة وهو المواطنة اللغوية فيقول: "وأما المواطنة اللغوية فتتمثل في اللغة الأم التي نفكر بها، ونهرع لاستعمالها أثناء الخوف، ونتعامل بها في الحميميات وهي التي تتدفق من متلاغيها اندفاعا، فلا يمكن أن تكون مثل اللغة الأجنبية حتى لو أتعناها المتعلم اتقانا فتكون شخصيته مفتعلة".¹⁰ وإذن يتبين أن مفهوم المواطنة مفهوم عام يشمل كل ما يلتزم به المواطن من أداءات وظيفية ترتبط بالوطن، وهذا المصطلح في أصله يستعمله السياسيون بقصد الانتماء للوطن، ضمن منظومة الحقوق والواجبات التي هي من حقوق أي مواطن.¹¹ وعلى رأس هذه المفاهيم مفهوم المواطنة اللغوية التي تتم فيها أنظمة المجتمعات، وليست اللغة مجموعات من الأصوات ومقاطع من الكلمات؛ ينطق بها الشخص حسب ذوقه وهواه، بل اللغة

في جوهرها مرآة صقيلة، تنعكس على أديمها عادات الإنسان، وقيمه، وتقاليده وتتلور فيها أنظمة المجتمعات ومثلها.¹² فلا وجود لمجتمع ما لم توجد لغة له ولا وجود لثقافة ما لم توجد لغة تحويها على مدى العصور؛ لأنه لم تصلنا ثقافة المجتمع الجاهلي أو الإسلامي أو الأموي أو العباسي ما لم تصلنا لغة تحمل هذه الثقافات وغيرها. "وهي اللغة الأم هي تلك التي ازدوجت بها شخصية الإنسان فأصبحت توأمة، وبقية ما أجاده من لغات لا تعدو أن تكون محفوظات يعود إليها عند الحاجة."¹³ فهي محفوظة في أذهان الناس والأفراد الذين ورثوها في حياتهم عن آبائهم وعن أجدادهم في سيرة حياتهم خالدة في عقولهم مع لغتهم. "فكل شخص تتكر للغة فقد شذ عن مجتمعه وفقد عضويته منه، وأضاع شخصيته عن عمد؛ لأن عملاً مثل هذا يعدّ خروجاً على ما هو مألوف بين البشر، وتمرداً على ما هو ما ألفه الناس حوله، وتوطؤوا عليه؛ من حيث الأساليب، والصيغ والقواعد وكل خارج ومتمرد على النظام اللغوي يعتبر -أيضاً- خارجاً ومتمرداً على النظام الاجتماعي، الذي هو -يعيش فيه؛ فأية لغة كانت في العالم؛ ما هي سوى نوع من أنواع السلوك الاجتماعي."¹⁴ فإن النظام اللغوي لأي مجتمع كان هو ضابطه الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والتاريخي وكل مقومات الحياة لديه فإذا تتكر الفرد أو المجتمع للغة فإنه يعيش في متاهات بعيدة عن أصوله ومبادئه لا يثبت لنفسه وجود في هذا العالم.

فالعلاقة بين مفهوم المواطنة ومفهوم الثقافة الوطنية هي علاقة مشاركة إبداعية في خلق فضاء وطني جديد متجدد يتجنب العزلة والانكفاء، ويحارب التعصب والشوفينية، ويؤسس للاندماج والوحدة على قاعدة الديمقراطية واحترام التعدد وصيانة حقوق الإنسان.¹⁵ وحقوق المواطنة "لا شك في فاعلية قيم التسامح والعفو والمغفرة والتجاوز والعدل والإحسان، ولا شك في قدرتها على خلق مناخ يستوعب التعدد العرقي والطائفي والديني، لكن إشاعة هذه القيم لا تؤسس

للاعترااف بالأخر الذي هو حقيقة التسامح وجوهره، وإنما تسعى لقبوله وقبول التعايش معه، وثمة فارق كبير بين قبول الآخر والاعتراف به، فالحالة الأولى يفرضها الواقع والمصالح المشتركة، بينما الحالة الثانية تعبر عن وعي لا تخالطه نوازع التعالي الناشئ عن عقيدة التفوق العنصري أو الاجتماعي أو الديني أو المذهبي أو الثقافي.¹⁶ وبذلك تصبح المواطنة اللغوية بأنها "استعمال اللسان في كل المؤسسات والأماكن العامة، وقضاء المصالح الإدارية وإن المواطنة اللغوية فضاء لغوي ممتد تأخذ فيه اللغة الرسمية النصيب الأوفى انطلاقاً من أن تربية المواطن تحصل أولاً باللغة الرسمية وعدم احتقار الوطنية، وتعزيز الثقافة الوطنية بنقل المفاهيم الوطنية للطفل وبث الوعي بتاريخ الوطن وإنجازاته والاهتمام بمختلف الأنشطة الثقافية، وخاصة الثقافية التي تنسج في الغالب علاقة مميزة بين المواطنين بتحسيسهم أنه جزء من ذواتهم".¹⁷ وليست اللغة وسيلة للتعليم والتعلم كما ينظر لها بعض الافراد من الناس والمعلمين والمتعلمين فيذكر محمد كمال بشر دور اللغة في الحياة، وليس "يقتصر دور اللغة على تيسير التحصيل والاستيعاب للمواد الدراسية إنها بالإضافة إلى ذلك-تمد المتعلم بعامل مهم من عوامل النجاح في الحياة العامة إذ تمنحه القدرة على أن يتعامل بالكلمة تعاملًا لبقًا ذكيًا، فيتحدث ويناقش بوضوح وتركيز ويقرأ ما تقع يده عليه ويفهمه في جلاء وعمق، وهذا الضرب من استغلال اللغة وفنونها من شأنه أن يفتح للإنسان في الحياة مجالاً أوسع ويسبر به في دنيا الثقافة إلى مدى أرحب".¹⁸ إذ يتبين من امتلاك الفرد اللغة امتلاكاً علمياً كبيراً للعلوم والمعارف الثقافية المتنوعة والمتشعبة بكل ما فيهما من تكنولوجيا وآلات وأدوات... الخ فضلاً عن العادات والتقاليد والقيم... إلى غير ذلك.

* ثانياً: اللسانيات الثقافية والمواطنة اللغوية في الجزائر (صالح بلعيد ومحمد

بن عبد الكريم الجزائري): يأخذ موضوع المواطنة اللغوية في الجزائر موقعا رئيسيا من بين المواضيع التي شغلت أبناء الجزائر منذ القديم حتى في زماننا هذا

الحديث والمعاصر؛ لأنّ الجزائر كغيرها من البلدان المتقدّمة تتمتع بتنوع وتعدّد لغويّ لا يمكن عدم الإقرار به، وقد شغل هذا الموضوع فكر العديد من الباحثين المعاصرين-على رأسهم صالح بلعيد-إذ يقول: "إنّ اللّغة الأمّ تتمثّل عندنا في لغة الضّاد؛ وهي لغة حيّة تنبض بالقرآن وفي رحمها آليات التّكيف، وهي لغة الثّبات والبقاء، ولها المرونة على التغلّب والاشتقاق النّاجح. والاشتقاق سرّ الجمال اللّغويّ ونهضته، وبه ترتبط الأفعال والأسماء بعضها ببعض ومن هنا فأنا في موقف الدفاع عن الحقّ المسلوب للعربيّة من قبل الأبعد والأقارب، فألفت لمن يهمله الأمر بأنّ إحياء العربيّة لا يكون برصف أفكار عربيّة من صنع الخارج، وإنّما بهدف تنمية اللّغة من داخلها باعتبارها من اللّغات المتقدّمة العريقة، ولم يسجل عليها التاريخ عجزا عند السلف، بل كانت تتمتع بقوة جيّدة، فاقت كلّ اللّغات، فإذا أدركها الخلل والنقص فيعود إلى الخلف".¹⁹ ويقرّ الأستاذ صالح بلعيد بضرورة التمسك بلغتنا العربيّة ولحمولتها الثقافيّة التي يرثها أبناء الجزائر على أباءهم وأجدادهم من زمن قديم جدا غيره الاستعمار الفرنسي في أقاليم عديدة من المجتمع الجزائري "هي سياسة فرنسا اللّغويّة والثّقافيّة التي تخفي وراء مصالح اقتصاديّة ورغبة في الهيمنة على الشّعوب، وكيف انطلت هذه الخدعة الاستعماريّة الخبيثة على الكثيرين حتّى على بعض مثقفي هذه الشّعوب المغلوبة أنفسهم".²⁰ إذن طمس اللّغة هو طمس للثقافة والهويّة الوطنيّة للشّعب والمجتمع.

1-التنوع الثقافيّ وانعكاساته على الحوار والتنمية في الجزائر: ينظر بعض المتزمتين من المجتمع الجزائري إلى البحث في المواطنة اللّغويّة بأنّه بحث عقيم لأنّ اللّغة الأمازيغيّة لغة الجزائر وتحمل ثقافة كلّ الجزائريين، ومن وجهة نظر هؤلاء الذين يريدون زرع الفتنة لا الإيمان بأنّ شعب الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي اعتنق الإسلام والعروبة ولم يكن هناك صراع بين اللّغة العربيّة واللّغة الأمازيغيّة وليس هناك صراع بين الثّقافة العربيّة ولا الثّقافة الأمازيغيّة، وتوحّدت

لغات الجزائر البربرية في اللغة العربية "فإن قال قائل: كيف تُتكررون على الشعوب التي استبدلت لغات غيرها بلغاتها، ثم تُحبذون استعمال اللغة العربية في الأقطار التي ليست للعرب بالأصالة؛ مثل مصر، وإفريقية الشمالية، وجميع الأقطار الإسلامية على وجه العموم؟! قلنا: إن شعوب هذه الأقطار وقبائلها قد اعتنقوا الإسلام، ليتخذوه ديناً وشريعةً لهم، وليستوحوا منه أخلاقهم وثقافتهم وحضارتهم وليستفيدوا سعادة في الدنيا والآخرة."²¹ وبعد هذا آمنت هذه الشعوب باللغة العربية إذ غدت لغة حياتهم، ولغة ثقافتهم وعاداتهم التي اكتسبوها من الإسلام، فلا تجدهم يقيمون عاداتهم وأخلاقهم وأعرافهم وممارساتهم الاجتماعية إلا في نطاق هذه الثقافة العربية الإسلامية التي اعترف بها الأمازيغيون وأصبحت تمثل نظامهم الاجتماعي والثقافي، بعيداً عن النزاع بين اللغتين العربية والأمازيغية. يقول صالح بلعيد: "اللغة الأم للشعب الجزائري التي جعلته وتجعله متصلاً بوسطه وبأبناء مجتمعه، وعن طريقها يكتسب الجزائريون مواظنتهم ويتواصلون مع غيرهم من العرب، وبعض المسلمين وبها يكتسبون مهاراتهم ويرتبطون في ما بينهم بترائهم وحضارتهم.

إن من يملك زمام اللغة الأم يمتلك بالضرورة ثقافة يدافع بها عن عقل أمته فتقافة كل أمة كامنة في لغتها، والعربية أبرز ملامح ثقافتنا، وهي أكثر اللغات الإنسانية ارتباطاً بالهوية الثقافية، وإذا وقع تركيزي على الجانب الثقافي لمعرفتي بما للهوية من أثر نفسي ومادي؛ باعتبارها تربط الحاضر بالماضي وتحفز الهمة في الحال، وتنير الدرب، وتعمل على تغيير الواقع، فالهوية الثقافية (الغوية) مبدأ ثابت، وحق من الحقوق التي أكد عليها الشرع والأعراف والقوانين؛ لأن اللغة نافذة الشخصية ومرآة العقل؛ وهي المقوم الأهم لتشكيل الأمة والحفاظ على وحدتها، وبناء ثقافتها."²² واللغة عامل من عوامل اكتساب الثقافة والشخصية لدى المجتمع إذ ضاعت اللغة ضاعت شخصية المجتمع

وضاعت ثقافته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتاريخية "نحن لا نرتاب-أبدا-في أن وحدة اللغة عامل من العوامل الأساسية لازدهار ثقافة كل أمة وانتشار حضارتها عبر الأجيال والعصور، منذ بداية التاريخ البشري، ومنذ استئناس الإنسان بأخيه واحتكاكه به."²³ ولم يكن ببعيد ولم يكن بالمستحيل على المجتمع الجزائري بتنوع لغاته ولهجاته وثقافته البربرية من الأمازيغية والشاوية والميزابية والترقية والشلحية... وغيرها أن توحيها اللغة العربية.

والمراد بوحدة اللغة توحيداً مختلف اللهجات المحلية، وصهر جميع اللغات الأجنبية في لغة وطنية واحدة، قابلة للقراءة والكتابة بالأصالة.

فجميع اللهجات المحلية-عندنا في شمال إفريقيا مثلاً-كالعامية والبربرية؛ بما فيها القبائلية والشاوية، والميزابية، والشلحية، والتوارقية؛ كلها ليست لغة ثقافة بالنسبة إلى شمال إفريقيا؛ لأنها غير قابلة للقراءة والكتابة؛ زيادة على عدم توحيد ألفاظها وأساليبها." وهذه حقيقة ملموسة عند هذه الشعوب في شمال إفريقيا وخاصة في الجزائر التي زُرعت فيها الفتنة بين اللغة العربية واللغة الأمازيغية البربرية المتعددة اللهجات فهي أكثر من ستة لهجات مختلفة منتشرة في أقاليم مختلفة من الجزائر

1-القبائلية: إقليمها الجغرافي ما بين /تيزي وزو/ بجاية/ بويرة/ وجزء من /سطيف/ و برج بوعريريج/ و/بومرداس/ وحيجل/

2- الشاوية إقليمها الجغرافي ما بين/باتنة/ تبسة/خنشلة/ أم بواقي/ وجزء من /بسكرة/وميلة/وسطيف/وقالمة/وسوق أهراس/،

3- الميزابية: إقليمها الجغرافي /غرداية/ وما جاورها من المناطق الحدودية لها،

4- الترقية (توارق) إقليمها الجغرافي /تمنراست/ إليزي/ أدرار/.

5- الشلحية: إقليمها الجغرافي /البليدة/المدينة/البيض/النعامه/وترتكز أكثر في/بشار/تلمسان/عين الدفلى/تبيازة/تسمسيلات/شلف/.

6- الشنوية: إقليمها الجغرافي تعرف بقبائل التل الشناوة (اشنوين) والشلوح السواحلية (اشلحين) وهي لا تزال تستعمل بكثرة في ولاية /تبيازة/ المدينة/عين الدفلى/ شلف/ شرشال/. كلّها ليست لغة ثقافة؛ لأنّها ولأسباب علميّة شهد بها القدماء وهي كالآتي:

-لأنّها لغات شفاهية ليست مدونة؛

-لم تكتب بأي خط كان، منذ بدايات وجودها الأولى فهي عبارة عن طلاس؛

-لم تكتب بخط واحد، وتختلف حروفها وأصواتها ودلالاتها كتبت بأجزاء من الحرف اللاتيني والحرف العربي، ثم الحرف اللاتيني؛

-تختلف أقاليمها في الجزائر بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب، وفي المناطق الوسطى وبين الشمال الشرقي والشمال الجنوبي والجنوب الشرقي والجنوب الغربي؛ ومن حيث زمن وجودها التاريخي؛

-تختلف في نطقها وفي دلالة مصطلحاتها مثلا الشاوية تختلف عن الأمازيغية اختلافا شاسعا؛

-عدم توحيد ألفاظها وأساليبها؛

-كلّها ليست لغة الثقافة الجزائرية؛

-لأنّها لغات غير قابلة للقراءة والكتابة بالأصالة؛ أي حروفها الأصلية التيفيناغ مثلاً.

وقد أقر الأجداد قديما بتوحدّها على يد اللغة العربية، كما توحدت لغات العرب في لغة واحدة؛ ألا وهي لغة قريش. وأمّا اللغات الأكثر شيوعا في الأسرة اللغوية البربرية في شمال إفريقيا هما اللغتان الآتيتان:

أ- الشاوية Chawi وتنتشر في نيجيريا، ويتكلم عشرة آلاف. وبعض الأقاليم الوسطى والشرقية من الجزائر.

ب- الأمازيغية Tamasheq وتنتشر في منطقة القبائل في الجزائر والمملكة المغربية، ولها وجود في مالي والنيجر، والناطقون بها يتجاوزون مليوني نسمة.²⁴ وهما رغم انتشارهما الواسع يختلفان أكثر ما يتفقان من حيث المبنى والمعنى اللغوي والأقاليم الجغرافية والأزمنة.

وإن عامل توحد اللغات الجزائرية لدى القدماء في لغة وطنية واحدة هي اللغة العربية باعتبار "أنّ اللغة عامل ثابت ومؤثر من عوامل التقدّم والتحول إلى مجتمع المعرفة وهي أداة التبادل المعلوماتي والمعرفي، فكّما كانت اللغة ثرية موحّدة أصبحت عملية إشاعة المعارف عملية ميسورة، ومن ثمّ يتكوّن مجتمع المعرفة القائم على حسن استخدام اللغة.²⁵ وإنّ اللغة العربية وبمكانتها القديمة والحديثة والمعاصرة قد ألّمت شتات اللغات العربية القديمة، وألّمت شتات اللغات شمال إفريقيا والأكثر من التنوع الثقافي وانعكاساته على الحوار والتنمية بين اللغات، "إنّ اللغة عنصر أساس في جوهر الهوية الوطنية، فعن طريقها يعي المواطن تراث آبائه، وبها يعيش عصره، وفيها يتنفس مواطنه، إلى جانب أنّ اللغة هي الوسيلة المشتركة بين الأفراد؛ والذين قد لا يجمعهم الدين أو التاريخ، ولكنهم تجمعهم المصالح المشتركة، واللغة خير من بجدد لم شمل من اختلفت مشاربهم؛ ومن هنا فإنّ اللغة أقوى عوامل الهوية، باعتبارها واقعا وطموحا، وخاصة عندما تكون مثل العربية لغة الدين، فهي لا تحيد عن المعتقد والأصالة، وهي لغة المستقبل باعتبارها لغة الواقع والخطاب المعاصر.²⁶ وقد حفظت اللغة العربية كلّ التنوعات الثقافية البربرية الأمازيغية التراثية الجزائرية؛ لأنّ الاكتساب اللغوي العربيّ الذي حصل لأجدادنا عند اعتناقهم للإسلام، واللغة العربية ليسا لطسم الهويات الثقافية ولغاتها أو لمسحها وقصر حصر انتشارها بقدر ما كانت اللغة العربية تكافؤ وتكيف وتعايش

للاندماج مع اللغات الجزائرية الأخرى وتنوعها الثقافي، وخير دليل على ذلك أن اللغة العربية في أرقى عصور ازدهارها لم تلمس لغات الإغريق والهنود والفرس واليونان والرومان بقدر ما احتفظت بها وعلومها، وخير دليل على ذلك وجود ألفاظها في القرآن الكريم فقد حافظت على علومها يقول هارالد مولر في كتابه تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتنغتون: "يمثل العرب أمة غنية في العالم، وقد حفظت اللغة العربية، والعلماء العرب كنوز المعرفة التي حققها الإغريق والرومان في العصور القديمة عندما كانت أوروبا تغط في (عصورها المظلمة)، ومن دون هذا الجهد التاريخي الذي قام به العرب، ما كان لنا أن نكون عليه الآن".²⁷ حتى إن اللغة العربية حملت هذه الحضارات من الثقافات ما لم تحفظه لغاتها التي اندثرت واضمحلت بزوال أصحابها.

ومن التنوع الثقافي في الجزائر وجود العديد من الأفراد من مختلف الأقاليم الجزائرية يتكلمون اللغة الفرنسية ويتباهون بالثقافة الفرنسية في الجزائر على اعتبار أن اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية أرقى من اللغات الجزائرية كلها حتى اللغات الجزائرية الأصلية التي وحدتها اللغة العربية، ومعلوم أن اللغات الحديثة الفرنسية والإنجليزية والألمانية والبرتغالية والإسبانية لغات مصطنعة ليست أصيلة أي أنها في الأصل كانت لهجات تتفرع من اللغة اللاتينية الأصل وهي فروع عنها "اللغة الفرنسية مثلاً ليست لغة ثقافة بالنسبة إلى شعوب المغرب العربي؛ لأنهم لا يتكلمونها بالأصالة، وليست هي لغتهم الوطنية، النابعة من صميم مجتمعهم، بل هي شعار من شعارات العدو الغازي لأوطانهم؛ من أجل احتلالها واستعباد النسمات بها.

ومن الخذلان الفظيع أن تبقى هذه اللغة عالقة بألسنتنا مكرمةً بيننا، مقدمة في مدارسنا ومعاهدنا مبدلة في جامعاتنا، وإدارتنا، مستعملة في مختلف شؤوننا الوطنية، ثم من المستغرب جداً أن تبقى هذه اللغة معمولاً بها في معاملتنا اليومية وأن تبقى رائجة بين أسرنا في منازلنا! "إنه من العيب الوخيم والعار العظيم أن

تكون هذه اللغة-الفرنسية-التي أراد المستعمر أن يفرضها فرضا علينا أن تبقى لزماننا والتي أراد المستعمر بها أن يمحو نحو طمس الثقافة والهوية الجزائرية وينشر نحو الأمية.

2- نماذج من التنوع الثقافي في الجزائر: الجزائر بلد غني بالتنوع الثقافي بين مختلف لغاته الأصلية التي وحدتها اللغة العربية مع دخول الإسلام، فجمعت اللغة العربية بين التنوع الثقافي القبائلي والشاوي والميزابي والتوارقي وغيرها من التنوعات الثقافية في الجزائر التي يتداولها الجزائريون اليوم والتي ورثوها عن آباءهم وعن أجدادهم، والحديث في التنوع الثقافي لا يمكن حصره، شأنه في ذلك شأن الحديث عن الثقافة، وما تحويه من فنون وآداب وعلوم وصناعات تقليدية وغيرها من الأدب الشعبي والأدب العالمي، ونختصر هذا البحث في مجال الأمثال الشعبية الجزائرية فهي: "وقد انتفى الزمان هذه الأقوال المأثورة ووضع لها أساطير ارتبطت بها وما بقي منها ولم يزل فإنه لا يزال قويا جذابا على الرغم مما أصابه الدهر ومرور السنين إنها جواهر، قد حفظت من التلف باندساسها في ذاكرة الأجيال المتتالية وهي كنز ثقافي ذو قيمة كبيرة تتراءى فيها الملامح الخاصة بكل قوم، وذلك لأنها وليدة ظروف معينة وبالتالي وليدة التاريخ والجغرافية والمناخ.

إن خاصيتها الأساسية هي الإيجاز: فهي قليلة اللفظ كثيرة المعاني، وهي تحتوي على نمط من الأخلاق وعلى فلسفة بل على فن الحياة.²⁹ فالأمثال الشعبية تمثل ذاكرة هذا المجتمع الثقافية التي لا تزول بزوال أصحابها أي قائلها، فقد يموت قائل المثل ولا ينسى؛ لأنه ترك شيئا يذكر به كالعالم الذي يموت ويبقى علمه أو الشاعر الذي يموت ويبقى شعره، ومن الأمثال الشعبية الجزائرية التي قيلت قديما وما زالت متداولة عندنا اليوم: "الأيام ناقصة من عمري وأنا نعد فيها، (الأيام تمضي من حياتي وأنا أحسبها) عندما يكون أحدا منتظرا لحدث سعيد كزواج أو ولادة أو قضاء عطلة أو عودة غائب... الخيتمنى أن تمر الأيام بسرعة دون أن

يشعر بأنّها تقرب الشّخص من الموت، وهم يتقبلونها خاضعين بذلك للقضاء والقدّر.³⁰ ويتضح معنى هذا المثل في الذين يحتفلون بيوم عيد ميلادهم يضمنون أنّهم يحتفلون بسنة مولد جديد تزيد من أعمارهم، ولكن هي في الحقيقة نقصان من أعمارهم التي يعيشونها فهم ينقصون من أعمارهم حتّى تحن سنة أجلهم هم يقتربون منها سنة بعد سنة.

ومن الأمثال الشعبيّة الجزائريّة: "أبواب الله واسعة، (معناه أن منافذ الخلاص التي يعطيها الله واسعة، وقدراته غير محدودة يكفي أن نبتهل إلى الله بصدق لتسطينا عنايته؛ وهو قول يؤتى به للتشجيع والمواساة".³¹ ويقال هذا المثل اليوم عندما يطلب إنسان من إنسان أمرا أو شيئا ما ولا يلبي له ذلك الإنسان ذلك الأمر أو الشيء فيقال له أبواب الله واسعة ما يسد باب يفتح باب.

ومن الأمثال الشعبيّة الجزائريّة: "أح من بطني، أح من ظهري، وأح منهم قاع، (ويحي من بطني ويحي من ظهري، يا ويحي منهما معاً) المرأة الحامل تتألم من بطنها مرّة، ومن ظهرها مرّة أخرى وأحيانا منهما معاً، يقال للتأكيد على أنّ المشكل عويص وأنه مهما كان الحل فلن يكون شافيا كافيا.³²

ومن الأمثال الشعبيّة أيضا: "اللي يغويك رخصه في ركنه يبقى نصه، (أي الشيء الذي اشتريته لو خفض ثمنه ستلقي بالنصف منه في ركن ما)... ويقال: (اللي يعجبك رخصه في الدار ترمي نصفه)."³³ ويقال هذا المثل لكلّ من ذهب إلى السوق واشترى شيئا ما بثمن زهيد يقال له هذا المثل: اللي عجبك رخصه في السوق خلّيت نصفه. من الخضر أو الفواكه أو غيرها من الأغراض المنزلية.

ومن الأمثال الشعبيّة الجزائريّة أيضا: "اصبر تجبر، (اصبر وستلتئم جراحك) أب بإذن الله وبالصبر ينال الإنسان مراده."³⁴ ويقال أيضا في منطقة بسكرة وضواحيها (الصابر جابر).

ومن الأمثال الشعبية الجزائرية أيضا: "إذا أروات في الينابر نَقَص من الخماير وزد في المطاير (أي إذا ارتوت الأرض من المطر في الأيام الأولى من يناير، فانقص من ذخيرة المطامر وزد في أخاديد الحرث). المشاهدة للطبيعة تؤدي الفلاح إلى اكتشاف أسرارها، فيتمكن بفضل التجربة البحتة أن يقيم رزنامة للحالة الجوية فيستعملها في شتى أعمال الزراعة وتربية المواشي.³⁵ وفي هذا المثل على سبيل المثال لا الحصر حصل اندماج بين اللغتين الأمازيغية والعربية ولو بحثنا في العديد من الأمثال لوجدنا أغلبها كذلك إن لم نقل كلها، وليس على مستوى الأمثال فحسب بل في الشعر والحكمة والأحاجي والألغاز ... الخ.

ومن الأمثال الشعبية أيضا: "أحرث والا نبْعْجَك، (أي الأبقار قد ترفض الحرث إذا لم ترب على ذلك، وقد تموت بين الأتلام يقتلها الفلاح الشديد الغضب، ويستعمل هذا المثل بشيء من التوسع ويكون معناه؛ أفعل كذا رغم أنفك، وإياك أن تتركه.³⁶ وتوضّح هذه الأمثال الشعبية العديد من التنوّعات الثقافية لدى المجتمع الجزائري وبالخصوص في حيز الأمثال الشعبية ناهيك عن الشعر والحكمة والألغاز والأحاجي والحكايات والأساطير والخرفات الشعبية المتعددة من الموروث الثقافي الجزائري من كلّ لغات الجزائر القبائلية والشاوية والميزابية والترقية والشلحية وغيرها التي جمعتها اللغة العربية وجمعت معها موروثها الثقافي كلّ حتّى الغناء والموسيقى والرقص والصناعات التقليدية والحرف والمهن ... من التنوع الثقافي ... الخ. وحتّى يعبر هذا الموروث الثقافي عما يزر به التراث الجزائري من ثورة فكرية لغوية إنسانية عظيمة.

الخاتمة: تعتبر الأمثال الشعبية من أكبر القضايا الثقافية أهمية وقيمة ومكانة سامية، والتي تعتبر ركيزة كبرى من ركائز المجتمع ومن تنوعه الثقافي، ومن دسائسه التي تمثل الثروة الحقيقية للأفراد والمجتمعات. وقد وردت لفظ الأمثال في القرآن الكريم في أكثر من عشرة سورة وفي أكثر من أحد عشر آية مختلف من

سور القرآن الكريم دلالة على أهميتها وقيمتها في الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية واللغوية وعادات الناس وعقائدهم وحكمتهم وأخلاقهم

ثَأْتَأُ أَيْ بُرْ بِزْ بِمْ بِنْ بِيْ بِيْ تَرْتَزْتَمْتَن تِيْ تِيْ ثَرْتَرْتَمْ ثَنْ ثِيْ ثِيْ
فِيْ فِيْ قِيْ قِيْ كَا كَلْ كَمْ كِيْ كِيْ لَمْ لَمْ لِيْ لِيْ مَا مَمْ نَرَنْزَنْزَنْ نِيْ
نِيْ يْ يَرِيْزِيْمْ يَنْ ٣٧ ثَأْتَأُ أَيْ بِيْ تَجْ تَجْ تَخْ تَمْ تَهْ تَمْ جَدْ جَمْ حَجْ حَمْ حَجْ
خَمْ سَجْ سَخْ سَمْ صَخْ صَمْ ضَخْ ضَمْ طَخْ طَمْ عَجْ
عَمْ غَجَمْ فَجْ فَدْ فَمَقَدْ قَمْ كَجْ كَدْ كَا كَمْ لَجَدْ لَخْ لَمْ لَهْ مَجْ
مَحْ ٣٨

ثَأْتَأُ أَيْ لَخْ لَمْ لِيْ لِيْ مَجْ مَحْ مَخْ مَمْ مِيْ مِيْ نَجْ نَخْ نَمْ ٣٩ ثَأْتَأُ أَيْ
نِيْ نِيْ بُرْ بِزْ بِمْ بِنْ بِيْ بِيْ تَرْتَزْتَمْتَن تِيْ تِيْ ثَرْتَرْتَمْ ثَنْ ثِيْ ثِيْ هَجْ هَمْ
هِيْ هِيْ يَجْ يَحْ يَخْ يَمْ يِيْ يِيْ دُرْ ٤١ ثَأْتَأُ أَيْ مَخْ مَمْ نَجْ نَخْ نَمْ نَهْ
هَجْ هَمْ هُ ٤٢

ثَأْتَأُ أَيْ نَخْ نَمْ نَهْ نَجْ بِجْ بِخْ بِمْ بِيْ بِيْ تَجْ تَخْ تَمْ تَهْ تَمْ جَدْ جَمْ حَجْ حَمْ
خَجْ خَمْ سَجْ سَخْ سَمْ صَخْ صَمْ ضَخْ ضَمْ طَخْ طَمْ عَجْ عَمْ غَمْ فَجْ فَدْ فَمَقَدْ قَمْ كَجْ كَدْ كَا كَمْ لَجْ لَخْ لَمْ لَهْ
مَجْ مَحْ مَخْ ٤٣ ثَأْتَأُ أَيْ تَمْ جَدْ جَمْ حَجْ حَمْ خَجْ خَمْ سَجْ سَخْ سَمْ ٤٤
ثَأْتَأُ أَيْ كَمْ كِيْ كِيْ لَمْ لِيْ لِيْ مَا مَمْ نَرَنْزَنْزَنْ ٤٥ ثَأْتَأُ أَيْ يَمْ يَنْ يِيْ يِيْ نَجْ

نَحْ نَخْ نَمْ نَهْ ٤٦ يبين لنا سبحانه وتعالى عظمة الأمثال ومكانتها وقيمتها
ودرجة علمها ومعرفتها فلا يعرف ولا يعلم الأمثال إلا العالمون، وليس العامة من
الناس تعقل الأمثال، ثَأْتَأُ أَيْ ثَنْ ثِيْ ثِيْ فِيْ فِيْ قِيْ قِيْ كَا كَلْ كَمْ كِيْ
كِيْ لَمْ لَمْ لِيْ لِيْ مَا مَمْ نَرَنْزَنْزَنْ ٤٧ ويبين لنا سبحانه وتعالى مكانة الأمثال
السامية بين الشعوب فالقرآن الكريم ضرب لنا الأمثال من كل الحضارات والأمم
لأخذ العبر والمواعظ من تلك الشعوب وتلك الأمم التي بعث الله فيها الأنبياء
 والمرسلين. فالأمثال في القرآن الكريم تلخص حياة الشعوب في الجهل والظلام

فضرب لنا الأمثال عنها باعتبارها حكمة وخلاصة تجارب وثروة وثمره لا يعقلها إلا العالمون المتفكرون فيها، ومعجزة الأمثال أنها لا يدركها إلا العالمون لحكمة بالغة وحجة داحضة.

وأما حقيقة التنوع الثقافي في الجزائر فهي قضية تضرب بجذورها في التاريخ منذ القديم والجزائر بلد يزخر بالتنوع الثقافي واللغوي والفكري والحضاري والجزائر بلد يؤمن بهذا التعدد والتنوع الثقافي واللغوي والحضاري، وليست ظاهرة تعدد الكيانات الثقافية وتنوعها واختلافها جديدة إطلاقاً، فجذورها تضرب في أعماق التاريخ الاجتماعي للبشر. وهي بالتأكيد إحدى الخصائص الأساسية للمجتمعات البشرية منذ البدايات الأولى لنشأتها. فالثقافات وضمناها اللغات، أخذت أشكالاً متنوعة عبر الزمان، ويظهر هذا التنوع في تمايز لافق للهويات الثقافية للمجموعات التي تتشكل منها المجتمعات البشرية، وفي عصرنا الحالي ثمة إجماع عالمي على اعتبار التنوع الثقافي تراثاً مشتركاً للبشرية جمعاء وشرطاً لازدهار حضاراتها.

أكد هذه المسألة بوضوح الإعلان العالمي للتنوع الثقافي الصادر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) في عام 2001م.⁴⁸

الهوامش والإحالات:

- ¹ - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، ط3 القاهرة، 1417هـ-1998م ص147.
- ² - عبد الله محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة 1411هـ-1981م، ج6، ص492.
- ³ - عفت محمد الشرقاوي، الثقافة العربية بين الوحدة والتعدد في حوار المشرق والمغرب، إشراف محمد محمد سيد خليل دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م، ص31-33.
- ⁴ - محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتنا، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، (د. ت)، ص8.
- ⁵ - المرجع نفسه، ص9.
- ⁶ - محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب، القاهرة، 2001م، ص93.
- ⁷ - محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتنا، ص7.
- ⁸ - ابن منظور، لسان العرب، ج52، ص4368.
- ⁹ - صالح بلعيد، قراءة معاصرة تتشد التغيير، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر تيزي وزو، 2014م ص119.
- ¹⁰ - المرجع نفسه، ص119.
- ¹¹ - صالح بلعيد، في المواطنة اللغوية وأشياء أخرى...، دار هومة، بوزريعة، الجزائر، 2008م ص7.
- ¹² - محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتنا، ص8.
- ¹³ - صالح بلعيد، قراءة معاصرة تتشد التغيير، ص120.
- ¹⁴ - محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتنا، ص8.
- ¹⁵ - الصافوط محمد، المواطنة والوطنية، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، الدار البيضاء، المغرب 2007م، ص71.
- ¹⁶ - ماجد الغرباوي، التسامح ومنابع اللاتسامح فرص التعايش بين الأديان والثقافات، الناشر الحضارية للطباعة والنشر بغداد، العراق، 1429هـ-2008م، ص75.

- 17- صالح بلعيد، في المواطنة اللغوية وأشياء أخرى...، ص19.
- 18- كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م ص218.
- 19- صالح بلعيد، قراءة معاصرة تنتشد التغيير، ص120.
- 20- عبد العلي الودغيري، "الفرانكفونية في إفريقيا"، مجلة الموقف، المغرب، 1992، العدد13-14. نقلا عن صالح بلعيد قراءة معاصرة تنتشد التغيير، ص121.
- 21- محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتها، ص11.
- 22- صالح بلعيد، في المواطنة اللغوية وأشياء أخرى...، ص4-5.
- 23- محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتها، ص12.
- 24- سمير شريف استيتية، اللسانيات المجال، والوظيفة، والمنهج، ص623.
- 25- صالح بلعيد، في المواطنة اللغوية وأشياء أخرى...، ص5.
- 26- المرجع نفسه، ص7.
- 27- هار الدمولر، تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتنغتون، تر: إبراهيم أبو هشيش، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، 2005م، ص4.
- 28- محمد بن عبد الكريم الجزائري، لغة كل أمة روح ثقافتها، ص12.
- 29- قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية بالأمثال يتضح المقال، تر: عبد الرحمن الحاج صالح، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ابن عكنون، الجزائر، ص5.
- 30- المرجع نفسه، ص9.
- 31- المرجع نفسه، ص15.
- 32- المرجع نفسه، ص25.
- 33- المرجع نفسه، ص32.
- 34- المرجع نفسه، ص37.
- 35- المرجع نفسه، ص42.
- 36- المرجع نفسه، ص51.
- 37- سورة البقرة، الآية 26.
- 38- سورة الرعد، الآية 17.
- 39- سورة إبراهيم، الآية 25.

- 40- سورة إبراهيم، الآية 45.
- 41- سورة النحل، الآية 74.
- 42- سورة الإسراء، الآية 48.
- 43- سورة النور، الآية 35.
- 44- سورة الفرقان، الآية 9.
- 45- سورة الفرقان، الآية 39.
- 46- سورة العنكبوت، الآية، 43.
- 47- سورة الحشر، الآية 21.
- 48- رمزي منير بعلبكي، امحمد جبرون، عبد القادر فاسي الفهري وآخرون، واللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ط1، الدوحة، قطر، 2013، ص233-234.

قيم التسامح في الثقافة الإسلامية وأهمية اللغات في إثراء التنوع الحضاري

- نماذج من التبادل اللغوي والحوار الحضاري في الأندلس -

د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة

جامعة عنابة

مقدمة: موضوع هذا البحث هو «قيم التسامح في الثقافة الإسلامية وأهمية اللغات في إثراء التنوع الحضاري- نماذج من التبادل اللغوي والحوار الحضاري في الأندلس -»، وهو بحث يُركز على ثقافة التسامح، و الحوار التي جاءت في ديننا الإسلامي الحنيف، الذي يدعو إلى ترسيخ قيم التعايش السلمي، والحوار الحضاري بين الأديان، والثقافات، لا انطلاقاً من مواقف آنية، أو ظروف محددة، أو عابرة ولكن تجسيداً لوحدة النوع الإنساني، وترسيخاً لأسس العدالة، و سواسية الناس في الخلقة، وتحقيقاً لإرادة الله عزّ وجلّ في جعلهم شعوباً، وقبائل ليتعارفوا، ذلك التعارف غير المقصود لذاته، أو لغايات اعتبارية، وإنما لما يُثمر من تعاون وتضامن، يُساهم في تعميم الخير، والسلام على كافة الأمم، والشعوب.

ولا ريب في أن ديننا الإسلامي الحنيف الذي انتشر بوساطة التسامح، و الحوار الحضاري، يحتل موقعاً متميزاً في العطاء الحضاري الإنساني، والعالمي، فمما لا يشوبه شك أن الإسلام قد أرسى دعائم حضارة باذخة، تعايشت فيها الأجناس والأديان، وتثاقفت فيها اللغات، والثقافات، والحوار بين الحضارات، والثقافات هو الآن ضرورة ملحة للعيش في عالم آمن، ومستقر، ومشاهد العنف، والفرع العالمية لا تُبقي مكاناً لحياة إنسانية ذات معنى، لذلك فإن الحوار بين الحضارات، والثقافات ليس ضرورة في المساحات الجغرافية، بل ضرورة في المساحات المعرفية، ونحن بحاجة ماسة لأن نجيب على ما يُحيط بنا من أسئلة عميقة، وواقعية، وأن نرصد

مسيرة التحولات كما ينبغي، فالعالم اليوم متعطش إلى السلام، والصداقة، والحرية والعدالة، ويصر على أن ينال حريته، وحقوقه الإنسانية، لكن حقيقة السلام، والحرية والعدالة، لا تُنال بالحرب، والتعنّت، والتمييز، والسلام الذي يتحقق بالحرب هش دائماً وغير متين، أما السلام القائم على العدالة، والإنصاف، والحوار، والمنطق فهو السلام الحقيقي الدائم⁽¹⁾، ولاشك في أن «مبدأ الحوار بين طرف وآخر، هو مبدأ يدل على توفر حضارة وثقافة لدى الطرفين، والحضارة تقود إلى الفهم والتفاهم وتبعد شبح الاختلاف الذي يؤدي إلى الصدام، فالحوار بين الأديان والثقافات صفة حضارية متقدمة جداً، وكثيراً ما أوصلت أطراف الحوار إلى بر السلام من حيث الاحترام المتبادل ومن ثمة الاعتراف بقدسية الأديان كلها، وإذا رجعنا إلى مبادئ الأديان الأساسية نجد أنها جميعاً تصب في مصلحة الإنسان الذي خلقه الخالق في أحسن تقويم»⁽²⁾، وفي عصرنا الراهن ما فتئت دائرة الاهتمام بقيم التسامح، و حوار الثقافات، والديانات، تتسع وتتصاعد يوماً بعد يوم، حتى أضحي هذا الموضوع في المرحلة التاريخية الراهنة هاجساً إنسانياً مشتركاً، ومطلباً عالمياً ملحاً، لا يُمكن الحياد عن تداوله، وتناوله، والانخراط فيه، ومناقشة قضايا وأبعاده، حيث إنه أضحي في مقدمة سلم قضايا الألفية الثالثة متجاوزاً مختلف الحدود الجغرافية، و الفوارق المذهبية، والاختلافات العقائدية والعرقية وأدرج «ضمن أولويات المشاريع الأممية، فقد أيقن الجميع بأن لامناص للبشرية من صراعاتها التاريخية الدامية بغير الانفتاح على الآخر، والدخول معه في حوار جاد، وبناء من أجل المصلحة المشتركة بعيداً عن كل أشكال التوحد، والحسابات الضيقة. ولا غرو أن إعلان الأمم المتحدة، ومنظمة اليونسكو تحديداً أن تكون السنة الأولى من الألفية الثالثة سنة حوار الثقافات قد قدم الدليل الواضح على أهمية القضية وحساسيتها وألويتها في أجندة اهتمامات المجتمع الدولي، إن فكرة الحوار بين الثقافات، والأديان لم تبث من فراغ، ولم تكن أبداً ولن تكون ضرباً من

الاعتباط الفكري، والإغراءات الانفعالية، وإنما هي نتيجة حتمية، ومباشرة لجُملة من العوامل الموضوعية التي اعتملت فيها»⁽³⁾

وهذا ما يُلقى على الباحثين، والكتّاب مسؤولية الكشف عن العوامل التي جمعت بين الشعوب، ووحدت أهدافهم، ورؤاهم، ويدفعهم إلى التّقيب عن الأسس والمرتكزات التي أفرزت قاعدة صلبة لحوار الحضارات والثقافات عبر مراحل التاريخ، ولاسيما في ظل التحولات التي وقعت في العالم في السنوات الأخيرة حيث احتد النقاش، والجدل، وكثرت التساؤلات على المستوى العالمي، وفي أوساط النخب وداخل مؤسسات البحث، والتكوين، عن القيم التي ينبغي التركيز عليها وترسيخها، والدفاع عنها في إطار ما أصبح يُصطلح عليه بزمن العولمة، الأمر الذي خلق عدة تساؤلات أخرى من أهمها: هل يتعلق الأمر بقيم كونية، تُطبق على كل المجتمعات؟ أم أن خصوصية هذه المجتمعات تستدعي إقرار قيم أخرى تختلف عن الأبعاد والمقاصد الكونية للقيم، قصد احترام مبدأ الاختلاف، والتعدد؟⁽⁴⁾

لأجل كل ذلك، يسعى هذا البحث إلى إبراز قيم التسامح في الثقافة الإسلامية ويُركز على أهميّة اللُّغات في إثراء التّنوع الحضاري، من خلال تقديم عدة نماذج من التّبادل اللّغوي، والحوار الحضاري في الأندلس، فتسليط الضوء على قيم الحوار الحضاري مع الآخر، والتعايش السلمي، الذي يكتسي طابعاً حضارياً ويتصل بمسألة التسامح، والحوار الثقافي بين شتى الأمم، والأعراق له ما يُبرره فالحوار بين الثقافات، والديانات المختلفة كان من المواضيع المحترمة في المجتمع الإسلامي الذي لم يعرف التعصب الديني، إلا في حالات استثنائية قليلة، وشاذة وتزداد أهمية هذا الموضوع خاصة عندما نعلم بأن العالم المعاصر يسعى إلى تأسيس نظام جديد- كما سبقت الإشارة إلى ذلك-، كما أن الإسلام، والمسلمين يتعرضون إلى حملات شعواء ترمي إلى تشويه صورتهم، وتقديم نظرة خاطئة عن ممارساتهم، بالإضافة إلى رواج بعض النظريات التي تسعى إلى التنكر لهذا العطاء

الحضاري الإنساني الفريد من نوعه، فتقافتنا الإسلامية في العصر الراهن تقف أمام مجموعة من التحديات الكبيرة من أهمها: الحفاظ على الهوية في الشكل والمضمون، والتصدي لكل ما هو خطير عليها، ومحاورة الآخر على أسس صلبة وسليمة، ووفقاً لمنظور يبنى بين الطرفين على الموضوعية والإنصاف، ويبتعد عن التجني، والإجحاف⁽⁵⁾.

أولاً: قِيم التسامح في الثقافة الإسلامية: إن للتسامح، والحوار في ديننا الإسلامي الحنيف قواعد، وآداب، ولعل من أبرز هذه القواعد والآداب ما ورد في سورة سبأ، حيث كان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يُحاور غير المؤمنين شارحاً، ومبيناً، ومبلغاً، ولكنهم كانوا يُصرون على أن الحق إلى جانبهم، فحسم الحوار معهم على قاعدة النص: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾⁽⁶⁾ لقد وضع الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم نفسه في مستوى من يحاور تاركاً الحكم لله سبحانه، وتعالى، وهو أسمى تعبير عن احترام حُرّية الآخر في الاختيار، وعن احترام اختياره حتى، ولو كان على خطأ، وذهب إلى أبعد من ذلك عندما قال سبحانه، وتعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁽⁷⁾، فكان من آداب التسامح، و الحوار، بل من المبالغة في هذه الآداب أن وصف اختياره للحق، وهو على حق بأنه إجرام (في نظرهم)، ووصف اختيارهم للباطل، وهم على باطل، بأنه مجرد عمل، ثم ترك الحكم لله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾⁽⁸⁾ إن احترام حُرّية الاختيار هنا ليس احتراماً للخطأ، فتسفيه وجهه نظر الآخر، ومحاولة إسقاطها ليسا الهدف الذي لا يكون المحاور مجدياً إلا إذا تحقق، إن من أهداف الحوار تعريف الآخر على وجهة نظر لا يعرفها، ومحاولة إقناعه بالتي هي أحسن بموقف ينكره، أو يتكر له. وهو أمر يشكل في حد ذاته أحد أهم عناصر الاحتكاك الفكري والتكامل الثقافي والتدافع الحضاري بين الناس، ومن دون ذلك يركد الذهن ويفقد العطش إلى المعرفة عود

الثقاب الذي يلهبه، وتتحوّل مساحات الفكر إلى بحيرات آسنة، فالاختلاف بين الناس، وما يشكل الاختلاف من تدافع، يُشكلان أحد أهم موجبات عدم فساد الأرض، وهناك فوارق كثيرة بين علاقة الإرادة وعلاقة الفرض، فالعلاقة الأولى هي نتيجة حوار وثمره تفاهم، ومن ثمة فهي فعل إرادي تحقق المحبة والاحترام والثقة، أما العلاقة الثانية فهي حال تنكر لحق الآخر وتجاهل لتمييزاته ولخصائصه ' وتجاوز للحوار كوسيلة لفهمه وللتفاهم معه، فهي حال مفروضة، وكل ما هو مفروض مرفوض من حيث المبدأ، ومن حيث الأساس، ولذلك فإنها لا تحقق سوى البغضاء والكراهية وعدم الثقة. وقد أرسى مجتمع المدينة المنورة في عهد رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم قاعدة تقوم على التسامح⁽⁹⁾، من أجل إقامة نسق تعاوني بين فئات الناس من مؤمنين، وأهل كتاب في أمة واحدة، «فالوثيقة النبوية أقرت أصحاب الآراء على آرائهم وتكفلت بحمايتهم كما هم، فقد قام مجتمع المدينة على قاعدة نشر الدعوة مع احتضان الاختلاف، وليس مع تجاهله ولا مع محاولة إلغائه فقد حاور النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران في بيته في المدينة المنورة وأحسن وفادتهم، وعندما حان وقت صلاتهم لم يجد النبي أي غضاضة في دعوتهم كما تذكر روايات ثقة إلى أداء صلاتهم...، فعلى قاعدة هذه السابقة النبوية في دولة المدينة الأولى، فإن الإسلام لا يضيق بتنوع الانتماء العقدي، ولا يؤمن بالنقاء العرقي (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). فإذا كان التنوع من طبيعة تكوين المجتمع، فإن الحوار هو الطريق الوحيد الذي يؤدي بالاختيار الحر وبالمحبة إلى الوفاق والتفاهم والوحدة، ذلك أن البديل عن الحوار هو القطيعة والانكفاء على الذات، وتطوير ثقافة الحذر والشك والعداء للآخر»⁽¹⁰⁾. ولا ريب في أن من أبرز مقومات الحضارة العربية الإسلامية الاهتمام بالآخر واحترامه، و السعي إلى خلق جسور تواصل، وتكامل معه، و نبذ كل ما من شأنه أن يسيء إليه، ويشهد تعدد الأقليات الدينية، والإثنية في العالم الإسلامي، ومحافظة هذه الأقليات على

خصائصها العنصرية، وعلى تراثها العقدي، والديني، وعلى لغاتها، وثقافتها الخاصة، على هذه الحقيقة وأصالتها. فاعتراف الإسلام بالآخر، ومحاورته بالتّي هي أحسن، وقبوله كما هو لا يعود بالضرورة إلى تسامح الملمين، بل إلى سماحة الإسلام، وإلى جوهر الشريعة الإسلامية⁽¹¹⁾.

ينطلق التسامح، والحوار في الرؤية الثقافية الإسلامية من قواعد منطقية وعلمية تعتمد على الحجة، والدليل، والبرهان، ويتوسل الجدل بالتّي هي أحسن، والموعظة الحسنة، كما لا بد لكي ينجح نهج التسامح، أن يتم الحوار في الأجواء الهادئة ويكون بتريث، وحكمة، من أجل إبعاد الغضب، ونزع الأجواء الانفعالية التي تبتعد بالإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل، وتبصر، وتفكير، فقد اعتبر القرآن الكريم أن اتهام النبي بالجنون سببه الجو الانفعالي، والعدائي لخصومه، لذلك قدم لهم دعوة إلى الانفصال عن هذا الجو، والتفكير بانفراد، وهذوء، والمنهج القرآني في التسامح، و الحوار يُوجه دائماً إلى إنهائه بمهمة، وأداء رسالة تظل راسخة في الضمير، وإن لم يظهر أثرها في الفكر، فهو أسلوب لا يسيء إلى الخصم بل يؤكد حريته، واستقلاليتّه، ويقوده إلى موقع المسؤولية ليتحرك الجميع في إطارها وينطلقوا منها ومعها في أكثر من مجال، ففي ثقافة الحوار في الإسلام جملة من الآداب والقيم والمناهج الأخلاقية التي تحترم الإنسان وتقدر حريته في الاختيار كما تحترم حقه في الاختلاف وفي المجادلة⁽¹²⁾.

لقد شجع القرآن الكريم على التسامح، و الحوار، بمعنى الكلام، وتبادل الرأي من أجل التوضيح، والإفهام، والوصول إلى الحقائق كما هي بعيداً عن التزييف ورسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - عُرف بتسامحه، و حوارهِ الحضاري الراقى مع الأديان الأخرى، وهو المثل الأبرز، والمُشرق الذي ينبغي أن نفتدي به ففي بدايات هجرته إلى المدينة المنورة وفدت عليه الكثير من الوفود كان من بينهم، وقد من نجران جلسوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحادثونه

ويسألونه عن الدين الجديد، وأوجه الاختلاف بين هذا الدين، والدين المسيحي الذي يدينون به، ثم حدثوه عن شخصية عيسى عليه السلام، وبعد حوار أخوي رأوا كما أخبروا النبي أن يبقى هو على دينه، ويظلون على دينهم، ونتيجة لكون الحوار ودياً بين الطرفين استضافهم الرسول- صلى الله عليه وسلم- بجواره، حيث أقام لهم خيمة يسكنون فيها قرب منزله، وفي جزء من مسجد المدينة⁽¹³⁾. وبناءً على مقترحات المفكر الدكتور (محمد جابر الأنصاري)، فيما يتصل بالتسامح، والسلم فقبل محاوره الغرب، أو الشرق علينا القيام بتأسيس حوار جديد ومختلف مع أنفسنا يقوم على الأسس التالية:

أولاً: تربية العربي المسلم على تقبل العربي المسلم الآخر، وكذلك مواطنه الآخر غير العربي أو غير المسلم، إن تقبل (الغير) من المواطنين في الوطن-تعايشاً وتحاوراً وتسامحاً- هو الشرط الأول لأي مشروع حوار حضاري أو سياسي مع الغرب أو الشرق، ومن يلغ أو يضطهد مواطنه (الآخر) فكيف يمكنه أن يحاور ويعايش الآخر المنتمي إلى قوميات وديانات وحضارات أخرى؟ إن العصبية والمذهبية، والطوائف، والإثنيات، لا يمكن أن تكون (القاعدة)، والمرجعية لأي مجتمع يواجه تحديات العصر الحديث، فلا مفر من التعايش مع الآخر في الوطن.

ثانياً: أن تضع السياسات التربوية في المجتمعات العربية في مقدمة أهدافها تقديم مقررات في الثقافة العامة تشرح مختلف عناصر التراث الإسلامي، والحضارة الإسلامية، بصورة موضوعية رصينة، ومسؤولة إلى الأجيال الجديدة...

ثالثاً: التنوير الثقافي العام بشأن المعطيات الحضارية الإنسانية المختلفة التي صبت في كيان الحضارة الإسلامية سواء من حضارات الشرق الأدنى القديم من بابلية، وسومرية، ومصرية قديمة، أو من الحضارات الفارسية واليونانية والهندية والصينية التي اقتبس منها العرب والمسلمون باختيارهم ومن موقع القوة والثقة بالنفس...⁽¹⁴⁾. وكما يرى الدكتور (أحمد طالب الإبراهيمي)، فالتسامح، و حوار

الإسلام مع الأديان الأخرى، لن يكون مجدياً، إلا إذا كان مسبوقاً بحوار آخر بين المسلمين في دوائر ثلاث: داخل المجتمع الواحد بين الأفراد، مما يعني نبذ عقلية الإقصاء والتهميش لأية فئة من المجتمع، ثم العمل الدائم بالحوار بين الدول العربية، والعالم الإسلامي من أندونيسيا إلى موريتانيا، كما أن الحوار بين الأديان كمكون أساسي للثقافات والحضارات في حياة الشعوب ليس تماثلاً مع هذا الدين أو ذاك، أو سعيًا لفرض نمط ثقافي معين، بل هو اختلاف وتنوع، واتفاق على التعددية، ومن المفترض أن يجري بين طرفين، أو أكثر على قدم المساواة، وفي كنف الاحترام المتبادل لماضي كل طرف، وتراثه، وخصائصه، سعيًا لإيجاد أفضل الصيغ للتعايش السلمي⁽¹⁵⁾. ومن الشروط الرئيسة التي ينبغي أن تتوفر لتحقيق التسامح، و الحوار مثمر بين الثقافات، والأديان، الاعتراف المتبادل بالإسهامات التي قدمتها كل حضارة إلى رصيد القيم العالمية المشتركة، وهذا الأمر يتجلى بشكل واضح بالنسبة إلى الحضارة الإسلامية التي كان لها الفضل الكبير في التقدم العلمي، و تطوير المعارف الإنسانية، إضافة إلى جعل الدائرة العلمية بما تتمتع به من موضوعية، ومصادقية، الأساس الذي تستند إليه الدوائر، والمستويات الأخرى لتحقيق النتائج المرجوة من الحوار بين الثقافات والحضارات، وتكوين أجيال تكون مؤهلة للعمل المثمر بمبادئ الحوار بين الثقافات والحضارات، وهو ما يستوجب إدراج معاني الحوار الثقافي، والحضاري بشتى أبعاده في البرامج، والمناهج التربوية، لإعلام الناشئة بأهمية الإسهامات الحضارية والإبداعية لمختلف الشعوب والأمم، وتربيتها على التعاون والتضامن والتكامل والتسامح⁽¹⁶⁾. ومن بين الشهادات التي أدلى بها في العالم الغربي عن قيم التسامح في الإسلام، وتشبيد جسور التواصل مع الحضارة الإسلامية ما كتبه الأمير (تشارلز)، ولي عهد المملكة المتحدة، في محاضرته المعنونة ب: «إحساس بالمقدس: بناء الجسور بين الإسلام والغرب»: «إنني أبدأ من الاعتقاد بأن الحضارة الإسلامية...تحمل رسالة هامة إلى

الغرب، تكمن في الطريقة التي احتفظت فيها برؤية موحدة ومتكاملة لحرمة العالم من حولنا، وإنني أشعر بأننا في الغرب يمكن أن نلقى عوناً على إعادة اكتشاف فهمنا الخاص، بتقدير احترام التراث الإسلامي العميق للنواميس الأبدية للنظام الطبيعي. وأعتقد بأن تلك العملية يمكن أن تساعد في مهمة التقريب بين دينينا ويمكنها كذلك أن تساعد نحن أهل الغرب - على إعادة التفكير، ونحو الأفضل، في عنايتنا العملية بالإنسان، وبيئته في ميادين الرعاية الصحية، والبيئة الطبيعية والزراعة، وكذلك في العمارة والتخطيط الحضري»⁽¹⁷⁾.

فالأمير (تشارلز) من خلال هذا النص يعترف بقيم التسامح، وثقافة الحوار في الإسلام، إذ يؤكد على الرؤية الإسلامية المتكاملة للعالم، والتي تبتعد في نظرتها عن التجني، والإجحاف في حق الديانات الأخرى، وتقترب من الإنصاف، والعدالة مع الجميع، وبهذا يمكن تأسيس علاقات وطيدة للحوار بين الثقافات، والحضارات كما يؤكد من جانب آخر على أن الثقافة الإسلامية قد: «ناضلت في شكلها التقليدي للحفاظ على الرؤية المتكاملة للعالم بطريقة لم نرها ملائمة في الأجيال حديثة العهد في الغرب. إن ثمة كثيراً مما نستطيع أن نشترك به مع الرؤية الإسلامية للعالم في هذا الصدد، وإن هناك كثيراً في تلك الرؤية للعالم يمكن أن يساعدنا على فهم العناصر الأبدية والمشاركة بين دينينا، وبذلك المسعى المشترك، فإن مجتمعنا الحديثين الإسلامي والغربي يستطيعان أن يتعلما على نحو جديد النظرات التقليدية للحياة، والمشاركة بين دياناتنا، ويتعلما كذلك مسؤولياتنا المقدسة إزاء العناية بالعالم من حولنا وتدبيره»⁽¹⁸⁾. وقام الدكتور (عبد العزيز بن عثمان التوبجري) بدراسة عن: «العولمة وحوار الحضارات: رؤية من خلال الإيسيسكو»، وقد بين في دراسته أن الحوار الذي نسعى إليه، ونحرص على المشاركة فيه لا بد أن يُراعي ما يلي: أولاً: ربط أهداف الحوار بالمصالح العليا للأمة الإسلامية، بحيث لا يقع أي تعارض بين الأهداف المرسومة لأي حوار بين الحضارات والثقافات

يشارك فيه الجانب الإسلامي، وبين القضايا الرئيسة التي تجتمع حولها إرادة الأمة الإسلامية...

ثانياً: الاتجاه بالحوار نحو الجانب الإنساني، فلا يبقى دائراً حول القضايا الفكرية، والعقائدية، التي لا تنفع طرفاً من الأطراف، ويدخل ضمن ذلك تحديد الموقف الإيماني الخالص من حقوق الإنسان، ومحاربة الظلم، والعدوان والاضطهاد، والإفساد، بكل أشكاله، بحيث يقع الحرص دائماً على إصدار بيانات مشتركة في أعقاب كل جولة للحوار تحدد مواقف أهل الإيمان مما يجري في العالم من انتهاكات لحقوق الإنسان في كل مكان، ومما يقوم به الظالمون، والمعتدون والمفسدون في الأرض منبغي ومنكر، من وجهة نظر الحق والعدل، والقيم الدينية المشتركة، وليس فقط من وجهة النظر السياسية، والقانونية الوضعية ومصالح الأقوياء، وذوي النفوذ في العالم.

ثالثاً: التنسيق بين أطراف الجانب الإسلامي في كل ما يتعلق بالحوار بين الحضارات، والثقافات، بحيث تقوم الجهة الإسلامية الرسمية، أو الشعبية، التي تدخل في حوار على هذا المستوى، بإبلاغ كل الجهات، أو أهمها وأكبرها وأوسعها نشاطاً، وحضوراً في ساحة العمل الإسلامي العلمي، والفكري، والثقافي بموضوعات الحوار، وبموعده، وبالأهداف المرسومة له، وبالجهة التي تنظمه حتى يمكن الانضمام إليه، والمشاركة فيه لمن أراد، وتوفرت له الأسباب، فإذا سار الحوار بين الحضارات في هذه الاتجاهات، أمكن الوصول إلى نتائج إيجابية تخدم في المقام الأول المصالح العليا للأمة الإسلامية، وقضاياها، وتُعزز الجهود المبذولة على مستويات كثيرة للدفاع عن هذه المصالح، ونصرة هذه القضايا⁽¹⁹⁾. وفي دراسة أنجزها الدكتور (مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي) عن: «العلاقة الفكرية الثقافية بين العالمين الإسلامي والغربي في العصر الحاضر: الحواجز والجسور»، أبرز فيها أن المنطلق الصحيح لتكوين علاقة سلمية مع الغير، هو

الاعتراف بهذا الغير، واحترامه، وقبوله كما هو، ومن ثم قبول الاختلاف معه ولذا يجب على الغرب أن يعترف بالإسلام بوصفه ديناً سماوياً كسائر الأديان السماوية، التي جاءت من عند الله خالق الكون، وأن يعترف بالمسلمين باعتبارهم جزءاً من المنظومة البشرية، وشريكاً في الحياة على ظهر هذا الكوكب لا يمكن تجاهله، كما يجب على الغرب أن يعترف بالخصوصية الثقافية للمسلمين، وأن يحترم ثوابتهم الدينية، وأن يُغيّر ما تقوم عليه سياساته من إيمان بتعددية ذاتية لا مجال فيها للآخر، وقد نبه إلى ضرورة قيام الغرب بمعرفة الإسلام معرفة صحيحة، بالاعتماد على المصادر الصحيحة، وتفهم رسالته السماوية العالمية والوعي بحضارته، وهذا يستلزم تغيير مصادر معرفة الغرب بالإسلام المتمثلة بكتابات المستشرقين، والمتعصبين من رجال الكنيسة، والساسة، وغيرهم، وكذا وسائل الإعلام المتنوعة التي غالباً ما يقوم عليها يهود صهيونيون، فلمعرفة الإسلام لابد من الاعتماد على المصادر الموضوعية السليمة، التي تقدم الإسلام بكل أمانة وحيادية⁽²⁰⁾. وقد درس المفكر الدكتور (مصطفى الشريف) جُملة من القضايا، التي تتعلق بالتسامح، وحوار الثقافات، والحضارات في كثير من مؤلفاته، إذ عرض في كتابه: «ثقافة السّلم ليتعلّم الشباب الحوار»، مختلف إشكاليات ثقافة الحوار والسلام، حيث تناول الموضوع من وجوه مختلفة، فقد قدم بدقة الرؤى الإسلامية لثقافة الحوار، والسلام، واتسم عرضه بمقدرة فائقة، وبشمولية مختلف التّصورات والتعريفات، وهو ينطلق من التأكيد على ضرورة أن يدرك الشباب أن الإسلام هو السلام، حيث يفتح مقدمة كتابه بالقول: «على الشباب أن يعرف أن الإسلام هو السلام، كلمة الإسلام من نفس جذر كلمة السلام، تاريخ الإسلام يُبرهن أنه يعطي الأولوية للسلام، القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة يركزان على السلم من مختلف مستويات العلاقات الإنسانية، والاجتماعية، يجب على كل مثقف، ومفكر وعالم أن يشرح للعالم كله، ثقافة السلم، إن أحد أسماء الله الحسنى السلام، وأحد

أهداف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو بناء أمة، ومجتمع يتسم بحقوق واضحة مبنية على السلم، والسلم الحقيقي مبني على قواعد واضحة، بحقوق، وواجبات والحق الشرعي للدفاع عن المصلحة العليا للأمة، السلم لا يعني التخلي عن حقوق الأمة، الواجب الأسمى لكل مفكر مسلم هو تقديم الصورة الحقيقية للإسلام للعالم بأسره، وإنه أحد ملامح العلم النافع، تاريخ الإسلام ثري، وغني، وبعض المصادر الأجنبية، تتجاهل هذا البرهان، وتركز فقط على بعض التصرفات غير العقلانية وبعض الانزلاقات المنحرفة، والبعيدة عن ديننا الحنيف⁽²¹⁾. كما يؤكد على أن موضوع السلم معروض، ومنصوص عليه بطرائق عدة في القرآن الكريم، وتتمثل المسألة في الإسلام، على شكل ازدواجية وحدة/تعددية، والآخر المختلف هو في لبّ اختبار الحياة على الأرض، وبالدرجة الأولى فإن الاختلاف هو اختبار طبيعي، ومن خلال تحليل القرآن الكريم، نرى أنه الوحدة المتجلية في التنوع، أو التنوع المحلول في الوحدة، فهذه الرسالة الموحدة تمثل خطأ أساسياً للشكل والمضمون، ويرى أنه من الضروري بالنسبة إلى ذهنية المسلم أن يتم تكوينها وتوجيهها، وتنويرها بعمق من طريق بيداغوجية القرآن الكريم، وعلى الفرد المسلم أن يدرك أن مفهوم السلم يتعدى في الإسلام كل المفاهيم الأخرى: إنه ديني وإنساني، وسياسي، وأبعد من ذلك تلتقي كل صفات المؤمن الكريم، والمضيف والطيب بالدلالة التي يؤديها في تأسيس السلم مع الذات، ومع الآخر، ومع العالم، إذ أن المسلم المخلص الذي يقرأ القرآن الكريم يدرك أن كل البشر هم من النوع نفسه، لهم نفس الأصل، ونفس المصير: العودة إلى الله الواحد، خالق الحياة، إذ يخاطب القرآن الكريم البشرية جمعاء دون استثناء، ومن المنطقي أن يكون المسلم متشبعاً بفكرة أن الله قد خلق البشر متماثلين في إنسانيتهم، وهم ينحدرون من أصل واحد، ومن أجل مصير مشترك، وهنا كان لازماً استقبالي، واحترام الآخر دون قيد، أو شرط، ويلفت الدكتور (مصطفى الشريف) الانتباه إلى نقطة مهمة، وهي أن

انتشار الإسلام، وهيمنتته على أراض شاسعة، وعلى شعوب، وثقافات، وديانات متنوعة، كان بالحوار الحضاري، ويشير إلى ما قام به بعض الكتاب، من أجل تشويه الحقيقة التي تبقى مغيبة عن بعض الملاحظين، ويستشهد في هذا الصدد بنظرة موضوعية قدمها الأستاذ (أندري ميكال)، حيث يقول: «يجب أن ينظر إلى الإسلام، ويوصف، ويفهم من الداخل-بداية- وليس كقطعة، أو تحفة تم جلبها من أفقنا نحن الغربيين، في العمق، فإن نجاح الإسلام أت دون ريب، مما وجد كدين تجاوب بصفة واسعة مع بعض رغبات الشعوب، بالنسبة لشعوب الإمبراطورية البيزنطية، فالأمر كان يتعلق آنذاك بتحرير حقيقي»⁽²²⁾. ونبه الدكتور مصطفى الشريف إلى ضرورة الابتعاد عن الانطواء، والذوبان، فقبول الآخر المختلف عنا ليس بمعطى ثانوي، بل إنه أولي، وجوهري، وقد جاء الإسلام لفتح أفق العالم وليس لسده، ومن هنا فالجماعات التي تستعمل العنف، وتوظف الدين فهي تسير ضد المرجعيات المؤسسة.

ثانياً: أهميّة اللّغات في إثراء التّنوع الحضاري: نماذج من التّبادل اللّغوي والحوار الحضاري في الأندلس: تحتل الأندلس العربية موقعاً متميزاً في العطاء الحضاري الإنساني، والعالمي، فمما لا يشوبه ريب، ولا يخامر شك أن دولة الإسلام في الأندلس قد أرست دعائم حضارة باذخة، تعايشت فيها الأجناس والأديان، وتناقشت فيها اللغات، والثقافات، وانصهرت فيها الطاقات على تنوعها فأثمرت مجتمعاً حياً، متفاعلاً، مبدعاً تحققت للإنسان فيه، كإنسان كرامته، وكفلت له حريته، وحقوقه، وثمرن سعيه، وعطاؤه، ولعل أبرز جوانب هذه الحضارة قيمة وإشراقاً، ما يتعلق بمسألة التسامح الذي ساد الأندلس الإسلامية تجاه النصارى واليهود، الذين كانوا يُشكلون شريحة هامة من شرائح المجتمع الأندلسي، فقد عاش اليهودي، والنصراني إلى جنب المسلم، حياة ملؤها التآزر والتعاطف، والتراحم والمشاركة الفاعلة المثمرة، فقد هيأت الحضارة الأندلسية، منذ مراحلها الأولى

الإطار الأنسب للتفاعل الحضاري الإيجابي؛ إذ اندمج اليهود والنصارى، في جو من الحرية، والسماحة، وتكافؤ الفرص في المجتمع الأندلسي الجديد؛ يتعلمون ويتثاقفون، ويسهمون في البناء دون عائق، أو عقدة، وهو الأمر الذي جعل الكثيرين منهم يحظون بمكانة عالية، ويتقلدون مناصب عليا في الإدارة والسياسة فقد عاش الذميون الأمن، والاستقرار في دولة الإسلام يتمتعون بحرية العقيدة والتعبد منذ الفتح الإسلامي لإيبيرية، وقد مُرس الحوار بين مختلف عناصر الشعب الأندلسي طوال عصور المسلمين في الأندلس في أزمنة السلم وأزمنة الحرب، وبين المنتصرين، والمهزومين، ولعل حضارتنا وثقافتنا العربية الإسلامية في الأندلس هي الأعلى صوتاً وفعلاً في رسالتها (الحوارية)، وعلى مدى قرون عديدة، حيث إن الفسحة الأندلسية، شكلت حيزاً إنسانياً مُمتازاً للحوار، والتفاعل بين الأديان السماوية الثلاثة، وأكثر منها، فقد شهدت هذه الفسحة العصر الذهبي للثقافة العبرية التي اتخذ شعراؤها، وأبائها، وعلمائها، ومفكروها العربية أداة تعبير، وتواصل وتفكير دونوا بها خير ما جادت به قرائحهم. بل إن كثيراً من النصارى، واليهود، والصقالبة، احتلوا مراكز سامية في الحكم وتبوأوا مراتب مُمتازة في الحياة العامة، فكان منهم الوزراء، والشعراء والشاعرات، والأطباء، وقد بدا الأندلسيون في الأعين منصفين بأمّ فضائل المدنية فضيلة التسامح المطلق، والحوار، والتفاعل مع العناصر الأخرى إلى درجة أثارت إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء على نحو ما ذهب إليه (غوستاف لوبون) ⁽²³⁾. وقد ذكرت الباحثة الكوبية (ماريا روزا مينو كال)، في كتابها الموسوم بـ: «الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح»، عدة نماذج من الحوار، والتسامح بين الأديان الثلاثة التي تعايشت في الأندلس، ومن التساكن الذي غلب على تجاوز القيم الثقافية المتنافرة، والمنتمية لشعوب، وجماعات إثنية متباينة. وبينت الإقبال الكبير

الذي كان على الثقافة، واللغة العربيتين، من قبل الجماعات غير العربية، التي أتقنت اللغة العربية، ولبست اللباس العربي، وأقبلت على الفنون العربية من شعر وغناء، ومعمار، وبسّنة. وكان لهذا التأثير عدة نتائج على نهضة الفنون، والآداب بأوروبا فيما بعد، ويُقدم عمل مينو كال «درساً قوياً لمن يُحسن استخلاص الدروس حول الدور الذي لعبته الترجمة في تمرير الثقافات، وسيرورات التملك المعرفي المنشئة لأسس التسامح، والحوار. وتتبع الكاتبة المصائر المتشعبة لعينات من الذخائر العربية المنقولة من قبل العربيين من اليهود، والمسيحيين اللاتينيين في لغات عالمية، ومحلية. فهي حركة غير معزولة عن مخاض تشكل، وتطور اللغات في أوروبا الوسيطة، وتدفعها، وتجدها المتصل المُفضي إلى العصر الحديث وهو مسرح شاسع خشبته طليطة، معهد الترجمة العالمي، وقبلة المنقبين عن كنوز العربية رمز عقلانية الفكر، وحدائته يومئذ، وأطرافه إشبيلية وغرناطة، وصقلية ونورماندي، وباريس، فعلى هذا المسرح عبرت لغات، وتلاقحت، وسكبت تراث اليونان والعرب في أقداح بعضها البعض، في حمية تغذي وحدة أبناء إبراهيم وتكرس التسامح الحضاري»⁽²⁴⁾. وقد نهبت الباحثة مينو كال إلى المكانة المرموقة التي تمتعت بها اللغة العربية، وأشارت إلى دورها في إثراء التنوع الحضاري، إذ تقول: «كانت العربية لغة محترمة، تستعمل في الإمبراطورية كلها، وموصولة بباقي الحضارة. وعلى مرمى البصر، بل في ما وراء ذلك، كانت اللغة العربية للغة المشتركة عالمياً، وفي كل مكان تقريباً من شبه الجزيرة المفعمة بالحياة، فرضت العربية نفسها بوصفها اللغة الدالة على الرفعة والسمو داخل الجماعات من الديانتين. ولم تترك الإدارة الإسلامية الجديدة اليهود والمسيحيين على قيد الحياة فحسب، بل إنها، في إطار تنفيذها لما ورد في القرآن، عملت عموماً على حمايتهم؛ فعرفت الجماعتان، يهود الأندلس، ومسيحيوها، تعريباً واسعاً بعد سنوات على وصول عبد الرحمن إلى قرطبة. وفي أواسط القرن التاسع، في أحد أشهر

وثائق ذلك العصر، نجد بول ألفار القرطبي يشكو من عزز الشبان المنحدرين من الجماعات المسيحيين عن كتابة رسالة واحدة باللاتينية، في حين أنهم يكتبون قصائد عربية فصحي تضاهي تلك التي يكتبها المسلمون»⁽²⁵⁾. وقد شكلت اللغة العربية جسراً من جسور التواصل الحضاري بين المسلمين، والمسيحيين، واليهود، وهذا ما نلّفه في حديث بول ألفار القرطبي المسيحي من خلال كتابه: «الدليل المنير» والذي أشار إلى أن المسيحيين يعشقون قراءة الأشعار، والقصائد العربية، يدرسون الفقهاء، والفلاسفة العرب، لا من أجل الرد عليهم، أو مجادلته، وإنما من أجل اكتساب عربية جيدة، وأنيقة، وفي هذا الشأن أشارت الكاتبة إلى أن العرب قد حملوا إلى إسبانيا شيئاً لم تكن مملكة القوط تملكه في يوم من الأيام، وهي اللغة التي يُعبر بها الإنسان بأناقة عن كل حاجاته الأساسية، وقد كان اليهود يعشقون اللغة العربية؛ حيث تشير في هذا الشأن إلى أن «التعلق الذي كانت تحس به العشيرة اليهودية إزاء العربية، وهي العشيرة الآمنة والنافذة، لم يثر أي رد فعل مماثل لرد فعل بول ألفار القرطبي، ذلك أن الجماعات اليهودية عرفت المنفى منذ الأزل تقريباً، وكانوا يعرفون التكلم منذ أمد بعيد بلغة الآخرين دون أن يتكروا لعقيدتهم اليهودية. بل أكثر من هذا، لقد طور قرن من الهيمنة الأموية الوضع الاجتماعي والحياة اليومية لليهود بصورة واضحة. فالجماعة التي كانت حتى هذا الحين تعيش في الفقر المدقع والعبودية أصبحت ترتقي بسرعة في السلم الاجتماعي، إلى درجة أن يهودياً سيصير يوماً الوزير الأكبر لخليفة أموي»⁽²⁶⁾. كما اهتمت الباحثة مينو كال بالدور الكبير الذي لعبته الترجمة في نقل العلوم، والمعارف من الأندلس ومن قرطبة تحديداً إلى أوروبا، وهذا ما أثر أيما تأثير في الحياة الفكرية، والعلمية لأوروبا ككل، فقد اتسع مشروع الترجمة أيما اتساع، وتمت ترجمة آلاف الكتب من العربية إلى اللاتينية، وهذا ما مكن مختلف المسيحيين من الإطلاع على عدد كبير من المصادر، وتشير المؤلفة إلى أن الكتب التي ترجمت يصعب تخيلها، وهي

مصادر تعد غاية في الأهمية، ومن الكتب النفيسة مثل الأعمال الكاملة لأرسطو وهي غنية بشروح ضافية لكتاب مسلمين، ويهود، ومثل مصادر أخرى قديمة ومعاصرة، وتشير مينوكال إلى أنه بإمكان الباحث أن يذهب إلى مدينة (طليطلة) في بداية القرن الثالث عشر، ويجد بها إضافة إلى كثرة المترجمين الموهوبين ثقافة ترجمة برمتها، وقد قدمت مثلاً بمكايل سكوت الذي حلّ بطليطلة بغرض تعلم اللغة العربية، ودراسة أسرار الترجمة المزدوجة، أو المتحدة، وكانت الطريقة المتداولة في غالب الأحيان، أن يترجم يهودي في البدء النص العربي إلى لغة محلية مشتركة هي القشتالية، ثم يأخذ المسيحي تلك الصيغة، ويُترجمها إلى اللاتينية، ولم يقتصر المترجمون الآتون من مدرسة طليطلة على ترجمة نصوص مفردة، بل إنهم يترجمون الثقافة كلية، وكان المترجمون المسيحيون يُحسون تدريجياً أن الأعمال التي يشتغلون عليها، إنما هي ترجمات إلى العربية من نصوص إغريقية، تعبق بالثقافة الأندلسية، وتؤكد المؤلفة على أن الترجمة قد لعبت دوراً كبيراً خلال القرون التي كان فيها المسلمون يعتبرون العلوم العقلية، والفلسفة عنصراً ضرورياً لمكانتهم، هذه الثقافة القائمة على الترجمة، المتسامحة بالضرورة، هي التي أسرت الآن المسيحية اللاتينية، وانتقلت بفضلها العلوم من قرطبة إلى سائر الأقطار الأوروبية، وأثرت على الصعيد العالمي ككل، وتؤكد أن مشروع الترجمة كان أكثر من مجرد ملائمة آلية بين الشرق والغرب، سواء من حيث نتائجه المباشرة أو البعيدة المدى، وفيما يتعلق بما تمت ترجمته فالكاتبة تشير إلى أن الأمر لم يكن يتعلق بمجرد ترجمات من العربية، لقد كانت هناك نصوص تستلهم دعائم ثقافة لتجعلها تدخل ثقافة أخرى، وهكذا فقد حُررت دراسات عن تاريخ العالم، وعن مجاميع القوانين، وأبحاث علمية أغنت التراث القديم، بالإضافة إلى أنه كانت هناك مؤلفات لم يُسبق ترجمتها من قبل إلى اللاتينية، لعدم الاهتمام

بها، فوجدت اهتماماً كبيراً بها، وانتشرت الكلاسيكيات التخيلية الأولى، ولقيت أصداء طيبة، وقبولاً واسعاً.

لقد أضحت الثقافة الإسلامية منتشرة في شتى أصقاع أوروبا في القرن الثالث عشر الميلادي، نظراً لثلاثة عوامل رئيسة: أولها معرفة الأوروبيين للغة العربية فهي لغة المعارف الإسلامية، والدين الإسلامي، وثانيها الاتصال الفلسفي بين أوروبا، والأمم الإسلامية، وثالثها معرفة الأوروبيين للعلوم الدينية الإسلامية، فاللغة العربية ساعد انتشارها على ربط الاتصال بين المسيحية، والإسلام، حيث نلفي الإسبانين جيران المسلمين في الغرب، يتخذون كتاباً من العرب يكتبون عنهم بالعربية إلى المسلمين في الأندلس، والمغرب، إضافة إلى أن الاتصال الحربي دفع إلى تعلم اللغة العربية، لاقتباس المعارف الإسلامية، ولمحاربة الإسلام، والتبشير بالمسيحية، فعلى سبيل المثال ريموند لول الإسباني كان يُحسن اللغة العربية وأسس سنة: 1276م كلية للرهبان في (ميرامار) لدراسة اللغة العربية، كما أسست أول مدرسة عرفتها أوروبا في (طليطلة) على يد المبشرين، وفيها كانت تُعلم العربية، فانتشار اللغة العربية ساعد على معرفة الأوروبيين للعلوم الدينية، ففي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، تُرجم القرآن الكريم إلى اللاتينية، وذلك رغبة في نقده، ومناقشته، كان ذلك سنة: 1143م، وريموند لول تأثر تأثراً كبيراً بالمصادر الإسلامية، وكذلك رايمون مارتان تأثر بكتابات المسلمين، ففي كتابه: «الدفاع عن الإيمان»، يبدو متأثراً، وإلى حد كبير بكتاب: «تهافت الفلاسفة» للغزالي⁽²⁷⁾، كما انتقلت المؤثرات الحضارية العربيّة الإسلامية من الأندلس إلى أوروبا، عن طريق طلاب العلم الذين وفدوا إلى الأندلس، وقد أسهم في تلقي العلوم العربية، أنهم كانوا يأخذون عن المستعربين الأندلسيين، الذين كانوا على معرفة باللغة العربية، ومن بين هؤلاء الراهب جيربرت دي أوريك، الذي اعتلى فيما بعد كرسي البابوية، وبيدرو الفونسو القطالوني، وقد أسهمت مدرسة

الترجمة في (طليطلة) بنقل الثقافة العربية الإسلامية بكل ما احتوته من عناصر معارف اليونان القديمة إلى أوروبا، بالإضافة إلى ما أبدعه العرب في حقول العلم والمعرفة، وقد اشتهر على صعيد نشاط هذه المدرسة (غونديسا لفو) أحد كبار اللاهوتيين في كاتدرائية طليطلة في الفترة ما بين: 1120 و1170م، فقد قام بنقل كثير من المعارف الفلسفية إلى أوروبا، وكانت الترجمة من العربية إلى اللاتينية تتم عن طريق الواسطة، بحيث تجري الترجمة الشفوية إلى الإسبانية الدارجة، ومن ثم يُترجم الكلام إلى اللاتينية، ويُسجل⁽²⁸⁾، ومما يدل أيضاً على عناية الأوروبيين بكتب المسلمين أن كتب (محيي الدين بن عربي) كانت حاضرة في بلاد اليمن والروم، وقد ذاع صيتها بشكل عظيم، وكان المؤلفون الأندلسيون يعتمدون في مؤلفاتهم في كثير من الأحيان، على كتب الأوروبيين، ومن ذلك لسان الدين بن الخطيب، عندما رغب في التعريف ببعض ملوك النصارى، وكذلك اعتمد أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي ابن جلجل في كتابه: «طبقات الأطباء والحكماء»، على بعض الكتب الأوروبية، مثل كتاب: هروشيوش، وكتاب ايسدور الاشيلي، ومن جهة أخرى اعتمد الباحثون الأوروبيون على المصادر الأندلسية في مؤلفاتهم، فقد اعتمد ألفونسو العاشر الحكيم في كتابه: «التاريخ العام» على مصادر عربية، مثل كتاب: آداب الفلاسفة، لحنين بن اسحاق، وكتاب «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري، وكتاب إبراهيم بن ناصف شاه المصري عن تاريخ مصر⁽²⁹⁾، وفي زمن ألفونسو العاشر المعروف بالحكيم، أو العالم ملك قشتالة (1252-1284م)، شهدت الترجمة من العربية نشاطاً واسعاً، حيث ترجمت كليلة ودمنة سنة: 1251م والسندباد سنة: 1253م، وقد اقترن نشاط الترجمة بتأليف معاجم لغوية عربية أوروبية، من بينها ورقة مازالت موجودة في المكتبة الوطنية بمadrid من معجم عربي ألماني مؤرخة في شوال 906هـ/ أيار 1501م، وقد اقتضت الأنشطة الثقافية، والعلمية المختلفة تعلم لغات الأوروبيين، وأن يتعلم الأوروبيون اللغة

العربية، فقد كانت هناك ازدواجية لغوية داخل المجتمع الأندلسي، نظراً للتعايش والامتزاج الثقافي بين عناصر المجتمع الأندلسي من الإسبان، والعرب، وغيرهم حيث عرفوا لغات بعضهم، وقد كان كثير من الأندلسيين الذين طافوا ببلاد أوروبا طلباً للعلم يعرفون لغات كثيرة، وكان الصقالبة في الأندلس يعرفون العربية وبعضهم كان يكتب، ويؤلف بها، فقد ألف حبيب الصقلي كتاباً سماه: «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة»، وفي رحلة ابن جبیر ذكر أن ملك صقلية كان يتحدث اللغة العربية، ويعرفها⁽³⁰⁾. لقد كانت اللغة العربية، بوصفها لغة العلم والمعرفة، والثقافة، والأدب، تحتل مكانة متميزة، وهي في طليعة اللغات في ذلك الزمن، مما دفع بغير أصحابها إلى تعلمها، والتمكن منها، وإجادتها، فبالنسبة إلى النصارى، فليس يُلفي الباحث شاهداً دالاً على ما كان من حرصهم، و دأبهم على تعلم اللغة العربية أقوى من صيحة الاحتجاج التي رفع بها القسيس القرطبي (ألقرو) عقيرته مُستكراً على أبناء جلدته النصارى إفراطهم في حُب اللغة العربية والشغف بأدبها، وجمع كتبها، فيقول: «يا للحسرة، إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها، ويُقبلون عليها في فنهم، وهم يُنفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها، يا للألم، لقد أنسى النصارى حتى لغتهم، فأما عن الكتابة في لغة العرب، فإنك واجدٌ فيهم عدداً عظيماً يُجيدونها في أسلوب مُنمق...»⁽³¹⁾. لقد كان المجتمع الأندلسي مؤلفاً من عناصر بشرية شتى وهم : العرب، والبربر، والنصارى، واليهود، والصقالبة، والغجر...، وغيرهم وقد أدى هذا التلاحم في الحوار، والوئام إلى نقل الثقافة، والحضارة الأندلسية إلى الغرب المسيحي، فقد كان النصارى إبان الفتح الإسلامي يؤلفون أغلب سكان إسبانية، وكانوا على جانب من الانتظام أكثر مما كانوا عليه في بقعة إسلامية أخرى، وقد جرى بينهم، وبين الفاتحين من الاختلاط، والتأثير المتبادل الطويل ما لم يجر مثله في أي صقع إسلامي آخر. وقد أظهر الإسلام تجاههم كثيراً من

التسامح على خلاف ما عاملوا به العرب الفاتحين عندما زال سلطان الإسلام من تلك البلاد⁽³²⁾. وتكثر الأدلة على التسامح العظيم الذي أبداه المسلمون نحو نصارى الأندلس، فقد تركوا لهم حرية العقيدة، والتعبّد منذ الفتح الإسلامي، وظل العهد الذي أخذه عبد العزيز بن موسى بن نصير على نفسه قبلهم من حرية العبادة والحفاظ على معابدهم، قائماً طوال عصور المسلمين في الأندلس، فقد كانوا يرحمون الضعفاء، ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم معهم، وما إلى ذلك من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوربة مؤخراً⁽³³⁾، ومن مظاهر هذا التسامح، والوثام بين العناصر، والأديان في الأندلس، وهو يدعو إلى الإعجاب، المثال الذي يقدّمه (أولاغي) المؤرخ الإسباني من قرطبة، فيقول: « فخلال النصف الأول من القرن التاسع كانت أقلية مسيحية مهمة تعيش في قرطبة وتُمارس عبادتها بحرية كاملة»⁽³⁴⁾. فلقد بهرت الثقافة الإسلامية جماعة المسيحيين الذين عاشوا في كنف المسلمين، فقلدوهم في كثير من مظاهر ثقافتهم، فاتخذوا أزياءهم، ولغتهم، ونمط حياتهم في كثير من الأحيان، برغم احتفاظهم بدينهم، وقد برز من شعراء النصرانية بالعربية في الأندلس (ابن المرعزيّ الإشيلي) شاعر المعتمد بن عبّاد، ومن أثر الثقافة الإسلامية في النصارى أيضاً أن بطريرك الأول ملك أرغونة (ت499هـ-1104م) كان لا يعرف الكتابة إلا باللغة العربية، وكذلك فقد كان العنصر اليهودي كبيراً في الأندلس، وقد استقبل اليهود الفاتحين المسلمين كمحرّرين، لأنّ القوط كانوا يسومون اليهود أنواع العذاب، فكان ملوكهم يعاملونهم نفس السوء الذي يعاملهم به أهل سائر البلدان النصرانية في أوربة، بل إنّ العامة كانت تعاملهم بمنتهى القسوة، وكان القائمون على الكنيسة وحُكام الدولة يذهبون ويتلقون أموالهم بلا حياء ولا رحمة . ولهذا فقد كان إحساس اليهود صادقاً عندما توقّعوا خيراً على أيدي المسلمين الفاتحين، فقدّموا لهم المساعدة، وقد كان تأثيرُ الثقافة العربية الإسلامية في اليهود واضحاً وجلياً⁽³⁵⁾، وقد لعبوا دوراً مهماً في

الأحوال السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، حيث تَمَتَّع كثير منهم بالجاء والمناصب السامية، وقد تولّى ثلاثة من اليهود الوزارة في الأندلس على الأقل، ولعلّ أولهم الوزير الشاعر الكاتب (حسداي بن يوسف بن حسداي) وكان وزيراً للمستعين أحد الملوك الأمويين الذين عاشوا زمن الفتنة، وقد تولّى المستعين إمرة الخلافة مرتين خلال سنتي (400) و(407) هـ، وقد لقّب حسداي نفسه بأبي الفضل بعد أن صار وزيراً، وله شعر جميل يذهب في بعضه إلى الصورة الزاهية، ويعمد في البعض الآخر إلى الصنعة البديعية الغالية... والوزير اليهودي الثاني الذي تولى الوزارة في الأندلس هو (ابن نغرّالة) وذكره المقري تحت اسم نغدة، والاسم الأول، هو الأصوب، تولّى (ابن نغرّالة) الوزارة في غرناطة (لباديس بن حبوس)، الذي ولي أمرها سنة (429 هـ) بعد أبيه⁽³⁶⁾. ومن بين الفلاسفة، والعلماء، الذين أسهموا في التنوع الحضاري والثقافي بالأندلس ابن باجة (ت533هـ-1138م)، ففي عصر المرابطين كان الفيلسوف ابن باجة الذي افتتح عهداً جديداً في الفلسفة لما بني التفكير الفلسفي على الرياضيات، والطبيعات، ثم فصل البحث في الدين عن البحث في الفلسفة، وكان لابن باجة أثر كبير في الفكر الغربي، بعد نقل كتابه: (تدبير المتوحد) إلى اللغة العبرية، واللاتينية، وكان لهذا الكتاب أثر بالغ في ألبرت الكبير، وفي التفكير الأوروبي من خلال فلسفة ألبرت الكبير، فابن باجة يعد رأس الفلاسفة العقلانيين في العصور الوسطى، وكذلك الشأن بالنسبة إلى ابن رشد، الفيلسوف صاحب الرؤى الثاقبة، والعميقة، فليس في تاريخ الفكر الإنساني مفكر ترك على التفكير الغربي (الأوروبي) أثراً مثل أثر ابن رشد، فحسبك أن تعرف أن الفكر الأوروبي قد خضع لأثر فلسفة ابن رشد أربعة قرون كاملة متوالية: كان الفكر الأوروبي قرنين كاملين يذهب مذهب ابن رشد، ثم جاء قرنان كاملاً أيضاً نصبت الكنيسة الكاثوليكية في أثناهما لابن رشد عداء شديداً، ومع ذلك فإننا نتبين في الفكر

الأوروبي إلى اليوم ملامح من فلسفة ابن رشد، وإن كان هؤلاء المفكرون لا يقولون إنهم أخذوا من ابن رشد، فقد كان ابن رشد يرى أن الفلسفة شيء، وأن الدين شيء آخر. ولو كان الدين هو الفلسفة، لما كان لهما اسمان، ولكان لهم اسم واحد، غير أن ابن رشد قال إن المرء محتاج إلى الدين (وهو السلوك العملي في الحياة الدنيا ليعيش الفرد والمجتمع سعيدين نافعين)، ثم هو محتاج أيضاً إلى الفلسفة (وهي التفكير النظري في المدارك العامة). وبينما نجد الدين - كما يقول ابن رشد أيضاً - فرضاً على جميع الناس، نجد الفلسفة خاصة بطبقة من الناس بلغ أفرادها من الاستعداد العقلي مبلغاً يُمكنهم من البحث النظري من غير أن يُضر بحياتهم العملية. هذا الأخذ الكامل بما يوحيه الدين إلى جانب الأخذ المتفاوت من الفلسفة (بالمقدار الذي يحتاج إليه كل فرد بحسب استعداده العقلي)، قد سماه ابن رشد: «الجمع بين الحكمة» (الفلسفة)، والشرعية (الدين). ثم جاء نفر من الغربيين، ومن العرب أيضاً فسموا هذا «الجمع» توفيقاً، تسمية خاطئة⁽³⁷⁾. وقد كان ابن طفيل من جبابرة الفكر في العصور الوسطى (في الشرق وفي الغرب، وفي الإسلام، وفي النصرانية). وقد ترك الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا منه، وهو قصة (حي بن يقظان)، أثراً بالغاً في الفكر الإسلامي، وفي الفكر المسيحي، ولقد نقلت (قصة حي بن يقظان)، على أنها قصة بارعة إلى عدد من اللغات، ثم قلدها نفر من مشاهير رجال العلم، والأدب. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى كتاب: (إميل للكاتب الفرنسي جان جاك روسو)، وإلى قصة (روبنص كروزو للكاتب الإنكليزي دانيال ديفو)⁽³⁸⁾.

التوصيات المقترحة: بعد هذه الجولة مع يَم التسامح في الثقافة الإسلامية

وأهميّة اللّغات في إثراء التّنوع الحضاري، يوصي الباحث بما يأتي:

1- العمل على الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يُسبب استقرازاَ لمختلف الأديان من خلال سن قوانين صارمة تُحرم، وتجزم كل من يُسيء إلى الرسل والأنبياء

والمقدسات الدينية، وتُعاقب كل من يسعى إلى إثارة المشاعر الإيمانية، والدينية، مع احترام أماكن العبادة، والمقدسات الدينية كافة، وحماية كل من يرغب في الوصول إلى مقدساته، والحرص على عدم الإساءة إلى الأديان، ولاسيما من قبل وسائل الإعلام، فمن غير المعقول أن ندعو إلى التسامح، وحوار الثقافات، ونلغي مجموعة من وسائل الإعلام الغربية المرئية، والمسموعة والمقروءة، تعمل على تشويه صورة الإسلام، وتقدم أفكاراً مغلوطة عن مبادئه وقيمه السمحة.

2- ترسيخ قيم التسامح، والتعاون بين الغرب، والعالم الإسلامي، وتقدير القيم الإنسانية المشتركة مثل: العدالة، والمساواة، والتسامح.

3- التركيز على الأدوار الفاعلة التي يمكن أن تلعبها الجاليات المسلمة في الغرب، من خلال تقديم صور حضارية عن الإسلام، وقيمه السمحة.

4- استغلال تكنولوجيات الاتصال الحديثة في تقديم الصورة الحقيقية للدين الإسلامي، من خلال إشاعة الفكر الوسطي، والمعتدل، وتسليط الضوء على أخلاقيات التعايش السلمي، وقيم التسامح التي تجلت في ديننا الإسلامي الحنيف مثل: إنشاء مواقع على الشبكة (الأنترنت)، بلغات متنوعة للتعريف بالقيم الحضارية للإسلام.

5- العمل على إقامة مشاريع علمية، وفكرية، مشتركة بين العالمين الإسلامي والغربي تتجسد من خلالها قيم التسامح، والحوار الحضاري، ويتجلى فيها احترام حرية الدين، والعقيدة.

6- إقامة ندوات، ومؤتمرات علمية، وفكرية لمتابعة شؤون الحوار بين الثقافات والحضارات، والتعاون الإنساني، من أجل تشييد جسور وطيدة للسلام، والتنمية.

7- العمل من أجل ألا يقتصر الحوار بين الثقافات، والحضارات، على النخب الثقافية، وأساتذة الجامعات، وعامة المثقفين، فحسب، بل لابد من وضع خطط علمية تتسم بمنهجية سليمة تُسهم في نقل الحوار الحضاري إلى شرائح واسعة من

المجتمعات الإسلامية، والغربية، وذلك على مبادئ سليمة تبنى على الاحترام المتبادل، والتعاون.

8-الإكثار من الدروس التي تُرسخ ثقافة الحوار، والتعايش السلمي، والتسامح مع الآخر، وذلك عن طريق تضمينها في المناهج التربوية، وإقامة مقررات رسمية في المدارس، والجامعات، تُبرز احترام خصوصيات الآخر، وقبوله، والحوار معه.

9-إنشاء قنوات، وبرامج، وحصص إعلامية، تُجسد الحوار الحضاري والتعايش السلمي، وتدعو إلى الحوار، والتسامح مع الآخر، والعمل على أن تكون مشتركة بين الديانات المختلفة، وتُقدم بلغات متنوعة، لتفعيل الحوار مع الآخر وعرض الصورة الحقيقية للإسلام.

10-الإفادة من النشاطات، والفعاليات الثقافية، والمناسبات الدينية، والوطنية في تسليط الضوء على قيم التعايش السلمي، والتسامح بين مختلف الديانات، وتنمية قيم التضامن، والأخوة، والمحبة المتبادلة.

11-إقامة مراكز فكرية، وجمعيات ثقافية في مختلف بلدان العالم، ولاسيما في الغرب، لاطلاع المجتمعات على الصور المُشرقة في الحضارة الإسلامية والتركيز على المحطات التي جمعت الأديان على المحبة والتسامح، والكشف عن القواسم المشتركة بين الأمم، والشعوب، والأديان، سواء في المجال الديني، أو الثقافي.

12-الحرص على تطبيق منهج المحاور، كما جاء في القرآن الكريم بالتي هي أحسن، ولا بد أن يدرك أطراف الحوار (المحاور، والمُحاور) أن الحوار بين الإسلام والغرب ليس نابعاً من باب الضعف، وإنما هو تطبيق لسنة نبينا محمد-صلى الله عليه وسلم-الذي كان يُحاور بهدوء عن طريق الحكمة، والموعظة الحسنة، وكان يحترم الآخر، وهذا من شأنه أن يُقرب الدين الإسلامي إلى الآخر، ويرد على الإساءة، والتشويه.

13- دعم الأبحاث والدراسات التي تهدف إلى تحقيق التواصل الثقافي والحضاري، بين مختلف الأديان، والأمم، والشعوب، من خلال تقديم منح و تأسيس جوائز لتشجيع أحسن الأبحاث التي تُبرز أثر الثقافة الإسلامية في الحوار الحضاري، والتعايش السلمي، وأوجدت حلولاً للمشاكل التي تعترض طرائق الحوار مع الآخر، مع تشجيع المبادرات التي تصب في هذا الباب .

14- الاهتمام بمتابعة الحوار الحضاري، وتكثيفه في بعده التربوي والثقافي وتعزيز اللقاءات والأيام الثقافية التي تُعرف بالحضارة الإسلامية في العواصم الغربية، وتبادل الآراء من أجل تطوير العلاقات بين أتباع الديانات المختلفة.

15- إقرار جملة من المبادئ التي تؤكد على عدم استهداف أشكال الهوية الإنسانية التي تتجلى من خلال اللغة، والوطن، والتاريخ، والتقاليد، وغيرها والعمل على الرد بطرائق حضارية راقية على المقولات التي تدعو إلى صدام الحضارات، وإشاعة العنف، والتطرف.

16- القيام بحوارات داخلية بين المسلمين أنفسهم لتحديد أولويات الحوار الحضاري مع الآخر، وإبراز أسسه، وقضاياه، وأولوياته، بما يتوافق مع متطلبات ومصالح الأمة الإسلامية، حيث يمكن تفعيل هذا الحوار الداخلي عن طريق التنسيق، والتفاعل بين المؤسسات الفكرية، والمنظمات الإسلامية، وتبادل وجهات النظر، لتحديد أهداف الحوار الحضاري مع الآخر .

17- مراسلة مراكز البحوث، والمؤسسات الفكرية في مختلف دول العالم وتزويدها بالمطبوعات المتعلقة بالحوار الحضاري مع الآخر، وتشجيعها على التعاون الفكري، والتبادل الثقافي، من أجل توضيح أثر الثقافة الإسلامية في الحوار الحضاري، والتعايش السلمي.

18-تنظيم منتديات فكرية، وإصدار مجلات علمية تُسلط الضوء على القواسم المشتركة بين الأديان، وتُوضح القيم الإسلامية السمحة للآخر، التي تُبرز حُسن الجوار، والتعايش، والسلام.

19-إدانة التطرف، وأعمال العنف بجميع أشكالها، و الاتفاق على عدم ربطها بدين محدد، انطلاقاً من إدراك المجتمعات، والأمم أن في كل مجتمع غلاة فهمهم قاصر لحقيقة الأديان، ورسالتها الحضارية.

20-الابتعاد عن الغرور، والاعتقاد بتفوق أي طرف من أطراف الحوار على الآخر، فلا بد من الاعتراف بالآخر، والإقرار بخصوصيته الثقافية، حتى لا يؤدي هذا الأمر إلى الجفاء، والتجاهل، ورواج الأفكار الهدامة، ويُشجع على الكراهية والأحقاد.

21-التركيز على المحطات التاريخية المُشرّقة، والمُشرقة بين المسلمين والمسيحيين، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر أننا نُلقي في العصر العباسي كيف أن المسيحيين، قد قاموا بنقل التراث من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية، ثم من اللغة السريانية إلى اللغة العربية، وقد وجودوا كل التشجيع والاحترام، من قبل الخلفاء المسلمين، فأجزلوا لهم العطاء، واحترموا ديانتهم، كما تأثر الكثير من فلاسفة المسيحية بجملة من الأفكار الإسلامية، وكانوا يستشهدون بها، ويُعبّرون عن إعجابهم الشديد بما تضمنته.

الهوامش والمراجع:

(1) أحمد سلمان كمال: حوار الأديان، أعمال المؤتمر الدولي للتراث والمعاصرة وحوار الثقافات منشورات جمعية بيروت التراث، بيروت، لبنان، 2003م، ص: 162. وينظر الكلمة الافتتاحية لكتاب أعمال مؤتمر كيف نواصل مشروع حوار الحضارات، ج: 01، منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، 1423هـ/2002م، ص: 8.

(2) أحمد سلمان كمال: حوار الأديان، أعمال المؤتمر الدولي للتراث والمعاصرة وحوار الثقافات ص: 162. وينظر الكلمة الافتتاحية لكتاب أعمال مؤتمر كيف نواصل مشروع حوار الحضارات ج: 01، ص: 8.

(3) شكري بوشغالة: حوار الأديان، مجلة الحياة الثقافية، مجلة شهرية تعنى بالفكر والإبداع تصدر عن وزارة الثقافة التونسية، عدد خاص بالأديان والقيم الإنسانية المشتركة، العدد: 199 جانفي 2009م، ص: 49.

(4) عبد الكريم غريب: افتتاحية العدد: 17 من مجلة عالم التربية، مجلة محكمة تعنى بقضايا التربية والتعليم تصدر بمدينة الجديدة بالمغرب الأقصى، عدد خاص بالعلومة وحوار الحضارات والثقافات صدر سنة: 2007م، ص: 3-4.

(5) د. عبد القادر الشخيلي: ثقافة الحوار في الإسلام، منشورات كتاب الرياض، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: 01، 1424 هـ/2003م ص: 246 وما بعدها.

(6) سورة سبأ، الآية : 24.

(7) سورة سبأ، الآية : 25.

(8) سورة سبأ، الآية : 26.

(9) د. محمد السماك: ثقافة الحوار في الإسلام: حرية الاختيار وحقوق الاختلاف، مجلة النشرة دورية تصدر عن المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمان، الأردن، العدد: 44، السنة: 11 ربيع 2009م ص: 22 وما بعدها.

(10) د. محمد السماك: ثقافة الحوار في الإسلام: حرية الاختيار وحقوق الاختلاف، المرجع نفسه ص: 22 وما بعدها.

(11) د. محمد السماك: المرجع نفسه، ص: 24.

- (12) المرجع نفسه، ص: 25.
- (13) أحمد سلمان كمال: حوار الأديان، أعمال المؤتمر الدولي للتراث والمعاصرة وحوار الثقافات ببيروت، ص: 164 وما بعدها.
- (14) د. محمد جابر الأنصاري: هل نحن في علاقة مشوهة مع النفس، الإسلام والغرب كتاب العربي العدد: 49، منشورات وزارة الإعلام بدولة الكويت يوليو 2002م، ص: 224 وما بعدها.
- (15) د. أحمد طالب الإبراهيمي: حوار الأديان، مداخلة أُلقيت في مؤتمر حوار الأديان الذي عُقد بقطر في: 13 مايو 2008م، أسبوعية البصائر، العدد: 402، الاثنين 25 رجب-2 شعبان 1429هـ/ 28 جويلية-04 أوت 2008م، ص: 05.
- (16) عبد العزيز بونقلقة: الحوار المثمر بين الثقافات والحضارات، كلمة افتتاح لملتقى الحوار المثمر بين الثقافات والحضارات، الجزائر الإثنين 24 مارس 2003م، منشورة في كتاب خطب ورسائل، مديرية الاتصال والصحافة رئاسة الجمهورية الجزائرية، 2003م، ص: 214.
- (17) الأمير تشارلز: إحساس بالمقدس: بناء الجسور بين الإسلام والغرب، منشورات مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، أكسفورد، 1997م، ص: 10، نقلاً عن كتاب محاضرات في حوار الحضارات، ص: 341.
- (18) الأمير تشارلز: إحساس بالمقدس: بناء الجسور بين الإسلام والغرب، منشورات مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، أكسفورد، 1997م، ص: 16، نقلاً عن كتاب محاضرات في حوار الحضارات، ص: 341.
- (19) د. عبد العزيز بن عثمان التويجري: العولمة وحوار الحضارات: رؤية من خلال الإيسيسكو أعمال المؤتمر الدولي للتراث والمعاصرة وحوار الثقافات، منشورات جمعية بيروت للتراث بيروت، لبنان، 2003م، ص: 39 وما بعدها.
- (20) د. مفرح بن سلمان بن عبد الله القوسي: العلاقة الفكرية الثقافية بين العالمين الإسلامي والغربي في العصر الحاضر: الحواجز والجسور، كتاب صادر عن سلسلة دعوة الحق، كتاب شهري محكم يصدر عن الإدارة العامة للثقافة والنشر برابطة العالم الإسلامي، العدد: 226، السنة الثالثة والعشرون، 1429هـ/ 2008م، ص: 124 وما بعدها.
- (21) د. مصطفى شريف: ثقافة السلم ليتعلم الشباب الحوار، منشورات دار هومة للطباعة والنشر الجزائر، ط: 01، 2016م، ص: 11.

(22) د. مصطفى شريف: ثقافة السلم ليتعلم الشباب الحوار، ص: 88.

(23) د. إبراهيم القادري بوتشيش: المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، نموذج من العطاء الحضاري الأندلسي، مجلة دراسات أندلسية، عدد: 11، رجب 1414هـ/ 1994م تونس، ص: 22، وما بعدها، وينظر: د. بومدين كروم: ملامح الحوار الديني في الحضارة الأندلسية، أعمال الملتقى الدولي الحضارة الإسلامية بالأندلس، أيام: 14، و15، و16 ربيع الأول 1428هـ/ 2، و3، و4 أبريل 2007م، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر 2008م، ص: 21 وما بعدها، وينظر: د. سعد بوفلاحة: حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، مجلة المنار الجديد، عدد مزدوج 31/32، صيف، خريف 2005م، القاهرة، مصر، ص: 53 وما بعدها.

(24) د. ماريان روزا مينو كال: الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ترجمة: عبد الحميد جحفة، ومصطفى جبّاري، منشورات دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط: 01 2006م، ص: 6 وما بعدها.

(25) د. ماريان روزا مينو كال: الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح، ص: 30 وما بعدها.

(26) المرجع نفسه، ص: 60.

(27) محمد الصمدي: تأثير الإسلام في التفكير الديني المسيحي خلال العصور الوسطى، دراسة منشورة ضمن كتاب: الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، تنسيق: محمد حمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب الأقصى، ط: 01، 1995م ص: 204 وما بعدها.

(28) علي أحمد: المؤثرات الحضارية العربية الأندلسية والمغربية في الغرب الأوروبي وكيفية انتقالها خلال العصور الوسطى، دراسة منشورة ضمن كتاب: الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، ص: 213، وما بعدها.

(29) د. صلاح جرار: زمان الوصل: دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط: 01، 2004م، ص: 45 وما بعدها.

(30) د.صلاح جرار: زمان الوصل: دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس ص: 46 وما بعدها.

(31) تاريخ الفكر الأندلسي، ص: 48، نقلاً عن: د.حسن الوراكلي: ياقوتة الأندلس - دراسات في التراث الأندلسي -، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م، ص: 20.

(32) د.جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966م، ص: 41.

(33) غوساف لوبون: حضارة العرب، ص: 342. وانظر أيضا: د.حسن أحمد النوش: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ص: 40، دار الجيل، بيروت، و نصر الدين البهرة: العرب لم يغزوا الأندلس، مقال منشور في مجلة: التراث العربي التي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد: 69، جمادى الأخير 1418هـ/أكتوبر 1997م، ص: 22. نقلاً عن: د.سعد بوفلاحة: حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، مجلة المنار الجديد، عدد مزدوج 32/31، صيف، خريف 2005م، القاهرة، مصر، ص: 56 وما بعدها.

(34) نقلاً عن: د.سعد بوفلاحة: حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص: 56 وما بعدها.

(35) غوساف لوبون: حضارة العرب، ص: 342. وانظر أيضا: د.حسن أحمد النوش: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ص: 40، دار الجيل، بيروت، و نصر الدين البهرة: العرب لم يغزوا الأندلس، مقال منشور في مجلة: التراث العربي التي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد: 69، جمادى الأخير 1418هـ/أكتوبر 1997م، ص: 22. نقلاً عن: د.سعد بوفلاحة: حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، مجلة المنار الجديد، عدد مزدوج 32/31، صيف، خريف 2005م، القاهرة، مصر، ص: 56 وما بعدها.

(36) د.سعد بوفلاحة: حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص: 58.

(37) عمر فروخ: الغرب المسلم في إطار التاريخ الإنساني، دراسة منشورة في مجلة المناهل المغربية، العدد 31، ربيع الثاني، 1405 هـ، ص: 44 وما بعدها، و ص: 47. ود.سعد بوفلاحة: حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص: 60.

(38) د.عمر فروخ: الغرب المسلم في إطار التاريخ الإنساني، ص: 47، ود.سعد بوفلاحة: حوار الثقافات في الغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص: 61.

تجليات التنوع اللغوي والثقافي في الجزائر من خلال أدبيات أ. سليمان باعمارة

أ. أحمد امعيز الحاج أحمد،

أ. شرع الله عمر

جامعة غرداية.

لا شك أنّ طبيعة الخلق أن يكونوا مختلفين متميزين، وأنّ لكلّ بعض منهم ما يميّزه ويشكّل شخصيته وخصوصياته مقارنة مع غيره والواجب على كل فريق منهم أن يحافظ على عناصر تميّزه، إذ لا ينبغي له أن يفرط فيها، فهي إرادة إلهية وسنة كونية، كما أنّ عليه بالمقابل -وفي ذات الوقت- أن يتفاعل مع الفرق والعناصر الأخرى ضمن المجموعة البشرية والتي لها ما يميّزها كذلك، فيقع التأثير والتأثر بصفة إيجابية، ومنه يحصل النماء والازدهار، إذ أنّ تلك المميزات تتوزّع على مجالات الاجتماع والاقتصاد والفكر وغيرها، وهو ما يعطي فرصة أكبر للاستفادة والثراء، وكلّ ذلك في ظل الاحترام المتبادل وتكريس ثقافة الحوار والتقارب، فلا الانكفاء على الذات يجدي، ولا استبعاد الآخر بتجاربه وخصائصه وثرائه يفيد، خاصة في هذا العصر الذي نعيشه حيث تيسّرت سبل التواصل والاطلاع على الأمم وثقافتها.

تزخر الجزائر من بين ما تزخر به - بتنوع مهمّ من الناحيتين اللغوية والثقافية، وعلى الجزائريين أن يكتسبوا الوعي بأهمية ذلك التنوع، وأن يكرّسوه ويحافظوا عليه، كما أنّ عليهم بعد ذلك أن يتفاعلوا مع الأمم الأخرى ويسوّقوا نموذجهم الثقافي واللغوي العربي-

أمازيغي بجميع أبعاده وراثته، وبذلك يقع تلاقي الأفكار وتتحقق النتائج المرغوبة من استفادة ونماء وازدهار، فنحن الآن في عصر مفتوح ولا بد أن نُحلّ ثقافتنا ما تستحق من المكانة بين ثقافات الأمم والشعوب.

تساهم الكتابات والانتاجات الأدبية أيما إسهام في صدد التعريف بالثقافات فالأدب والأدباء من أحسن السفراء الذين يعرفون بثقافات الشعوب وبأبعادها المختلفة كاللغة والعادات والتقاليد والقيم والمبادئ وغيرها، وعلى الأدباء والكتاب الجزائريين مواصلة مهمّتهم النبيلة هاته، مقترّين أهمية ما أنيط بهم، فالكتاب يعكس بشعور منه أو بغير شعور - مجمل خصائص بلاده الفكرية والثقافية بحيث يستطيع أي دارس أن يستشفّها من ثنايا تلك الكتابات. من الكتاب والأدباء الجزائريين الذين يمكن أن تحظى أعمالهم بدراسة الباحثين والمهتمين في هذا المجال: الأستاذ سليمان باعمارة، ابن قصر آت مليشت بولاية غرداية، حيث يصحّ أن تعتبر نموذجا لاحتوائها على اللغتين الجزائريتين الوطنيتين والرسميتين موظفتين في انسيابية وسلاسة جميلة وملهمة، ولاحتمائها وتضمّنها أبعادا ثقافية زاخرة، من خلال تعرضه إلى جوانب من الحياة اليومية في بيئته القريية وادي مزاب بصفة خاصة، وتعرّضه لتلك الجوانب في مختلف ربوع الجزائر بصفة عامة، خصوصا وأنه جمع أغلب ملاحظاته من خلال تنقلاته إلى كثير من مناطق الوطن، ومن خلال معايناته المباشرة لجلّ ما دبّجه يراعه وسال به قلمه، مع ما يمتاز به من الغوص في أبعاد الموروث الأصيل واستنطاق كنهه وخباياه.

سنسعى للكشف عن بعض التجليات اللغوية والثقافية في الجزائر من خلال كتابات وأدبيات الأستاذ سليمان، وستبني هذه الورقة البحثية على العناصر الأساسية التالية:

1. مقدمة وتمهيد.

2. نظرة على التنوع اللغوي والثقافي في الجزائر.
3. الأستاذ سليمان باعمارة وخصائص كتاباته الأدبية.
4. تجليات التنوع اللغوي في الجزائر من خلال أدبيات الأستاذ سليمان.
5. تجليات التنوع الثقافي في الجزائر من خلال أدبيات الأستاذ سليمان.
6. خاتمة، نتائج، توصيات.

نظرة على التنوع اللغوي والثقافي في الجزائر:

تزخر الجزائر بتنوع لغوي وثقافي مشهود وعريق، فوجود الأمازيغية والعربية فيها دليل على وجود مجتمع متنوع، فوجود اللغة يشترط وجود مجتمع وهنا يتضح الطابع الاجتماعي للغة، فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلا عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتواصل به⁽¹⁾ فمنذ أن اتصل الأمازيغ باللغة العربية عن طريق الإسلام الذي اعتنقوه صارت الروافد الثقافية مختلفة ومتعددة، إضافة إلى ما تحتويه كلا منهما من مضامين متنوعة، فإن التلاحق والتفاعل بينها مما زادها ثراء وتنوعا. وقد استقبلت الجزائر عبر العصور ثقافات عديدة، وكان لكل واحدة منها بصمتها وما تركته من رواسب ثقافية ولغوية امتدت إلى عديد الجوانب وإن اختلفت بينها في شدة التأثير - ولنأخذ هذه الصورة من خلال الفقرة التالية والتي تعطينا فكرة عن ذلك التنوع الذي عرفته الجزائر في إحدى فتراتها ويمكننا القياس عليه في فترات أخرى (..ولعل هندسة البناء وطريقة التأثير ولغة التخاطب تعطي لنا صورة صادقة عن هذا المجتمع خلال الفترة العثمانية إذ نجد الرخام الإيطالي بجانب الفينس الهولندي، والزليج التونسي مختلطا بمرايا البندقية، وحرير ليون بجوار ساعات الحائط الإنجليزية، كما أن لغة الشارع والمرسى المعروفة بلغة الفرنكا هي في الواقع خليط من لهجات البروفانس وبلاد

الإغريق الممزوجة بالتعبير العربية الشائعة والمفردات التركية والكلمات الإيطالية والإسبانية والمالطية المحرفة..⁽²⁾

وبالإجمال فإن نظرة بسيطة على الواقع اللغوي والثقافي في الجزائر الفسحة تتبؤنا بعميق ما تكتنزه وتنطوي عليه في هذا المجال.

الأستاذ سليمان باعمارة وخصائص كتاباته الأدبية: ولد الأستاذ الأديب سليمان بن أحمد باعمارة يوم الخميس 28 أكتوبر 1952م بقصر آت مليشت إحدى قصور وادي مزاب العريقة بولاية غرداية، نشأ كعادة الجزائريين في تلك الفترة فتلقى تعليمه الأول بكتاب مسقط رأسه حيث أخذ مبادئ العلوم، فحفظ قسطا من القرآن الكريم واكتسب اللغة العربية الفصحى، علاوة على المواد والعلوم الأخرى. تعلم حبّ الألب العربي عامة واللبناني خاصة على يد أستاذه يوسف بن عيسى حني دودو، وكان أغلب تعلمه الأدبي عصاميا نظرا لانقطاعه عن الدروس النظامية لعدم مساعفة الظروف له في تلك الحقبة، إلا أنه أظهر موهبة أدبية ملحوظة منذ سنواته الدراسية الأولى، إذ يقول كاتبنا عن بداياته: (... صحّ المعلم المرحوم فخار صالح بن الحاج عيسى.. مواضيع الإنشاء في القسم ذات يوم وأنا ابن عشر... فناداني إليه فتقدّمت إليه خائفا وجلّا، فأخذ يفرك أذني اليمنى قائلا: يظهر لي أنه سيكون لك شأن في الكتابة مستقبلا إن شاء الله، فإذا كتبت وعزمت فتوكل على الله ولا تقولن إلا الحقيقة، ولا تكذب لتكون لك المصداقية وكتاباتك...) ⁽³⁾ فكان هذا التشجيع وتلك الوصية نعم ما أخذ بيده في درب الكتابة والأدب، خاصة مع التزامه بها وتطبيقه إياها، حيث يقول في ذلك: (فقد سعت بكل حرص وأمانة أن أذكر الوقائع كما حدثت، وأن أجسّد جذور علاقة فطرية وبريئة إزاء ما كانت عليه قرينتنا في خصوصياتها، فكلما هممت في منزلق أن أزيد أو

أحذف، توقفني فرامل وصايا معلمي، فأعود إلى الجادة، فمن تلك الوصية رسمت خطتي...⁽⁴⁾

فالتزام الصدق وتوخي الحقيقة من بين أهم ما يميز كتابات الأستاذ سليمان وهو شأن الأدباء والكتاب المقدرين أمانة القلم حق قدرها، العارفين بقيمة الكلمة وخطورتها.

ثم إن الكاتب قد وضع نطاق الدين الإسلامي الحنيف والأخلاق السامية إطاراً لا يتعداه، بل وهدفاً رئيساً يتوخاه وينود عنه، ولا غرابة فهو المتشبع بالقيم الأصيلة في مجتمعه الجزائري المحافظ والحريص على المثل والفضائل، ونجده يتحدث عن منهجه ذلك بقوله: (.. وأرجو ألا يكون هنالك خروج عن النطاق الإسلامي، أو تعدّ لحدود الرسالة المحمدية فقد قال تعالى "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"..⁽⁵⁾). ويؤكد ذات الأمر في موضع آخر من كتاباته بقوله (..رسمت خطتي من درب المحبة والوفاء واحترام كل الناس بشتى توجهاتهم، إلا طاعنا في الدين، والدين عند الله الإسلام، ملتزماً بالصدق والقيم والعادات والتقاليد والهوية الاجتماعية للمجتمع الذي أنتمي إليه، محافظاً على أصوله وثوراته الإسلامية المتجذرة فيه، محذراً إياه من مسائل تأتي من ورائها في طبائعه وعاداته ومعايشه فتقلمه رأساً على عقب، إذ يحسبها من أسباب السمو والتقدم ولكنها [في الحقيقة] من أسباب الدناءة والخسة... ولهذا كنت رافضاً دوماً كل ما من شأنه طمس معالمه الإسلامية وإدماجه في عادات الشرق والغرب وما وراء البحار..⁽⁶⁾).

هكذا يبدوا لنا الأستاذ في مبادئه الإسلامية وأخلاقه المحمدية، واضعاً إياها ميزاناً يقيس به الأفكار والثقافات التي تغد على مجتمعاتنا الإسلامية - ومنها المجتمع الجزائري- وتحاول العصف بأعرافنا الاجتماعية وتقاليدنا المحلية المبنية على أسس ربانية متينة، فيحضّ على التمسك

بالأصيل ونبذ الدخيل، دون أن يُغفل أهمية الاستفادة من التجارب المختلفة شرط وزنها بميزان الثوابت والمبادئ.

ومن بين ما تميزت به كتاباته كذلك: البساطة والعمق، فلا تكلف ولا سطحية وسماجة في تناول المواضيع، وهو يصنع أغلب ما يكتب بصبغة ذات طرافة تجذب القارئ وتضفي عليه ثوب المتعة والتشويق، وعن ذلك يقول الأستاذ: (..ولتعلم كذلك أخي الكريم بأنني لست ممن يكتب للتسلية أو الترويح عن النفس فقط، ولا من الذين يكتبون العبارات المنمقة والمصطنعة ليجذبوا إليهم القارئ بما أوتوا من رونق الكلمة وسحر البيان، ولكني أروي خواطر من الواقع بأسلوب عذب سلس وسهل الفهم، وأمرر بين النكتة والكلمة الرسالة التي من أجلها تناولت ذلك الموضوع...)(7). وهو ما لاحظته وخطّه الأستاذ الدكتور محمد صالح ناصر بربوشة في أسلوب الأستاذ فقال: (..وما كنت أقرأ التقديم والمقدمة والإهداء حتى وجدتني منساقا لتصفح الصفحات الواحدة تلو الأخرى مجنوبا بأسلوب كاتبه الممتع.. وقد استطاع المؤلف بمواهبه وأسلوبه المتميّز أن يجلي كل ذلك في ثوب سلس جذاب، يجعل القارئ منبهرا بوصفه الدقيق وخياله الواسع وروحه المداعبة الذكية..)(8)

وقد جمع مؤخرا جملة من مقالاته ونصوصه الأدبية التي تمثل ثمرة إنتاجاته على مدار حوالي نصف قرن وطبعها على حلقيتين، تحتوي الأولى على 29 نصا وكانت تحت عنوان (آت مليشت من ذاكرة الأيام)، أما الأخرى فاحتوت على 34 نصا وكانت تحت عنوان (من نسμάτων الفجر، ناس وحكايات). وتولّت النشر والتوزيع دارُ المنارة لمحاضرة منارة الإيمان بغرداية. بعد هذا العرض البسيط لبعض ما يميز أسلوب الأستاذ سليمان، نتقل لنرى ما تتضمنه كتاباته من أبعاد وتجليات التنوع اللغوي في الجزائر.

تجليات التنوع اللغوي في الجزائر من خلال أدبيات الأستاذ سليمان باعمارة: تحوي الجزائر -كما أشرنا آنفا- تنوعا لغويا مهما، وقد صارت اللغات وتعددتها في المجتمعات الحديثة من المظاهر الدالة على مستوى الرقي الفكري والحضاري، لما تحمله من دلالات التسامح والانسجام والثراء ثقافيا واجتماعيا، علاوة على الثراء اللغوي ذاته، ولابد من انعكاس ذلك التنوع اللغوي في كتابات الأدباء الجزائريين وظهور تجلياته في إنتاجاتهم المختلفة. فما هي تلك التجليات في أدبيات الأستاذ سليمان باعمارة؟

يقول الأستاذ مبيّا معتمده في هذا الشأن: (.. ولكلّ تعبير أسلوبه وطريقة كتابته، وقد اخترت الألفاظ المناسبة للمعنى، فاستخدمت تعابير عامية وعربية وأمازيغية لأصل من ورائها إلى الهدف المقصود..)⁽⁹⁾

فقد وظّف فيما كتبه جميع ما تزخر به الجزائر من ثراء لغوي ولعلنا نتطرق فيما يلي إلى عرض نماذج من عيّنة البحث تظهر حضور العربية والأمازيغية إضافة إلى العامية الدارجة، جنبا إلى جنب.

كانت اللغة العربية حاضرة من خلال أسلوب القرآن الكريم، حيث وظّفه الأستاذ في كثير من مواضيعه، فضمن بعض الآيات كما جاء في هذا المثال: (..فيتسلل بين طبقات الجو حتى يستقر أخيرا في ملكوت الله وقد أمضى قوله تعالى: "إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين ءامنوا صلوا عليه وسلموا تسليما"..⁽¹⁰⁾ وفي هذا المثال أيضا: (..فقلت له يبدولي أن هذا نموذج مصغر عن قيام الساعة "وترى الناس سكارى وما هم بسكارى"..⁽¹¹⁾

وأما توظيفه لمعاني الآيات القرآنية فنصادفه في كثير من نصوصه ومقالاته ومن ذلك قوله: (.. وقف السيد ينظر إليهم نظرة شكّ وريبة، فأوجسوا منه خيفة..⁽¹²⁾ وقوله كذلك (.. وأسيح في الأرض ماشيا في مناكبها..⁽¹³⁾ وقوله

(..وعندها يكون الشكر أو الكفر .. وحينها لا عاصم من أمر الله إلا من رحم..)(14)

هذه عينة من حضور اللغة العربية من خلال القرآن الكريم في كتابات الأستاذ، أما عن اللغة العربية الفصحى فكان لها حضورها الواضح هي الأخرى، إذ أنها المادة الأساسية لكتاباتهِ ومُعتمده في تدبيج أغلب بنات أفكارهِ وهو يستخدم أحيانا بعض الألفاظ التي تحتاج إلى شرح وتوضيح من خلال العودة إلى القواميس، لصعوبتها وعدم تداولها في الغالب، ومن أمثلة ذلك قوله: (..مضت الأيام والأسابيع والشهور يدفعها الوجد إلى مستقرها..)(15) وكذا قوله (..فرب شاة نتج عنها الوقير)(16) ونجد الأستاذ يضع لتلك الكلمات المستصعبة شروحا في الهوامش تيسيرا للفهم وتقريبا لمعانيها من الذهن وإثراء لرصيد القارئ اللغوي.

وقد نجد جملا كاملة ذات صياغة تحاكي أسلوب المتقدمين ذي الصياغة والألفاظ غير المعهودة في أغلب نصوص اليوم، مثلما يظهر في هذه الفقرة (.. وقربة الماء العذب.. تأخذ مكانها في أقصى زاوية الكتاب ورائحة القطران تسحّ نسيمها فتذكي لهف الصوادي، وقد نديت هذه القربة بقطرات متساقطة منها متتابعة كأنها دمع رقرق جار..)(17).

وقد كان للأمثال الفصيحة والشعر الفصيح حضور أيضا، مشكّلين مع ما سبق جانبا من تجليات التنوع اللغوي الذي تقدمه كتابات أستاذنا، وكأمثلة عن ذلك نورد ما يلي: (.. فهمست نفسي قائلة صه، يكفيك مما لا ترى ما قد ترى..)(18) وكذلك ما يلي (.. فنزلا عند طلبه على مضض فهو ممن لا تفرع له عصا..)(19)

كما أن الشعر الفصيح وجد مكانه ومكانته ضمن ما كتب الأستاذ، فنرى هذا المثال عن توظيفه الشعر الحديث:

جزائر لم تزل بالحب تذكر فضلك الخصبا
وتروي مجد أسياذ أزالوا الظلم والعجا
هم الأبطال أهلك يا مليكة فاهنئي قلبا
ففي أكتوبر الذكرى صنعنا الرفض والكسبا⁽²⁰⁾

ونورد هذا المثال عن توظيفه الشعر القديم كذلك:
وقفت بها من بعد عشرين حجة

فلأيا عرفت الدار بعد توهم
أثافي سعفا في معرس مرجل
ونؤيا كجذم الحوض لم يتلثم
فلما عرفت الدار قلت لربعها
ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم⁽²¹⁾

تلك بعض تجليات التنوع اللغوي في كتابات الأستاذ من خلال ما قدّمنا
من نماذج مختصرة عن حضور اللغة العربية الفصحى، فكان من تجليات
حضورها اعتمادها كلغة رئيسة لأغلب كتاباته، وكذلك ما تحتويه كتاباته
وتتضمنه من أسلوب قرآني، واحتواؤها ألفاظا وعبارات عميقة مستعربة في بعض
الأحيان، وكذا حضور الأمثال والشعر الفصيح، القديم منه والحديث.

بعد أن رأينا ذلك سنتعرض لأمثلة من حضور اللغة الأمازيغية في كتابات
الأستاذ سليمان، مبرزين بذلك وجها آخر من تجليات التنوع اللغوي في الجزائر.
كان لتمييز حضور أيضا فيما أنتجه الأستاذ، فنجد له ذكر أسماء
بعض المناطق والأماكن الأمازيغية مثل: أميدول، تمسلوت، تغردايت، آت
مليشت، آنو⁽²²⁾ إذ لا بد أن ينعكس واقع التعامل اليومي في أدبيات الكتاب
وهو ما يتجلى أيضا من خلال حضور أسماء ومصطلحات متعلقة بحياة الفرد
اليومية مثل: اتلخت توراعت، تبراتين، إيجاجن أوّقل، نخل " أدالت"⁽²³⁾

وضمن تجليات حضور تمزيغت نجد للأستاذ توظيفاً للأمثال والحكم التي تعتبر من المظاهر والتجليات اللغوية المهمة، فيورد في كتاباته مثلاً: (..فقالوا لها: لا تخافي ولا تحزني، فقد سترك الله وكنت في وقت "اقل ديس ودسيل"..⁽²⁴⁾، ويورد أيضاً هذا المثل: (..حتى يترين حاله لأنه عندنا "د حد وارتيست"..⁽²⁵⁾، ويقول كذلك: (..ومن بين هذا العنز عنز الرحي "اطغاة ن تسيره"..⁽²⁶⁾، ونختم بهذا المثال الذي يقول فيه (.. والمثل الأمازيغي المزابي يقول: سشي أنغ أشيي..⁽²⁶⁾ إلى غير ذلك من الأمثلة التي جاءت على هذا النسق ضمن كتابات الأستاذ. ونجد من تلك التجليات شيئاً من الشعر والأهازيج، والتي يختص بعضها بإلقائه في بعض المناسبات، ومن ذلك مثلاً:

أكرد آمزور انعيسى ن ماريمّا إن شاء الله
أويد تامشت أويد دال أويد تيخوتام
أويد تامشت اسنكرض سيس إيسلان
سيوت غرسن أسينند إوينند إزلوان
سيوت غرسن أسينند إوينند إعبان⁽²⁷⁾

إلى آخر هذه الأبيات التي نقدمها مثلاً دالاً على غيره مما ضمّه الأستاذ كتاباته من أشعار وأهازيج أمازيغية، كإحدى التجليات اللغوية هي الأخرى. ولعلنا نختم ببعض الابتهالات التي جاءت في إحدى كتاباته، والتي يرددها تلاميذ المحاضر مع شيخهم عند نهاية الحصة قائلين: (أيوش أوشانغ أمان د لمان، أيوش أوشانغ إكت تلويت أتنفع أولتسزوروت، أيوش أوشانغ إكت تلويت أتنشأر أولاون ديجدلاون، أيوش اكفا غفغ أيوني أونتنجم... والتلاميذ يؤمّنون بقولهم: آمين أيوش.⁽²⁸⁾

وقد كان للعامية الدارجة حضورها كما أشار الأستاذ في مقدمة حلقة الثانية وذلك أيضاً انعكاس للواقع اللغوي بالجزائر، وإحدى تجليات تنوعه، فيورد العديد من الألفاظ مثل: لعدال، مصران لعلوش، يا راجل ما تحشمناش⁽²⁹⁾...

كما يوظف ما يدخل ضمن نطاق الأمثال والحكم، مثل قوله: (كل أجيد ليه لذة والبالى لا تفرط فيه) وقوله (الحدايد لشدايد) وكذا قوله: (مرحبا بلي جا وجاب واللي ما جاب ما عليه جواب) ⁽³⁰⁾ وقد أشار إلى شعر القوالين أصحاب الشعر الدارج الملحون وجاء بشيء يسير من أقوالهم، ومن ذلك:

الحمد لله الواحد لوحداني
المبلغ عبدو كل الأمانى ⁽³¹⁾

وقبل انتقالنا لنستشف بعض تجليات التنوع الثقافي في الجزائر من خلال كتابات الأستاذ، نأتي بأمثلة لمزاوجته واستخدامه للعربية والأمازيغية والدارجة وهو ما يقدم صورة رائعة من التنوع اللغوي الفعلي. يقول الأستاذ مثلا: (..ومصاييح أخرى للإضاءة من ماشووات للميسورين ومصباح نير نزيت للفقراء المهلهلين..)، كما يقول (..وبعض آلات خدمة الصوف من قرداش، ومغزل، وأمضض ن صوفت، وخلالات طاشاً..) ⁽³²⁾ ويقول على نفس المنوال مما يظهر ذلك التنوع والتكامل (..من جرارات وحبل إيشّر اتوجباد من ليف ومسد وتيسرمغت، ومروود وباسور الزجر... من لجام وبردعة، واخراج، واشواري، واعدال إسنارين، وتغنّاتين،... من سكة، وفلات وباللات، واتشّيون، ومناجل...) ⁽³³⁾

فكانت العربية الفصحى جنب الأمازيغية إلى جانب الدارجة العامية. هذا باختصار ما يمكن التطرق إليه بخصوص تجليات التنوع اللغوي في الجزائر من خلال كتابات الأستاذ سليمان باعمارة، وهي ثرية وقيمة كما رأينا. فما هي بعض تجليات التنوع الثقافي في الجزائر من خلال نفس الأنموذج؟

تجليات التنوع الثقافي في الجزائر من خلال أدبيات الأستاذ سليمان: على غرار الجانب اللغوي، فإن الجانب الثقافي ينطبع آليا فيما ينتجه

ويبدعه الكتاب والأدباء، فهم لا يكتبون بمعزل عن واقعهم وملابساته، بل قد يكونون أصدق من ينقل ذلك الواقع ويصوره، ففي أغلب الحالات يكون الأدباء من أقرب الناس لآلام وآمال شعوبهم، فينقلونها بما منحوا من رهافة مشاعر وحسن أسلوب، فتأتي صادقة تهز قارئها وتجعله يعيش تلك الوقائع ويتفاعل معها، وهذا هو هدف الكاتب والأديب.

نجد في كتابات الأستاذ سليمان العديد مما يقدم تجليات ثقافية جزائرية، في مناحيها المختلفة، وصورها المتعددة، مساهما بذلك في تقديم صورة تعريفية لمن يريد الاطلاع على هذا الجانب المهم، وقد كان ذلك من بين أهداف كتاباته، حيث يقول: (..أرجو أن أكون قد وفقت إلى بغيتي التي تهدف إلى الاطلاع على جانب من ثقافتنا للتعرف عليها، والأخذ من محاسنها ونشرها إلى ما وراء حدودنا..)⁽³⁴⁾ وسنحاول فيما يلي أن نستخلص بإيجاز بعضاً من تلك الجوانب الثقافية.

يعدّ التنوع اللغوي ذاته من بين التجليات الثقافية، فتنوع اللغات دليل على تنوع الثقافات، ويمكن أن نلمس ذلك مثلاً من خلال هذه الأزوجة المقتضبة التي تحتوي أبياتاً أمازيغية وعربية:

أدريم نيمسوردا داني
سلهنا د لعز أولان داني
الحمد لله الواحد لوحداني
المبلغ عبدو كل الأماني⁽³⁵⁾

فالقارئ لها يتجلى له وجه من أوجه التنوع الثقافي من خلال هذا التنوع اللغوي، إضافة إلى ما يتجلى له حين تصادفه أهازيج وأشعار بالعربية تارة وبالأمازيغية تارة أخرى، وبالدارجة أو الشعر الملحون طورا آخر، وقد تكون كلّها متحدة عن نفس المناسبة مع اختلاف المضمون الثقافي من عادات وتقاليد وهو من أوجه الثراء والتنوع، مع ما لكل لون شعري من مميزات وخصائص.

ويحدثنا الكاتب عن بعض المناسبات والأعياد المحلية وأبعادها الثقافية فجاء على ذكر الحفلة المقامة عند ختان الصبية، والتي يخلف حالها على حسب الأوساط الاجتماعية في الأرياف والمدن والقرى⁽³⁶⁾، فذكر بعض تفاصيلها في بيئته من بعض الأهالي التي تردّد حين التحضير للمناسبة والتي تبدأ بقولهم:

أكرد أمزور نعيسى نماريما

أويد تامشت أويد دال أويد تيخوتام

أويد تامشت أسنكرض اسيس إيسلان⁽³⁷⁾

إلى آخر تلك الأبيات، إضافة إلى الأبيات التي تقال حين مباشرة عملية الختان من طرف " الزيان " ثم عرّج على لباس المختون المنكون من عباءة صوفية وأخرى من الكتان والمحتوية كتابات بالزعران وكذا ما يوضع على رأسه من لحاف وعلى عاتقه من قرنفل وغيره، إضافة إلى المأكولات التي تحضر بالمناسبة مثل " تمشولت نومختول"⁽³⁸⁾

هذا نموذج عن عدة مناسبات وأعياد أتى الكاتب على ذكرها مثل حفلة "أدريم" وموسم الزيارة⁽³⁹⁾، وغيرها مبرزاً أوجها ثقافية متعدّدة من خلالها، تبين في مجملها ما في الجزائر من تنوع وثراء، وقد ساهمت مثل هذه الكتابات في إبرازها. وكان للكاتب فيما أنتجه نصيب للحديث عن الألبسة والأطباق التقليدية، وهي من أبرز التجليات الثقافية هي الأخرى، فذكر من بين الألبسة مثلاً: القشاشيب والبرانيس والباشمار واتشمبير وعدّد من أنواع الأفرشة التقليدية كاحنابل وإيسوشا اتّليس وفراش عمران وغيرها⁽⁴⁰⁾.

وفي نطاق المأكولات التقليدية أتى على ذكر: ألمسُ الزبدة، و تيوارين اللين وتاكروايت والكرداس دون أن ينسى التعريج على بعض أنواع التمور مثل: أعوشة وترقاغت⁽⁴¹⁾... وذكر بعض مناسبات خاصة بكل طبق من الأطباق التقليدية في توثيق لتراث مادي وثقافي يبرز المخزون الجزائري الثري.

إذا كانت التجليات الثقافية في كتابات الأستاذ متعددة فإننا سنختم هذه الجولة المختصرة ببعض ما أورد من صناعات تقليدية، عسى أن يتولى بعض الدارسين مستقبلا الغوص في مثل هذه الكتابات القيمة، مستخرجا أوجها ثقافية غنية علاوة على أوجه وجوانب أخرى.

المنسج التقليدي من أبرز الصناعات التقليدية الجزائرية، وقد تطرق الأستاذ إليها وإلى بعض أدواتها⁽⁴²⁾ كما تطرق إلى ذكر أسماء بعض الزرابي والأفرشة التي هي من منتجات هذه الصناعة التقليدية وقد ذكرنا بعضها آنفا كما نقل شيئا مما يتعلق بأدوات العمل في الآبار التقليدية واستخراج الماء منها، مثل: الجرارات والحبال وباسور لزجر وغيرها⁽⁴³⁾ ليقف بنا عند صناعة القرب والدلاء وبعض مستلزماتها كالقطران⁽⁴⁴⁾، ولعلنا نختم هذه الأمثلة بصناعة الفخار التي أفرد لها مقالا كاملا تحدث فيه عن جوانب متعلقة بهذه الصناعة التقليدية التي تتجلى من خلالها ومن خلال مثيلاتها مما سبق نماذج وتجليات عن جوانب مهمة في الثقافة الجزائرية، أراد الأستاذ تقديمها والتعريف بها من خلال كتاباته.

خاتمة، نتائج، توصيات: بعد هذه الجولة المقتضبة في كتابات الأستاذ سليمان باعمارة، يمكننا القول أنه استطاع أن يقدم لنا صورا ونماذج عن الواقع اللغوي والثقافي في الجزائر من خلال أسلوبه الأدبي، فرأيناها ثرية ومتنوعة وجديدة بأن يطّلع عليها كلّ جزائري وأن يعتزّ بها، ثم تقدّم للأمم والشعوب الأخرى فقد احتوت كتاباته على اللغة العربية والأمازيغية، والدارجة كذلك، مع ما تتضمنه كل منها من أساليب لغوية وأشكال إبداعية، فرأينا نماذج من كل منها وقدّمنا نماذج لصياغته جملا مزج فيها التنوعات اللغوية المذكورة بتناغم وسلاسة.

كما رأينا نماذج وتجليات ثقافية فرأينا ما احتوته كتابات الأستاذ من أنّ التنوع اللغوي ذاته من تجليات التنوع الثقافي، إضافة إلى ما تحويه الثقافة الجزائرية

- من ألبسة وأفرشة وأطباق تقليدية وأدوات مختلفة تعدّ في نطاق التراث، فاستطاع الأستاذ أن يعرضها بأسلوب أدبي شيق.
- وقد اكتشفنا في الأستاذ سليمان باعمارة كاتباً وأديباً متميّزاً ومبدعاً ومتشبعاً بالأصالة الجزائرية بأبعادها المختلفة.
- وسنُجمل بعض النتائج والتوصيات في شكل نقاط كما يأتي:
- ✓ تَزخر الجزائر بتنوع لغوي وثقافي ثري.
 - ✓ تسهم الكتابات الأدبية في التعريف بالتنوع اللغوي والثقافي وإظهار تجلياته.
 - ✓ احتوت كتابات الأستاذ سليمان باعمارة على جوانب مهمة من التنوع اللغوي والثقافي في الجزائر.
 - ✓ يمكن الاعتماد على إنتاجات الكتاب والأدباء الجزائريين في تقديم صورة عن الواقع اللغوي والثقافي المتنوع للجزائر.
 - ✓ الكتابات الأدبية بوابة مهمة لتمهيد أسباب التواصل والتعايش.
 - ✓ نوصي بتكثيف ندوات أدبية تتناول التنوع في الجزائر من خلال الكتابات الأدبية فهي بوابة للتواصل والتعايش.
 - ✓ نوصي بالتعريف بكتابات الأستاذ سليمان باعمارة وأمثاله من الكتاب ذوي الكتابات الجزائرية الأصيلة من خلال أنشطة في العالمين الواقعي والاقتراضي.

الهوامش:

- (1) محمود فهمي حجاز، مدخل إلى علم اللغة المجالات والاتجاهات، ن: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 04، 2007م، ص 8.
- (2) ناصر الدين سعيدوني - الشيخ المهدي بوعبلي، الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)، ن: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص 114.
- (3) سليمان باعمارة، من نسمات الفجر: ناس وحكايات، ن دار المنارة للنشر والتوزيع الجزائر ط 1، ديسمبر 2018 م، ص 215.
- (4) نفسه.
- (5) سليمان باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، المطبعة العربية غرداية، إشراف قسم الأعلام لمحاضرة منارة الإيمان، ط 1، 2017 م، ص 12.
- (6) باعمارة، ناس وحكايات، ص 215
- (7) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص 12
- (8) باعمارة، ناس وحكايات، ص 19
- (9) باعمارة، ناس وحكايات، ص
- (10) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص 22
- (11) باعمارة، ناس وحكايات، ص 100
- (12) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص 82
- (13) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص 91
- (14) باعمارة، ناس وحكايات، ص 142
- (15) نفسه، ص 156
- (16) نفسه، ص 125
- (17) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص 20
- (18) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص 114
- (19) باعمارة، ناس وحكايات، ص 64

- (20) باعمارة، ناس وحكايات، ص30
- (21) باعمارة، ناس وحكايات، ص39
- (22) نفسه، ص 32
- (23) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص120
- (24) باعمارة، ناس وحكايات، ص87
- (25) نفسه، ص79
- (26) نفسه، ص 135
- (27) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص35
- (28) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص22
- (29) نفسه، ص 113
- (30) باعمارة، ناس وحكايات، ص117
- (31) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص33
- (32) باعمارة، ناس وحكايات، ص196
- (33) نفسه، ص197
- (34) نفسه، 216
- (35) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص33
- (36) نفسه، ص 33
- (37) نفسه، ص35
- (38) أنظر نص "حفلة الختان"، آت مليشت، ص 35 وما يليها.
- (39) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص32
- (40) باعمارة، آت مليشت في ذاكرة الأيام، ص35
- (41) باعمارة، ناس وحكايات، ص876
- (42) باعمارة، ناس وحكايات، ص 8 و196
- (43) نفسه، ص197
- (44) نفسه، ص 20.

الوعي الثقافي أداة فاعلة نحو تحقيق السكينة المجتمعية والتنمية المستدامة

أ. درقاوي كلتوم

المركز الجامعي، غليزان.

مقدمة: لاشك أن أبرز التحديات التي تواجه المجتمعات الإنسانية اليوم هي تحقيق مطلب الوعي الثقافي والتوافق الجمعي، إذ يسعى المثقفون والسياسيون كل بأدواته الخاصة من أجل العمل على خلق سبل التوافق والتعايش الثقافي وتعميم ثقافة قبول الآخر دون استبعاده ورفضه والعمل على تصحيح المفاهيم وخلق مسارات التفاهم بين الأفراد والمجتمعات والحضارات من أجل التنمية الشاملة والمستدامة.

وتأتي هذه الورقة للبحث في سبل تحقيق هذا الوعي والتأكيد على أن قيم التعددية والتنوع الثقافي لا تشكل مطلقاً ذريعة لاستبعاد الآخر وإخلال السكينة والتوافق الجمعي بل إن قبول التنوع أساساً هو احترام للوجود الإنساني ولكيانات الأفراد الثقافية وقبول للآخر والتعايش في سلام والعمل على تحقيق التنمية بمختلف أنواعها. فما هي سبل تحقيق التوافق الثقافي؟ هل إثبات ثقافتني يعني استبعادي للآخر؟ هل قبول التنوع يعني الانصهار في الآخر؟ كيف يمكن تصحيح المفاهيم وتحقيق التعايش الثقافي في ظل ملامح الإقصاء والاستبعاد التي تواجه الكيانات الثقافية؟

1/ في مفهوم الثقافة: لا غرو أن الثقافة بمفهومها العام مظهر من مظاهر المجتمع الإنساني، قد عرفت بأنها طريقة كاملة في الحياة لدى مجتمع معين يتم تعلمها ونقاسمها بين أفراد المجتمع الواحد، فهي بهذا لا تقتصر على جانب دون الآخر بل تشمل جميع مناحي الحياة الفكرية والمادية وحتى السلوكية للأفراد، بل تمثل أسلوباً كاملاً في حياة الناس، لذا فتقافة مجتمع «هي طريقة حياة أفرادِهِ وهي مجموعة الأفكار والعادات والتقاليد التي مولوها وساهموا فيها ثم نقلوها من جيل إلى آخر»¹

وقد اتخذ مفهوم الثقافة حيزاً كبيراً في دراسات العلوم الاجتماعية والانثربولوجيا الثقافية ولم يجر الاتفاق على تعريف محدد لحد الساعة بل أن مجمل الآراء والتصورات التي قدمت في هذا الشأن تعكس نظرة الباحث وخصوصية الانتماء إلى مدرسة البحث غير أنه يمكن أن نورد أقدم تعريف للثقافة في العلوم الاجتماعية وهو التعريف الذي قدمه الباحث الانجليزي تايلور بأن الثقافة هي حصيلة الكل المركب من المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاقيات والقانون والعادات وجميع القدرات التي اكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع²

أما أحدث تعريف قدم للثقافة في وقتنا الحالي هو ما جاء في التعريف الذي اتفق عليه في إعلان مكسيكو في 6 أوت 1982 والذي نصّ على أن الثقافة بمعناها الواسع يمكن النظر إليها على أنها «جميع السمات الروحية والمادية والعاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والمعتقدات والتقاليد»³

2/ الثقافة والمجتمع: يذهب أحد الباحثين إلى أن الثقافة ليست صنع أو إنتاج فردي بل هي عمل جماعي ينتجه المجتمع ويكون نتيجة جهد جماعي ومعتقدات جماعية لا فردية تشكل مخزون جماعي ومشارك للإنسان يعبر الدكتور شماس عن الأمر بقوله «إن الثقافة إنتاج اجتماعي أبدعته جماعة معينة»⁴ وهي تصور جماعي مشترك بين أفراد مجتمع واحد تنظم سلوكياته وتميزه عن باقي المجتمعات حتى وإن اتفقت بعض المجتمعات في تكوينها وبناءها المجتمعي إلا أن ما يميز كل مجتمع عن آخر هو ثقافته .

وتشكل الثقافة أداة هامة للحفاظ على وحدة المجتمعات وهويتها وتمايزها عن بعضها البعض واسمنت الوحدة الوطنية ووسيلة هامة لبناء المجتمعات وتصالحها ووسيلة أساسية لتحقيق التكيف والاندماج الجمعي بين أعضاء المجتمع الواحد أو الحضارات والثقافات الأخرى فقدرة أي مجتمع على الاستجابة الصحيحة للتحديات

التي تواجهه مرهون بمرونته الثقافية ونمطه وتصورات أفرادها في التعايش فيما بينهم وعلاقاتهم مع الآخر وقبوله وفي ذات السياق فإن الثقافة شرط ضروري لأي مجتمع يريد البقاء

كما تضمن الثقافة وحدة المجتمعات واستمراريتها فهي بطاقة الهوية والوجود التي تعرف بها المجتمعات عن بعضها البعض إذ أن « عوامل كاللغة والدين والتاريخ تصقل عبر قرون المادة الفكرية التي يبرز المثقفون انطلاقاً منها، وإذا كان لكافة هذه العوامل كفاءات وجودها المتميزة ضمن الأشكال التي تتخذها الدول الآن فإنها كانت قبل اليوم تشكل روابط تضمن الوحدة على مستوى مجالات أكثر اتساعاً»⁵

3/ الثقافة قوة محركة للتنمية المستدامة: تعد التنمية المستدامة خطوة حيوية تصبو إلى تحقيقها الدول والمجتمعات الإنسانية من أجل ضمان الاستقرار المادي والمعنوي للمجتمعات الإنسانية وإذا ما حاولنا في عجلة الوقوف على مفهوم لها نجد انه مفهوم متعدد ومتشابه يتوزع على أصعدة مختلفة أولها الجانب الثقافي لتقرير لجنة برونتلاند (بالإنجليزية Brundtland : Commission's Report لعام 1987م تحت عنوان (مستقبلنا المشترك)، أصبح مفهوم التنمية المستدامة معروفاً ومستخدماً، فقد حدّدت اللجنة العالمية للبيئة والتنمية (بالإنجليزية WCED) :تعريفاً خاصاً لها على أنها التنمية التي تلبي احتياجات الحاضر (دون المساومة على قدرة الأجيال القادمة في تلبية احتياجاتهم الخاصة)، ساعد هذا التقرير على فهم أنه تتدرج تحت التنمية المستدامة عدة ركائز لتحقيقها، مثل: الحفاظ على سلامة البيئة، وإرضاء الحاجات الإنسانية الرئيسة، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وتوفير التكافل المجتمعي المتعدد. لقد كان من مخرجات هذا التعريف إدراك أن التنمية المستدامة تشمل عدداً من المجالات المتنوعة⁶

وتشمل هذه المجالات الجانب الثقافي فاستقرار الأمم وتحقيق تنميتها لا يكون إلا من خلال التوافق والوعي الثقافي.

بناءً على ما سبق فإن تقدم المعرفة الإنسانية وتحقيق التنمية المستدامة في دول العالم يستند إلى حد كبير إلى والتوافق الثقافي قبول الآخر وفهم التنوع الثقافي على أنه ميزة ملتصقة بالإنسان وسبيل إلى التفاهم والتوافق وتحقيق السكينة المجتمعية والتطور بمختلف مجالاته.

وفي ذات السياق وقد أثبت فشل بعض المشاريع الجارية منذ السبعينيات أن التطور لا يترادف مع النمو الاقتصادي وحده، بل هو وسيلة لصنع حياة فكرية وعاطفية ومعنوية وروحية أكثر اكتمالاً. ولا يمكن بالتالي فصل التنمية عن الثقافة.

ويشكل تعزيز مساهمة الثقافة في التنمية المستدامة هدفاً تم إطلاقه في إطار العقد العالمي للتنمية الثقافية (1988-1998)، وقد تحقق منذ ذلك الحين نمو ملحوظ بفضل مجموعة من الصكوك الخاصة بوضع المعايير والأدوات الإيضاحية كإحصاءات الثقافة والجردات ورسم خرائط الموارد الثقافية على المستويين الإقليمي والوطني⁷.

هل التنوع الثقافي يلغي التوافق الجمعي؟: إن الوقوف على مفهوم عام للتنوع الثقافي أمر صعب ومستعصي إن لم نقل مستحيل ذلك بالنظر إلى عدم الاتفاق على مفهوم مضبوط للثقافة وقد جاء تعريف التنوع الثقافي في إعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي «تتخذ الثقافة أشكالاً متنوعة عبر المكان والزمان، ويتجلى هذا التنوع في أصالة وتعدد الهويات المميزة للمجموعات والمجتمعات التي تتألف منها الإنسانية، والتنوع الثقافي، بوصفه مصدراً للتبادل والتجديد والإبداع وهو ضروري للجنس البشري ضرورة التنوع البيولوجي بالنسبة للكائنات الحية، وبهذا المعنى فإن التنوع الثقافي هو التراث المشترك للإنسانية، وينبغي الاعتراف به والتأكيد عليه لصالح أجيال الحاضر والمستقبل»⁸

وهو يشكل قوة محركة للتنمية، ليس على مستوى النمو الاقتصادي فحسب بل أيضاً كوسيلة لعيش حياة فكرية وعاطفية ومعنوية وروحية أكثر اكتمالاً، توفر ركيزة صلبة لتعزيز التنوع الثقافي.

من هنا، يُعتبر التنوع الثقافي ميزة ضرورية للحدّ من الفقر وتحقيق التنمية المستدامة. في الوقت عينه، ويساهم القبول والإقرار به - عبر الاستعمال الإبداعي للإعلام وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات بشكل خاص - في خلق الحوار بين الحضارات والثقافات وفي بلوغ تبادل الاحترام والتفاهم⁹

أشكال التنوع الثقافي: تتعدد أشكال التنوع الثقافي في دول العالم وفي المجتمعات نفسها من صور التنوع الثقافي:

أ- **التنوع اللغوي:** يشكل التنوع اللغوي أبرز المظاهر والأشكال الثقافية التي طالما خلقت اختلالات بين عناصر المجتمع الواحد وتسعى الدول مراراً إلى تسييس الوضع اللغوي من أجل ضمان الانسجام الجمعي والخروج بحلول تقضي بتقبل الآخر ولغته التي تشكل بطاقة هويته خاصة وأنه يشيع في أوساط مجتمعات عديدة إن قبول التنوع اللغوي هو الانصهار في الآخر وتغليب لغة على أخرى يعني تغليب ثقافته على حساب الثقافة السائدة.

غير أن التنوع اللغوي ليست خطراً لا على اللغة والهوية الوطنية إذا ما أحسن استغلاله واستثماره بل هو مفهوم يعبر عن أحد أشكال الممارسة الديمقراطية الثقافية وهذا المفهوم الجديد له من شأنه أن يعطي ديناميكية للحياة العامة بشرط أن نفرق ما بين هذا الاختلاف كأصل طبيعي وفطري في الحياة يغني رصيد الأمة الثقافي ويقارب بين أبنائها ويرسخ ثقافة قبول الآخر واحترامه مهما كان ويكون سبباً فاعلاً في سبيل تقدمها وبين هذا الاختلاف باعتباره وسيلة وظاهرة مفتعلة في جانبها السلبي في يد الأنظمة والسياسات والأطراف التي تدير هذا التنوع وتحسن أو تسيء

استغلاله من أجل الوحدة والحفاظ على طبيعة عناصر الأمة الجامعة أو تفتيتها وخلق واقع لغوي مركب ومتحرك غير متجانس يميل إلى التعقيد والتشنج والانفصال¹⁰.

ب/ أشكال التعبير الفني والمعارف العلمية والتكنولوجية: تعد الفنون بمختلف أشكالها المسرح التمثيل الرسم الأعمال الحرفية والموسيقى.... إلخ من أشكال التنوع الثقافي التي تعبر عن الحرية الثقافية والتي ينبغي الحرص على تمكين كل الثقافات والمجتمعات من التعبير عن ذاتها بما فيها من حرية التعبير وإتاحة الفرصة لجميع الثقافات أن تكون حاضرة في وسائل التعبير والنشر وتسخير التكنولوجيا والرقمنة لضمان وصول هذه الثقافات إلى الآخر والعمل على تعزيز سبل قبول التنوع وتعميق فهمه بمختلف أشكاله باعتباره وسيلة للانسجام والتوافق لا تتنافر والتطاحن بين المجتمعات

سبل تحقيق الوعي الثقافي: يعد الوعي الثقافي مطلب حضاري عالمي تسعى الدول إلى خلق سبل تحقيقه في العالم والغاية منه احترام الإنسان وتحقيق العدالة في أسمى صورها الثقافية والفكرية وللوصول إلى الأمر يخرج البحث بمجموعة من التوصيات تهدف إلى تحقيق هذا المطلب لدى الجماعات الإنسانية ونجملها فيما يلي :

1- ضرورة التحسيس بأهمية التوافق الثقافي: ودوره في تحقيق الانسجام الجمعي وإبراز أهمية الثقافة في حياة الأفراد وضرورة قبول الآخر بمختلف مميزاته ومهما كان جنسه لونه ثقافته من خلال وسائل الإعلام إقامة مؤتمرات وملتقيات توعية للطبقة البسيطة لشعب وتبسيط المفهوم ليصل المغزى للجميع أو توطيد العلاقات بين الأفراد.

2- ضمان الأمن الثقافي أداة فاعلة لتحقيق الوعي الثقافي ومنه السكينة المجتمعية: يتلخص مفهوم الأمن الثقافي في كونه "الحفاظ على المكونات الثقافية الأصلية في مواجهة التيارات الثقافية الوافدة والأجنبية المشبوهة وهو بهذا المعنى حماية وتحصين للهوية الثقافية من الاختراق والاحتواء من الخارج ، كما يعني الأمن

الثقافي حماية المؤسسات والأدوات الثقافية من الانحراف والارتفاع بها عن العجز والقصور، وتعزيز التوجهات السليمة وانتقاد التوجهات الشاذة والمتطرفة¹¹ من هنا فإن الأمن الثقافي صيانة لمؤسسات الثقافة وحفظها من الانفلات بمختلف أنواعه سواء كان داخليا أو خارجيا وتكمن أهمية الأمن الثقافي في تحقيق التوافق الجمعي وحماية التنوع الثقافي مهما كان نوعه والحرص على عدم استغلاله من قبل أعداء الدولة والمتربصين بها في خلق النزاعات وإخلال النظام العام لذا فهو يشكل اسمنت الانسجام الجمعي والسكينة المجتمعية .

3- تسويق سياسات في الشأن الثقافي: العمل على دمج الثقافة في مجمل سياسات التنمية سواء ارتبطت بالتعليم أو العلم أو الاتصالات أو الصحة أو البيئة أو السياحة (بالانجليزية)،

4- تطوير القطاع الثقافي: عن طريق الصناعات الإبداعية. مساهمتها في التخفيف من حدة الفقر، تنطوي الثقافة على منافع هامة من حيث تحقيق التماسك الاجتماعي.

5- تعميق مفهوم قيم التنوع الثقافي: واتخاذ التدابير اللازمة من أجل تعزيز مبادئ قبول الآخر واحترامه واعتبار الحق في التنوع هو حق إنساني ومطلب حضاري يرتبط بوجود الإنسان واحترامه واجب أخلاقي ولا يحق لأي مخلوق أن يحتقر هذا التنوع أو ثقافة على حساب أخرى وان ينتهك حقوق الأقليات الثقافية في مجتمع ما بالقمع والتجاهل وعدم الاعتبار .

6- تشجيع التبادل الاقتصادي للصناعات التقليدية والسلع الثقافية: الحرص على التبادل الاقتصادي وعقد اتفاقيات تضمن تبادل السلع ومعالج الثقافة الحرفية (منتجات حرفية، فنون، طبخ،....) من أجل جسر الهوة بين الثقافات والتوافق بين المجتمعات الإنسانية أو ثقافات المجتمع الواحد يضمن قبول الآخر والتعايش معه.

7- تقليص الفجوة الرقمية بين اللغات المندثرة واللغات الرسمية في بلدان العالم:

العمل على إتاحة كل اللغات في الوسائل الرقمية والتكنولوجية وإعطاء الحريات لجميع الأقليات للتواصل بلغتها الأصلية مهما كانت عددها أو حجمها، ذلك أن أي إرغام

8- صون التراث الثقافي للجماعات الإنسانية: الحفاظ على العادات والتقاليد

والمعالم الثقافية للأفراد وصونها والعمل على التعريف بها والحفاظ عليها ونقلها للأجيال القادمة والسعي للتبادل الثقافي واحتكاك المجتمعات والأفراد من أجل تعميق الوعي بالقبول.

9- العدالة اللغوية من صور التوافق الجمعي : العمل على سن قوانين تضمن

الحقوق اللغوية لمتكلمي اللغة بدلا من الحقوق المجردة للغة في حد ذاتها وفي هذا المقام يجب أن نفرق بين حقوق هؤلاء المتكلمين في استخدام لغتهم وحقوقهم في إيقائها وتوريثها لأبنائهم عن طريق التعلم¹²

خاتمة: يشكل الوعي الثقافي مطلب وضرورة ملحة وحيوية من أجل ضمان

التوافق الجمعي والسكينة المجتمعية وهذا لا يتحقق إلا بتضافر الجهود وتصويع سياسات لضمان الحريات الفردية بين ثقافات المجتمع الواحد أو بين الثقافات العالمية والحرص على الحفاظ على مختلف الحضارات والثقافات باعتبارها رصيد إنساني مشترك للإنسانية جمعاء وأي اندثار لحضارة أو ثقافة هو تشتيت لهوية إنسان وتشويه لكل صور الديمقراطية وحقوق الإنسان المعروفة.

حان الأوان للاهتمام بالثقافة كأداة فاعلة لتحقيق الاستقرار الأمني والحضاري

والتطلع لتحقيق التوافق الجمعي وإدماجها ضمن مخططات التنمية المستدامة مثلها مثل المخططات الاقتصادية وقد أكدت التجارب العالمية في هذا المضمار أن الدول التي عملت على إيجاد حلول وجسر الهوة بين الجماعات الثقافية ونجحت في قبول التنوع الثقافي واللغوي ولم شمل مجتمعاتها على الرغم من الاختلافات الثقافية في

الاتحاق بركب التطور وإيراز مكانتها في خارطة الدول الكبرى في العالم بعيدا عن جو الاضطهاد والقمع والتعصب في جو يسوده السكينة المجتمعية وقبول الاختلاف واحترام الآخر وضمان أمنها الثقافي والحضاري.

- قائمة المصادر والمراجع :

- إبراهيم عثمان مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق، عمان 1999،
- برنار صبولسكي علم الاجتماع اللغوي تر: عبد القادر ستقادي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2 بن عكنون الجزائر
- هارلمبس وهوليون: سوشيلوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد، محسن دار كوان للطباعة والنشر، ط1 سورية 2010
- سفير ناجي، محاولات في التحليل الاجتماعي، ج1، ترجمة بن ناصر الجزائر، ط،
- كلثوم درقاوي أي دور لتعدد اللغوي في تحقيق الأمن الثقافي مقال ضمن أعمال اليوم الدراسي الأمن الثقافي والانسجام الجمعي منشورات المجلس الأعلى 2018
- محمود محمود النيجري الأمن الثقافي العربي، التحديات وآفاق المستقبل ، ط، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض 1991، 1412 ، الرياض
- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2004

- ¹ - he Sustainable Development Agenda", www.un.org, 2016-01-01 Retrieved 2019-04-12. Edited.

- <https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/background.shtml>
20:35 الساعة 2019/05/28

- اتفاقية المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، دورته الثلاثين باريس من نوفمبر إلى تشرين الثاني 2001 للاطلاع أكثر ينظر الموقع التالي:

اليوم العالمي للتنوع الثقافي من أجل الحوار والتنمية

<https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/>

- الموقع الأتي يوم 2019/05/28 الساعة 20:50د:

<https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/>

الهوامش:

- ¹ - هارلميس وهوليون: سوشولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد، محسن دار كوان للطباعة والنشر، ط1 سورية 2010 ص: 8.
- ² - إبراهيم عثمان مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق، عمان 1999، ص: 156.
- ³ - عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2004 ص: 58.
- ⁴ - عيسى الشماس مدخل إلى علم الإنسان (مرجع سابق) ص: 59.
- ⁵ - سفير ناجي، محاولات في التحليل الاجتماعي، ج1، ترجمة بن ناصر الجزائر، ط، ص: 48.
- ⁶ - "The Sustainable Development Agenda", www.un.org, 2016-01-01 Retrieved 2019-04-12. Edited.
- ⁷ ينظر: <https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/background.shtml> 20:35 الساعة 2019/05/28
- ⁸ - اتفاقية المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، دورته الثلاثين باريس من نوفمبر إلى تشرين الثاني 2001 للاطلاع أكثر ينظر الموقع التالي: <https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/>
- ⁹ ينظر الموقع الآتي يوم 2019/05/28 الساعة 20:50: <https://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/>
- ¹⁰ كلثوم درقاوي أي دور لتعدد اللغوي في تحقيق الأمن الثقافي مقال ضمن أعمال اليوم الدراسي الأمن الثقافي والانسجام الجمعي منشورات المجلس الأعلى 2018 ص: 277.
- ¹¹ محمود محمود النيجري الأمن الثقافي العربي، التحديات وآفاق المستقبل، ط، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض 1412، 1991، الرياض ص: 15-16.
- ¹² - برنار صبولسكي علم الاجتماع اللغوي تر: عبد القادر ستقادي، ديوان المطبوعات الجامعية ط2، بن عكنون الجزائر ص: 148.

التنوع اللّهجي في الجزائر والاحتلال الفرنسي (روني باسيه ووليام مارسيه أنموذجا)

Diversité variée en Algérie et l'occupation française

(Modèle René Basset and William Marçais)

Varied diversity in Algeria and the French occupation

(René Basset and William Marçais model)

د. حاج بنيرد

جامعة مولود معمري، تيزي وزو.

Résumé: Les discussions sur les débuts d'un atlas linguistique arabe ou nord-africain nous amènent à la période d'occupation étrangère, et plus particulièrement aux efforts des orientalistes orientaux. Nous avons constaté que ce travail avait été réalisé par des orientalistes dans divers pays arabes pendant et après l'occupation, indépendamment du caractère scientifique et académique de cette grande recherche. Si nous nous comparons aux recherches menées dans les pays occidentaux, nous ne doutons pas que leurs débuts dans nos pays étaient destinés à des fins et à des stratégies coloniales, et à des investissements politiques et idéologiques à long terme, avec la spécificité de chaque pays. L'occupation française, ainsi que les autres sociétés et comités scientifiques, ont été longtemps actives, par étapes successives, pour explorer le tissu social et consacrer ainsi les efforts de l'occupation et ses objectifs à son expansion et à sa consolidation. Les atlas linguistiques avaient pour objectif de définir l'objectif des atlas linguistiques: les équipes de recherche se sont dispersées entre les différentes instances pour

recueillir le patrimoine populaire de chaque région, pour ensuite l'étudier et l'analyser à l'aide d'approches ethnographiques, en examinant le folklore et la littérature populaire, la poésie, les histoires et les paraboles. A Different humaine, en termes de race, le comportement, la culture et les coutumes, la diversité ethnique et les différents groupes humains dans la société algérienne, ce sont les plus importants intérêts de recherche des orientalistes, par ethnologique Maqarih verser dans le service colonial.

مقدمة: إنَّ الحديث عن بدايات أطلس لغويّ عربيّ أو جزائريّ شمال إفريقيّ يقودنا إلى فترة الاحتلال الأجنبيّ، وتحديدًا إلى جهود المستشرقين الأجانب، فقد لاحظنا أنَّ هذا العمل قام به المستشرقون في مختلف البلدان العربيّة في فترة الاحتلال وبعده وبغضّ النَّظر عن الطّابع العلميّ والأكاديميّ لهذه البحوث الكثيرة، إذا ما قورنت بنفسها من البحوث في الدّول الغربيّة، لا نشكّ أنَّ بداياتها في بلداننا كانت لأغراض واستراتيجيات استعماريّة، وللاستثمار السّياسيّ والإيديولوجي الطّويل الأمد، مع خصوصيّة كلّ بلد، أمّا الحديث عن شمال إفريقيا والجزائر بالأخصّ، يعود البحث في هذه المجتمعات أيضًا إلى الاحتلال الفرنسيّ، وما واكبه من جمعيّات ولجان علميّة نشطت لمدّة طويلة عبر مراحل متعاقبة، لاستكشاف النّسيج الاجتماعيّ فيها، وبالتالي تكريس جهود الاحتلال وخدمة أغراضه، للتّوسّع وترسيخ أقدامه فيه، فنشأت البحوث اللّغويّة في الفصحى والعاميات وتحديد نطاق استعمالها، وهذا هو عين الغرض من الأطالس اللّسانيّة-، ففرقت فرق البحث بين مختلف الجهات لجمع الموروث الشّعبي لكلّ منطقة، ثمّ دراسته وتحليله، عبر مقاربات إثنوغرافيّة، تبحث في الفولكلور والأدب الشّعبي شعرا وقصّة وأمثالا فصار عامل اللّهجات أساسيا في عيون المستشرقين لتمييز المجموعات البشريّة المختلفة، من حيث العرق والسلوك والثّقافة والعادات، فالتنوّع العرقي واختلاف المجموعات البشريّة في المجتمع الجزائريّ، كان من أهمّ اهتمامات

بحوث المستشرقين، عبر مقارنة إثنولوجية تصبّ في خدمة الاستعمار، وهذه البحوث مرّت بمراحل هي مراحل الاستشراق نفسه، فمن بحوث أنجزها ضباط عسكريون مثل هانوتو وبورفيقي، لم يكن يهمهم سوى التّواصل مع المجتمع الجديد، وكانوا غير متخصصين، فكانت بحوثهم تفتقر إلى المنهج العلمي، وصولاً إلى بحوث أكاديمية أنجزت في مراكز البحث والجامعات، أنجزها باحثون أكاديميون مثل وليام مارسلي وروني باسي وأنري باسي وآخرون؛ اتّسمت بالجدة والمصادقية إلى حدّ كبير تستدعي انتباهنا لدراساتها وتقييمها والاستفادة منها، ويهدف هذا البحث إلى التّعرّف على هذه المحاولات مع التّركيز على نموذجين، وهما وليام مارسلي وروني باسي وذكر ثبت لبعض أعمالهم في هذه الصّدّد، ممّا جعلنا نذكر مراحل الاستشراق وذكر الاهتمام بالأدب الشعبي والعاميات أو اللهجات سواء العربية أو البربرية، مع ذكر نماذج ممّن اشتهروا بهذه الدراسات، ومحاولة تحليل لبعضها.

1- في مفهومية الأطلس اللغوي:

- **تعريف اللهجة:** مجموعة من الخصائص اللّغوية يتحدّث بها عدد من الأفراد في بيئة جغرافية معيّنة، وتكون تلك الخصائص في مختلف المستويات: الصّوتية والصّرفية والنحوية والدلالية، وتميّزها عن باقي اللهجات الأخرى في اللّغة الواحدة ولكن يجب أن تبقى تلك الخصائص من القلّة بحيث لا تجعل اللهجة غريبة عن أخواتها عسيرة الفهم على أبناء اللّغة، لأنّه عندما تكثّر هذه الصّفات الخاصّة على مرّ الزّمن لا تلبث هذه اللهجة أن تستقلّ وتصبح لغة قائمة بذاتها، كما حدث للّغة اللّاتينية التي اندثرت وتفرّع عنها لغات لها كيائها وخصائصها، منها الإيطالية والفرنسية والإسبانية، وكما حدث للّغة السّامية الأمّ التي استقلّت عنها لغات كالعربية والعبرية والآرامية وغيرها¹. وبيئة اللهجة جزء من بيئة أوسع وأشمل تضمّ عدّة لهجات، ويربط بينها جميعاً مجموعة من الظواهر اللّغوية التي تيسّر اتّصال الأفراد ببعضهم البعض، وتلك البيئة الشّاملة التي تتألّف من عدّة لهجات هي التي أُصطلح على تسميتها اللّغة². وهي

موضوع علم اللسانيات الجغرافية أو اللغويات الجغرافية Géographie linguistique وهي بدورها فرع من فروع اللسانيات التطبيقية، وهي دراسة الفروق المحلية أو الإقليمية الخاصة بلغة ما وتحدد اختلاف اللغات واللهجات وفروقاتها في خرائط جغرافية³.

- والأطلس اللغوي طريقة حديثة لتسجيل الظواهر اللغوية على خرائط جغرافية وذلك عند الحاجة إلى تحديد مناطق تلك الظواهر، فتأتي الخريطة وسيلة إيضاح لظاهرة لغوية لها علاقة بمكان معين، وهي من أقوى مظاهر اتصال علمي اللغة والجغرافيا⁴.

- قد حاولت بعض الدراسات وضع أطلس لساني صوتي لكل المناطق الناطقة بالعربية⁵، في الجزيرة العربية وخارجها، وتأثر العربية صوتيًا باللهجات واللغات المختلفة في بلاد فارس وشمال إفريقيا، كإبدال بعض الأصوات؛ إبدال الحاء هاء عند الفرس والبربر والأنباط، وإبدال القاف كافا عند الفرس والبربر وأهل سمرقند ووضع خريطة لبلاد البربر أو شمال إفريقيا على هذا الأساس⁶.

- وممن اجتهد من الغربيين في رسم أطلس لغوي للهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية تشيم رابين Chaim Rabin، حيث رسم عشرين خريطة عربية كخريطة للحميرية في عصر الهمداني، وخريطة للمناطق التي تنصب وتجبر المثلى بالألف، ونحوها⁷.

استهدفت بعض البحوث منطقة محدّدة وفقا للمنهج الفرنسي، واعتمدت مجالا محدّدا أو حقلا دلاليًا معينًا جمعًا ودراسة وتحليلاً، كالأعشاب الطبية في منطقة تلمسان، بتتبع أسمائها وطريقة نطقها، وتعيين الراوي أن يكون مسناً من أهل البلد لينتقي عدم العلم أو الاختلاط بلهجات أخرى مجاورة، وقد شملت الدراسة ثلاثاً وخمسين نبذة، مع التركيز على الناحية الصوتية والمعجمية، ومختلف تأدياتها لست مناطق في تلمسان، والملاحظ أن أغلب مناطق الغرب تشترك في تسمية هذه النباتات، إلّا أن البحث يفتقر إلى

التوصيف الصوتي الدقيق في تأدية هذه الكلمات ونطقها بحسب المناطق المختلفة، إلّا أنّ قارن بينها مع تبين نوع الاختلافات الصوتية وخاصة الصرّفة منها؛ من إبدال وقلب وتصغير وإشباع وتفخيم وترقيق ومقاربتها بالعربية الفصحى⁸، والملاحظ أنّ من بينها بعض الكلمات من أصول بربرية وهي قليلة، مثل: تيقنطست، تالغودة، امليس.

2- مراحل الاستشراق: مرّ الاستشراق الفرنسي في الجزائر بثلاث مراحل⁹:

- المرحلة الأولى (1830م-1879م): تزعمها عسكريون فرنسيون وتميّزت بالترجمة، وقد سعوا إلى إحلال الفرنسية مكان العربية في السلطة والإدارة، واشتغلوا في لجان علمية، ومجلات وجمعيات، وأنشأوا كراسي اللغة العربية، انتهت بإنشاء مدرسة الآداب، والمدارس الشرعية الثلاث سنة 1879م، وهي العاصمة (ترأسها جوني فرعون، رينيه، كومباريل، ريشي، هوداس على التوالي) وقسنطينة (ترأسها فيينار، شاربونو، ريشي، مارتن، مولاتيلانسكي، كور على التوالي)، ووهران (ترأسها هادمان، كومباريل، هوداس، ديلفان، موليراس، بيل) وهناك مدرسة الجزائر أو كولاج الجزائر، وله درسان بالعربية الفصحى وبالعربية الدّرجة، يُنقى منهم تلاميذ يدرسون الإنسانيّات، كلّهم فرنسيّون باستثناء بعض الأوروبيّين من جنسيّات أخرى، وهناك الكولاج الإمبريالي تولاه بيرون سنة 1857م، وأهمّها مدرسة الآداب في الجزائر نشأت على يد قاري سنة 1881م، ثمّ تحولت إلى جامعة الجزائر سنة 1909م، وتُعنى باللغة العربية العصرية وعلم الآثار الإسلامية والتاريخ وألحق بها معهد اللّغات الشرقيّة. وخلال هذه المرحلة بدأ اهتمام المستشرقين الفرنسيّين في مدرسة اللّغات الشرقيّة، وكولاج دو فرانس بالعربية الجزائرية، مثل أعمال الأب بارجيس وبيهان¹⁰. فقد نشر بارجيس عدّة أعمال عن تلمسان، وأصدر بيهان قاموس (عناصر اللغة العربية) سنة 1851م وقد وجّهه للسياح الأجانب. كما شكّلوا جمعيات منها الجمعية الآسيوية في باريس سنة 1822م، تزعمها دو ساسي، شارك فيها بعض المستشرقين الذين استقروا في الجزائر مثل بنجامين، فانيان، شاربونو، والجمعية الشرقيّة في

باريس سنة 1841م، من بين أهدافها التنسيق بين أعضاء المعهد الفرنسي والقناصل والرحالة وأصدروا مجلة الشرق التي اهتمت بالجزائر، والجمعية الجغرافية انصب اهتمامها على استكشاف المغرب العربي تمهيدا لاستعمارها، وجمعية قسنطينة التاريخية تأسست سنة 1852م، من أهم مؤسسيها شاربونو، ورمت إلى استكشاف بقايا الحضارات القديمة القرطاجية والنوميديّة والرّومانيّة والعربيّة على أرض هذا الإقليم من آثار ونقوش، وقد أصدرت هذه الجمعية مجلة (مجموع وموايز وأبحاث الجمعية الأثريّة لعمالة قسنطينة) سنة 1852م، والجمعية التاريخيّة الجزائريّة أنشئت في العاصمة سنة 1856م، وأصدرت المجلة الإفريقيّة، واعتبرها غوستاف مرسي مكتبة تاريخيّة في حدّ ذاتها¹¹، وجمعية البحث العلمي بعبّانة سنة 1836م، وسميت فيما بعد (أكاديمية هيبون)، واتّسمت بطابع أثري ديني. وتكوّنت لجان علميّة في مختلف المجالات، منها لجنة الاكتشاف العلمي للجزائر، تأسست سنة 1837م، وقد شملت كافّة التّخصّصات؛ الآثار، الجغرافيا، الرّسم، علم الحيوان، النباتات، الإثنوغرافيا الفيزيولوجيا، المعادن، التاريخ، الهندسة الجيولوجيا، وقد باشرت عملها سنة 1840م، وقدمت أولى نتائجها سنة 1842م. ولجنة الاحتفال بمئويّة الاحتلال، وتولّى عملها أساتذة جامعة الجزائر ترأسها شارل بيار، قامت بأعمال واسعة وورشات كثيرة منها إنشاء الإذاعة الجزائريّة، وإنشاء مدارس وورشات خاصة بالفنون الجميلة والنقليديّة، ونشر عدّة بحوث وكتب؛ منها: اللباس الجزائري لجورج مارس، وتطوّر الاستعمار خلال قرن لإميل فيليكس غوتيي، وتطوّر الجزائر لإسبيس، والشرق والرّسم الفرنسي خلال القرن التاسع عشر لإليزار، وكانت هذه المرحلة مرحلة استكشاف للمجتمع الجزائري، من خلال لهجاته وعاداته وتقاليده وتاريخه، وغالب المستشرقين كانوا عسكريين ومترجمين، اشتهر من المترجمين في العربية منها وإليها جوني فرعون (ت1846م) وشارل زكار وغبريال زكار (ت1837م) وليون إياس (ت1846م) ومجموعة، ومن البربريّة أحمد خاطري.

- المرحلة الثانية (1879م-1930م): تميّزت بتوسيع نشاط المستشرقين الفرنسيين، سواء بإعادة تنظيم المدارس، أو بإنشاء مدارس جديدة لتعلّم اللغة العربيّة أو بعقد مؤتمرات الاستشراق. فقد تمّ إنشاء مدرسة الآداب سنة 1880م ترأسها هوداس بمساعدة بلقاسم بن سديرة (1842م-1901م)، وتولّى روني باسي تدريس الأدب العربي فيها، ليتولّى رئاستها فيما بعد ويخلفه فانيان. ثمّ حوّلت سنة 1909م إلى جامعة، وأصبح باسي عميدا لها، ثمّ أنشأ بمساعدة بن سديرة وبوليفة كرسي اللغة البربريّة وتولّى تدريسها، واهتمّت بلهجات بني مزاب والقبائل والأوراس، ودرست تاريخ الزوايا والأولياء والصالحين. واهتموا بالعاميات العربيّة في بداية القرن العشرين، وتعرّزت هذه الدّراسات على يد وليام مارسي (1872م-1956م)، الذي تحوّل من دراسة القانون إلى دراسة العربيّة العامية بالجزائر والمغرب وتونس، كما حاضر بكولاج دو فرانس في العربيّة الفصحى. ونظّموا مؤتمر الاستشراق الرابع عشر بالجزائر سنة 1905م، واحتضنته كلية الآداب برئاسة روني باسيه. وأنشأوا كرسي اللغة البربريّة في مدرسة اللّغات الشّرقيّة سنة 1913م، باعتبارها جوءا من عاميات المغرب الكبير.

- المرحلة الثالثة (1930م-1962م): وشهد فيه الاستشراق توسّعا كبيرا وذلك بإنشاء معاهد متخصصة، وتحويل المدارس الشّرعيّة الثلاث إلى ثانويات مزدوجة ومنها إنشاء معهد البحوث الصّحراويّة في مختلف التّخصّصات، وترأسه مير، وشارك فيه أطباء ومستشرقون وضباط وعلماء جيولوجيا كلّ في تخصّصه ومعهد الدّراسات الشّرقيّة، ترأسه جورج مارسي، واهتمّ بالتّاريخ الإسلامي خصوصا، وأصدر حوليات في عدّة مجلّات، واللّهجات المنطوقة والمكتوبة في الأندلس¹².

3- الاهتمام بالعاميات: تولّى تدريس العامية مجموعة من المستشرقين الذين رافقوا الحملة الاستعماريّة الأولى، مثل جوني فرعون وهو مصري سوري سنة 1832م، ثمّ واصله لويس بارنبيه (1814م-1869م) منذ 1836م، وقد شارك فيه

مجموعة من المستشرقين الذين أصدروا مجموعة من الكتب التّعليميّة بالعربيّة الدّارجة والفرنسيّة، ولقد انطلقت الدّراسات الاستشراقية للهجات المحليّة في وقت مبكر، حدّدها روني باسيه بسنة 1890م، ونتيجة لذلك أخذ كلّ مستشرق يدرس لهجة أو أكثر في المدن والأرياف، فقد كانوا يحتكّون بالأهالي، أو عن طريق تلامذتهم من هذه المناطق¹³.

اهتمّ المستشرقون الفرنسيّون بالعربيّة الفصحى للحاجة إليها في قراءة المخطوطات ونشرها والتّعامل بها في الإدارة والمراسلات والتّقارير ونحوها، وبعد دخولهم إلى الجزائر لاحظوا وجود لهجات كثيرة ومتنوّعة، فركّزوا عليها لحصرها ودراستها ومعرفة الأصول اللّغويّة والعرقية للسّكان ومدى تأثير وتأثر كلّ منها بالأخرى، أو بلغات أخرى أيضاً¹⁴، بالإضافة إلى التّواصل مع هذا المجتمع، وهذا يحيلنا إلى السياسة اللّغويّة الاستعماريّة من خلال ثنائية الاهتمام والتّدمير؛ فاهتمّوا باللّغة الفصحى واللّهجات دراسة وتعليماً، ومحاولة تدميرها في الاستعمال العام بإحلال الفرنسيّة وتعليمها للمجتمع الجزائريّ لترسيخ وجودهم فيه، فألفوا في هذا الصّدّد عدّة قواميس ثنائية اللّغة (فرنسي-عربي)، منهم المستشرق أبراهام دانيوس Abraham Daninos وجان جوزيف مارسيل J.J. Marcel، سنة 1937م بباريس بعنوان: (مفردات عربيّة وفرنسيّة)، وألف جوني فرعون أوّل كتاب في نحو العاميّة الجزائريّة سنة 1932م وعنوانه: (النّحو الابتدائيّ للعربيّة الدّارجة الموجهة للفرنسيّين) (Grammaire élémentaires d'arabe vulgaire l'usage des français)، ثمّ قام بعد بتبسيطه وتلخيصه لتعميم الفائدة، وسماه: (موجز النّحو العربيّ البسيط)، ووضع برينيه دراسه حول لهجة وسط الجزائر أو إيالة الجزائر سنة 1931، وسماه: (موجز العربيّة الدّارجة في مدينة الجزائر وفي الإيالة الجزائريّة)، وكتاب آخر (الدّروس العمليّة والنّظريّة للغة العربيّة)¹⁵، ووضع كوسين دو بارسوفال Coussin de Perceval وكتاب (نحو العربيّة الدّارجة) (Grammaire de l'arabe vulgaire)؛ جمع فيه بين

عدّة لهجات¹⁶، وله عدّة طبّعات، وعدّة أعمال أخرى، غير أنّ الحديث عن تنظيم التّعليم والدراسات العربيّة بدأ سنة 1938م، وقام المستشرق كور A. Cour بعرض مفصّل لهذه المحاولات على شكل ملاحظات؛ بعنوان (ملاحظات على كراسي اللّغة العربيّة في الجزائر قسنطينية، وهران) (Notes sur les chaises de la langue arabe)، ونُشر بالمجلّة الإفريقيّة سنة 1924م، ومنهم لوي جان بريزني L.J. Bresnier (1814م-1869م) من كبار تلامذة دو ساسي، نشر كتاب الآجروميّة ونشر مقال (التّعليم العربي في الجزائر) (l'enseignement de la langue arabe d'Alger) سنة 1918م، جعل المحور الأوّل في دروس للتّمرين على النّطق باللّغة العامية وكتاب (رسم اللّغة العربيّة المنطوقة في الجزائر في عهد الوصاية عليها) (Expusée de la langue arabe parlée à Alger et dans la régence d'Alger)، وسجّل فيه الخصائص التي تميّز العامية الجزائرية عمّا سواها، وكانت كتبه مصدرا لتعليم العربيّة في الجزائر لمُدّة طويلة وقاعدة لانطلاق دراسات أخرى¹⁷، من أوائل المهتمّين بالعاميات جاك أوغست شاربونو J. Aug. Cherbonneau (1813م-1882م) من تلاميذ دو ساسي، انتدبته الحكومة الفرنسيّة لتنظيم مدارسها في الجزائر وفي سنة 1861م كان مدرّسا في المدرسة العربيّة الفرنسيّة بقسنطينة، وبعد سنتين صار مديرا لكوّلاج دو فرانس في الجزائر، وفي سنة 1871م أصبح مديرا لجريدة (المبشّر)، ولما مات البارون دي سلان خلفه شاربونو في تدريس العامية المغربيّة في مدرسة اللّغات الشرقيّة بباريس¹⁸، وله بحوث في هذا الصّدّد منها: أصل تكوين العربيّة الإفريقيّة سنة 1885م، والعامية في الجزائر سنة 1861م¹⁹، واهتمّ بتحقيق ونشر تراث إفريقيا جنوب الصّحراء، ولا سيّما تنبكتو، وله (قاموس فرنسي عربي وعربي فرنسي) و(عناصر الجملة وترجمتها إلى الدّارجة)، وهي عبارة عن مجموعة من القواعد والتّمارين لتسهيل قراءة المخطوطات العربيّة وفهمها، واتّسمت أعماله بالعلميّة والاحترافيّة اللّغويّة والمعجميّة مقارنة بالأعمال التي أنجزت في تلك الفترة

منها: (التعريف المعجمي لعدة كلمات) (Définition lexicographique de plusieurs mots)، و(رسالة إلى ديفرمري عن النموذج الثامن المستعمل في العربية المنطوقة) (Lettre à Defremery sur le paradigme d'une 8eme forme usite dans d'arabe parlée)، و(منهجية التعامل مع الاقتران العربي باللهجة الجزائرية) (Traité méthodique de la conjugaison arabe dans la dialecte algérien).

وظهرت دراسات وأبحاث حول البربرية، لدراسة النسيج الاجتماعي المتنوع واستثمارها في إحكام السيطرة على المجتمع، وتطبيق سياسة فرق تسد أي أن هذه الأبحاث وإن اتسمت بالعلمية إلا أنها كانت تخدم الجهاز الاستعماري وتصبّ فيه، ويعود اهتمامهم بذلك إلى منتصف القرن الثامن عشر، وظهرت عدة مؤلفات وأبحاث ومعاجم، منها قاموس الأب هوغ Huygh، وهو قاموس قبائلي فرنسي، وقاموس بربر بجاية الذي حث وزير الحرب الفرنسي على نشره، فصدر الجزء الأول منه سنة 1844م، اعتمادا على المصادر الشفوية، وأصدر هانوتو معجما عن لهجة جرجرة وذكر دوفريه نماذج عن لهجة الهقار، وقارنوا بين لسان التوارق ولسان القبائل ولاحظوا الاختلاف بينهما²⁰.

وممن اهتم بالتنوع اللغوي في شمال إفريقيا المستشرق روني باسي René Basset (1855م-1924م)، وله أعمال كثيرة ومتنوعة عربية وبربرية وحبشية وفي اللغة والدين والفولكلور والتاريخ، منها الشعر العربي قبل الإسلام سنة 1880م، دراسات في اللهجات البربرية، وفهرس مكتبات الزوايا سنة 1886م ونشر متن الخرجية في العروض، وله في المجلة الآسيوية دراسة عن نشاط فرنسا العلمي في الجزائر وفي شمال إفريقيا منذ 1830م. ومنهم أوكتاف هوداس Octave Houdas (1840-1914م)، اشتغل بالتعليم في الجزائر ووهران، وافتتح الدراسة في المدرسة العليا للآداب في الجزائر سنة 1880م، ثم أستاذ لتدريس العامية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، ترجم أربعا وستين سورة الأخيرة من القرآن ونشرت بالجزائر سنة

1864م، وله كتب تعليمية في العربية، وتحقيق منظومة ابن عاصم في فروع المالكية مع مارنل، وترجمة فرنسية وشرح لغوي وقانوني، ونشر في الجزائر سنة 1883م وباريس سنة 1893م، وله في المجلة الآسيوية كتاب فرنسي-عربي للشؤون الإدارية والقضائية سنة 1897م، وسلسلة الأشراف في المغرب ومزاحمتهم للأتراك على ولاية الجزائر²¹، ومنهم البارون ديسلان (Baron De Slane) (1801م-1878م)، ولد في إرلندا وقدم إلى فرنسا سنة 1830م ليصير من كبار تلامذة دو ساسي، وفي سنة 1845م قدم إلى الجزائر في مهمة لوزارة التربية، قدّم لها تقريرا فيه قائمة لمخطوطات مكتبة الجزائر وقسنطينة، وفي سنة 1846م عين كبيرا للمترجمين في الجيش الفرنسي واستدعي لتدريس التركية في مدرسة الألسن الشرقية، وفي سنة 1863م بدأ في تدريس اللهجة الجزائرية فيها، وفي سنة 1871م عين بصفة نهائية أستاذ اللغة العامية فيها، ترجم مقدمة ابن خلدون، وتاريخ البربر لمجهول، وتحقيق تقويم البلدان لأبي الفدا بالتعاون مع رينو في الجمعية الآسيوية، وله تراجم المشهورين في الإسلام سنة 1838م، وترجمه إلى الإنجليزية في أربعة أجزاء، وله تاريخ البربر والأسر الإسلامية التي ملكت شمال إفريقيا سنة 1847م، وله فهرس المخطوطات العربية السريانية في المكتبة الوطنية بباريس بالعربية والفرنسية في أربعة أجزاء (4665 مخطوط)²².

وجورج مارسى Georges Marçais (1876م-1962م) من الأكاديميين في الحضارة العربية الإسلامية، تخرج من مدرسة الفنون الجميلة ونال دكتوراه الأدب، وعين أستاذا للأثار في كلية الآداب بالجزائر سنة 1919م ومسيراً للمعهد الدراسات الشرقية في الجزائر سنة 1931م، وعضوا في مجمع الكتابات والآداب سنة 1940م، له الأبنية العربية القديمة في تلمسان سنة 1903م وتاريخ العرب في بلاد البربر من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر سنة 1913م في قسنطينة، والعمارة الإسلامية في المغرب وتونس والجزائر والأندلس وصقلية سنة 1954م في باريس، وتلمسان سلسلة المدن المشهورة سنة 1950م وغيرها²³، ومنهم دولفان G. Delphing (ت1919م)

تخرج من مدرسة اللغات الشرقية، وعين مديرا لمدرسة وهران، حيث درس اللغة العربية بلهجتها إلى أن توفي بالجزائر، نشر مجموعة من النصوص بالعامية، وعده وليام مارسلي من أفضل الكتب في العامية في شمال إفريقيا، ويُعتبر وثيقة هامة استفاد منه علماء اللغة والاجتماع، واهتم بالعامية التي يتخاطب بها الطلبة في الأرياف، وكتب فيها تقريراً عن مخالطته لهم، له قصة ما جرى لعربيين من طلاب العلم بالقرب من وهران سنة 1887م، وكتاب تيسير العربية للفرنسيين سنة 1891م، وعدة أبحاث عن الإسلام في الجزائر، منها كتاب صغرى السنوسي سنة 1897م، وتاريخ الباشوات العثمانيين في الجزائر متنا وترجمة وتعليقا في المجلة الآسيوية سنة 1922م²⁴، والأب بارجيس J. Barges (1810م-1896م) صحفي وأستاذ العربية في مارسيليا، واللاهوت والعربية في السربون، وله معرفة بالعلوم الدينية واللغوية والفنيقية، ترجم تاريخ بني زيان للتتسي سنة 1852م، ونشر ديوان ابن الفارض، ومعجم عربي في مارسيليا سنة 1884م، وبحث حول الكتابات الفينيقية في متحف نابليون الثالث سنة 1863م²⁵، ومنهم ديجا Dugat (1824م-1884م) تخرج من مدرسة اللغات الشرقية وعين أستاذا بها، وعني بالتاريخ ولا سيما جغرافيا بلاد المسلمين، وأوفدته الحكومة الفرنسية في مهمة علمية إلى الجزائر، له ترجمة تنبيه الغافل للأمير عبد القادر الجزائري سنة 1850م، وترجمة الشعر العامي سنة 1850م، وتاريخ مستشرقى أوروبا من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر في جزئين بباريس سنة 1868م وغيرها²⁶، ومنهم ليفي بروفنسال Levi Provençal (1894م-1956م) ولد في الجزائر تخرج من كلية الآداب انتدب للعمل في معهد الدراسات العليا المغربية سنة 1919م ثم التريس بها وأثناءها قدم رسالة دكتوراه عنوانها (مؤرخو الشرفاء)، وتتمتها نصوص الأوراة العربية وهي بحث في لهجة شمال المغرب وتوزع وقته بين التدريس في الرباط والجزائر والسوربون، حيث كان يُدرس تاريخ العرب وعلومهم وفي سنة 1939م صار مدير المطبعة العربية لدائرة المعارف الإسلامية، ونال جوائز

وأوسمة نظير جهوده في الاستشراق، وعُدَّ المرجع الأول في الغرب لتاريخ الأندلس له التقويم التاريخي لمطبوعات فاس بمعونة محمد بن شنب سنة 1922م في الجزائر، وله كتاب نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى منتخبة من كتاب (مفاخر البربر) لمجهول بالرباط سنة 1934م، وله مختارات من مؤرخي العرب في المغرب وهي نصوص محلية في 124 صفحة، وله عدة طبعات أولاها في باريس سنة 1924م، وأعاد نشر كتاب (إسبانيا المسلمة في القرن العاشر الميلادي) في 272 صفحة في القاهرة سنة 1938م، وبحوث في الأدب المغربي في هيسبريس سنة 1922م²⁷.

4- الاهتمام بالتراث الشعبي: لم يلق التراث الشعبي في الجزائر اهتماما خاصا إلا في العصر الحديث مع بداية الاحتلال الفرنسي للبلاد وتحديدا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر؛ لأنَّ الاحتلال كان بحاجة إلى استكشاف العدوَّ وبدأت هذه الدراسات عسكرية، شملت المناطق التي سيطر عليها الاحتلال تناولت الحياة الشعبية فقام ضباط عسكريون بتسجيل هذا التراث من أفواه أهله وتحليله ودراسته استجابة لغرض إحكام السيطرة على الأهالي، ومنها مثلا ما كتبه ضابط الشرطة دوبينوسك D'Aubignosc Louis Philibert (1774م-1847م) في مجلة باريس بحث حول مدينة الجزائر سنة 1831م؛ ركز فيه على الحياة اليومية للسكان وممارساتهم وعاداتهم ونحو ذلك، بغية معرفة نفسياتهم وبالتالي السيطرة عليهم ومنها كتاب (اثنان وثلاثون سنة عبر الإسلام 1832م-1864م) لليون روش Léon Roche، وامتدَّت هذه البحوث لتسجيل الفروقات الاجتماعية بين السكان من حيث اللهجات والعادات والتقاليد مع ملاحظة تسجيل مجموعتين كبيرتين وهما العرب والبربر، وهذا تمهيدا لترسيخ السيطرة على المجتمع، فكانت هناك دراسات عن لهجات بربر القبائل وبربر الشاوية وبربر بني سنوس وبربر الطوارق²⁸. وأخذ البحث طابعا أكاديميا على يد المستشرق الفرنسي روني باسي الذي نشر عدة أعمال؛ منها قصة بنت الخص مترجمة إلى

الفرنسية في المجلة الإفريقية، وألفريد بيل Alfred Bel الذي نشر فيها قصة الجازية وجوزيف ديسبرمييه J. Desparmet الذي تناول المغازي، وأولاد رشاش لفيشير من قصص الجازية ونياب بن غانم.

- الاهتمام بالشعر الفصيح والملحون: وفي هذا السياق اهتم المستشرقون بالشعر الجزائري فصيحه وملحونه، تحقيقا ونشرا وترجمة إلى الفرنسية، لأنه يساعد في فهم طبيعة المجتمع، ويوثق للبحوث الأنثروبولوجية الواسعة للمجتمع الجزائري، ومن قصائد الملحون التي اشتهرت في زمانها؛ قصيدة دخول الفرنسيين إلى الجزائر، نظمها عبد القادر الوهراني (ت1833م)، جسّد فيها حجم الدمار الذي شنته الجزائر أثناء دخوله إليها؛ حتى قال فيها عبد الملك مرتاض: " لا نجد لها نظيرا فيما اطلعنا عليه من شعر المقاومة شعبيا وفصيحاً معا"، نشرها ديسبرمو J. Desperment بعنوان (قصيدة دخول الفرنسيين إلى الجزائر) سنة 1930م ومطلعا:

بِالْحَمْدِ نَبِّدَا ذَا الْقِصَّةِ وَنَعِيدُهَا اسْتَغْفَرُوا وَتَوْبُوا يَا مَسْلَمِينَ
نُوصِّي عَلَى صَلَاةِ أَحْمَدَ لَا تَسَاوُهَا تَفُكْ مِنْ الْقَصَايِصِ وَنَصَبِ الْوَاثِنِ
ويقول فيها:

تَغْفَرُ نُّوبَ أُمِّي وَأَبِي وَأَشْيَاخِهَا وَالْغَايِبِينَ وَأَهْلِي وَالْحَاضِرِينَ
تَجْعَلُ مَقَامِي فِي الْجَنَّةِ وَجَنَاتِهَا بَجَاهِ سَيِّدِ الْأُمَّةِ جَدِّ الْحَسَنِينَ
رَأَيْتَنِي عَلَى الْجَزَائِرِ يَا نَاسَ حَزِينٍ²⁹

ونشر فانسنت B. Vencent قصيدة في سقوط الجزائر للشاعر محمد بن الشاهد، وهي من الفصيح على البحر الطويل، وترجمها إلى الفرنسية مع تعليقاته؛ أولها:

أَمِنْ صَوْلَةِ الْأَعْدَاءِ سُورُ الْجَزَائِرِ سَرَى فِيكَ رُغْبٌ أَمْ رَكْنَتْ إِلَى الْأَشْرِ
لَبِسْتَ سَوَادَ الْحُزْنِ بَعْدَ الْمَسْرَةِ وَعَمَّتْ بِوَادِيكَ الْفُتُونُ بِلَا حَصْرِ

وقد نشر الإسكندر جولي Alexandre Jolly ملاحظات على الشعر الحديث عند البدو الجزائريين، *Remarques sur la poésie moderne chez les nomades algériens*، في المجلة الإفريقية، وهي عبارة عن دراسة فنية للشعر الملحون في الجنوب، مناطق الحضنة والأغواط وتيارت وبسكرة وعين الصّفاء، وركّز على بعض الكلمات الخاصة بأهل الجنوب في أنواع الشعر؛ كالقطّاعة وهو شعر الحداء³⁰. ونشر قسطنطين لويس سونيك Constantine Louis Sonneck سنة 1902م كتاب (الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقيا والمغرب)، جمع فيه أشعار فطاحلة الشعر الملحون من أمثال ابن مسايب ولخضر بن خلوف وغيرهما، جمعها عن طريق المشافهة، ضمّ مائة وسبع عشرة قصيدة في مختلف الأغراض، ونشر فوربيقي قصيدة العقيقة للمنداسي مع ترجمتها. كما اهتموا بالشعر البربري منهم لوسيان، واستعان في ترجمته للشعر الزواوي بالشيخ محمد بن السعيد بن زكري³¹، ومحمد بن أبي شنب الذي ترجم قصيدة محمد بن إسماعيل عن حرب القرم من العربية الدارجة إلى الفرنسية، ونشرت في المجلة الإفريقية³².

- واهتموا أيضا بالأمثال الشعبية، فقد نشر روني باسي (الأمثال في مقاطعة وهران) في المجلة الآسيوية سنة 1890م، ونشر هنري باسي دراسة عن الأمثال في الأهقار في مجلة الإفريقية سنة 1922م، وهذا كله تتبعا لطبيعة المجتمع الجزائري وتسجيل الملاحظات حول مختلف مكوناته، ومن ذلك مانشره إدوند ديستانج Edmond Destaing دراسة عن الأعياد والعادات الموسمية في بني سنوس، وتسمية الأيام والفصول والسنة الفلاحية بها، ونشر بالمجلة الإفريقية سنة 1906م، ونشر قونيلون L. Gongnalon الأعياد الرئيسية لسكان ورقلة، توصيف لاحتفالات الزواج وعاشوراء وعيد الربيع الموافق لواحد وعشرين من شهر مارس من كل سنة وغيرها، ونشر البحث في المجلة الإفريقية سنة 1909م.

- سيلفستر دي ساسي: بوصفه مستشرقاً مختصاً في العربية محاضر جلسات 1938 في أكاديمية النقوش والآداب الجميلة.
- المعاجم العربية، محاضرة باللغة العربية أُلقيت في الرباط 1940م.
- كيف تعرّب شمالي أفريقية (محاضرة في 26 / 1 / 1939م).
- المرأة في ألف ليلة وليلة (محاضرة في باريس 1946م).
- مستشرق عظيم: دي سنان (1956م). واشترك مع Houdas في ترجمة «صحيح» البخاري³³.

- Edmont Douthe et Emile-félix Gautier ; Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie.

كما يشير إلى أنّ هذه التسمية (قبائل الصغرى petite kabylie) ليست لها أيّة علاقة مع وجود اللغة القبائلية في هذه المنطقة، ويضيف الأستاذان في صفحة 141 إلى الخطأ الفادح الذي ارتكبه Hanoteau عندما صرّح "أن كل سكان القبائل الصغرى يتكلمون القبائلية"، وهذا ناتج عن رغبته في تحريف المعلومات اللغوية العلمية وضبطها بالقوة حتى تصبح لغة سكان المنطقة مُنسجمة مع التسمية الإستعمارية "قبائل صغرى" ومتجانسة مع المصطلح الكولونيالي "قبائل صغرى" ويضيف الأستاذان صفحة 141 أن شرق بجاية، كل من منطقة "هضبة بوسلام" و"الوادي الكبير" و"فرجيوة" و"زواغة" و"قايدات" و"مويا" و"تاكتونت" و"قج مزالا" و"الميلية" كانوا يتكلمون اللغة العربية منذ قرون، واللغة القبائلية ليست موجودة و ليست مفهومة ابتداءً من شرق جبل بابور.

- روني باسيه René Basset : ولد في مدينة لوفيل سنة 1855م، تخرّج من كلية الآداب بنانسي، ثم من معهد الدّراسات الشّرقيّة بباريس، أُسند له كرسي العربيّة بالجزائر سنة 1885م، يجيد العربيّة والفارسيّة والتركيّة والأمازيغيّة، كان من طليعة محرّري المجلّة الإفريقيّة، ونشرة المراسلات الإفريقيّة، ونشرة الآثار الإفريقيّة، وأسهم في تأسيس مجلّات عديدة، وترأس مؤتمر المستشرقين في الجزائر سنة 1905م، له

بحوث عديدة في اللغة الأمازيغية منها: بحث في التنوع الأمازيغي لسيوة، ومعجم صغير عن غات، ودراسة مقارنة عن التنوع اللغوي لجبل نفوسة، وبحث في كلمات أمازيغية قديمة، لقمان الأمازيغ، مجموعة حكايات أمازيغية عامية، ومباحث عن ديانات الأمازيغ القديمة والألفاظ العربية في اللغة الأمازيغية، ومشاهد جبل نفوسة ومجموعة كبيرة من البحوث تتعلق بشمال إفريقيا وإفريقيا السوداء، ومنها:

- أخبار سيدي ابراهيم الماسي في القرن التاسع عشر سيدي ابراهيم الماسي

تحقيق روني باسي

- دراسة لهجات اولاد براهيم بسعيدة، باريس 1908م.

- اللهجة المستعملة في تلمسان، لورو 1902م.

- نصوص عربية من طنجة، باريس 1911م.

- مقالات ومحاضرات، 248ص، باريس 1961م.

- ندرومة وترارة روني باسيه طبعة لورو 1901م.

- Notes de lexicographie berbère, par M. René Basset

- La Langue berbère. Morphologie. Le Verbe. Etude de thèmes , par André Basset

- Manuel de langue kabyle (dialecte zouaoua), grammaire, bibliographie, chrestomathie et lexique, par René Basset,...

- Recueil de textes et de documents relatifs à la philologie berbère, par René Basset,...

- La Langue berbère. Morphologie. Le Verbe. Etude de thèmes, par André Basset

- Cours de berbère Basset, André

- Textes berbères de l'Aurès (parler des Aït Frah) Basset, André

- Le Costume musulman d'Alger, par Georges Marçais

- les arabes en berbérie du XIe au XIVe siècle par Georges Marçais

- L'Art en Algérie, par G. Marçais

- Articles et conférences , Avant-propos de Georges Marçais
- La Vie feminine au Mزاب. Etude de sociologie musulmane. Préface de William Marçais, professeur au Collège de France, membre de l'Institut. Avec 19 planches Goichon, Amélie-Marie
- Les Poteries et faïences de Bougie (collection Debruge), contribution à l'étude de la céramique musulmane Marçais, Georges
- Les Poteries et faïences de la Qal a des Benî Hammâd (XIe siècle), contribution à l'étude de la céramique musulmane Marçais, Georges.

-اللهجة القبائلية (لهجة زواوة)، Manuel de langue Kabyle (dialecte

(Zouaoua)، نشر بدار ميزونوف ولوكلارك، 1887م: انطلق فيه من عمل هانوتو M. Hanoteau، واستكملة وأضاف إليه الكلمات الفرنسية الطارئة على لهجة زواوة والتي لم تكن موجودة زمن هانوتو، بدأه بالحروف الأمازيغية وقارن بين مختلف لهجاتها، ثم فصل في الأسماء، وفصل في الأفعال، والصفات، وأسماء الأعداد، ووضع فيه نصوصا وقصص في لهجات زواوة وقصص في لهجات أخرى وهي بني مناصر (شرشال)، ومزاب، والشاوية، والريغية، وورقلة، وجربة ونفوسة، وقصور جنوب وهران، والشلحية، والريفيّة، ومعجم مرتّب هجائيا، وما يلاحظ في عمله أنّه سجل بعض الفروق النطقية لبعض الحروف في مختلف لهجات الأمازيغية، وقارن بينها حرف التاء ينطق تاء Ta مثلا ينطق في غرب زواوة: اتسّ³⁴Tsa وبعضها ينطقها ثاء، وكلمة ثابورث عند زواوة تنطق ثاوورث في بجاية وبني مزاب وبني مناصر وبطيو، وثاجورث في إيلولا.

- تسمية مشاهد جبل نفوسة (دراسة في وثيقة مجهولة المؤلف) Les

sanctuaires du Djebel Nefousa، روني باسي، وثيقة تحدّد أسماء الأماكن والمواقع المقدّسة عند النفوسيين، مساجد ومزارات ومعالم مقدّسة للزيارة في جبل نفوسة، والكتاب في الأصل ملحق لكتاب السير للشماخي حققه روني باسي، ومن بينها أيضا بعض المعالم التي يعتقد أنّها كانت كنائس، ساهم أهلها في الوقوف في وجه الفاتحين المسلمين³⁵.

- وليام مارسّي WILLIAM MARÇAIS (1874م-1965م): مستشرق فرنسي اهتم خصوصاً باللغة البربرية واللهجة العربية المغربية. عين في 1898 مديراً (ناظراً) لمدرسة تلمسان. فمكّنه هذا المنصب من الاتّصال بالمعلمين العرب فيها وتعلّم اللغة العربية واللغة البربرية. ثم عين ناظراً (مديراً) للمدرسة العليا في الجزائر. ثم انتقل إلى باريس حيث عين أولاً في مدرسة الدراسات العليا الملحقة بالسوربون، ثم في الكوليج دي فرانس 1927. وصار عضواً في أكاديمية النقوش والآداب الجميلة.
- وقد قام في مطلع شبابه بترجمة (ديوان أوس بن حجر التميمي) إلى الفرنسية استناداً إلى النص العربي، الذي كان جابر R. Geyer قد نشره ضمن «محاضر جلسات الأكاديمية الإمبراطورية للعلوم في فيينا» (المجلد رقم 126) مع ترجمة ألمانية وشرح. وقد نشرت ترجمة مرسيه بعد وفاته في مجلة Arabica عدد يونيو 1977، الكراسة، ص 110-137). ولا تشمل هذه الترجمة إلا شطراً من قصائد الديوان.
- وله دراسات ومحاضرات جمعت بعد وفاته في مجلد بعنوان: (Articles et Conférences) في 247ص مع مقدمة لأخيه جورج، ومنه عن حياته ومؤلفاته كتبها A. Merlin. ونبتتان عن حياته بقلم كانار Canard وهـ. تراس Terrasse نشرت من قبل في (منشورات معهد الدراسات العليا المراكشية في الرباط).
- وصدر هذا المجلد في 1961، وهذا أهم ما فيه:
- العبادة في الإسلام، محاضرة في ستراسبورج سنة 1923م.
 - أصول النثر الأدبي العربي، في RA جـ 68، سنة 1927 ص 15-28.
 - الإسلام والحياة المدنية، سنة 1928م.
 - اللغة العربية، مجلة التعليم العام ديسمبر 1930م.
 - قرن من الأبحاث في ماضي الجزائر الإسلامية في الاحتفال المئوي بالجزائر سنة 1931م.
 - خطب نشرت في RA 1936م.

- المصادر والمراجع:

- موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بديوي، 1992م.
(<http://archive.is/cO5W>).
- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي بيروت ط1، 1996م.
- الاستشراق الفرنسي في الجزائر وجهوده في دراسة ونشر التراث الجزائري رزيقة يحيوي، إشراف محمد حجازي، بحث ماجستير في تخصص تحقيق النصوص ونشرها، كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة، سنة 1435هـ/1436هـ-2014م/2015م.
- الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر، إعداد: شايب الدور امحمد إشراف: محمد بن سعيد، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران 2009م/2010م.
- الأطلس اللغوي والبحث اللساني عند العرب مقارنة منهجية، خالد نعيم الشنلوي مجلة ذي قار، مج1، العدد3، أيار 2011م، ص 7 وما بعدها.
- الأطلس اللغوي، خليل محمود عساكر، مجلة مجمع اللغة العربية، مج7، سنة 1949م.
- التفكير اللغوي عند الجغرافيين والرحالة العرب، مازن عوض الوعر، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، السنة السادسة والعشرون، ع 104 نو الحجة 1427هـ/ديسمبر 2006م.
- الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، إسماعيل العربي المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
- الفاضل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق: عبد العزيز الميمني، القاهرة، 1950م، ص 113.
- اللسانيات الجغرافية وأثرها في توجيه دلالة الكلمات القرآنية، الجودي مرداسي مجلة الآثار، ع 22، جوان 2015م.

- اللهجات العربية وعلاقتها باللغة العربية الفصحى: دراسة لغوية، محمد شفيع الدين مجلة دراسات الجامعة الإسلامية شيتاغونغ، بنغلادش، مج 4، ديسمبر 2007م.
- المستشرقون، نجيب عقيقي، دار المعارف، القاهرة، 1964م.
- المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات: إنجليزي-عربي-فرنسي-عربي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، الدار البيضاء 2002م
- أنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب والوثائق القومية، ط2، 1426هـ/2005م 258/2.
- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1 1996م.
- تسمية مشاهد جبل نفوسة، روني باسي، ترجمه: عبد الله زارو ومحمد أومادي منشورات مؤسسة تالالت الثقافية، 2004م.
- جهود المستشرقين الألمان في دراسة اللهجات العربية المحكية وتحديات العولمة ظافر يوسف، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج 83، ج 4.
- عن منهج العمل في الأطالس اللغوية، سعد مصلوح، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، ع 5، 1976م، ص 107.
- في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، المكتبة الأنجلو مصريّة، 1965م.
- في علم اللغة العام، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، القاهرة، 1980م.
- نحو أطلس لغويّ جغرافيّ للجزيرة العربية، عبد العزيز بن حميد بن محمد الحميد مؤتمر اللغة العربية وتحديات العصر، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، جمادى الأولى 1433هـ/مارس 2012م.
- Le berbère et sa langue, Henri Basset, Belles Lettres, Imprimerie Hasnaoui, Alger, 2011.
- Le Djurjura à travers l'histoire, Si Amar Boulifa, Alger, J. Bringau, 1925.
- Manuel de langue Kabyle (dialecte Zouaoua), René Basset, maisonneuve & Ch. Leclerc, éditeurs, Paris, 1887, p5.

الهوامش

- ¹ - انظر: في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، المكتبة الأنجلو المصرية، 1965م، ص 17، 18.
- ² - في علم اللغة العام، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، القاهرة، 1980م، ص 225.
- ³ - المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات: إنجليزي-عربي-فرنسي-عربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، الدار البيضاء، 2002م، ص 62. وانظر: اللسانيات الجغرافية وأثرها في توجيه دلالة الكلمات القرآنية، الجودي مرداسي، مجلة الآثار، ع 22، جوان 2015م، ص 26.
- ⁴ - انظر: نحو أطلس لغويّ جغرافيّ للجزيرة العربية، عبد العزيز بن حميد بن محمد الحميد، ص 235.
- ⁵ - نذكر دراسة أحمد عبد الله عبد ربّه ياغي؛ رسالة دكتوراه: (الملاحظات اللغوية للجغرافيين العرب: دراسة في ضوء علم اللغة) بإشراف: حلمي خليل، في جامعة الإسكندرية سنة 1412هـ/1991م، وإبراهيم محمد الخطابي ببحث عنوانه: (الأسس النظرية والمنهجية لأطلس لسان المجتمع العربي).
- ⁶ - انظر: نحو أطلس لغويّ جغرافيّ للجزيرة العربية، عبد العزيز بن حميد بن محمد الحميد، ص 249، 250.
- ⁷ - انظر: نحو أطلس لغويّ جغرافيّ للجزيرة العربية، عبد العزيز بن حميد بن محمد الحميد، ص 252 وما بعدها.
- ⁸ - نحو أطلس لغويّ لألفاظ الأعشاب الطيبة في منطقة تلمسان -قراءة تحليلية-، جمال الدين بابا، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، الجزائر، ع12، 2016م، ص 455 وما بعدها.
- ⁹ - انظر: الاستشراق الفرنسي في الجزائر وجهوده في دراسة ونشر التراث الجزائري، رزيقة يحيوي، إشراف محمد حجازي، بحث ماجستير في تخصص تحقيق النصوص ونشرها، كلية الآداب واللغات، جامعة باتنة، سنة 1435هـ/1436هـ-2014م/2015م، ص 47 وما بعدها.
- ¹⁰ - المستشرقون، نجيب عقيقي، 141/1.

- 11 - انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، 95/6.
- 12 - انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، 100/6، 101.
- 13 - انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، 14/2.
- 14 - انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، 19/8.
- 15 - انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 42/6.
- 16 - انظر: الدراسات العربية في الجزائر، إسماعيل العربي، ص 12.
- 17 - انظر: الدراسات العربية في الجزائر، إسماعيل العربي، ص 13، 14.
- 18 - انظر: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1996م، 34/1.
- 19 - انظر: المستشرقون، نجيب عقيقي، 186/1.
- 20 - انظر: الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق، محمد العربي معريش، ص 272.
- 21 - انظر: المستشرقون، نجيب عقيقي، 200/1، والدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، إسماعيل العربي، ص 37، 38.
- 22 - انظر: نفسه، 180/1.
- 23 - انظر: نفسه، 253/1.
- 24 - انظر: نفسه، 202/1، والدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، ص 49.
- 25 - انظر: نفسه، 349/1، ومعجم أسماء المستشرقين، يحيى مراد، ص 131.
- 26 - انظر: نفسه، 139/1.
- 27 - انظر: نفسه، 293-295/1.

28 - انظر: الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر، إعداد: شايب الدور امحمد، إشراف: محمد بن سعيد، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2009م/2010م، ص 56 وما بعدها.

29 - انظر: الاستشراق الفرنسي وجهوده في دراسة ونشر التراث الجزائري، إعداد: رزيقة يحيياوي إشراف: محمد حجازي، بحث ماجستير جامعة باتنة، السنة الجامعية: 2014م/2015م، ص 85 وما بعدها.

30 - انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 316/8.

31 - انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 26/8.

32 - انظر: : الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر، إعداد: شايب الدور امحمد، ص 150.

33 - مرسية وليم المصدر: موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بديوي، 1992م.
(<http://archive.is/cO5W>).

34 - Manuel de langue Kabyle (dialecte Zouaoua), René Basset, maisonneuve & Ch. Leclerc, éditeurs, Paris, 1887, p5.

35 - انظر: تسمية مشاهد جبل نفوسة، روني باسي، ترجمه: عبد الله زارو ومحمد أومادي منشورات مؤسسة تالوت الثقافية، 2004م، ص 7.

تقرير الورشة العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين
انعقدت أشغال الورشة العلمية من فعاليات اليوم الدراسي الموسوم "باليوم
العالمي للتنوع الثقافي من أجل الحوار والتنمية 21 مايو" بالمكتبة الوطنية الحامة
من الساعة العاشرة والنصف صباحاً إلى الواحدة والنصف زوالاً بتاريخ السابع
عشر يونيو 2019 برئاسة الأستاذ عبد الله رويضة والمقررة روابح أمال.

تشكلت الورشة من الأساتذة الآتية أسماؤهم:

_ أ. فتحي بوقفطان؛

_ أ. عبد الناصر بوعلي؛

_ أ. فايزة مجاهدي؛

_ أ. عبد القادر سرير عبد الله؛

_ د. يوسف بن نافلة؛

_ د. عابدة قرسييف؛

_ أ. إيمان بلحداد؛

_ أ. يوسف باعمارة؛

_ د. أحلام سعدي؛

_ أ. لامية قداش؛

_ د. بوفلاقة محمد سيف الإسلام؛

_ أ. أحمد أمعيز؛

أ. درقاوي كلثوم.

انطلقت الورشة بكلمة ترحيبية تمهيدية للأساتذة الأفاضل ليتم بعدها مناقشة مواضيع متنوعة تنوع الثقافة اللامتناهي مثل:

*التنوع الثقافي بين هاجس الاستيلاء وأمل الاستيعاب.

*واقع وآفاق التعدد اللغوي وأثره في التنمية التعليمية والثقافية بالجزائر.

*التنوع اللغوي وإسهامه في الثراء الثقافي للمجتمع الجزائري _ولاية غرداية
أنموذجا_

*قيم التسامح في الثقافة الإسلامية وأهمية اللغات في إثراء التنوع الحضاري
نماذج من التبادل اللغوي والحوار الحضاري في الأندلس

واشكالية التواصل بين المتعلمين في ظل التنوع اللغوي والثقافي.

_وفي إطار هذه الورشة العلمية توصل الأساتذة الى مجموعة من التوصيات
نلخصها لكم فيمايلي:

1- ضرورة استثمار التنوع اللغوي بالجزائر في التنمية التعليمية والثقافية
وتحسينها.

2- نشر المؤلفات التراثية التي تتوافق مع مقتضيات الحداثة

3- ضرورة العناية بالشخص المثقف المتمسك بالأصالة مع عدم انغلاقه على
التراث بل لابد من الاطلاع على العلوم الأخرى والالتحاق برتب الدول المتقدمة
لأن الإسلام يحثنا أن نكون في المقدمة

4- استثمار أبعاد التنوع الثقافي الأيديولوجية والسياسية والاقتصادية بالمنظور
الإيجابي الذي يفضي الى تحقيق السلام بين الافراد والمجتمعات دون الانسلاخ عن
القيم الذاتية وتقبل ثقافة الغير اللغوية والدينية والمجتمعية.

5- التسليم بفكرة الاختلافات الثقافية بين المجتمعات ومحاولة التصدي للمشاكل التي تعترض افرادها اثناء التواصل وتبني ثقافة العمل الجماعي بإدماج الثقافة المشتركة.

*وفي الأخير أشاد الحضور بالدور الفعال للثقافة في بناء مجتمع ليقترحوا بعدها ترقية اليوم الدراسي الى ملتقى وطني لما لا مغاربي بالإضافة الى توزيع اعمال هذا اليوم الدراسي على المؤسسات الثقافية عبر التراب الوطني.

تم إخراج وطبع ب :

EL INMA الإنماء

للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الحضرية قطعة 1 - عين النعجة رقم 1 جسر قسنطينة - الجزائر
ها : 07.71.52.50.50 / 05.50.54.83.07

البريد الإلكتروني: inma.book@yahoo.com

تحدي الرقمنة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

المجلس الأعلى للغة العربية



اليوم العالمي للتنوع الثقافي من أجل الحوار والتنمية

اليوم العالمي للتنوع الثقافي
من أجل الحوار والتنمية



أعمال اليوم الدراسي
17 جوان 2019 (المكتبة الوطنية - الحامة)



مشورات المجلس
2019

أعمال اليوم الدراسي

